تاريخ العرب

من بداية الحروب الصليبية
إلى نهاية الدولة العثمانية

عيسى الحسن

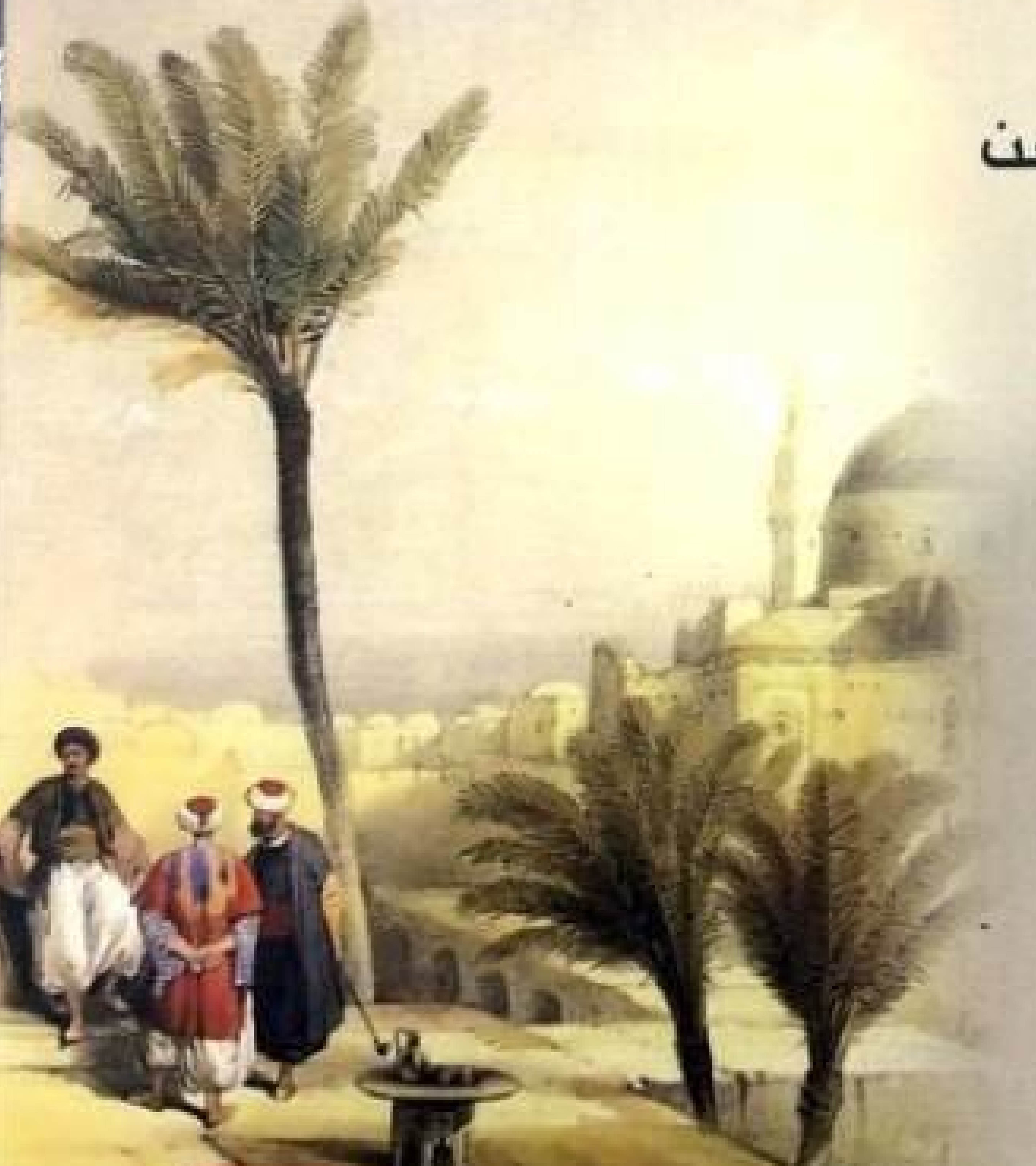

الأهلية

تاريخ العرب

من بداية الحروب الصليبية
إلى نهاية الدولة العثمانية

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، بجانب مطعم القدس
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط
بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

تاريخ العرب

من بداية الحروب الصليبية
إلى نهاية الدولة العثمانية

إعداد: عيسى الحسن

الطبعة الأولى ، 2008
حقوق الطبع محفوظة

◆

الغلاف : علي الحسيني 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن

الصف الضوئي : إيمان زكريا - 079/5349156

All rights reserved. *No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطيّ مسبق من الناشر

تاريخ العرب

من بداية الحروب الصليبية
إلى نهاية الدولة العثمانية

عيسى الحسن

الأهلية

مقدمة

يعد مصطلح الحروب الصليبية نتاج عدد من التطورات التاريخية، والمفارقات الغريبة المدهشة في التاريخ الأوروبي وفي التاريخ العربي على حد سواء. فلقد بدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية في السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة 1095م بالخطبة التي ألقاها البابا أربان الثاني (1088-1099م) في حشود المستمعين الذين اجتمعوا في حقل فسيح في أوفريني بكليرمون في جنوب فرنسا. وكانت هذه الخطبة الشهيرة خاتمة مجمع ديني عقده البابا، بعد أن جمع الأساقفة لمناقشة أحوال الكنيسة الكاثوليكية المتردية. ويرى كثير من الباحثين أن الدعوة التي وجهها البابا بشن حملة تحت راية الصليب ضد المسلمين في فلسطين كانت بمثابة أذن للدخول إلى رحاب التاريخ. إذ منذ ذلك الحين كانت الحركة الصليبية، ولا تزال، مثار جدل ونقاش، وموضعا للبحث والدراسة، وربما إلهاما أيضا للفن والأدب. ولعل من النادر أن نجد في تاريخ الإنسانية ظاهرة كان نصيبها من الخيال من جهة والدراسة من جهة أخرى أكثر مما كان للحركة الصليبية.

لقد ظلت الحركة الصليبية تحكم الأفكار والمشاعر في الغرب الأوروبي فيما بين سنة 1095م وسنة 1400م بصورة شبه شاملة، ولذا فإنها تعد واحدة من القوى الكبرى التي حركت تاريخ الغرب الأوروبي، بحيث لا نكاد نجد كاتبا معاصرا لم يشر في كتاباته إلى إحدى الحملات الصليبية، أو إلى مصير الدويلات التي قامت أثناءها فوق الأرض العربية، كما ظلت للحروب الصليبية جاذبيتها في أوروبا الغربية حتى القرن الثامن عشر.

لقد كانت الحروب الصليبية تشكل جزءا حيا وحيويا من عالم خمسة عشر جيلا من أبناء الغرب الأوروبي؛ إذ أن مئات الألوف منهم قد شاركوا بأنفسهم في حملة أو أكثر من هذه الحملات، كما أن آلافا عديدة من أبناء الغرب الأوروبي ساهموا بأموالهم في تمويل حملة أو أكثر من هذه الحملات. ومن ناحية أخرى، كانت أحداث الحروب الصليبية تشغل بال الكثيرين ممن لم يشاركوا بالنفس أو بالمال.

أما العالم العربي فقد كان الطرف الذي وجهت إليه أوروبا الكاثوليكية عدوانها تحت راية الصليب. وعلى مدى الفترة ما بين أواخر سنة 1096م، وسنة 1291م قامت عدة مستوطنات صليبية على التراب العربي في فلسطين وأعالي بلاد الشام والجزيرة. وتعين على سكان هذه المنطقة العربية أن يدفعوا ثمنا فادحا لكي يقضوا على الكيان الصليبي من جهة، ويتصدوا للمشروعات والغارات الصليبية المتأخرة من جهة أخرى.

لقد كانت «الحروب الصليبية» أو «حروب الفرنج» كما سماها العرب الذين عاصروها، سببا رئيسيا من أسباب تعطل قوى الإبداع والنمو في الحضارة العربية الإسلامية. وبعد نهاية النضال ضد الصليبيين دخلت المنطقة العربية في منحنى التدهور والأفول الذي أدى بدورة إلى سقوط العالم العربي تحت سيادة الدولة العثمانية.

وإذا كان العثمانيون قد حافظوا على العالم العربي من السقوط في براثن السيطرة الاستعمارية على مدى عدة قرون، فإنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا لبث الروح في جسد الحضارة العربية الإسلامية المسجى، بل إنهم لم يحاولوا أن يبثوا مثل هذه الروح. ثم انتهى هذا التوقف الحضاري إلى نهايته المحتومة التي أدت إلى حال الاستعمار والتبعية التي لا نزال نعانيها حتى اليوم. إذ أن أحدا لا يمكن أن يتجاهل علاقة ما جرى منذ عدة قرون بما يحكم اليوم علاقتنا بالغرب الأوروبي والأمريكي، كما أن أحدا لا يستطيع أن يغض النظر عن حقيقة أن الحملات الصليبية ضد الشرق العربي كانت أول المشروعات الاستعمارية الأوروبية من ناحية، وأنها كانت السابقة أو التجربة التي سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية؛ فضلا عن أنها كانت إلهاما للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من جهة ثالثة، وهذا ما يجعل الحركة الصليبية جديرة بالدراسة والتأمل.

عيسى الحسن

القسم الأول

الحروب الصليبية

الفصل الأول

الحروب الصليبية في المنظور التاريخي

تتمثل أولى مشكلات البحث في تاريخ «الحركة الصليبية» في المصطلح ومدلولاته المختلفة التي تؤدي بالضرورة إلى حال من الفوضى والارتباك، لاسيما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضا بين دلالته اللغوية، وحقيقته التاريخية. فالناظر في مجريات وقائع هذه الحروب يجد مزيجا من القسوة والوحشية من جهة والتدين العاطفي الذي يشوبه التعصب من جهة أخرى، ويكتشف في ذلك كله تناقضا مع الصليب، رمز الفداء والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين، إذ لم يكن الصليب أبدا رمزا للحرب والقتل والعدوان.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الرجال الذين قاموا بالحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح «الحملة الصليبية» أو «الصليبيين» إذ لم يحدث سوى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي أن ظهرت الكلمة اللاتينية (Crusesignati) ومعناها «الموسوم بالصليب» لكي تعبر عن الصليبيين، لأنهم كانوا يخيطون صلبان القماش على ستراتهم. ولم يحدد حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي إن كانت هناك كلمة لاتينية تعني «الحركة الصليبية».

وفي بداية الأمر كان من يشاركون في الحملة الصليبية يوصفون بأنهم حجاج، وغالبا ما استعملت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة «رحلة الحج» التي كانت شائعة تماما في الفترة المبكرة من تاريخ الحركة الصليبية، كذلك استعملت كلمة «الحملة» و«الرحلة إلى الأرض المقدسة» و«الحرب المقدسة» وغيرها. وفي وسعنا أن نسوق عشرات الأمثلة المستقاة من كتابات المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية، ولا سيما في أطوارها الأولى. بل إنه مما يلفت النظر حقا أن عناوين مؤلفاتهم جميعا خلت

من ذكر كلمة «الصليبيين» أو «الحملة الصليبية» وإنما دارت حول «الحملة» و«حجاج بيت المقدس» و«الفرنج»... وما إلى ذلك.

ومن المهم أن نشير إلى أن الكلمة الإنجليزية (Crusade) والكلمة الألمانية (Kreuzzag) قد ابتكرت في القرن الثامن عشر فقط، وبعد أن كان البحث التاريخي في الحروب الصليبية قد مضى شوطا منذ بدأ توماس فوللر الانجليزي في القرن السابع عشر أول دراسة باللغة الانجليزية حول الحركة الصليبية في كتابه باللغة الإنجليزية القديمة واسمه (Histories of the Holy Ware) والملاحظ أنه أستخدم عبارة «الحرب المقدسة» أيضا.

وعلى الرغم من الفشل النهائي الذي منيت به الحركة الصليبية إلا أن المثال الصليبي تحول بمرور الوقت - تحت تأثير وسائل الأعلام التي عملت في خدمة الأهداف الاستعمارية الأوروبية - إلى مثال براق يوحي بالشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل المثل الأعلى. واستقر في الوجدان الشعبي الأوروبي (والأمريكي لاحقا) أن «الحملة الصليبية» لا بد من أن تكون بالضرورة حملة خيرة، نبيلة القصد والهدف، منزهة الغرض مثل: رعاية المرضى، أو مساعدة المنكوبين، أو جمع التبرعات وما إلى ذلك، وربما يكون الموروث الشعبي المتداول حولها في «أغنيات الحروب الصليبية» التي راجت في ذلك العصر، واستمرت موجودة بعد ذلك تحكي قصة الحروب الصليبية شعرا وغناء للجماهير الأوروبية الجاهلة، باعتبار ذلك بديلا من كتب التاريخ التي سجلت قصة الحروب الصليبية، نقول: إن هذا الموروث الشعبي الذي حملته الأغنيات الشعبية عن الحروب الصليبية ربما كان وراء هذه الصورة الأخاذة التي ترتسم في أذهان عامة الناس في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية حين ترن في أذانهم عبارة (الحروب الصليبية).

فقد تخلت الأغنيات - الحكايات - عن الحقيقة التاريخية لصالح التعويض النفسي والتعبير الشعبي لتلك الظاهرة التي كانت تمثل في حينها حلما من أحلام الفقراء.

ولعل هذا ما جعل مؤرخا مثل نورمان كانتور يقرر أن الحادث الوحيد الذي يعرفه الخريج العادي من الجامعات الأمريكية في العصور الوسطى هو الحملة الصليبية الأولى التي بدأت أحداثها سنة 1095م، والتي يرسم لها في ذهنه صورة براقة أخاذة. وهذا الموقف ينسحب على الفرد العادي أيضا في الغرب، بل إننا كثيرا ما نرى قادة الرأي والساسة الغربيين يستخدمون مصطلح «الحملة الصليبية» بهذا المفهوم «النبيل والعادل».

بيد أن المؤرخين الماركسيين في الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية «السابقة» لا يشاطرون أبناء الغرب الأوروبي هذا الموقف من «الحروب الصليبية»، فقد عانت بلاد البلقان من وحشية الصليبيين على نحو ما سنوضح في حديثنا عن الحملة الشعبية والحملة الأولى، كما راحت الإمبراطورية البيزنطية وأملاكها ضحية الحملة الصليبية الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، وظلت هذه المناطق تئن تحت وطأة الصليبيين أكثر من نصف قرن من الزمان.

ومن ناحية أخرى كانت ماركس وإنجلز ولينين يرون – ولهم الحق في ذلك – أن «الحملات الصليبية» كانت مشروعات استعمارية استيطانية تهدف إلى استعباد الشعوب تحت راية الصليب. وقد جسد لينين هذه النظرية حين اعتبر الإجراءات التي اتخذت عشية الحرب العالمية في ايرلندا ضد العمال «حملة صليبية» ضد العمال وحقوقهم. وقد درج الماركسيون على تضمين مصطلح «الصليبية» معنى مجازيا سلبيا في كل كتاباتهم.

وفي الأدبيات العربية التي تناولت تاريخ الحركة الصليبية نجد مفارقة مدهشة. فعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين الذين عاصروا الهجوم الصليبي على المنطقة العربية وكتبوا عنه مثل ابن القلانسي، وابن الأثير، وابن واصل، وابن شداد، والعماد الأصفهاني، والمقريزي، والقلقشندي، وابن تغري بردي، وبدر الدين العيني وغيرهم، لم يستخدموا أبدا مصطلحات مثل «الصليبيين» أو «الحملة الصليبية» أو «الحرب الصليبية» وإنما تكلموا عن الصليبيين بعبارات مثل «حركة الفرنج»، كما وصفوهم على الدوام بكلمة الفرنج على الرغم من أن كثيرين من أولئك المؤرخين المسلمين كانوا يفرقون بين الألمان والإنجليز وغيرهم من شعوب أوربا الغربية.

والواقع أن المؤرخين المسلمين الأوائل، مثل ابن القلانسي وابن الأثير، لم يدركوا أبعاد الحركة الصليبية، لأنهم لم يروا فيها غير إفرازاتها العسكرية والسياسية الباكرة على أرض الشرق العربي، إلا أن الجيل التالي من المؤرخين المسلمين تحدثوا عن هذه الحركة بطريقة تدل على فهم واضح وأشمل. ولعل هذا هو ما جعلهم لا يربطون بين «حركة الفرنج» والمسيحية والصليب على أي نحو. وربما يكون مؤرخو القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هم آخر من تناول «حركة الفرنج» بشكل أو بآخر، لا سيما وأن الكيان الصليبي كان قد انتهى في العقد الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

ولقد توقف البحث التاريخي في العالم العربي فترة طويلة بفعل التخلف والركود الثقافي اللذين أحاطا بكافة جوانب الحياة العربية حتى القرن التاسع عشر على أقل تقدير. وعندما بدأت من جديد محاولات النهوض الثقافي والفكري كان لابد للرواد من أن يتأثروا برقي الفكر والثقافة والعلم في أوربا. ولم تنج الدراسة التاريخية من تأثير الانبهار الذي جعل الكثير ممن تصدوا لكتابة التاريخ أتباعا لهذه المدرسة الأوربية أو تلك.

وفي خضم هذا الانبهار أيضا تمت ترجمة بعض المصطلحات، واستعيرت تقسيمات التاريخ الأوربية، كما سادت الرؤية الاستشراقية..الخ. بيد أن هذا الأمر لا يهمنا في هذا المقام سوى من حيث تأثيره في معالجة المؤرخين العرب لقصة الحروب الصليبية، إذ وقع أولئك الكتاب في شباك الترجمة عن الأوربيين، وبدأوا يستخدمون مصطلح «صليبي» و«حملة صليبية» و«حروب صليبية» في تناولهم للظاهرة التي درج أسلافهم على معالجتها تحت مصطلحات «الفرنج» و«حركة الفرنج». ووجه الخطورة في هذا المصطلح أنه يوحي - عند استخدامه في اللغة العربية - بأن الحركة كانت حركة دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية، ولا تضعها في إطارها الصحيح باعتبارها مغامرة استعمارية استيطانية متعصبة. ومن ناحية أخرى، فإن استخدام هذا المصطلح يظلم المسيحيين الشرقيين الذين عانى قسم كبير منهم من وحشية الفرنج وعدوانهم.

وعلى الرغم من هذا كله فإننا لا نستطيع بسهولة التغاضي عن هذا المصطلح الذي رسخ في الدراسات التاريخية العربية، وأصبح له مدلول تاريخي لدى المتخصصين، لسبب بسيط هو أنه لم تجر حتى الآن مناقشة جماعية لتحديد ماهية «الحركة الصليبية» من وجهة النظر العربية. ولا يزال المصطلح غامضا بالنسبة لعامة المثقفين في العالم العربي، بحيث يستدعي إلى الذهن بعض الأحداث أو الشخصيات البطولية التي ارتبطت بهذه الأحداث وحسب.

وسوف نحاول هنا تحديد الخطوط العامة لماهية «الحركة الصليبية» من خلال مناقشة الجذور التاريخية للفكرة الصليبية، وتتبع تطورها التاريخي في العقلية والوجدان الأوربي بسماته الثقافية المعروفة في العصور الوسطى.

لقد كانت الأفكار التي تدور حول نهاية العالم بعد الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب، والأفكار التي تتعلق بالعالم الآخر، أحد ينابيع الفكرة الصليبية. فقد شاعت في أوربا الغربية قبل نهاية القرن العاشر الميلادي وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي أفكار وحكايات وقصص وأساطير تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال

الألف الأولى بعد المسيح (حوالي سنة 1033 ميلادية). وقد ظهرت في عدة أماكن في أوربا الغربية بعض الظواهر الفلكية والطبيعية التي اعتبرها الناس دليلا على اقتراب نهاية العالم. فقد حدثنا «رالف جلابير» الراهب الفرنسي عن ثورة بركان فيزوف في ايطاليا باعتبارها نذيرا باقتراب القيامة، وبأن زمن هلاك وشيكا يتهدد أرواح البشر، كما تحدث عن مجاعة رهيبة استمرت خمس سنوات في شتى أنحاء العالم الروماني، بحيث لم ينج إقليم واحد من مجاعة نقص الخبز، ومات كثيرون بسبب الجوع. وقال إن الأوربيين اضطروا إلى أكل الحيوانات والزواحف القذرة، كما أكلوا لحوم البشر. كما تداول الناس في غرب أوربا كثيرا من القصص والحكايات المشابهة وفسروها التفسير نفسه.

لقد كان مفهوم الأوربيين آنذاك مثقلا بالعناصر الغيبية، إذ كانت العقيدة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية لا تزال بعيدة عن تحديد إطارها بشكل متكامل، ولم يكن الأساقفة والقساوسة، غالبا، يصلحون لوظائفهم، سواء من حيث مستواهم الفكري، أو من حيث سلوكهم وأخلاقهم، كما أن الغرب الأوربي ظل حتى ذلك الحين ريفي الطابع، وكان الدين بالنسبة لسكانه (وهم أغلبية سكان أوربا آنذاك) مزيجا من الخرافة، وطقوس عبادة الطبيعة، وبعض تعاليم المسيحية.

وفي ظل هذا الجو النفسي والفكري الذي ساد أوربا الكاثوليكية في القرن الحادي عشر الميلادي، كان طبيعيا أن ترد الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية من ناحية، وأن يتم ربطها باقتراب نهاية العالم والأفكار الألفية والأخروية من جهة أخرى. فقد كثر الحديث عن السماء التي تمطر نجوما هنا أو هناك، وراجت حكايات عن الأنوار الشمالية المبهرة، والشهب الملتهبة في السماء، كما شاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأربع أيد أو مثلها من الأرجل، وقصص عن أطفال تكلموا عقب ولادتهم. وتناقل القرويون وغيرهم حكايات عن مدينة القدس وهي تتجلى في السماء متلألئة أمام عيون الرعاة المبهورين، وذلك القس الذي رأى سيفا معلقا في السماء تحمله الريح، والقس الآخر الذي رأى في صفحة السماء، وفي وضح النهار، معركة بين فارسين ينتصر أحدهما على الآخر بعد أن يضربه بسيف كبير.. وحكايات كثيرة صدقها البسطاء، وحاول المتعلمون أن يفسروها في ضوء ما اعتبروه علامة على قرب نهاية العالم.

لقد كان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك المشاعر الألفية والأخروية تواقين لضمان الخلاص. وقد تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى

بيت المقدس، وقد انعكس ذلك في زيادة عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب أوربا صوب القدس في السنوات القليلة التي سبقت وتلت الألف الأولى بعد ميلاد المسيح. ولا يمكن لمن يقرأ أدبيات القرن الحادي عشر الميلادي أن يخطئ تلك النغمة الألفية والأخروية التي كانت بمثابة الإيقاع الدال في الفكر والمشاعر السائدة آنذاك.

ومما يلفت النظر حقا أن هذه الرؤى والأحلام المقدسة والأخبار الإعجازية قد تضاءلت أخبارها بعد أن دارت عجلة الحروب الصليبية بالفعل، إذ شاعت تلك الأخبار والحكايات قبل رحيل الحملة الصليبية الأولى وأثناءها. وطالما كانت الظروف والأحوال مواتية للصليبيين لا نجد في مؤرخات اللاتين الذين كانوا ضمن شهود الحملة إلا القليل من هذه الأخبار. فإذا تأزمت الأمور وضاقت السبل بالصليبيين ظهرت أخبار المعجزات والخوارق والأحلام الدينية في الوقت المناسب، على نحو ما حدث أثناء حصار إنطاكية المزدوج سنة 1098م. ومن المثير حقا أن من تنسب إليهم تلك الأحلام الدينية والرؤى المقدسة كانوا دائما من الفقراء. وفيما بين سنة 1096م وسنة 1098م لا نجد في المصادر اللاتينية سوى أخبار قليلة عن هذه الرؤى والأحلام.

بيد أن النظرة الأخروية صاحبت الحملة الصليبية منذ بدايتها، لا سيما عندما كان الفقراء يتصورون أنهم المقصودون بهذه الدعوة. فقد تبلورت فيهم الأفكار الألفية والأخروية، فساروا صوب القدس دون انتظار الأمراء وفرسانهم الذين كانت تعوزهم فسحة من الوقت لتمويل الحملة. وكانت أخبار الإشارات المقدسة مثل: هجوم الجراد بشكل وبائي، والنجوم التي أمطرتها السماء، وغيرها من الأخبار التي تداولها الناس آنذاك، ترتبط بما جاء في سفر الرؤيا، وكانت تدور على ألسنة البسطاء والمتعلمين في غرب أوربا الكاثوليكية باعتبارها حقائق.

ويخبرنا «بلدريك الدوللي» أن هذا الجو الذي ارتبط بسفر الرؤيا لم يكن نتيجة الدعوة الرسمية التي وجهتها البابوية إلى الفرسان الإقطاعيين للمشاركة في الحملة الصليبية، وإنما كان نتيجة استجابة الفقراء السريعة التي نجمت عن معاناتهم بسبب تدهور المحاصيل في السنوات القليلة التي سبقت خطبة البابا أربان الثاني. إذ كان من السهل عليهم أن يرحلوا عن بلادهم بحثا عن خلاصين: دنيوي وأخروي، وبحثا عن سبيل يوصلهم إلى مستقبل أفضل، وهو مستقبل حمّلته الجموع الجاهلة بأحلام أخروية

غامضة. ولاشك في أن أغلبية أولئك الفقراء كانوا يؤمنون بأنهم المختارون، ولأنهم كانوا يؤمنون بهذا، لم يترددوا في الضغط على قادة الحملة الصليبية الأولى.

ومن ناحية أخرى فإن زعماء مثل ريمون دي سانجيل قد استثمروا هذه المشاعر الألفية والأخروية التي سادت بين عامة الصليبيين لحسابهم، على نحو ما فعل هذا الأمير الصليبي في قصة اكتشاف «الحربة المقدسة».

بيد أنه ينبغي علينا أن لا نبالغ في قيمة الأفكار الألفية والأخروية. ويأتينا الدليل من الحوليات والمؤرخات اللاتينية التي ساهم كتابها أنفسهم في صياغة الأيديولوجية الصليبية، فقد كتب أولئك المؤرخون جميعا بعد نهاية أحداث الحملة الصليبية الأولى ونجاحها، وهو ما يعني أنهم كانوا يتوخون أن يصوغوا نموذجا مثاليا يكون عامل جذب دائم في حالة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة على غرار الحملة الأولى، ولم يكن الذين ساهموا في الحملة الصليبية الأولى يعرفون أنها «الأولى»، أي ستتبعها حملات أخرى، إذ لم يكونوا واثقين من نجاحها بحيث تتبعها حملات أخرى. ولكنها عندما نجحت أخذ المؤرخون يكتبون قصتها بعد توقف الأحداث، فصاغوا نموذجا مثاليا لها.

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار والتوقعات التي دارت حول اكتمال الألف الأولى في التقويم المسيحي، وما أفرزته من أخبار المعجزات والخوارق والأحلام المقدسة كانت من روافد الأيديولوجية التي صاغت الحملة الصليبية إلا أنها في النهاية لم تكن عامل الحسم في الوصول إلى صيغة الحملة الصليبية، وإنما كان الفضل في ذلك راجعا إلى تسليح الحج المسيحي من ناحية، وفكرة المكافأة التي ينالها الصليبي من ناحية أخرى. وقد تمثلت هذه المكافأة في مفهوم الغفران الصليبي الذي تطور ليصل إلى صكوك الغفران التي ثار ضدها مارتن لوثر بعد قرون قليلة.

والحج المسيحي إلى بيت المقدس وفلسطين ممارسة دينية مسيحية نمت نموا شبه عضوي منذ بداية الوجود التاريخي للمسيحية. فعلى الرغم من أن الحج ليس فريضة دينية على المسيحية، مثلما هو الحال في الإسلام، إلا أن الجذب العاطفي نحو الأرض التي شهدت قصة المسيح، ومولد المسيحية، ظل يشد الناس من أتباع هذا الدين بشكل متصاعد مع مرور الزمن.

ففي أيام المسيحية الأولى كانت رحلات الحج المسيحية إلى فلسطين نادرة، إذ إن السلطات الرومانية لم تكن تشجع الحج إلى هناك. فقد كانت القدس نفسها قد دمرت على

يد القائد الروماني تيتوس منذ حوادث سنة 70م، وبقيت أطلالا تنعي من بناها حتى أعاد الإمبراطور الروماني هارديان بناءها وأقام بها معبدا للربة فينوس. وما إن جاء القرن الثالث بعد الميلاد حتى كان الكهف الذي شهد مولد المسيح في «بيت لحم» قد صار معروفا للمسيحيين. وبدأ المسيحيون بزيارة الأماكن المقدسة من أجل الصلاة ونيل البركة. ثم زادت حركة الحج المسيحية إلى فلسطين بعد انتصار المسيحية بعد أن اعترف بها الإمبراطور قسطنطين الكبير وشريكه ليكينيوس سنة 313م. ثم رحلت الإمبراطورة هيلينا، أم قسطنطين إلى فلسطين حيث قيل إنها اكتشفت خشبة الصليب الأعظم، وبنى قسطنطين كنيسة الضريح المقدس. ونتيجة لهذا تزايدت رحلات الحج، ففي سنة 333م قام رجل من بوردو في فرنسا برحلة حج إلى فلسطين وسجل لنا وصفا لهذه الرحلة. وبعد ذلك بوقت غير طويل، قامت امرأة نبيلة من بلاد الغال (فرنسا) بزيارة الأرض المقدسة. وقرب نهاية القرن الرابع الميلادي سافر واحد من كبار آباء الكنيسة الكاثوليكية هو القديس جيروم إلى فلسطين، وهناك لحقت به مجموعة من سيدات إيطاليا الموسرات ممن كن من أتباعه في إيطاليا. وفي صومعته ببيت لحم كان يستقبل أعدادا متزايدة من المسيحيين الذين جاءوا يسدون إليه واجب الاحترام بعد زيارتهم للأماكن المسيحية المقدسة.

هكذا كان المسيحيون، منذ وقت مبكر، يزورون القدس وفلسطين لأنهم يريدون أن «يقتفوا آثار خطوات المسيح وحوارييه، وخطوات الأنبياء» ويقول القديس باولينوس إن سبب الحج إلى فلسطين كان «الرغبة في رؤية الأماكن التي تجسد فيها المسيح ولمسها، وديننا يحفزنا على رؤية الأماكن التي جاء المسيح إليها».

لقد كان المسيحيون يحجون إلى الأراضي المقدسة لاستعادة أفضل ذكريات العهد القديم والعهد الجديد، إذ كانوا يحجون إلى القدس وإلى طريق الأنبياء في بداية الأمر. ثم ما لبث الحجاج أن تحولوا إلى الضريح المقدس الذي صار محورا لحركة الحج المسيحي، وتخبرنا نصوص كثيرة كتبها حجاج أوروبيون قبل عصر الحروب الصليبية أن بعض الحجاج كانوا يحرصون على الأكل في كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه، كما كان بعضهم يستحمون في مياه نهر الأردن التي تم فيها تعميد المسيح.

وقد قامت الأديرة ونزل الضيافة باستقبال أعداد الحجاج المتزايدة. ولم يجف نهر الحجيج بين غرب أوربا وفلسطين أبدا، حتى بعد الفتح الإسلامي لهذه البلاد في القرن السابع الميلادي. ولأن الحج إلى بيت الله الحرام من الفروض الأساسية «لمن استطاع إليه

سبيلا» من المسلمين، فلهذا السبب تعاطف الحكام المسلمون تجاه رحلات المسيحيين الأوربيين الذين أرادوا الحج إلى القدس، وثمة وثيقة هامة تقوم دليلا على مدى تسامح المسلمين مع الحجاج الأوربيين كتبت حوالي سنة 808 ميلادية بها أسماء القساوسة والشمامسة والرهبان في كنائس القدس وأديرتها.

ومن ناحية أخرى لعبت تجارة «الذخائر المقدسة» دورا هاما في إثارة الاهتمام بالأرض المقدسة في الغرب الأوربي، و «الذخائر المقدسة» بالنسبة للمسيحيين هي رفات القديسين، وملابسهم، وأدواتهم الشخصية، وما إلى ذلك. وقد استقر في أذهان الناس في الغرب الأوربي آنذاك، بكل ما ميزه من تدين عاطفي مشوب بالخرافات والخزعبلات، أن الحاج الذي يجلب معه شيئا من هذه «الذخائر المقدسة» يكتسب مجدا ومكانة في عيون أهل بلده. فقد كانت تلك الأشياء توضع في الكنائس لكي تزينها. وبطبيعة الحال كانت هناك مواد كثيرة مزيفة في تلك التجارة التي راجت في الغرب الأوربي برواج الحج إلى فلسطين. وقد نسجت قصص خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة مما زاد في تأجيج الجو النفسي المشبع بالأفكار الألفية والأخروية منذ بداية القرن الحادي عشر، أو قبله بسنوات قليلة.

بيد أن التطور التاريخي في المفاهيم التي جعلت الحج وسيلة من وسائل التوبة والتكفير عن الذنب كان هو الأكثر أهمية من تطور حركة الحج نفسها. ومن المهم أن نلاحظ أنه بينما تضاءلت قيمة الأفكار الألفية والأخروية في تحريك الحملات الصليبية التالية كان «الغفران الصليبي» يزداد أهمية في تعبئة الناس في غرب أوربا لكي يشاركوا في الحرب ضد المسلمين.

ويجب النظر إلى «الغفران الصليبي» باعتباره تطورا لنظام الكنيسة الباكر للتكفير عن الذنوب التي يرتكبها الفرد الكاثوليكي. وقد قام هذا النظام على أساس من مراحل ثلاث: الاعتراف، والرضاء، والمصالحة (أي العودة إلى الجماعة المسيحية) وكانت رحلة الرضاء هي التي تمحو الخطيئة وتجعل المصالحة ممكنة. كما أن المبدأ الذي تم العمل به آنذاك كان يقضي بأن تكون التوبة، أو العمل الذي يكفر به الفرد الكاثوليكي عن ذنبه مساويا لهذا الذنب، ثم تطورت المفاهيم الكنسية حول هذا الموضوع بحيث صار على المذنب أن يقوم بأعمال قاسية تستغرق وقتا طويلا للتكفير عن ذنبه. وتم وضع قوائم بالأعمال التي يكفر بها المذنبون عن خطاياهم، وكان الحج إلى أحد المزارات المقدسة في

المسيحية واحدا من أهم هذه الأعمال التكفيرية. ولم تصبح فكرة الغفران فعالة حقا إلا بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس. وكانت الرحلة إلى القدس تحتل مكانة خاصة كما كانت لها قيمتها السامية بين رحلات الحج المسيحية الأخرى.

صحيح أن القدس كانت ذات جاذبية طاغية بالنسبة للحجاج المسيحيين بسبب ارتباطها بقصة المسيح وقصص العهد القديم، فضلا عن طول الرحلة وصعوبتها، ولكن رحلة الحج التكفيرية لم تكن قاصرة على القدس.

ويبدو أن أهم حافز للحج إلى القدس كان هو السعي إلى الكمال، وهو أمر يمكن السعي وراءه بالذهاب إلى الأماكن «التي شهدت أعمال الرب العظيمة وعبادته هناك» ومن ثم كان الحاج الكاثوليكي يتوقع أن يكرس نفسه للرب من جديد، وأن يبدأ حياة جديدة خالية من الذنوب والخطايا، كما كانت هذه الرحلة بداية لحياة النسك والزهد لكثير من الناس.

فقد تم هذا النمط من الحج التكفيري، أو «حج التوبة» ليكون عقوبة كنسية على الجرائم الكبرى بعد أن عجزت الكنيسة الكاثوليكية عن التصدي لتيار الحج العاطفي الذي ظل يجذب الناس في غرب أوربا صوب الأرض التي شهدت قصة المسيح. وكان الحج بقصد التكفير عن الذنوب والجرائم يوجه إلى جميع المراكز المسيحية الكبرى مثل: روما حيث قبر القديس بطرس، ومزار القديس ميخائيل في مونت جورجانو والقديس جون في كومبوستيلا في إسبانيا، والقدس، وبيت لحم في فلسطين.

وكانت رحلة التوبة التي يقوم بها الحاج تصل في بعض الأحيان إلى سبع سنوات كاملة، وأول مثال من هذا النوع حدثتنا عنه المصادر بوضوح كان في القرن التاسع الميلادي، إذ ارتكب ثلاثة أخوة من جنوب إيطاليا جريمة قتلوا فيها عمهم القسيس، وكان الحكم الذي فرضته الكنيسة عليهم، تكفيرا عن جريمتهم، أن يكبلوا أنفسهم بالسلاسل الحديدية، ويدوروا حول الأماكن المقدسة «في التراب والغبار حتى يحين الوقت الذي يقبل فيه الرب توبتهم». وكان القرن العاشر الميلادي بداية عصر الحج الكبير، بسبب رسوخ مفاهيم التوبة والغفران من ناحية، واستقرار الأوضاع في حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى، فضلا عن قيام العلاقات التجارية بين المدن التجارية الإيطالية والإمبراطورية البيزنطية ومصر والشام، وما فرضته من ضرورات السلام

والهدوء. وكان بوسع الحجاج الأوربيين أن ينتقلوا في أرجاء فلسطين بحرية، لأن السلطات الإسلامية (سواء من العباسيين أو الإخشيديين أو الفاطميين) كانت ترحب بهم.

وإذ أرست الكنيسة الكاثوليكية الاعتقاد بأن رحلات الحج هي طريق الخلاص تزايد إقبال الناس على المشاركة فيها منذ القرن العاشر الميلادي فصاعدا. وقد قام عدد من كبار القوم، رجالا ونساء، بعدة رحلات إلى الأراضي المقدسة على الرغم من صعوبة السفر، ووعورة الطرق وأخطارها آنذاك، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن الناس قد ربطوا بين الحج إلى الأرض المقدسة والأمل في الغفران.

ومن ناحية أخرى كانت للحج المسيحي بقصد التوبة قيمته العملية من الناحية الاجتماعية، إذ كان يرغم المجرمين وأصحاب الذنوب على الابتعاد عن المجتمع عدة شهور، أو عدة سنوات (قد تصل إلى سبع سنوات) فإذا نجوا من مخاطر الطريق وعادوا سالمين فإنهم لا بد من أن يحرصوا على وضعهم المتميز الذي حققته رحلة الحج وعلى شهرتهم الطيبة بالتقوى والصلاح. وقد ذهب رجال من أصحاب المزاج العنيف مثل «فولك نيرا الرهيب» إلى فلسطين سنة 1002م ، وزارها مرتين بعد ذلك تكفيرا عن ذنبه، كما زارها روبرت الشيطان كونت نورماندي بقصد التوبة.

لقد اضطرت الكنيسة الكاثوليكية إلى منح غفران جزئي لقاء رحلة الحج إلى القدس. وفي عز ازدهار الحركة الصليبية كانت الكنيسة تمنح غفرانا غير محدود للصليبيين «المقاتلين» في مقابل الغفران الجزئي الذي كانت تمنحه للحجاج غير المقاتلين.

ولم يكن من الممكن أن يتسع نطاق رحلات الحج التكفيرية سوى بوجود تسهيلات مناسبة في الطرق التي يسلكها الحجاج. وقد وفرت الأديرة الكلونية شبكة اتصالات واسعة، كما استخدمت قدرتها التنظيمية الفائقة في ترتيب التسهيلات للحجاج الذاهبين إلى فلسطين. وقد تبرع أثرياء التجار الإيطاليين والأوربيين والأغنياء بالإنفاق على دور الضيافة والمنازل التي كرست للحجاج القادمين من بلدان غرب أوربا. وفي كل عام كانت أوربا تشهد قدوم عدد من الرهبان المقيمين في القدس لجمع التبرعات من الأثرياء، لتوفير التمويل لهذه المنازل ودور الضيافة.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي كان قد استقر في ضمير الناس في غرب أوربا أن رحلة الحج تتويج لحياة المرء يتمنى المتدينون أن تكون هي الخاتمة المناسبة لرحلتهم في

الحياة الدنيا. وقد أمدنا رالف جلابير، الذي كان هو نفسه راهبا من الكلونيين، بنص يجسد هذه الرؤية، إذ يقول: في الوقت نفسه بدأت أعداد تفوق الحصر تتوجه إلى ضريح المخلص في القدس من شتى بقاع الدنيا، وبأعداد أكبر مما كان يتوقعه أي إنسان. ولم يكن الذاهبون من العامة وأبناء الطبقة الوسطى فقط، بل ذهب إلى هناك كثير من الملوك العظام والكونتات والنبلاء. وأخيرا - وهذا شيء لم يحدث قبل ذلك - انطلق بعض الفقراء وكان العديدون يتمنون الموت هناك، بدلا من العودة إلى الوطن.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي كثرت رحلات الحج التكفيرية من غرب أوربا إلى القدس، فقد كانت الكنيسة تفرض على المذنبين، ومن أضروا بمصالح الكنيسة، ومن ينتهكون «سلام الرب» رحلة حج إلى فلسطين تكفيرا عن ذنوبهم. وقد تزايد عدد الحجاج التائبين في هذا القرن بحيث صار الحج من أهم روافد الفكرة الصليبية. وطوال القرن الحادي عشر الميلادي وحتى العقدين الأخيرين منه كان تيار الحج لا يزال يصب باتجاه الشرق. وفي بعض الأحيان كانت مجموعات الحجاج تصل إلى عدة آلاف من كل عمر وكل طبقة، وكل منهم على استعداد ليقضي سنة أو أكثر في هذه الرحلة. ومن الواضح أنه منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بدأت المصاعب تزداد أمام رحلات الحج الكاثوليكية إلى فلسطين . وكان من أسباب ذلك الغزو السلجوقي الذي وضع القدس تحت سيادة الأتراك السلاجقة في سنة 463هجرية/ 1071م ميلادية عندما نجح القائد السلجوقي أتسيز، العامل في خدمة السلطان ملك شاه، أن يستولي على الرملة وطبرية وبيت المقدس، ويعيدها إلى السيادة الإسلامية للخلافة العباسية بعد أن كانت تحت الحكم الفاطمي منذ دخولهم بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وقد أستردها الفاطميون بعد خمس سنوات ولكن أتسيز طردهم منها بعد حصار دام عدة شهور ومذبحة رهيبة.

ويبدو أن المشكلات الأمنية الناجمة عن توغل السلاجقة في بلاد الشام في ذلك الحين قد تركت آثارها السلبية على الحجاج الكاثوليك المسافرين عبر الأناضول. بيد أن الجماعات الكبيرة من الحجاج المسلحين كانت أيضا من أسباب المتاعب التي لاقوها آنذاك. فقد أقلقت السلطات الإسلامية المشاكل التي كانوا يثيرونها اعتقادا منهم بأنهم كلما تعرضوا لمزيد من الأذى والمتاعب كانت رحلتهم أكثر نجاحا. وفي رأي البعض أنه ربما كان المسلمون يفيدون تجاريا من ازدهار الحج المسيحي إلى البلاد المقدسة. ولكن

الدخل الذي كانت السلطات الإسلامية تحصل عليه من الحجاج الكاثوليك كان تافها بالقياس إلى موارد المسلمين الهائلة آنذاك، ولا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن التقشف كان أحد المثل العليا التي يسير الحجاج على هديها تشبها بالحواريين.

وثمة أسباب قوية تدفعنا إلى الظن بأن الحج إلى بيت المقدس، في الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية كان يحظى بتقدير كبير في مجتمعات أوروبا الغربية، ويرى البعض أن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، إذ لم تكن فكرة الحملة الصليبية لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت منذ فترة مبكرة وحتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. ذلك أن تيار الحج المستمر كان لا بد من أن يؤدي بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه، لا بد من أن تكون تحت سيطرة أتباعه، ولم يكن السبب هو الرغبة في حل المشكلات والصعوبات العملية التي كانت تواجه الحجاج الكاثوليك، ولكن لأن أوربا التي بدأت تشعر بقوتها رفضت بقاء أرض المسيح بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين. وكانت الفكرة التي ملكت عقول أبناء الغرب الأوربي في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، هي فكرة تخليص الأرض المقدسة من المسلمين. وقد أدى هذا بالضرورة إلى بروز أهمية القيام بحملة حج مسلحة (وهي الحملة الصليبية) لتحقيق هذا الهدف.

ومن الأمور ذات الدلالة أن المعاصرين لم يفرقوا أبدا بين الحج والحملة الصليبية على نحو ما تكشف روايات المؤرخين اللاتين، إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقا للغاية.

لقد كانت الفكرة الحاسمة في كليرمون سنة 1095م هي عسكرة الحج، وإضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة في الوقت نفسه. وكان الصليبي في حقيقته حاجا من طراز خاص، إذ كان حاجا يتمتع بامتياز حمل السلاح. حقيقة أنه كان أعلى درجة من الحاج المسالم، بيد أن الاختلاف بين الصليبي والحاج كان اختلافا في الدرجة فقط، ولم يكن اختلافا في الجوهر. وكانت تلك هي رؤية المعاصرين أيضا. فقد كان السيف الذي يحمله الصليبي مباركا من الكنيسة باعتباره جنديا في جيش المسيح، كما كانت سائر مهمات الحاج التقليدية تحظى بمباركة الكنيسة. وقد يبدو هذا الأمر أكثر وضوحا إذا عرفنا أن زعماء الحملة الصليبية الثالثة، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، قد تلقوا مهمات الحجاج التقليدية وهي العصا والتصريح عندما انطلقوا في سبيلهم لقتال صلاح الدين الأيوبي.

لقد صارت كلمة «جندي المسيح» في القرن الثاني عشر الميلادي تعني «صليبي» على حين توارت كلمة «حاج» التي استخدمها المؤرخون الذين عاصروا الحملة الأولى رويدا رويدا. وهنا ينبغي أن نتذكر أن أحد المؤرخين قال على سبيل المثال وهو يتحدث عن أهل مقدونيا: «لم يصدقوا أننا حجاج، ولكنهم ظنوا أننا جئنا لنهب أرضهم وقتلهم».

هكذا اختلطت فكرة الحج بفكرة الحملة الصليبية، وأصبحت كل منهما تعني الأخرى في بداية الحركة الصليبية، ثم توارت فكرة الحج في الخلفية، في حين صارت فكرة الحملة الصليبية تعني «جندي الرب». ولكن أهم عناصر هذه الحملة المقدسة يتمثل في مفهوم الغفران الذي كان العنصر الأهم في عيون العامة، لا سيما بعد أن ارتبط بالحج الجماعي الذي تقوم به أعداد كبيرة، وبعد أن صار مركز الحملة الصليبية في خطة أربان الثاني في كليرمون.

صحيح أن الغفران الذي منحه البابا في كليرمون لم يكن غفرانا كاملا، ولكن الناس فهموا أنه غفران كامل. ففي رواية فوشيه الشارتري عن خطبة البابا يقول: «إنني أخاطب الحاضرين، وأعلن لأولئك الغائبين، فضلا عن أن المسيح يأمر بهذا، أنه سوف يتم غفران ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء في مسيرتهم على الأرض، أو أثناء عبورهم البحر، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين. وهذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أعطاني الرب إياها»، فقد ذهبت الدعاية الصليبية الشعبية إلى آفاق أبعد من ذلك، والواضح أن حقيقة ما قيل في كليرمون قد توارى في الخلفية بسبب الدعاية الصليبية النزقة.

وليست هناك طريقة لتفسير نجاح الدعاية للحملة الصليبية الأولى في عامي 1095م و 1096م، سوى البحث في تحويل مفهوم الغفران الصليبي إلى غفران كامل من الذنوب على يد الدعاة الذين روجوا للمرسوم الصادر في كليرمون وقدموا له تفسيرات تتعدى حدوده. وبعبارة أخرى كان الغفران استجابة لحاجة الناس التواقين إلى الخلاص من ناحية، ومتطلبات الحركة الصليبية نفسها من ناحية أخرى. وتبدو هذه الحقيقة واضحة من خلال النقد المرير الذي صبه علماء اللاهوت الكاثوليك على الغفران الصليبي منذ حوالي 1130م. وكان بطرس أبيلار (1079م- 1142م) هو أول من دخل هذا المجال.

ويبدو أنه مع بداية الحركة الصليبية كانت المسألة قد خرجت تماما من أيدي رجال الكنيسة، فقد تجاهل الناس خطط البابوية في تنظيم الحملة الصليبية، كما ضاعت هذه

الخطط في موجات الأحداث المتلاحقة. وهذا هو نفس ما حدث لمفهوم الغفران الذي تطور بشكل تلقائي بفضل تداعيات الأحداث. وقد اضطر الباباوات للتخلي عن صيغة الغفران الجزئي الذي تحدث عنه البابا في خطبته في كليرمون، وفي خطاباته إلى أتباعه عندما تحدث عن «إسقاط التوبة» أو «حذف الكفارة» وتبنوا التفسير الشعبي للغفران. وقد بدأ هذا الموقف منذ عهد البابا أجينيوس الثالث في إعلانه الغفران المرتبط بالحملة الثانية (1145 - 1149م). وقد أدى هذا الموقف الجديد إلى غفران الخطايا والإعفاء من التوبة والتكفير.

وهناك باباوات حاولوا إعادة الزمن إلى الوراء وإلغاء النص الخاص بغفران الذنوب والاكتفاء بإعفاء الصليبي من التوبة أو التكفير مقابل اشتراكه في الحملة الصليبية، ولكن محاولات البابا جريجوري الثامن باءت بالفشل، ووصلت مسألة الغفران إلى ذروتها في مجمع اللاتيران الرابع سنة 1215م. ومنذ ذلك الحين فصاعدا كانت فكرة الغفران تشكل أساس النظرية البابوية للحملة الصليبية. وقد نال كل الناس الذين ساهموا بأنفسهم، أو بأموالهم، في أي حملة صليبية، وعدا بغفران كل ذنوبهم وخطاياهم التي اعترفوا بها.

لقد تجسد مفهوم الغفران الصليبي واضحا جليا في دعائيات الحركة الصليبية بعد ذلك. ففي خضم نشاطه المحموم للدعاية للحملة الصليبية الثانية (التي جاءت كرد فعل لاستيلاء المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على إمارة الرها الصليبية) قام برنار مقدم دير كليرفو بحث أبناء الغرب الأوربي على الذهاب في الحملة الصليبية. وكان ذلك بتفويض من البابا أجينيوس الثالث. وقد ذكر برنار في واحدة من خطبه الدعائية لهذه الحملة: «أيها الجندي الباسل، يا رجل الحرب، الآن لديك قضية تجعلك تقاتل دون أن يحيق الخطر بروحك، قضية؛ النصر فيها مجيد، والموت في سبيلها مكسب. أم تراك رجل أعمال ناجحا يدرك مكاسب هذه الدنيا بسرعة؟ فإذا كنت كذلك فإن باستطاعتي أن أقدم لك صفقة محترمة، فلا تجعل هذه الفرصة تفوتك، خذ شارة الصليب، وفي الحال ستنال الغفران عن كل خطاياك التي اعترفت بها بقلب نادم. ولن يكلفك كثيرا أن تشتري مكافأة السماء إذا ارتديت شارة الصليب في تواضع». وليس هناك وضوح أكثر من هذا في حقيقة أن الاشتراك في الحملة الصليبية صار ثمنا للحصول على الغفران الصليبي.

وقد عكس الأدب الأوربي في تلك الفترة مفهوم الغفران الصليبي على النحو الذي استقر في الوجدان الشعبي واستجابت له البابوية في المرسوم الذي أصدره البابا أجينيوس الثالث في ديسمبر 1145م، ففي أغنية صليبية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي ضمن المجموعة المعروفة باسم أغنيات الحروب الصليبية نقرأ النص التالي:

لقد سمعت مثلا سائرا يقول
التاجر العاقل ينفق المال من حافظته
وصاحب القلب الطائش
هو الذي يرى الحسن فيختار القبيح
هل تعرفون بما وعد الرب
أولئك الذين سيأخذون صليبه؟
إنه لثواب حسن بالتأكيد
الفردوس، وكان وعده صادقا،
إن من يمكنه أن يربح من مكافأته
أحمق إذا انتظر إلى الغد

ومنذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادي توسعت البابوية في منح الغفران الذي كان امتيازا للصليبيين الذاهبين إلى الأرض المقدسة. ففي سنة 1207م منح البابا أنسونت الثالث الفرسان الأوربيين المشاركين في الحملة الألبيجنسية (التي دعت إليها البابوية ضد نبلاء الجنوب الفرنسي الذين اعتنقوا مذهبا كنسيا يعارض هيمنة رجال الكنيسة الكاثوليكية على الناس في غرب أوربا) غفرانا يماثل الغفران الممنوح لمن يحاربون المسلمين في فلسطين: «نحن نرغب في أن أولئك الرجال الذين أخذوا السلاح للقتال ضد الهراطقة يجب أن يتمتعوا بالغفران نفسه الذي منحناه لأولئك الذين هبوا لنجدة الأرض المقدسة».

ثم حدث تطور جديد وهام. فقد صارت البابوية تمنح الغفران لمن يرسلون المحاربين بدلا منهم، ولمن يساهمون بأموالهم في تمويل إحدى الحملات الصليبية عوضا عن المشاركة بأنفسهم. ونتيجة توسع البابوية في الاستخدام السياسي للحملة الصليبية، أي استخدام الفكرة الصليبية في شن الحرب ضد خصومها رجال أوربا الكاثوليكية نفسها، تم فتح الباب على مصراعيه أمام فكرة شراء الغفران بالمال. وهو ما أدى إلى ظهور مشكلة صكوك الغفران التي ثار ضدها مارتن لوثر فيما بعد.

ففي سنة 1246م أعلن البابا أنسونت الرابع حربا صليبية ضد الإمبراطور فردريك الثاني، وفي سياق الدعاية «الصليبية» قال البابا: «نحن نمنح الغفران لكل أولئك الذين لا يشاركون في الحملة شخصيا ولكنهم يرسلون المحاربين اللائقين على نفقتهم، حسب إمكاناتهم ونوعياتهم، ونمنحه أيضا للذين يقومون بهذا العمل على نفقة الآخرين، ونحن نرغب في أن يتمتعوا بكل الامتيازات والحصانة التي نمنحها في المجمع الكنسي العام لمن يساعدون الأرض المقدسة». وفي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي كانت الدعوة إلى أي حملة صليبية تبدو للكثيرين، من رجال الكنيسة والعلمانيين على حد سواء، مجرد وسيلة لجمع الأموال للباباوات والفرسان لاستخدامها في عدة أغراض لا تتصل بالحرب ضد المسلمين في فلسطين. وفي سنة 1326م قال البابا يوحنا الثاني والعشرون: «لقد فكرنا أن نمنح هذا الغفران الذي كان الكرسي الرسولي قد اعتاد منحه، في حالات مماثلة، لأولئك الذاهبين إلى نجدة الأراضي المقدسة». لقد كان البابا يتحدث عن حملة صليبية متوجهة إلى إسبانيا، وليس إلى فلسطين حيث كان الوجود الصليبي قد انتهى منذ بداية العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأمثلة التي سقناها في السطور السابقة، وفي حالات كثيرة منحت فيها البابوية الغفران الكامل لكل من شارك في حملة من حملاتها التي وجهتها ضد العرب المسلمين، أو ضد خصومها السياسيين، أو المذهبيين في أوربا نفسها، أدركنا أن البلاط البابوي كان يرى في هذه الحملات جميعا عاملا مشتركا جعل الباباوات يتوسعون في استخدام الغفران الصليبي لتجنيد الجنود في الحملات الصليبية ضد المسلمين في فلسطين والأندلس وعلى شواطئ البلطيق، وضد المخالفات والمنشقين على الكنيسة الكاثوليكية، بل حتى ضد القوى العلمانية في الغرب الأوربي. لقد كانت «الحملة الصليبية» أداة من أدوات السياسة الداخلية والخارجية بالنسبة للبابوية. وكان الغفران الصليبي، لقاء المشاركة بالنفس أو عن طريق تجهيز المقاتلين أو بمجرد دفع المال، هو الحافز الذي استثمرته في هذا المجال.

وهكذا أدى التطور التاريخي إلى أن صار الغفران الصليبي يشترى لقاء المال على النحو الذي تطور به في شكل صكوك الغفران الشهيرة، بيد أن تلك قصة أخرى، وما يهمنا هنا هو أن مفهوم الغفران الذي ارتبط بالحج التكفيري كان مرتبطا أيضا بفكرة الحرب المقدسة. ومن الطبيعي أن تروق دعوة الحج المسلح في عيون الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية في غرب أوربا على نحو خاص.

ومثلما تطور مفهوم الحج منذ بداية المسيحية حتى عشية الحروب الصليبية تطور مفهوم الحرب المقدسة، الذي كان من أهم روافد الأيديولوجية الصليبية.

لقد كان موقف آباء الكنيسة الأوائل حرجا وهم يواجهون مشكلة التوفيق بين تعاليم المسيحية الداعية إلى السلم ونبذ الحرب من ناحية، ومقاومة الشر الحتمي في الحياة الدنيا من ناحية أخرى. وفي العالم البيزنطي أدان اللاهوتيون، وعلى رأسهم القديس باسيل، الحرب باعتبارها قتلا جماعيا، ولكن هذه الإدانة لم يكن لها تأثير فعال على أرض الواقع.

أما في الغرب اللاتيني فقد كان الموقف أقل استنارة، ولم يكن الناس على استعداد لقبول هذه الآراء السلمية، بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوربا فيما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وأسفرت عن قيام عدة ممالك، والاختلاط السكاني الواضح. وكانت الضرورة الثقافية والاجتماعية تحتم تبرير استمرار القيم والمثل الجرمانية في ثياب مسيحية. وفي ذلك الوقت كان نظام الفروسية الغربي يتطور مدعوما بالملاحم البطولية التي أعطت المكانة والهيبة للبطل العسكري. ولم تستطع الكنيسة الغربية شيئا حيال هذه القيم والمثل العليا الجرمانية، فحاولت توجيه طاقتهم العسكرية وجهة تنفيذها.

وفي القرن الخامس الميلادي كان أول مفكر عالج مسألة تبرير الحرب على أساس ديني هو القديس أوغسطين (354- 430م)، وربما لا يزال أوغسطين هو أكثر من عالج مسألة الحرب على أسس مسيحية ماهرة. فقد حاول أن يضع تعريفا للحالة التي تصبح فيها الحرب حربا عادلة. وقد خضعت الشروط التي وضعها أوغسطين للحرب العادلة بعد فترة من الزمن للتبسيط الشديد من جانب علماء اللاهوت الأوربيين، بحيث اختزلت في ثلاثة شروط هي: 1- أن يكون هناك سبب عادل لشن الحرب، وعادة ما يكون هذا «السبب العادل» عدوانا، أو عملا ضارا أتاه الآخرون. 2- أن يرتكز قرار الحرب على سلطة شرعية، وعادة ما تكون هذه السلطة علمانية بطبيعة الحال (على الرغم من أننا سوف نرى أن الكنيسة قد انتزعت لنفسها حق إعلان الحرب المقدسة، ثم الدعوة إلى الحملة الصليبية). 3- ويتمثل الشرط الثالث في سلامة القصد، أي أنه يجب على كل مشارك في الحرب أن تكون دوافعه نقية سليمة، كما ينبغي أن تكون الحرب هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هدف عادل.

وفي رأي أوغسطين فإنه يجب استبعاد السلام من الأسباب العادلة للحرب، لأن كل طرف يشن الحرب من أجل السلام الذي يتوافق مع مصالحه. وفي الواقع فإن التقلبات السياسية في أوربا آنذاك كانت تتيح فرصة هائلة لتفسير كل من هذه الشروط الثلاثة بما يتفق والمصالح السياسية للطرف الذي يشن الحرب.

وقد كانت التقلبات السياسية والأحداث العسكرية العنيفة التي مر بها الغرب في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين مواتية تماما لإبراز مفهوم الحرب الدفاعية، وتأكيد شرعيتها، إذ أن الهجمات التي شنها الاسكنديناڤيون الوثنيون، وهجمات المجريين والمسلمين على أنحاء متفرقة من أوربا في هذين القرنين مثلت ضغطا على سكان أوربا الذين عاشوا أوقاتا صعبة عقب انهيار الإمبراطورية الكارولنجية.

ومن ناحية أخرى كانت ثروات الكنائس والأديرة هي الهدف الذي يجتذب الغزاة في كل مكان، ومن ثم كان ضروريا على الكنيسة وعلماء اللاهوت أن يدعموا فكرة الحرب الدفاعية العادلة. ولأن المغيرين جميعا لم يكونوا من المسيحيين (لأن الفايكنج لم يعتنقوا المسيحية إلا بعد استقرارهم في نورماندي بغرب فرنسا في مطلع القرن العاشر الميلادي، كما أن المجريين اعتنقوا المسيحية في وقت قريب من هذا) فقد كانت فكرة الحرب العادلة مرتبطة بفكرة الحرب ضد الوثنيات (أي غير المسيحيين) ولذلك تحولت إلى مفهوم الحرب المقدسة.

وهناك من المفكرين من حاول التفرقة بين «الحرب العادلة» و «الحرب المقدسة» بيد أن التمييز بينهما كان صعبا على المستوى النظري من ناحية، كما أن أحدا لم يحاول على المستوى العملي أن يميز بينهما من ناحية أخرى. وفي القرن التاسع الميلادي قام البابا ليو الرابع بإعلان أن من يموت في سبيل الكنيسة سوف ينال ثوابا من السماء، وبعده بسنوات قليلة أعلن البابا جون الثامن أن ضحايا الحرب ضد المسلمين والفايكنج شهداء سوف تغفر ذنوبهم (وهو الوعد نفسه الذي تلقاه المشاركون في الحملة الصليبية فيما بعد). ومن الخطأ أن نعتبر أن هذه الحملات كانت حملات «صليبية».

والواقع أن ليو الرابع وجون الثامن كانا متأثرين بفكر (أشيدر) الأشبيلي الذي قال: «إن الرجال الذين تجعلهم حكمتهم وشجاعتهم جديرين بالسماء هم الذين يسمون الأبطال». وتتمثل أهمية هذه الوعود بمنح الغفران، أنها تكشف عن تأييد البابوية لفكرة

الحرب ضد المسيحيين. وبمرور الوقت تحولت الفكرة إلى الهجوم بدلا من الدفاع، وإن ظلت داخل نطاق فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة التي يشنها الرجال لكي يستردوا ما هو حقهم. وكان من السهل دائما إلقاء اللوم على الطرف الآخر في الحرب، كما كان من الميسور دائما إيجاد سبب للحرب يبرر موقف من يبدأ.

لقد استخدمت البابوية فكرة الحرب العادلة في القتال الذي كان دائرا ضد مسلمي الأندلس، إذ منح البابا الإسكندر الثاني في سنة 1063م غفرانا للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا لقتال المسلمين في إسبانيا.

وفي رأي كثير من الباحثين أن جريجوري السابع (1073- 1085م) هو الذي صاغ فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي، وأحدث نقلة نوعية في موقف المسيحية من الحرب. فقد استخدم عبارة «جيش المسيح» للمرة الأولى بالمعنى الدنيوي وليس المعنى المجازي الذي استخدمه القديس بولس. وهناك عدة وثائق تدلنا على مدى التغيير الجوهري الذي أحدثه جريجوري السابع في مفهوم الحرب المقدسة. وهذه الوثائق عبارة عن خطاب بتاريخ 2 فبراير 1074م من البابا إلى الكونت وليم الأول أمير بورجوني يدعوه لنجدة الكنيسة ومحاربة المسلمين الذين يهددون القسطنطينية، وخطاب آخر بعد ذلك بشهر (أول مارس) يدعو فيه «كل الراغبين في الدفاع عن العقيدة» لنجدة القسطنطينية التي وصل المسلمون إلى أسوارها، أما الخطاب الثالث فهو عبارة عن خطاب شكر موجه إلى الكونت وليم السادس أمير بواتييه يشكره على ما قدمه من خدمات للدفاع عن العقيدة. والوثيقة الرابعة التي تعد أهم الوثائق جميعا هي خطاب من البابا إلى الإمبراطور هنري الرابع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتاريخ 7 ديسمبر 1074م يخبره باستعداده للمسير ونجدة الإمبراطورية البيزنطية (التي تدهورت أحوالها بعد هزيمتها أمام المسلمين في مانزكرت «ملاذكرد» سنة 1071م)، وتخليص القديس رومانوس بجيش قوامه خمسين ألف رجل.

ومن الواضح أن الفكرة التي كانت تدور بخلد «جريجوري السابع» كان محورها الحرب المقدسة الهجومية. ولكن النزاع الذي لم يلبث أن نشب بينه وبين الإمبراطور حال دون تنفيذها. ولعل ربط البابا جريجوري السابع بين الحرب ضد المسلمين وفكرة الحرب المقدسة كان يجسد الفكرة القائلة بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء، باعتبار أن مثل هذا التبرير يعد سببا عادلا في الحرب. وهذه الذريعة هي التي

اتخذها أربان الثاني في كليرمون سنة 1095م، وهو يدعو أمراء أوربا وفرسانها، لأخذ شارة الصليب. فقد ادعت البابوية أن الحملة الصليبية الأولى تقوم على سبب عادل هو مساعدة البيزنطيين ضد المسلمين في الشرق.

وعندما نجحت الحملة الأولى في إقامة مملكة بيت المقدس وعدة إمارات أخرى في المنطقة العربية تغير المبرر الذي اعتبره اللاهوتيون «سببا عادلا» لشن الحرب ضد المسلمين. وتمت صياغة المبرر الجديد على أساس أن الأرض التي شهدت قصة المسيح قد صارت بأيدي المسيحيين حقا، بيد أنها تحتاج إلى قوات عسكرية للدفاع عنها. وقد أكد البابا أجينيوس الثالث هذا الأمر سنة 1145م، وترددت أصداء كلماته في الخطابات البابوية بعد ذلك، حيث قال: «بفضل الرب وحماسة آبائكم، الذين ناضلوا للدفاع عنها (الأرض المقدسة) على مر السنين، لكي ينشروا المسيحية بين شعوب هذه المنطقة، نجح المسيحيون في الحفاظ على هذه الأرض حتى الآن، كما استولوا بشجاعة على مدن أخرى من الكفار.. وسيكون الأمر عنوانا على النبل والاستقامة إذا دافعتم بجسارة عما حققته جهود آبائكم، أيها الأبناء. ولكن إذا جرى الأمر على نحو مختلف، لا سمح الله، فإنه سيبدو واضحا أن شجاعة الآباء قد تلاشت في الأبناء».

وانطلاقا من هذا الموقف الجديد لتبرير الحرب ضد المسلمين تحركت البابوية بعد أن استرد صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس سنة 583هـ/ 1187م. ووجدت البابوية، والمبشرون، ومؤرخو العصور الوسطى اللاتين الفرصة لكي يعيدوا صياغة «السبب العادل» للحرب على أساس استعادة القدس من المسلمين. لقد كانوا يحاكمون زمانهم ويشيرون إلى الأرض المقدسة باعتبارها «مملكة المسيح» التي تنتمي إلى العالم المسيحي، والتي يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين.

وقد كانت هذه العبارة وحدها (وقد ترددت كثيرا في خطب الباباوات ودعاة الحركة الصليبية والمؤرخين الذين كتبوا عنها) كافية لأن تكون مبررا لصياغة السبب العادل في شن الحرب ضد المسلمين في الشرق العربي. إذ إن البابوية ركزت دعايتها على أساس ضرورة الدفاع عما تبقى من الكيان الصليبي في فلسطين، بل إن محاولة غزو مصر في الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الخامسة سنة 1218م، والحملة التي قادها لويس التاسع سنة 1249 م والتي عرفت بالحملة السابعة، والاقتراحات التي لم تنفذ بغزو مصر،

كل هذا كان يتم باعتباره محاولة من جانب البابوية، والغرب الأوربي الكاثوليكي للدفاع عن بقايا الوجود الصليبي في فلسطين.

وهكذا كان شرط «السبب العادل» لشن الحرب، كما وضعه أوغسطين، عاملا أساسيا في صياغة مبررات كل حملة من الحملات الصليبية ضد المسلمين في الشرق العربي. بل إن البابوية توسعت في استخدام هذا «السبب العادل» لتبرير حملاتها ضد كل أعدائها من المسيحيين الكاثوليك في أوربا نفسها. وقد أسرفت البابوية في استخدام نموذج «الحملة الصليبية» ضد أعدائها في الخارج والداخل مما أدى إلى ردود فعل سلبية كثيرة. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى الآن خرجت آراء كثيرة تقول إن الحملات الصليبية ضد القوى العلمانية المعادية للبابوية في أوربا لم تكن تستند إلى أساس قوي، ولا يمكن تبريرها. ولكن البابوية ودعاتها حاولوا دائما تبريرها في إطار المفهوم المسيحي للحرب العادلة.

ومن ناحية أخرى، تأثرت الكنيسة في موقفها من الحروب الصليبية بحركة «سلام الرب» التي كانت في بداية أمرها وسيلة تدافع بها الكنيسة عن نفسها. إذ أن الفوضى التي استشرت في أوربا عقب انهيار الإمبراطورية الكارولنجية بسبب المنازعات والحروب الإقطاعية جعلت الكنيسة تحاول تقييد العنف وتضييق نطاقه. فقد انهار النظام العام، وتراجعت الأخلاقيات، وفي كل مكان في أوربا، طوال القرن العاشر الميلادي، كان المحاربون من أبناء الطبقة الإقطاعية يمارسون أفظع الأعمال. وعندما كانت الحروب الإقطاعية تمزق أوصال أوربا الغربية بسبب حال الجوع إلى الأرض في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال فكرتين أساسيتين هما: سلام الرب، وهدنة الرب. فقد تم عقد مجمع كنسي في شارو سنة 989م أصدر مرسوما بالسلام جاء فيه تحريم مهاجمة ممتلكات الكنيسة، والفلاحين وأملاكهم، ورجال الكنيسة، مع تهديد كل من ينتهك هذه الشروط بالوقوع تحت طائلة عقوبة الحرمان. وتم التأكيد على قرارات هذا المجمع في السنة التالية في مجمع كنسي عقد في لوبوي، وجاء مجمع بواتييه سنة 1000م تأكيدا على هذا الاتجاه، الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية للحد من أضرار الحروب الإقطاعية. لقد تدخلت الكنيسة لحماية أملاكها ورجالها، ولكن المجتمع كله أفاد من نتائج هذه الحركة.

وفي معاهدات السلام الباكرة في شتى أنحاء أوربا كان النبلاء الإقطاعيون يقسمون على مراعاة حصانة رجال الكنيسة، والمدنيين، وأملاك الكنيسة أيضا. ومنذ سنة 1040م

فصاعدا بات من المعتاد إصدار مراسيم تحرم القتال في أيام معينة، وهناك عدة وثائق من هذا النوع، منها نص وثيقة هدنة الرب التي عقدت في أسقفية تيروان سنة 1063م، وهي تحدد فترة «هدنة الرب» بأربعة أيام وخمس ليال تبدأ بغروب شمس الأربعاء، وتمتد حتى شروق شمس الإثنين، وكل من يخرق هذه الهدنة يعرض نفسه لعقوبة الحرمان.

ويبدو أنه كلما مر الزمان كانت نصوص مراسيم هدنة الرب تزداد تشددا، إذ توجد وثيقة عن مرسوم بهدنة الرب صدر سنة 1083م على يد أسقف كولون، تبدو نصوصها أكثر تشددا من نصوص هدنة الرب الصادرة عن أسقفية تيروان قبل عشرين عاما.

ثم كانت المرحلة الأخيرة متمثلة في محاولة القضاء على الحروب الإقطاعية تماما. ويمكن إرجاع الفضل في تطور حركة السلام إلى الرهبان الكلونيين الذين ارتبطوا بحركة الإصلاح الكلونية. لقد كان المصلحون الكلونيون يستهدفون إصلاح الحياة الديرية والكنسية الكاثوليكية والعالم الغربي.

كان إصلاح الديرية يستدعي وضع أسس جديدة ودستور جديد للرهبان، وكان إصلاح الكنيسة الكاثوليكية يعني إصلاح البابوية بالقدر الذي يمكنها من التصدي للعلمانيين، أما إصلاح العالم الغربي فكان يعني إخماد الحروب الإقطاعية التي باتت هي النغمة الدالة في الحياة الأوربية آنذاك.

وقد خطت الكنيسة خطوات حاسمة تجاه «الحرب المقدسة» بسبب حركة السلام، إذ لم يكن يكفي إقناع النبلاء الإقطاعيين بعدم شن الحرب، وبات من الضروري إيجاد وسيلة تجبرهم على حفظ السلام. ومن ثم تورطت الكنيسة في تنظيم الحملات العسكرية وتوجيهها لعقاب من يعكرون صفو السلام. هذا النمط من الحروب الكنسية اعتبرته الكنيسة «حروبا مقدسة» تشن في خدمة الكنيسة وتحت رايتها. وقد شاع هذا النمط ليكون بمثابة سلاح سياسي هام بأيدي رجال الكنيسة في القرن الحادي عشر الميلادي. وكانت تلك خطوة هامة نحو بلورة فكرة الحروب الصليبية.

ولم يحدث قبل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أن صارت البابوية قوية بالقدر الذي يجعلها تفكر جديا في تجريد حملة عسكرية ضد الشرق العربي الإسلامي، إذ أن السياسة النشطة التي اتبعتها البابوية في تلك الفترة التي شهدت إصلاح الكنيسة والبابوية كانت تدفع الباباوات نحو موقف جديد من الحرب. ففي سنة 1053م قام البابا ليو

التاسع (1048-1054م)، والذي يعتبر من أوائل الباباوات الإصلاحيين، بقيادة جيش في جنوب ايطاليا ضد النورمان. وفي هذه الحملة التي قادها البابا بنفسه منح الألمان الذين أرسلهم الإمبراطور الألماني غفرانا يعفيهم من العقاب على ذنوبهم، كما يعفيهم من التكفير عنها. ومن الجدير بالذكر أن هذه المعركة التي عرفت باسم معركة كيفيتا انتهت بالقضاء على الجيش البابوي، وتم أسر البابا نفسه ليبقى رهين محبسه لدى النورمان حوالي سنة، ثم أطلق سراحه سنة 1054م، وعاد إلى روما ليلقى حتفه في السنة نفسها.

وكان الغفران الذي منحه ليو التاسع في هذه الحملة شبيها بالغفران الذي منحه أربان الثاني للمشاركين في الحملة الصليبية الأولى. ثم حاول نيقولا الثاني (1058-1061م) أن يحل المشكلة النورمانية بالتحالف مع أمراء النورمان على أن يكون ريتشارد أمير كابوا، وروبرت جويسكارد تابعين إقطاعيين عليهما أداء الخدمات الإقطاعية العسكرية لسيدهما (البابا).

وهكذا صارت الكنيسة الكاثوليكية قوة عسكرية إقطاعية، استخدمت قواتها في الدفاع عن الدويلات البابوية، ثم استخدمت هذه القوة العسكرية فيما بعد في أغراض الحرب المقدسة. وكانت تلك في الواقع بمثابة السوابق أو التجارب العملية التي نضجت من خلالها «الحملة الصليبية».

ومن ناحية أخرى كانت «الحرب المقدسة» مفيدة للنورمان بقدر ما كانت مفيدة للكنيسة، إذ قام روبرت جويسكارد بغزو شمال صقلية (1061-1072م) تحت راية الحرب المقدسة، فقد أعلن أن هذه الحرب ضد المسلمين هي وفاء للقسم الذي قطعه على نفسه أمام البابا نيقولا الثاني في ملغى، وبذلك حصل على مباركة البابوية على هذا المشروع.

والمثال الأكثر وضوحا من الحروب النورمانية يتجسد في الحرب ضد المسلمين في الأندلس، والتي عدها الكثيرون نوعا من الحملات الصليبية، لا سيما غزو بريشتر (1064م) الذي ساهم فيه النورمان من ولاية نورمانديا بنصيب كبير. وقد ارتفعت هذه الحملة الكاثوليكية ضد مسلمي الأندلس إلى مستوى «السابقة الصليبية»، بيد أن غياب الدور البابوي النشط هنا ينفي عنها صفة الحملة الصليبية الكاملة من وجهة النظر الأوربية، إذ أن موافقة البابا الإسكندر الثاني على هذه الحملة وتأييده لها ظل في حدود منح الغفران الجزئي لمن ساهموا فيها. وما حدث في إسبانيا كان بالنسبة لهم «حربا مقدسة» عادية تتسق مع النموذج الذي دعا إليه الباباوات والرهبان الكلونيون، لأن الأديرة

الكلونية كانت هي الأكثر نشاطا في مجال تسهيل الحرب ضد المسلمين في الأندلس. ومن الواضح انه كانت هناك رابطة تجمع بين مقاومة المسلمين من ناحية والحملات الصليبية من ناحية أخرى، إذ أن البابوية سمحت فيها بعد للفرسان بالقتال ضد مسلمي الأندلس بدلا من الاشتراك في الحملة الصليبية إلى فلسطين.

وعشية الحروب الصليبية كانت الكنيسة الكاثوليكية قد وصلت إلى موقف جديد تماما من الحرب تبلور في كتابات واحد من أهم أتباع البابا جريجوري السابع، وأكثرهم إخلاصا، وهو «بونيزو سوتري» الذي كان أول من جمع في كتابه «عن الحياة المسيحية» (فيما بين سنة 1090م وسنة 1095م تقريبا) الآراء المتداولة عن واجبات الفارس المسيحي.

ومن ناحية أخرى كانت في أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى طبقة من فرسان الإقطاعيات قد تطورت ونضجت عبر أحداث القرون السابقة، وصار لها قانون أخلاقي مشترك عن الحدود السياسية لإقطاعيات الدول. ويبدو أن المناقشة حول أصول الحركة الصليبية قد طالت أكثر مما ينبغي، بيد أن هذه المناقشة بحد ذاتها كشفت عن حقيقة لا يرقى الشك إليها، مؤداها أن الحركة الصليبية لم تكن لترى النور إلا بعد أن مهدت الكنيسة الكاثوليكية الأرض بصياغة أيديولوجية الحرب المقدسة من ناحية، وظهور طبقة الفرسان (التي وجه أربان خطابه إليها في كليرمون) بسماتها الإقطاعية المشتركة، ونظامها القيمي والأخلاقي الواحد، وظروفها الاجتماعية والاقتصادية المتشابهة في سائر أنحاء الغرب الأوربي، من ناحية أخرى.

الفصل الثاني

أحوال أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي

شكلت الحركة الصليبية انعطافا خطيرا في تاريخ الغرب الأوربي، إذ كانت الحملات الصليبية التي دارت على نطاق واسع، سواء من حيث مجالها الجغرافي، أو إطارها الزمني، أو أعداد الذين شاركوا فيها، أول حرب يخوضها الأوربيون تحت راية أيديولوجية بعينها. وعلى الرغم من الإفلاس الأيديولوجي الذي تجلى منذ البداية في خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى إلا أن القوى الاجتماعية في الغرب الأوربي قد اعتنقت هذه الأيديولوجية الصليبية وفق تفسيرها الخاص الذي يناسب مصالحها.

ولما كانت الحركة الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع فإنها كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية، وهي أهداف كانت تتركز أساسا حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي. كما أن الحركة الصليبية كانت، من ناحية أخرى، محاولة لتحقيق أهداف العلمانيين الذين خضعوا للتعليم الإقطاعي، سواء كانوا من النبلاء وفرسانهم، أو من الفلاحين.

لقد كان الفرسان يتوقون إلى توسيع سلطانهم وأملاكهم، ولم يكن هذا ممكنا دون الصدام مع الملكية. وبينما كانت البابوية تحارب ضد الملكية من أجل السيادة والسمو، كان النبلاء الإقطاعيون يتطلعون إلى بناء سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية، ولعل هذا هو ما جعل البابا أربان الثاني يوجه خطابه إلى الفرسان الفرنسيين بالذات، لأن فرنسا كانت لا تزال الدولة الإقطاعية الوحيدة آنذاك.

أما البرجوازية الناشئة، ممثلة في القوى التجارية الإيطالية على وجه الخصوص، فقد رأت في المشروع الصليبي فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم، ولهذا سارعت إلى الانضمام للمشروع بعد أن صار حقيقة واقعة.

بيد أن هذه الدوافع التي حركت مختلف القوى الأوربية لشن حملتها الصليبية التي كانت بمثابة مشروع العصر بالنسبة للكثيرين، كانت محكومة بالأحوال والظروف التاريخية السائدة في الغرب الأوربي من ناحية، وبالإمبراطورية البيزنطية والعالم العربي من ناحية أخرى، وربما يكون مفيدا أن نلقي نظرة شاملة على أحوال أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية، قبل مناقشة دوافع المجتمع الغربي لشن الحرب تحت راية الصليب.

كانت أوربا حتى القرن الحادي عشر الميلادي لا تزال مجرد منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسي، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية متخلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطي والعالم العربي الإسلامي. فقد وصلت كل من الحضارة البيزنطية والحضارة العربية الإسلامية إلى قمتها، وبدأت بيزنطة منذ القرن الحادي عشر الميلادي تعاني مظاهر التآكل البطيء والضعف الناجم عن الصراع الداخلي والهزيمة الخارجية الفادحة على يد المسلمين في مانزكرت (ملاذكرد) سنة 1071م. أما العالم العربي الإسلامي فكان يعاني التشرذم والضعف السياسي، على الرغم من أنه كان لا يزال يحتفظ بإمكاناته العسكرية والبشرية، وثرواته الأسطورية، وعلى الرغم من أن الزمان كان لا يزال يحتفظ له ببعض من أعظم إنجازاته العسكرية والفكرية.

وقد كان القرن الحادي عشر الميلادي بالنسبة للغرب الأوربي بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع في تاريخ العصور الوسطى. وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية، التي أخذت تتشكل منذ القرن السادس الميلادي، قد ترسخت بحيث كانت الأساس الذي قامت عليه الحضارة الأوربية في العصور الوسطى، ولعل هذا ما جعل المؤرخين الأوربيين المتخصصين في دراسة تاريخ العصور الوسطى يطلقون على تلك الفترة اسم العصور الوسطى الناضجة أو العالية.

لقد شهد القرن الحادي عشر الميلادي من وجهة نظر الغرب قادة كبارا وزعماء بارزين، مثل وليم الفاتح ملك انجلترا، والإمبراطور هنري الثالث وابنه هنري الرابع، وروجر الأول النورماني حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد الذي كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، وألفونسو السادس ملك قشتالة. وقد كان أولئك

جميعا من الحكام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والنظام والكفاءة يمثلون الغدر والطموح والتعصب من وجهة النظر الشرقية. كما عاش في القرن الحادي عشر الميلادي معظم الباباوات الإصلاحيين، وأبرزهم جريجوري السابع الذي رغب في تحقيق السمو البابوي، وكان خليفته أربان الثاني صاحب الدعوة إلى الحملة الصليبية. وكانت الكنيسة قد مرت بأهم عملية إصلاحية تحت زعامة أولئك الذين تربوا في الأديرة الكلونية. أما الفلاحون المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات، ويزرعون أرضها بالمحاصيل التي تحتاجها أوربا، وبحارة جنوه وبيزا الذين طردوا المسلمين من شواطئ أوربا، فقد كانوا مدفوعين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التي ميزت حركة التاريخ الأوربي في القرن الحادي عشر الميلادي.

ومن ناحية أخرى كانت هناك تغيرات اجتماعية وتكنولوجية تجري في تلك الفترة، ولا شيء يكشف عن تأثير هذه التغيرات في غرب أوربا أفضل من أن نلاحظ أن الناس كانوا يسافرون إلى مناطق الحدود، وما وراء البحار بحثا عن فرص أحسن، وأملا في تحقيق طموحاتهم. وباختصار كان التوسع والتنظيم أهم سمات القرن الحادي عشر الميلادي. لقد أخذت أوربا توقن بأن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة، فأخذت تسعى لإيجاد منافذ خارجية لها. وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الأوربي، ولم يكن ممكنا القيام بهذه الحملات دون وجود المقدرة على تنظيمها.

كان الطابع الريفي هو الغالب على أوربا القرن الحادي عشر الميلادي، وقد توزع سكان أوربا بين نموذجين رئيسين للاستقرار هما: البلدة التي كانت عبارة عن عدد قليل من أكواخ الفلاحين وبيوتهم المكدسة قرب مساحة الأرض التي يتولون زراعتها، وقد خلت هذه البلدة من أي كنيسة. وفي أسكتلندة وويلز وأيرلندة وبريتاني وأقاليم فرنسا الجبلية كان نمط البلدة هو السائد. أما بقية مناطق أوربا فقد كان النمط السائد فيها لمراكز الاستقرار السكاني هو القرية. وفي القرية عادة ما كانت توجد كنيسة، وبيت صاحب الإقطاع، أو قلعته، ثم بيوت الفلاحين التي بنيت من الطين وأغصان الأشجار. وحول القرية زمامها من الأرض الزراعية والمراعي، ثم منطقة البراري والغابات. وعلى حواف الحقول التي تمثل زمام القرية من الأرض الزراعية، كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من آن لآخر لكي يزرعوا محصولا أو اثنين في الأرض التي خصبها الرماد الناتج عن الحرق.

وعلى الرغم من أننا نعرف بعض المعلومات عن تحسن الزراعة وأساليبها في القرن الحادي عشر الميلادي إلا أننا لا نعرف إلى أي مدى تحسنت وسائل الزراعة على وجه الدقة. لقد كان اختراع الطواحين الهوائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال، كما أن عمليات إزالة الغابات واستصلاح الأرض كانت تجري في كل مكان في غرب أوربا. وكانت الأخشاب الناتجة من قطع الأشجار تستخدم في بناء المساكن والقلاع والكنائس في مناطق الريف والحضر على حد سواء، كما أن الفلاحين غيروا من نظام الزراعة في شريطين أو ثلاثة بسبب الابتكار الذي شكل المحراث الجرماني القديم الذي كان يفرض أن يكون حرث الحقول بشكل مستقيم على هيئة شريطين أو ثلاثة، فتحسن الإنتاج.

لقد أدت محاولات استصلاح الأرض على حساب الغابات والمستنقعات إلى زيادة الإنتاج الزراعي، وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن اقتصاديات الزراعة في غرب أوربا آنذاك، إلا أنه يبدو أن القرية كانت قادرة، مع قلة إمكاناتها، على أن تعول الناس الذين عانوا من قسوة الطبيعة والقانون الإقطاعي على السواء، ولا ينبغي أن نبالغ في قيمة عمليات النمو الزراعية لأن التحسن النسبي الذي طرأ على مجال الزراعة في أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي لم يؤد إلى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية، وإنما أدى إلى زيادة موارد السادة الإقطاعيين المادية والبشرية.

كان الناس في أوربا العصور الوسطى تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد، إذ كانت الأرض المزروعة في القرن الحادي عشر الميلادي لا تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البراري والغابات والأرض البور، وكانت كل هذه المساحات مرتعا حرا للدببة والذئاب وغيرها. ولم يكن غريبا أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى، أو تجوس في الحقول المزروعة. وفي كوخ حقير كان القروي يعيش حياة أصعب من حياة حيوان الحقل الذي يهتم به. أما طعامه فكان فقيرا وبسيطا من إنتاج حقله، وملابسه مصنوعة من جلود حيواناته، أو من صوف أغنامه. وكان يومه شاقا مضنيا يقضيه في أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوي إلى فراشه الحقير في المساء وقد هده التعب.

ولم يكن الفلاح الأوربي يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة في أعياد الميلاد، ثم يحتفظ بالباقي مقددا ومملحا ليأكل منه طوال العام. ولكنه في كل الأحوال لم يكن ليأمن على نفسه من غائلة المجاعة. فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل في ذلك الزمان كان تدهور المحصول المحلي في أي إقليم مؤشرا على حدوث المجاعة.

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة 1095م سنوات صعبة بالفعل على سكان أوربا، لا سيما في شمال فرنسا وغرب ألمانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة. ومنذ سنة 1089م كان الرعب يتملك السكان في تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذي كان يضرب فجأة إحدى القرى، أو المدن فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطيء.

ومن الطبيعي أن يكون رد فعل الناس في إطار رد الفعل الجماهيري المعتاد، أي التعلق بأهداب الدين، أو محاولة التكفير عن الذنوب، والتجمع حول الزاهدين والنساك بحثا عن الخلاص. لذا فقد راقت الدعوة التي وجهها البابا لشن حملة صليبية ضد المسلمين في عيون الفقراء، ورأوا فيها نبوءة تعدهم بالخلاص.

وبالنسبة لمعظم سكان الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر الميلادي كانت القرية هي الوحدة الأساسية، اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، وعلى المستوى الديني أيضا، إذ أن التقسيم الإقطاعي فرض نوعا من الاقتصاد الطبيعي جعل الفلاحين في كل قرية يحاولون تحقيق الاكتفاء الذاتي في حدود ما تنتجه القرية. وفي أعياد القديسين الذين يبجلهم أهل القرية (وهم تعبير عن عبادة قوى الطبيعة على نحو أو آخر، ولم تعترف الكنيسة بأولئك القديسين الريفيين أبدا) كان القروي يجد المتعة والتسلية. وكان قساوسة الأبرشيات الريفية يقدمون للسكان الفلاحين معلوماتهم المشوشة عن المسيحية، وأفكارهم الضيقة عن العالم. ولما كان القسيس الأبرشي أميا في أغلب الأحوال فإن لنا أن نتصور طبيعة ما كان يقدمه من خدمات للفلاحين المساكين، وما ينتج عن هذه الخدمات الجاهلة المقدمة من قسيس جاهل من تعصب وتزمت مقيت. لقد كان القرويون يجمعون بين التدين العاطفي والإيمان بالخرافات والمعجزات. وكان سكان كل قرية يعتقدون بأن الينابيع والمجاري المائية والأشجار التي تحيط بقريتهم تضم بعض الأرواح التي يمكنها الإتيان بالمعجزات.

وقد اختلف الوضع القانوني للفلاحين، والجزء الذي يمكنهم الاحتفاظ به من محصول الأرض الزراعية اختلافا بينا من قرية إلى أخرى. ففي الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي كان كل رجل يعمل في أرض زراعية في انجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا، مقيدا بالتزامات إقطاعية تجاه أحد السادة الإقطاعيين، إما إيجارا وإما خدمة. وفي

بعض المناطق الريفية، مثل شرق ألمانيا وبعض أقاليم فرنسا، كان يوجد فلاحون أحرار، ولكن أولئك كانوا في سبيلهم لأن يتحولوا إلى أقنان. ولم يتم هذا التحول على أي حال سوى بعد القرن الحادي عشر.

لقد كان تحول الفلاح الحر إلى قن عملية تجري بمعدلات متصاعدة في كافة أنحاء أوربا، ولم تقف الكنيسة ضدها بل أفادت منها بصفتها أكبر ملاك الأراضي الزراعية في الغرب الأوربي حتى ذلك الحين، فقد كانت الهبات التي أغدقها الحكام والنبلاء على الكنائس والأديرة قد جعلتها تمتلك مساحات زراعية شاسعة، ومن ثم كان لابد من أن توفر لها من يزرعونها، وقد كانت عملية تحويل الفلاحين إلى أقنان، تحت ذريعة حب الرب، أكثر الوسائل فعالية لضمان قوة العمل اللازمة لزراعة أملاك الكنائس والأديرة.

لقد كان الأقنان يشكلون قطاعا هاما من سكان الريف الأوربي عشية الحملة الأولى. وكان أولئك الأقنان يحتلون مكانة في البناء الاجتماعي بين الفلاحين الأحرار من ناحية، وعبيد الأرض من الأرقاء من ناحية أخرى. ولم تكن أعدادهم أو نسبتهم متساوية في كل أنحاء أوربا، ففي انجلترا كان عدد الأقنان كبيرا، على حين كان عدد عبيد الأرض كبيرا في جنوب فرنسا واسبانيا وفي بقية مناطق فرنسا وفي الألزاس واللورين كانت الأغلبية من الفلاحين أقنانا دون أن تكون لهم حقوق تجاه سادتهم الإقطاعيين. وفي ظل تلك الظروف نجد أن الكثيرين ممن ولدوا في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي قد وقعوا في أغلال القنانة، لأن واحدا من أسلافهم المجهولين قد أجبر على التخلي عن حريته.

وكانت العلاقة بين القن والسيد الإقطاعي تشبه علاقة كل منهما بالطبيعة في تلك العصور، فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون صديقا كما يحتمل أن يكون عدوا، لكن القن يراه ضروريا لاستمرار حياته في كل الأحوال. لقد كان كل أمر من أمور الحياة اليومية للأقنان مرتبطا بأسيادهم الإقطاعيين ومعتمدا على سلوكهم. وكان القن مربوطا إلى الأرض لا يمكنه الرحيل عنها، كما لا يستطيع أن يستبدل سادته إلا بارتكاب جريمة، أو المغامرة بالهروب، أو بشراء حريته بالمال (إذا قبل سيده بيعها). أما في شرق انجلترا وشمالها فربما كان أكثر من نصف الفلاحين أحرارا. بيد أن أحوال الفلاحين عموما، سواء كانوا من الأحرار، أو الأقنان، أو الأرقاء، كانت عابسة كئيبة مثل الليالي الموحشة التي كانت تلف قراهم بالبرد والظلام.

لقد كان النظام الإقطاعي مجموعة من المؤسسات يسرت للطبقة الإقطاعية، بجناحيها من الفرسان والقساوسة، أن تعيش من ناتج عمل الفلاحين. ففي معظم المناطق الريفية كان الفلاحون الأقنان يجنون المحصول لكي يضعوه في مخازن السيد الإقطاعي، إذ كان صاحب الإقطاع يعتبر نفسه مالكا للموارد العامة للقرية، وأن من حقه أن يعهد للفلاحين باستخدامها فقط، دون حيازتها. فقد كان على الفلاح أن يقدم عددا من الخنازير لسيده الإقطاعي إذا أراد أن ترعى خنازيره في الغابة الملاصقة للقرية، كما كان عليه أن يقدم الزبد مقابل أن يترك أبقاره في المراعي المحيطة بالحقول، وإذا صاد القروي بعض الأسماك من المجاري المائية، أو البحيرات الواقعة داخل نطاق الإقطاع يكون للسيد الإقطاعي حق الحصول على نصيب من حصيلة الصيد. وباختصار، كان السيد الإقطاعي يعتمد في طعامه على ما ينتجه الفلاحون، كما كان يعتمد على قوة سواعدهم في بناء بيته، أو قلعته، وفي ملابسه أيضا. وفي المقابل كان الأقنان الخاضعون للسيد الإقطاعي لا يتمتعون بأي حقوق مدنية تجاهه.

وفضلا عن هذه الواجبات والخدمات التي ألزم بها الفلاحون تجاه السيد الإقطاعي، كانت له أيضا حقوق سياسية عليهم. ذلك أنه نتيجة تدهور سلطة الدولة المركزية بسبب ضعف الحكام الكارولنجيين الأواخر، وعدم قدرتهم على السيطرة على الدوقات والكونتات، اغتصب هؤلاء السلطة الملكية في دوقياتهم وكونتاتهم وحولوها إلى قطاعات وراثية. وتضمنت السيادة على الضياع الإقطاعية السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين في تلك الإقطاعيات. فقد تمكنوا منذ القرن التاسع الميلادي في فرنسا من انتزاع حق جمع الضرائب، وعقد المحاكمات في القضايا الهامة.

وعلى الرغم من أن الأمراء الإقطاعيين ظلوا يمارسون هذه الصلاحيات باعتبارهم ممثلين للملك إلا أن الطبيعة الوراثية للإقطاع الأوربي جعلت النبلاء الأوربيين يعتقدون بعد مرور الزمن، أن هذه الصلاحيات السياسية هي لهم دون سواهم. وقد اختلف مدى السلطة السياسية للسادة الإقطاعيين على فلاحيهم من مكان إلى آخر داخل أوربا. ففي انجلترا كانت قبضة الملك لا تزال قوية في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان له حق الفصل في الجرائم الكبرى، ولم يكن للنبلاء غير سلطات تشبه سلطات أقسام الشرطة حاليا، وكذلك كان الحال في نورماندي، ولكن في معظم أنحاء فرنسا وغرب ألمانيا كان السيد الإقطاعي يتمتع بسلطات قوية في منطقته، وكانت تلك السلطات مصدر ربح وفير

له، إذ كان بوسعه أن يعقد الأسواق الموسمية في قريته ويفرض الضرائب عليها، كما يفرض رسوم عبور الجسر أو الإبحار في المجرى المائي داخل منطقته.

وهكذا كان الفلاحون فريسة للخوف الدائم والاضطراب المستمر والافتقار للأمن. لقد كانت أيامهم تمضي كئيبة في انتظار مستقبل لا يجيء، وقد وقعوا تحت وطأة الطبيعة التي كانت تقذفهم بنقص المحاصيل والمجاعات والأوبئة بين الحين والآخر، كما وقعوا تحت وطأة سادتهم الإقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب، كما جعلوهم وقودا لحروبهم الإقطاعية. ومن ناحية أخرى، كان الفلاحون الذين لبوا نداء أربان الثاني في كليرمون قد تشبعوا منذ زمن طويل بأفكار الوعاظ الجوالين، وفهموا دعوة البابا على أنها فرصة للخلاص الدنيوي والأخروي أيضا. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتجسد فيها التعصب الديني للطبقات الدنيا في المجتمع الغربي الكاثوليكي، وكان ذلك التعصب موجها ضد أصحاب الديانات الأخرى، كما كان ثورة ضد الأوضاع الاجتماعية المحبطة في الوقت نفسه. وهكذا كانت الأوضاع الاجتماعية المحبطة، والجو الفكري المشبع بالخرافات والتدين العاطفي والتعصب من أهم الدوافع التي حركت المقهورين من أبناء الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر الميلادي للمشاركة في الحملة الصليبية. وكانت هذه الحملة تعني بالنسبة للفلاحين وعامة سكان المدن الذين ساهموا فيها شيئا يختلف عما قصده البابا. ذلك أن الفقراء كما تسميهم المصادر التاريخية لتلك الفترة، كانوا يرون فيها أملا لتحسين أحوالهم وخلاص أرواحهم. لقد كان البابا يوجه خطابه إلى الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية، ولم يخطر بباله أن تسارع جماهير المحرومين إلى الخروج في الحملة التي أرادها البابا أداة لتحقيق أهدافه السياسية في الداخل والخارج، وأدرك البابا خطورة خروج العامة فأعلن أنهم يمكنهم أن يكونوا عقبة، وبذل بعض الجهد لمنعهم، ففي خطاب منه موجه إلى أتباعه في بولوني بتاريخ 15 سبتمبر 1096م يقول «ولكننا لا نسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب دون إذن...كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب دون نصيحة وبغير علم القساوسة المسبق، كما ينبغي عدم ترك الشباب المتزوجين حديثا يذهبون في رحلة طويلة على هذا النحو دون موفقة زوجاتهم». وفي خطاب آخر بتاريخ 7 أكتوبر 1096م يقرر البابا أن العامة الراغبين في الذهاب إلى القدس «أشخاص غير مناسبين لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب في هذه الحملة، لأنهم قد يستطيعون كبح وحشية المسلمين، ويعيدون للمسيحيين حريتهم». وهكذا نرى أن أربان كان يريد استبعاد غير المحاربين من مشروعه الكبير.

ولكن دوافع الفقراء للذهاب في هذه الحملة كانت أعنف من أن تكبحها مثل هذه الإجراءات البابوية. ويذكر كتاب المؤرخات الصليبية المعاصرة كيف أن أخبار طريق الخلاص الجديد، الذي تصوروا أن خطبة أربان تفتحه أمامهم، انتشرت في كل مكان بسرعة على الرغم من فقر وسائل الاتصال والمواصلات في ذلك الزمان. ورأى الفقراء في هذه الدعوة فرصة رائعة لخلاص أرواحهم المثقلة بالذنوب والآثام.

ولما كانت حركة الفقراء ضد سياسة الكنيسة التي خطبت ود الفرسان، فإن هذه الحركة كانت بالضرورة خروجا مضادا على أهداف الكنيسة، ولعل هذا يفسر لنا سبب الإدانة التي عامل بها مؤرخو الحملة الأولى أحداث الحملة الشعبية، لا سيما إذا عرفنا أنهم جميعا كانوا من رجال الكنيسة.

لقد كان الجوع الذي عض بأنيابه معظم أنحاء الغرب الأوربي في سنة 1095م نفسه وراء خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعدمين خلف قادة العصابات التي شكلت ما عرف باسم «الحملة الشعبية» أو «حملة الفلاحين» أو «حملة الفقراء»، لقد اكتشف الفقراء في عبارات البابا، التي وصلتهم محملة بكثير من المبالغة بسبب وسائل الاتصال التي اعتمدت على النقل الشفاهي آنذاك، نغمة أخروية. فقد ربطوا أحوالهم المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التي ستنقلهم إلى أورشليم السماء. ولم يكن في وسعهم أن يفرقوا بين أورشليم الحقيقية في فلسطين، وأورشليم التي تخيلوها في السماء بأبهى الصور وأحلاها. ولأن المقهورين في الغرب الأوربي عشية الحروب الصليبية عاشوا في إحباط وبؤس فإنهم رأوا في الدعوة الصليبية فرصة هائلة اختلط فيها الطمع الدنيوي بالرغبة في الخلاص.

ومن الطبيعي أن تروق الدعوة التي وجهها البابا أربان الثاني في كليرمون عام 1095م لشن حملة مقدسة تحت راية الصليب، في عيون فرسان الغرب الإقطاعي على نحو خاص. وعلى الرغم من كل ما قيل عن الحج والحرب المقدسة، إلا أن من المستحيل تفسير الدور الكبير الذي لعبه الفرسان الإقطاعيون في الحركة الصليبية في ضوء الدين، والنفسية الاجتماعية، والاعتزاز بالمهنة التي نشأوا عليها، لأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية الجافة كانت لها أهميتها، وربما كانت أهم منها في عالم اليوم. وهذا ما يستدعي التعرف على أحوال الفرسان لمعرفة حقيقة دوافعهم.

لقد كان من أهم خصائص القرن الحادي عشر الميلادي في أوربا الغربية بلورة النظام الإقطاعي الذي كانت مؤسساته آخذة في التطور والنمو منذ القرن الثامن الميلادي. وقد قام هذا النظام، بشكله التقليدي الذي عرفته فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، على أساس من ثلاثة عناصر هي: أولا: عنصر شخصي يربط السيد الإقطاعي بتابعه، ويتمثل هذا العنصر في رابطة الولاء الشخصي الذي يدين به التابع لسيده. وقد أصطلح على تسميته السيادة والتبعية. ثانيا: عنصر فعلي: وهو حيازة الإقطاع في مقابل تقديم الخدمة العسكرية المناسبة في جيش السيد الإقطاعي. ثالثا: لا مركزية القضاء: وقد أتاح هذا العنصر حقوقا قضائية للسادة الإقطاعيين على حساب سلطة الملك المركزية، وفضلا عن ذلك صار الإقطاع يشكل نظاما قيميا وأخلاقيا واجتماعيا في فرنسا القرن الحادي عشر الميلادي، وكان الفرسان الإقطاعيون نتاجا لهذا النظام بطبيعة الحال.

وتكشف لنا ملحمة راؤول كامبري عن مجموعة القيم والمثل التي تحرك الطبقة الحاكمة في المجتمع الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى. وتكشف هذه الملحمة عن أن القيم والمثل الحاكمة في المجتمع الإقطاعي كانت ثلاثا: أولا- البطولة والبسالة العسكرية اللتان كانتا تعتبران من الحسنات الاجتماعية، لأن الرجل القوي فقط هو الذي كان يستطيع توفير الأمن والحماية في ذلك العصر الذي مزقته الحروب الإقطاعية. ثانيا: كان الولاء الشخصي هو عصب النظام الاجتماعي الإقطاعي، كما كانت العلاقات الشخصية بين الأفراد هي الوسيلة الوحيدة لإقرار الالتزامات السياسية والقانونية. ثالثا: كان ثمة نظام تصاعدي من روابط الولاء الشخصي يبدأ من القاعدة عند الفارس البسيط الذي يمتلك أرضا بالكاد تكفي لإعالته وتسليحه، حتى الهرم الإقطاعي عند القمة التي كان يفترض أن يكون الملك متربعا عليها.

وكانت فرنسا في القرن الحادي عشر الميلادي نموذجا للمجتمع الإقطاعي، ولعل هذا من بين الأسباب الرئيسة التي دعت أربان الثاني لأن يوجه دعوته إلى أمرائها وفرسانها بعيدا عن السلطة الملكية القوية في كل من ألمانيا وانجلترا.

لقد كان الوضع الاجتماعي - السياسي في فرنسا آنذاك تجسيدا للفكرة الإقطاعية القائلة «لا أرض من دون سيد إقطاعي» وقد أدى هذا إلى دخول أعضاء المؤسسة الإقطاعية في فرنسا، منذ نهاية القرن العاشر الميلادي، في نظام تصاعدي كون الهرم

الإقطاعي الذي كان الملك «من أسرة كابيه» على قمته، وله السلطة الاسمية على كبار السادة الإقطاعيين. وقد كان يليه في السلم الإقطاعي مباشرة عدد من أمراء الإقطاعيات هم: كونت الفلاندرز، ودوق نورماندي، وكونت شامبني، ودوق أقطانيا، وكونت تولوز، ثم دوق برجنديا. وكان لكل واحد من هؤلاء أفصاله. كما كان لكل فصل منهم أفصال تابعون له، وهكذا حتى نصل إلى الفارس العادي الذي يملك أرضا بالكاد تعيله وتكفيه. وكان لكل عضو في الهرم الإقطاعي التزاماته وواجباته تجاه سيده وتجاه أتباعه من الأفصال حسبما يحددها العرف الإقطاعي. وهناك عدة وثائق تحدد هذه الواجبات والالتزامات: منها وثيقة ترجع إلى سنة 1010م تنقل لنا عملية الولاء الإقطاعي من فيكونت كاركاسون إلى مقدم دير سانت ماري في جراس بفرنسا وتبدأ الوثيقة على لسان النبيل الإقطاعي «باسم الرب، أنا برنار أتون، فيكونت كاركاسون في حضور...بما أن السيد ليو، رئيس الدير المذكور، قد طلب مني بحضور جميع المذكورين أعلاه أن أعترف له بالولاء والتبعية مقابل القلاع والضياع، والأماكن التي حازها أسلافي وأجدادي من أسلافه في رئاسة الدير المذكور أقطاعا لهم، والتي ينبغي أن أحوزها كما حازوها، فإنني اعترفت بالتبعية والولاء للسيد رئيس الدير ليو كما ينبغي». ثم تمضي الوثيقة لتحدد مفردات الإقطاع الذي حازه الفيكونت من رئيس الدير، كما يعترف بأنه وأسلافه يجب أن يأتوا إلى الدير كلما عين رئيس جديد للرهبان لكي يجددوا التبعية والولاء، ثم يحدد بقية التزاماته الإقطاعية.

وقد حدد أسقف شارتر فلبرت الحقوق والالتزامات المتبادلة بين السيد الإقطاعي وتابعه في نص يعود إلى سنة 1020م.

وبغروب شمس القرن العاشر الميلادي كانت حقوق وواجبات كل من السيد الإقطاعي والتابع (الفصل) قد تحددت واستقرت تماما. ولما كان الهدف الأساسي من التنظيم الإقطاعي هو التعاون في الحرب، فقد قام العرف الإقطاعي على هذا الأساس. وكان الفصل ملزما بتقديم الخدمة العسكرية لسيده، بحيث لا تتجاوز مدتها أربعين يوما فضلا عن عدة التزامات أخرى. وفي المقابل كان على السيد الإقطاعي أن يحافظ على تابعه، ولم يكن من حقه أن يحط من شأنه بالإهانة، أو بأي طريقة أخرى، وإذا لم يف الفصل بقسم الولاء الذي قطعه لسيده، كان يتعرض لأن ينتزع منه إقطاعه بعد محاكمته في بلاط سيده. أما إذا كان تصرف السيد الإقطاعي تجاه فصله غير لائق فيكون للفصل

حق التحلل من الرابطة الإقطاعية، وعادة ما كانت تبدأ بتكسير السنبلة الرمزية، أو السكين الرمزي الذي يعني انتقال الإقطاع إليه، وكان هذا يعني الحرب، بيد أن الحرب كانت حقيقة يومية في المجتمع الإقطاعي.

لقد كانت الحرب هي الحرفة الأساسية للفارس الإقطاعي، وكان يتم تدريبه منذ صباه على حمل سلاح الفارس ودرعه، واستخدام ذلك كله بمهارة. لقد كانت الحرب مهنة الرجل الراقي، إذ كان تعليمه منذ نعومة أظفاره يهدف إلى تكريس الخشونة جسديا وروحيا، فقد كانت مدرسته حجرة حارس في مركز أو موقع عسكري، والقلعة هي منزله، كما أنه متأهب دائما لوقوع أي هجوم. ولذلك كان يقضي الشطر الأكبر من حياته متدربا على القتال أو مشتبكا في معركة حقيقية. لقد كانت الحرب مصدر فرح ومتعة للفارس الإقطاعي.

أما أوقات السلم المملة فكان يقضيها بين الجدران الصماء في القلاع الكئيبة، إذ لم تكن هناك وسائل للتسلية، ولم يكن هناك بديل عن الصيد. ولذلك كانت المعركة هي قمة حياة الفارس. وفي كثير من الأحيان كانت هي النهاية لحياته أيضا. وعلى العموم كان الفارس الإقطاعي في غرب أوربا القرن الحادي عشر الميلادي متوحشا همجيا، مولعا باللذات الحسية، ولكنه كان في الوقت نفسه متدينا على طريقته، فقد كان يتقبل تعاليم الكنيسة بلا مناقشة. وكان كثير من الفرسان يؤدون الطقوس والشعائر الكاثوليكية، ولكنهم جمعوا بين هذا النمط من التدين الشكلي والوحشية التي ميزت سلوكهم العام. وكان من عادة فرسان الغرب الأوربي منح الهبات السخية للأديرة التي أسستها العائلة، أو تأسيس أديرة جديدة باعتبار ذلك وسيلة للتكفير عن الخطايا. ولذلك كانت الدعوة إلى الحملة الصليبية، وما يصحبها من غفران، مصدر إغراء لهذه الطبقة.

ولم يكن الفارس يعيش في مستوى معيشي أفضل كثيرا من مستوى الفلاحين في أرضه، إذ كان يأكل النوعية نفسها من الطعام، وإنما بكميات أكبر، ولكنه كان يمتلك عددا من الثياب أكثر من الفلاح الذي لم يكن يملك سوى ثوب واحد في أغلب الأحوال. وكان يعيش مع زوجته في بيت خشبي يحيط به خندق، صحيح أنه أكبر من بيوت أهل القرية ولكنه لم يكن أكثر راحة من بيوت الفلاحين الأحرار الموسرين. أما قلاع النبلاء فكان شكلها وحجمها وطريقة بنائها تعتمد على موارد السيد الإقطاعي، وما توفره له الأرض من ميزات، وربما كان هناك عدد قليل من الإقطاعيين يملكون داخل

قلاعهم بعض المباني الحجرية، مثل البوابة وبعض الأبراج. وقد كانت القلعة عنصرا هاما في السياسة الإقطاعية، لأن قلعة بها حامية قوية، وتتوفر فيها المواد التموينية، كانت تستطيع الصمود فترة طويلة بوجه أي هجوم أو حصار ضدها، بالوسائل المعروفة آنذاك.

ولم يكن الفلاحون فقط يعانون من الزيادة السكانية في أوربا القرن الحادي عشر الميلادي بالنسبة لموارد بلادهم المحدودة، إذ كانت الحقول الشحيحة لا تزال عاجزة عن أن تعول سكانها، وفيهم الفرسان بطبيعة الحال. ونتيجة ربط التبعية الإقطاعية بالأرض التي تمنح في المقابل كانت الإقطاعيات أقل من عدد الفرسان الطامحين إلى الحصول على الأرض. وقد عرفت هذه الظاهرة باسم الجوع إلى الأرض، وقد تسببت في كثير من الحروب الإقطاعية التي مزقت أوربا تماما. وعند نهاية القرن العاشر الميلادي كان تقسيم الإقطاع إلى إقطاعيات صغرى قد صار أمرا شائعا، وبذلت الكنيسة كل ما في وسعها لحصر نطاق الحرب في المجتمع الإقطاعي في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق الترويج لحركة «سلام الرب»، ولكن هذه الحركة لم تحرز نجاحا يذكر.

كان ملك فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين سيدا على كبار الأمراء الإقطاعيين، بيد أنه لم يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي على أفصاله من كبار الدوقات والكونتات. وبما أن الملك القابع في باريس كان عاجزا عن أن يهزم دوق نورماندي، أو كونت تولوز، وبالتالي لم تكن له أي سيطرة حقيقية عليهما أو على غيرهما من الناحية العملية، لذلك فإن ملك فرنسا – سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة 987م – لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس. لقد كانت فرنسا في حقيقة أمرها تحالفا بين الإمارات الإقطاعية التي استقرت حدودها في نوع من التوازن السياسي البدائي في القرن الحادي عشر الميلادي، ولم يكن للملك سوى ظل من سلطة باهتة. ولذلك اختار البابا فرنسا لتكون المكان الذي يطلق فيه دعوته إلى الحملة الصليبية.

أما في ألمانيا فقد كان هنري الثالث (1039-1056م) وابنه هنري الرابع (1056-1106م) يحاولان إرساء ملكية قوية ومركزية، على الرغم من أن تمرد المحليين جعل ألمانيا تعاني بعض الارتباك في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وعلى الرغم من أن النزاع مع البابوية حول ترسيم الأساقفة (النزاع حول التقليد العلماني) قد أدى في النهاية إلى بروز سلطة الأمراء المحليين. وقبيل الحروب الصليبية كانت الإمبراطورية مشغولة بصراعاتها في الداخل والخارج.

أما في انجلترا فكان الملك يفرض سلاما قويا على توليفة غير مستقرة من السكان الذين تألفوا من الأنجلو- سكسون، والنورمان ذوي الأصول الدانمركية. وفي إسبانيا كانت ممالك الشمال المسيحية تأخذ زمام المبادرة في الهجوم ضد مسلمي الأندلس. ولأن كل الموارد والإمكانات الإسبانية كانت مطلوبة في الحرب ضد المسلمين، فإن الأسبان لم يتمكنوا ن المشاركة في الأحداث التي شهدتها أوربا عامة، ومن المساهمة في الحملة الصليبية على نحو خاص.

هذا هو الموقف السياسي في أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية، وهو موقف يكشف الدوافع التي حدت بأبناء الطبقة الإقطاعية من الفرسان إلى أخذ شارة الصليب.

لقد كانت الرغبة في المغامرة وحب النهب من دوافع الأفراد حقا، ولكننا نعرف المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي واجهت طبقة الفرسان كلها، وهي مشكلات جعلتهم يرون في الحملة الصليبية منفذا للخروج من هذه المشكلات، إذ كانت هناك أزمة في الاقتصاد الزراعي بجنوب فرنسا وايطاليا منذ سنة 850م، أخذت تتفاقم حتى بلغت ذروتها سنة 1000م. وقد وصف لنا رالف جلابير الوباء المخيف الذي عرف باسم «نار القديس أنطونيو» الذي كان يأكل أطراف البشر، كما حدثنا عن المجاعات الرهيبة التي طحنت أقاليم أوربا آنذاك. وكان هذا كله ناتجا من نقص الإنتاج وعجز الأرض عن إطعام أعداد السكان المتزايدة. وقد ذكر أربان الثاني لمستمعيه من الفرسان أن «هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكبيرة، وهي لا تفيض بالثروات الكبيرة، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها، وهذا هو السبب في أنكم تشنون الحرب ضد بعضكم، وتقتلون بعضكم بعضا».

لقد كانت الكلمات التي نسبها روبير راهب ريمس إلى البابا تشير إلى حقيقة مؤداها أن الزيادة السكانية في غرب أوربا القرن الحادي عشر الميلادي من أهم الأسباب التي حفزت أبناء الغرب الأوربي على البحث عن أرض جديدة وموارد جديدة خارج أوربا. وإذ كانت جبهات التوسع الأوربية عاجزة عن تحقيق هذه الطموحات، جاءت الدعوة إلى التوسع في الشرق العربي، وبمباركة الكنيسة بمثابة الحل السعيد للمشكلات الناجمة عن حرص العائلات الإقطاعية على عدم تقسيم الأرض الزراعية.

لقد دأبت طبقة الفرسان على إتباع عدة وسائل للحفاظ على إقطاع العائلة دون تفتيت. ففي شمال فرنسا كان حق الإرث قاصرا على الابن الأكبر، أما الأبناء الذين يصغرونه فكان عليهم أن يبحثوا عن منفذ، إما بالانضمام للكنيسة، وإما بالبحث عن وريثة إقطاعية يتزوجها (وهو أمر نادر على أي حال) وإما بالبحث عن مستقبل عسكري مع البارونات واللصوص، وإما ضمن أتباع أحد السادة الإقطاعيين الكبار. ومن الواضح أن الحملة الصليبية جاءت متنفسا وصمام أمان لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار.

لقد كان الحفاظ على مستوى معيشة العائلة ومركزها الاجتماعي يستوجب التضحية من جانب بعض الأفراد. وفي إيطاليا وفرنسا جنوب نهر اللوار تم تجنب تقسيم الأرض بعدة أشكال من الملكية الجماعية. كما أن المصادر التاريخية تحدثنا عن الملكيات الحرة التي لم تكن مرتبطة بأي التزامات إقطاعية. وقد عرف هذا الشكل باسم ملكية الأخوة الذي تم ابتكاره لمنع تفتيت ملكية الأرض، إذ كانت الأرض ملكية مشاعة بين الأخوة. وفي بعض الأحيان كان الأعمام، وأبناء الأخوة يشاركون في الملكية. وإذا كان هناك عدد كبير من الورثة كان لا بد لبعضهم من أن يلحق بالأديرة أو الكاتدرائيات. وهذا يعني الفرار من قيود العائلة إلى الكنيسة بقيودها. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، وفي القرن الثاني عشر الميلادي أيضا، كان الانضمام إلى الحملة الصليبية فرصة حقيقية للهرب من نظام ملكية الأخوة، كما كان فرصة حقيقية أمام المرء لكي يحقق استقلاله.

وفي كل الأحوال كانت هناك أهداف ومطامع دنيوية عديدة وراء مشاركة أبناء هذه الطبقة في الحملات الصليبية تبلورت كلها حول الرغبة في التوسع وملكية الأرض، وفي طياتها تأتي أسباب فرعية عديدة.

وعلى الرغم من أن غرب أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي كان منطقة ريفية الطابع كما أسلفنا القول، إلا أن هناك بعض الدلائل على بدايات متواضعة للصناعة اليدوية والتجارة. كذلك كانت المدن قد بدأت تظهر على استحياء في بعض مناطق أوربا، ولا سيما في إيطاليا حيث لم تكن المدن قد اندثرت تماما. فقد استمرت عدة مدن إيطالية في الحفاظ على علاقتها التجارية بالقسطنطينية طوال العصور الوسطى الباكرة، إذ استمرت سفن التجارة تروح وتغدو بين العاصمة الإمبراطورية، وآمالفي، والبندقية تحت حماية الأسطول البيزنطي.

وفي نحو منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كانت البندقية قد بنت أسطولها القوي. وفي الفترة نفسها تقريبا كانت جنوا وبيزا قد بدأتا التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط مع مرسيليا، وناربون، وبرشلونة. وقد أخذت جنوا وبيزا زمام المبادرة في الهجوم على أساطيل المسلمين التي كانت قد دأبت على مهاجمة موانئهما والاستيلاء على سفنهما. وقد ابتكرت مدن الشمال الإيطالي الكوميونات التي عرفها أحد الباحثين بأنها: «رابطة تجمع كل سكان المدينة، وليس التجار فقط، يرتبطون بقسم يتعهدون فيه بالحفاظ على السلام، والدفاع عن الحريات العامة وطاعة الحكام» ، ولم يلبث كوميون جنوا وكوميون بيزا وجمهورية البندقية التجارية أن فرضت نفسها على تجارة البحر المتوسط. ثم لم تلبث هذه المدن التجارية أن تحولت إلى جمهوريات مستقلة غير خاضعة لسلطة الكنيسة. وقد لعبت اثنتان من هذه الجمهوريات، هما جنوا وبيزا، دورا هاما في الحملة الأولى، في مقابل السيطرة على موانئ شرق المتوسط، ولم تلبث البندقية أن لحقت بهما في هذا المضمار. ومثلما كان الفقراء من فلاحي الغرب الأوربي يبحثون عن فرصة لحياة أفضل تحت سماء الشرق، ومثلما كان فرسان أوربا يحاولون التوسع لحل مشكلاتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الناجمة عن عجز الموارد الزراعية، كانت الجمهوريات التجارية الإيطالية الطموح تحاول أن تفوز بالثروة الطائلة التي نعم بها العالم الإسلامي، وأن ترث دور المسلمين في تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم. وجاءت الحروب الصليبية فرصة للتوسع الأوربي على شتى المستويات.

وبينما كان الفلاحون يزيلون الغابات لكي يستزرعوا أرضها، والفرسان يحاولون بلورة مؤسساتهم الإقطاعية طوال القرن الحادي عشر الميلادي، كان رجال الكنيسة أيضا يحاولون تطوير مؤسساتهم وإحكام سيطرتهم على الغرب الأوربي. ومن المثير أن هذه كلها كانت خيوطا في شبكة واحدة للتوسع والنمو وجدت ضالتها في مشروع الحملة الصليبية الذي طرحه أربان الثاني.

فخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تورطت في الشؤون العلمانية إلى حد بعيد، إذ كانت الأراضي الزراعية الشاسعة التي امتلكتها الأديرة والأسقفيات بمثابة إقطاعيات تستوجب الخدمة العسكرية. وبالفعل قاد بعض رجال الكنيسة قواتهم الإقطاعية وهم يصرون على أن ذلك لا يمثل انتهاكا للقانون الكنسي، ولكن معظم الأساقفة ومقدمي الأديرة عهدوا إلى وكلاء علمانيين بأداء الخدمة العسكرية

الإقطاعية بدلا منهم. وكان السادة العلمانيون هم الذين يعينون الأساقفة ومقدمي الأديرة داخل إقطاعياتهم وإماراتهم. وقد خدم رجال الكنيسة في بلاط السادة العلمانيين مستشارين ورجال إدارة. وقد أضر هذا الوضع بالوظيفة الروحية للكنيسة إلى حد بعيد. وانعكس هذا على حال الكنيسة الكاثوليكية عموما بين بابوية يوحنا الثامن (872-882م) ويوحنا الثاني عشر (955- 964م) على وجه الخصوص. وكان يوحنا الثاني عشر «ذلك الولد الفاسد» مثالا واضحا على فساد البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامة، إذ كان في الثامنة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش البابوي، وقد قال لويد براند أسقف كريمونا إنه مات بسبب إفراطه الجنسي أثناء نومه مع إحدى عشيقاته. وفي القرن الذي أعقب وفاة يوحنا الثامن مات معظم الباباوات في حوادث قتل واغتيال، ولم يمت على سريره في سلام سوى عدد قليل منهم. فقد اغتيل يوحنا الثامن، وزج بستيفن السادس (896-897م) في السجن حتى لقي حتفه، أما بندكت السادس (973-974م) فقد خنق، في حين قتل يوحنا الرابع عشر (983-984م) في كنيسة سانت أنجيلو.

وكان هذا كله تعبيرا عن مدى هوان البابوية من ناحية، وعن أن الباباوات كانوا من أبناء الأسر النبيلة التي رفعت كلا منهم إلى عرش القديس بطرس لأسباب تتعلق بمصالح الأسرة وسياستها من ناحية أخرى. وكانت المنافسة بين العائلات الأرستقراطية لجعل الكرسي البابوي عرشا وراثيا هي العامل الفعال في جعل البابوية تخسر هيبتها وسيطرتها على العالم المسيحي الكاثوليكي.

ومن ناحية أخرى، فإن دخول الكنيسة في النسيج الإقطاعي لمجتمع غرب أوربا أدى في النهاية إلى أن صارت الوظائف الكنسية تباع وتشترى. وكانت النتيجة أن أغلبية رجال الكنيسة كانوا جهلة فاسدين. وعلى العموم كانت أحوال الكنيسة تبعث على الرثاء.

وفي سنة 911م تأسس دير كلوني على يد الدوق وليم أمير أقطانيا أملا في إصلاح الأوضاع المتردية. وكان ذلك أول رد فعل واضح ومؤثر في مواجهة الفساد الذي عانت منه الكنيسة الكاثوليكية. وفي مقابل العلاقات الإقطاعية التي كانت الكنيسة قد تورطت فيها، حتى ذلك الحين، حرّم دستور كلوني قبول أي أرض إذا كانت مشروطة بالخدمة العسكرية. وسرعان ما انتشر دستور رهبان دير كلوني في كل مكان، وفي شتى بقاع أوربا وجدت الأديرة الكلونية التي صار لها نفوذ ضخم. وبفضل مساعدة الإمبراطور الألماني

هنري الثالث تم إصلاح الكثير من الأديرة الألمانية. وصارت الأديرة الكلونية مقصد كل المتحمسين والمخلصين من رجال الكنيسة.

بيد أن أولئك المتحمسين من رجال الكنيسة لم يكونوا على استعداد لأن يقصروا حدود إصلاحاتهم على الأديرة، إذ كانت الممارسات السيئة والفاسدة لرجال الكنيسة تثير قلقهم. وأدرك الإصلاحيون أن هناك وسيلة واحدة لتحقيق أهدافهم هي تنظيم الكنيسة على أسس قوية، وبحكومة مركزية فعالة. ولذلك تحولوا صوب البابوية التي تتبلور حولها الكنيسة الكاثوليكية. وكان البابا ليو التاسع أول الباباوات الإصلاحيين. فبعد أن ارتقى العرش البابوي (1049-1054م) عقد عدة مجامع دينية، وأصدر عدة قرارات ضد السيمونية (وهي المتاجرة بالأشياء المقدسة، وهي نسبة إلى سيمون الساحر، وهو شخص سامري الأصل، ماهر في فن السحر . تنصر وأراد أن يشتري من بطرس الرسول سلطان وضع الأيدي وصنع المعجزات، فخذل) وزواج رجال الدين، والعنف والتحلل الأخلاقي. وبهذه الطريقة صارت السلطة البابوية سلطة حقيقية وواضحة للعيان. وكانت النتيجة أن البابوية - التي كانت حتى ذلك الحين مصدر عار وفضيحة بالنسبة للجادين من رجال الكنيسة - كسبت تأييد الحركة الإصلاحية. ولأن البابا كان يتم اختياره بواسطة القساوسة وشعب روما، وهو ما كان يعني أن النبلاء الإيطاليين كانوا يتدخلون في اختيار البابا بالشكل الذي يوافق مصالح عائلاتهم، فإن الإصلاحيين انتهزوا فرصة مواتية بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث، وتم إصدار مرسوم الانتخاب البابوي الشهير سنة 1059م.

وقد أنهت هذه الوثيقة التي أصدرها البابا نيقولا الثاني (1059-1061م) تدخل العلمانيين في انتخاب البابا وقصر هذا الحق على مجلس الكرادلة. وتقول الوثيقة «نحن البابا نيقولا الثاني رسمنا وقررنا أنه عندما يموت بابا كنيسة روما العالمية فإن الأساقفة الكرادلة ينبغي أن يجتمعوا ويتدبروا الأمر مليا، ثم يلحق بهم القساوسة الكارديناليون، ثم يوافق بقية رجال الكنيسة والشعب على الانتخاب الجديد»، والوثيقة تمنع صراحة تدخل أي سلطة علمانية في هذه المسألة.

وقد تمكن الإصلاحيون من زيادة سلطة البابا على الكنيسة الكاثوليكية بأسرها من خلال عدة وسائل أهمها «المندوبون البابويون» الذين كان البابا يرسلهم في مهمات متعددة في شتى أنحاء العالم الكاثوليكي لتأكيد سلطته. وعند هذه النقطة بدأ الصراع على السلطة

بين الكنيسة والدولة. وقد تفجر الصراع علنا عندما تولى هيلدبراند عرش القديس بطرس تحت اسم جريجوري السابع سنة 1073م. وقد ارتبطت هذه الفترة كلها باسمه فعرفت باسم «الثورة الجريجورية»، أو «الإصلاح الجريجوري». وقد اهتم جريجوري السابع بتدعيم سلطة البابوية إلى أبعد الحدود. وقد نسب إليه مرسوم يحدد أبعاد السلطة البابوية يتكون من ست وعشرين نقطة تدور كلها حول مفهوم سمو البابوية على الدولة. وقد عرفت هذه الوثيقة «بالإملاء البابوي».

وحين اعتلى جريجوري عرش البابوية وجد أن الجالس على عرش الإمبراطورية هو الإمبراطور هنري الرابع الذي كان قد بلغ السن القانونية لتوه، ولكنه كان أقوى حاكم في أوربا. ومع هذا فإن «الشيطان المقدس» جريجوري السابع الذي كان قد انطلق في سبيل تدعيم السلطة البابوية لم يتورع من أن يطلب من الملك الألماني أن يوقف فورا نظام التقليد العلماني الذي كان يتيح له التحكم في تعيين كبار رجال الكنيسة، وهدد بتوقيع الحرمان على الإمبراطور إذا لم يمتثل للمرسوم الذي أصدره. وقرر هنري أن يتصدى بقوة لطموح البابا، وعقب مجمع ديني أيده فيه القساوسة الألمان الذين أزعجتهم سياسة جريجوري السابع، أرسل المجتمعون في وورمس إلى البابا سنة 1076م رسالة حادة الكلمات تقول: «قررنا بالإجماع..أنه لن يكون بمقدورك أن تتولى رئاسة الكرسي الرسولي بعد الآن» وتمضي الوثيقة لتصف البابا بالغطرسة والشر، وبأنه راهب مزيف، يعاشر امرأة في الحرام، وأن «الشكوى ارتفعت في كل مكان بأن كافة الأحكام والقرارات الصادرة عن الكرسي الرسولي، وأن الكنيسة كلها تحكمها هذه المرأة».

وكان الرد الفوري من البابا العدواني خلع الإمبراطور، ووقّع عليه قرار الحرمان الذي أعطى الذريعة للأمراء في الأقاليم لإشعال نار التمرد من جديد ضد الإمبراطور، مع التهديد بانتخاب غيره إذا لم يحصل على الغفران البابوي. ثم حدث أن استعد البابا للرحيل إلى ألمانيا لحضور انتخاب النبلاء الألمان لإمبراطور جديد، وفي الوقت نفسه استطاع رجال الكنيسة الألمان في بلاط هنري أن يقنعوه بأن الحل الوحيد هو أن يطلب الغفران البابوي حتى ينقذ عرشه. وبالفعل سافر الإمبراطور إلى إيطاليا. وفوق قمة جبلية على مسافة قريبة من بارنا، كانت هناك قلعة كانوسا التي تملكها ماتيلدا صديقة البابا، ولا تزال أطلال هذه القلعة العابسة باقية حتى اليوم توحي بالعداء مثلما كان حالها يوم قصدها هنري الرابع تحت ثلوج يناير. وعندما قابله البابا تحول استسلام الإمبراطور إلى

نصر سياسي. وسرعان ما عاد إلى ألمانيا ليخمد تمرد النبلاء الذين لم يتلقوا من البابا سوى خطاب يصف فيه خضوع هنري الرابع، وسرعان ما أدت تطورات الأحداث إلى تعيين بابا مضاد. وعندما طلب البابا مساعدة روبرت جويسكارد زعيم النورمان في جنوب إيطاليا جاءت جيوش الملك النورماني، ونهبت روما، واسترقت الآلاف من رجالها ونسائها الذين بيعوا في أسواق النخاسة. ولم يستطع جريجوري أن يبقى في المدينة المنهوبة، فغادرها مع جيش النورمان ليموت في منفاه داخل الحذاء الإيطالي بعد وقت قصير.

وعلى الرغم من موت جريجوري السابع سنة 1085م إلا أن النزاع العلماني، أي الصراع على السمو والسيادة بين الدولة والكنيسة ظل قائما لفترة طويلة بعد ذلك. وقد كان لهذا الصراع أثره في شكل الحملة الصليبية الأولى، إلا أن مساهمة الألمان فيها لم تكن مساوية لمساهمة الفرنسيين الذين وجه البابا إليهم خطابه. كذلك كان النزاع العلماني من أهم دوافع البابوية في الدعوة إلى الحملة الصليبية.

لقد كانت البابوية راغبة في توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب في خدمة أهدافها بحيث يتحقق السمو البابوي على الإمبراطورية، ويؤكد هذا كلام المؤرخ القسيس فوشيه دي شارتر على أن البابا أربان الثاني كان حريصا على أن يسمو بالكنيسة. ومما يسترعي الانتباه أن البابا وجه دعوته إلى الأمراء الإقطاعيين دون الملوك الذين كان في خصومة مع كل منهم من ناحية، ولكي يكون النبلاء وسيلة البابوية في التصدي لأولئك الملوك من ناحية أخرى. وقد أشار وليم الصوري إلى هذه الحقيقة أيضا.

وهكذا كان اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لفكرة الحملة الصليبية تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها بعضا، كما كان في الوقت نفسه تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع. لقد كانت الحملة الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، كما سبق القول، ومن ثم فإنها سعت لتحقيق أهدافهما. وكانت الدوافع التي حركت الجميع تتجه نحو بؤرة واحدة: هي التوسع في الخارج، وإيجاد مجال حيوي للنمو الحضاري الذي كانت أوربا الغربية تعاني إرهاصاته في ذلك الحين.

ولا شك في أن الظروف السائدة في الشرق قد شجعت البابوية على طرح مشروعها الكبير. وإذا كان البابا جريجوري السابع، والبابا أربان الثاني من بعده، قد استغلا أزمة الإمبراطورية البيزنطية لصالح الكنيسة الكاثوليكية، بحيث يتم توحيد الكنيستين تحت

زعامة بابا روما، فإن تطورات الأحداث لم تلبث أن غيرت هدف الحملة من القسطنطينية إلى بيت المقدس.

والحقيقة أن الفترة التي شهدت نضج الفكرة الصليبية في الغرب الأوربي كانت هي نفسها فترة التراجع والتدهور في أحوال بيزنطة على النحو الذي جعلها تلجأ للغرب اللاتيني - عدوها التقليدي - في طلب المساعدة.

عندما مات باسيل الثاني سنة 1025م، كان موته بمثابة الخاتمة لفترة باهرة متألقة في التاريخ البيزنطي، فقد ترك باسيل الثاني لخلفائه إمبراطورية امتد سلطانها إلى مدى لم تصله منذ حملات هرقل المظفرة ضد الفرس في القرن السابع الميلادي. بيد أن خلفاء باسيل الثاني لم يكونوا رجال دولة أو قادة عسكريين، في الوقت الذي أحاط الأعداء بالإمبراطورية من كل جانب. فقد كان المسلمون على الحدود الشرقية وفي البحر المتوسط مصدر إزعاج وتهديد، ولكن جيوش الإمبراطورية كانت لا تزال قادرة على التصدي لهم. وفي البلقان أخذ السلاف يثيرون المتاعب، وحاصر البلغار تسالونيكا كما نهبت جيوشهم بلاد اليونان، ولكن الجيش البيزنطي تمكن من قمعهم في النهاية. وفي سنة 1043م هاجم الروس العاصمة بسبب امتيازاتهم التجارية تحت قيادة فلاديمير أمير نوفجورود، ولكنهم ردوا على أعقابهم وتحطم أسطولهم. أما في إيطاليا فقد كانت أوضاع البيزنطيين لا تزال جيدة على الرغم من فشل حملتهم ضد مسلمي صقلية سنة 1038م. وهكذا كان موقف الإمبراطورية جيدا على الصعيد العسكري في السنوات العشرين التي أعقبت وفاة الإمبراطور باسيل الثاني.

وإذا كانت بيزنطة تمكنت من كبح جماح أعدائها القدامى فإن الساحة لم تلبث أن شهدت أعداء جددا، أكثر حيوية وجرأة، وأشد تصميما على تدمير الإمبراطورية. وقد كان ظهورهم في وقت غير مناسب تماما للإمبراطورية التعسة التي كان يعتلي عرشها أفراد أقل كثيرا من أن يملأوا الفراغ السياسي والعسكري، وكان أهم أولئك الأعداء الجدد: البشناق، والنورمان، والأتراك السلاجقة.

والبشناق قبائل بدوية من أصل تركي، عرفهم البيزنطيون قبل القرن الحادي عشر الميلادي. ومنذ تولي الإمبراطور قسطنطين الثامن (1025-1028م) عرش بيزنطة حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي استمرت هجمات البشناق على جبهة البلقان. وفي عصر الإمبراطور قسطنطين التاسع مونو ماخوس (1042-1067م) شنت هذه القبائل

واحدة من أكثر هجماتهم تدميرا، ودمروا الجيش الإمبراطوري سنة 1053م، ولكنهم لزموا السكون خلال حكم الإمبراطورة تيودورا (1055-1056م)، وحكم الإمبراطور ميخائيل السادس (1056-1057). وهي فترة قصيرة على أي حال. ثم انضموا في هجوم كبير المجرمين ضد الإمبراطورية سنة 1059م. وبعد خلع الإمبراطور ميخائيل السابع (1071-1078) اندلعت الحرب الأهلية داخل الإمبراطورية، مما أتاح الفرصة أمام البشناق وحلفائهم من قبائل الأوز لنهب الأراضي البيزنطية في البلقان. وكان هذا هو الحال عندما تولى اليكسيوس كومنينوس العرش.

أما الجبهة الإيطالية فقد بدأت المشاكل فيها بالغزو النورماني لصقلية وجنوب ايطاليا. وعلى الرغم من أن المد النورماني في جنوب ايطاليا قد انتهى بالاستيلاء على ميناء باري على البحر الأدرياتي، والذي كان يمثل آخر المعاقل البيزنطية في ايطاليا، إلا أن كلا من الإمبراطور رومانوس ديوجينيس وخليفته ميخائيل السابع كانا يأملان في أن يفيدا من النورمان لكسر شوكة الأتراك السلاجقة من جهة، ويحاولا اتقاء أي هجمات أخرى يشنها روبرت جويسكارد، حاكم النورمان الطموح، ضد الأراضي البيزنطية نفسها بعد أن بات سيد الجنوب الإيطالي بلا منازع. وقد وافق روبرت جويسكارد على مهادنة الإمبراطورية البيزنطية في وقت كانت فيه علاقته مع البابوية في أسوأ أحوالها، وربما كان يقصد أن يحول دون قيام تحالف بين الإمبراطور البيزنطي والبابا الكاثوليكي ضده. وعندما أطاحت واحدة من مؤامرات القصر الشهيرة في التاريخ البيزنطي بالإمبراطور ميخائيل السابع سنة 1078م وجد روبرت جويسكارد فيها فرصة سانحة للهجوم على الإمبراطورية. ومن ناحية أخرى، كان البابا جريجوري السابع حانقا على البيزنطيين بعد فشل المفاوضات معهم، ولذالك سارع إلى مباركة حملة جويسكارد على بيزنطة. وبينما كان القائد النورماني يحشد جيوشه استعدادا لعبور البحر الأدرياتي ومهاجمة الأراضي البيزنطية كان النزاع على السلطة قد حسم لصالح اليكسيوس كومنينوس. وكان حكمه الذي دام سبعة وثلاثين عاما نقطة تحول هامة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

وبينما كان البشناق يعيثون فسادا في ولايات البلقان البيزنطية، وبينما كان النورمان يهددون وجود الإمبراطورية ذاته، كان الموقف في آسيا الصغرى قد تدهور إلى درجة خطيرة، بحيث لم تعد الحدود واضحة بين ما تبقى بأيدي البيزنطيين وما استولى عليه السلاجقة، الذين غزوا هذه المناطق.

كان الأتراك السلاجقة الذين ظهروا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي علامة على بداية مرحلة جديدة في تاريخ العالم الإسلامي وفي تاريخ الإمبراطورية البيزنطية أيضا. لقد كان السلاجقة من الأتراك الغز، وهم قبائل بدوية مثل بقية القبائل تركية الأصل. وقد اعتنقوا الإسلام على المذهب السني في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ثم تأقلموا مع المعطيات الحضارية في العالم الإسلامي. وبدأ دورهم العسكري والسياسي النشط في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد توج طغرل بك هذا الدور بدخوله بغداد بناء على دعوة من الخليفة العباسي سنة 447هـ/ 1055م لكي يخلصه من مؤامرة حاكها أبو الحارث البساسيري لكي يبسط سلطة الخلافة الفاطمية الشيعية على بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية. وقد أخمد طغرل بك المؤامرة وقتل البساسيري، ودخل السلاجقة بغداد ليحلوا محل البويهيين في الهيمنة على الخلافة العباسية الضعيفة.

وكان السلاجقة قد تمكنوا في ذلك الحين من بسط نفوذهم على المنطقة الواقعة بين خراسان وبغداد، وبات توسعهم، إلى الشمال والغرب، على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين جميعا أمرا حتميا. وقد أدت توسعاتهم إلى التوسع في آسيا الصغرى طوال القرن الحادي عشر الميلادي، بيد أن توسعهم ظل على حساب الأرمن حتى عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع (1042-1055). ففي سنة 1048م شن إبراهيم بن أينال، أحد القادة السلاجقة، هجوما على الأراضي البيزنطية، ثم قام طغرل بك بقيادة هجوم بنفسه في سنة 1054م. وكان هذان الهجومان فاتحة غارات كثيرة متكررة شنها الأتراك السلاجقة ضد الإمبراطورية.

وفي سنة 1059م نهبت قوات السلاجقة سيواس. ولكن وفاة طغرل بك سنة 1063م غيرت من اتجاه الأحداث. ذالك أن خليفته وابن أخيه ألب أرسلان كان منزعجا من احتمال حدوث تحالف بين البيزنطيين والفاطميين، ومن ثم هاجم العاصمة الأرمنية القديمة (ماني) واستولى عليها، ثم هاجم قيصرية في إقليم قبادوقيا ودمرها سنة 1067م، ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الضعاف أن يفعلوا شيئا لصد هذه الهجمات.

وفي شهر يناير سنة 1068م اعتلى العرش الإمبراطوري في القسطنطينية الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس (1068-1071). وقد كان جنديا محترفا، شجاعا، وصفه ميخائيل بسللوس (الذي كان من خصومه السياسيين) بالرعونة

والتهور. وبعد عدة شهور كان الإمبراطور على رأس جيشه، وأحرز بعض النجاح بيد أنه لم يحقق نصرا حاسما.

وفي سنة 1069م تصدى للسلاجقة الذين نهبوا قونية وهم عائدون بغنائمهم وأجبرهم على تركها والفرار . ثم عاد إلى القسطنطينية ليمضي سنة 1070م كلها.

في ذلك الوقت كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان يعد حملة ضد الخلفاء الفاطميين في مصر، فآثر أن يعقد معاهدة أو هدنة مع البيزنطيين، وربما يكون الطرفان قد توصلا إلى اتفاق، ولكن غارات بعض أمراء السلاجقة المغامرين كانت تتم دون علم السلطان أحيانا، وضد إرادته أحيانا أخرى. وكانت نتيجة هذه الأحداث أن وصلت محاولة إرساء السلام بين الجانبين إلى طريق مسدود. ويقول ابن الأثير: إن رد الإمبراطور البيزنطي على السلطان السلجوقي بالسلام كان قاسيا، إذ قال: «لا هدنة إلا بالري». وهو ما يعني أن الإمبراطور كان قد عقد العزم على دخول عاصمة ألب أرسلان.

وهكذا وصلت الأمور إلى نقطة الالتهاب. وفي شهر رجب سنة 463هـ (أغسطس 1070م) التقى الجيشان في ساحة المعركة، وانقشع غبار القتال عن هزيمة فادحة للقوات البيزنطية، ووقع رومانوس ديوجنيس أسيرا، وكان بذالك أول إمبراطور بيزنطي يقع أسيرا بأيدي المسلمين. وعلى الرغم من اللوم الذي وجهه بسللوس لرومانوس بسبب هذه الهزيمة إلا أنه اعترف بأن الإمبراطور قاتل بشجاعة، وقتل عددا من الجنود الأتراك بسيفه. وبعد هذه المعركة التي عرفت في تاريخ المنطقة باسم معركة «مانزكرت» أو «ملاذكرد» أو «منازجرد» (كما يسميها ابن القلانسي وابن العبري والفارقي) لم تكن ثمة قوات بيزنطية يمكنها صد الأتراك السلاجقة الذين جاءوا إلى هذه المنطقة بقصد الاستقرار الدائم.

لقد كانت هزيمة البيزنطيين في مانزكرت تعبيرا عن تردي الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية أكثر من كونها سببا في هذا الانهيار، إذ أن السنوات التي انقضت مابين وفاة باسيل الثاني سنة 1025م وارتقاء اليكسيوس كومنينوس العرش الإمبراطوري سنة 1081م شهدت تعاقب ثلاثة عشر إمبراطورا على العرش بينهم امرأتان. وكان معظمهم رجالا عاجزين غير قادرين على مواجهة الظروف العصيبة التي عصفت بالإمبراطورية. لقد كانت الأحوال الداخلية متردية تماما، فالمنازعات الداخلية والتمرد كانا من سمات الحياة السياسية، كما أن المرتزقة من الروس، والأتراك، والآلان، والإنجليز، والنورمان،

والألمان، والبشناق، والبلغار وغيرهم كانوا عماد الجيش البيزنطي، ما يعني بالنتيجة أن الجيش لن يكون قويا. وفضلا عن تأثير المرتزقة السلبي في الجيش كانت لهم تأثيراتهم السلبية أيضا في البنية الاجتماعية في الإمبراطورية. وكان الاقتصاد الداخلي منهارا، والخزانة خاوية لدرجة أن أبوابها لم تكن تغلق كما تقول آنا كومنينا التي أرخت لعهد أبيها الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس. وكانت الحروب الداخلية تمزق الإمبراطورية عقب مانزكرت، وانتهت بصعود اليكسيوس إلى العرش سنة 1081م.

يقول المؤرخ ستيفان رنسيمان: إن أحوال الإمبراطورية البيزنطية سنة 1081م كانت غاية في السوء، بحيث لا يقبل مسؤولية حكمها سوى رجل غاية في الشجاعة، أو رجل على قدر كبير من البلاهة. ولكن السنوات السبع والثلاثين التي تولى فيها اليكسيوس حكم الإمبراطورية وسط أمواج السياسة والحرب الهادرة في شرق المتوسط أثبتت أن الرجل لم يكن شجاعا فقط، وإنما كان غاية في الكفاءة والقدرة السياسية.

كانت مواجهته الأولى مع النورمان، فعندما اعتلى العرش كان روبرت جويسكارد دوق أوبوليا قد عبر الأدرياتي بجيشه وبصحبته راهب زعم أنه الإمبراطور المخلوع ميخائيل دوكاس، وأنه جاء ليعيده إلى عرشه. وتقول آنا كومنينا: إن جيش روبرت المكون من أعداد كبيرة من الفرسان والمشاة كانوا قد ضربوا خيامهم بالفعل في أراضي الإمبراطورية في شهر يونيو من سنة 1081م. وإزاء هذا الموقف الصعب كان على اليكسيوس أن يفاوض البنادقة لكي يساعدوه بأسطولهم القوي لقاء حصولهم على الامتيازات التجارية في القسطنطينية، كما طلب مساعدة الإمبراطور الألماني هنري الرابع، فأرسل إليه وفدا بقيادة أحد رجاله ويدعى مثيمس يطلب فيه غزو لمبارديا لكي يشغل روبرت جويسكارد عن غزو الإمبراطورية البيزنطية. وعلى الرغم من أن اليكسيوس كومنينوس قد اضطر للهرب في معركتين ضد النورمان إلا أن مساعدات البنادقة، وهجوم الإمبراطور هنري الرابع على إيطاليا للانتقام من البابا جريجوري السابع جعلت الخطر النورماني يتلكأ كثيرا. ولكن موت روبرت جويسكارد المفاجئ سنة 1085م أنهى هذه المواجهة المضنية التي استمرت بشكل دائم منذ اعتلاء اليكسيوس العرش سنة 1081م. وهكذا انزاح خطر النورمان مؤقتا عن الإمبراطورية البيزنطية. وفي هذه الحروب برز بوهيموند ابن جويسكارد الذي كان واحدا من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى.

كانت هذه فرصة بالنسبة لاليكسيوس كومنينوس لمواجهة البشناق والكومان في الجبهة الشمالية. وقد فشل الإمبراطور في مواجهتهم بالقوة العسكرية لأنهم هزموا جيشه، ومن ثم لجأ إلى السلاح البيزنطي التقليدي وهو دبلوماسية الدس والوقيعة والرشوة. فقد جعل الكومان يحملون السلاح ضد حلفائهم البشناق، وفي سنة 1091م جرت بينهما مواجهة حاسمة ، وتمزق البشناق شر ممزق، واختفوا من مسرح تاريخ المنطقة بعدها.

أما السلاجقة فكانوا قد بدأوا يتوغلون في آسيا الصغرى منذ سنة 1073م. وأخذ سليمان بن قتلمش يتوسع على حساب البيزنطيين حتى استولى على معظم أنحاء آسيا الصغرى، منتهزا فرصة التخلخل السكاني وتدهور أحوال بيزنطة الداخلية، وفي العاشر من شعبان سنة 477هـ / 1085م استولى سليمان على مدينة أنطاكية. وفي الوقت نفسه كان هناك أمراء من الأتراك أقل شأنا من سليمان بن قتلمش مثل «الدانشمند» و «شاكا» و«منجوشك» يحاولون الاستيلاء على مدينة أو قلعة يحكمونها أيا كان عدد سكانها. ومن ورائهم كان التركمان الرحالة، بأسلحتهم الخفيفة وخيامهم وعائلاتهم، يطاردون البيزنطيين ويحلون محلهم في آسيا الصغرى.

ولما رأى اليكسيوس أن من المستحيل طرد السلاجقة من آسيا الصغرى قرر مهادنتهم. وعلى الرغم من أن الأحوال ساءت بين البيزنطيين والسلاجقة بعد موت سليمان بن قتلمش سنة 479هـ/ 1086م إلا أن الأمور ظلت مضطربة بين الجانبين حتى استولى ألب أرسلان بن سليمان على نيقية في سنة 1092م.

كانت هذه هي الحال على كافة الجبهات البيزنطية، وهكذا كان اليكسيوس كومنينوس عاكفا على تنظيم إمبراطوريته، وإعادة بناء جيشه لتأمين حدوده. وكانت إعادة بناء الجيش البيزنطي تستوجب الاعتماد على المرتزقة الذين صاروا عماد قوة الجيش البيزنطي منذ تلاشت المزارع الصغيرة التي كان أصحابها المصدر الأساسي لجنود الجيش. وكان أحد أسباب دخول الإمبراطور مع البابا أربان الثاني في مفاوضات أن الأول يريد مساعدة البابا في تجنيد المرتزقة من غرب أوربا، والثاني يريد انتهاز الفرصة لكي يعيد توحيد كنيسة روما تحت الزعامة البابوية.

والحقيقة أن أربان الثاني كان يواصل نفس سياسة سلفه البابا جريجوري السابع في هذا الشأن. فالواقع أن البابا جريجوري السابع حاول أن يحول ورطة بيزنطة بعد معركة

مانزكرت إلى ميزة ومصدر نفع للبابوية. فقد أراد إعادة توحيد الكنيستين تحت زعامته بعد الانشقاق الذي حدث سنة 1054م. وخلال سنة 1074م كان جريجوري السابع قد أعد خطة لحملة تتجه لإنقاذ القسطنطينية تحت قيادته. ولكن نزاعه مع الإمبراطور هنري الرابع من ناحية، وفشل مشروع التحالف النورماني البيزنطي الذي تبناه نتيجة انقلاب أطاح بالإمبراطور ميخائيل السابع من ناحية أخرى، جعل الشيطان المقدس (جريجوري السابع) يتخلى عن هذه السياسة. وجاء الخليفة أربان الثاني ليواصل السياسة نفسها، فسارع إلى تحسين علاقته مع الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس. ففي سنة 1089م تلقى اليكسيوس رسالة من أربان الثاني يحثه فيها على إرساء السلام والانسجام بين الكنيستين، ويشكو من أن اسم بابا روما قد رفع من مراسيم بطريركية القسطنطينية دونما سند من القانون الكنسي، ويطلب إعادة الاسم. وبعد مشاورات واجتماعات ومناقشات بين اليكسيوس ورجال الكنيسة البيزنطية اقترح اليكسيوس حلا وسطا. وعلى الرغم من أن كل هذه المحاولات لم تسفر عن أي نتائج حاسمة إلا أن العلاقات تحسنت نسبيا بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية.

وعندما قابل الإمبراطور البيزنطي الكونت روبرت أمير الفلاندرز أثناء قيامه برحلة حج إلى فلسطين طلب منه أن يرسل بعض الفرسان للعمل في الجيش الإمبراطوري لدفع خطر السلاجقة. ويثور الجدل بين المؤرخين حول صحة خطاب يقال إن اليكسيوس أرسله إلى الكونت روبرت بعد رجوعه إلى بلاده يذكره فيه بوعده بإرسال الفرسان. ولدينا وثيقة أخرى عبارة عن خطاب أوردته المصادر التاريخية اللاتينية في تلك الفترة زعمت أن تاريخه في الفترة ما بين أغسطس سنة 1094م ويناير سنة 1095م، وهو خطاب منسوب إلى اليكسيوس كومنينوس موجه إلى البابا أربان الثاني «وكل المؤمنين في الغرب» يطلب منهم النجدة لمواجهة المسلمين الذين يهددون الإمبراطورية البيزنطية. ولكن الشك يحيط بحقيقة هذا الخطاب، وربما كان من بين الوثائق المزورة التي استخدمتها الكنيسة في الدعاية للحملة الصليبية، إذ إن الأوضاع البيزنطية كانت قد استقرت في ذلك الحين، ولم يعد الخطر السلجوقي محدقا بالإمبراطورية مثلما كان الحال قبل عشر سنوات. كما أن الإمبراطور اليكسيوس كان يطلب من الغرب شيئا أصبح مألوفا في الجيش البيزنطي منذ فترة طويلة، وهو المرتزقة الغربيون الذين باتوا يشكلون قسما هاما من هذا الجيش، أما الحملة الصليبية فكانت آخر ما يخطر على بال هذا الإمبراطور الذكي، على نحو ما ستؤكده تصرفاته حيال قادة الحملة الصليبية الأولى فيما بعد.

وفي مارس 1095م عقد البابا أربان الثاني مجمعا في بياكنزا بإيطاليا، ودعا إليه الأساقفة من إيطاليا، وبورجندي، وفرنسا،وألمانيا، وبافاريا، وغيرها من البلاد، لمناقشة بعض أمور تتعلق بالكنيسة وإدانة البابا المضاد الذي عينه الإمبراطور هنري الرابع، وقد حضر هذا المجمع عدد من كبار الزعماء العلمانيين مما يكشف عن مدى نجاح أربان الثاني في توطيد مركزه. وقد مثلت سفارة من القسطنطينية أمام هذا المجمع ومعهم طلب من الإمبراطور البيزنطي إلى البابا لكي يحث المحاربين الغربيين على مساعدة الإمبراطورية الشرقية. وبالفعل خطب البابا في الجماهير المحتشدة في الحقول المفتوحة، والتي لم يكن ممكنا أن تستوعبهم أي كنيسة، وطلب من الموجودين أن يقدموا للإمبراطورية الشرقية كل مساعدة ممكنة.

ولم يكن هناك سوى مصدر واحد عن مجمع بياكنزا هو المؤرخ برنولد الكونستاسي، ولكن هذه الرواية التي يتقبلها المؤرخون باعتبارها رواية صادقة تأكدت من خلال مصدر آخر وهو عبارة عن حولية بيزنطية من القرن الثالث عشر الميلادي، تم اكتشافها منذ نصف قرن مضى تقريبا. وقد أكدت هذه الحولية رواية برنولد، كما أوضحت أن الإمبراطور البيزنطي اليكسيوس كومنينوس قد طلب النجدة من مجمع بياكنزا، كما ركز أيضا على طلب النجدة لمدينة بيت المقدس، لأنه كان يرى أن استخدام اسم القدس سيكون له وقع حسن من حيث الدعاية في أوروبا الغربية، بيد أن الإمبراطور كان يحلم باستعادة الأناضول من الأتراك السلاجقة، ولم يكن يفكر في شن حملة صليبية. لقد كان الإمبراطور يريد بعض المرتزقة في أعداد قليلة تنضم إلى جيشه بحيث يمكن السيطرة عليها، ولكنه لم يكن يتوقع تلك الجيوش الضخمة التي كونت الحملة الصليبية الأولى. على أي حال تقول الرواية: إن البابا جعل الحاضرين يقسمون على الذهاب لمساعدة الإمبراطور البيزنطي بكل ما في وسعهم من قوة. ولابد من أن فكرة الدعوة إلى حملة صليبية، على النحو الذي تم في كليرمون بعد أشهر قليلة، قد اختمرت في وجدان البابا وعقله خلال الرحلة من إيطاليا إلى فرنسا. وهكذا كان الموقف عشية الحملة الصليبية، إذ وجدت البابوية ذريعتها النهائية في هذه السفارة البيزنطية إلى بياكنزا، وكانت القوى الاجتماعية في الغرب الأوروبي جاهزة لكي تنفذ دعوة البابا.

الفصل الثالث

الأحوال العربية قبيل الحروب الصليبية

الذي يلقي نظرة على المجتمع الإسلامي قبل إعلان الحروب الصليبية (أي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) يعرف الظروف التي اختارتها أمم أوروبا للقيام بالحملات الصليبية.

فمصر الفاطمية كانت تعاني مصيبة الدولة التي تضعضع سلطانها وأشرفت على الانحلال والاضمحلال. إذ كانت نهبا للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة. وكانت المجاعات والقحط والأوبئة تغشاها وتنهك قواها. وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبر بأشكال مختلفة ومتنوعة.

كان خليفة مصر مع دخولها القرن الخامس الهجري الحاكم بأمر الله. ولم تكن تسكن فيها الفتنة حتى تشب الأخرى. إذ كان شذوذه النفسي في غاية الفوضى والارتباك. وكانت مدة خلفه - الظاهر ابن الحاكم بأمر الله (411 إلى 427 هـ) مدة فوضى أيضا. وحدث فيها مجاعة كبرى فيما بين (415 و 417 هـ) واقتتل فيها المغاربة والأتراك، وفشا الطاعون الذي لم ينج منه حتى الخليفة نفسه. أما مدة الخليفة المستنصر (427 إلى 487 هـ) فقد كانت تمثل عهد اقتطاع أطراف الخلافة الفاطمية: فقد أعلنت تونس انفصالها من طرف المعز باديس سنة 438 هـ. وانتزع السلاجقة القدس وفلسطين ودمشق من سيادة الفاطميين سنة 469 هـ. أما الحالة الداخلية لمصر فكانت في غاية الارتباك، ولا أدل على ذلك من تقليد الوزارة في مدة تسع سنوات لأربعين وزيرا. ثم حدثت مجاعة كبرى استمرت من 458 إلى 465 هـ، أكل فيها الناس لحوم البشر. ثم تولى المستعلي ابن

المستنصر (487- 495 هـ) الذي بدأت في عهده الحروب الصليبية. وهذا الخليفة كان مثالا للضعف الحقيقي للخلفاء الفاطميين في مصر.

أما الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري فقد كانت على حال يرثى لها من الفوضى والانحلال. وإذا كان أمر بغداد قبل بني بويه يتنازعه استبداد الموالي الأتراك، فانه منذ انتصب بنو بويه ببغداد (334هـ) ازدادت الحالة سوءا، وأصبحت العداوة مستحكمة بين بويه الشيعيين، وهم أصحاب النفوذ السلطان، وبين الخليفة وعامة الناس، وهم سنيون، فكانت الثورات والفتن المذهبية والحوادث تملأ البلاد رعبا وهولا. ولما تولى الخلافة العباسية «القائم بأمر الله» (422-467 هـ) ازدادت الحالة سوءا وأصبح النهب والغصب جهارا نهارا. وشاع شغب الجند والغلمان والترك والديلم، إلى أن وقع احتلال بغداد من طرف السلاجقة سنة 447 هـ فأزالوا سلطنة البويهيين.

وإذا كان للسلاجقة من فضل فهو في جمعهم لما تفرق وتشتت من المشرق الإسلامي تحت رايتهم، فامتدت سلطنة بني سلجوق امتدادا عظيما في عهد عظماء سلاطينها (طغرل بك- ألب أرسلان- ملكشاه). وقد اشتهر السلطان ألب أرسلان السلجوقي بفتوحاته في آسيا الصغرى وانتصاره على إمبراطور الروم رومانوس ديوجينيس في معركة ملاذكرد (463 هـ -1071م) شمالي بحيرة «وان»، خلصت له بعدها أرمينيا وغالب بلاد الأناضول إلى شواطئ بحر مرمره، فأصبحت القسطنطينية مهددة بخطر احتلالها. ولكن هذه العظمة السلجوقية لم تدم طويلا، فما إن مات السلطان ملكشاه السلجوقي سنة 485هـ حتى انقسم البيت السلجوقي على نفسه، وانفرط عقد السلطنة السلجوقية التي كانت تمتد من بلاد الصين إلى سواحل الشام شرقا وغربا، ومن بلاد القوقاز إلى اليمن شمالا وجنوبا. وهكذا ما بدأت الحروب الصليبية حتى كان المشرق الإسلامي في غاية الفوضى والارتباك والتنازع.

وأما سوريا فكانت في مطلع القرن الخامس الهجري في الفوضى التي أحدثها الحاكم بأمر الله الفاطمي. ففي أول عهد سلفه - الخليفة الظاهر- كانت سوريا تكاد تكون خارجة عن نفوذه فقد استولى صالح بن مرداس (415 هـ-1025م) على حلب وما إليها. وغار حسان بن جراح الطائي على أكثر بلاد الشام وفلسطين. وتكررت الحوادث سنة 429 هـ. واستمر الاضطراب في بلاد الشام حتى أفتكها السلاجقة من الفاطميين، إلا أنها في عهدهم لم تسلم من القتال والنزاع والخصام من أجلها. وقبيل اندلاع الحروب

الصليبية كانت بلاد الشام موزعة على الأمراء السلاجقة المتنازعين: فأنطاكيا كانت تحت إمارة باغيسيان التركماني. ودمشق كانت لرضوان بن تتش بن ألب أرسلان. وبيت المقدس كانت قد أقطعت للأمير سقمان بن أرتق التركماني.

ولم يكن الحال في أفريقيا أحسن منه في المشرق العربي، ففي أوائل القرن الخامس الهجري تولى المعز بن باديس الصنهاجي على أفريقيا (406-453هـ) فكانت مدته مملوءة بالحوادث والاضطراب، والثورات الانفصالية بطرابلس الغرب. ثم كان إعلان المعز الصنهاجي لقطع الخطابة والتبعية للفاطميين بمصر، أعقبه خروج غالب البلاد عنه، وزحف الأعراب من بني هلال، فعم كامل البلاد الفوضى والتخريب والاضطراب في برقة القيروان. أما خلفه تميم بن المعز(453-501هـ) فكانت مدته اشد اضطرابا وأكثر فتنة. ويعتبر عصره في أفريقيا عصر ملوك طوائف، فقد ثارت ضده مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس والجريد، وتكونت فيها إمارات مستقلة. وثار عليها مالك بن علي الصحاري حتى هاجم المهدية وحاصرها، وهاجم الجنويز والبيزان المهدية وزويلة فسلبوا ونهبوا. وكانت نكبة المجاعة والوباء التي عمت البلاد عام (483 هـ-1090م).

أما صقلية فقد لاقت من الثورات والمعارك والاضطرابات الداخلية وما جعلها فريسة سائغة لهجمات النورمان فاندفعوا إليها، بينما أبناؤها يتقاتلون ويتنافسون ويعربدون. وما كانت سنة 484 هـ-1091م حتى سقطت صقلية نهائيا في أيدي النورمان، ومحيت من خريطة البلاد الإسلامية، فكانت الشهيدة الأولى التي ذهبت ضحية الإهمال والتخاذل. وكانت حالة المسلمين السيئة بصقلية من التضعضع والتقهقر بحيث أغرت جيوش النورمان على الإقدام واقتحام الشواطئ الإسلامية بأفريقيا من بجاية إلى طرابلس الغرب.

أما الأندلس فقد كان القرن الخامس فيها قرنا حاسما ما بين عهدها الزاهر السابق وما بين عهد تراجعها واضمحلالها، فمنذ سنة 399 هـ بدأ الاضطراب بالأندلس بجعل ولاية العهد لعبد الرحمن بن منصور الحاجب، فاشتدت الفتنة وعم الفساد. وكانت سنة 407 هـ مبدأ التفرق والتمزق، فكان عصر ملوك الطوائف الذين تكالبوا على الفتك ببعضهم واستنجادهم بملوك النصارى الفرصة السانحة التي ينتظرونها منذ فتح الأندلس على يد طارق بن زياد، وأخذت النتائج الايجابية تظهر لفائدة النصارى.

وجاء دور طليطلة فانتزعها الآذفونش السادس (478 هـ-1085م) وكان مبدأ التفوق الحقيقي للنصارى على المسلمين بالأندلس حتى أن نجدة يوسف بن تاشفين لأهالي الأندلس وانتصاره على الآذفونش في معركة الزلاقة سنة (479 هـ-1086م) لم تكن إلا إيقافا مؤقتا للزحف الأوروبي، إذ على الرغم من انهزام الأوروبيين في هذه المعركة فان المسلمين لم يستطيعوا استرجاع مدينة طليطلة العظيمة.

وبالجملة فقد كانت تلك هي حالة المجتمع الإسلامي قبيل نشوب الحرب الصليبية. وإنها لحالة مغرية للأوروبيين للإقدام على اخذ الثأر ورد الفعل. وقد طال انتظار الأمم الأوروبية لهذا الأمر، فمنذ أن التقت القوات الإسلامية بالقوات البيزنطية في فلسطين سنة 13 هجرية وانتصار المسلمين عليهم في معارك اليرموك وأجنادين، منذ ذلك الوقت والإسلام يفتح أراضيهم، فبقي الأوروبيون يترقبون الفرصة المتاحة والزمن المناسب، فكانت أواخر القرن الخامس الهجري أحسن الفرص للانتهاز.

غير أننا ينبغي أن نشير إلى أن حالة التضعضع الإسلامي في المشرق الإسلامي قبل نشوب الحروب الصليبية كانت تصاحبها حالة أخرى من التشتت والاختلاف بين الطوائف والمذاهب الإسلامية.

فقد كان الإسماعيليون من اشد أعداء جماعة المسلمين، يعملون على النيل منها - هذه الجماعة - والفتك بها، ولو كان ذلك على حساب صالح المجموع.

والإسماعيليون ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق العلوي، الذي اختارته جماعة دون أخيه موسى الكاظم (إمام الاثني عشرية). وكان هؤلاء الإسماعيليون من غلاة الشيعة، يرون أن الإمام معصوم مهما أتى.

أما القرامطة فإنهم- منذ أواخر القرن الثالث- كانوا يبثون الرعب والفزع، وكانت اعتداءاتهم دون حصر، فكانوا يبيحون سفك الدماء، ويغيرون على الآمنين في الجزيرة العربية والعراق والشام. وكانوا بعملهم هذا من اشد المعاول تهديما لكيان الخلافة العباسية والمجتمع الإسلامي.

ولئن تمكن الفاطميون من الاستيلاء على الشام بعد نهاية القرامطة، فان عدائهم للسلاجقة السنيين جعلهم ينتهزون فرصة الهجوم الصليبي ليكيدوا للسلاجقة.

ولكن الأخطار من كل ذلك في فرقة الإسماعيلية التي اشتهرت أيضا باسم «الحشاشين» والتي كانت اخطر جمعية إرهابية عرفها المشرق الإسلامي، فقد تعاونت هذه الفرقة مع الصليبيين وفتكت بالكثير من قادة المسلمين ورجالاتهم.

وقبيل الحروب الصليبية (483 هـ-1090م) تركزت هذه الفرقة الخطرة بزعامة الحسن بن الصباح، واعتصمت في الشمال الغربي من إيران بقلعة «ألموت». ومنذ ذلك الحين أخذ الحسن بن الصباح يبث أتباعه للإغارة والاغتيال. وكان صنف من الأتباع يقال لهم «الفدائيون» يناط بعدتهم اغتيال الأشخاص الذين يعنون لهم. نعم حاول السلطان ملكشاه السلجوقي إبادتهم، ولكنه لم يفلح وذلك لاستماتتهم في الدفاع ومناعة مراكزهم. وقد بدأت سلسلة اغتيالاتهم منذ سنة (485هـ) بقتلهم نظام الملك، أعظم وزير في الدولة السلجوقية. وسنة (490هـ) قتلوا عبد الرحمن السميرمي، وارغش النظامي، والأمير يوسف السلجوقي في بغداد. وفي سنة(498هـ) هجموا على قافلة حجيج واردة من خراسان فقتلوا جميع من بها واخذوا أموالهم، وقتلوا أبا جعفر المشاط، من شيوخ الشافعية كما أنهم هجموا على الخليفة المسترشد.

وفي سنة (525هـ) وثبوا على تاج الملك بن طغتكين (صاحب دمشق) وجرحوه جراحات مات من جرائها بعد مدة. وقبل ذلك حاول أبو الوفاء الباطني تسليم دمشق إلى الصليبيين. أما إسماعيل الباطني فسلم إليهم حصن بانياس وسار معهم.

وفي سنة (571هـ) وثبت جماعة منهم على صلاح الدين الأيوبي ولم يمنعه من سيوفهم سوى دروعه المنيعة التي حالت دون اغتيالهم لأعظم بطل إسلامي في الحروب الصليبية.

وحتى مع الصليبيين كثيرا ما قلبوا لهم ظهر المجن واغتالوا البعض من رجالاتهم. ولكن عداءهم لأبطال وقادة المسلمين كان اشد واخطر.

هذا قليل من أعمال هذه الفرقة الإرهابية التي زادت من سوء الحالة الاجتماعية واضطرابها بالمشرق الإسلامي أثناء الحروب الصليبية. وقد استمر إرهاب الإسماعيليين عدة سنوات، إلى أن قضى عليهم بإيران هولاكو المغولي (654 هـ-1256م) خوفا من غدرهم. ثم قضى على من اجتمع منهم بجبال لبنان الملك الظاهر بيبرس (672 هـ-1273م) فشتت شملهم وأراح الناس منهم.

وهكذا نجد أن التمزق السياسي والتناحر العسكري كان مخيما على العالم العربي عشية الحروب الصليبية. وفي ظل هذه الظروف نجح الصليبيون في زرع إماراتهم ومملكتهم. لقد انتصرت الحملة الصليبية الأولى بفضل هذا التمزق وحاز الفرنج انتصاراتهم الأولى، وتم محو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام، واحدة تلو الأخرى في طيات المواجهة الصليبية. وكانت إمارة سلاجقة الروم، وعاصمتها نيقية، أوال ضحايا التشرذم السياسي من جهة، والهجوم الصليبي من جهة أخرى، ثم تلتها بقية الإمارات.

ففي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان المسلمون في المنطقة العربية موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم بين الخلافات فإن أحوالها الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام ـ وهي المجال الحيوي الذي تنازعت الخلافتان السيادة عليه ـ موقعا بين عدة إمارات صغيرة.

فقبيل الحملة الصليبية الأولى كانت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام تقريبا إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربي، أو من الأتراك السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سببا في العداء السياسي والعسكري الذي سبب تنافر هذه القوى وعدم توحدها في مواجهة الغزو الصليبي.

كانت الأحوال السياسية الداخلية في الخلافة العباسية قد جعلت الخلافة رهينة لدى البويهيين الشيعة. وفي سنة 447هـ (1055م) نجح السلاجقة، بزعامة طغرل بك، في القضاء على النفوذ الشيعي في بغداد بعد قتل البساسيري الذي أراد أن يحدث انقلابا سياسيا لصالح الخلافة الفاطمية من داخل عاصمة الخلافة العباسية. صحيح أن هذه الواقعة كانت الدفعة التي أنعشت الخلافة العباسية بفضل الحيوية العسكرية للأتراك السلاجقة، ولكن الفاتحين الذين جاءوا منقذين سرعان ما بدأوا يتصرفون باعتبارهم غزاة، مثلما يحدث غالبا.

لقد صارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسة واحدة تتبع الخليفة العباسي اسميا، ولكنها تدين بالخضوع الفعلي لسلطة سلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك، ألب أرسلان، وملكشاه). ومنذ وقت مبكر اتجه السلاجقة نحو الشمال والغرب على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين. وفي الوقت الذي كانت قوات ألب أرسلان تضرب فلول الجيش البيزنطي بعد أسر الإمبراطور المهزوم رومانوس ديوجينيس في

ملاذكرد سنة 1071 م، كانت قوات أحد القادة التركمان قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين، وهو «أتسز بن أوق».

وفي سنة 470هـ-1077م عين ملكشاه أخاه تاج الدين تتش واليا على الأجزاء التي استولى عليها السلاجقة في بلاد الشام، وفوض إليه مهمة الغزو مستقبلا في هذه المناطق، كما عين سليمان قتلمش واليا على بلاد الروم (أي آسيا الصغرى). وقد أدى هذا الاتجاه إلى استمرار التوسع السلجوقي في بلاد الشام على حساب الفاطميين والقوى المحلية، وفي آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين.

وبعد حصار فاشل ضد حلب قاده جيش تتش مع حليفه أمير الموصل «شرف الدولة مسلم العقيلي» استطاع هذا الأخير أن يستولي على المدينة لنفسه من آخر أمرائها أبو الفضائل سابق بن محمود آخر الأمراء المرداسيين الذين ظلوا يحكمون حلب حوالي نصف قرن من الزمان. وهكذا قامت في حلب في إمارة قصيرة العمر سنة 1079م. وقد أورد ابن القلانسي هذا الخبر بصورة مقتضبة للغاية، إذ قال في حوادث سنة 472 هـ : «فيها تسلم شرف الدولة مسلم بن قريش حلب».

من ناحية أخرى كان الأمير التركماني أتسز قد استولى من الفاطميين على معظم أنحاء فلسطين. وفي سنة (468 هـ-1076م) كانت دمشق تعاني من تدهور اقتصادي وغلاء فاحش في الأسعار، ونقص في الأقوات أقترب من حافة المجاعة، مما أضطر أهلها إلى تسليم المدينة إلى أتسز بالأمان.

وقد أغرى هذا النصر أتسز بالسير إلى مصر لمحاولة الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية، ولكن أمير الجيوش بدر الجمالي الحق به هزيمة منكرة، وأفلت هاربا بنفسه في نفر يسير من أصحابه، ثم وصل دمشق، وبعدها جاءت أخبار وصول تتش إلى بلاد الشام، وبذلك صارت دمشق إمارة سلجوقية.

ودار الصراع بين سلاجقة الشام، بقيادة تتش، وسلاجقة الروم، بقيادة سليمان بن قتلمش حول السيادة على حلب، وانتهى القتال سنة 479هـ-1086م بمصرع سليمان وتحول حلب إلى إمارة سلجوقية. وكان من النتائج السلبية لمصرع سليمان بن قتلمش ازدياد حدة التشرذم السياسي بين السلاجقة.

ولسنا نقصد أن نتتبع تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية الكثيرة والمتشابكة المتلاحمة في الفترة السابقة على الحملة الصليبية الأولى، لأن هذه الدراسة لا تهتم بهذه

الأحداث في حد ذاتها، وإنما تهتم بإبراز الحقيقة القائلة إن المنطقة العربية في أخريات القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي كانت نهبا للمعارك بين الحكام الكثيرين الذين اقتسموا حكم مدنها وأقاليمها بصورة فسيفسائية مربكة.

فالخلافة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة التدهور السياسي الداخلي بعد أن سيطر الوزراء العظام على الخلفاء، وحولوهم إلى دمى يحركونها كيفما شاءوا. وعلى الرغم من محولاتهم العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا في استرداد نفوذهم الضائع في بلاد الشام. وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين الأتراك السلاجقة حماة الخلافة العباسية طامحين إلى ضم الشام ومصر تحت رايتها، كما كانت هناك منازعات بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية.. وهكذا.

فعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة في حلب يحكمها رضوان (1095-1113م) الموالي للفاطميين، وكان العداء مستحكما بينه وبين إمارة دمشق التي يحكمها دقاق الموالي للخلافة العباسية السنية (1095-1104)، أما إمارة شيزر على نهر العاصي قرب حماة فكانت تحت حكم بني منقذ، الذين برز منهم الفارس المؤرخ الشاعر أسامة بن منقذ، في حين كانت طرابلس تحت حكم بني عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظلت بأيدي السلاجقة حتى استعادها الفاطميون سنة 1098م أثناء وجود الصليبيين في أنطاكيا، ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوها بعد مذبحة مروعة أرتكبها الصليبيون الأوائل بعد أن استولوا على القدس التي كانت هدف رحلتهم ذات الألف ومائتي ميل، أما مدن الشمال في آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام والتي أخذت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية وإيقاع سريع، فكانت ضحية التخريب والتدهور السكاني.

لقد كانت هذه الكيانات السياسية المتصارعة كلها متورطة تماما في الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين. وعندما قدموا لم يكن لدى الحكام سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر. ومن ثم مضت قوات الصليبيين كما تمضي السكين في الزبد. وفي طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الأمارات الصغيرة واحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة نيقية في أيدي قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة، وذلك النذير بلا فائدة.

وإذا كان هذا هو الحال على المستوى السياسي والإداري للإمارات والممالك العربية الإسلامية في مشرق الوطن العربي ومغربه قبيل وإبان بدء الحملات الصليبية فإن الأوضاع الاجتماعية والثقافية والفكرية لم تكن أحسن حالا إن لم نقل إنها كانت انعكاسا واضحا لتلك الأوضاع.

فمع أن المجتمع الإسلامي الذي عاصر الحملات الصليبية الأولى لم يعدم المخلصين والدعاة العاملين، ومع أنه كان هناك نشاط إسلامي يعمل بدأب واستمرار، إلا أن هذا النشاط اتسم، بشكل عام، بالمذهبية والانقسام. لذلك ظلت جهود العاملين تهدر على مذابح التضحيات دون الوصول إلى نتائج تذكر.

فقد كان هناك الحنابلة الذين أنجبوا في تلك الفترة علماء مخلصين ودعاة عاملين، اشتهروا بحماسهم واجتهادهم في جذب جماهير العامة إلى صفوفهم، كما اشتهروا بقدرتهم على إثارة المعارضة أمام الاتجاهات والعناصر التي لا يرضون عنها متحملين في ذلك ألوانا قاسية من الاضطهاد والأذى.

وإلى جانب الحنابلة وجد الأشاعرة الشافعية الذين اشتهروا بثقافتهم العميقة وقدرتهم على مواجهة تيار الفلسفة والعقائد الباطنية. ولقد أنجبوا في هذه الفترة علماء أفذاذا كالإمام الجويني وتلميذيه: أبي حامد الغزالي والكيا الهراسي.

على أنه رغم جلالة الدور الذي لعبه الحنابلة والأشاعرة في ذلك الوقت، فقد كانوا يعانون من أخطاء في منهج العمل الإسلامي نفسه. ويمكن القول إن هذه الأخطاء تركزت في أن ولاء هذه الجماعات كان لانتماءاتها المذهبية أكثر منه للفكرة التي حملتها أو للأمة التي تنتسب إليها.

لقد نشأت هذه الجماعات في الأصل كمدارس فكرية مثل مدرسة سفيان الثوري، ومدرسة الشافعي، ومدرسة أحمد بن حنبل. ولم تكن هذه المدارس إلا تخصصات في إطار الرسالة الإسلامية الواحدة. وكان أغلب رجالاتها قد تتلمذوا على يد بعضهم البعض وربطتهم روابط المودة والاحترام المتبادل. وكانت الوظيفة الرئيسية لهذه المدارس بلورة النظم التي تترجم إلى مؤسسات اجتماعية وثقافية وإدارية واقتصادية وهكذا. ولكن فيما بعد تطورت هذه المدارس الفكرية إلى مذاهب تشبه الأحزاب أو الجماعات في زماننا.

ومنذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري دخل أشياع هذه المذاهب في صراع مذهبي استنفد جهود الجميع في ميادين لا طائل منها، ووسم جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية بالسلبية والتقليد والجمود، وقسم الأمة إلى فرق متناحرة متنافرة، ودحر قضاياها الرئيسية إلى هوامش اهتمامات هذه المذاهب والفرق.

لقد كانت المشكلة الرئيسية التي تفرعت عنها سلبيات هذه المذاهب أن كل جماعة منها اعتبرت نفسها صاحبة الحق وحدها في التواجد على مسرح الحياة الإسلامية بسبب تاريخ أسلافها المجيد: فالحنابلة، بسبب جهاد من سبق منهم منذ أيام ابن حنبل، وبسبب المحن التي عانوها، أصيبوا بداء العجب، وأصبحوا يرون أنفسهم أوصياء على المجتمع الإسلامي، وأنهم هم وحدهم أهل السنة والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية، ولهم وحدهم حق التواجد، وحق الدعوة إلى الإسلام، وحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبسبب هذا الاعتقاد صاروا إذا قام إلى جانبهم من يحاول الدعوة إلى الله اعترضوا عليه وقاوموه وأثاروا الشغب ضده في المساجد وخارجها. ولذلك حين أخذ الأشاعرة في الدعوة والنشاط الإسلامي اعتبرهم الحنابلة منافسين لهم، مخربين لجهودهم. فراحوا يعترضون دعاة الأشاعرة ويتهمونهم بشتى التهم ويثيرون الشغب بوجودهم في كل مكان.

كذلك كان الأشاعرة، بسبب دور الإمام أبي الحسن الأشعري في دحض عقائد المعتزلة، يعانون من عقدة الاستعلاء الثقافي. فقد كانوا يرون أنفسهم أهل الثقافة والفكر، ويرمون الحنابلة بالسطحية وضيق الأفق. ولقد أفرز هذا المفهوم المذهبي للإسلام آثارا خطيرة في ميادين الفكر والتربية والاجتماع والسياسة، فقد تحددت أطر الإنتاج الفكري في حدود المذهب، فصارت المؤلفات إما اجترارا وتكرارا لأفكار من سبقوا من رجال المذهب، أو إطراء وإشادة بتضحياتهم وجهادهم. وظهرت كتب الطبقات المذهبية كطبقات الحنابلة، وطبقات الشافعية. وظهرت الشروح والحواشي والمختصرات المذهبية. وفي كل هذه الأعمال الفكرية لم تنل المشكلات المعاصرة والحاجات القائمة التي تتعلق بالأمة الإسلامية آنذاك سوى إشارات هامشية.

ولقد أفرز هذا الالتزام المذهبي نوعا من الإرهاب الفكري ضد المستنيرين من أعضاء المذاهب نفسها، ففرض عليهم التوقف عن التفاعل الفكري مع نظرائهم من خارج المذهب، وألزمهم الاقتصار على مطالعة كتب المذهب وتصانيفه. والذين كانوا يخرجون على تقاليد المذهب في الانغلاق والتعصب، وينفتحون على الآخرين، يصبحون

هدفا للاتهام بالنفاق وعدم الالتزام والخروج على تعاليم المذهب مهما كانت منزلتهم العلمية أو رتبتهم المذهبية. ومثال ذلك ما حدث مع الشيخ أبي الوفاء علي بن عقيل شيخ الحنابلة في زمانه، فقد ثار عليه الحنابلة المتشددون وأيدهم الأتباع المقلدون لأنه لم يتحرج عن مجالسة العلماء من غير مذهب الحنابلة.

غير أن أخطر الآثار الفكرية للحزبية المذهبية يكمن في انقطاع أتباع المذهب عن الاتصال المباشر بالقرآن والسنة، والتوجه بعقولهم وأسماعهم وأبصارهم إلى مؤلفات رجال المذهب على اعتبار أنها الفهم الصحيح المطلق للقرآن والسنة. وبهذه الفرضية رفع رجال المذاهب فهمهم للكتاب والسنة إلى مستوى الكتاب والسنة، وجعلوا من كتّابهم ومفكريهم، من الناحية العملية، وسطاء بين الخالق والناس، وشكل الأحياء منهم كهانة توجه إليها الأتباع بالطاعة العمياء. وأسبغوا عليهم من الألقاب والصفات ما يقارب العشرات للفرد الواحد فهو: شيخ الإسلام، والحبر الفهامة، وحجة الأمة، و..و..الخ مما هو معروف ومدون في آثار المذاهب، وجعلوهم فوق النقد أو المناقشة، وقاتلوا كل من قام بذلك، من داخل المذهب أو خارجه.

ولقد أدى حدوث هذه الظاهرة إلى تعطل الفكر الإسلامي عن الإبداع والاجتهاد. وليس صحيحا أن الاجتهاد توقف في التاريخ الإسلامي لأن فئة من العلماء أغلقوا باب الاجتهاد كما يشاع، ولكن الاجتهاد تعطل لأن المختصين تحولوا من الاتصال المباشر بالكتاب والسنة إلى الالتزام بكتابات أئمة المذاهب والانغلاق عن التفاعل مع الآخرين. ذلك أن الاجتهاد هو ثمرة النظر في مصدرين: الأول هو الكتاب والسنة، ومن مظاهر إعجازهما تجدد معانيهما بتجدد الأزمنة وتنوع الأمكنة. ومن الطبيعي أن كتابات أئمة المذاهب ليس لها مثل هذا الإعجاز، وإنما هي أفهام بشرية محدودة بحدود الأزمنة والأمكنة التي عاشوا فيها. أما المصدر الثاني للاجتهاد فهو الآفاق والأنفس أي البيئة الطبيعية والاجتماعية، وهذه انقطع عنها أتباع المذاهب وتحددوا بحدودهم المذهبية، ولم يملكوا أن ينتجوا إلا الشروح والمختصرات والحواشي.

والواقع أن هذه الظاهرة تتكرر في كل عصر تشيع فيه المذهبية أو الحزبية، ويحل الأغبياء من الطلبة محل الأذكياء في الدراسات الإسلامية، فيهبط الفكر الإسلامي إلى الانغلاق والجمود والتطرف، ويمضي دون تبصر فكري في ميادين السياسة والاجتماع والثقافة.

كما انعكست آثار التعصب المذهبي على التعليم ومؤسساته بشكل خطير جدا. فقد تسرب شيوخ المذاهب إلى المدارس وأمكنة التعليم، وانتشروا فيها وأثروا تأثيرا بالغا في مناهجها وأهدافها واتجاهاتها ونوع الحياة السائدة فيها، ولقد تمثلت هذه الآثار فيما يلي:

أولا: فساد أهداف التعليم وغاياته. فقد أصبحت هذه الأهداف تدور حول تأهيل الدارسين لمناصب الإفتاء والقضاء والأوقاف والتدريس في الجامعات والمدارس والحسبة وغير ذلك مما كان قائما في ذلك الزمان. ولقد تنافست المذاهب من أجل هيمنة آرائها في هذه المجالات تمهيدا لهيمنتها على المناصب والإدارات.

ثانيا: ونتيجة للأهداف المذكورة ضاق مفهوم المنهاج الدراسي، فاقتصر على مباحث الفقه الخاصة بالعبادات والمعاملات التي تحددت بالأطر المذهبية. ونتيجة لذلك انقسمت المدرسة الواحدة إلى دوائر وأقسام حسب المذاهب الممثلة في المدرسة، واختفت مباحث التزكية والأخلاق وعلوم الآخرة وتأهيل الدعاة والمصلحين، وتوقف التجديد والابتكار. كذلك غلبت على هذه المناهج أساليب الطابع الذهني والدفاع عن تعاليم المذهب ومحاولة إشاعتها بين الدارسين أكثر من معالجة مشكلات الحياة القائمة بمعناه الشامل. ولذلك شاعت أساليب المناظرة والجدل الذي أصبح علما مستقلا له أصوله وقواعده، واختلفت أساليب التطبيق والتركيز على السلوك والمهارات العقلية والعلمية.

كذلك وقع الانشقاق بين الدراسات الإسلامية وبين العلوم الطبيعية والطب والفلك، فانحسرت الأخيرة في المؤسسات الخاصة بسبب اقترانها بالفلسفة وبسبب تأثير الفقهاء على السلطات التي وقفت من العلوم الطبيعية موقفا سلبيا يقوم على الريبة وعدم التشجيع.

ثالثا: تسرب المذهبية الحزبية إلى صفوف الطلبة وإفساد روابطهم وعلاقاتهم، وتدريبهم على الخصومات والصراعات التي كانت قائمة في المجتمع. فقد حرص المدرسون من مختلف المذاهب على اجتذاب الطلاب حولهم، وغرس المفاهيم المذهبية في عقولهم واتجاهاتهم. ونتيجة لذلك تحولت مجالس الدرس وساحات المدارس إلى ميادين لمناظرة آراء المذاهب وتفنيد آراء المخالفين ومهاجمتهم بالتصريح والتلميح. وانقسم الطلبة إلى مجموعات مختلفة، كل مجموعة تلتف حول شيخ من مدرسي المذهب وتعظمه وتبجله وتتلقى ما يقوله دون فهم، وتنفذ أوامره دون تفكير. ونتيجة لذلك أصبحت المصادمات وحوادث الشجار بين مجموعات الطلبة ظاهرة بارزة في المدارس. فكثيرا ما كان أتباع

المذهب الواحد يستقدمون شيخا من رجال المذهب نفسه أو من مدينة أخرى لإلقاء درس أو محاضرة عامة، وخلال هذه الدروس والمحاضرات يجري التعريض بالمذاهب الأخرى فتنشب الفتن وتثور الخصومات، كما حدث عام 469 هـ حين قدم إلى المدرسة النظامية أبو نصر بن القشيري وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، وأيده بعض شيوخ المذهب من مدرسي المدرسة من أمثال الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وأبي سعيد الصوفي، فثارت الفتنة وامتدت إلى خارج المدرسة، حتى أن جماعة من أنصار الشافعية هاجموا أبا جعفر بن موسى، شيخ الحنابلة، وهو في مسجده، فدافع عنه أنصاره الحنابلة واقتتل الناس بسبب ذلك. وكتب أبو بكر الشاشي إلى الوزير نظام الملك ينكر ما وقع، ويكره أن تنسب إلى المدرسة التي بناها، وحين تفاقمت الأمور أكثر مما توقع الناس قرر أبو إسحاق الشيرازي أن يترك بغداد غضبا مما وقع من الشر، فتدخلت السلطات وجمع الخليفة بين شيوخ المذهبين وسوّي الأمر بعد جدل طويل، ومنع الوعاظ من التدريس حتى عام 473 هـ لكي لا يتعرضوا لآثار الفتنة ويتسببوا بإشعالها من جديد.

ولكن الفتنة اشتعلت في العام التالي (470 هـ) واشتبك طلبة النظامية من الحنابلة والشافعية، وانتصر لكل فريق أنصاره من العوام، وقتل عشرون تقريبا وجرح آخرون.

وفي عام (475 هـ) استقدم الشافعية أبا القاسم البكري الأشعري إلى المدرسة النظامية حيث وعظ وأخذ يعرض بالحنابلة ويقول: «ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا» فقامت الفتنة داخل المدرسة وخارجها وهوجمت الدور ونهبت الكتب.

وفي عام (478 هـ) جاء إلى بغداد أبو بكر أحمد بن محمد الفوركي وألقى محاضرة في المدرسة النظامية، فوقعت الفتنة بين المذاهب وحدث ما كان يحدث من صدامات.

ولم تكن الحال خارج بغداد بأفضل من ذلك، بل كانت تثور الخصومات المذهبية وتشتعل الفتن حتى تتدخل السلطات وتخمد ذلك.

وخلال هذه الفتن والمصادمات كثيرا ما كانت التهم تلفق وتتبادل الوشايات كما حدث عام (495 هـ) حين وشى طلبة الحنابلة بأحد كبار مدرسي النظامية من الشافعية وهو محمد بن علي الطبري المعروف بالكيا الهراسي، الذي كان زميلا لأبي حامد الغزالي في الدراسة على يد الجويني، واحتل المكانة العلمية التي احتلها الغزالي، حيث زعم هؤلاء

الطلبة أن الكيا الهراسي باطني ينتسب إلى الباطنية الحشاشين. وقد انتبه لهذه الظاهرة الخطيرة العقلاء من الطرفين ومنهم شيخ الحنابلة ابن عقيل، ومضوا إلى السلطان ليشهدوا ببراءة الكيا الهراسي من التهمة الموجهة إليه فتم إطلاق سراحه.

ولم تكن هذه الحوادث إلا نماذج لما كان يتكرر من آن لآخر، خاصة إذا ما عرفنا أن المؤرخين الإسلاميين لم يدونوا منها إلا ما عظمت خطورته وعمّ أثره.

وفي مثل هذه الأجواء نستطيع أن نتصور نوع القدوة والأخلاق التي تلقاها الطلبة من أساتذتهم، وأشكال الكيد والتآمر التي كانت تدبر بينهم.

رابعا: تسرب اتجاهات الانحلال والإقليمية إلى صفوف الطلبة. فمن المضاعفات التي أفرزتها الخصومات المذهبية اشتغال بعض الطلبة بأمور أكثر سوءا، إذ يروي ابن الجوزي بعض الحوادث التي تنسب إلى طلبة النظامية كتناول المسكرات وشيوع النعرات الإقليمية بين العراقيين والأعاجم وقيامهم بالشغب والفوضى، مما أدى إلى تدخل الشرطة وسجن عدد من الطلاب وإهانة بعض المدرسين.

لقد أثر هذا الطابع الذي تركه التعصب المذهبي في نظم التعليم ومؤسساته تأثيرا سلبيا في الحياة الاجتماعية، فأشاع فيها التعصب والخلافات من خلال الموجهين والمرشدين والوعاظ الذين كانت تخرّجهم تلك النظم والمؤسسات.

على أن آثار التعصب المذهبي انعكست على الحياة الاجتماعية أيضا وأسهمت في إشاعة التفكك والاضطراب في المجتمع، ولقد تمثلت هذه الآثار فيما يلي:

(أ) شكلت المذاهب طوائف اجتماعية أشبه ما تكون بالأحزاب المتنافرة المتباغضة. فقد اختلف تكوين المذاهب تماما عن المدارس الفكرية التي تطورت المذاهب عنها في الأصل. ففي حين كانت المدارس الفكرية لا تضم إلا رجال الفكر وأئمة الفقه والمشتغلين بالعلم الذين تنظم علاقاتهم أخلاق العلماء وفضائل الدين، صار المذهب يضم أخلاطا من المشايخ والطلبة والتجار والعوام الذين يريدون المذهب وسيلة لمنافعهم الخاصة. فكان منهم محب الجاه الذي يتخذ المذهب أداة للوصول إلى المناصب العليا، والطالب المتسلق الذي يريد المذهب عونا له في المستقبل، والتاجر الذي يريد أتباع المذهب زبائن لتجارته، إلى آخر الأهداف الخاصة للعناصر التي يجذبها المذهب. وكانت تربط هؤلاء جميعا رابطة هشة تقوم على المظهر أكثر من الجوهر، إذ يكفي الفرد أن ينتمي

للمذهب انتماء اسميا دون فهم أو تطبيق، وأن يصحب أفراد المذهب في اجتماعاتهم وفي غدوهم ورواحهم وأن يلبس زيهم، وأن يكدس كتب المذهب في مكتبته دون أن يقرأ منها صفحة واحدة في حياته، لينال نصرتهم ويشاركهم مكاسبهم. أما الذين يخالفون تقاليد المذهب أو ينفصلون عنه أو يستعصون على الانتماء إليه، فإنهم يصبحون هدفا للإيذاء وعرضة للطعن والتشكيك في الدين والخلق مهما كانت منزلتهم من الفهم والإيمان والاستقامة. وكان في المذهب فئات تستعمل قوة المذهب للضغط على الخصوم، والتأثير على الحكومات للوصول إلى مناصب الوزارة ونظارة الأوقاف والحسبة وغير ذلك من مناصب ذلك الزمان.

(ب) ونتيجة لذلك انقسم الناس على بعضهم وانصرفوا عن التحديات التي تهددهم من الداخل والخارج، واستنزفوا طاقاتهم في الخصومات والمصادمات المذهبية. وتطفح كتب التاريخ المعاصرة لتلك الفترة بحوادث الشجار والفتن التي بدأت في المساجد، ثم اندلعت إلى الشوارع والساحات العامة بين أتباع المذاهب من عوام الجماهير.

(ج) ولم يقتصر هذا التفكك والتنافس على المذاهب بعضها مع بعض وإنما امتد إلى صفوف المذهب الواحد نفسه. فقد كان المتصدرون في المذهب يتنافسون فيما بينهم لتصدر الأتباع وتمثيل المذهب في مناصب الدولة أو المحافل، وصارت روابطهم وصلاتهم تتشكل طبقا لحصصهم مما يفوز به المذهب من المناصب والمغانم. ولقد انسحبت هذه العلاقات والاتجاهات إلى الأتباع أنفسهم، فانقسموا إلى مجموعات، كل مجموعة تتبع زعيما من زعماء المذهب وتشايعه في سياساته.

ولعل في تجربة ابن الجوزي والأثر الذي تركته في نفسه بعض الأمثلة لهذا الذي ذكرناه. فقد كان ابن الجوزي عالما واسع الاطلاع وواعظا مؤثرا، استطاع أن ينال إعجاب الخاصة والعامة. ولقد حدثنا في تاريخه (المنتظم) عن جوانب من مواقفه وعلاقاته بالحكام والعوام وبأقرانه من أعضاء المذهب وما تركه حسدهم ومنافستهم في نفسه من آثار.

ولقد تحولت أهداف العمل الإسلامي على يد المذاهب من السعي لتحكيم الإسلام إلى تحكيم رجال المذهب أنفسهم. ولذلك أصبحت السمة البارزة للنشاط السياسي لهذه المذاهب هي انتهاء أهداف العمل الإسلامي عند مشاركة زعماء المذهب ورجالاته في إدارات الدولة، وفوزهم بمناصب القضاء والأوقاف والتعليم والحسبة وغيرها. ولقد أدى هذا الوضع إلى نتيجتين:

الأولى: تنافس المتصدرين لهذه المذاهب في التقرب من السلاطين والقادة، وكيد كل مذهب للآخر للإيقاع به وللاستئثار دونه بمناصب الدولة ووظائفها تحت ستار الغيرة على العقيدة والاتهام بالزندقة.

والثانية: أن الانتهازيين، أصحاب المطامع الشخصية، وجدوا في الانتساب للمذاهب وسيلة لتحقيق مطامعهم. وبذلك صار الناس ينتقلون بين هذه المذاهب حسب نفوذها في دوائر الدولة وقدرتها على خدمة المصالح الشخصية للأتباع.

ومن الآثار السياسية أن العلاقات بين المذاهب الإسلامية والحكومات القائمة صارت تتشكل حسب مواقف هذه الحكومات من تلك المذاهب، وحسب استجابتها أو رفضها لأطماع هذه المذاهب. فإذا مكنت الحكومة رجالات المذهب من مناصب الدولة التي يتطلعون إليها رضي المذهب وأتباعه، وأشادوا بعدل الدولة وبخدمتها للإسلام، وإذا لم ينل المذهب ما يرنو إليه جعل الحكومة هدفا للتشهير والتجريح، وعمد خطباؤه ووعاظه إلى إثارة العامة في المساجد وأماكن العلم وإلى تحزيب الطلبة في المدارس. وكثيرا ما قاد علماء المذهب الساخط المظاهرات لأن الحكومة، كما كانوا يعلنون، تهاونت في تولية وزير ظالم أو قاض مترخص، والقاضي المترخص هنا من مذهب آخر! وإذا ساعدت الدولة أحد المذاهب، اعتبرت المذاهب الأخرى ذلك تحيزا ومحاباة فقاومته وثارت ضده.

وإزاء هذا التنافس بين المذاهب على حطام الدنيا تحت ستار الدين، استخفت الدولة بالمشايخ والوعاظ، وهيمن السلاطين والقادة على المؤسسات العلمية والقضائية، وصاروا يعينون القضاة والمدرسين أو يعزلونهم وينزلون بهم العقاب، ويتدخلون في وضع المناهج الدراسية وتعيين المذهب الرسمي للدولة.

أما في مصر والشام التي كانت تتجاذبها السياسات الفاطمية المعادية للسنة من جهة، مثلما كانت تتجاذبها السياسات المذهبية بين أهل السنة أنفسهم من جهة أخرى، فقد تضاعف الخطب وتعددت المشكلات. فلقد تعرض العلماء وأهل الفكر للأذى والاضطهاد من قبل الدولة وسلطاتها. من ذلك ما رواه ابن الجوزي عن الوزير الفاطمي بدر الجمالي حيث قال: «وكان بدر هذا قد نفى من مصر والقاهرة كل من وقعت عليه سيماء العلم بعد أن قتل خلقا كثيرا من العلماء، واعتبر أن العلماء هم أعداء هذه الدولة، وهم الذين ينبهون العوام على ما يقولونه».

ومن ناحية أخرى، اشتعلت الصراعات المذهبية، حيث أطنب المؤرخون في تقديم الكثير من صور الأحقاد التي كان يكنها المذهبيون بعضهم لبعض.

ولم تكن هذه المواقف المذهبية وآثارها إلا نماذج للعلاقات التي كانت قائمة بين مختلف الجماعات والفرق الإسلامية في العراق والشام ومصر وغيرها من أقطار العالم الإسلامي.

وقد طغى تسجيل هذه الاتجاهات المذهبية على مؤرخي هذه الفترة، وجعلوا لكل مذهب طبقات، في حين لم تحظ الكوارث والمشكلات التي كانت تتوالى، وعلى رأسها الحملات الصليبية، إلا بإشارات مقتضبة خالية من المشاركة الوجدانية والمشاعر الأخوية، ناهيك عن البحث في خطورتها وتأثيراتها على دولة الإسلام والمسلمين.

ونخلص من ذلك كله إلى أنه لم تكن لدى الفكر الإسلامي والمؤسسات التي كانت تمثله تلك الأهداف والمفاهيم التي تتناسب والحاجات والتحديات القائمة، ولم تكن هناك الاستراتيجيات التي تمكن هذه المؤسسات من تحمل مسؤولياتها في المجتمعات الإسلامية التي عاصرتها.

ولم تقتصر الأمراض المذهبية وسلبياتها على المذاهب الفقهية، وإنما امتدت إلى الصوفية المعاصرة لتلك الفترة وأصابتها بالانحراف والانقسام والشكلية في السلوك والتطبيقات.

والأصل في التصوف أنه نشأ كمدارس تربوية، كالمدارس الفقهية، هدفها تزكية النفس وصقل الأخلاق، مثال ذلك المدرسة المحاسبية، نسبة إلى الحارث المحاسبي، والمدرسة الجنيدية نسبة إلى الجنيد البغدادي، والمدرسة النورية نسبة إلى أبي الحسن النوري، والمدرسة النيسابورية نسبة إلى أبي جعفر النيسابوري، ومدرسة سري السقطي وغيرها.

ولم تكن هذه المدارس تغلو في آرائها ولا تخرج عن قيد الشريعة في شيء كما فصل ذلك ابن تيمية في فتاواه، غير أن عوامل التطور عملت في هذه المدارس التربوية فطورتها إلى طرق كما تطورت المدارس الفقهية إلى مذاهب.

ومهما كان أمر التطور التاريخي للصوفية فقد انتهى في الفترة التي نتحدث عنها بانقسامه إلى ثلاثة اتجاهات هي:

أولا- الملامتيّة:

يذكر مؤرخو الصوفية القدماء، من أمثال أبي نعيم والسلمي والهجويري، أن أبرز رواد الملامتية هو حمدون القصار المتوفى عام 271هـ/ 884م وقد نقلوا عنه قوله: «إن النفس لأمارة بالسوء وإن لانت، فهي لا تنقاد لطاعة إلا وتضمر شرا، ولذلك يجب اتهامها في جميع الأوقات» وقوله كذلك: «الملامة هي ترك السلامة».

ولم يكن حمدون هذا إلا واحدا من كبار شيوخ التصوف السني، امتاز باليقظة الوجدانية ومراقبة النفس والحذر من الرياء في العلم والعمل. لكن الذي دفع بهم في التيار السلبي هو تلميذه محمد بن منازل المتوفى 329هـ/ 940م والذي أصبح شيخ الملامتية من بعده. فقد جعل دناءة النفس وتأصل الشر فيها قاعدة أصيلة وذلك بقوله: «لو صح لعبد في عمره نفس واحد من غير رياء ولا شرك لأثر بركات ذلك عليه إلى آخر الدهر».

ثم خلفه محمد بن أحمد الفراء فعمق هذا الأصل بمقولاته وقرر أن «كتمان الحسنات أولى من كتمان السيئات»، كما أوّل كلام المشايخ المتقدمين تأويلا يدعم ما جاء به. فنقل عن حمدون القصار قوله: «إذا رأيت سكرانا فتمايل لئلا تنعى عليه فتبتلى بمثل ذلك». ويبدو أن هذا التأصيل لشرور النفس شجع الأتباع على الخروج على الآداب العامة، وصار احتقار الناس لهم مطلبا، بحجة أن الإخلاص لا يتحقق إلا إذا سقط العبد من عيون الخلق. فكان منهم من يعمل نهاره في السوق ليوزع ما يجنيه سرا على الفقراء ثم يسأل الناس طعامه سعيا وراء التحقير والإهانة. ويذكر الهجويري أنه رأى منهم من هجر الطعام وراح يعيش على النفايات الملقاة والخضروات المتعفنة، ويجمع الخرق الملقاة على المزابل فيغسلها ويخيط منها مرقعات يسلمونها للقذارة والأوساخ حتى تصبح عشا للحشرات والعقارب، وأنه شاهد في أذربيجان بعض المتصوفة وهم يدورون على بيادر القمح يتسولون لشيوخهم.

وانتشرت الملامتية بعد ذلك ومضت قدما في طريقها المُغالي، حتى إذا جاء القرن الخامس والقرن السادس الهجري آل أمرهم إلى فرقة خرجت على تعاليم الشريعة واستباحت المحرمات وقالت إن المراد خلوص القلب إلى الله، أما التقيد بالشرع فهو رتبة القاصرين عن الفهم والمقلدين.

ثانيا- الحلوليون والخارجون على قواعد الشريعة:

تمثل هذا الاتجاه بطوائف مختلفة يجمعها الخروج على تعاليم الشريعة. فكان منهم أتباع الحلاج الذين تداعوا لمناقشة القضايا التي صلب من أجلها، وانتهى بعضهم إلى أن

صلبه من مقتضيات التضحية التي يفرضها مقامه إذ لا معنى لفناء الصفات دون فناء الجسد. ومنهم من أنكر موت الحلاج وقال برفعه إلى السماء، وأن الذي صلب هو عدوه ألقى الله عليه شبهه.

ولقد ظل أتباع الحلاج يقيمون في بغداد والمناطق المتاخمة لها حتى القرنين الخامس والسادس الهجريين، وكانوا يسمون بالحلاجين ويتكلمون عنه في غلو يشبه غلو الشيعة في علي بن أبي طالب.

وقد تطورت نظرية الحلول في القرنين الخامس والسادس الهجريين فلم يعد الحلول وقفا على فئة العارفين بل شمل كل شيء جميل، وانطلاقا من هذا فقد أباح الحلوليون النظر إلى المستحسنات باعتبار أنهم ينظرون إلى جمال الله.

وبرزت طائفة تقول إن الشريعة قيد للفرد في مقام العبودية وهو مقام الجهل بالله، فإذا عرف الصوفي ربه فقد تحلى بالحرية وسقطت عنه التكاليف.

وإلى جانب ذلك كانت هناك طائفة جاهلة اكتفت من التصوف بالأشكال والمظاهر كلبس المرقعات وصياغة الألحان والرقص، ووجدت طوائف تخلط الرجال بالنساء وحجتهم أنهم بلغوا مقاما عصموا فيه من رؤيتهن.

وأخيرا يطالعنا القلندرية، وهم ، حسب تعبير السهروردي: «أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى ضربوا العادات وطرحوا التقيد بالآداب العامة، ولم يأتوا من العبادات إلا الفرائض وأخذوا بالرخص ولم يتحروا الشبهات.. واكتفوا من التصوف بطيبة القلب» . والقلندرية معناها في العربية المحلقون، وقد نشأت فرقتهم في دركزين في همدان، ثم زحفت نحو العراق وبرزت في القرن السابع في الشام حيث أقامت لها زوايا، وتميز أصحابها بلبس الفراجي والطراطير.

ثالثا - انقسام التصوف السني:

أمام الانحرافات التي أصابت ميدان التصوف برز التصوف السني ليتصدى لهذه التيارات المنحرفة، وليطهر الساحة الصوفية من آثارها. وقد مثل هذا التصدي مدرستان كلاهما امتداد للجنيدية: المدرسة الأولى في نيسابور، والثانية في بغداد.

أما مدرسة نيسابور فقد قادها أبو نصر السراج المتوفى عام 378هـ/ 988م ، وعليه تتلمذ أبو عبد الرحمن السلمي صاحب الطبقات المتوفى عام 412هـ/ 1021م، وعلى يد

السلمي تتلمذ عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى عام 465هـ/ 1072م، وممن اقتفى أثر السراج الهجويري المتوفى عام 465هـ/ 1072م كذلك.

ولقد قام نشاط هذه المدرسة على أمرين: الأول: تدوين التراث الصوفي وصب مفاهيم التصوف في قوالب تقيدها بالشرع وتبعدها عما يفضي بها إلى الحلول والاتحاد.

والثاني: إبراز التصوف السني باعتباره عملية تزكية للنفس تدعم الإيمان والتوحيد وتنقيه من شوائب الرياء والحظوظ النفسية. وكان من ثمار هذا النشاط تلك المؤلفات التي ما زالت تشكل المصادر الأولى للتصوف السني والتي جمعت أقوال رجال التصوف الأوائل ومن سبقهم من الزهاد.

ويمكننا أن نلحق بالمدرسة النيسابورية جهود أبي نعيم الأصبهاني المتوفى عام 430هـ/ 1037م وصاحب المصنف الجامع «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

وأما مدرسة بغداد فقد اعتمدت المنابر ومجالس الوعظ. وأبرز مشايخها هو جعفر ابن محمد الخلدي المتوفى عام 348هـ/ 959م والذي أصبح مرجعا في علوم التصوف بعد الجنيد، وكان يعكس الاتجاه نفسه في التزام الشريعة واجتناب الدعاوى الخارجة على الكتاب والسنة.

ومع أن التصوف السني قد نجح في مهمته الفكرية واستطاع أن يبلور تصورا متقيدا بالشرع، إلا أنه ظل مصابا بالانقسام ونقصان التنظيم الذي برز بشكل واضح منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. يضاف إلى ذلك أن الاضطراب الاجتماعي الذي أحاط به جعله يجنح إلى العزلة عن الحياة، ويكتفي بالعمل على خلاص الفرد في الآخرة. ولذلك فقد استقل كل شيخ بأتباعه في رباط خاص مما يبنيه الخلفاء والسلاطين والوزراء والمحسنون في الحضر والريف والبادية، وراح يمارس نوعا من التطبيقات المذهبية كما كان معاصروه من الفقهاء، وقد قدم لنا ابن الجوزي ومن عاصره من المؤرخين أمثلة عديدة لذلك.

كذلك قامت الخصومات بين الفقهاء والمتصوفة إلى جانب الفتن المذهبية، وانتشرت طوائف الجهلة والسطحيين من الصوفية. ويروي الهجويري قصصا من مشاهداته عن كيفية تلقي المريدين لكلام شيوخهم تلقيا حرفيا وتقليديا، وأنهم كانوا يأخذون بظواهر الأمور. كذلك يذكر أن كثيرا من الشيوخ في زمنه أصبح همهم جمع المريدين وتصدر الأتباع طلبا للجاه والنوال.

وإزاء ذلك كله فقد ازدهرت الحركة الباطنية نتيجة للمذهبية والركود اللذين ضربا الفكر الإسلامي السني ومؤسساته، ونتيجة للمظالم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمارسها السلطات القائمة. ويجعل المؤرخون بدايات هذه الحركة بالفرقة الإسماعيلية التي أنشأها الحسن بن الصباح الذي تمكن عام 463هـ/ 1090م من الاستيلاء على قلعة ألموت وجعلها عاصمته ومركز أعماله.

والواقع أن الباطنية أوسع إطارا من ذلك بكثير، فهي حلقة في سلسلة المحاولات التي قامت بها سلالات الأرستقراطيات الفارسية التي فقدت امتيازاتها بانهيار حكم الأكاسرة والزرادشتية، والرامية إلى استعادة ذلك المجد الغابر. ولتحقيق هذا الهدف لجأت إلى أساليب وشعارات جديدة تتفق مع المنعطف العقائدي والحضاري الذي تحول إليه الشعب الفارسي المسلم بعد الفتوحات الإسلامية. ومن هذه الأساليب الجديدة الشعوبية والباطنية، والتشيع المتطرف، والفلسفة الأفلاطونية الجديدة وإحياء اللغة الفارسية.

وتعود الحركة الباطنية إلى القرن الرابع الهجري حيث ضمت بين صفوفها جماعات مختلفة، يجمعها هدف مشترك هو إفساد العقيدة الإسلامية وتدمير المؤسسة الحكومية التي تمثل هذه العقيدة. فقد ضمت فلاسفة ومفكرين كإخوان الصفا، وشعراء كأبي العلاء المعري، وعلماء كأبي حيان التوحيدي. ويذكر ابن سينا أن والده كان يحضر اجتماعاتها السرية، ويعقد بعض الاجتماعات في بيته، ويحرص على حضور ولديه (ابن سينا وأخيه) هذه الاجتماعات والالتقاء بالمفكرين الذين يديرونها.

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، أفرزت هذه الحركة جناحا عسكريا إرهابيا بقيادة الحسن الصباح فأخذ يبث دعاته من قلعة ألموت ليخدعوا الأحداث والبسطاء ويضموهم - باسم الدين ونصرة آل البيت - ويملأوا نفوسهم حقدا على المسلمين ويربوهم على الطاعة العمياء. ويذكر المؤرخون الإسلاميون أنهم كانوا يستعينون في التأثير على الأتباع بالحشيش الذي يقدمونه لهم، فإذا أصابهم الدوار أمروهم بما يريدون ولذلك سموا بالحشاشين.

ولن نتبين حجم التحدي الباطني في مجال العقيدة والفكر إلا إذا وقفنا على تعاليمهم التي جعلت لنصوص القرآن ظاهرا وباطنا يخرجان بها عن مضامين العقيدة الإسلامية. فقد فسروا قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ

﴿وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة:2] بأن القلائد هم الأئمة المستورون، والبيت الحرام هو الخليفة الفاطمي. وفسروا كذلك قوله تعالى ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:6] هو الإقرار بالإمام الناطق الذي يفيض عنه العلم ويوصلنا إلى معرفة الله تعالى. وذكروا أن المقصود بالملائكة هم دعاة الإمام الذين يأخذون له العهد على المستجيبين ويربونهم على عقيدة الباطنية الإسماعيلية التي تمنح شخص الإمام الحاكم الريادة العقائدية والسياسة المطلقة وتمنحه مرتبة إلهية.

ولقد وضعت الباطنية للعبادات والعقائد الإسلامية قاموسا لغويا يناسب التأويلات التي ابتدعوها. من ذلك قولهم إن كل ما ورد من الظواهر عن التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية هي أمثلة ورموز إلى بواطن. فمعنى الجنابة: إفشاء السر. والغسل: تجديد العهد على من أفشى السر. والكعبة: النبي. والباب: علي. والتلبية: إجابة الداعي. والطواف بالبيت سبعا: الطواف بالإمام إلى تمام السبعة. والنار: الجهل بالعلوم الباطنية. والطهور: التبرؤ من كل مذهب يخالف مذهب إمام الباطنية.

ولقد انتشر دعاة الباطنية في غرب العالم الإسلامي وشرقه، وأخذوا يدعون إلى إسقاط الحكومات السنية وعلى رأسها الخلافة العباسية. ولقد استطاعوا من خلال ذلك أن يفسدوا عقائد الأمة وأن يثيروا الفتن والقلاقل. ومضوا يغتالون الشخصيات المعارضة لهم، فقتلوا مئات القادة من الوزراء والعلماء والسلاطين ونشروا الرعب في كل مكان.

أما في مجال الفلسفة، فقد دخلت الفلسفة الحياة الفكرية في العالم الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري حينما نشطت ترجمة العلوم اليونانية والهندية إلى اللغة العربية. غير أن الفلسفة منذ القرن الرابع الهجري اتخذت طابعا آخر تحدى العقيدة وفكرة النبوة والرسالة في الإسلام، وارتبط بالأهداف السياسية الرامية إلى إعادة القيادة للأرستقراطيات التي هزمها الفتح الإسلامي. ومؤسس هذا الاتجاه هو ابن سينا (370هـ-428هـ) (980-1037م) الذي يعتبر أعظم فلاسفة المسلمين. ولقد اعتبر موسوعة عصره بسبب ما أوتي من ذاكرة جبارة وسعة في التخصص والاطلاع وعمق في التفكير، وإن كانت شهرته كطبيب قد غطت على بقية مهاراته.

لقد كان ابن سينا تلميذا لأرسطو ومتصوفا في آن واحد. وهذه الثنائية جعلته رجلا تتناقض فيه الآراء. فالبعض يعتبره تقيا كرس نفسه للعبادة، بينما يؤكد آخرون أنه كان

منافقا قنع زندقته بقناع من الصوفية الغامضة. وقديما نعته الذهبي بأنه: (رأس الفلاسفة الإسلاميين الذين مشوا خلف العقول، وخالفوا الرسول). فرد عليه ابن تغري بردي: (قلت: لم يكن ابن سينا بهذه المثابة بل كان حنفي المذهب، تفقه على الإمام أبي بكر بن أبي عبد الله الزاهد الحنفي، وتاب في مرض موته، وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة إلى أن توفي يوم الجمعة في شهر رمضان. ومن يمشي خلف العقول ويخالف الرسول لا يقلد الأحكام الشرعية، ولا يتقرب بتلاوة القرآن العظيم).

ولا شك أن الرجل كان ذا اتجاهات دنيوية مشبوهة، ولكنه كان يتوجه نحو هدفه بحذر وروية. فقد روى تلميذه المخلص - ابن أبي أصيبعة - الذي صحبه خمسة وعشرين عاما أن ابن سينا تناول حظه من شهوات الدنيا، وأنه أسرف في الجنس إسرافا كان من أسباب تدهور صحته، وأنه كان إذا فرغ من دروس الطب الليلية أحضر الشراب والآلات الموسيقية واستمر في اللهو لساعات.

ولنتذكر أن والد ابن سينا - كما مر في صفحات سابقة - كان من جماعة الباطنية، وأنهم كانوا يعقدون اجتماعاتهم السرية في بيت هذا الوالد حيث يحضرها ابن سينا كما روى ذالك بنفسه:

«وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين (الفاطميين) ويعد من الإسماعيلية. وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه، وكذالك أخي. وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي. وابتدأوا يدعونني إليه ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند، وأخذ والدي يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي. وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبي دارنا رجاء تعليمي منه».

ولا شك أن هذه الصحبة لفلاسفة الباطنية قد أثرت تأثيرا عميقا في تفكير ابن سينا، وهيأته للدور الذي لعبه في تنشيط تيار الفلسفة واتخاذها موقف التحدي من العقيدة الإسلامية. ولفهم دور ابن سينا في هذا المجال يكفي أن نستعرض القضية الأساسية في فلسفته وهي «نظرية المعرفة» التي وضع الفلاسفة فيها على قدم المساواة مع الأنبياء، ثم خص الفلاسفة بميزة أخرى حين قرر أن الفلاسفة استمروا في رسالتهم وارتقاء معارفهم في الوقت الذي ختمت النبوة بالرسول محمد ﷺ.

ولم يكتف ابن سينا بتطبيق هذه النظرية خلال اشتغاله بالتعليم والمنطق والطب والعلوم الطبيعية، بل شاركه في ذلك فلاسفة وعلماء شهيرون، ونشروا هذه الآراء في المدارس الإسلامية وفي أوساط المثقفين، وكان سلاحهم الأول هو المنطق الذي كان الوسيلة لتنمية القدرات للفيلسوف حتى يتأهل للتلقي عن العقل الفعال. ولقد سحر علم المنطق المثقفين في تلك الفترة فأقبلوا على دراسته وحذقه. ومما سهل هيمنته وانتشاره أن الفكر الإسلامي الذي مثله الفقهاء وأمثالهم كان حبيس المذهبية الحزبية والتقليد، لذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام تيار الفلسفة التي أحدثت موجة حادة من القلق العقائدي لدى المثقفين والاضطراب الاجتماعي لدى العامة.

ويمكن القول إن التكوين الفكري والعقائدي الذي استعرضنا تفاصيله قد اتسم بأمرين:

الأول: جمود مؤسسات الفكر الإسلامي وتحولها عن رسالتها في ترشيد المجتمع الإسلامي وتوجيهه إلى مؤسسات مهنية أكاديمية اتسمت بالمذهبية والانقسام، وانحراف مناهج التفكير عن الأصول القائمة في القرآن والسنة.

والأمر الثاني: إفساح المجال للعقائد الفكرية والاتجاهات الثقافية التي تهاوت مؤسساتها أمام الفتح الإسلامي لتبرز في مظاهر جديدة تتلاءم مع المنعطف العقائدي والحضاري الذي أحدثته مدارس الفكر الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى.

وإذا كان هذا هو حال الفكر والفلسفة، فإن آثار الاضطراب الفكري والشكلية الدينية - اللذين ضربا المجتمعات الإسلامية في الفترة التي سبقت الهجمات الصليبية - قد انعكست على تكوين هذه المجتمعات، وعلى المبادئ والقيم التي كانت توجه علاقات الأفراد والجماعات، وتوجه سلوكهم ونشاطاتهم. فقد افتقرت هذه الجماعات إلى المفاهيم الصائبة والقيادات الناضجة، وسار الناس في حياتهم اليومية والعامة دون إرشاد صحيح، فاختفت الموازين الإسلامية وسيطرت الأهواء والشهوات. ولقد أثر ذلك كله في ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، فأفسدها وأضعف مقومات المجتمع في الداخل ومناعة المقاومة فيه، وجعله عرضة للهزائم والنكسات.

فعلى المستوى الاقتصادي فإنه ليس صحيحا أن الازدهار أو التخلف الاقتصاديين يعتمدان على وفرة مصادر الثروة أو قلتها، وعلى تقدم وسائل الإنتاج أو تخلفها. ولكنهما

يعتمدان على التصور العقلي الذي يوجه طرق الكسب وطرق الإنفاق. فإذا قام هذا التصور على أساس الكسب المشروع والإنفاق المشروع ازدهرت الحياة الاقتصادية وشاع الرخاء. أما إذا تشكل هذا التصور عكس الطرق المشروعة فإن الحياة الاقتصادية تنتكس وتعم الأزمات.

ولذالك صرف القرآن الكريم الناس على التفكير بمصادر الرزق، لكنه فصل في توجيههم إلى مراعاة الكسب الحلال والإنفاق الحلال، وأداء ما أمر الله بأدائه. والخلط بين الأمرين هو منشأ التخبط الذي وقع فيه المسلمون في فترات الانحطاط، وهو ما طبع الحياة الاقتصادية في الفترة التي سبقت الهجمات الصليبية ورافقتها.

فلقد قامت وسائل الكسب - في هذه الفترة - على أسس غير مشروعة. فالدولة تفننت في أنواع الضرائب وابتزاز الناس، حتى الحجاج كانوا يدفعون الكثير من الضرائب للبلد الذي يمرون فيه، كما كان يفعل الفاطميون مع حجاج المغرب في مصر، ومن عجز عن الأداء حبس وربما فاته الوقوف بعرفة. وخلال هذه الممارسات أثرى القائمون على أمور الإدارة إثراء يفوق التصور.

واقتفى الجند آثار الأمراء والوزراء، فكانوا إذا ما نشبت الفتن بين أمرائهم أو السلاطين والملوك يستغلون الفرصة، وينهبون المدن والمحلات التجارية والبيوت، كذلك تفنن التجار في رفع الأسعار، خاصة خلال ندرة الأقوات والحاجات.

أما وسائل الإنفاق فقد اقتصرت على شهوات الأغنياء والمترفين، الذين كانت تحمل لهم في الصيف من جبال لبنان ألواح الثلج ملفوفة بالصوف والخيش، ولقد تقلبوا في أعطاف النعيم إلى درجة تفوق الوصف. كذلك قلد السلاطين والولاة كبار الموظفين وبقية الأغنياء، وشابههم الكثير من وعاظ المذاهب الذين كانوا يعظون بأسلوب ويعيشون في بيوتهم بأسلوب آخر.

أما المصالح العامة فلم تنل شيئا من الإنفاق، من ذلك إهمال العناية بالري والزراعة فكثرت الفيضانات، مثل دجلة والفرات، التي أهلكت المرافق العامة، وأهملت الطرق وشؤون الأمن فاستغل العيارون واللصوص الفرصة وشاركوا في نهب المحلات التجارية والبيوت. أضف إلى ذلك ما كان يقوم به الأعراب من غارات على الريف ونهب المحاصيل والتربص بقوافل الحجاج والتجارة.

ونتيجة لهذا كله عانت جماهير المسلمين من ضروب الجوع ومما لا يمكن تصوره وتصديقه، فقد وجدت جماعات لم تجد مصادر للعيش إلا ضفاف الأنهار وسواقي المياه، حيث تلتقط أوراق الخضار الساقطة، وانتشرت المجاعات والأوبئة في أقطار العالم الإسلامي كله. وربما أنشب الجوع أظفاره في بعض العائلات فلم تجد من سبيل لمجابهته إلا افتراس أحد أصدقائها أو أطفالها أو المتوفى من أفرادها، وليست هذه رواية مؤرخ منفرد في روايته، وإنما هي ظاهرة تواتر الخبر عنها عند جميع مؤرخي الفترة كابن الجوزي وابن كثير وابن تغري بردي وغيرهم.

ولقد كان لانهيار وحدة التصور في الحياة الفكرية وشيوع المذهبية آثارهما في الحياة الاجتماعية أيضا، فقد انهار مفهوم الأمة الإسلامية وحلت محله مفاهيم العصبية العشائرية والإقليمية والمذهبية، حتى أن العصبية كانت بين أحياء المدينة الواحدة. وتطفح كتب التاريخ الأصلية بحوادث الشجار والفتن خلال هذه الفترة.

ولقد أصبحت الصفة العامة للحياة الاجتماعية هي الشغب والاضطراب. فلطالما تمرد العيارون واللصوص حتى في قلب العاصمة بغداد واحتلوا أحياءها واستعصوا على قوات الخلافة، ولطالما اشتبك العامة بغلمان الخليفة الأتراك. ويتحدث ابن الأثير عن الفتن في دمشق عام 461 هـ التي أدت إلى احتراق المسجد الأموي فيقول: «وقع بدمشق حرب بين المغاربة أصحاب المصريين (أي الفاطميين) والمشارقة (أي أصحاب العباسيين) فضربوا دارا مجاورة للجامع بالنار فاحترقت واتصلت بالجامع، وكانت العامة تعين المغاربة، فتركوا القتال واشتغلوا بإطفاء النار في الجامع، فعظم الخطب واشتد الأمر، وأتى الحريق على الجامع فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة».

وفي غمرة الفساد الذي ضرب الحياة الاجتماعية، انصرف المجتمع بمختلف هيئاته إلى الانشغال بقضاياه اليومية الصغيرة التي تدور حول الغذاء والكساء والمأوى والتنافس في التجارات واللهو وتلبية الشهوات، وانتشر النفاق وسقطت القيم وانهارت الأخلاق. وصار الحديث عن المثل العليا والقضايا العامة إما وسيلة ثقافية يتكسب بها الخطباء والوعاظ والمدرسون، أو مثاليات وخيالات يستخف بها الكثيرون ولا يعيرونها انتباها.

ورافق هذا الفساد مضاعفات في اللهو وفساد الأخلاق، فقد شاعت ألعاب مصارعة الحمام، وشاع الزنا وشرب الخمر، وانتشرت الملاهي والجواري والمغنيات إلى درجة ارتفعت من أجلها الشكاوى.

أما الممارسات الدينية فقد اقتصرت على أداء الشعائر والعبادات واختفت آثار التوجيه الديني في العلاقات والمعاملات، وتطفح كتب التاريخ التي أرخت لتلك الفترة بشواهد ذلك ومظاهره.

على أن أخطر ما كان يعانيه المجتمع العربي الإسلامي قبيل الحروب الصليبية هو الانقسام السياسي والصراع السني الشيعي، فقد كانت وفاة السلطان ملك شاه عام 486هـ/ 1092م بداية لتفكك دولة السلاجقة حيث دب النزاع بين أبنائه، وانقسمت الدولة خلال السنوات الخمس التي تلت إلى خمس ممالك متنافسة هي: سلطنة فارس وعلى رأسها بركياروق الذي سيطر على بغداد. ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر. ومملكة حلب وعلى رأسها دقاق بن تتش. وسلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج بن أرسلان. وفي عام 1104م انقسمت سلطنة فارس إلى قسمين.

وفي نفس الوقت تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم الأتابكيات: كأتابكية دمشق، وأتابكية الموصل، وبعض هذه الأتابكيات صغير جدا لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة.

واستمرت علاقات الشك والريبة والطمع تحكم هذه الدويلات، فدخلت في صراعات وحروب تكاد لم تخل منها سنة واحدة، وانعكست هذه الصراعات على الرعايا من عامة المسلمين فكانوا يتعرضون للإيذاء والنهب والتفكك الاقتصادي والاجتماعي. وكثيرا ما استغل الأعداء من الخارج هذه الخصومات القائمة بين رؤساء الدويلات المسلمة، فهاجموا البلاد وفتكوا بأهلها، وهذا ما فعله الصليبيون عام 509هـ.

وفي داخل كل دولة من هذه الدويلات السياسية المجزأة، كان أمراء الجيش وكبار القادة يقودون الانقلابات والثورات ويبيعون ولاءهم للسلاطين حسب الأعطيات والهدايا. كذلك كان الجند، حيث صارت الجندية عندهم وسيلة للارتزاق واستغلال فرص الاضطرابات للنهب والغنائم والعطايا.

كذالك استغلت قبيلة بني مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات ظروف الانقسام والتجزئة. فاتخذت بقيادة شيخها - صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي - من مدينة الحلة مقرا لها عام 1101م، وأقامت إمارة لها احترفت الغارة والنهب خلال فترات الاضطراب والفتن. ولم يتردد أمراؤها في محالفة الصليبيين فيما بعد.

ولقد تعاظمت شرور هذه الإمارة في زمن أميرها دبيس المتوفى عام 529هـ. فلقد شن حروبا عديدة على الخليفة العباسي في بغداد وفي المناطق المجاورة من العراق وبلاد الشام حيث وصفه ابن تغري بردي بقوله: «وكان شر أهل بيته يرتكب الكبائر ويفعل العظائم، ولقي منه الخليفة والمسلمون شرورا كثيرة، وأبطل الحج وأباح الفروج في رمضان. وكانت أيامه 67 سنة إلى أن قتله السلطان مسعود السلجوقي في ذي الحجة لسنة 529 هـ».

أما أمراء الحجاز فكانوا يتلونون بين العباسيين والفاطميين، وكانوا يقتلون الحجاج ويأخذون أموالهم وخاصة كأمير مكة محمد بن أبي هاشم.

وإلى جانب هذا التفكك الداخلي، دخلت هذه الدويلات مع الدولة الفاطمية في صراع مرير استنفذ طاقتها المادية والبشرية، فقد استطاعت الدولة الفاطمية منذ القرن الرابع الهجري أن توطد نفوذها في مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومضت في سياستها الرامية إلى تقويض السياسة العباسية واجتثاث الفكر الإسلامي السني واستبداله بالفكر الشيعي. وفي سبيل ذالك راح دعاتها في شرق العالم الإسلامي وغربه يدعون إلى إسقاط الحكومة السنية، ويبشرون بالعدل والرخاء اللذين سيعقبان دخول عامة المسلمين في طاعة الخليفة الفاطمي. واستطاع هؤلاء الدعاء التأثير في صفوف العامة والجيش، وتحريك الفتن حتى استطاعوا في عام 450هـ القيام بانقلاب عسكري في بغداد نفسها بقيادة البساسيري الذي أعلن عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي، وراح يقتل قيادات السنة وعلماءها مدة عام كامل. ويصف عماد الدين الأصفهاني الأثر الذي أحدثه انقلاب البساسيري هذا فيقول:

«وفي هذه الفترة تمت فتنة البساسيري، ودخل بغداد سادس ذي القعدة سنة 450هـ. وخرج سادس عشر ذي القعدة سنة 451هـ. وكانت سنة سيئة كادت تكون لنور الله مطفئة، فإنه دعا إلى الدعي بمصر مصرا، ولم يجد الخليفة بمقره في دار الأمانة مقرا... وصلب البساسيري رئيس الرؤساء أبا محمد بن المأمون رسول الخليفة... وقتل أصحب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر أحمد بن علي... واختل نظام الإسلام واعتلت دار السلام. وطالت غربة الإمام وهالت كربة الأنام».

واستمر البساسيري يحكم بغداد باسم الفاطميين حتى قدوم السلاجقة الذين قضوا على فتنته هذه وأنقذوا الخلافة العباسية. وهنا اتخذت الحكومة الفاطمية سياسة جديدة، إذ تحالفت مع الحركة الباطنية الإسماعيلية، ومضى الطرفان في تأليب عامة المسلمين وإثارة

الفتن وتنفيذ الاغتيالات. وقد استغل مؤيدو الباطنية الانقسام الواقع في صفوف السلاجقة لتوطيد نفوذهم ونشر دعوتهم، فاستولوا عام 488هـ/ 1094م على قلعة «شاهدز» بالقرب من قلعة أصفهان وهي من القلاع الحصينة والمهمة في مناطق السلاجقة مما زاد في قوة الباطنية، وأصبحت هذه القلعة مركزا للتخطيط ومنطلقا للقضاء على من يناوئ دعوتهم أو يقف في طريقها.

لقد ذهب ضحية الاغتيالات الباطنية عدد كبير من رجال الدولة السلجوقية كالوزير نظام الملك وولده، وفشل السلاجقة في القضاء على هذه الفرقة التي ظلت تثير الفتن وتنشر الرعب والفزع في أنحاء العالم الإسلامي الشرقي حتى قضى عليها المغول عام 654هـ/ 1256م.

أما في الجانب الغربي - بلاد الشام - فقد استمر مؤيدو الباطنية يبثون الرعب ويحيكون مؤامرات الاغتيال. وعندما احتل الصليبيون فلسطين والسواحل السورية راحت الباطنية والفاطميون يستعينون بأمراء الصليبيين وملوكهم ويعقدون معهم المحالفات ضد العالم السني. وقاموا - في ما بعد - بمحاولتين لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي نجا من المحاولة الثانية بأعجوبة، ويروي أبو شامة تفاصيل هذه المحاولة الشريرة. فيذكر أن مؤيدي الباطنية أرسلوا جماعة من أتباعهم، تنكروا بزي الجنود ودخلوا في جيش صلاح الدين أثناء محاصرته لحصن عزاز في شمال سوريا، فباشروا الحرب وابلوا فيها أحسن بلاء. وبينما كان السلطان يدير الحرب من خيمته إذ وثب عليه أحد الباطنيين، وضربه بسكين في رأسه فأصابت خوذة الحديد، وانزلقت إلى خده فجرحته. وحينما رأى الباطني فشل ضربته هجم على السلطان فجذب رأسه إلى الأرض وركبه لينحره، فسارع أحد مساعدي السلطان وهو سيف الدين بازكوج وضرب الباطني بسيفه فقتله. ثم انقض باطني آخر نحو السلطان فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف ضربة قاضية، لكن الباطني كان قد سبق الأمير داود بضربة جرحته في جبهته جرحا أماته بعد أيام. بعد ذلك انقض باطني ثالث على السلطان فاعترضه الأمير علي بن أبي الفوارس وجماعة فقتلوه، ثم ظهر باطني رابع منهزما فلحقوا به وقتلوه.

أما السلطان فقد نقلوه إلى سرادقه والدم ينزف من خده. وتوقفت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس من بعضهم البعض. واضطرب الجيش ولم يصدق أن السلطان حي وطالب برؤيته حتى أظهره أعوانه فسكت الجنود.

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الأولى

في سنة 486 هـ-1093م، قدم إلى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى «بطرس الناسك» للحج والزيارة. ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على فلسطين والأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لإنقاذ الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين، فكـرّ راجعا إلى وطنه فرنسا وعرّج على روما حيث يوجد البابا أربان الثاني.

والبابا باعتباره الرئيس الأعلى للمسيحيين، كان يعمل على تنفيذ فكرة إنقاذ الأماكن المقدسة النصرانية من أيدي المسلمين. وكان سلفه البابا جريجور السابع قد فكر في هذا الأمر استجابة لدعوة إمبراطور بيزنطي سابق. كما كانت له مشاركة وتأييد في محاربة المسلمين بالأندلس. وقد اتخذ البابا أربان من بطرس الناسك أداة للدعاية ونشر الفكرة في المجامع العامة، والمحافل الشعبية، ليهيج الأفكار، ويثير الحماسة الشعبية للعمل على إنقاذ بيت المقدس وكنيسة القيامة. وسار بطرس الناسك متجولا في إيطاليا وفرنسا، راكبا بغلة، معتنقا صليبا، مهيجا للأفكار، مثيرا للحماسة. وكان له تأثير كبير على العامة والرعاع.

أما البابا أربان فإنه عمل على عقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية، وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

وقد عقد المجمع الكنسي الأول بمدينة «بليزانس» بشمالي إيطاليا، وحضره الكثير من الرهبان والأساقفة والعلماء والسياسيين، وكان انعقاده في مارس سنة 1095م (488هـ) وتم الاتفاق خلاله على فكرة تخليص الأماكن المقدسة. غير أن هذا المجمع لم يظهر له مفعول، لأنه بمجرد ما تفرق الناس قلت حماستهم لذلك. وكان من جملة

الأسباب التي جعلت نتيجة هذا المجمع سلبية الخلاف المستحكم إذ ذاك بين البابا وإمبراطور ألمانيا.

ولما أحس البابا بخيبة مجمع بليزانس عزم على اختيار مكان أصلح لعقد مجمع ثان، فاختار البلاد الفرنسية، موطنه الأصلي، حيث انعقد مجمع «كليرمون» (نوفمبر 1095م-488هـ) ولبى الدعوة كثير من الأمراء ورؤساء الكنائس والفرسان ووفود الملوك، زيادة على العامة والطغام. ورغم شدة البرد فقد عقد المجمع عدة جلسات. وكانت خطب البابا أثناءها تضرب على الوتر الحساس، من إثارة الحماسة الدينية، إلى تزيين الاستشهاد في سبيل المسيح، إلى الإغراء بمباهج الشرق وخيراته، إلى التشويق نحو امتلاك الأراضي وتكوين الإمارات. وقد أعلن البابا إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف، مظهرا أسفه من أن الظروف لا تساعده على المشاركة بنفسه في هذه الحرب المقدسة. ثم سلم «صليب الخلاص» إلى أسقف مدينة «بوي» وجعله نائبا عنه في الزعامة الروحية للحرب الصليبية.

وقد اتفق مجمع كليرمون على أن يكون موعد السفر في 15 أوت 1096م (489هـ) وأن يكون اللقاء بمدينة القسطنطينية. وكان هذا الأجل الطويل بين انعقاد المجمع وموعد السفر لغرضين: الأول: ترقب زمن الصيف، والثاني: التهيؤ للتعبئة، وزيادة الدعاية للحملة الصليبية.

وقبل الموعد المضروب للسفر، تكونت كتائب صليبية شعبية في غاية من الفوضى والاضطراب، لا تخضع لقيادة منظمة ولا هي بمستوفية لشروط القتال. وأكثرها عزل أو مشاة معهم عيالهم من نساء وأطفال، وكانت هذه الحملة الشعبية بقيادة بطرس الناسك، فسارت في اضطراب وفوضى، مخترقة أوروبا الوسطى تسلب وتنهب. وقد اشتبكت مع أهالي المدن التي مرت عليها، خصوصا في بلاد المجر، ومات منها الكثير. ثم وصلت بقايا هذه الحملة إلى القسطنطينية في جويلية 1096م (489هـ). وهال الإمبراطور البيزنطي ما عليه هؤلاء الصليبيون من الفوضى والاضطراب، وخشي منهم على عاصمته، فأسرع بنقلهم على المراكب إلى الضفة الشرقية للبوسفور وبحر مرمرة. وما إن علم السلطان ألب أرسلان السلجوقي بنزول هؤلاء الصليبيين بآسيا الصغرى حتى هب لقتالهم قرب مدينة نيقية - عاصمته - وأبادهم عن آخرهم.

وبينما كانت جيوش بطرس الناسك تلاقي حتفها قرب نيقية تحت ضربات السلطان السلجوقي، كانت حركة التجهيز الصليبي على قدم وساق في فرنسا وإيطاليا من جانب

الإقطاعيين والأمراء والأشراف. ولما تم التجهيز وحان الموعد سارت الجيوش الصليبية على النظام التالي:

1 - حملة من جنوب فرنسا تحت قيادة «ريموند دي سنجيل» سلكت طريقها من شمال إيطاليا ثم ألمانيا وكرواتيا وبلغاريا إلى القسطنطينية.

2 - حملة من شمال فرنسا تحت قيادة «روبرت كورت هوز» و «روبرت الثاني كونت فلاندر» سلكت طريق شمالي إيطاليا ثم سايرت ساحلها الشرقي وأبحرت من «برنديسي» إلى ألبانيا ثم مقدونيا إلى القسطنطينية.

3 - حملة من أعالي فرنسا من «برابنت» في بلاد البلجيك بقيادة «قودوفروا دي بويون» وأخيه «بودوين دي بولوني» واخترقت هذه الحملة بلاد ألمانيا ثم المجر إلى القسطنطينية.

4 - حملة من جنوب إيطاليا قام بها النورمان الذين استقروا بجنوب إيطاليا، وأزالوا حكم البيزنطيين منها بقيادة «تنكريد» و «بوهيموند» أمير تارنت. وأبحرت هذه الحملة من مرسى برنديسي إلى سواحل ألبانيا، ثم اخترقت ولاية مقدونيا إلى القسطنطينية.

وكانت الجيوش الصليبية كلما مرت بناحية انضم إليها المتطوعون لحماية الصليب، خصوصا جيش «قودوفروا» الذي اخترق أوروبا الوسطى. فقد انضم إليه الكثير من ألمانيا والنمسا والمجر، فتكون من مجموع هذه الجيوش الأربعة جمع عظيم العدد، يشمل مئات الآلاف، حتى نعته بعضهم بقوله: كانت الجيوش الصليبية عبارة عن شعب كامل يسير. وقالت في شأنهم ابنة الإمبراطور ألكسيس كومنين: يخيل أن أوروبا اقتلعت من أصولها.

ولم يصل الصليبيون إلى القسطنطينية دفعة واحدة، وإنما وصلوا في فترات متعاقبة نظرا لاختلاف طرقهم طولا وصعوبة.

وقبل أن يجتمع الصليبيون بالقسطنطينية وقعت لهم عدة أحداث مع الإمبراطور البيزنطي، فقد كان ألكسيس كومنين يتوجس خيفة من هذا الجيش العرمرم الذي ربما تسول له نفسه الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، هذا زيادة على الأحقاد المذهبية التي يحملها نصارى غرب أوروبا ضد نصارى الشرق وعاصمتهم القسطنطينية باعتبار كنيستها منشقة عن كنيسة روما.

كما أن ألكسيس كومنين، إذ رأى حملة النورمان من جنوب إيطاليا، لم ينس أنه في سنوات (1080-1085م) حاول بوهيموند قائد الحملة إزالة الحكم البيزنطي عن مقدونيا مع والده «روبير قيسكارد». ولهذا ارتاع الإمبراطور البيزنطي وساورته المخاوف، وحاول أخذ كبراء الصليبيين رهنا وتوثقة. وكادت الحرب تندلع بين الإمبراطور والصليبيين. وبعد مخابرات ومفاهمات انتهى الأمر على أن يتعهد الصليبيون للإمبراطور، بعد أن أقسموا له يمين الولاء، بإرجاع أملاكه في آسيا التي افتكها منه السلاجقة، وهو في مقابل ذلك يعينهم على قضاء مهمتهم بوسائل النقل والأدلاء والجيش.

وكان مما يحز في نفوس الصليبيين تلك التعهدات التي ألزمهم بها الإمبراطور البيزنطي بشأن إرجاع ممتلكاته بآسيا، لأن هذا يخالف رغبات الكثير من زعماء الصليبيين الذين كانت تدفعهم إلى اقتحام المعارك والأخطار مطامعهم في تكوين الممالك والإمارات بالمشرق. ولهذا لم يكن الاتفاق بين ألكسيس كومنين والصليبيين إلا اتفاقا ظاهريا.

وحسب هذا الاتفاق الظاهري عبرت القوات الصليبية البوسفور ومرمرة، ونزلت بأرض آسيا الصغرى، وتوجهت إلى مدينة نيقية التي كان سلطانها ألب أرسلان (ملك سلاجقة الروم) خارج المدينة في مهمة. وما إن علم ألب أرسلان بتوجه الصليبيين إليها ومحاصرتهم لها، حتى جمع جيشه وتوجه إليهم وصمد لقتالهم. وامتد حصار نيقية نحو خمسين يوما، ثم انتهى بانتصار الصليبيين، واحتلال المدينة من طرف القوات البيزنطية التي تفاوضت سريا مع القوات الإسلامية المحصورة، واستسلمت لها دون علم أو مشاورة القوات الصليبية اللاتينية. ولهذا فوجئ الصليبيون بالأعلام البيزنطية ترفرف على أسوار نيقية (جمادى الثانية 491هـ/ 26 جوان1097م) فاغتاظوا لذلك، واعتبروها خيانة من الإمبراطور البيزنطي، وأسروها في أنفسهم.

وحسب العهد المقطوع تركت مدينة نيقية وما جاورها للبيزنطيين. وتقدمت الجيوش الصليبية نحو الشرق مخترقة بلاد الأناضول، ودارت بينهم وبين ألب أرسلان معركة كبرى قرب مدينة «دوريلي» انهزم فيها ألب أرسلان لكثرة عدد الصليبيين. ومن هناك أخذ ألب أرسلان يمثل أمام أعدائه «حرب الأرض المحترقة» حتى لاقى الصليبيون عناء عظيما من العطش والتعب والجوع، ومات الكثير منهم ومن دوابهم. وكثيرا ما كان يتخذ البعض منهم الكلاب والخنازير والمعزى لحمل الأمتعة والأدباش.

وتابع الصليبيون طريقهم في اتجاه مدينة قونية ثم اخترقوا سلسلة جبال طوروس الوعرة. ولما وصلوا إلى أرمينية الصغرى وجدوا مساعدات كبرى من طرف الأرمن، حيث فتحوا لهم أبواب المدن وأصبحوا لهم أعوانا، ومن هناك توجهوا إلى أنطاكية وناصبوها الحصار.

كانت مدينة أنطاكية وما جاورها تحت حكم ياغيسيان السلجوقي، الذي ما إن علم بوصول الصليبيين حتى استعد لذلك وتحصن. وكانت مدينة أنطاكية ذات أبراج وحصون كثيرة ومنيعة.

وصل الصليبيون إلى أنطاكية في (20 أكتوبر 1097م-491هـ) وشرعوا في محاصرتها، ولاقوا أثناء هذا الحصار كل هول وتعب، لأن الحصار استمر من أكتوبر سنة 1097م إلى جوان 1098م. وأظهر الصليبيون أثناء هذا الحصار كل أنواع الرذائل، ونالهم البرد والجوع والتعب، وفتكت بهم الأمراض حتى مل الكثير منهم الحصار، وضعفت عزائمهم.

وحاول المسلمون نجدة أنطاكية وفك حصارها، ولكن دون نتيجة، فلقد حاول ذلك الأمير رضوان صاحب حلب، كما حاول قبله دقاق أمير دمشق، وجاءت نجدة من سلطان إيران السلجوقي ولكن بعد فوات الأوان.

أما الفاطميون بمصر، فقد جعلوا من هذا الحصار، وانشغال أمراء السلاجقة به، فرصة ينتهزونها لافتكاك بيت المقدس من أيدي السلاجقة. فبعث الخليفة الفاطمي - المستعلي بالله - وفدا إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة، وتأمين أماكنهم المقدسة، وحماية الحجاج النصارى إلى بيت المقدس. ولكن الصليبيين لم يجيبوه إلى ذلك، واستمروا في محاصرتهم لأنطاكية دون أن يتمكنوا من احتلالها، إلى أن وقعت خيانة من أحد حراس الأبراج الإسلامية (هو فيروز الأرمني) فدخل الصليبيون أنطاكية وعاثوا فيها فسادا وأباحوها أياما. ثم جاء عماد الدين كربوغا صاحب الموصل إلى أنطاكية بعد احتلالها وحاصر الصليبيين، واجتمع معه عدد من أمراء السلاجقة، غير أن عدم الثقة بينهم جعل النجدة تبوء بالفشل، فتقهقرت القوات الإسلامية، وانفض الحصار عن أنطاكية، وبذلك استقرت أنطاكية للصليبيين، وانتصب بوهيموند النورماني أميرا عيها، أما بقية الصليبيين فقد اتجهوا إلى بيت المقدس بعد أن استراحوا واستجمعوا قواهم.

توجه الصليبيون نحو بيت المقدس في شهر جانفي 1099م. وفي منتصف جوان وصلوا إليها وناصبوها الحصار. وكانت مدينة القدس قد أصبحت تحت سلطة الفاطميين، وكان واليها الفاطمي هو افتخار الدولة، الذي فاجأته القوات الصليبية بزعامة قودوفروا دي بويون. وكان لضعف الخلافة الفاطمية، وتضعضع معنويات جيوشها أكبر الأثر في الإسراع بسقوط بيت المقدس واحتلالها من طرف الصليبيين، إذ بعد شهر واحد من بدء الحصار (في الخامس عشر من شهر جويلية 1099م/ الخامس عشر من شعبان 492هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام الأسوار واحتلال المدينة، مرتكبين أبشع الأعمال وأفظعها. وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفا.

وباحتلال بيت المقدس حقق الصليبيون غرضهم العام من هذه الحرب ألا وهو استخلاص بيت المقدس وافتكاكها من أيدي المسلمين، وقد تكبدوا في سبيل ذلك الخسائر الباهظة من الأنفس بلغت عدة مئات من الآلاف.

وبقدر ما فرح الصليبيون بهذا النصر بقدر ما استاء المجتمع الإسلامي وشعوبه، أما ملوكه وأمراؤه فقد ألهتهم الخلافات والانقسامات، وأصمت آذانهم عما يقع بعقر الديار الإسلامية وقبلتهم الأولى.

ويصف لنا ابن الأثير مظهر استياء المجتمع الإسلامي قائلا: وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا.

وتأثر الخليفة العباسي – المستظهر – كما تأثر عامة الشعب، ولم يكن له حول ولا طول، إنما الأمر بيد ملوك السلاجقة المتنازعين المتحاربين، واكتفى الخليفة العباسي بإرسال وفد إلى أمراء السلاجقة يستفزهم، فرجع الوفد خائبا حسيرا.

وحاول الفاطميون برئاسة الأفضل أمير الجيوش مهاجمة الصليبيين ببيت المقدس، ولكن الصليبيين استعدوا لذلك وبادروهم بالقتال قرب عسقلان، فانهزم الجيش الفاطمي، وعاد الأفضل إلى مصر. وتقدم الصليبيون إلى عسقلان وحاصروها، ثم رفعوا عنها الحصار بعد أن بذل لهم مال كثير.

وبانهزام المصريين أيقن الصليبيون بضعف القوات الإسلامية المشتتة، ولهذا قرر الكثير منهم الرجوع إلى أوطانهم بعد أن استقر الرأي على تكوين مملكة لاتينية ببيت المقدس، واختير لرئاستها «قودوفروا» إلا أنه أبى أن يلقب بلقب ملك، واكتفى بلقب «حامي قبر المسيح!».

ومنذ احتلال بيت المقدس، واستقرار الصليبيين فيها، أخذت الإمدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها، ولإتمام احتلال بقية السواحل الشامية.

وبعد أن تمكن الصليبيون من النجاح في مهمتهم، أمكن لهم احتلال جميع السواحل الشامية من بعد، وأصبحت لهم عدة إمارات هي التي عرفت بالإمارات اللاتينية أو الممالك الصليبية وهي:

- إمارة الرها: كونها بودوين دوبولوني سنة (492هـ - 1098م) وكانت كيفية تكوينها أن صاحب الرها الأرمني بعث إلى الصليبيين مستنصرا بهم، فلبى دعوته بودوين المذكور، ثم غدر به هذا الأخير إذ دبر مؤامرة ضده حتى قتل، وانتصب بودوين ملكا على الرها وما حولها، واستمرت هذه الإمارة إلى أن أزالها آل زنكي سنة (539هـ-1144م).

- إمارة أنطاكية: كون هذه الإمارة الأمير النورماني بوهيموند واستقل بها، مستندا على أن احتلالها إنما وقع على يديه نتيجة للمؤامرات التي دبرها مع فيروز الأرمني، وقد استمرت هذه الإمارة قائمة إلى سنة (667 هـ- 1268 م).

- مملكة بيت المقدس: كانت مملكة بيت المقدس هي أعظم الإمارات الصليبية، ولهذا كان متوليها يلقب بلقب ملك، أما بقية الإمارات فهي تتبع مملكة بيت المقدس، وإن كانت تبعية لا أثر لها في الواقع. وكانت هذه المملكة أعظمها شأنا، وأوسعها رقعة، إذ امتدت حدودها في أقصى اتساعها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان. كما كانت تشمل جميع الأراضي المحصورة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط. كما شمل نفوذها الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصل إلى خليج العقبة. وكانت هذه المنطقة الواقعة شرقي الأردن تعرف بإمارة الكرك، ومن حصونها: الكرك والشوبك. واستمرت مملكة بيت المقدس في اتساعها إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي فانكمشت على ساحل البحر في مساحة صغيرة، متخذة من مدينة عكا عاصمة لها.

- إمارة طرابلس: تكونت سنة (496هـ-1102م) واستمرت إلى سنة (688هـ-1289م).

ولم تكن هذه الإمارات اللاتينية مستقرة الحال، ولا هي قوية العدد والعدة. ولم يمنع من الإسراع بإزالتها إلا تضعضع القوات الإسلامية وتفرقها وانحلالها. فالصليبيون، وإن استطاعوا احتلال جميع السواحل الشامية، إلا أنهم لم يستطيعوا التوغل والتقدم داخل البلاد الشامية. وبقيت القوات الإسلامية تحيط بهم من الشمال (سلاجقة قونية) ومن الشرق (قوات السلاجقة والأتابكة في: دمشق، حمص، حماه، حلب، الموصل) ومن الجنوب (الدولة الفاطمية). ولم يكن للصليبيين جهة خالية من القوات الإسلامية إلا الجهة الغربية (سواحل البحر الأبيض المتوسط) ولذا كان الصليبيون يتوجسون خيفة من هذا الوضع الحرج، ويتوقعون إلقاءهم في البحر يوما ما متى انبعثت نهضة إسلامية فتية. وكان صحيحا ما قدره الصليبيون، فقد استمروا متحدين للمجتمع الإسلامي، مدخلين عليه الرعب والفزع، منتهزين ضعفه وانحلاله، إلى أن انبعثت نهضة آل زنكي وآل أيوب فبدأ رد الفعل الإسلامي، وبدأت كفة المسلمين تترجح على كفة الصليبيين.

وهكذا نرى أن كليرمون؛ هذه المدينة الصغيرة في الجنوب الفرنسي، أصبحت في السابع والعشرين من نوفمبر سنة 1095م رمزا لبداية أكبر حركة في تاريخ الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، كما أن هذا اليوم من شهر نوفمبر كان يمكن أن تطويه سجلات النسيان التي تطوي أياما كثيرة متشابهة، بيد أنه صار نقطة البداية لهذه الحركة التي مثلت ظاهرة تاريخية فذة لا تزال تغري المؤرخين والباحثين بدراستها.

كان البابا أربان الثاني قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء الأعمال التي ناقشها مجمع كليرمون على مدى الأيام التي مضت منذ بداية انعقاده في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر. ويبدو أن البابا الذي أعد نفسه للدعوة إلى حملة مقدسة تحت راية الصليب قد استعد لهذا اليوم الاستعداد الذي يضمن له النجاح إذ إنه طلب من الأساقفة ومقدمي الأديرة الفرنسيين أن يدعوا كبار الأمراء الإقطاعيين في مناطقهم لسماع البابا. وقد حفظ الزمن عدة وثائق تتضمن مراسلات البابا بهذا الشأن. ويبدو أن الاستجابة كانت مرضية إلى حد بعيد، فقد حضر عدد من الفرسان والنبلاء الإقطاعيين، كان أبرزهم ريمون الرابع، كونت تولوز، الذي اشتهر عادة باسم ريمون السانجيلي الذي حرص على أن يرسل للبابا من يخبره مسبقا بأنه سوف يحضر لكي يستمع إلى خطبته. ومن المفهوم أن هناك عددا كبيرا من الحضور قد جذبتهم فكرة أن البابا وكبار كرادلته سوف يتواجدون في هذا الحفل الخطابي، وهو أمر كان نادر الحدوث في تلك العصور على أي حال.

وفي حقل فسيح بن تلال أوفريني خارج مدينة كليرمون احتشد جمع غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين، لسماع البابا. ولم يخيب البابا ظنون الحاضرين أو توقعاتهم، فإن كلماته الحماسية داعبت أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين.

ولسنا نملك نصا موثوقا لخطبة البابا في كليرمون. وعلى الرغم من أن ثلاثة مؤرخين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى، هم المؤرخ المجهول الذي كتب «أعمال الفرنجة - Gesta francorum» ، وفوشيه الشارتري، وريمون الأجويلري إلا أن فوشيه هو الوحيد من بينهم الذي سجل ما حدث في كليرمون. وكان هناك ثلاثة مؤرخين آخرين، حضروا كليرمون، لكنهم لم يكتبوا عن المجمع إلا بعد نهاية القرن، وبعد أن نجحت الحملة الصليبية الأولى، وهم بلدريك الدولي، وروبير الراهب، وجيوبرت النوجنتي، ومن ثم فإن الكلمات التي وضعها أولئك المؤرخون اللاتين على لسان البابا أربان الثاني في كليرمون تعكس ما وقع من أحداث تاريخية بالفعل بعد الحملة الأولى ونجاحها، أكثر مما تنقل لنا كلمات البابا.

بيد أن هذه الروايات تتفق في عدة أمور تجعلنا نرجح أن البابا أربان الثاني قد ضمنها خطبته بالفعل. ويمكن ان نرجح من قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرخون حول خطبة البابا في كليرمون: أولا، أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، اعتمادا على نصوص وردت في الأناجيل المسيحية، وأهمها نص من أنجيل لوقا يقول: «ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذا». وثانيا، أنه كان يدعو إلى هذه الحملة المسلحة المقدسة باسم الرب بوصفه نائبا عنه في الأرض، فقد ذكر فوشيه أن البابا خاطب المستمعين قائلا: «ومن ثم فإنني، لست أنا، ولكن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحظوا الناس وشتى الطبقات». كما أورد روبير الراهب، وبلدريك الدولي، ووليم الصوري كلاما مشابها.

لقد تحدث أربان بهذه الصفة ليحث الفرسان على شن الحرب في سبيل المسيح، وبرر هذه الحرب بأن هدفها هو تحرير الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين، وتخليص الأرض المقدسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي ستفيض باللبن والعسل، ووصفها أربان الثاني بأنها ميراث المسيح. وثالثا، أمتدح البابا شجاعة الفرنج كما أمتدح قدراتهم القتالية، وذكرهم بأمجاد أسلافهم، ولكنه أدان حروبهم بعضهم ضد بعض، واقتتالهم المستمر، وحثهم على ترك المنازعات وعدم إراقة الدماء

المسيحية، مقارنا بين الفارس الجديد الذي يحب المسيح ويحمل صليبه، ويحب جاره ويناضل من أجل تحريره، والفارس القديم الذي كان يسعى وراء طموحاته الخاصة وأطماعه الشخصية، فيصب العنف على إخوانه المسيحيين. ورابعا، أشار أربان الثاني إلى منح غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة، سواء مات على الطريق إلى الأرض المقدسة، أو قتل في الحرب ضد المسلمين.

والواقع أن خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما خللها من تلويح بالمكاسب الدنيوية وترغيب في المكاسب الدينية، لقيت استجابة فورية وهائلة من الحاضرين. ولم تكن الاستجابة ناتجة عن فصاحة البابا وقوة بيانه، بقدر ما كانت تعبيرا عن أن البابا طرح أمام أبناء الغرب الكاثوليكي مشروعا طال انتظارهم له. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحملة الصليبية دعوة تناسب العصر تماما، إذ كان المجتمع الإقطاعي بغطرسته وكبريائه، وتعصبه ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذي يحل مشكلته في الدنيا، ويضمن له المغامرة والكسب، مثلما يضمن له خلاص الروح.

وتجسدت الحماسة العاطفية التي أيقظتها كلمات البابا في صيحة رددها جمهور الحاضرين في ذلك الحقل الفسيح (إن الرب يريدها). ومنذ ذلك الحين باتت تلك هي صرخة الحرب التي رددها الصليبيون في كل معاركهم ضد المسلمين. وسارع الكثيرون إلى البابا يقسمون أمامه على القيام بالرحلة، كما أخذ الكثيرون يخيطون صلبانا من القماش على ستراتهم رمزا لأخذهم شارة الصليب على نحو ما يحكي فوشيه.

وقد تم الاعتراف بجميع الفرسان الذين أقسموا على الذهاب جنودا في جيش الرب في احتفال رمزي. وصار الصليب شارة لكل فارس في كل حملة صليبية. وباعتباره رمزا فقد كان له مغزى مزدوج: أولا: كان علامة على الحماية الإلهية، أي علامة تدل على أن حاملها ينتمي إلى جماعة خاصة، جماعة من الحجاج الذين تمتعوا بامتياز حمل السلاح. وثانيا: كان الصليب أشارة قانونية تدل على الامتيازات الدنيوية، لأن الكنيسة أصدرت مراسيم غاية في الأهمية لصالح الصليبيين. فأثناء فترة غيابه تعفى أملاك الصليبي من الضرائب. وعادة ما كان يمنح تسهيلات في الديون التي يدين بها، لاسيما أن تكاليف الرحلة قد اضطرت كثيرين إلى الاستدانة إما من أقاربهم ومعارفهم، أو من الكنيسة.

ومن ناحية أخرى، كان توزيع الصلبان القماش على الفرسان عملية قصد بها البابا ورجال الكنيسة استبعاد العناصر غير المحاربة من الانضمام للحملة الصليبية. ويبدو أن

البابا انزعج من الاستجابة الحماسية والسريعة من جانب الفئات غير المحاربة في المجتمع الأوروبي آنذاك. وقد بذل عدة محاولات لمنع أولئك من الذهاب. بيد أن حماسة الفقراء للسير على طريق الخلاص الجديد الذي بناه الرب كانت أكبر من كل محاولات البابا. وترسم لنا المصادر التاريخية المعاصرة كيف أن الغرب الأوروبي بدأ في ذلك الوقت يتحرك كله استعدادا للخروج «كافة ممالك الأرض كانت تتحرك، كما يقول فوشيه، و«جميع مناطق الغرب لم يكن هناك منزل خال» لأن الكل كل يستعد للرحيل، كما يقول وليم الصوري.

وقد تركت هذه الحركة العامة الهائلة أصداءها في الأدب الشعبي الأوروبي، بحيث وجدنا الملاحم الشعرية، وأغاني الحروب الصليبية، تتحدث فيما بعد عن مدى استجابة الناس في أوروبا الكاثوليكية لدعوة أربان الثاني. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الحملة الصليبية قد جاءت في زمن أشتهر فيه الشعر الشعبي في فرنسا، وكانت قصص التاريخ التي تروي شعرا وغناء بمثابة البديل عن الكتاب في زمن ندر فيه عدد من يعرفون القراءة، كما كانت وسائل النشر محدودة للغاية.

على أي حال تم تحديد الخامس عشر من شهر أغسطس من العام التالي (1096م) موعدا لرحيل الحملة، حين تكون المحاصيل قد جمعت من الحقول، أما مكان اللقاء فكان هناك في مدينة قسطنطين الحصينة على ضفاف البوسفور. ثم عين الأسقف أديمار دي مونتي أسقف لوبوي قائدا للحملة، أو مندوبا عن البابا الذي أراد أن يوضح أن الحملة يجب أن تكون تحت سيطرة البابوية.

وعلى مدى ثمانية شهور بعد كليرمون أخذ البابا أربان الثاني يتنقل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسي، داعيا إلى حملته الصليبية في محاولة لأن يجند لها أكبر عدد من الفرسان والأمراء البارزين بعد أن رأى أن عدد الحاضرين من كبار الأمراء الإقطاعيين في كليرمون كان قليلا. وقد رأى رنسيمان في ذلك أن خطط أربان لم تنجح تماما. وربما كان ذلك سببا من أسباب بقاء أربان في فرنسا طوال هذه الشهور الثمانية، وربما كان ذلك أيضا حافزا على مواصلة الدعوة إلى الحملة الصليبية بوسائل تعددت بين المجامع الدينية، والخطابات التي يوجهها هنا وهناك، ثم تكليف رجال الكنيسة والرهبان الكلونيين (الذين كان هو نفسه واحدا منهم) بالدعوة إلى هذه الحملة، وقد أشار المؤرخ فوشيه الشارتري، الذي كان واحدا من شهود كليرمون، صراحة إلى أن البابا قد كلف القساوسة بالترويج لهذه الدعوة.

وفي هذه الأثناء كان الفرسان عاكفين على تدبير الموارد اللازمة لرحيلهم في الموعد الذي تحدد في كليرمون، ومن قلاع السادة الإقطاعيين تسربت الأنباء إلى الفلاحين الذين أهاجهم ما نقل إليهم من كلام البابا محملا بالمبالغات المعهودة، والتفسيرات العاطفية التي صادفت رغبة لدى الفلاحين في التخلص من ربقة الإحباط والجزع، ومن نير القنانة وسيطرة سادتهم الإقطاعيين. وسرعان ما سرت أخبار المشروع البابوي بشن حملة مقدسة، تحت راية الصليب ضد المسلمين في الشرق العربي، لتخليص القدس وتحرير المسيحيين الشرقيين مسرى النار في الهشيم. وكانت الاستجابة الشعبية أكبر من كل التوقعات. ففي أنحاء فرنسا، وفي الأراضي الواطئة، وألمانيا، وغرب إيطاليا ترددت أصداء الخطبة التي ألقاها أربان الثاني في كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر سنة (1095م).

وإذا كانت استجابة النبلاء والفرسان الإقطاعيين متوقعة إلى حد ما فإن ما ظهر من استجابة جماهير العامة فاق كل التوقعات. إذا كان الجو الفكري والنفسي، والظروف الاجتماعية البائسة وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة. لقد فهم الناس في غرب أوروبا آنذاك دعوة أربان على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل في الشرق المقدس، وفرصة لضمان الخلاص في يوم الدينونة إذا مات الإنسان وهو على الطريق الصواب إلى هذا الشرق المقدس. وربما يكون الفقراء قد وقعوا في شباك الطمع الدنيوي، وراودتهم الأحلام بامتلاك الضياع في فلسطين «الأرض التي تفيض باللبن والعسل».

لقد كان العامة من الفلاحين والفقراء أهل المدن يضنون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء. وكان هذا المظهر الديني العاطفي هو الذي ميز حركة الفقراء في غرب أوروبا وموقفهم تجاه دعوة البابا، بيد أن هذا التدين العاطفي نفسه كان سببا من أسباب ارتكابهم لأحط ضروب الجرائم، كما كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية حتى بمقاييس تلك العصور التي أتسمت بالقسوة والغلظة. ذلك أن الفقراء في الغرب الكاثوليكي كانوا يخلطون بين التدين العاطفي المتعصب وحقائق حياتهم التعسة في ظل المجتمع الإقطاعي.

لقد كانت استجابة الناس من مختلف الطبقات الدنيا في غرب أوروبا سريعة وحماسية، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك. لقد طلب البابا من الأساقفة أن يواصلوا الدعوة إلى الحملة الصليبية، ولكن تأثيرهم كان ضئيلا إذا

قيس بتأثير المبشرين والدعاة الفقراء الذين تشبهوا بالحواريين في فقرهم. وكان هناك عدد من هؤلاء الدعاة الحفاة أبرزهم روبرت الأربريسيلي وبطرس الناسك.

كان بطرس الناسك هذا راهبا في أميان، وهجر الدير بتكليف من البابا لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية. وفي شمال شرق فرنسا واللورين أمضى شتاء سنة (1095/ 1096م) يتجول من مكان لآخر داعيا إلى حملة البابا. وفي كل مكان كان يذهب إليه يسحر ألباب الفقراء بفصاحته التي تناقض هيئته المزرية، إذ كان رث الثياب، بينه وبين حماره شبه عجيب. وحيثما حل كان الفقراء المأخوذون ببطرس الناسك يتسابقون لنزع شعرات من جسد الحمار المسكين وذيله، طلبا للبركة.

لقد أخذ بطرس الناسك يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين غيره في ذلك الوقت الذي ميزه التدين الشعبي العاطفي. وقد كان الرجل محور أسطورة اعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية، كما ألهمت الفنانين والأدباء على مدى عدة أجيال. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل إثارة الغرب الأوربي لشن حربه الصليبية ضد الشرق العربي الإسلامي.

وإذا كانت الدراسات التاريخية منذ منتصف القرن التاسع عشر قد كشفت زيف أسطورة بطرس الناسك بفضل بحوث هنريخ فون سيبل سنة 1841م، فإن بطرس الناسك لا يزال يحظى باهتمام المؤرخين باعتباره تجسيدا للحماسة الدينية الشعبية من ناحية، وبسبب تناقض تصرفاته مع المثال الذي بشر به ودعا إليه. إذ أن بطرس الذي يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبي الحركة الصليبية، قد هرب أثناء معاناة الصليبيين في حصار أنطاكية سنة 1098م، وقبض عليه وأعيد إلى المعسكر الصليبي بصورة مهينة.

وعلى أي حال، فإن الفلاحين لم يصبروا حتى يرحلوا في الموعد الذي حدده البابا لرحيل الفرسان، فمع تباشير ربيع سنة 1096م كانوا قد جمعوا محاصيلهم، ولكنهم لم يخزنوها تحسبا لشتاء قد يجوعون فيه، كما جرت عادتهم طوال سنوات وسنوات. لقد حملوا هذه المحاصيل فوق عرباتهم الثقيلة التي تجرها الثيران، ومعها الزوجات والأطفال والمتاع الهزيل. وفي النهاية تحرك موكب الفلاحين صوب الشرق، مطلع الشمس ومهبط المسيح.

كانت جماعات العامة والفلاحين التي تجمعت حول بطرس الناسك أكبر من أن تستطيع أي مدينة أو قرية في غرب أوروبا أن تعيلها، ومن ثم تكونت من هذه الأعداد

الغفيرة فرق وجيوش بائسة، بقيادة واحد من الفرسان المغامرين أو المشعوذين، في فوضى تبعث على الرثاء. وكانت أول فرقة من حملات الفلاحين، أو حملات العامة، هي تلك التي قادها فارس شرس نبيل المولد من بلدة بواسي هو والتر المفلس الذي لم يكن في جيشه سوى ثمانية فرسان حسبما يذكر ألبرت الآيكسي. وقد سخر الألمان من والتر المفلس وأتباعه الذين باعوا أملاكهم لكي يذهبوا في رحلة حمقاء، وقالوا إنهم بادلوا ما هو مضمون بما هو غير أكيد، وأنهم تركوا مسقط رأسهم ووطنهم في سبيل أرض ترتبط بوعد مشكوك فيه. ولكن الألمان عندما رأوا جموع أتباع والتر المفلس تعبر أراضيهم في طريقها إلى حوض نهر الراين ثم البلقان، غيروا رأيهم وكفوا عن السخرية، وأخذوا ينضمون إلى المشروع الصليبي.

ولم تواجه هذه الحملة سوى متاعب قليلة في نهاية رحلتها عبر المجر، ولكن أعمال النهب والسلب، التي بدأ أتباع والتر المفلس يمارسونها في بلغاريا، جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون منهم عددا كبيرا في حين لاذ الناجون بالغابات عدة أيام حتى وصلوا في النهاية تحت أسوار العاصمة البيزنطية القسطنطينية. وهناك أمر الإمبراطور أن يعسكروا خارج المدينة انتظارا لوصول جيش بطرس الناسك. وهكذا انتهت رحلة الألف ومائتي ميل بالنسبة لأتباع والتر المفلس.

في ذلك الوقت كان بطرس قد أعد نفسه للرحيل وتحت قيادته جيش كبير من المشاة والفرسان ترافقهم أعداد أكبر من غير المحاربين، رجالا ونساء وأطفالا. وغادر هذا الجيش الأراضي الألمانية في 20 أبريل سنة 1096م. وسمح له ملك المجر بعبور بلاده بشرط ألا يثير المتاعب. وفي المجر تولى بطرس قيادة جيش الفقراء. وكان المشهد مثيرا، إذ كان بطرس في مقدمة الجيش يمتطي حماره الذي يشبهه، وخلفه الفرسان الذين يعتلون صهوات جيادهم، تتبعهم العربات الثقيلة التي تجرها الثيران حاملة معها المؤن والأموال التي كان بطرس قد جمعها من أثرياء الغرب الأوربي.

بيد أن بطرس الذي كان قادرا على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذي تألف من المقاتلين والطامعين، والذي ضم مئات من الأفاقين، والمجرمين، وبنات الهوى، والفلاحين، والفقراء من أهل المدن، فضلا عن عدد صغير من الفرسان. فعند مدينة سملين على حدود المجر مع الإمبراطورية البيزنطية كشف «جيش الرب» عن وجهه القبيح، وجرت على سملين وأهلها مذبحة رهيبة،

وأزهقت أرواح أربعة آلاف من أبناء المدينة التي تحولت إلى خرائب تصاعد منها دخان الحرائق التي أشعلها الفرنج في كل مكان لتختلط بأصوات الجرحى عنوانا على الجريمة التي ارتكبها «جنود الرب» ضد الأخوة المسيحيين الذين زعم الصليبيون أنهم جاؤوا لنجدتهم. وإذ خاف بطرس من انتقام المجريين، فقد اختبأ مع جيشه داخل غابات المجر، ثم تجمع جيشه مرة أخرى عندما وصلوا الحدود البيزنطية. وخاف نيكيتاس قائد الحامية البيزنطية في مدينة نيش الحدودية على مدينته من تصرفات هذه الجموع الخرقاء، فاتخذ بعض الاحتياطات لمواجهتهم عند الضرورة، ولم يخيب الصليبيون ظنه، فقد أحرقوا مساكن القرويين مع سكانها الأحياء في داخلها، ونهبوا وسلبوا. وهاجم البيزنطيون جيش بطرس الناسك فقتلوا الكثير من رجاله، وأسروا عددا آخر، كما استولوا على الأموال والتبرعات التي كان الراهب قد جمعها من أغنياء غرب أوروبا. وبعد أيام ثلاثة من التشتت والاختباء عاودت شراذم جيش بطرس التجمع وسارت صوب مدينة صوفيا، وهناك لقيهم مندوبون عن الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس وأبلغوهم باستياء الإمبراطور، وأبلغوهم بأوامره التي تقضي بألا يمكث الصليبيون في أية مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام. ثم وصلت الشراذم الباقية من حملة بطرس الناسك إلى أسوار القسطنطينية في مطلع شهر أغسطس 1096م.

ودعي ذلك الناسك العجيب لمقابلة الإمبراطور البيزنطي، وربما تأرجحت على شفتي الإمبراطور ابتسامة سخرية ورثاء وهو يرى ذلك الرجل أمامه، على حين كان يتوقع مقابلة قائد عسكري.

أدرك الإمبراطور أن هذه الجموع الهائجة الجائعة لن تصمد أمام المسلمين الذين أذاقوا جيوشه المدربة المنظمة مرارة الهزيمة، ونصح الإمبراطور الصليبيين بأن ينتظروا حتى قدوم جيش الأمراء، بيد أن بطرس غرته كثرة أتباعه، فقبل من الإمبراطور الهدايا التي أعطاه إياها، ورفض النصائح التي أسداها إليه.

وفي الوقت نفسه أخذ الصليبيون يعيثون فسادا في مدينة القسطنطينية التي بهرتهم بجمالها، ونهبوا وأحرقوا وسرقوا، ووجد الإمبراطور نفسه مضطرا لأن ينقلهم بسرعة عبر المضايق إلى آسيا الصغرى. وهناك تصرف جنود الرب على نحو لا يرضى عنه الرب، فارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين. وبسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيون في شباك كمين أعده الأتراك السلاجقة وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس،

في حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية. وهكذا انتهت مسيرة الفقراء فوق تراب الشرق العربي الذي داعب خيالهم، وحرك فيهم مشاعر الطمع على مدى ألف ومائتي ميل.

وفي تلك الأثناء كانت هناك مجموعات أخرى من العامة والفلاحين تتجمع في الغرب الأوربي حول هذا القائد أو ذاك، ولكنها اشتركت جميعا في مصير واحد هو تلك النهاية المفزعة داخل الأراضي المجرية بعدما قرر كولومان (ملك المجر) أن يتصدى بحزم لأولئك المخربين باسم الرب.

هكذا كانت الحملات الشعبية بمثابة زلزال اجتماعي هائل هز أركان الغرب الأوربي عقب الدعوة التي وجهها البابا أربان الثاني في كليرمون، وعلى الرغم من الفشل المزري الذي منيت به تلك الحملات الشعبية، سواء في الشرق أو في داخل أراضي المجر، إلا أنها كانت ذات مغزى لا يخطئه الباحث في تاريخ الحروب الصليبية. لقد كانت التعبير التلقائي عن عدم الصبر الذي تملك الناس في غرب أوروبا إزاء فرصة لاحت لتغيير نمط الحياة التي يحيونها، والبحث عن مستقبل أفضل. وبينما كان الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية يدركون أهمية الإعداد للحملة، فضلا عن البحث عن موارد لتمويلها، لم يستطع المحرومون صبرا على معاناة المزيد في ظل ظروفهم المتردية. ولكن أهم ما نخرج به من حوادث الحملات الشعبية أن المثال الصليبي قد مرغه أصحابه في طين أطماعهم ووحشيتهم.

أما البابوية والفرسان فكانوا مشغولين آنذاك بالاستعداد للخروج بالحملة في موعدها المحدد من قبل. ولذلك أشاحوا بوجههم عن الزلزال الاجتماعي الذي أحدثته حملة الفقراء أو حملة العامة، وكانت مشكلة التمويل هي أكبر المشكلات التي واجهت الأمراء والفرسان، وكان على كل منهم أن يبحث عن حل لهذه المشكلة بطريقته الخاصة. وفي أواخر صيف سنة 1096م كانت جيوش الفرسان متأهبة للرحيل صوب فلسطين. وتكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية، وعلى أساس من الروابط الإقطاعية من ناحية ثانية.

فقد تولى جودفري البويوني قيادة الجيش الذي جمعه من اللورين، شمال فرنسا والألمان، واشترك معه أخوه بلدوين. وتولى روبرت دوق نورماندي وزوج أخته ستيفن كونت بلوا قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا ونورماندي وبعض مناطق الشمال،

فضلا عن الكثير من فرسان الانجليز من أتباع أخيه الملك الإنجليزي وليم روفوس. أما الجيش الثالث فكان تحت قيادة ريمون الرابع كونت تولوز الذي كان يقترب من الستين من عمره، وقد تألف جيشه من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال، وكان في صحبته أديهار أسقف لوبوي، والمندوب البابوي في هذه الحملة. أما أصغر الجيوش فكان جيش هيوكونت فرماندوا المعروف باسم الأشغر، وهو شقيق فيليب الأول ملك فرنسا آنذاك. وكان جيشه هو أول الجيوش الصليبية في الوصول إلى الأراضي البيزنطية. وثمة جيش خامس قاده بوهيموند النورماني، ابن روبرت جويسكارد، تألف من المقاتلين النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا.

كان هيو أول الراحلين، كما كان أول من وصل إلى الأراضي البيزنطية، وقد أرسل قبله وفدا من خمسة وعشرين فارسا يحملون رسالة تفيض غطرسة وغرورا إلى الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس، يحذره فيها وينبهه إلى وجوب مقابلته بما يليق بمكانته العلية. وعندما وصل هذا الأمير إلى الأراضي البيزنطية كان قد بقي معه عدة شراذم من جيشه الذي أهلكته عاصفة بحرية. واستقبله القائد حنا كومنينوس ابن أخي الإمبراطور البيزنطي بعد ما انتشله ضباطه من البحر، فأكرم وفادته، وأرسله إلى القسطنطينية في حراسة واحد من الموظفين البيزنطيين الكبار.

لقد استولت الدهشة على الإمبراطور البيزنطي من كبر حجم الجيوش الصليبية لأنه كان يتصور أن تجيئه فرق من المرتزقة الذين تعود البيزنطيون أن يجندوهم في خدمتهم، ولكنه إذ كان عاجزا عن أن يفعل شيئا فإنه قرر أن يفيد من الموقف بأقصى ما يمكن. ولم يكن لديه أدق قدر من التسامح في مسألة عدم السماح للقوات الصليبية بدخول مدينته، ومن ثم فقد سمح لهم أن يضربوا خيامهم في ضواحي المدينة. ولم يسمح سوى للقادة وعدد قليل من مرافقيهم بالدخول إلى العاصمة الإمبراطورية، وقد حرص على أن يستعرض أمامهم عظمة البلاط البيزنطي، قاصدا أن يجعلهم يحملقون في دهشة وانبهار مشوب بالطمع في مظاهر الثراء الذي تميزت به الإمبراطورية.

لقد آثر أليكسيوس كومنينوس أن يتعامل مع قادة الصليبيين بشكل انفرادي، واتفق مع كل منهم على حدة. وتنوعت أساليبه في التفاهم معهم ما بين إغراقهم بالهدايا، أو قطع المؤن والإمدادات عنهم، أو القتال، حتى نجح في أن يحصل منهم جميعا على يمين الولاء باستثناء ريمون السانجيلي الذي أقسم بحماية شرف الإمبراطور البيزنطي وحياته.

وكان هيو أول من أقسم يمين الولاء للإمبراطور على الطريقة الإقطاعية. ثم وصل جيش جودفري البويوني إلى القسطنطينية بعد أن عبر بلاد المجر دون مشاكل تذكر، بعد أن أخذ الملك المجري الكونت بلدوين وعددا آخر من كبار الفرسان من جيش جودفري رهينة وضمانا لحسن سلوك الصليبيين. وعندما وصل جودفري كانت في انتظاره دعوة من الإمبراطور تحثه على اللقاء، وخاف الزعيم الصليبي فأخذ يراوغ ويماطل، وتوترت العلاقات بين الجانبين حتى وصلت إلى القتال، ولكن الدوق رضخ في نهاية الأمر، ورضي بأن يقسم يمين الولاء للإمبراطور.

أما بوهيموند زعيم النورمان في جنوب إيطاليا، فقد بدأ رحلته بعبور الأدرياتي في أواخر صيف سنة 1096م. وفي القسطنطينية لقيه الإمبراطور البيزنطي عدوه اللدود بترحاب كبير. ولم يجد الإمبراطور صعوبة تذكر في إقناع هذا الأمير النورماني الطموح بأن يقسم له يمين الولاء.

أما ريمون السانجيلي، كونت تولوز المسن، فكان يقود أكبر جيوش الحملة الصليبية الأولى، وكان يصاحبه أديمار المندوب البابوي. وعندما دخلت قواته الأراضي البيزنطية بعد رحلة مضنية في إقليم البلقان، تأرجحت العلاقات بين الكونت الصليبي المسن والإمبراطور البيزنطي الداهية، بين القتال والمفاوضات، وأخيرا نجح زعماء الصليبيين في تهدئة خواطر ريمون، فأقسم على طريقة البروفنسال أن يحمي شرف الإمبراطور وحياته، ولكنه لم يوافق أبدا على أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل الأمراء الصليبيون الآخرون. ثم وصل جيش روبرت دوق نورماندي وبصحبته ستيفن كونت بلوا بعد وصول جيش البروفنساليين بقيادة ريمون السانجيلي بعدة أيام.

كانت هذه هي نهاية المرحلة الأولى من حملة الفرسان، وقد آثرنا أن نعالجها بشيء من التفصيل لأنها كانت بمثابة صدام حضاري وسياسي بين البيزنطيين ورجال الحملة الصليبية الذين زعموا أنهم جاؤوا لنجدتهم. لقد كان ذلك هو لقاء الصليبيين الأول مع الشرق. فقد كانت مدينة القسطنطينية الجميلة بوابة الشرق والمدخل الكبير إلى هذا الشرق الساحر الغامض.

ثم بدأت عجلة الحروب تدور بعد أن بدأت قوات الصليبيين تعبر مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى. وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم في «أرض العدو» للمرة الأولى. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشراذم الناجين من

حملته. واعتذر الإمبراطور البيزنطي عن قبول العرض الصليبي بقيادة الحملة، ولكنه زود الجيش الصليبي بعدد من الأدلاء والمرشدين، وأرسل معهم بعضا ضباطه، كما ظل يرسل إليهم المؤن والإمدادات عن طريق البر والبحر.

وفي السادس من شهر مايو سنة 1097م وصلت جيوش الحملة الصليبية أمام مدينة نيقية في آسيا الصغرى، وكانت في ذلك الحين عاصمة دولة سلاجقة الروم التي يحكمها قلج أرسلان. وكانت المدينة تتحكم في الطريق الأساسي عبر الأناضول، فتم فرض حصار مشترك من القوات الصليبية والقوات البيزنطية حول المدينة التي كان حاكمها غائبا. وحين عاد في الحادي والعشرين من الشهر نفسه شن هجوما على قوات الحصار لكنه رد خائبا. وفي التاسع عشر من يونيو استسلمت المدينة لقوات الإمبراطور البيزنطي خوفا من وحشية الصليبيين. وكان النصر الذي أحرزوه في نيقية حافزا للصليبيين على مواصلة الزحف جنوبا صوب فلسطين.

وعوض الإمبراطور قادة الصليبيين وجنودهم بالهدايا التي أغدقها عليهم بدلا من الغنائم والأسلاب التي كانوا ينتظرون الحصول عليها عند استيلائهم على المدينة. ثم انقسم جيش الصليبيين إلى قسمين: ضم أحدهما بوهيموند، وتنكرد، وروبرت أمير نورماندي. في حين ضم القسم الآخر ريمون السانجيلي، وأديمار المندوب البابوي، وهيو، وروبرت كونت الفلاندرز. وفي بداية شهر يوليو 1097م اصطدمت قوات الصليبيين بقوات قلج أرسلان المتحالفة مع قوات غازي بن الدانشمند، وانتهى القتال بنصر حاسم لصالح الصليبيين. وكانت تلك معركة فاصلة حسمت مصير الحملة الصليبية الأولى إلى حد بعيد، إذ توقفت كل مقاومة إسلامية منظمة منذ ذلك الحين.

لقد بهت المسلمون بوصول هذه القوات الصليبية، ولكنهم كانوا قادرين على إبادتها. بيد أن ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة، والذي غرسته وأنبتته طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة قوات الصليبيين. ولكن الصليبيين من ناحية أخرى لم يكونوا في نزهة عسكرية، فقد كلفتهم المقاومة التي اتخذت شكلا يقترب من حرب العصابات كثيرا من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان السريعة من رماة السهام، والتي كانت تشيع الرعب في أوصال الصليبيين. أما المناخ فكان عدوهم الرئيسي، لا سيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام ونفاد المياه.

وفي الطريق إلى أنطاكية انفصل بلدوين بقواته عن الجيش الصليبي، وكذلك فعل تنكرد الروماني. وراح الاثنان يبحثان عن فرص للمغامرة، ويسعيان لتحقيق مكاسب خاصة بكل منهما، وقادهما التنافس في هذا المضمار إلى القتال الوحشي أمام مدينة المصيصة في أعالي الشام، ثم استطاع بلدوين أن يحصل لنفسه على إمارة الرها التي كان حاكمها الأرمني «ثوروس» قد تبناه ورد له الأمير الصليبي الجميل، إذ اشترك في مؤامرة راح الحاكم الأرمني المسن ضحية لها. وهكذا رفرف بيت أمراء اللورين الأدنى على أول إمارة صليبية في الشرق العربي. وكانت هذه الكونتية الصليبية تسيطر على مساحة من الأرض تمتد شرق نهر الفرات وغربه، أما سكانها فكانوا في أغلبيتهم من الأرمن. وتمثلت أهميتها في أنها لعبت دور الدولة الحاجزة في الشمال الشرقي بحيث تلقت الهجمات الأولى بدلا من الإمارات الأخرى والمملكة الصليبية التي قامت في جنوب بلاد الشام وفلسطين، وهنا قبع بلدوين فرحا بما حققه، ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الصليبيين الرئيس الذي كان لا يزال يحث الخطى نحو أنطاكية.

لقد أفاد الصليبيون كثيرا من التشرذم السياسي للحكام العرب والسلاجقة في المنطقة العربية، سواء أثناء تقدمهم في آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم في بلاد الشام. وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات. ولا بد أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة عسكرية بيزنطية من النمط الذي تعودوا عليه. أما الفاطميون فإنهم لم يفكروا أبدا في مساعدة السلاجقة السنة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة.

لقد كانت هذه الظروف مثالية من الناحية السياسية للتقدم الصليبي، وبالفعل واصل الصليبيون تقدمهم ومسيرتهم حتى مدينة أنطاكية ذات الموقع الجميل بالقرب من البحر على منحدر يؤدي إلى وادي نهر العاصي الخصيب، والتي كانت ذات مرة درة في تاج الإمبراطورية الرومانية القديمة.

وفي الحادي والعشرين من أكتوبر سنة 1097م بدأ الصليبيون يفرضون الحصار على أنطاكية. وطال الحصار وبدأت معاناة الصليبيين. ففي عيد الميلاد في نهاية ذلك العام كانت المجاعة قد أنشبت مخالبها في معسكرهم، واتفق الزعماء على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة. ومن ناحية أخرى، كان المسلمون من العرب

والأتراك قد أخذوا ينظمون وسائل الدفاع عن أملاكهم. وهكذا بات الصليبيون في مأزق حقيقي لأن فرق السلب والنهب لم تجد ما تنهبه، كما أن المسلمين قضوا على فرق كاملة منها. وفي غمرة البؤس الذي حاق برجال الجيش الصليبي حاك بوهيموند المؤامرة التي رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه التي جعلته ينضم إلى الحملة الصليبية، أي بناء إمارة نورمانية في الشرق العربي. ولعب النورماني الداهية بأعصاب الفرنج، فأعلن عزمه على الرحيل إذا لم يوافقوا على منحه حكم أنطاكية، ووافق الزعماء المذعورون على ذلك، لأن الكثير من أفراد جيش الرب كانوا قد بدأوا يهربون، ومنهم ستيفن كونت بلوا، وبطرس الناسك، نبي الحركة الصليبية وداعيتها المفوه.

وكان بوهيموند قد تآمر مع أحد الأرمن على فتح البرج الذي يتولى حراسته من أبراج أنطاكية. وتحت جنح الليل تم تنفيذ المؤامرة وسقطت المدينة، ولكن القلعة صمدت في مواجهة الهجوم الصليبي. وفي اليوم التالي مباشرة، أي الرابع من يونيو 1098م شن جيش الإنقاذ الإسلامي الذي جاء من فارس بقيادة كربوقا هجوما سريعا، لكنه فشل في إنقاذ المدينة. وفي الداخل بدأت متاعب الحصار المزدوج بالنسبة للصليبيين. وبدا أن الصليبيين بحاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبل النجاة، ولم يتأخر رجال الكنيسة في تلفيق هذه المعجزة، إذ خرج قسيس بروفنسالي على الصليبيين بحكاية عن رؤية مقدسة أخبرته عن مكان الحربة التي طعن بها المسيح منذ أحد عشر قرنا من الزمان، وربط بين العثور على هذه الحربة وبين النصر. وبطبيعة الحال تم العثور على هذه الحربة بسهولة. وقد أدت هذه الحادثة إلى رفع معنويات الفرنج كثيرا. وعندما اصطدموا بجيش كربوقا، الذي مزقته الانقسامات، تمكنوا من هزيمته، ولم يكن هناك جيش إسلامي آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس.

تسلم بوهيموند قلعة أنطاكية من قائدها احمد بن مروان، وحين توقفت الحرب تجلى الإفلاس الأيديولوجي للحركة الصليبية، وتجسد في بؤرة شريرة من الصراعات والدسائس والمؤامرات التي امتدت خيوطها بين زعماء الصليبيين. فقد تحدى ريمون السانجيلي بوهيموند النورماني، صاحب الفضل في أخذ المدينة بالخيانة والذي ادعى أن المدينة حق خالص له. وقرر الزعماء تأجيل السير إلى بيت المقدس حتى أواخر سنة 1098م. ثم تفرقوا وأخذ كل منهم يحاول تحقيق بعض المكاسب الشخصية. واستولى ريمون السانجيلي على أحد أبراج مدينة أنطاكية، ولكن بوهيموند طرده منه بالقوة. وهكذا قامت الإمارة الصليبية الثانية على أرض الشرق في مطلع سنة 1099م.

وفي تلك الأثناء كانت تجري تغيرات هامة في الجانب الإسلامي، إذ كانت الخلافة الفاطمية في مصر قد أفاقت من الصدمة التي سببتها الهجمات السلجوقية الأولى على أملاكها في بلاد الشام. ومن ناحية أخرى، ظن الفاطميون أن بوسعهم الإفادة من الهجوم الصليبي. وكان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالي وزيرا للخليفة الفاطمي المستعلي، وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام ولم تثمر هذه المحاولات شيئا. وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأي سلطات، ولم يدرك الفاطميون حقيقة أهداف الصليبيين. ولا شك في أنهم ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوربي مجرد مرتزقة في خدمة البيزنطيين.

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة في شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة كربوقا في أنطاكية أدرك أن السلاجقة ليسوا في وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد. وشن هجومه على فلسطين التي كانت في حوزة سقمان وايلغازي ولدي أرتق، وكانا يدينان بالولاء لأمير دمشق دقاق. وفي سنة 492هـ (1099م) استولى على القدس.

وفي شمال بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة ترقب انهيار السلاجقة في سرور، ولم يتدخل أحد لإنقاذ أنطاكية، ويذكر ابن الأثير ما نصه: «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكرا منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية». وإذا كان رضوان ودقاق، وهما من السلاجقة، قد اتخذوا هذا الموقف فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحا.

على أية حال، كانت هذه هي الحال قبل أن يواصل الصليبيون زحفهم إلى بيت المقدس. ويبدو أنهم استطابوا العيش في بلاد الشام وأنطاكية، فركنوا إلى الدعة فترة من الوقت. وثارت بين عامة الصليبيين مشاعر الإحباط عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار لتأجيل الزحف صوب القدس، هدف الرحلة النهائي. وهدد العامة بعزل ريمون السانجيلي وإحراق أنطاكية، وهنا تذكر القادة هدف رحلتهم، وبعد مرور تسعة أشهر أو يزيد تحركت جموعهم صوب مدينة القدس، وكان ذلك في شهر يناير من سنة 1099م.

وتحرك ريمون من معرة النعمان على رأس قواته وهو حافي القدمين وقد ارتدى ملابس الحجاج. وتحرك جيشه جنوبا بحذاء منحدرات جبل النصيرية. وتم زحفه دون مشاكل لأن الأمراء المحليين كانوا غاية في الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشيا لهجوم الصليبيين عليهم. وبعد ما حدث في أنطاكية قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبي. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلي، ثم انضم جودفري وتنكرد وبوهيموند إلى الجيش الزاحف جنوبا، ثم تركهم مرة أخرى وعاد إلى أنطاكية حاكما بلا منازع. وقد استولى الصليبيون في طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذي كان يمثل منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية، وتوغل الصليبيون في الأراضي الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبي إلا بعد فوات الأوان، وأخيرا صافحت القدس عيون الصليبيين.

كان الفصل الأخير في الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذي فرضه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع: من 7 يونيو إلى 15 يوليو 1099م. ولم يكن هناك ما يلائم هذا الموقف سوى تلفيق بعض أخبار الرؤى والأحلام المقدسة، كما أشيع عن اشتراك القديس جورج في القتال ضد المسلمين. وفي يوم الجمعة 15 يوليو 1099م (22 شعبان 492هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحامية الفاطمية «افتخار الدولة» وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة في شوارع القدس عدة أيام.

وفي هذا الجو الموحش الكئيب، اجتمع الصليبيون في كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر. وهكذا تم زرع الكيان الصليبي في الشرق العربي.

وعندما خفت شهوة القتل لدى الصليبيين كانت أولى المهمات التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاحت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة، واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكي يقرروا ما ينبغي عمله في هذا الصدد. فقد كان واضحا أنهم حينما تركوا أوروبا سنة 1096م لم تكن لديهم فكرة واضحة عما سيفعلونه بالقدس بعد الاستيلاء

عليها. كما أن البابا أربان الثاني (الذي مات قبل أن يعرف بخبر الاستيلاء على القدس) لم يحدد للصليبيين نظام الحكم في المدينة المقدسة.

على أية حال، فإن المناورات السياسية بين دايمبرت أسقف بيت المقدس الجديد والطموح وريمون السانجيلي وجودفري البويوني انتهت باختيار الأخير حاكما لبيت المقدس، وكان هذا الحل الوسط في حقيقة الأمر هروبا من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم في الدولة الوليدة.

وفي 14 رمضان سنة 492 هـ (12 أغسطس 1099م) كان الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش المصرية قد جاء بجيشه لمهاجمة الصليبيين، ولكنه فضل الانتظار قرب عسقلان حتى قدوم الأسطول، ولكن القادة الصليبيين فاجأوه قرب عسقلان بعد أن اتحدت جهودهم مرة أخرى، وأخيرة. وأخذ المصريون على غرة وهزموا ثم عاد الأفضل إلى مصر. وبهذه المعركة تم تأمين الوجود الصليبي في بيت المقدس إلى حين. وهكذا أسفرت الحملة الأولى عن قيام مملكة وإمارتين صليبيتين في الرها وأنطاكية، ثم لم يلبث ريمون كونت سانجيل أن أسس إمارة أخرى في طرابلس سنة 1109م.

وهكذا كانت نتيجة النصر الذي أحرزته الحملة الصليبية أن تأسست إمارتان ودولة صغيرة لم تلبث أن تحولت إلى مملكة. ففي الثامن عشر من يوليو عام 1100م مات جودفري البويوني أثناء محاولته مد نفوذه في السهل الساحلي بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا في الإفادة من النصر الصليبي في شرق البحر الأبيض المتوسط. وتم استدعاء بلدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس، وفي الخامس والعشرين من ديسمبر تم تتويجه، وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية.

كانت المملكة في ذلك الحين تتكون من مدينة بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل، كما كان لها ظهير ريفي تسكنه أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا مثل: روبرت دوق الفلاندرز وروبرت النورماني إلا أن العدد الأكبر من القادة ظلوا في المنطقة العربية حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة الاستعمارية الاستيطانية، ولأنهم ظلوا أقل كثيرا في

عددهم من المسلمين والعرب أصحاب البلاد فقد حاولوا قدر الطاقة أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوربية جديدة على القدوم إلى الشرق العربي رغبة في الحصول على نصيب من المغانم التي شاعت أخبارها في الغرب الأوربي مع العائدين من فلسطين.

أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى

نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية كما قدمنا: الأولى في أعالي الفرات وهي الرها، والثانية في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة، فكانت في قلب فلسطين وهي بيت المقدس، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى هي: صيدا ويافا وعسقلان والجليل، وأثني عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا، اللد، وبيروت. وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذي تحقق يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها:

أولاً: انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي:

بدأ الضعف يتسرب إلى جسم الدولة العباسية المترامية الأطراف في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، عندما بدأت بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة في بغداد، تنفصل مكونة دولاً مستقلة وتعجز الخلافة عن إعادتها للسيطرة المركزية، فقد تأسست دولة الأدارسة في أقصى المغرب عام 172هـ-788م، كما تأسست دولة الأغالبة في تونس 184هـ-800م، ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة في تونس عام 297هـ-909م، وفي مصر قامت الدولة الطولونية عام 254هـ-868م، أعقبتها الدولة الإخشيدية عام323هـ-935م، وفي عام 358هـ-969م استولى الفاطميون على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة دولتهم، وهكذا خرج المغرب الإسلامي ومصر بشكل تدريجي من حيث الزمان والمكان عن نطاق الدولة العباسية، وظهرت خلافة جديدة تسيطر على النصف الغربي من العالم الإسلامي وتسعى للسيطرة على النصف الشرقي الذي أصابه ما أصاب النصف الأول من حيث قيام الدول المستقلة، فقد قامت الدولة الطاهرية في خراسان عام 205هـ-820م وتبعتها الدولة الصفارية عام

254هـ-867م، ثم غلبت على المنطقة الدولة السامانية التي تأسست عام 204هـ-819م في بلاد ما وراء النهر ثم امتد نفوذها لتشمل جميع البلاد التي كانت تتبع للدولة الصفارية، وكان نفوذ الخلافة العباسية يتحول من سلطة سياسية إدارية روحية إلى سلطة روحية فقط، ولم يبق للخليفة سوى ذكر اسمه في خطب الجمعة متبوعاً باسم السلطان الغالب على البلاد، ويعود السبب الرئيسي في ضعف الخلافة العباسية وتلاشي سلطتها، إلى أسباب كثيرة ليس هنا مجال بحثها، وقد تمكن الأتراك في عهد المعتصم (218-227هـ) وكانت لهم حظوة في عهده وقربهم وأسند لهم المناصب العليا في مركز الدولة والولايات واعتمد عليهم في حراسة قصره، حتى تطاولوا على الناس وكثرت شكاوى الناس من ظلمهم في بغداد، فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء وجعلها عاصمة لهم ومن حوله حاشيته من الأتراك، فزاد نفوذهم وصاروا وحدهم المتسلطين على أمور الخلافة والدولة حتى صاروا هم الذين ينتخبون الخليفة الذين يريدون ويعزلون من لا يوافق رغباتهم وأهواءهم، وفي عام 334هـ-945م استولى البويهيون الشيعة على العراق وأضافوه إلى دولتهم التي تأسست قبل ذلك في فارس وصاروا هم المتسلطين على شؤون الخلافة وتعسفوا في معاملة الخليفة حتى إنهم عذبوا بعض الخلفاء وسجنوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر، وكان بإمكانهم إنهاء الخلافة العباسية والدعوة للخلافة الفاطمية في العراق وباقي المشرق الإسلامي، خاصة بعد استيلاء الفاطميين على مصر، لكنهم لم يفعلوا ذلك، ليس حفاظاً على الخلافة العباسية، بل حفاظاً على سلطانهم ودولتهم من أن تزول لصالح الفاطميين، الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وأخذوا يبثون دعاتهم في العراق لإنهاء الخلافة العباسية وضم باقي المشرق الإسلامي لدولتهم، وفي عام 447هـ-1055م استغل أحد دعاتهم ضعف سلطة البويهيين وأثار فتنة في بغداد تمكن خلالها مع مؤيديه من إلقاء القبض على الخليفة وحبسه، فاستنجد الخليفة بالسلطان طغرل بك سلطان السلاجقة الذين كانوا قد أسسوا دولتهم عام 427هـ-1037م في بعض مناطق خراسان، ثم توسعوا جنوبا وغرباً في أراضي الدولة البويهية التي كانت قد ضعفت كما تقدم وسارع سلطان السلاجقة إلى استغلال الفرصة فتوجه إلى العراق وقضى على الفتنة، وعلى الدولة البويهية وأعاد للخليفة اعتباره، ولكن البساسيري الذي تأثر بدعوة الفاطميين استولى على بغداد بعد أن غادرها طغرل بك 450هـ-1058م وأقام الدعوة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلا أن طغرل بك عاد إلى بغداد من جديد وقضى على داعية الفاطميين واستقرت الأوضاع في العراق

لصالح دولة السلاجقة السنيين، الذين أظهروا قدراً كبيراً من الاحترام للخليفة، ولكنهم أبقوه رمزاً دينياً بدون قوة وصلاحيات، وعندما اجتاح الصليبيون بلاد الشام عام 492هـ-1099م كانت الخلافة العباسية عاجزة تماماً عن القيام بأي رد فعل سوى توجيه الرسل إلى سلاطين السلاجقة لمعالجة الأمر.

ثانياً: الصراع على السلطنة في داخل البيت السلجوقي:

خلف السلطان ألب أرسلان السلجوقي عند وفاته سنة 465هـ-1072م دولة متحدة الأركان قوية الجانب يحكمها ولداه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر في المشرق والعراق، وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الأصغر في بلاد الشام كتابع لأخيه الأكبر. واستمر هذا الاستقرار زمن السلطان ملكشاه (465هـ-485هـ/ 1072-1092م) لإتباعه سياسة والده ووزيره نظام الملك الذي توفي سنة 485هـ-1092م ثم تبع وفاة ملكشاه وفاة وزيره في السنة المذكورة مما أدى إلى خلق فراغ سياسي في صفوف العالم الإسلامي عامة والسلاجقة خاصة وكان سبباً حقيقياً في تفكيك وحدة السلاجقة الذين أصبحوا ثلاث قوى تتصارع فيما بينها: قوة السلاجقة بزعامة قلج أرسلان الأول في آسيا الصغرى، وقوة سلاجقة الشام بزعامة تاج الدولة تتش، وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة السلطان بركياروق بن ملكشاه ومن ينازعه من أخوته، علماً بأن النزاعات والحروب لم تقتصر على سلاطين وأمراء السلاجقة بل اشترك فيها أمراء بني مزيد في العراق والخليفة العباسي المسترشد (512-529هـ) وقد أدى هذا الصراع إلى استنزاف إمكانيات دولة السلاجقة وانشغال سلاطينها وولاتها عن الخطر الإفرنجي الداهم إلا من بعض الجهود الثانوية التي تم توجيهها لمقاومة الفرنجة تحت ضغط الرأي العام الإسلامي الذي أخذ يتبلور على أيدي بعض رجال الدين من العلماء والقضاة الذين كان لهم الفضل الأكبر بعد الله في يقظة الأمة وإعادتها إلى جادة الصواب، وإثارة الهمم لمقاومة العدوان الإفرنجي، وبعد أن تطور الرأي العام في المشرق الإسلامي وخاصة في بغداد إلى غضب وانتفاضة شعبية اضطر السلطان محمد لتوجيه والي الموصل الأمير مودود بن التونتكين لجهاد الفرنجة ومن بعده قام بعض ولاة الموصل والجزيرة بجهود طيبة للحد من توسع الفرنجة في بلاد الشام والجزيرة، لكنها كانت جهوداً فردية غير منتظمة ولم تلق من سلاطين السلاجقة الاهتمام والدعم المطلوبين، الأمر الذي مكن الفرنجة من الاستيلاء على أغلب بلاد الشام بالإضافة لمنطقة الرها في الجزيرة وظل الوضع على هذا الحال حتى

تأسست الدولة «الزنكية» بالموصل عام 521هـ ـ 1127م على يد عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود زنكي، عندها انتظم أمر الجهاد ضد الفرنجة واستمرت الحلقات المباركة في عهد نور الدين وصلاح الدين ودولة المماليك.

ثالثاً: الدولة الفاطمية:

الفاطميون لا صلة لهم بيت النبوة، والدولة الفاطمية هي دولة باطنية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم وقد سأل الشريف ابن طباطبا ملكهم المعز العبيدي الذي فتح مصر عن نسبة فسّل سيفه، وقال: هذا نسبي، ونثر الذهب، وقال: هذا حسبي، فهم أولاد ميمون القداح بن ديصان اليهودي، قال أبو سامة عن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية: كان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة. قال الذهبي: وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد، لما شهدوه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه، وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة لصدق بعضها بعضاً، وخرج كثير من العلماء والعباد مع أبي يزيد الخارجي لقتال القائم بن عبيد الله وقالوا: نكون مع أهل القبلة ضد من ليس من أهل القبلة، وخّرب الفاطميون القيروان سنة 449هـ، وجلا علماؤها إلى الأقطار ومات منهم كثير. وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيدة ودعوتهم دعوة واحدة، يقول ابن خلكان: كان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، وإذا رأى سنياً استحل دمه. قال الإمام الشاطبي: أما الدّجالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية، فقد حكي عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معداً رسول الله، فهمّ المسلمون بقتله «أي المؤذن» ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره، فلما انتهى كلامه إليه قال: أردد عليهم أذانهم لعنهم الله. وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في العالم الإسلامي، إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية في مصر، وحسن الصباح زعيم قلعة ألموت الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين إنما تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر.

وفي عهد المستعلي والآمر: تولى الوزارة الأفضل بن بدر الجمالي وفي عهده تولى يهودي شؤون قصر أم الخليفة فاشتد نفوذه وأسند مناصب الدولة لليهود، والأفضل هذا كانت في أيامه نكبة القدس فعندما وصلته أخبار الزحف الإفرنجي من آسيا الصغرى باتجاه بلاد الشام وانشغال السلاجقة بمواجهتهم في منطقتي أنطاكية والجزيرة والرها

اعتبر الأفضل أن الفرصة سانحة لاستعادة المناطق الداخلية من بلاد الشام فأرسل وفداً إلى قادة الحملة الإفرنجية وهم يحاصرون أنطاكية ليتفق معهم على اقتسام بلاد الشام بحيث يكون شمالها للفرنجة وجنوبها للفاطميين، واستقبل قادة الحملة الإفرنجية الوفد الفاطمي بالترحيب وأظهروا الرغبة في التعاون مع الفاطميين ولكنهم لم يفصحوا عن حقيقة نواياهم حول القدس ولم يحصل الوفد الفاطمي منهم على جواب واضح، إلا أن الأفضل بدأ بتنفيذ خطته التي كان محورها استعادة القدس ودمشق مستغلاً انشغال السلاجقة بالمواجهة مع الفرنجة فسار بجيشه إلى فلسطين وحاصر القدس في الوقت الذي كان الفرنجة يحاصرون أنطاكية، وبعد قتال شديد على الأسوار وفي المدينة استولى الفاطميون على القدس في شعبان 491هـ-1098م، وأرسل الأفضل وفداً آخر إلى قادة الحملة الإفرنجية بعد أن توغلوا جنوباً باتجاه القدس، يعرض عليهم ما سبق أن عرضه الوفد الأول بالإضافة إلى السماح لهم بالحج إلى القدس بكل حرية بشرط أن يكونوا بدون سلاح، ولكن الفرنجة كانوا في هذه المرة واضحين في ردهم الذي كان «سندخل القدس بسلاحنا دون إذن من خليفة القاهرة» وهذا ما تم. ووصف الذهبي عموم جيوشهم بأنهم أهل شر وزعارة لاسيما من تزندق منهم، وقد ذاق المسلمون منهم من القتل والنهب والسبي حتى أن أهل صور استنجدوا بالنصارى الروم من ظلمهم وجورهم وأخذهم النساء من الحمامات والطرق. وقد وصف ابن كثير ملوك الدولة العبيدية بأنهم من أنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد، وقلّ عندهم الصالحون من العلماء، وكثر بأرض الشام الدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على الساحل. فهؤلاء ما دافعوا عن القدس لما حاصرها الصليبيون مقاومة تذكر. قال ابن خلكان معلقاً: ولو كانت في يد الأرتقية «أمراء الشام من الأتراك» لكان أصلح للمسلمين ولو لم يكن لهؤلاء الباطنية إلا قتلهم للصالحين لكفى. وقبل احتلال الصليبيين للقدس، قتل الباطنية عام 485 هـ الوزير نظام الملك وفي التاريخ عظة وعبرة، أنه ما ضعف المسلمون إلا في عهود دول البدع والزنادقة، وكل هوان وذل حلّ بديار المسلمين إنما هو من آثار البعد عن دين الله عز وجل، وتفشي البدع والواقع خير شاهد.

رابعاً: سقوط الخلافة الأموية بالأندلس:

ففي سنة 422 هـ سقطت الخلافة الأموية في الأندلس ودخلت البلاد في فترة جديدة عرفت بعصر ملوك الطوائف امتدت من 422هـ إلى 484هـ وتسمية هذا العصر

كفيلة للدلالة على ما وصلت إليه الدولة من تخاذل وتفرق واضطراب وتناحر، حتى أنه حكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة أو مقاطعة ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف ومن أشهرهم بنو عباد باشبيلية وبنو حمود الأدارسة بمالقة والجزيرة، وبنو زيري بغرناطة وبنو هود بسرقسطة، وكان أقواهم بني ذي النون الذين ملكوا طليطلة وحكموا بلنسية ومرسية والمرية، وكان هؤلاء الملوك يدفعون الإتاوات لملك إسبانيا المسيحي الذي استطاع أن ينتزع من أيديهم كثيراً من المدن والمقاطعات، لذلك استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش، ولم تحل سنة 495 هـ حتى استطاع يوسف بن تاشفين أن يضم الأندلس لدولة المرابطين. وحينما قامت الدعوة للحروب الصليبية في مؤتمر كليرمون سنة 1095م كانت الحرب على أشدها بين المسيحيين والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا، وأصبح ميزان القوى متأرجحاً بين الفريقين دون أن يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم على الآخر، ولهذه الأسباب لم تكن أسبانيا في حالة تسمح لها بالاشتراك الفعلي في حروب خارج أراضيها سواء من جانب المسلمين أو المسيحيين، فقد كانت أسبانيا مسرحاً لحرب صليبية غربية أو بمعنى آخر حركة استرداد قام بها المسيحيون الغربيون ضد مسلمي أسبانيا، وحينما استولى الصليبيون على بيت المقدس، أعلن البابا «باسكال الثاني» الحرب الصليبية في أسبانيا ضد المسلمين، لذلك بدأ الأسبان المسيحيون يشهرون الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها وحاصروا سرقسطة لمدة قصيرة سنة 494هـ ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع لأن المرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل، ومن ثم اضطر النصارى إلى فك الحصار ، وهكذا لم يكن مسلمو إسبانيا في حالة تسمح لهم بأن يرسلوا أي نجدة ضد الصليبيين في الشرق ذلك لأنهم كانوا مشغولين بالصراع ضد مسيحي أسبانيا، هذا إلى جانب النزاع فيما بينهم.

خامساً: دور النصارى الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام:

كان المسيحيون يشكلون عنصراً مهماً من العناصر السكانية في بلاد الشام، وكانوا ينقسمون في بلاد الشام إلى عناصر مختلفة فمنهم المسيحيون السوريون، والأرمن واليونان، أما المسيحيون السوريون فقد قاموا بدور ملحوظ بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، فقد تعاونوا مع الصليبيين في انتزاع بيت المقدس من المسلمين ولتوضيح موقف مسيحيي الشام من الحملة الصليبية الأولى نذكر أنه كان لمساعدة مسيحيي «ارتاح» أثر

كبير في استيلاء الفرنج عليها سنة 490هـ-1097م، حيث قام سكان البلد المسيحيون بذبح الحامية الموجودة في ارتياح وعندما اقترب الصليبيون من أنطاكية لم يجدوا صعوبة في التماس الأصدقاء في داخل المدينة ذلك أنه انضم إلى المعسكر الصليبي عدد كبير من المسيحيين من سكان أنطاكية الذين دأبوا على الاتصال بأقاربهم في داخل المدينة من خلال باب القديس جورج في الغرب، فتيسر للصليبيين الوقوف على ما يحدث داخل أنطاكية، وقد قاسى الصليبيون من المجاعة التي لحقت بهم أثناء حصار أنطاكية حتى أنه كان يموت شخص من بين كل سبعة أشخاص، ولذلك سارع النصارى والأرمن إلى تقديم كل ما استطاعوا جمعه للمعسكر الصليبي، وكان للنصارى أيضاً دور ملحوظ في استيلاء الفرنج على معرة النعمان 491هـ-1098م وعندما اشتد الجوع والعطش بالصليبيين المحاصرين لبيت المقدس سنة 492 هـ قام النصارى بدور المرشدين إلى مناطق الغابات والينابيع، كما أنهم ساعدوا صنجيل الإفرنجي في حصار طرابلس سنة 495هـ، وأما الأرمن فيتضح موقفهم عندما وصل الصليبيون إلى منطقة أرمينية في جبال طوروس فقد مد لهم سكانها من الأرمن المسيحيين يد المساعدة وأحسنوا استقبالهم ومعاملتهم وزودوهم بكل ما كانوا يحتاجون إليه من مؤن وأقوات ولولا ذلك لأخفق الفرنج في مواصلة الزحف ولألحق بهم السلاجقة هزيمة منكرة، ولكن هذه المساعدات التي تلقوها من الأرمن هيأت لهم الجو لمواصلة العدوان المسلح والتوغل في الشرق الإسلامي.

سادساً: موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي:

عندما توجه الصليبيون نحو بيت المقدس بعد احتلال أنطاكية، وجعلوا طريقهم على الساحل، بدأت الاتصالات بينهم وبين أمراء المدن الشامية، الذين رأوا في زوال قوة السلاجقة فرصتهم للاستقلال ببعض المدن مثل حمص، وطرابلس، وشيزر، تاركين المصلحة العامة للإسلام والمسلمين خلف ظهورهم، وقد قبل هؤلاء أن يدخلوا في طاعة الصليبيين، والنزول على شروطهم وتقديم المعونة والأدلاء لهم. وقد فرح بنو منقذ أصحاب شيزر، وبنو عمار أصحاب طرابلس وهم من البيوتات العربية العريقة بهزيمة السلاجقة، وأقبلوا يمدون المعونة للغزاة من الصليبيين، ومن الوقائع الغريبة والمواقف المريبة أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر، أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير في كفر طاب، وتعهد له بألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر، وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء فضلاً عن أنه أرسل دليلين

في 17 يناير، ليرشدا الصليبيين في عبور إقليم نهر العاصي، وقد تم فعلاً تنفيذ تلك الاتفاقية، وعندما وصلت طلائع الغزو الصليبي مدينة مصياف خرج إليهم أميرها، وعقد معهم اتفاقية اتجهوا بعدها نحو سهل البقاع، وسروا بها وجدوه فيه من خيرات، ثم توجهوا نحو حصن الأكراد وحاصروه حتى سقط في أيديهم في 29 يناير 1099م، ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين ساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وهكذا كان أمراء المدن الشامية متفككي الكلمة في ذلك الوقت وكل منهم يحاول فقط أن يحتفظ بإمارته دون النظر إلى الهدف العام وهو الوقوف في وجه العدو الغاشم، ولما كان كل واحد منهم لا يستطيع بمفرده أن يقف في وجه الصليبيين، لذلك نجد أن معظمهم أخذ الأمان له ولسكان إمارته في مقابل بعض المساعدات للصليبيين، وهذا يدل على تغلغل أسباب الضعف المعنوي في نفوس أولئك الأمراء.

سابعاً: دور الباطنية الإسماعيلية الرافضة في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين:

شهدت بلاد الشام ظهور فرقة الإسماعيلية أو الباطنية التي أدت إلى زيادة تفكك القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ويمكن القول أن توطد الإسماعيلية الباطنية بحلب واتساع نفوذهم في بلاد الشام قد أدى إلى ظهور عامل جديد من عوامل تفكك وحدة المسلمين عامة والسلاجقة خاصة، ذلك التفكك الذي تعرضت له بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الأمر الذي أدى بهذه الفرقة إلى مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على بعض معاقل المسلمين، أو تهيئة المناخ المناسب لسقوطها بيد الصليبيين، كما حدث في أفاميه سنة 500هـ-1107م، وقد لعبت هذه الفرقة دوراً خبيثاً شريراً في عرقلة الجهاد في مرحلة الصراع مع الغزاة، إذ كانت خناجر غادرة تطعن قادة الأمة، من فقهاء ووزراء، وكان تاريخها صفحات سوداء ملطخة بدماء الأبرياء من أهل السنة.

1- **تعاونهم مع الصليبيين:** كان أول ظهور للحشاشين في بلاد الشام عام 498 هـ عندما أرسل الحسن بن الصباح داعيتهم، الحكيم المنجم، الذي تمكن من إفساد ما بين الأخوين دقاق حاكم دمشق، ورضوان صاحب حلب، ثم تحالف مع رضوان، واستماله إلى نحلتهم، وأقام داراً للدعوة الإسماعيلية في حلب وبعد هلاك رضوان فتك خلفه ألب أرسلان الأخرس بالباطنية وقتل مقدمهم «أبا طاهر الصائغ» وقتل أعيانهم وحبس الباقين، وهرب آخرون منهم قاصدين بلاد الإفرنج وتفرقوا في البلاد، واشتد نفوذهم في حلب ثانية أيام داعيتهم «بهرام» وعظم أمره، وهو في غاية التستر، وأخذ يدعو أوباش

الناس، فتبعه الجهال وسفهاء العوام، وانتقل إلى دمشق، ودعا إلى مذهبهم، وأظهر شخصيته، وأعانه على ذلك وزير طغتكين «أبو طاهر المزدقاني» فعظم شره، وخاف من أهل دمشق فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو وأتباعه، فأشار عليه المزدقاني بتسليمه قلعة «بانياس» الواقعة غربي دمشق، فاستلمها وتجمع فيها أصحابه، ويعتبر ابن الأثير أن تسليمهم هذا الحصن كان كارثة على البلاد، إذ عظم خطب بهرام، وصار يدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبه، فحلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، ولاسيما أهل السنة، إلا أنهم لا يقدرون أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم طغتكين، أولا، ومن شر الإسماعيلية ثانياً. وأفاق طغتكين على شرورهم، لكنه هلك قبل أن يفعل ضدهم شيئاً، وعندما خلفه ابنه تاج الملك بوري في حكم دمشق، أفرط الوزير المزدقاني في حماية الباطنية، والعطف عليهم ثم تآمر مع الصليبيين، فعرض عليهم أن يسلمهم مدينة دمشق مقابل إعطائه هو والباطنيين مدينة صور بدلاً منها، وأبرمت الاتفاقية، وحدد أحد أيام الجمعة لتنفيذها، بينما يكون المسلمون في المساجد، فتفتح أبواب دمشق للفرنجة بسهولة، ولكن المؤامرة كشفت قبل موعد تنفيذها، فقتل بوري وزيره الخائن، وأحرق جثته وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس، واستمر أهل دمشق يذبحون فيهم، فأفنوهم تقطيعاً بالسيوف وذبحاً بالخناجر في منتصف رمضان من عام 523هـ. وعند ذلك استنجد داعيتهم إسماعيل العجمي في بانياس بالصليبيين ليحموه وأصحابه، وعرض عليهم مقابل ذلك تسليم بانياس إليهم، وتسلل الباطنية إلى البلدان المجاورة، بعد أن سلموا المدينة لهم.

2- **اغتيال القادة المسلمين:** كان الاغتيال من الأسلحة الرهيبة التي استخدمها الباطنيون لتنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم وظلت حركة الحشاشين الباطنية إسفيناً في قلب المجتمع الإسلامي، ساهمت في تمزيقه ونشر الرعب في أرجائه، مما ساهم في احتلال بلاده، فقد كانت حركة الحشاشين مصدراً للانحلال السياسي والاجتماعي طيلة عصر الحروب الصليبية، وأصبحت عصابة سرية فريدة من نوعها ومدربة على أساليب القتل المنظم، فذهب ضحية إجرام الباطنيين عدد كبير من قادة الجهاد الإسلامي وخيرة رجاله، ولم يسلم من بطشهم المخلصون في المجتمع الإسلامي، وكان أول ضحايا الاغتيال والغدر الوزير السلجوقي نظام الملك عام 485هـ، كما قتلوا عدداً من الوزراء منهم أبو طالب السميرمي وزير السلطان محمود السلجوقي، ذبحوه ومثلوا به نيفاً وثلاثين جراحة، كما قتلوا وزير السلطان سنجر معين الملك أحمد بن الفضل، وقتلوا

الوزير فخر الملك ابن نظام الملك، قتلوه وهو صائم يوم عاشوراء جاءه صبي وهو خارج من داره يصيح: ذهب المسلمون ولم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف، فاستمع إليه رحمة به، فطعنه الباطني بسكين وقتله واغتالوا عدداً من الولاة والأمراء منهم جناح الدولة حسين صاحب حمص، صهر رضوان صاحب حلب قتلوه عندما نزل من القلعة ليصلي الجمعة في المسجد الكبير، هجم عليه ثلاثة من الحشاشين في لباس الدراويش وقتلوه عام 495هـ وكان وقتها يتهيأ لقتال الصليبيين، وينتقد رضوان، لتهاونه في قتالهم، فتآمر على اغتيال زوج أمه، وكان رحمه الله أميراً مجاهداً يباشر الحروب بنفسه، ومن جرائم الحشاشين قتلهم القائد المجاهد الأمير مودود بن النوكتين في ساحة المسجد الأموي عام 507هـ وقد هزم الصليبيين في أكثر من موقعة، وكان رحمه الله صائماً رفض أن يفطر، كما قتلوا والي الموصل، آقسنقر البرسقي عام 520هـ هجموا عليه وهو يصلي الجمعة في جامع الموصل، وثب عليه بضعة عشر نفراً من الفدائيين، وطعنوه بخناجرهم، وقتل رحمه الله بعد أن جرح ثلاثة منهم بيده وكان رجلاً عادلاً عابداً متهجداً قاد الجيوش ضد الصليبيين مراراً، ولم يتورع الباطنيون عن قتل من تمكنوا من الوصول إليه من خلفاء الدولة العباسية، ومن هؤلاء الخليفة المسترشد، وكان رحمه الله عالماً تقياً فاضلاً بليغاً، عارفاً بالفتوى، هجموا عليه في خيمته واغتالوه ومثلوا به وكان ذلك عام 529هـ، كما اغتالوا ولده الخليفة الراشد في أصبهان عام 532هـ ودفن فيها، قتله الباطنية وكانوا في خدمته، عندما كان يريد القيلولة، ودفن في ظاهر أصفهان وأما العلماء والفقهاء: فقد اغتالوا عدداً منهم، نذكر على سبيل المثال، أبو القاسم بن إمام الحرمين قتله الباطنية غدراً عام 492هـ، والفقيه أحمد بن الحسين البلخي قتله الباطنية غدراً عام 494هـ، والفقيه عبد اللطيف بن الخجندي قتله الباطنية غدراً عام 523هـ، والفقيه أبو المحاسن الروياني قتله الباطنية غدراً عام 502هـ، والقاضي أبو العلاء مساعد النيسابوري قتله الباطنية بجامع أصبهان 499هـ، والقاضي عبيد الله بن علي الخطبي قتله الباطنية بالجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة عام 502هـ، والقاضي صاعد بن عبد الرحمن أبو العلاء قتله الباطنية يوم عيد الفطر بنيسابور عام 502هـ، والقاضي أبو سعد محمد بن نصر الهروي هجم عليه قوم من الباطنية في جامع همذان وقتلوه عام 518هـ، والواعظ أبو جعفر ابن المشاط كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله عام 498هـ، والواعظ أبو المظفر الخجندي وكان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله.

وقد قام محمد حامد الناصر بعمل جدول بأسماء القادة والعلماء الذين اغتيلوا بيد الباطنية وعلق بعد ذلك بقوله: يتبين لنا ضخامة الدور البشع لتلك الحركات في القضاء على فاعلية الأمة وحيويتها في الصراع الدائر بين المسلمين والغزاة الصليبيين ويتضح لنا من سلسلة الاغتيالات وتوقيتها، ونوع شخصياتها ملاحظات في غاية الأهمية منها:

- أن الذين قتلوا على يد الباطنيين، كانوا يمثلون مراكز القيادة والتوجيه في ميادين السياسية والفكر والجهاد في سبيل الله.

- وأن تصفية هؤلاء كان خدمة متعمدة لخدمة الصليبيين من جهة ولقيادة المذهب الإلحادي الخبيث من جهة أخرى.

- أن كثيرا من ضحايا الاغتيال قتل وهو صائم، أو في وقت تأدية صلاة الجمعة أو خلال مجلس للوعظ الديني والإفتاء في بيوت الله، وأن أكثرهم كان يشهد لهم بالصلاح والتقوى والصيام والتهجد والمحافظة على الصلوات مع جماعة المسلمين والإثخان في جيوش الصليبيين.

3- **إشاعة الرعب والخوف في المجتمع الإسلامي:** لم يقتصر دور الباطنيين على اغتيال القادة، ولا على التعاون مع الصليبيين، وإنما كانوا ينشرون الرعب بين الناس بشتى السبل؛ كانوا يقطعون الطريق ويعتدون على سكان القرى المجاورة لهم فيذبحونهم ويستولون على ما لديهم من مال ومتاع، ولم تسلم القوافل المارة بجوار قلاعهم من القتل والنهب، فأصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أولادهم وأموالهم، وبلغت جرأتهم أنهم كانوا يخطفون الناس من الشوارع والحارات بأغرب الوسائل، وكان الرجل إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد، تيقّن أهله من قتله، وقعدوا للعزاء به. وحذر الناس، حتى صاروا لا ينفرد أحدهم في مسيره، وقد أخذ الباطنية مؤذناً، عن طريق جار له باطني، فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون، وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم، واشتد الخوف والرعب من جرائمهم حتى إذا جاء الليل أخفوا جميع ما لديهم من مال ومتاع في أماكن مجهولة غير معروفة خوفاً من هجماتهم وأخذهم إياها، فإذا أصحوا أخرجوها ثانية، ولم يسلم الحجاج من بطش الباطنيين ففي عام 498هـ تجمعت قوافل الحجاج مما وراء النهر وخراسان والهند، فوصلوا خوار الري، وهي قرية من أعمال بيهق من نواحي نيسابور، فباغتتهم الباطنية وقت السحر، ووضعوا فيهم السيوف، وقتلوهم، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم

يتركوا شيئاً إلا أخذوه، وفعلوا مثل ذلك عام 552هـ في حجاج خراسان فقتلوهم جميعاً، ولم يبق منهم إلا العدد اليسير، وكان فيهم الأئمة والعلماء والزهاد والصلحاء، وفي الصباح طلع على القتلى والجرحى أحد الباطنية، وهو ينادي: يا مسلمين! ذهبت الملاحدة، فمن أراد الماء سقيته، فكان كلما رفع رأسه جريح وتكلم بكلمة أجهز عليه ذلك الباطني وقتله، حتى لم يبق الخبيث منهم أحداً، ونتيجة لهذا الوضع، أصبح الناس غير آمنين، فكأنهم غرباء على بعضهم، فقطعت الأرحام، وتفككت الروابط، وزادت الفرقة بين الناس وازداد الخوف بينهم، حتى صار كثير من العلماء والكتاب لا يتحدثون عنهم إلا بالتلميح والتورية كي لا تنالهم أيدي الباطنية، من هؤلاء مؤرخ الدولة السلجوقية، العماد الأصفهاني في كتابة: تاريخ آل سلجوق.

4- فتوى ابن تيمية في الحركات الباطنية: سئل شيخ الإسلام عن الإسماعيلية وما تفرع عنها من حشاشين وقرامطة ومحمرة أو خرمية، وما شابههم فأجاب رحمه الله: إن هؤلاء وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنجة وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع، وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين، قبل محمد ﷺ.

ثم بين رحمه الله أخطارهم على المسلمين فقال: إذا كانت لهم مُكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وبقي عندهم مدة وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم مالا يحصي عدده إلا الله تعالى. ثم بين رحمه الله تواطؤهم مع الصليبيين فقال: ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية، إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار.

وأشار رحمه الله إلى مهادنة العبيديين والفاطميين للصليبيين وتفريطهم في بيت المقدس فقال: فهؤلاء المحادون لله ورسوله، كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم، استولوا على القدس الشريف وغيره. وبين تعاونهم

مع المغول فقال: ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم فإن منجِّم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو «النصير الطوسي» كان وزيراً للحشاشين في آلموت وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

وبين رحمه الله حكم التعامل معهم فقال: وأمّا استخدام هؤلاء في ثغور المسلمين، أو حصونهم، أو جندهم، فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغش الناس للمسلمين، ولولاة أمورهم ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ، ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النوم معهم في بيوتهم ورفقتهم والمشي معهم، وتشييع جنائزهم.

ثامناً: انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني:

هل كان يتصور أن يصمد المسلمون أمام الصليبيين وقد تفشى الرفض وانتشرت البدع وقامت للمبتدعة دول. فالعبيديون الفاطميون بمصر (297-567هـ) والبويهيون وقد تملكوا مقاليد الأمور في بغداد وأهانوا الخلفاء أسوأ إهانة والقرامطة وما فعلوه بالحجيج سنة 317هـ، بل بأهل دمشق سنة 360هـ، فقد أوقعوا بأهلها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ومحاولتهم إضعاف الدولة العباسية، وبنو حمدان (317-394هـ) بحلب، والأسديون في الحلة (403-545هـ) لم يكتفوا بإماراتهم بل شاركوا في أحداث الدولة العباسية من إثارة الفتن على الخليفة، فهذا دبيس أميرهم يرغم على الجلاء عن الحلة فيذهب إلى الشام ويساعد الروم في حصار حلب على شرط أن يتملكها بعد الانتصار على المسلمين، ولكن الحملة تفشل ويعود دبيس إلى الحلة فيقتل من قِبل السلطان مسعود السلجوقي ولقد تعاون الأسديون مع أرسلان البساسيري الداعي إلى طاعة العبيديين في مصر، فالأسديون لتشيعهم ساعدوا هذا المارق، كما ساعدوا الروم ضد المسلمين فانتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني كان من العوامل التي ساعدت على احتلال الصليبيين لبلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى.

تاسعاً: تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي:

تجمعت الأموال في يد حفنة قليلة لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً وتركوا البلاد قاعاً صفصفاً يعانون شظف العيش بدون تأنيب ضمير أو حس، ولعلنا نستطيع إيجاد أبرز مظاهر هذا الخراب الاقتصادي وما تبعه من مفاسد فيما يلي:

- الإسراف والتبذير عند علية القوم: إذ أصبح تكديس الأموال عندهم أمراً شائعاً، والنهب من أموال الدولة أمراً عادياً وإليك بعض الأمثلة.

- وجد في قصور العاضد آخر خلفاء الفاطميين؛ الحواصل والأمتعة والملابس والمفارش شيء باهر، ومن ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر، عدا الزمرد والياقوت، واستمر بيع محتويات القصر نحوا من عشر سنين.

- والوزير الفاطمي بدر الجمالي كان قد خلف ثروة وجدت بعد وفاته منها: ستمائة ألف ألف دينار عينا، ومائتان وخمسون إردبا دراهم، وخمسة وسبعون ألف ثوب أطلسي، وثلاثون راحلة أحقاب ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار. ولما قتل ولده الأفضل وزير الفاطمية بعد أبيه بدر الجمالي، عام 515هـ نقل من أمواله - بأمر الخليفة - مالا يعلمه إلا الله تعالى، ووجد من الأعلاق النفسية والأشياء الغريبة مالاً يوجد مثله.

- ويصف ابن كثير جانباً من حياة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي والي بلاد بكر وميافارقين المتوفى (453هـ) فيقول: ملك هذه البلاد اثنين وخمسين سنة، وكان عنده خمسمائة سرية سوى من يخدمهن، وعنده خمسمائة خادم، وكان عنده من المغنيات شيء كثير، كل واحدة مشتراها بخمسة آلاف دينار، وكان يحضر مجلسه من آلات اللهو والأواني ما يساوي مائتي ألف دينار.

- ويصف كذلك جهاز زواج ابنة السلطان ملكشاه عام 480هـ فيقول: في المحرم من هذا العام نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الروحي، غالبها أواني الذهب والفضة، وعلى أربعة وسبعين بغلة مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة، فيها أنواع من الجواهر والحلي.

- وقلد الجند الأمراء والوزراء: في الجشع والنهب فكانوا إذا نشبت فتنة بين السلاطين والملوك أو بين أمرائهم، استغلوا الفرصة ونهبوا المدن والمحلات التجارية والبيوت. وتفنن التجار في رفع الأسعار، وخاصة خلال ندرة الأقوات والحاجات وكانت عساكر السلاطين تعيث فساداً في أموال الناس وقرى الفلاحين.

هذا وصف موجز لحال الأمراء والوزراء بينما كان الأمر مختلفاً تماماً عند العلماء والأدباء وعامة الناس.

- غلاء الأسعار وانتشار المجاعات: كثرت الضرائب على المواطنين وتفننت الدولة في طرق الابتزاز حتى أن الحجاج كانوا يدفعون الكثير من الضرائب للبلد الذي يمرون فيه، كما كان يفعل الفاطميون مع حجاج المغرب في مصر، ومن عجز عن الأداء حبس، وربما فاته الوقوف بعرفة، حتى أسقط السلطان صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وغلت الأسعار بشكل مذهل، فقد روى ابن تغري بردي: أن رجلاً باع داراً بالقاهرة، كان اشتراها قبل ذلك بتسعمائة دينار، بعشرين رطل دقيق، وبيعت البيضة بدينار وذلك عام 428هـ. وعم الوباء والقحط بالعراق والشام كذلك، وسائر أرجاء العالم الإسلامي، فكان الناس يأكلون الميتة من الحيوانات وينبشون قبور الموتى من البشر، أما الأغنياء، فكانوا يشترون الرمانة والسفرجلة بدينار، كان ذلك ما بين 484-489هـ، ويصف ابن كثير الحالة العامة من غلاء الأسعار والمجاعات لعام 462 هـ، ومن غرائب ذلك قوله: بأنه قد نزل الوزير في مصر يوماً عن بغلته، فغفل عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصُلبوا، وما أصبحوا إلا وعظامهم بادية، قد أخذ الناس لحومهم فأكلوها وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميتة نهاراً، وإنما يدفنه ليلاً خفية، لئلا ينبش فيؤكل.

- اضطراب الأمن وإهمال المصالح العامة: أصبحت الصفة العامة للحياة الاجتماعية الشغب واضطراب حبل الأمن، ولطالما تمرد اللصوص حتى في قلب العاصمة بغداد، وفي غمرة هذه الفوضى انصرف المجتمع إلى الانشغال بقضاياه اليومية الصغيرة، فكانوا كأهل الجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وكانت الخلافة العبيدية تقدم الهبات لشيوخ القبائل، فإذا انقطعت الأموال، شقت القبائل عصا الطاعة، فتشن الغارات المدمرة على مختلف بلدان الشام ومدنها. يضاف إلى ذلك قطع الطرق على قوافل التجار، ونهب أصحابها وكان التركمان يشتركون في مثل هذه الغارات. وقد أهملت شؤون الزراعة والري، فكثرت الفيضانات، في دجلة والفرات، وأهلكت المرافق العامة، كما أهملت الطرق، وشؤون الأمن، ونهبت المحلات التجارية والبيوتات من قبل اللصوص، أضف إلى ذلك غارات الأعراب على الريف ونهب المحاصيل، ونتيجة لكل ذلك كانت المجاعات، رغم كثرة الخيرات وخصوبة الأراضي لو وجدت لها حافظاً وسلمت من أيدي العابثين.

عاشراً: ضعف الدولة البيزنطية:

تعرضت الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري إلى ضعف شديد من قبل السلاجقة، على أقاليمها الآسيوية، كما تعرضت في الوقت ذاته لخطر النورمان

وضغطهم على أقاليمها الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى ضعفها، وبالتالي تراجعها أمام هذين الضغطين، فتراجعت أمام السلاجقة بعد هزيمتها في معركة ملاذكرد معهم، كما تراجعت أمام الذين انتزعوا منها آخر معاقلهم في إيطاليا، ووجهوا أنظارهم نحو الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتي، وخاصة بعد أن انتزعوا صقلية من المسلمين، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها، وأخذ النورمان بعد ذلك يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق، فاتجه فريق من المغامرين منهم نحو الدولة البيزنطية، واشتبكوا مع البيزنطيين في مواقع كثيرة كما زحف روبرت النورماني على القسطنطينية نفسها لكنه اضطر إلى العودة إلى إيطاليا وترك قواته في بلاد البلقان لابنه بوهيموند الذي صار فيما بعد بطلاً من أبطال الحملة الصليبية الأولى. وكان النورمان قد أوقعوا في الإمبراطورية القسطنطينية خسائر كثيرة، حتى كادت تسقط بأيديهم قبل الغزو الصليبي، الأمر الذي فتح لهم طريق الشرق ويسّر زحف الصليبيين في هذه الديار.

حادي عشر: تمرس فرسان الإفرنج على الحرب والإمدادات الأوروبية المستمرة لهم:

ويجب ألا يغيب عن البال تمرس فرسان الإفرنج على الحرب في بلادهم، فالعصر عصر إقطاع وفروسية وكان الفارس ينشأ منذ الصغر على الفروسية، ويذكر المؤرخون المعاصرون أنه كانت لفرسان الإفرنج حملة مشهورة كان المسلمون يفسحون لهم الطريق أو يتظاهرون بالانهزام ليتفرق الفرسان وينفصلوا عن المشاة فيتمكن المسلمون من مهاجمتهم من الجوانب والخلف، واعتمد المسلمون في حربهم معهم على القوس والسهام كثيراً، وماذا تفعل السهام بهذه الكتل الحديدية المتحركة، فالفارس والحصان تغطيهما الدروع، ومع الزمن اكتسب المسلمون خبرة في حربهم فكان ذلك سبباً من أسباب انتصارهم عليهم، ويجب عند ذكر قوة الصليبيين أن لا ننسى الإمدادات الأوروبية لهم من سفن وحجاج وفرسان تأتي إليهم كل عام.

وبعد هذا، فقد لاحظنا من خلال ما مّر ذكره في أحوال الأمّة قبل الهزائم التاريخية الكبرى عند هجوم الصليبيين على العالم الإسلامي أن الفرقة حفرت بين دوله خنادق بعيدة القاع فأمسى بعضها يتربص بالبعض الآخر، ويتمنى له الدمار، فالدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي ومصر تغير على الدولة العباسية في العراق والشام والحجاز والدولة الأموية في الأندلس تتمنى البوار للفريقين، كي يؤول إليها الميراث الدسم. والفرقاء المشاكسون محصورون في أحقادهم لا يحسون الزحف الصليبي القادم من الغرب، ولا

الزحف التتاري القادم من الشرق، أيرضى الإسلام عن هذه الضغائن الخسيسة، أو ينتظر من أصحابها أن يخدموا عقائده وشرائعه، ولاحظنا بأن الخلفاء العباسيين في غاية الضعف والهوان، فقد هرب الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» بعدما سقطت بغداد في أيدي الفاطميين واعتقله أحد البدو، ولكن الملك السلجوقي «طغرك بك» استنقذه وردّه إلى عاصمة ملكه، فكافأه الخليفة على حسن صنيعه ولقبه ملك المشرق والمغرب، وأطلق يده في إدارة الدولة واضطر إلى تزويجه بابنته رغم أنفه، ومات الملك السلجوقي فورثه ابن ألب أرسلان ومات الخليفة العباسي وورثه عباسي آخر لقب نفسه «بالمقتدي» وكان شاباً في التاسعة عشرة من عمره، ولم يكن الشاب الشريف النسب قادراً على الإدارة فتولاها عنه سلجوقي آخر يدعى «ملكشاه» وهو ابن ألب أرسلان الذي توفي بعد حياة عامرة بالجهاد وقد استبد «ملكشاه» بالسلطة – بعد وفاة نظام الملك الوزير الصالح – وازدرى الخليفة، وبلغ من احتقاره له أن أمره بترك بغداد، وتضّرع الخليفة إليه أن يمهله شهراً فأبى بعد إلحاح إلا أن يمهله عشرة أيام وحسب، وشاء الله أن يموت «ملكشاه» قبل انقضاء الأجل المضروب وتكتمت زوجته نبأ موته، وذهبت إلى الخليفة المهدد طالبة أن يولي ابنه مكانه، وكان الولد لا يبلغ من العمر خمس سنين، ولكن الخليفة المقتدي ولاه ومنحه لقب ناصر الدين والدنيا: أرأيت هذا الهزل كله؟ إنها مساخر يحار المرء كيف تقع باسم الإسلام في عاصمة الإسلام!! ومتى يحدث هذا السخف في دفة الحكم؟ يحدث وملوك أوروبا وبابا الفاتيكان ورجال الكنيسة يصرخون بضرورة الثأر من المسلمين والإجهاز على دين محمد ﷺ.

وقد قدمت أولى الحملات الصليبية سنة 492هـ وقال عنها ابن الجوزي: وردت الأخبار بأنَّ الإفرنج ملكوا أنطاكية ثم جاؤوا معرة النعمان فحاصروها، وقتلوا ونهبوا وقيل: إنهم قتلوا ببيت المقدس سبعين ألف نفس وكانوا قد خرجوا في ألف ألف. ونقف عند عبارة ابن الجوزي، قيل: إنهم قتلوا سبعين ألفاً!! الأمر عنده، وعند سكان بغداد، وفي مركز الخلافة الإسلامية لا يعدو أن يكون إشاعة، إنَّ دار الخلافة آخر من يعلم، وأنى لها العلم ورجال الدولة في شغل بصيد المتع ونشدان الملذات والتقاتل على السلطة، فلما هجم الصليبيون على فلسطين كان التقطع في كيان الأمَّة الكبيرة قد بلغ مداه، ولولا أن مذبحة بيت المقدس طمَّت وعمّت واستحال حصر أنبائها لبقي النائمون نياماً ولم تلبث دولة الخلافة غير قليل حتى دفعت ثمن بلادتها حتى اجتاحها التتار، وجعلوها خبراً كان،

ولم تغن عنها الألقاب الخادعة من مسترشد بالله، ومقتف لأمر الله، ومستنجد بالله، وناصر لدين الله... إلخ. إن الظن لا يغني من الحق شيئاً فكيف بالكذب الصراح؟ والمسلمون إذا لم يصدقوا الله فلا يلومون إلا أنفسهم.

وقد يقال: أين جهاد العلماء في مقاومة هذه الفوضى؟ والجواب يقتضينا شيئاً من التفصيل، فإنَّ أصحاب العقول الكبيرة والهمم البعيدة حاربهم الاستبداد السياسي وفضَّ مجامعهم، فضاقت الدائرة التي يعملون فيها، وتضاءل الأثر الذي يُرتقب منهم، والمرء لا يسعه إلا الحزن لمصائر قادة الفكر الديني الذين قتلوا أو أهينوا وحيل بينهم وبين نفع الجماهير، مع غياب هؤلاء انفسح المجال لعارضي الأحاديث الذين يخبطون في السنة الشريفة خبط عشواء ولفقهاء الفروع الذين خدعوا العوام بسلعهم وأوهموهم أنهم يشرحون لباب الدين وشعب الإيمان الكبرى، وهم في الحقيقة يذكرون تفاصيل ثانوية يكثر فيها الأخذ والرد ولا تمس جوهر العقيدة أو الشريعة. إن الأحاديث الشريفة - بعد تمحيص سندها - تحتاج إلى الفقيه الذي يضعها موضعها في الإطار العام للإسلام الحنيف.

أما فقهاء الفروع فقد زادوا الطين بلة وزحموا أوقات الناس بصور من الأحكام تكتنفها التهاويل المزعجة، مع أنها لا تستحق هذا الجهد ولا هذا الوقت ثم أعلنوا حرباً غير شريفة على من يخالفهم في تلك الأحكام الجزئية.

روى ابن الجوزي عن الشيخ ابن عقيل، قال: رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز!! لا أقول: العوام، بل العلماء. كانت أيدي بعض الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يوسف - الحاكم السابق - فكانوا يتسلطون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع - التي يخالفونهم فيها - حتى لا يمكنوهم من الجهر بالقنوت، وهي مسألة اجتهادية - يعني لا حرج في الاختلاف فيها - فلما جاءت أيام النظام ومات ابن يوسف، وزالت شوكة الحنابلة استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة فاستعدوا عليهم وآذوا عامتهم بالسعايات، والفقهاء بالنبذ والاتهام بالتجسيم. فتدبرت أمر الفريقين فإذا هم لم تعمل فيهم آداب العلم، وهل هذه إلا أفعال العسكر؟ يصولون في دولتهم ويلزمون المساجد في بطالتهم.

وذكر ابن الجوزي عن أبي نصر القشيري - الواعظ بالنظامية - أنه كان يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، فرموه بالحجارة حتى وصلت إلى حاجب الباب، وتقاتل القوم مرة بسببه حتى وقع بينهم قتلى وجرحى وحرق ونهب إلى أن أرسل الخليفة من أخمد الفتنة.

يحدث هذا التمزق في الأمة الإسلامية والعالم الصليبي يتحرق شوقاً إلى ضرب الإسلام في عقر داره ومحو أعيانه وآثاره. وعلام الخلف والتظالم؟ على قضايا تركها كفعلها، أو فعلها كتركها لا يخدش إيمانا ولا يجرح المروءة، وهل في قنوت الفجر إن فعلناه أو تركناه ما يضير؟

إن العري عن الأخلاق، وإبطان الكره للآخرين، والعجب بالنفس هو الجريمة التي أرتكبها نفر من فقهاء الفروع، غرّتهم بضاعتهم فقدموها للناس مقرونة بالغلو، ولم يبالوا بما تتركه من فرقة، وفساد المتدينين من أهل الكتاب. صدر عن هذا المنبع. زوّقوا الشعارات وخرّبوا القلوب فقال الله فيهم: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:213]. وكانت عقبى الشقاق وعوج الصفوف واضطراب الحكم وحب الرياسة أن اقتحم الصليبيون والتتار حدود الأمّة المختلفة وفعلوا بها الأفاعيل.

ثاني عشر: إستراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال:

يهمنا هنا أن نشير إلى أن القوى الإفرنجية المحتلة والتي قدر وخُطط لها أن تعيش في بيئة غريبة كان لابد لها من اتباع مجموعة من الاستراتيجيات القابلة للتطوير تهدف في مجملها إلى الإبقاء على صبغة الاحتلال لأمد طويل ومن هذه الاستراتيجيات.

- المحافظة بقدر الإمكان وبمختلف الوسائل على أهم سبب من أسباب نجاحها ألا وهو العمل على إبقاء المحيط الإسلامي مشتتاً بقدر الإمكان، لأن ذلك يلغي إمكانية مواجهتها بقوة واحدة مقتدرة، وفي سبيل ذلك عملت بدءاً وباستمرار على احتلال مناطق ذات أهمية إستراتيجية تخدم غرض عزل مناطق القوة الإسلامية عن إمكانية التلاقي والتوحد، وكان سبيلها في ذلك احتلال الرها لتمنع أو تعيق الاتصال بين العراق وبلاد الشام، كما هو الحال لاحقاً بالسيطرة على مناطق جنوبي بلاد الشام - الكرك والشوبك - بهدف إعاقة أو تعطيل الاتصال ما بين مصر وبلاد الشام، هذا على صعيد الجغرافيا الطبيعية أما على صعيد الجغرافيا البشرية، فقد حرصت القوى الصليبية على إدامة الصراع العرقي والمذهبي بين أطراف المحيط الإسلامي، وقد اتبعت في ذلك وسائل ترغيب وترهيب، وسياسة تحالف مع قوى ضد أخرى، وقد ساعدها في ذلك إلى حدود معينة العداء ما بين طرفي الصراع الإسلامي الشيعة والسنة، كما ساعدها وجود أقلية مسيحية أمكن لها استغلال بعض قواها للتحالف معها، والتآمر على محيطها العربي.

- ركزت القوى الصليبية في احتلالها على مناطق تؤمن لها الاتصال بمركز انطلاقها في الغرب الأوروبي، ولذلك ركزت على احتلال سواحل بلاد الشام ضماناً لذلك، وابتعدت قدر الإمكان عن السيطرة على المناطق الداخلية خشية فقدانها لهذه الميزة، وحتى لا تكون محصورة بين قوى إسلامية على افتراض الخوف من توحيد هذه القوى لاحقاً بما يلحق بها ضرراً يؤدي إلى زوالها.

- عملت القوى الصليبية على إيجاد تحالفات مع قوى يمكن أن تمدها بالمساعدة في مراحل مختلفة، إما لعداء هذه القوى للمحيط الإسلامي، رغبة في تحقيق امتيازات اقتصادية، وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة تحالفها بدءاً مع بيزنطة ثم مع المدن الإيطالية أو بعضها، وأخيراً إمكانية التحالف مع القوى المغولية التي كانت فيها بعد أخطر قوة تهدد كيانات المنطقة الإسلامية.

- حرصت القوى الصليبية منذ بداية تأسيس كياناتها في الشرق الإسلامي على معالجة المشكلة السكانية التي عانت منها نقصاً مقابل الكثافة الإسلامية، وقد تعاملت القوى الصليبية مع هذه المشكلة على صُعد مختلفة وبوسائل متعددة كانت قابلة للتطوير بحسب مقتضيات الأحوال وتطوراتها، ومن ذلك أنها اتبعت سياسة التقتيل والتهجير للمسلمين من مناطق احتلالها، ثم عدلت ذلك في فترات لاحقة ضمن إطار إبقاء العناصر السكانية إذا كان ذلك يخدم مصالحها، كما عملت في نفس السياق على استقطاب مهاجرين إلى مناطق السيطرة الصليبية سواء أكان ذلك من الغرب الأوروبي أو من مناطق أرمينيا أو من نصارى المنطقة الإسلامية، كما أنها لجأت إلى عسكرة المجتمع الصليبي ليكون المجتمع بكافة فئاته وطبقاته قادراً على أداء الخدمة العسكرية لعلاج مشكلة النقص السكاني، ولا أدل على ذلك من أن الجماعات الدينية في المجتمع الصليبي كانت في مراحل من التواجد الصليبي أكثر الفئات تطرفاً في المجال العسكري مثل جماعات الداوية، والاسبتارية.

- ركزت القوى الصليبية على بناء تحصينات عسكرية بخبراتها الذاتية أو تقليداً للخبرات التي وجدتها في المنطقة الإسلامية، وروعي في هذه التحصينات أن تكون أشبه بمحطات إنذار مبكر تكون قادرة على رصد التحركات الإسلامية، ولذا روعي في اختيار مواقعها في أن تكون في مقابلة التجمعات الإسلامية الهامة أو على مناطق تهدد مصالح إسلامية كتلك التي أقيمت على مقربة من الطرق التجارية.

- اعتمدت القوى الصليبية وبناء على تجارب حروبها مع الطرف الإسلامي أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، هذه الحرب التي لا تحتاج إلى قوات كبيرة وبنفس القدر يُخطط لها أن تختار أهدافاً منتقاة ضمن معايير زمنية مما لا يكلفها قوة عسكرية كبيرة ولكنها بنفس الوقت تكون قادرة وفق هذا الأسلوب على إلحاق أذى كبير بالطرف الإسلامي.

- لجأت القوى الصليبية إلى سياسة عقد الهدن وتقديم بعض التنازلات لبعض الأطراف الإسلامية في سبيل التفرغ لقوى إسلامية أخرى وكانت هذه الإستراتيجية ناجحة في فترة التفكك الإسلامي بل وقادها ذلك إلى حد التدخل إلى جانب طرف ضد آخر إما بعرض صليبي على هذا الطرف أو باستدعاء وطلب من بعض الأطراف الإسلامية.

- عملت القوى الصليبية وبمختلف الوسائل على إبقاء روح الحروب الصليبية قوية في الغرب الأوروبي لضمان استمرار الحملات الصليبية واستمرار تقديم المساعدات للكيانات الصليبية في الشرق.

- ركزت القوى الصليبية مع مرور الزمن على تبني إستراتيجية مفادها، أن ضمان وجودها في بلاد الشام يقتضي السيطرة على مصر أو إخراجها من ساحة الصراع بأي شكل من الأشكال وعلى ذلك نجد أن الحملات الصليبية اللاحقة كان جزءاً منها موجهاً بدرجة رئيسة إلى مصر والمتتبع لتاريخ الحركة الصليبية يدرك أن الصليبين حققوا بعض النجاحات في هذا الصدد مستغلين حالات عداء كانت تثور بين حكام مصر وبعض مناطق بلاد الشام.

- لجأت بعض الأطراف الصليبية إلى القيام بحملات عسكرية تهدف إلى ضرب المعنويات الإسلامية وتهديد المسلمين في مقدساتهم كما حصل حين غامرت بعض هذه القوى مثل أمير الكرك والشوبك بالتعدي على الأماكن المقدسة في الحجاز، كما لجأت إلى ضرب بعض المقومات الاقتصادية والدينية مثل تهديد طرق التجارة وقوافل الحج وقامت بهذا الدور في مراحل معينة إمارة الكرك والشوبك الصليبية التي كانت تتبع لمملكة بيت المقدس الصليبية.

- لم تغفل الإمارات الصليبية والبابوية الداعمة لها وبعض رجال الدين والمفكرين أن يطوروا إستراتيجية جاءت نتيجة لفشل الاستراتيجيات العسكرية، هذه الإستراتيجية

التي تدعو إلى محاولة السيطرة بطرق بعيدة عن الأسلوب العسكري وإنما عن طريق التنصير والدعوة لزيادة عمليات التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين، ونحن هنا لا نناقش إمكانية نجاح وفشل هذه الإستراتيجية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى أن ذلك كان إحدى البدائل التي سعى الفرنجة لاستخدامها لتحقيق أغراضهم.

- صورت القوى الصليبية نفسها على أنها المدافعة عن المسيحية في بلاد الشرق بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية، حيث صُورت الحركة الصليبية على أنها جاءت لنجدة بيزنطة ضد الخطر الإسلامي السلجوقي، كما صورت زحفها على أراضي المنطقة الإسلامية بأنه يهدف إلى تحرير المسيحيين الشرقيين من نير السيطرة الإسلامية وضمنت من وراء ذلك مساعدات من الطوائف الأرمينية والسريانية في بدايات سيطرتها على المناطق الإسلامية، ولكن هذه الإستراتيجية المرحلية بدأت تتلاشى مع مرور الزمن.

إن هذه الاستراتيجيات وإن كانت عامة تخص جميع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع من استخدام استراتيجيات مرحلية وخاصة بكل إمارة حسب ظروفها مما يعني أن بعض هذه الإمارات ربما اتخذ وتبنى سياسة تخالف هذه المبادئ العامة ومن استعراض هذه الاستراتيجيات يبدو لنا أن القوة الإسلامية يقاس نجاحها في مقاومة هذا الخطر الصليبي بمدى تبنيها استراتيجيات واتباعها وسائل تحد من خطر هذه الاستراتيجيات الصليبية، إما عن طريق تبني استراتيجيات مضادة أو منع الطرف الصليبي من تطبيق استراتيجياته على أرض الواقع وهذا يمكن أن نلمحه من خلال تطورات ردود الفعل الإسلامية على التحدي الصليبي بدءاً من عهد عماد الدين ونور الدين زنكي وصولاً إلى مرحلة صلاح الدين الأيوبي واستكمالاً لما تم في عهد الدولة المملوكية، على أن لا يُفهم من ذلك أن هذا التطور في رد الفعل الإسلامي في العهود الزنكية والأيوبية والمملوكية كان دائماً في الإطار الإيجابي بل إن ما حصل أحياناً هو أن الطرف الإسلامي أو بعض قواه أو أفراده ساعد في نجاح الاستراتيجيات الصليبية وهذا ما سيأتي بيانه في دراساتنا بإذن الله تعالى عن الزنكيين والأيوبيين والمماليك.

الفصل الخامس

الحملة الصليبية الثانية والمقاومة العربية الإسلامية

عندما صار بلدوين ملكا على بيت المقدس سنة 1100م لم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفي لتثبيت أركان المملكة، إذ كانت معظم الموانئ البحرية الهامة ما تزال بأيدي المسلمين، كما أن الأراضي التي استولى عليها الصليبيون كانت لا تزال بحاجة إلى دعم. وقد أدرك فوشيه دي شارتر، المصدّر الأساسي لعمليات الاستيطان الصليبية الأولى هذه الحقيقة إذ قال «وفي بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة ويحكم شعبا صغيرا» كما كرر القول نفسه في مكان آخر من كتابه قائلا «ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة في السكان، ولم يكن هناك من الناس ما يكفي للدفاع عنها ضد المسلمين إذا فكروا في الهجوم علينا».

بيد أن الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة «لمساعدة المؤمنين في جيش الرب» كانت في ذلك الحين تحقق نجاحا ملحوظا. وكان أربان الثاني يواصل نشاطه منذ رحيل الجيوش الصليبية من غرب أوربا عام 1096م حتى وافته المنية في 29 يوليو 1099م قبل أن يعرف خبر استيلاء الحملة الصليبية على بيت المقدس. وكان خليفته راهبا شابا اعتلى العرش البابوي في 14 أغسطس 1099م تحت اسم البابا باسكال الثاني. وقد أدار هذا البابا عملية دعائية نشطة لمساعدة الصليبيين الذين نجحوا في إقامة مملكة وإمارتين في بلاد المسلمين.

وفي سنة 1101م كانت حملة جديدة قد تجمعت في الغرب الأوربي لمساعدة صليبيي الشرق. ومن لمبارديا قاد آنسلم أسقف ميلانو جموعا من اللمبارديين تشبه جيش بطرس الناسك وكانوا يتحرقون شوقا للرحيل، فغادروا ميلانو في 13 سبتمبر من عام 1101م،

وسلكوا الطريق نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا في إثارة المتاعب الصليبية المعتادة، ولم يجد الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس بدا من نقلهم إلى آسيا الصغرى. وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية، ثم الجيوش الفرنسية تحت إمرة ستيفن كونت بلوا الذي هرب أثناء أحداث الحملة الأولى من أنطاكية.

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند أسيرا لدى أمير سيواس الملك الغازي بن الدانشمند، وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره، ولكن السلاجقة، الذين علمتهم أحداث الحملة الأولى درسا قاسيا، كانوا يعون الدرس جيدا هذه المرة فاتحدت جهودهم في مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة، وأطبقت جيوش قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازي أمير سيواس على الصليبيين الذين تبدد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا إشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الإمبراطور البيزنطي، وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس. وهذا ما سوف نتابعه بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة.

الحملة الصليبية الثانية

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مصر وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة، ومن بين الأسباب التي جعلت حركة المقاومة تنبعث من منطقة الجزيرة ما يلي:

– إن منطقة الجزيرة هي أول أقطار المسلمين في المشرق الإسلامي التي اكتوت بنار الخطر الصليبي عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الإمارات الصليبية سنة 490هـ/ 1097م، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين في بلادهم، مما بعث المسلمين على التفكير الجدي في المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين.

– إن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الإسلام بسبب مجاورتها لأطراف الدولة البيزنطية، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين أيام الأمويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم، وبعد الغزو الصليبي

أصبحت منطقة الجزيرة تواجه إمارة الرها الصليبية التي شكلت أكبر خطر على الخلافة العباسية في بغداد.

- شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي دخول الأتراك السلاجقة إليها مع ما اشتهروا به من حبهم لتربية الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام بسبب قرب عهدهم به، وانتمائهم للمذهب السني. ولقد أمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة التحمس إلى الجهاد في سبيل الله، بعكس القوى الإسلامية الأخرى في بلاد الشرق الإسلامي التي خبث جذوة الحماس الديني في نفوسها وخمدت روح القتال لديها.

- الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التي حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه، وخصوبة الأرض، وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعي اللازمة للخيل والماشية، الأمر الذي مكنها من مد المجاهدين بمصدر لا ينفذ من المؤن والعتاد.

- هذا فضلاً عن الحصانة الطبيعية التي تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التي انطلقت منها حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مثل الموصل وآمد وماردين وحصن كيفا وغيرها، إذ أن تلك المدن امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمراً بالغ الصعوبة وبالتالي أصبحت في مأمن من الهجمات الصليبية المضادة.

ولا يستبعد أن يكون قد اختمر في نفوس زعماء حركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي ما يمثله وجود إمارة الرها الصليبية في منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزها بالإضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوباً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد، ومن هنا فلاغرو أن تبعث فكرة الجهاد الإسلامي منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من أيدي الصليبيين.

وقد اتخذت فكرة المقاومة الإسلامية مظهرها العملي منذ سنة 491هـ/ 1097م حيث قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين، ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبين جدوا فيها لفتح أنطاكية، وقد تم لهم ذلك، ولو أن كربوقا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لأسلمه ياغي سيان مدينة أنطاكية، وتغيرت ظروف المحاصرين، ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين

سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبين، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان تاشي صحاب سنجار، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم في القدوة والكفاية على حد قول ابن الأثير.

وانضم الأمراء جميعاً تحت قيادة كربوقا وسار بهم صوب أنطاكية في سنة 491هـ/ 1097م التي كانت قلعتها لا تزال في أيدي المسلمين، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبين وساءت حالتهم، إذ وجدوا أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج، فتعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر، ودفع ذلك الصليبيين إلى إرسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من أنطاكية، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم: لا تخرجون إلا بالسيف، وهذا ما دفع أحد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس «بوشلميوا» إلى اختلاق قصة الحربة المقدسة التي أدت إلى رفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين وهم في غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم، وهكذا فشل كربوقا في قيادة التحالف الإسلامي الذي أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين سنة 491هـ/ 1097م.

وقد فصل المؤرخون في أسباب فشل كربوقا في منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية، ومن هذه الأسباب:

- ما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع في حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية أو من إخوانهم في بلاد الشام وغيرها.

- عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التي تكونت من العرب والترك وغيرهم، ثم ما قام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك.

- عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوقا، ولعل أبرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا في السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون

جماعات متفرقة من أنطاكية. وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على ما يبدو من أنه إذا فعل ذلك فسوف لا يقضي إلا على مقدمة الصليبيين.

- سوء معاملة كربوقا لمن معه من الأمراء، كانت سبباً من أسباب هزيمته وفشله، فقد شرع بنوع من الاستعلاء عليهم، ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال، مما أدى إلى استيائهم من تصرفاته.

- ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة، بالإضافة إلى ما قام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق وأخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ما كان بيد الإمبراطور البيزنطي في شمال الشام.

غير أن ذلك كله لا يمنع من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق في بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين في حالة اتحادهم، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الإسلامي ليكملوا المسيرة من بعده، وتتمثل هذه الحقيقة إذا علمنا أن عماد الدين زنكي قد عاش في كنف كربوقا بعد موت والده.

على أن كربوقا صاحب الموصل وافته المنية عند مدينة خوى بأذربيجان سنة 495هـ/ 1102م أثناء النزاع بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه، فخلت الموصل من واحد من الزعماء، الذين لم يشغلهم النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

ولقد جعلت وفاة أتابك الموصل كربوقا الموقف مائعاً، وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية. ذلك أن كربوقا أوصى بالولاية من بعده إلى سنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته، لكن موسى التركماني نائبه في حصن كيفا نازعه على ذلك بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركيارق، واستغل شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصَّن بها، وهناك حاصره جكرمش مدة طويلة واضطر موسى إلى

الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته، حيث قبل سقمان هذا العرض وقدم له مساعدة عسكرية فاضطر جكرمش إلى فك الحصار عن الموصل، ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض غلمانه في الطريق فتشتت جيشه، وعاد سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه بينما تقدم جكرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها.

تولى جكرمش إمارة الموصل عام 495هـ-500هـ/ 1101-1106م وعقد تحالفا مع سقمان بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة، إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة على مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والجزيرة والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سوية لإيقاف تقدم الصليبيين.

وهكذا أرسل كل من جكرمش وسقمان إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلافي أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس العين، حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد لمنازلة الرها قبل أن يتعرضا للهجوم، وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهيموند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحوّلا وجهة الهجوم بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران، وبعد أن أبقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أمير تل باشر وبوهيموند أمير أنطاكية، وابن أخته تانكرد، وبطريرك إنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من المشاة، والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبيين شمالي الشام، عدا حاميات الحصون، وعندما احتشد هذا الجيش أمام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو «الرها». وكاد الصليبيون أن يستولوا على

حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين لي بور، وبوهيموند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم، وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسخين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم، وأبادوا معظم قواتهم، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات، وكان بوهيموند أمير أنطاكية وابن أخته تانكرد، قد كمنا خلف أحد المرتفعات لينقضّا على المسلين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما في أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسللا هاربين، فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابهما عدداً كبيراً، بينما تمكنا هما من الفرار إلى الرها.

أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما، وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلا أن الأوحال أعاقت تحركهم السريع، فلحق بهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم، حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان.

وعندما رأى أصحاب جكرمش أن قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم: أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسنوا له اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف الأمير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائبا عن مقره، شق عليه الأمر، وتهيأ أصحابه للقتال، إلا أنه ما لبث أن ردّهم وقال لهم: لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين، ومن ثم تقدم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم، وألبس أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابهم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر.

قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها، ليحمي مؤخرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها وإذ أدى تمهل الصليبيين من قبل إلى الإبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين إذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي

لإصلاح وسائل الدفاع وبذا استطاع أن يردَّ أول هجوم قام به جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن والمحليون من الولاء والبسالة، غير أن ما أحس به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد ببوهيموند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلا إنه رأى أنه لا بد من جعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبَّد اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر، وتحت جنح الظلام انقض رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهيموند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة فانتقم الإفرنج من هزيمة حران، وظلوا محتفظين بالرها.

وكان من بين الأسرى الذي وقعوا في يدي تانكرد أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال (15 ألف بيزنت) أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه، وبلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض، فأسرع الملك بالكتابة إلى بوهيموند بألا يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاق سراح بلدوين. غير أن بوهيموند وتانكرد احتاجا إلى المال، كما أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية - كمسؤول عن الرها - ليعود إلى أنطاكية ولذا ردا على رسالة الملك أنه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهرا لهفتهما الشديدة على قبول العرض، في حين أنهما إذا ترددا في القبول ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه في تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي، وبذا بقي بلدوين في الأسر.

لقد كان لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي، لعل أهمها:

- أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

- تلاشت أحلام بوهيموند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة إنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

- قررت مصير إقليم الرها، ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمرا من

الحكم اللاتيني بفعل تعسف هؤلاء مع الكنيسة الأرمينية، واضطهاد رجالها، مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك وأضحى احتمال سقوطها في أيدي المسلمين وشيكاً.

- أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق، والتي تم ضمها إلى إمارة أنطاكية.

- أضحى تانكرد، بعد أسر بلدوين، وصيا على إمارة الرها، كما أصبح بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

- أدت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك. وأوضح ابن القلانسي خطورة النتائج بقوله: وكان نصراً حسناً للمسلمين، لم يتهيأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلت عدتهم، وفلت شوكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهفت عزائمهم في نصرة الدين، ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم.

- حطمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون.

- استغل الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس فرصة ضعف مركز بوهيموند إثر تعّرضه للانتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن التزامه بالمعاهدات التي كان عقدها مع الإمبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الضجلي - عدو بوهيموند الدود - الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذي أنطاكية من الجنوب في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهيموند ومساعدته في هذه المحنة.

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه للعالم الإسلامي، أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين.

ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان، وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام 499هـ-1106م أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بأمراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين وألبي تمرتاش صاحب سنجار والأصبهبذ صاوا أحد كبار أمراء فارس إلا أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين، أعاق تنفيذ الخطة المقترحة؛ إذ طلب منهم أن يبدأوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزات الموصل وإمكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين، فوافقه زملاؤه على ذلك، ومضوا سوية لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. إلا نواب جكرمش هناك نجحوا - بتوجيه من سيدهم في الموصل - في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم رضوان فرصة إقامة وليمة أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبيله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان أرغمه على الانسحاب والعودة إلى حلب وبذا تمزق هذا التحالف قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين.

إلا أن ذلك كله لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ إنه ما إن تمكن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده حتى بادر بشن الهجوم على الرها، لكنه عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به عساكر ريتشارد (سالرنو) الذي كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور. ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى تحرك قلج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه ليسلموا له البلد، فتقدم قلج أرسلان إلى هناك ودخل حران، وفرح به الناس لأجل جهاد الإفرنج، وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألم به تاركاً في حران جماعة من أصحابه لحمايتها.

ويبدو أن شخصية قلج أرسلان بدأت تطغى، بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة، فضلاً عن أن المشاكل التي

جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذي أدّى إلى أن يستقطب قلج أرسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلّموه البلد، مما يفسر لنا كذلك ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج أرسلان من قبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش.

قلج أرسلان وجهاده في آسيا الصغرى

لم يكد الغرب الأوروبي يعلم بنبأ النجاح الذي حققته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تحمَّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلا عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران، ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسَّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.
- استئناف عملية التوسع.
- حراسة ما حققوه من مكاسب.
- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعثت منه صحوة صليبية أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام 494هـ/ 1101م بقيادة: أنسلم بوي رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بينادرات، جيوبرت كونت بارما، وهيوكونت مونتيبلو، ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها، لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، تألفت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب مما حمل الإمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في جمادي الأولى/ آذار 1101م، واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى، وفعلا لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوا، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا وهيوكونت بروي، وبلدوين كونت جرانبريه، وهيوبييرفون

أسقف سواسون بالإضافة إلى سرية ألمانية. وعبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل، وعين الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنين صديقه ريموند تولوز قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس.

معركة مرسيفان

تحرك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دوريليوم بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى، لذلك أوصى الإمبراطور ستيفن بلو بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة الذي يجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمبارديين رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد فك أسر بوهيموند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصّروا بأن تتوجه الحملة إلى كمبادوكية. ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كانت تخليص بوهيموند من الأسر، وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء لقلج أرسلان، فاستولوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار وحتى يعرقل التقدم الصليبي، واتبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين، وفي الوقت نفسه أخذت القوى التركية تتجمَّع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل عدداً من الجنود.

وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة، لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك. واقترح ريموند حتى يجنب الجيش الدمار المحقق أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. على أن الرحلة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاذ المؤن وتدمير الأتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار، وتعرض الصليبيون لهجوم تركي مفاجىء فتفرقوا لا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لمّ شعثهم، ولما وصلوا إلى أطراف قسطموني، كان على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع

التركية إلى الساحل، على أن اللمباردين، أصروا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل باقي الأطراف على رأيهم مرغمين.

واجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمدين ووصل أفراده إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية. وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أصبحت منهكة تقدموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفروا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم، ولجأ ريموند إلى تل صغير احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك، ثم تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً، ولم يلبث ريموند أن وصل إلى بافرا، الميناء البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلته من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية.

ويشير المؤرخ اللاتيني ألبرت أوف أكس إلى أن ريموند تلقى رشوة من الأتراك كي يقود الجيش إلى قسطموني، وهذا مستبعد، لأن من يتتبع سير الحملة وما رافقها من أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللمباردين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمدين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المأزق التي أوقع نفسه فيها ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطموني إلا نتيجة لما تعرض له الجيش من متاعب، وأما فراره من أرض المعركة، فناتج عن إدراكه لعدم جدوى متابعة القتال بعد أن ولى اللمبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة.

معركة هرقلة الأولى

محت الكارثة التي حلت بالصليبيين في مرسيفان الشهرة التي أكتسبها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألفا من الفرسان والمشاة، وحرص وليم على اللحاق باللمباردين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يسع الكونت إلا أن توجه

نحو قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت بالفشل فتركها.

كان السلاجقة وحلفاءهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إبادة الجموع اللمباردية، وعلم قلج أرسلان وكمشتكين أحمد دانشمند بقدوم هذا العدو الجديد، وإذا الجموع لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقلة وسارت عساكر نيفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقلة، وكان التعب قد استبد بهم، هاجمهم الأتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناء الكونت وستة من أتباعه.

معركة هرقلة الثانية

في الوقت الذي كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، وبلغ عدد أفرادها ستين ألف مقاتل، خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه بوهيموند من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طبقوها من قبل، بإحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار، ولما وصل أفراد هذه المجموعة إلى قونية وجدوا المدينة خاوية وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جردت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين، ولم يمكث الصليبيون في قونية وغادروها إلى هرقلة عن طريق يبلغ طوله خمسة وخمسين ميلا، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجوع والعطش، وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر، ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة، ولقد تربَّص المسلمون في هذا الوقت بالصليبيين، وكمنوا لهم في الغابات المحيطة بهرقلة، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة، وعندما اضطرب نظامهم، انقضَّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع اللذين توجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية.

نتائج معارك قلج أرسلان

انتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث، نهاية محزنة أثرت نتائجها في سير الحركة الصليبية من جهة، وفي الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة من جهة أخرى، وأهم هذه النتائج:

- ثأر السلاجقة لما حلَّ بهم في دوريليوم، فلن يجري بعدئذ طردهم من الأناضول، كما رفعت الانتصارات المتتالية روحهم المعنوية.

- ظل الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء، على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى في اقتحامه، فخشي المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية إلى أيسوس، ما لم يكونوا في جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلا بحراً مع ما يتطلبه ذلك من مصاريف إضافية لم يتمكن من دفعها إلا القليل، وظل هذا الطريق البري مغلقاً في وجه الصليبيين عدة أعوام.

- ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين فيما حلّ بهم من مصائب وحملوهم مسؤولية ما حدث، وترددت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفذ تعاليم الإمبراطور عندما أخرج الجيش الذي يقوده عن الطريق المرسوم ليلقى أفراده حتفهم في كمين سبق إعداده. والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمَّل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدُّوهم مسؤولين عما حلَّ بهم من كوارث.

- لم يلبث قلج أرسلان أن أزداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات وشاركه سائر أتراك الأناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، ثم أقام في عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط القسطنطينية ببلاد الشام.

- استأنف الدانشمنديون فتوحهم في وادي الفرات دون عائق وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها في 23 ذي الحجة 495هـ/ 18 أيلول 1102م.

- أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام، الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملكية وفدية بوهيموند، فتفككت بذلك جبهة الأتراك في المنطقة.

أثر وفاة قلج أرسلان

راسل زنكي بن جكرمش قلج أرسلان الأول يستنجد به وكان آنذاك في ملطية، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها، واستغل السلطان قلج السلجوقي هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي.

ولما علم جاولي بمسيره، انسحب من المدينة، لاسيما وقد توفي جكرمش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فأنه أدرك أن لقلج أرسلان الأول من القوة ما لا يستطيع مجابهته في معركة سافرة، لذلك قرر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه، لكن قلج أرسلان الأول تمكن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية.

وأما جاولي، فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازي الأرتقي ورضوان صاحب حلب، واتفق في نهايتها على طرد قلج أرسلان الأول في الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية وانتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه في نهر الخابور في عام 500هـ/ 1107م.

ويعتبر قلج أرسلان الأول من الشخصيات الفذة التي أنجبتها سلاجقة الروم، وتأثر الشرق الأدنى بمختلف فئاته بموته:-

- فسلاجقة الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوي يحل محل قلج أرسلان تعرَّضوا لضغط متزايد من جانب الإمبراطورية البيزنطية التي جددت تدخلها في شؤونهم الداخلية، واستطاع أليكسيوس كومنين أن يعيد، باطمئنان، سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى وعلى امتداد ساحلها الجنوبي.

- أطالت وفاة قلج أرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء للسيطرة على العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحاقت بهم، كخطر الحشيشة والخطر الصليبي، وتشجّع قلج أرسلان على التدخل في شؤون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق وكانت باستطاعته تحقيق حلمه هذا، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية مواتية غير أن وفاته أنقذت السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمر سلطنتهم.

- تعد وفاة قلج أرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدخل في شؤون الفروع السلجوقية الأخرى وبخاصة في بلاد

الشام وآسيا الصغرى، والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة أسمياً للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلا في عام 552/ 1157م.

- حرم موت قلج أرسلان سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم، ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلص سريعاً، لأن ابني تتش، رضوان ودقاق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي، ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي، وظهرت من تلك البيوت، وحدات سياسة أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك.

- أزالت وفاة قلج أرسلان خطراً شديداً عن صدر الإمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهيموند يستعد لمهاجمة بلاد البلقان في عام 501هـ/ 1107م انطلاقاً من حصن دورازو المنيع وقد ضحى أليكسيوس كومنين بحدود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفرغ، وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهيموند، الذي انهزم أمامه عام 502هـ/ 1108م.

- جعلت وفات قلج أرسلان الموقف في آسيا الصغرى مائعاً إذا أن أكبر أولاده الأربعة وهو ملكشاه أضحى أسيراً في يد السلطان محمَّد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أرسلان، أصغر أولاد قلج أرسلان، على بلاد الروم، أما الأخوان الآخران، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قوينة.

- لم يكن انهيار الحكم المركزي لسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا في شنّ الغارات على أراضي الإمبراطورية وعلى بعض الحصون في المناطق الحدودية، لأن الإمبراطور البيزنطي لم يشأ أن يغامر بالقيام إلى قليقية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفرغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية.

بعد وفاة قلج أرسلان وغرقه في نهر الخابور عام 500هـ/ 1107م أضحى بوسع جاولي أن يدخل الموصل، غير أن ما أقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله

مكروهاً عند الناس كما أنه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه في الموصل، إذ أعلن استقلاله وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام 501هـ/ شهر حزيران عام 1108م إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانة في حكمها، وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدَّداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة، فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة. ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في شهر صفر عام 502هـ/ شهر أيلول عام 1108م.

شرف الدولة مودود بن التونتكين
(501هـ-507هـ/ 1108م-1113م)

يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها: الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته – بناء على ذلك كله – على تزعم حركة الجهاد وإيجاد نوع من التنسيق، ربما لأول مرّة، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي لن نجده متبلوراً وناضجاً إلا في عهد الأراتقة وزنكي فيما بعد..وأخيراً نجاحه في وضع الصليبيين في موضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم...ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الباطنية الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله والكلمات المخلصة التي فاه بها قبيل استشهاده... جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الأولين.

حملة مودود الأولى ضد الرها

في عام 503هـ-1109م بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل وبعد أن تلقى أمراً من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين بدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامي ضم الأمير إيلغازي الأرتقي أمير ماردين بعساكره من التركمان،

وسقمان القطبي أمير أرمينية المعروف باسم شاه الأرمن وعدد كبير من المتطوعين، وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تعدُّ هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول هامة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم.

وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورج رسولا إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ «تانكرد» صاحب أنطاكية، إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها، وكان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانظم إليه قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل، فوصل إلى الرها في آخر شهر ذي الحجة/ أواخر شهر تموز، وظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمكن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حران وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق، وقرر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكرد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها، وكان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي، بسبب تضافر عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة، ومن أهم هذه الدوافع:

- تلقي الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة مودود، ففكّ الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حران، كما تلقى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرر التخلي عن الحملة.

- راجت شائعات في الأوساط الصليبية بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة.

- وبناء على نصيحة الملك، بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية في حصني الرها وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة،

مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها، أما مودود فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل.

حملة مودود الثانية ضد الرها

جاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعدما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنيَ بها مسلمو الشام والتي سقط على أثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء. وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها، خلفاء وسلاطين، بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي.

وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر والإسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى واليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الإسلامية لابنه الملك مسعود، واجتمع تحت قيادة مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة، سقمان القبطي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلا عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي ابني بُرسُق أمير همذان.

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في شهر محرم عام 505هـ/ تموز عام 1111م بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات، ثم اتجه أفرادها لحصار الرها. ولقد أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم يتغير الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر، فتحولت قوات المسلمين إليها كي يجّروا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكنوا منهم إلا أن هذا كان خطأ من قادة المسلمين، لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات إلى الرها، فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها. وما لبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء. ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته

للقدوم إلى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية، فغادر مودود باشر متجهاً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم. ولم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن. ولم يسع مودود إلا أن يتحرّك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال، وفي شيزر اجتمع به طغتكين الذي كان قد توجه إلى بغداد طالبا المساعدة لاستعادة طرابلس، إلا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سراً. وأما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به فانضم إليه عدد كبير منهم، كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات أنطاكية. وأما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وأنطاكية وطرابلس، ورفض مودود أن يجرّه أعداؤه إلى معركة حاسمة. إلا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلا بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية. وأما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سقمان القطبي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه، وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سقمان، ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفل عائداً إليها.

كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان تحقيق أي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحداث مدى تفكك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين. كانت سياسة رضوان في إمارة حلب شراً

كلها، فقد هادن الإسماعيلية والصليبيين، وحالفهم ضد خصومهم من المسلمين، إذ انضم إلى صاحب أنطاكية الصليبي ضد صاحب الموصل جاولي عام 501هـ وعندما هاجم الأمير مودود صاحب الموصل أنطاكية وتل باشر، رفض رضوان مساعدته وأغلق مدينة حلب في وجهه بل تحالف مع تنكرد الصليبي صاحب أنطاكية ضد المجاهدين، وبقيت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة في وجه الجيش الإسلامي.

إلا أن الصليبيين لم يحفظوا له هذه المواقف فحاصروا حلب عام 504هـ واشتد الحصار، حتى أكل الناس الميتات وورق الشجر، وفرضوا على رضوان مبلغاً من المال كان بجمله إليهم سنوياً، وحصل الإسماعيلية الباطنية الرافضية على مكانة مرموقة في حلب، بفضل تشيع رضوان لآرائهم، ومساعدته لهم، ومن ثم صار يستخدمهم في اغتيال خصومه السياسيين، وكان يميل إلى الفاطميين، فخطب للمستعلي في بلاده ولوزيره الأفضل، ودامت الخطبة لهما عامين في حلب، وكان ذميم السيرة، قرب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة في حلب فكثروا، وهلك سنة 507هـ. وصفه المؤرخ أبو المحاسن فقال: كان شحيحاً بخيلاً قبيح السيرة، وليس في قلبه رحمة للرعية، وكانت الإفرنج تغير وتسبي ولا يخرج إليهم، خلفه ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس، فنكب الإسماعيلية وقتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وبقية زعماء تلك الطائفة.

حملة مودود الثالثة ضد الرها

ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد، إلا أنه قام في شهر ذي القعدة 505هـ/ أيار 1112م، بمهاجمة الرها فجأة وحاصرها، لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية ويهاجم سروج في شهر محرم عام 506هـ/ تموز عام 1112م بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسّم قواته وأضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن لحق به جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بورج في الدفاع عنها، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن

وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين.

حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس

معركة الصبرة

ظل مودود متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في مطلع عام 507هـ/ شهر حزيران عام 1113م على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناءً على استنجاد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبيي بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، وانضم تميرك صاحب سنجار، وأياز بن إيلغازي، وأباز بن إيلغازي أمير ماردين إلى هذا التحالف، وكان هدف المسلمين منطقة فلسطين، فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن، وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة، ومضى المسلمون في زحفهم، بعد المعركة، حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا فقرروا الانسحاب إلى دمشق. وكانت تلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس.

وتكمن أهمية الأتابك مودود في أنه أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين وبلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكرياً، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة.

مقتل مودود

سيَّر مودود وحليفه رسولا إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يبشرانه بما تمّ على أيديهما من فتح وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعدداً من أسرى الإفرنج ورؤوسهم إلا أن بُعد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود

جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد، ودخل جامع دمشق يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلي فيه وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه رحمه الله، وتأثر المسلمون لمصرع بطل من أبطال الجهاد، اشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا عليه حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وبعد الخطط التي كان يعتزم تنفيذها هناك؛ وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطرابا لم تشهد له مثيلاً منذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أثخنته، لكنهم ما إن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا ثانية إلى ما كانوا عليه، وكتب ملك الإفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه: إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها!!. غير أن ملك الإفرنج وغيره من أمراء الصليبيين تجاهلوا أو تعمدوا التجاهل آنذاك، أن ما هو أكثر عوناً لهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت عميدها في بيت معبودها. فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد، إنما هي تلك الفرقة الباطنية التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير كان قد أنشأة في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح، وقد دعمته الدولة الفاطمية الباطنية، ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين.

وبعد استشهاد مودود انتشرت شائعات تقول إن طغتكين هو الذي حّرض على قتل مودود لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق، ولما ساوره من القلق على بقاء القائد العام لجند السلطان في دمشق، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله، ولم يحّد من هذه الشائعات قيام طغتكين بقتل الجاني تبرئة لنفسه، إذ اعتبره الرأي العام هو الجاني، غير أنهم التمسوا له العذر بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق، إلا أن كلا من ابن القلانسي، وسبط ابن الجوزي – اللذين يميلان بعض الميل لأتابكة دمشق – ينفيان هذه التهمة عن طغتكين أشد النفي، فيقول أولهما: فقلق أتابك طغتكين لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه، وكذلك سائر الأجناد والرعية، ويقول ثانيهما: وقلق طغتكين لوفاة

مودود على هذا الشكل وحزن حزناً شديداً وكذا سائر الناس، وذكر بعضهم أن طغتكين خاف منه فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزناً لم يحزنه على أحد، وشقَّ ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصَّدق عنه بمال جزيل، وقد رجح الدكتور عماد الدين خليل رواية المذكورين لأنهما من سكان الشام، وبسبب قربهما الزمني أو المكاني من الأحداث المذكورة، وإطلاعهما الشامل على دقائق العصر الذي يتكلمان عنه، وقال عن روايات ابن الأثير والذين نقلوا عنه والمؤرخين الغربيين إنها لا تعدو أن تكون استنتاجاً وتخميناً، لاسيما وأن هذه ليست أول، ولا آخر مرة يتصًدى فيها الباطنية لاغتيال زعماء الجهاد الإسلامي؛ فضلاً عن أن انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على إمارة دمشق قبل غيرها، بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من إرباك وبما يقدمه لأتابكية دمشق وأراضيها من حماية، ودافع الدكتور السيد عبد العزيز سالم وابنته الدكتورة سحر عبد العزيز دفاعاً مستميتاً عن براءة طغتكين في كتابهما تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي.

ولقد كان ظهير الدين طغتكين من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي الذي زوجه بأم ولده دقاق، وبعد مقتل تتش، تولى ابنه دقاق السلجوقي، وصار طغتكين مقدم عسكره، ثم تملك بعد دقاق، وكان شهماً شجاعاً مهيباً مجاهداً في الإفرنج، مؤثراً للعدل. ولو لا أن الله أقام طغتكين للإسلام بإزاء الإفرنج، لكانوا غلبوا على دمشق، فقد هزمهم غير مرة، وأنجده عسكر الموصل مع مودود، ومع البرسقي، وكان قد سار إلى بغداد في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه، فبالغ في احترامه، ولقد واجه طغتكين الصليبيين للدفاع عن إمارته أكثر من مرة، ونازلهم في أكثر من موقع، فقد استرد بصرى وصرخد/ 498هـ وحاصر حصن (علعال) قرب طبرية وهدمه وقتل حاميته / 499هـ، وخرج إلى طبرية وأسر صاحبها، وقتله في دمشق/ 500هـ، وانضم عام 506هـ إلى قوات شرف الدولة مودود صاحب الموصل، فحققا نصراً في طبرية عام 507، إلا أن مقتل مودود في دمشق، أثار السلطان محمد بن ملكشاه عليه، ولذلك بدأ طغتكين يتحالف مع الصليبيين للوقوف في وجه القوات التي أرسلها السلطان محمد إليه سنة 508هـ، بقيادة برسق صاحب همذان، ثم عقد هدنة مع ملك بيت المقدس ـ بلدوين الأول ـ بسبب نزاعه مع جيرانه المسلمين في وقت كان ملك بيت المقدس لا يرجو أكثر من مسالمة أهالي دمشق، واتفق الطرفان على عقد هدنة مدتها بضع سنوات على أن يقتسم الطرفان أرض السواد،

بحيث يكون ثلث دخلها للإفرنج، والثلث الثاني لسلاجقة الشام، والثلث الأخير للفلاحين المسلمين. ويبدو أن تمسك صاحب دمشق بإمارته، وخوفه من ضياعها، كان هاجساً قوياً دفعه إلى هذه المواقف المتناقضة، شأنه شأن غيره من أمراء الأقاليم آنذاك. وقد وصف الإمام الذهبي سياسته بقوله: وكان طغتكين سيفاً مسلولاً على الإفرنج، ولكن له خرمة، من ذلك إيواؤه لبهرام داعي الإسماعيلية في دمشق، بعد أن كان متخفياً، فأكرمه وبالغ في إكرامه اتقاءً لشره، حتى اتبعه الغوغاء والسفهاء، ثم أعطاه قلعة بانياس سنة 520هـ، فعظم الخطب وتوجع أهل الخير، وتستروا من سبّهم لا يستطيعون من السلطان، إلى أن كشف ابنه تاج الملوك بوري خياناتهم وخيانة الوزير المزدقاني المتواطئ معهم، فقتل الوزير ووضع جنده السيف في الملاحدة الإسماعيلية، وقتلوا نحواً من ستة آلاف نفس، وذلك في عام 523هـ، إلا أن الرجل له حسنات منها: مد العون لزعماء حركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في الجزيرة وشمال الشام، وقام بمساعدة الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين في بلاد الشام لوقف الزحف الصليبي على كثير من بلاد الشام، وواجه الصليبيين وجها لوجه للدفاع عن أملاكه مستغلاً في ذلك قواته أحيانا. وعلى أية حال فإن ظهير الدين طغتكين لم يعمر طويلا فقد توفي سنة 522هـ/ 1128م بعد أن بذل كل ما أمكنه بذله في صد الصليبيين عن دمشق وغيرها من بلاد الشام، مع ما كان عليه من حسن السيرة وإثارة العدل في الرعية، بعد أن استخلف على دمشق ابنه تاج الملوك بوري. وبالجملة فسيرة الرجل جيدة، فقد نجح في المحافظة على دمشق من السقوط بيد الصليبيين، بالإضافة على تكوين جبهة إسلامية متحدة تتكون من الموصل وحلب ودمشق، وذلك بما أبداه من تعاون صادق مع أولئك الرجال للوقوف صفاً واحداً في وجه الصليبيين، مما ساعد على بلورة فكر الجهاد الإسلامي وتوحيد الجبهة الإسلامية في أذهان بعض قادة المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين زنكي. وقال ابن الجوزي متحدثاً عن طغتكين بأنه: كان شهماً عادلاً حزن عليه أهل دمشق حين وفاته، فلم تبق محلة ولا سوق إلا والمأتم قائم فيه لعدله وحسن سيرته، حكم الشام خمساً وثلاثين سنة ما بين (497-522هـ) وسار بسيرته ابنه فترة، ثم تغير وظلم.

ما ترتب على حملات مودود من نتائج

وعلى الرغم من الإخفاق الذي حل بحملات بطل الإسلام مودود إلا أنها تمخضت عن عدد من النتائج المهمة في مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ويمكن إجمالها في الآتي:

- إن إمارة مودود - على قصر مدتها - تعد نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي ـ الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها أمر إمارة الموصل.

- يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام 1144م/ 539هـ حيث أن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

- كشفت حملات مودود عن الضعف الذي كانت عليه القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.

وعلى الرغم من الدور الرائد الذي قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكي هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وفي هذا إجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية. وواقع الأمر أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي انبهروا لحجم الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين زنكي من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت في المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست ذات قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت الممهدة الحقيقية لإنجاز عام 1144م/ 539هـ، كما لا نغفل أيضاً أن الدعاية السياسية الناجحة والفعالة التي قدمها المؤرخ العراقي الفذ ابن الأثير من خلال كتابه الباهر لمؤسس البيت الزنكي قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بأخرى، على نحو جعل سابقي عماد الدين زنكي يظهرون بذلك الموقف من حيث تقويم دورهم التاريخي، ويكفي مودودا فخراً أنه نجح في ضرب الوجود الصليبي في الجليل، وهي منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين منذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامي كل يكمل الآخر، ولا خصومة بينهم، وما قام به مودود أفاد - فيما بعد - القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، ولذا فبالإمكان القول؛ اليوم الصبرة وغداً حطين؛ وهذا ما أثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

وعلى أية حالة عند مقارنة جهد مودود بسابقيه في صورة كربوغا، وجكرمش، وجاولي سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة، فكربوغا انحصر أمره في نجدة أنطاكية، وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن ارتق على نحو أدى إلى الانتصار في معركة حران 498هـ/ 1104م، أما مودود فإن دوره أكثر تعاظماً على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين في معركة الصبرة عام 507هـ/ 1113م، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم إلحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين. غير أن العقبة القائمة تمثلت في عدم الإفادة من كل من الانتصارين في اجتياح مناطق الأعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائرهم من جرائه، غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسي، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقاً دون تحقيق ذلك.

نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين

ارتبطت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ارتباطاً شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة، وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة 512هـ/ 1117م إلى ازدياد تدهور أحوال السلاجقة في العراق، فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى استدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد، الأمر الذي أفقد الموصل مكانتها القيادية في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين مؤقتاً، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، واستهل إيلغازي أعماله بالاستيلاء على حلب سنة 511هـ/ 1117م، لأهميتها بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، وكانت حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وفي نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في منطقة الجزيرة. لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، وذلك ما حدث فعلاً بالنسبة لنجم الدين إيلغازي وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود فيما بعد.

وأما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين إيلغازي على حلب سنة 511هـ/ 1117م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين في الاستيلاء عليها، حيث بلغت حداً من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم، ولكن خوف أهلها من أن تسقط بيد الصليبيين قد أجبرهم على استدعاء نجم الدين إيلغازي وتسليمه

حلب في السنة المذكورة، واستهل إيلغازي أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالس، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين، فاستوحش منه أهل حلب وجندها مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين. غير أن أهل حلب وبسبب موجة الغلاء التي مروا بها في نفس السنة 511هـ/ 1117م، أرسلوا إلى الصليبيين يسلمونها إليهم فاضطر إيلغازي إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب، فلما شعر الصليبيون بالخطر، انسحبوا عنها فتسلمها إيلغازي للمرة الثانية، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد مع الصليبيين هدنة بعدم اعتداء أي منهما على ممتلكات الطرف الآخر.

نقض الصليبين للهدنة

ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج إيلغازي وأغاروا على عزاز وشددوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم، واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التي كان قد عقدها معهم إيلغازي وأن يسلموهم أي أهل حلب تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن أربعة أشهر ومقدارها ألف دينار ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً، وغضب نجم الدين إيلغازي عندما وصلت إليه أخبار حلب، ولكنه لم يستطع العودة إليها وإنقاذها مما هي فيه لقلة عساكره، فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر، في الوقت الذي أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته في الاجتماع به سنة 512هـ/ 1118م، واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما، الأمر الذي دفع الصليبيين إلى إحكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة فتردت الأحوال بحلب حتى بلغت حد التلف، ولم يجد أهل حلب بدا من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية في بغداد، إلا أنهم لم يغاثوا نظراً لانشغال السلاجقة بالمنازعات الأسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى.

إعلان النفير ضد الصليبيين

لم يتيسر لنجم الدين إيلغازي لقاء الصليبيين، فقد فارق طغتكين وعاد إلى ماردين يجمع العساكر تمهيداً للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين في معركة حاسمة، وفي ماردين حشد نجم الدين إيلغازي ما يزيد على عشرين ألفاً من التركمان بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت أن تعدم القوت. وأرسل إيلغازي رسله إلى بغداد لإعلان النفير ضد الصليبيين وإعلام الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان

السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه بها فعله الصليبيون بالديار الجزرية وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها بن عطير. وكان نجم الدين إيلغازي قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين في سنة 512هـ/ 1118م على ملاقاة الصليبيين في شهر صفر من السنة التالية 513هـ/ 1119م بالشام. وتوجه إيلغازي قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحته، لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الموجودين بها فأجابهم إيلغازي وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة أمير أنطاكية في حالة حدوث قتال معه فأجابوه، وقد كانت هذه خطوة صائبة من إيلغازي تمكن بموجبها من عزل إحدى قوى الصليبيين عن مد العون للقوى الأخرى، وهذا دليل واضح على رضوخ الصليبيين في منطقة الجزيرة إلى مطالب الأمراء المسلمين.

معركة ساحة الدم

وبعد أن أطمأن إيلغازي إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف توجه إلى بلاد الشام وقد انضم إليه أسامه بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان صاحب بذليس وارزن، وواصل سيره حتى بلغ قريباً من الإثارب بأرض سرمدا في ربيع الأول سنة 513هـ/ 1119م وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين. وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا في بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين إيلغازي سيباغتهم هناك لضيق الطريق، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينالون الإثارب أو زردنا، حتى أن الغرور قد أصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم، فأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له: لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك. ولما طال انتظار إيلغازي لوصول حليفه، لبى رغبة الأمراء الذين كانوا معه في التعجيل بمباغتة الصليبيين، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد اقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب. وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة 513هـ/ 1119م. وخرج قاضي حلب أبو الفضل بن الخشاب وخطب في المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات فكانت السهام على الصليبيين كالجراد في الوقت الذي أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير يسير بينما كان الباقون بين قتيل وجريح، وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذي كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها، ووقع في الأسر نيفا وسبعين من

فرسان الصليبيين ومقدميهم، وحاولوا أن يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين إيلغازي بل أمر بقتلهم جميعاً، وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتين، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم، لكثرة ما قتل فيها من الصليبيين والتي لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل.

إن أهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكري الذي حققه نجم الدين إيلغازي عليهم، بل تعداه إلى أنه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب في منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الإثارب في السنة نفسها فضلا عن أنها كانت كارثة فادحة حرمت أنطاكية من زعيمها روجر، مما جعل السريان والأرمن بأنطاكية يتشككون في موقفهم إلى جانب الصليبيين، وهذا على ما يبدو ما دفعهم إلى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد. ولقد نزل نجم الدين إيلغازي بعد انتهاء المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التي حصلوا عليها ولكنه رد جميع الغنائم للمقاتلين ولم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ليبعث في نفوسهم حب الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين. واستطاع إيلغازي أن يحقق سلسلة من الانتصارات في شمال الشام هيأت للمسلمين جوا من الهدوء والاستقرار. فقد استطاع المسلمون أن يلحقوا بالنجدة الصليبية التي أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة، روجر صاحب أنطاكية هزيمة ساحقة، ولم يكتف نجم الدين إيلغازي بهذا بل اجتمع في أرتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الاثارب و زردنا، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين، ثم سار إيلغازي إلى دانيث بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا ودارت بين الطرفين معركة في جمادى الأولى من السنة 513هـ/ 1119م أسفرت عن انتصار نجم الدين إيلغازي وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم. ثم عاد نجم الدين إيلغازي إلى حلب بينما التقى رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصحبته قوة من الصليبيين فهاجمتهم قوة إيلغازي مما اضطر من أفلت من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب، في الوقت الذين وقع فيه الأبرص أسيراً في أيدي المسلمين فحملوه إلى إيلغازي بحلب، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قتله صبرا، وفي أواخر جمادى الأولى سنة 513هـ/ 1119م غادر إيلغازي حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التي مر بها إضافة إلى أن حلب كانت من الضعف بحيث جعلته لا يستطيع البقاء فيها.

وبالرغم من انشغال نجم الدين إيلغازي ببعض الأمور الإدارية في ماردين، فقد جمع جيشاً من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام في سنة 514هـ/ 1120م واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضرب عليها حصاراً، فلم يتمكنا منها، فدخلا إلى قنسرين، وحاصراها يوماً وليلة، ولم ينالا منها شيئاً، وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وأن يعود كل منهما إلى بلده، فقبل نجم الدين إيلغازي مشورة صاحبه، وتفرق عساكره من التركمان واضطر إيلغازي إلى عقد هدنه مع ملك بيت المقدس بلدوين الثاني على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية السنة.

نقض الهدنة

لم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة، فقد أغار جوسلين صاحب تل باشر في السنة نفسها 514هـ/ 1120م على بعض البلاد التابعة لحلب، مما اضطر أهل حلب إلى إرسال احتجاج شديد اللهجة إلى بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين، ولكنه رد عليهم بقوله: مالي على جوسلين يد. ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغاروا بأنطاكية على بلد شيزر وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه إليهم. وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من إيلغازي فشنوا في صفر من سنة 515هـ/ 1121م هجوماً على الأثارب وأغاروا على حلب نفسها، وفرضوا عليها حصاراً شديداً أدى إلى وقوع خمسين أسيراً من أهلها في يدهم ونجح الحلبيون في استنقاذ إخوانهم وأجبروا الصليبيين على التراجع عنها إلى أنطاكية. وعلى ما يبدو فإن نجم الدين إيلغازي قد اضطر إلى البقاء في ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن إيلغازي النائب عنه في حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب والأثارب.

تمرد سليمان بن إيلغازي على أبيه

وعلى الرغم من أن الصلح الذي عقده سليمان بن إيلغازي لم يكن في صالح المسلمين فإنه لم يسع إلى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب، بل أعلن

عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب، وقد شجعت هذه الخطوة من قبل سليمان بن إيلغازي الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها في جمادى الآخرة من سنة 515هـ/ 1121م، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الأثارب لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولكن سكان الأثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين الأمر الذي أجبر بلدوين على التراجع إلى أنطاكية ومنها إلى بيت المقدس.

القضاء على التمرد

وأما نجم الدين إيلغازي، فإنه ما إن سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم إليها على وجه السرعة، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه، فلما رأى سليمان ما حل بأعوانه من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب إلى دمشق وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء، ولما تم لإيلغازي القضاء على الفتنة بحلب استناب بها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة، وكان هدف إيلغازي من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى ديار بكر وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين، إضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم، وفي ماردين استطاع نجم الدين إيلغازي أن يحشد أكبر عدد من التركمان ثم سار بهم إلى بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة 516هـ/ 1122م، مستغلاً في ذلك الشقاق الذي حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس ويونز صاحب طرابلس، ولكن نجم الدين إيلغازي لم يستطيع أن يحقق نصراً حاسماً على الصليبيين، وبالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه غير أنه لم يتمكن من منع الصليبيين من مد نفوذهم وسيطرتهم على حلب.

وفاة إيلغازي وأثر ذلك على المسلمين

في شهر رمضان من سنة 516هـ/ 1122م أحس إيلغازي بتدهور صحته فعاد إلى ميافارقين حيث وافته منيته هناك، وبقدر ما كانت وفاة نجم الدين إيلغازي خسارة فادحة للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة عامة فإن المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته، لأن نجم الدين إيلغازي كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم تصنف أهمية وفاة نجم الدين إيلغازي إلى هذا الحد، بل أدت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين أولاده حسام الدين تمرتاش الذي حصل على ماردين، وابنه سليمان الذي حصل على ميافارقين، بينما بقيت حلب من نصيب ابن أخيه سليمان بن

عبد الجبار بن ارتق، واحتفظ بلك بن بهرام بن أرتق بقلعة خرتبرت وضم إليها حران فيما بعد، ويضاف إلى ذلك أن حلب التي كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم إيلغازي من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشري الذي رجح كفة المسلمين على الصليبيين في عهد إيلغازي مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين، وضعف مركز صاحبها سليمان بن عبد الجبار بن ارتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبي الاستيلاء على قلعة البيرة، حتى أصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات، مما حتم على سليمان بن عبد الجبار أن يعقد مع الصليبيين صلحاً سنة 517هـ/ 1123م تنازل بموجبه لهم عن حصن الأثارب.

استلم راية الجهاد بعد إيلغازي ابن أخيه بلك بن بهرام صاحب قلعة (خرتبرت) وكان خصماً عنيداً للصليبيين إذ كان يتطلع للقضاء عليهم لا في منطقة الجزيرة فقط بل وفي بلاد الشام كلها. وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة 516هـ/ 1122م بحصار الرها، ولكنه لم يستطع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار، مما اضطره إلى الانسحاب عنها، لذا رأى الصليبيون الذين كانوا في الرها أنه لا بد من الاستعانة بجوسلين صاحب الأطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد، الذي كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة، مستغلين في ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن ارتق عقب عودته من الرها، إلا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كميناً عند سروج بأرض موحلة ومشبعة بمياه الأمطار فلم تتمكن خيولهم من الإسراع بسبب هذا الوحل، في الوقت الذي سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمائة فارس وابلاً من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة في سنة 516هـ/ 1122م. وقد ترتب على هذا الانتصار الذي حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية في بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية، وحاول بلك بن بهرام بن ارتق أن يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا في الأسر على تنازل منهم عن الرها، مقابل إطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين: نحن والبلاد كالجمال، متى عقر جمل حول رحله إلى آخر والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا، عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم

وتوجه سنة 517هـ/ 1123م إلى حصن كركر التابع لإمارة الرها بقصد الاستيلاء عليه، وأدرك بلدوين ملك بيت المقدس الذي أصبح وصياً على الرها مضافاً إلى وصايته على أنطاكية أن من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الأسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وإفهام المسلمين بأن قوة الصليبيين لا زالت قوية باطشة. وخرج بلدوين على رأس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه أحد روافد الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذي كان قد رفع الحصار عن كركر وعاد لمواجهة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ودار القتال بين الطرفين في التاسع عشر من شهر صفر سنة 517هـ/ 1123م. وانهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين، ولم تقف أهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته إلى أن بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع في أسر بلك في بن بهرام بالإضافة إلى استيلائه على حصن كركر، وحمل بلك أسيره الجديد إلى خرتبرت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم. وهكذا خلت إمارات الصليبيين: الرها، وأنطاكية، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام. ولكن القوى الإسلامية في بلاد الشام لم تستطع وقتذاك اهتبال هذه الفرصة والانقضاض على إماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين.

محاصرة الصليبيين لحلب

أما بلك بن بهرام بن أرتق فإنه بعد أن جمع أسراه في قلعة خرتبرت توجه إلى حران للاستيلاء عليها في ربيع الأول من سنة 517هـ/ 1123م، بهدف الاستقواء بها، فتم له ذلك، وكان بلك بن بهرام يطمع في الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبد الجبار عقب استيلائه على حران لأنه كان يدرك أهمية حلب الإستراتيجية، وأنه لن يحقق أية نتيجة حاسمة على الصليبيين ما لم يضم حلب إلى إمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام، يستطيع من خلالها التحرك في ميدان فسيح، وليتفرغ لقتال الصليبيين، لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادي الأولى سنة 517هـ/ 1123م. إلا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضي قدماً في جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن إليهم بخرتبرت، فعاد على وجه السرعة إلى خرتبرت في رجب من نفس السنة 517هـ/ 1123م واستطاع إعادة الأمن بها ونقل

الأسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاقبة الأرمن الذين كانوا بها. وأما جوسلين صاحب الرها الذي هرب من الأسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيي بيت المقدس وأنطاكية، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين، ولم يكتف بهذا، بل أقدم على نبش قبور الموتى من المسلمين في البلاد المحيطة بها وظل محاصراً لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها 517هـ/ 1123م، ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر. على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر، بل تعرضت لحصار آخر من صليبيي أنطاكية، أدى إلى قطع الصلة بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية في الشام، تلك البلاد التي كانت تزودها بالمؤن. ووجد بلك بهرام بن أرتق إنه لابد من الاستعانة بآقسنقر البرسقي صاحب الموصل وبظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولإنزال ضربة بالصليبيين يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب وإقرار الأوضاع بها، فوصل إليه سنة 517هـ/ 1123م كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقي وصاحب دمشق طغتكين على رأس قوتيهما، فعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين، فعاد كل منهم إلى بلده، ودخل بلك بن بهرام حلب في سنة 518هـ/ 1124م وتخلص من بعض المناوئين له وقضى على فوضى قطاع الطرق، وتزوج بإحدى بنات رضوان بن تتش لتوثيق صلته بالسلاجقة، واتخذ من حلب عاصمة له من بلاد الشام، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين، ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم في قلعة حلب. ويبدو أن ما قام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب إنما كان بقصد الاطمئنان عليهم من أية محاولة لإنقاذهم أثناء بعده عنهم، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية في صفر من سنة 518هـ / 1124م لقتال الصليبيين بعزاز، لم يخرج معهم خوفاً من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه.

مقتل بلك بن بهرام

لم يمهل الأجل بلك بن بهرام، إذ بينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدرى من رماه، واضطرب عسكره، وتفرقوا. وبمقلته فقد المسلمون فيه رجلا أثبتت أعماله أنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين. ويمكن القول إنه بمقتل بلك بن بهرام سنة 518هـ/ 1124م انتهت مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، على الرغم من أن

حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام إلا أن حلب لم تتمتع في أيامه بأوضاع مستقرة، بل فسدت أحوالها وضعف أمر المسلمين بها حيث ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين، بل قبل وساطة أبي العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر في إطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان في أسر بلك بن بهرام، الأمر الذي أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين في النيل من المسلمين، وهذا بالطبع كان له أثر كبير في تصدي الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في المرحلة التالية التي قادها كل من آقسنقر البرسقي صاحب الموصل وظهير الدين صاحب دمشق.

آقسنقر البرسقي وإنقاذ حلب

تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام وكان أبرزها وأخطرها حصار عام 518هـ، وقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة وما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وإنطاكية غرباً على البحر المتوسط، في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين. وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وأنطاكية، ويعجل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة.

وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمير قوي، أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام 511هـ، وتولى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها. وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام 516هـ سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام إمارته بين أبنائه

وانعزال حلب عن القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك بن بهرام وتوليه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق. غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقال إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي تميز بالضعف والانهزامية فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها، ويصف المؤرخون كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولي تمرتاش الحكم، إذ يقولون: فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك. وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد أسره في إحدى معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه من المال، وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلسه، فأكلا وتشاربا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره. ولم يلبث تمرتاش بعدها أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة، وبهذا أتيحت لهؤلاء الفرصة، مرة أخرى، لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام 518هـ حصاراً من أخطر ما تعرضت له في تاريخ الحروب الصليبية الطويل.

وقد بدأت محاولة حصار حلب بخيانة تقدم بها أحد الأمراء العرب وهو دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتآمره عليهما، حيث قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجين سلموا إليه البلد، ومما قاله للصليبيين: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وبذل لهم على مساعدته بذولا كثيرة، ووعد بلدوين أمير إنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم. وتمكن أخيراً من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب. وتقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان 518هـ، وتقدم جوسلين أمير الرها بصحبة دبيس بن

صدقة - وكان دبيس شيعياً كآبائه - صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مائة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزل مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك خونة، آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب منهم: سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي، وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها وَوطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر، فضلاً عن ثلاثمائة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس.

وقد بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: هذا نبيكم محمد!! وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا: يا مسلمين أبصروا كتابكم!! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه.. وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً.

ولم يكتف الصليبيون بهذا، بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرّس عن أعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث أتت. وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق ولكن دون جدوى.

ولقد ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجاد بأميرها حسام الدين تمرتاش وتسلل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى

ماردين – قاعدة ديار بكر – ليستغيثوا بأميرها عله يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات، وعندما وصلوا إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه أمر الغزاة، إلا أن مساعيهم فشلت. وفي نهاية المطاف تمكن الوفد من الخلاص من مراقبة حسام الدين التي فرضها عليهم حتى لا يغادروا ماردين للاستنجاد بأمير آخر، خوفاً من ازدياد ضعف مركزه وفقدانه مدينة حلب، واستطاع الوفد الاتصال بوالي الموصل السلجوقي آقسنقر البرسقي.

كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلا الأطباء، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به. وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكنني قد جعلت لله عليَّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذب عن بلدكم وقتال أعدائكم. ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته لأن تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب، وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخير خان أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب وأرسل من هناك إلى مسؤوليها وشرط عليهم تسليم قلعة حلب لنوابه لكي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين فأجابوه إلى طلبه، وما إن استتب الأمر لهؤلاء النواب وأطمأن الرجال إلى وجود حماية أمينة في حال تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوِّق حلب.

وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة 518هـ وما إن أقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول

إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوسن على الطريق إلى أنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله، وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدمة إلى معسكراتها في حلب وقال موضحاً خطته هذه: ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم. ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء الصادرات، وعمَّت عدالته الحلبيين جميعاً بعدما منوا به من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي. ولم يكتف البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع بجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث استأنف المزارعون العمل في الأراضي التي شردوا عنها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار. وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الموصل لأول مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة.

مقتل البرسقي

في سنة 520هـ ثامن ذي القعدة، قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل، بمدينة الموصل قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع وكان يصلي الجمعة مع العامة وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه، فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول ما قرأ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:38]

فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً.

وإن كان آقسنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام 521هـ/ 1127م عهد السلطان محمود بإمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي، وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران، ثم أتجه تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثاني صاحب الرها وبوهيموند الثاني صاحب أنطاكية لها، فسارع عماد الدين زنكي إليها فلقيه أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين 13 جمادى الآخرة سنة 522هـ/ يونيو 1128م، واستولى عليها ورتب أمورها وأقطع أعمالها الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: ولولا أن الله تعالى منّ على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنجة استولوا على الشام جميعه.

الفصل السادس

الدولة الزنكية وسياستها في الإصلاح والتجديد

بدأت نواة هذه الدولة خلال حياة الوزير المصلح نظام الملك حينما أشار نظام الملك هذا - كما تروي المصادر - على السلطان ملكشاه بتولية «آقسنقر قسيم الدولة» مدينة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها.

وكان آقسنقر هذا قد اشتهر في حركة الجهاد عام 477هـ حينما كان مقدم الجيش الذي قاده فخر الدولة بن جهير نحو الموصل وتسلموها. ويقول المؤرخ أبو شامة إن من شواهد علو مرتبة آقسنقر تلقبه بلقب قسيم الدولة، لأن الألقاب كانت مصونة لا تعطى إلا لمستحقيها. كذلك تضيف المصادر أن آقسنقر أظهر كفاية وهيبة في جميع البلاد التي حكمها، وأنه كان أحسن الناس سياسة للرعية ودفاعا عن ديار المسلمين. وكانت بلاده بين رخص عام وعدل شامل وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير. فكانت السيارة إذا بلغوا قرية في بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين وحرسهم أهل القرية إلى أن يرحلوا فأمنت الطريق.

وفي عام 487هـ قتل آقسنقر وخلفه ابنه عماد الدين زنكي الذي سار على خطى والده، وأظهر الدرجة نفسها من الكفاءة والخصال. وكانت مكانته وكفاءته - رغم بعدهم عن العاصمة بغداد - عاملا هاما في استمرار تفاعله مع الأحداث التي تجري فيها. ففي عام 521هـ حين نشبت الفتنة بين الخليفة والسلطان محمود، وتقاتل الطرفان

ونهبت الأموال وخرج النساء يستغثن في الطرقات، ثم أعقب ذلك صلح هش، لم يجد الخليفة بدا من استدعاء عماد الدين زنكي ليقوم بدور رئيس شرطة بغداد وليوطد الأمن والعدل حتى إذا أكمل مهمته عاد إلى الموصل وأعمالها.

ويصف أبن كثير مسلسل أحداث الفتنة فيقول: وانقلبت بغداد بالصراخ حتى كأن الدنيا قد زلزلت، وثارت العامة مع جيش الخليفة فكسروا جيش السلطان وقتلوا خلقا من الأمراء، وأسروا آخرين ونهبوا دار السلطان ودار وزيره، ودار طبيبه أبي البركات، وأخذوا ما كان في داره من الودائع، ومرت خطبة عظيمة جدا حتى أنهم نهبوا الصوفية برباط نهر جور، وجرت أمور طويلة، ونالت العامة من السلطان وجعلوا يقولون له: يا باطني تترك الإفرنج والروم وتقاتل الخليفة!!.

ولم تكن فتنة عام 521هـ الفتنة الأولى ولا الأخيرة في قلب الخلافة، لذلك لا غرابة أن يضرب اليأس العناصر العسكرية الصالحة التي كان عماد الدين بعض قادتها، كما ضرب من قبله العناصر الفكرية التي كان الغزالي على رأسها. من أجل ذلك، نجد بعد فتنة عام 521هـ اتجاها جديدا في حكومة عماد الدين زنكي، حيث أدار ظهره لمشكلات الخلافة والسلطنة في بغداد، ثم مضى في بناء دولته الجديدة ومجابهة التحديات التي تحيط بها ومن أهمها خطر الإمارات الصليبية.

ومن الطبيعي أن ينتهي القائمون على الإصلاح والتجديد إلى التفكير في بناء أمة إسلامية جديدة، بدل الاستمرار في ترميم أمة لفظت أنفاسها وأخذت تتحلل أعضاؤها، فكانت الأمة الجديدة هي الدولة التي بدأ عماد الدين في توطيد أركانها وتوسيع رقعتها بعد عودته من بغداد على أثر فتنة عام 521هـ، لذلك أستحق أن تحمل الدولة الجديدة اسمه، فلما قضى شهيدا على أيدي بعض المتآمرين خلفه أبنه نور الدين الذي أعطى الدولة الجديدة طابعها الإسلامي المميز وهيأها لحمل رسالتها الكاملة.

ومنذ أيام نور الدين أصبحت دولة آل زنكي هذه كيانا التف حوله أصحاب الاتجاهات التجديدية وتلامذة المدارس الإصلاحية، وجعلوا منها دار هجرة تداعوا إليها من جميع الأقطار وفتحوا أبوابها لكل مخلص راغب في العمل في سبيل الله مهما تباينت مذاهبهم وانتماءاتهم. ثم وزعوا الأدوار على الأشخاص والجماعات الذين قاموا بمهمة التنفيذ في حدود المفاهيم الإدارية التي كانت سائدة في ذلك العصر.

والمصادر الإسلامية التي أرخت للأحداث لا تورد تفاصيل الخطة التي سارت عليها الدولة الفتية. ذلك أن منهج المؤرخين الإسلاميين القدامى ينسب الأحداث للأشخاص الذين يتصدرون القيادات السياسية والعسكرية، ويهمل أثر القوى والعوامل الأخرى، ويعالج الأحداث باعتبارها منجزات فردية لا أثر للعمل الجماعي فيها ولا ترابط بين مسلسل الوقائع. غير أن سير الأحداث منذ الأيام المبكرة لهذه الدولة والإستراتيجية التي برزت أثناء قيادة نور الدين تبرز أثر التخطيط والتعاون الجماعي وترابط الوقائع والأحداث. فقد كان وزير عماد الدين زنكي في الموصل هو مروان بن علي بن سلامة بن مروان الطنزي نسبة إلى «طنزة» من ديار بكر. وكان مروان هذا قد ورد بغداد وتفقه على الغزالي والشاشي، ثم عاد إلى بلده ليدبر أمور الوزارة حتى وفاته عام 540هـ.

ولقد تميزت سياسة الدولة الجديدة - خلال فترة نور الدين - بأمور عدة منها:

- إعداد الشعب إعدادا إسلاميا وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات الفاطمية للعبادات والشعائر.

- صبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وشيوع العدل والتكافل الاجتماعي.

- نبذ الخصومات المذهبية وتعبئة القوى الإسلامية وتنسيق جهودها ضمن منهاج عمل موحد وقيادة متكاملة متعاونة.

- ازدهار الحياة الاقتصادية وإقامة المنشآت والمرافق العامة.

- بناء القوة العسكرية والعناية بالصناعات الحربية.

- القضاء على الدويلات المتناثرة في بلاد الشام وتحقيق الوحدة الإسلامية بين الشام ومصر والجزيرة العربية.

وإذا كانت مقتضيات البحث والكتابة تقتضي استعراض هذه الجوانب، فإنه لا بد من الإشارة إلى أنها كانت أجزاء في خطة شاملة متكاملة، وأنها كانت تنمو وتتسع دوائرها باتساع الرقعة الجغرافية للدولة الجديدة وبامتداد عمرها الزمني.

لقد اعتبرت الدولة الجديدة الإنسان المسلم هو الدعامة الرئيسية التي يقوم عليها بناء الأمة المسلمة. ومن أجل ذلك تبنت خطة شاملة لإعداد الشعب إعدادا إسلاميا. وفي

هذه الخطة، تكاملت المؤسسات والهيئات فاشتملت على التعليم الذي ركز بالدرجة الأولى على الأجيال الناشئة. كما اشتملت على التوجيه والإرشاد الذي استهدف توجيه جماهير العامة، واشتملت على الإعداد العسكري الذي استهدف تعبئة عامة لمواجهة الأخطار والتحديات القائمة. أما تفاصيل الخطة المشار إليها فكانت كما يلي:

دور التعليم ومؤسساته

عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث. واستقدمت مشاهير العلماء وخاصة أولئك الذين تخرجوا من مدارس الإصلاح كالغزالية والقادرية والعدوية والحرانية والسهروردية، ولم يكن التعليم لدى الدولة الجديدة مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطا عقائديا استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة. وكانت مؤسسات هذا التعليم تنقسم إلى قسمين:

الأول: المدارس ودور القرآن والحديث، ووظيفتها الرئيسية إخراج جيل جديد من الناشئة الذين تصفو عقيدتهم وتعلو مقدراتهم العقلية والنفسية إلى المرتبة التي يجب إن يحتلها المسلم.

والقسم الثاني: هو المساجد، حيث أقيم في دمشق وحدها ما يزيد على مائة مسجد، وهذه - بالإضافة إلى جانب العبادة والصلاة - كانت مراكز تعليمية ركزت على بث الروح الإسلامية من جديد، وركزت على تجفيف التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثارا عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية والتي من أجلها وصفهم ابن جبير بأنهم لا إسلام لهم وأنهم أهل أهواء وبدع إلا من رحم الله.

ولقد بلغ هذا الاهتمام بالتعليم أوجه زمن نور الدين زنكي. وتشير المصادر إلى أنه بدأ هذه السياسة منذ سنوات حكمه الأولى. من ذلك ما يذكره ابن قاضي شهبه بقوله:

«وفي عام 543 ، أبطل نور الدين بحلب الأذان بحي على خير العمل والتظاهر بسبب الصحابة. وأنكر ذلك إنكارا شديدا. وساعده في ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة. وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجو ثم سكتوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة».

وجريا على عادة المؤرخين القدامى، يصف أبو شامة هذا النشاط التعليمي وكأنه جهد فردي قام به نور الدين وحده. فيذكر أنه استقدم الفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري من خراسان وبالغ في إكرامه، وأنه استقدم من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر، ووفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوردة.

ويضيف أبو شامة أن نور الدين أوجز هذه السياسة التعليمية بقوله: «ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين».

غير أن الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية، تبدو واضحة من تباري الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم عليها.

التوجيه والإرشاد الجماهيري

ولقد استهدف هذا التوجيه جماهير المسلمين من العمال والمزارعين والتجار. وهو يقابل ما يسمى في عصرنا الحاضر «تعليم الكبار» ولكنه يختلف عنه في مناهجه، فهو لا يقتصر على محاربة الأمية وإنما يستهدف الأخلاق والقيم والعقيدة كذلك. ولقد تخصص في هذا الميدان من التربية شيوخ التصوف بعد أن جرى إصلاح التصوف على يد الشيخ عبد القادر وأصحابه من الشيوخ المعاصرين. ويلاحظ أن حركة إصلاح التصوف وتنقيته مما علق به وإخراجه من عزلته للمشاركة في مواجهات المشكلات والأخطار تزامنت مع ما قام به نور الدين من العناية بإقامة الأربطة وبناء الزوايا واحترام شيوخ التصوف واستقدامهم. ولقد قامت هذه بدورها إلى جانب المدارس التعليمية، وأدت واجبها في تهذيب الجماهير المسلمة فيما يتفق وخطة الدولة النورية.

وتكاملت هذه الميادين التربوية برجالها ومؤسساتها وبرامجها. ولقد أورد أبو شامة وسبط ابن الجوزي صورة واضحة لهذا التكامل والتعاون. فكان هناك مجلس عام للقيادات التعليمية والتربوية، يحضره كبار الفقهاء وشيوخ التصوف والقادة العسكريون، وفي هذا المجلس كانت تناقش كافة الموضوعات بروح علمية متسامية دون أن تلوثها الحساسيات المذهبية أو التعصب للمذهب أو الجماعة وكان نور الدين نفسه يحضر هذه المجالس ويجلس أمام العلماء والشيوخ كما يجلس الأفراد العاديون. وبسبب هذا التكامل والوفاق تداعى العلماء والشيوخ والمريدون إلى الهجرة إلى الدولة الجديدة حتى تجاوز عددهم الآلاف، وأخذ كل منهم مكانه في ميادين التربية والتوجيه. ولقد أورد النعيمي

أسماء الآلاف من المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التي تضافرت فيها الجهود المذكورة.

وقد استمر هذه النشاط التعليمي والتربوي يجري بإشراف الدولة الزنكية حتى بدل البنية القديمة لبلاد الشام وللجيل الذي نشأ فيها، وأحل محل ذلك كله طابعا إسلاميا تجلت خلاله الروح الإسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده، ووجهت نشاطاتهم في جميع ميادين الحياة القائمة. ومرة أخرى ينسب أبو شامة هذا التغيير إلى «فرد واحد» هو نور الدين، وينسى «القوم» الذين كان نور الدين بعض أفراد القيادة التي أفرزوها فيقول:

«وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك إتباع سنة العدل والإنصاف وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك. فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم واستحوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه».

ولقد ترتب على هذه الجهود التربوية والتعليمية لتغيير «ما بأنفس القوم» من أفكار وتصورات وقيم واتجاهات أن برز جيل مسلم يختلف عن الأجيال السابقة التي نعتها ابن جبير بالأهواء والبدع. ووصفها أبو شامة بأن همة أحدهم لم تكن تتعدى فرجه وبطنه.

تكامل القيادات السياسية والفكرية

يكشف البحث في سمات الدولة الزنكية - الأيوبية، وفي المصادر التي أمدتها بالقيادات والإدارات، أن أغلبية عناصر هذه القيادات والإدارات تخرجت من مدارس الإصلاح التي مر ذكرها مع شيء من التوزيع والتخصص العام. إذ يلاحظ أن غالب القيادات الإدارية قد تخرجت من مدارس حران ودمشق التي مثلتها كمدرسة حياة بن قيس الحراني، والمدرسة البيانية. أما القيادات السياسية والعسكرية فقد تخرج غالبها من منطقة الموصل وجبل هكار، حيث المدرسة العدوية التي أسسها الشيخ عدي بن مسافر وفروعها. أما القيادات العلمية فقد كان أكثرها من مدارس الشرق كالمدرسة القادرية والمدرسة السهروردية وفروعهما.

وبسبب هذه الأصول للقيادات المذكورة جاءت الصفات العامة للدولة الجديدة وهي:

1 - الصبغة الإسلامية للقيادات السياسية والإدارية والعسكرية:

تميزت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية بالتزامها العقائدي في جميع نشاطاتها وممارساتها. والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، فقد كان نور الدين زنكي تقيا ورعا حتى عده المؤرخون سادس الخلفاء الراشدين وأنه لم يأت مثله بعد عمر عبد العزيز وكان يحافظ على صلاة الجماعة ويكثر الصلاة في الليل من وقت السحر إلى أن يركب. وكان محدثا سمع الحديث وأسمعه وجمعه. وكان حنفي المذهب عارفا بمذهب أبي حنيفة ولكن دون تعصب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو عن كونها مدارس في الفقه.

وكذلك كان رجال نور الدين ومعاونوه وقادة الجيش على المستوى نفسه من العلم والأخلاق. ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، الذي قدم من بغداد إلى دمشق فقد كان فقيها أصوليا شغل مناصب مختلفة كالسفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء، واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين. ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي عصرون الذي شغل منصب قاضي قضاة دمشق وناظر الأوقاف.

وكذلك كان صلاح الدين فقيها درس الفقه الشافعي وسمع الحديث من أبي طاهر السلفي وغيره. كذلك روى الحديث عنه أناس مثال أبي يونس بن محمد الفارقي والعماد الكاتب وغيرهما. ويقال أنه كان يحفظ «القرآن» و «التنبيه» في الفقه، و«الحماسة» في الشعر.

ومثله وزيره الشهير وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الذي قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل. ولقد كان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعا فائقا، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن. وكان متواضعا يكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء.

وكذلك كان الأمير ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (نسبة إلى منطقة جبال هكار حيث ازدهرت مدرسة عدي بن مسافر التي مر ذكرها) أكبر أمراء الجيش زمن صلاح الدين فقيها تفقه على الإمام أبي القاسم بن البزري بالجزيرة، ثم انتقل إلى حلب وسمع من الحافظ أبي طاهر السلفي، والحافظ ابن عساكر. وكان في بداية أمره أحد

مساعدي أسد الدين شيركوه، وإمام الصلاة في الجيش وأسهم معه في فتح مصر وإسناد السلطة إلى صلاح الدين بعد عمه أسد الدين. وكان يتمتع بشجاعة فائقة وحنكة عسكرية. ولذلك ترفع حتى صار أكبر أمراء جيش صلاح الدين، ولقد استمر في عمله حتى توفي عام 585هـ في مخيمه خلال حصار عكا.

وكذلك كان الأمير بهاء الدين قراقوش عالما فقيها، إلا أنه كرس نفسه للخدمة الإدارية والعسكرية. فقد كان والي صلاح الدين على عكا. ومن طريف الحوادث التي مرت معه في صراعه مع الصليبيين أنه في أول شعبان عام 586هـ كتب إلى السلطان صلاح الدين يعلمه أنه لم يبق من الأقوات في المدينة بعد ليلة النصف الأول من شعبان. فلما وصل الكتاب إلى صلاح الدين أخفاه لئلا يشيع الأمر ويستغل الفرنجة الفرصة فيهاجموا المدينة. ثم جهز ثلاثة مراكب من بيروت بزي الفرنجة حتى أنهم حلقوا وشدوا الزنانير واستصحبوا شيئا من الخنازير. فلما مروا على مراكب الفرنجة اعتقدوا أنهم منهم ولم يعترضوا سبيلهم.

وكان قراقوش من أروع القادة وأشجعهم. ولقد وقع مرة في الأسر فافتدي بعشرة آلاف دينار وفرح به صلاح الدين فرحا شديدا. ومن مآثره بناء سور القاهرة وقلعة الجبل فيها. ويبدو أن سياسته في القاهرة كانت حكيمة وحازمة في إزالة آثار الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم. لذلك لم يجدوا سبيلا لمحاربته إلا بالإشاعات وتشويه السمعة، حيث وضعوا عنه كتابا أسموه «كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش» وهي الإشاعات التي يرددها معاصرونا بغباء !!.

ولم تكن هذه الشخصيات التي ذكرناها إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين وصلاح الدين. فقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج. من أمثلة هذه المهارات والمزايا ما يلي:

المزية الأولى: تكامل القيادات الفكرية والسياسية، فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه. ولقد حاول بعض قادة الجيش النيل من هذه المكانة، فصاروا يغتابون العلماء في مجلس نور

الدين. وفي يوم حاول أحد القادة النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري فقال له نور الدين: «يا هذا، إن صح ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها وهي العلم والدين. أما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أتحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أتحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته علي؟ إنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك».

والمزية الثانية: اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات. فلقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى وتبادل الآراء في كل أمور الدولة. فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والميزانية. فإذا بحث أمرا يخص الأمة جميعها أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يتفق عليه. من ذلك ما حدث في قلعة دمشق في 19 صفر عام 554هـ / 11 يوليو سنة 1149م، حين عقد نور الدين مجلسا دعا إليه القضاة وكبار رجال الدولة ونفرا من الأعيان وشهود العدالة للنظر في الأوقاف المرصودة للجامع الأموي. وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا أوقاف الجامع عقارات وأعيانا أخرى داخلة في المنافع العامة فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك ليستخدم أموال المنافع العامة في التحصينات العسكرية في الثغور وبناء سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم، لأن هذا من «أهم المصالح» عند نور الدين. ولقد تناقش الحاضرون في الموضوع بأسلوب حر طليق وأقر المجلس رأيا لا يتفق مع ما أراده نور الدين. إذ لم يأذنوا له بصرف «فواضل الأوقاف في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين»، وأجازوا له أن يأخذ قرضا من هذه الفواضل يستخدمه في تلك المصلحة على أن يرده من بيت المال. ومع شدة حاجة نور الدين إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع في ذلك الوقت فإنه قبل رأي المجلس بنفس راضية، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة احتراما للرأي وتكريما للدين ورجاله.

والمزية الثالثة: هي غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران. فلقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين - مثلا - ووزرائه وقادته، لكنهم كانوا يعالجون هذه المشكلات بأسلوب لم يخرج يوما عن حدود المصلحة العامة وما تقتضيه وحدة الكلمة والأخلاق الإسلامية.

والمزية الرابعة: هي التفاني في أداء الواجب بتعاون وتآخ. ويقدم لنا الموفق عبد اللطيف - أحد المعاصرين - وصفا لمن رآه من ذلك الرعيل فيقول: «رأيت صلاح الدين على القدس، فرأيت ملكا عظيما يملأ القلوب روعة والعيون محبة. قريبا وبعيدا، سهلا ومحببا، وأصحابه يتشبهون به ويتسابقون إلى المعروف كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:43]. وأول ليلة حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة. ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك. وكان مهتما ببناء سور القدس وحفر خندقه ويتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء. فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة. ويأتي داره فيمد السماط ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في ضوء المشاعل، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمله نهارا».

ومن الطريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس عند هذا الرعيل من القادة والإداريين والعلماء قوله: إن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة. فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، وبهاء الدولة، وصمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وأسد الدين، ونجم الدين، وزين الدين وهكذا.

وثمة ملاحظة أخرى وهي أن تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين.

2- الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام:

تجلت آثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة والإدارة والجيش من الثروات والمنافع الاقتصادية، فقد زهدوا بالمكاسب وعزفوا عن الاحتكار والترف. وحذا حذوهم الأغنياء في المدن والقرى. فقد كان نور الدين زنكي مقتصدا في الإنفاق على نفسه وعلى أسرته حتى قيل: إن أدنى الفقراء في زمانه كان أعلى نفقة من نور الدين.

وكان لا يكنز ولا يستأثر الدنيا، ولم يكن له بيت يسكنه وإنما كان مقامه في قلعة البلد الذي يحل فيه. وكانت نفقته في الشهر مئة وخمسين درهما يأخذها من دكاكين كانت

له في مدينة حمص حيث اشتراها من حصته من الغنائم. ولقد شكت له زوجته يوما قلة نفقتها وأرسلت له أخاها في الرضاع تطلب زيادة فقال: من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض في نار جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن! إنما هي أموال المسلمين مرصودة لمصالحهم وأنا خازنها فلا أخونهم فيها! ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم فقد وهبتها إياها فلتأخذها. وكان نور الدين صاحب مهنة يخيط الكوافي ويعمل سكاكر للأبواب ويعطيها لبعض العجائز فتبيعها ولا يدري به أحد. ومع ذلك فقد شهدت البلاد في زمانه تقدما وانتعاشا اقتصاديا لم تشهده من قبل. وكانت أمانة نور الدين وزهده مثالا وقدوة لمن حوله من الوزراء وقادة الجيش. من ذلك أسد الدين شيركوه أكبر قادته العسكريين، فقد كان يملك أراضي واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس التي تنشر الفقه الإسلامي بدل الباطني. وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة.

وكذلك فعل وزير نور الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري الذي أوقف أوقافا كثيرة. منها مدرسة بالموصل ومدرسة نصيبين، ورباطا في المدينة المنورة، وأوقف أوقافا في قرية «الهامة» على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي. وكان كثير التبرع والهبات ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها.

كذلك فعل عبد الله بن عصرون حيث بنى مدرستين في دمشق وحلب. وكذلك فعل نجم الدين يوسف أيوب والد صلاح الدين حيث بنى خانقاه في مصر ومسجدا وقناة خارج باب النصر في القاهرة. وفي دمشق بنى خانقاه تعرف بالنجمية. وكذلك فعل الأمير مجاهد الدين قيماز نائب قلعة الموصل حيث بنى جامعا كبيرا ورباطا ومدرسة ومستشفى متجاورات بظاهر الموصل، وعدة مدارس وخوانقات وجوامع في نواح متفرقة.

ولم يقل عهد صلاح الدين عن هذا المستوى من الزهد في المال والبذل في سبيل الصالح العام. فقد مات صلاح الدين ولم تجب عليه الزكاة قط لأن الصدقة استنفذت أمواله كلها. فلم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا شيئا من الأملاك إلا دينارا واحدا وفرسه وسلاحه وخيمته. وكان مقلا في ملبسه ومأكله ومركبه جوادا في مصالح المسلمين، تبرع في حصار عكا باثني عشر ألف فرس للمجاهدين.

كذلك فعل رجال صلاح الدين وقادة جيشه. فلقد كان وزيره القاضي الفاضل مع كثرة أمواله كثير الصدقات والصلات. وكانت له أراض واسعة في مصر يؤجرها بمبالغ

كثيرة. فلما بدأت حركة الجهاد ضد الصليبيين أوقف هذه الأراضي على تخليص أسرى المسلمين وقال: «اللهم إنك تعلم أن هذا الربع ليس شيء أحب إلي منه. اللهم أشهد أني وقفته على فكاك الأسرى». هذا في الوقت الذي كان لباسه لا يساوي دينارين.

وكذلك فعل الأمير لؤلؤ أمير الأسطول عند صلاح الدين. فقد كان مع كثرة جهاده، مكثرا من الصدقات، كثير النفقات في كل يوم، فعندما وقع الغلاء في مصر كان يتصدق كل يوم باثني عشر ألف رغيف لاثني عشر ألف نفس.

وقد مدح ابن جبير هذه الروح الباذلة التي عمت الجميع فقال: «ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء، ولاسيما أهل باديتها، فإنك تجد من بدار بر الضيف عجبا، كفى بذلك شرف لها، وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها، فيبكي الرجل ويقول: لو علم الله في خيرا لأكل الفقير طعامي، لهم في ذلك سر شريف».

3- توفر الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة:

تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع، في الوقت الذي انتفت جميعها من الأقطار الإسلامية المجاورة. ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: «قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام، ومنه إلى يومنا هذا فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم لها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه. فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف ببيت واحد!!».

وقال أيضا: «ومن عدله أنه لم يعاقب على المظنة والتهمة. بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه بينة شرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد».

ازدهار الحياة الاقتصادية

تبدل التصور الاقتصادي الذي يوجه طرق الكسب وطرق الإنفاق عند الجيل الجديد، وصارت المفاهيم الاقتصادية العامة تقوم على أساس الكسب المشروع والإنفاق المشروع. ونتيجة لذلك، شاع التفكير بالمصلحة العامة وأحسن الناس التعامل بمصادر

الثروة، وأصبح دور القائمين على شؤون الاقتصاد من الموظفين والتجار والملاك دور الأمناء الخازنين الذين يحرصون على جمع الأموال وإنفاقها حسب ما تمليه التوجيهات الإسلامية في هذا المجال، ونتيجة لشيوع هذا المفهوم جاءت التطبيقات كما يلي:

1 - ازدهار الحياة الاقتصادية والعمل

أولى كل من نور الدين وصلاح الدين عنايتها للحياة الاقتصادية، وأزالا الضرائب والمكوس عن كافة البلاد. وكان لهذه السياسة أثرها في تشجيع النمو الاقتصادي وإقبال الناس على الإسهام في العمل والبناء.

لقد وصف الدكتور حسين مؤنس هذه الآثار الإيجابية وقارنها بالسياسات السلبية التي سبقت خلال العهد الفاطمي فقال: «التزم نور الدين أحكام الشريعة أيضا فيما يتصل بجبي الضرائب، وكانت مقاديرها قد تزايدت مع الزمن حتى أن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسا (أي ضرائب) يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها. وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما يتقوتون به، والحقيقة أن الجانب الأكبر من هذه الضرائب المستحدثة كان يتسرب إلى أيدي الجباة والعمال الوزراء وحواشي القصور».

ولقد ألغى نور الدين هذه الضرائب التي لا يقرها الشرع، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم ومضوا يتاجرون، وأعلن كل إنسان ما عنده فجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام. فأقبل يعد للجهاد آلته مما آتاه الله، ونشط في البناء والتعمير حتى أنفق فيه الملايين من الدنانير، وقد أعانه على ذلك أنه لم تكن له نفقات خاصة، فلا قصور ولا خدم ولا حشم ولا جوار ولا مجالس أنس يملأ أفواه الندامى فيها بالدر والدنانير جوائز على أبيات من شعر الملق السخيف، وهذه هي الأبواب التي استنفدت ثروات الخلفاء والملوك قبله وبعده. فهو رجل اكتفى بأيسر الضرائب، واستطاع بالقليل الذي وصل إليه أن يهيئ الجيوش بعد الجيوش، ويبني مئات المدارس والمساجد والمستشفيات، ويقيم أسوار المدن وقلاعها ويشك كل قلعة بالجند والذخائر والأقوات.

فأقيمت الخانات والفنادق على طرق القوافل بين المدن والمقاطعات وأجري فيها الماء والصهاريج، وبنيت الأسواق التجارية وازدهرت الصناعات المختلفة والزراعة الواسعة، حتى أصبحت كل من مصر والشام تموج بالبساتين والمروج وتزخر بالمحاصيل والصناعات.

2 - إقامة المنشآت والمرافق العامة:

شملت الرعاية والعناية جميع نواحي البلاد من المدن والقرى، وجميع ميادين الحياة فيها. فلم تقتصر المساجد والمستشفيات والحمامات على جهة دون أخرى.

فقد بنى نور الدين في دمشق مستشفى وصفه ابن كثير بأنه «لم يبن في الشام مثله قبله ولا بعده» ووقف أوقافا على ذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل وما أشبه ذلك. ووقف على من يعلم اليتامى وجعل لهم نفقة وكسوة. كذلك بنى الخانات والفنادق الكثيرة في الطرقات والأبراج ورتب الخفراء في الأماكن المخوفة، وجعل فيها الحمام الزاجل.

وكان الجامع الأموي قد خرب على اثر الفتنة التي حدثت بين العامة عام 471هـ ولم يقم أحد بإصلاحه، فأمر نور الدين بإصلاحه وشكل لجنة برئاسة قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري للقيام بهذه المهمة، وخصص له أوقافا وإيرادات دائمة.

ولقد شاهد ابن جبير مدينة دمشق في تلك الفترة فذكر أنها احتوت على عشرين مدرسة ومستشفيين، وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه بالجامعات، فهي معاهد للتعليم العالي، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وكان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة، ثم تطور الأمر فأضيف إلى العلوم الدينية العلوم الطبيعية والنحو.

وقد وصف ابن جبير دمشق بأنها مفخرة من مفاخر الإسلام، ومن أحسن الدنيا منظرا. وفيها الكثير من الخوانق التي هي «قصور مزخرفة يطرد فيها جميعها الماء على أحسن منظر». وأنها احتوت على مائة حمام وأربعين دارا للوضوء.

كذلك أوقف نور الدين أوقافا خاصة لسكان الحرمين حتى لا يبتزوا الحجاج، وأقطع أمراء العرب البدو في شمال الجزيرة وجنوب الأردن الإقطاعات حتى لا يتعرضوا لقوافل الحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة المنورة وأجرى إليها الماء من العين التي بأحد عند قبر حمزة رضي الله عنه.

كذلك سار السلطان صلاح الدين السيرة نفسها، فحينما توحدت مصر مع بلاد الشام كانت قد خربتها القيادة الفاطمية قبل ذلك، فجد في تعميرها في جميع المجالات، ويروي ابن خلكان جانبا من ذلك فيقول:

«وكان السلطان صلاح الدين لما ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة المصرية كان مذهبها الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمر السلطان صلاح الدين المدرسة المجاورة للإمام الشافعي ومدرسة مجاورة لمشهد الحسين، ومدارس للحنفية، وأخرى للشافعية، وخانقاه للصوفية وأخرى للمالكية». كذلك حول صلاح الدين الأزهر إلى جامعة سنية، ونشر دور القرآن والحديث والأربطة في جميع أرجاء القطر، ولقد رتب في هذه المؤسسات المدرسين والطلبة وأجرى للجميع رواتب شهرية وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها.

كذلك ألغى صلاح الدين رسوم المرور التي كان الحجاج يدفعونها زمن الفاطميين والتي كانوا يلاقون بسببها ضغوطا شديدة تصل إلى حد الضرب، واستبدلها بأماكن للحجاج يأوون إليها خلال إقامتهم ويقدم لهم فيها الغذاء.

بناء القوة العسكرية

تزايدت العناية ببناء القوة العسكرية حين ضم نور الدين مملكة دمشق ونقل عاصمته إليها ووجد نفسه وجها لوجه أمام تهديدات الصليبيين. ولقد ترتب على اهتمام نور الدين وصلاح الدين بالقوة العسكرية أن برز ما يمكن تسميته المدرسة العسكرية النورية الصلاحية، حيث استمدت هذه المدرسة أصولها ومناهجها وبرامجها ومفاهيمها من توجيهات القرآن الكريم وتطبيقا السنة الشريفة وآثار أئمة الفقه الذين رافقوا حركة الفتح الإسلامي وأخرجوا الفقه الذي قام بترشيد هذا الفتح وتوجيهه، ويصف ابن قاضي شهبه مدى سيطرة هذا الهدف على قيادة نور الدين بقوله:

«كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ولا يتعدى ذلك». ولقد انقسم بناء القوة العسكرية إلى قسمين أساسيين:

الأول: بناء الصناعة والتحصينات العسكرية.

والثاني: بناء الجيش الإسلامي وتدريبه.

القسم الأول: بناء الصناعة والتحصينات العسكرية

أولت الدولة بقيادة كل من نور الدين وصلاح الدين عناية فائقة بإقامة التحصينات والقلاع والمصانع الحربية. فقد بنيت زمن قيادة نور الدين أسوار المدن الشامية وقلاعها ومنها قلاع دمشق وحمص وحلب وماردين وسيزر ومنبج وغيرها، وجرى تحصينها وأحكم بناؤها وأنفقت عليها الأموال الكثيرة.

كذلك بنيت زمن نور الدين الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنجة وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الزاجل، فإذا رأوا أحدا من العدو أرسلوا الطيور فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضا، وكان هذا من ألطف الأفكار وأكثرها نفعا.

أما زمن صلاح الدين فقد بني الكثير من التحصينات العسكرية، وأنشأ دورا لصناعة السفن في ثلاث مدن هي: القاهرة والإسكندرية ودمياط. كذلك أقيمت المصانع الحربية التي تزود الجيش والأسطول بكل أنواع الأسلحة والذخائر المستعملة آنذاك.

القسم الثاني: بناء الجيش والقوات المسلحة

اعتنى نور الدين ببناء الجيش وتدريبه نفسيا وقتاليا، ولقد اشتمل منهاج هذا البناء على ثلاثة أجزاء يكمل بعضها بعضا، وهذه الأجزاء هي:

أ- **التدريب العسكري**: أقام نور الدين في ساحات دمشق وبقية المدن ميادين التدريب وشارك فيها بنفسه، وحين عاتبه بعض المتشددين من العلماء بسبب مشاركته هذه وركوبه الخيل ولعب الكرة، أجاب نور الدين بأنه لا يفعل ذلك بقصد اللهو والمتعة، وإنما بقصد إبقاء الخيل على أعلى قدرة من الحركة وتغيير الاتجاه، وإبقاء الجند على أهبة الاستعداد لأي طارئ يستدعي النفير والجهاد.

والواقع أن قيادة نور الدين امتازت بمهارة عسكرية فائقة، وكشفت عن قدرة متميزة في تنظيم الجيوش والتخطيط للمعارك. فقد كان هؤلاء القادة، وعلى رأسهم نور الدين نفسه، يشاركون في التدريب اليومي وما يتعلق به من الرمي والطعان وركوب الخيل وضرب السيوف. وكان يترك لأسرة الجندي بعد وفاته الإقطاع الذي فرض له، فإن كانت أسرته قاصرة رتب لها من يتولى أمر إقطاعها حتى يكبر أطفالها.

وكان نور الدين يتولى بنفسه تفقد أحوال الجند، وتفقد خيولهم وأسلحتهم مخافة أن يقصر الأمراء في حقهم. وينسب أبو شهبه هذه الرعاية إلى شخص نور الدين وحده،

ولكن مطالعة أخبار مساعديه وأمرائه وقادة الجيش مثل أسد الدين شيركوه تدل على أنهم كانوا يفعلون الشيء نفسه ولديهم الدرجة نفسها من الاهتمام والكفاءة.

وفي جميع الإجراءات كان نور الدين يتحرى السنن الإسلامية في الأمور العسكرية، ومثال ذلك أن الجند كانوا يربطون السيوف في أوساطهم، فلما قرأ أن رسول الله ﷺ كان يتقلد بالسيف أمر بتغيير ذلك.

وفي هذه الميادين الحافلة بالحركة والتدريب كانت تربية الشاب صلاح الدين الذي قدر له فيما بعد أن يلعب الدور الذي لعبه.

وتشير أحداث حياة صلاح الدين الأولى إلى أنه ولد عام 532هـ في قلعة «تكريت» ونشأ في الموصل وبعلبك في كنف والده الذي كان أحد ضباط نور الدين العسكريين. وخلال تلك الفترة كان صلاح الدين شابا عاديا يكرس وقته للعب وركوب الخيل ولهو الشباب. واستمر في ذلك حتى خروجه مع عمه أسد الدين شيركوه، أكبر أمراء جيش نور الدين، في حملته على مصر، حيث انضم إلى معسكر عقائدي يموج بالإعداد الفكري والعسكري وتربية الإرادة، ولقد وصف صلاح الدين حالته النفسية عند بدء التحاقه بهذا المعسكر فقال: «كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى: وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم».

لقد تبدلت شخصية صلاح الدين بتأثير التوجيه الإسلامي الذي تعرض له، واتخذ موقفه في الحركة الإسلامية التي يقودها نور الدين. ويصف ابن شداد هذا التحول في حياة صلاح الدين واستقراره على النهج الإسلامي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وتولي صلاح الدين أمر مصر مكانه فيقول:

«وفوض الأمر بعده إلى السلطان، واستقرت القواعد، واستتبت الأحوال، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا إلى أن توفاه الله إلى رحمته».

وعندما تولى صلاح الدين القيادة فاقت العناية بالتدريب العسكري الوصف، حتى أن القادة والأمراء وعلى رأسهم صلاح الدين نفسه كانوا ينامون الليل متدرعين بأسلحتهم، ويعيشون في خيمة كبقية الجند، ولم يكن لصلاح الدين بيت غيرها.

كذلك أنشئت فرق عسكرية جديدة عرفت باسم الفرق الصلاحية، ورفع مستوى المهارات القتالية إلى درجة جعلت الجيش الإسلامي آنذاك على أرفع مستوى. ففي عام 567هـ/ 1171م، أي في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين نائبا عن نور الدين في مصر، أقيم عرض عسكري في القاهرة شهده رسل البيزنطيين والصليبيين، وكان فيه أربعة عشر ألف فارس كل منهم مزود بمتاعه من الخيول ونحوها، ولكل معاون سلاحه، هذا عدا عن الجنود المشاة الملحقين بالجيش. وكان هناك جيش دائم، وفرق مساعدة بمثابة جند غير نظاميين لا يقلون عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد.

ولقد أنشأ صلاح الدين ديوانا خاصا بالأسطول وخصص له موارد هامة، منها متحصلات إقليم الفيوم، وإيراد ديوان الزكاة، فضلا عن حصة النطرون.

ومنذ عام 575هـ أصبح الأسطول قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة: ستون من الشواني وهي المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها مائة وخمسين رجلا وتصلح في حالات الهجوم والدفاع، وعشرون طرادة وهي سفن سريعة الحركة تحمل الخيل، ومنفعة المسلمين بها أشهر من أن تذكر.

ولقد قسم صلاح الدين هذا الأسطول إلى قسمين: قسم لحماية سواحل مصر، وقسم لحماية سواحل الشام.

ب- **الإعداد العقائدي للجهاد**: بدأ التخطيط والتنفيذ لهذا النوع من الإعداد زمن نور الدين، وغاية هذا الإعداد بلورة مفهوم الجهاد والحكمة منه، والحرص على تنمية ولاء الجندي لله سبحانه، وبذل نفسه في سبيله، وتكريس طاقاته له، مع الحذر الشديد من شرك الولاء لقائد أو سلطان أو رئيس، فقد رأوا في ذلك كله شركا يفسد الجهاد ويحبطه. وفي هذا المجال ألف نور الدين كتابا في الجهاد، واستقدم مئات الفقهاء ممن اشتهروا بالزهد والغيرة على الإسلام، خاصة أولئك الذين تخرجوا من مدارس الإصلاح والتجديد، وجعلهم مدرسين في مباني التدريب لفقه هذا الجهاد واستظهار أحكامه وأخلاقه.

ج- **تربية الإرادة**: وكانت غاية هذا النوع من الإعداد العسكري تنمية إرادة الجهاد وتعشقه والتفاني في السعي للمشاركة فيه، والاتصاف بما يرافق هذه المشاركة من ثبات وتضحية وصبر ومرابطة.

كانت أولى بدايات الوحدة انضمام مملكة دمشق عام 545هـ/ 1151م بعد مناوآت طويلة من صاحبها، عمد خلالها إلى معارضة الوحدة وإلى التحالف مع مملكة الصليبيين في القدس ضد الدولة المسلمة الفتية، وكان يعاونه في حكم دمشق عصبة من المستبدين المستمتعين بخيرات البلد معه، ويقدم الدكتور حسين مؤنس وصفا مفصلا جميلا للمراحل التي تم خلالها انضمام مملكة دمشق إلى نور الدين، وكيف تعاون أهلها على استقدامه والدخول في طاعته فيقول: كانت مملكة دمشق هذه تمتد جنوبا حتى تتاخم حدود مملكة بيت المقدس الصليبية على خط طويل يمتد مستعرضا شمال ناحية الجليل، فزالت الفجوة الواسعة التي كانت تحجز بين نور الدين وملاقاة هذه المملكة وجها لوجه، وازدادت جبهة الإسلام قوة بدخول دمشق ورجالها وأنجادها في جبهة الجهاد والتحرير وانفتح الطريق إلى مصر.

كذلك قامت المواجهة مع دولة انفصالية أخرى هي دولة الفاطميين في مصر. وقد أثرت العلاقات المضطربة بين نور الدين وإمارات الصليبيين تأثيرا بالغا في أسلوب الاقتراب من مصر. فقد عمد نور الدين إلى تصفية الجيوب الصليبية التي تقع بينه وبين مصر، كذلك أرسل إليها الدعاة والوعاظ لتهيئة الرأي العام لاستقبال الفاتح المخلص للانضمام إلى ركب الوحدة الإسلامية التي لا سبيل بدونها إلى تحرير البلاد ودفع الأخطار.

وأخذ نور الدين يتحين الفرص الملائمة لعبور مصر، وقد لاحت له الفرصة عندما اختلف حكام مصر أمثال القائد ضرغام بن ثعلبة والوزير شاور حول مصالحهم الشخصية واستنجادهم بالصليبيين وبنور الدين ضد بعضهم بعضا. وعلى اثر ذلك أرسل نور الدين عام 562هـ/ 1167م حملة بقيادة القائد أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فدخلت هذه الحملة مصر لتجد الصليبيين قد أرسلوا حملة أخرى. ولقد مضت مدة من المناوآت العسكرية بين الطرفين عمل خلالها حكام مصر الفاطميون على اللعب بين الطرفين لمصالحهم الشخصية. ولم تستقر الأمور لنور الدين في مصر حتى عام 564هـ/ 1169م حين قتل صلاح الدين شاور لخيانته للجبهة الإسلامية ومؤامراته مع الصليبيين.

وكان لدخول مصر في دولة نور الدين دوي بعيد لا في مملكة القدس الصليبية فحسب وإنما في الغرب الأوربي كله، حيث أخذوا يعدون العدة لحملة صليبية جديدة على الشرق. وقد أدى تطور الأحداث التي تلت إلى إلغاء الخلافة الفاطمية نهائيا وضم مصر إلى الدولة الإسلامية.

لقد مضى نور الدين بعد ذلك ينازل الصليبيين ويسترجع مقدسات المسلمين، حتى استطاع استرجاع نيف وخمسين مدينة من الصليبيين.

ثم عزم على فتح بيت المقدس وأعد منبرا جديدا للمسجد الأقصى. ولكن المنية وافته وهو في غمرة الاستعدادات عام 569هـ/ 1169م فآل الأمر من بعده إلى كبير رجاله وواليه على مصر صلاح الدين الأيوبي الذي مضى على الطريق نفسه لتحقيق الأهداف نفسها.

مضى المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي ينازلون الصليبيين في مواقع متعددة، حتى إذا حان الوقت راحوا يزحفون نحو القدس، تتقدمهم جميع القيادات، ويضم جيشهم الأمراء والعلماء والفقهاء والصوفية بمختلف مذاهبهم وتخصصاتهم.

والتحم المسلمون بالمحتلين متدافعين للجنة والاستشهاد، ثم دخلوا المدينة المقدسة مكبرين مهللين. وتوجهت جموع المجاهدين إلى الأقصى المحرر ونظفوه مما تراكم فيه من أوساخ المحتلين وقاذوراتهم، وفي أول يوم جمعة أقيمت فيه امتلأ الجامع وسالت لرقة القلوب المدامع، وطلب صلاح الدين إلى ابن الزكي الشافعي أن يلقي الخطبة، فبدأ ابن الزكي خطبته بقوله: «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومستدرج الكفر بمكره» ثم راح يهنئ الحاضرين «بما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس الذي من شأنه كذا وكذا» فذكر فضائله ومآثره، وأنه أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، وإليه المحشر والمنشر يوم التلاق وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء.

وبعد انتهاء الصلاة طلب صلاح الدين إلى ابن النجا القادري الحنبلي أن يفتح الوعظ والكلام فوقف بين جموع المحتشدين، ووصفه المؤرخ أبو شامة فقال:

«وكان – أي صلاح الدين – قد نصب للوعظ تجاه القبلة سريرا فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا فذكر من خاف ومن رجا، وأتى بكل موعظة للراقدين موقظة، ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون، وعج المتشاكون، ورقت القلوب وخفت الكروب». وفي الجمعة الثانية طلب صلاح الدين إلى ابن نجا أن يكرر الوعظ في المسجد ففعل.

ويذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين بعد أن فتح القدس أخبره بأن هدفه الآن أن يموت أشرف الميتات، فلما سأله عن كيفية ذلك؟ أجابه أنه يرغب أن يركب البحر ويغزو مواطن الفرنجة في أوروبا لنشر الإسلام.

بدأ صلاح الدين في اتخاذ الإجراءات الأولية لذلك. فقد رأى أن استئناف الفتوحات الإسلامية في أوروبا عمل يحتاج إلى تضافر جميع القوى الإسلامية وحشد كافة الطاقات في شرق البلاد الإسلامية وغربها، أو على الأقل تعاون الدولتين اللتين قامتا على أسس العقيدة الإسلامية: دولته في الشرق ودولة الموحدين في الغرب التي قامت على أساس أفكار محمد بن تومرت الذي تتلمذ في الشرق على أيدي الأشاعرة الشافعية، وأنه قابل الغزالي واستلهم أفكاره في الإصلاح وإعادة عز الإسلام.

لذلك أرسل صلاح الدين إلى سلطان الموحدين في المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وفدا برئاسة عبد الرحمن بن منقذ، وحمل رئيس الوفد رسالة مطولة، وحمله هدية سنية في 8 ذي القعدة عام 586هـ. وقد اقترح صلاح الدين في الرسالة تحالف القوى الإسلامية في المشرق والمغرب، وأن تنضم أساطيل الموحدين إلى أساطيل صلاح الدين لمحاربة المراكب الإفرنجية.

وصل الوفد في 20 ذي الحجة وأقام هناك حتى عاشوراء من محرم عام 588هـ، ولم تفد هذه المراسلة شيئا لأن يعقوب سلطان الموحدين، كما يقول ابن كثير وابن واصل والذهبي، غضب إذ لم يلقب بأمير المؤمنين، ومن الطبيعي أن لا يعير صلاح الدين اهتماما لمثل هذه القضايا، فهو نفسه لم يتخذ لقبا في حياته وإنما أطلق عليه أصحابه ومحبوه لقب سلطان بعد مماته. كما أن القاضي الفاضل الذي أنشأ الكتاب تردد في إطلاق لقب أمير المؤمنين على يعقوب خوفا من إغضاب العباسيين. ولقد ذاق الموحدون فيما بعد نتائج قصر نظرهم، فسقطت الأندلس وتعرض المغرب لهجمات البرتغال والأسبان قرونا انتهت باحتلاله ومعاناته من الاستعمار الأوروبي حتى العصر الحديث.

على أن صلاح الدين بعد ذلك سرعان ما ظهر عليه الإرهاق الجسدي، وتناول جسمه عدد من الأمراض إلى أن عاجلته المنية في دمشق حيث دفن إلى جوار نور الدين عام 598هـ، وبموته توقف مشروع الفتوحات الإسلامية.

هذه هي طبيعة الإستراتيجية التي عملت مقدار نصف قرن كامل، وهيأت المجتمع الإسلامي لمواجهة الأخطار التي أحدقت به.

تقويم مدارس الإصلاح والتجديد

نجحت مدارس الإصلاح والتجديد في إخراج جيل نور الدين وصلاح الدين الذي استطاع مواجهة التحديات الصليبية وإعادة القدس، لكن هذه المدارس لم تنجح في

إمداد الأمة الجديدة بما يحافظ على استمرار وحدتها ونمائها الحضاري في ميادين الحياة المختلفة، بل إن التخلف أصاب هذه المدارس نفسها وانتهى بها إلى ما عرف بالطرق الصوفية وامتداداتها المتمثلة بجماعات الدراويش المختلفة.

ولعل ابن تيمية هو أكثر من ناقش هذا المصير السلبي الذي انتهت إليه مدارس الإصلاح، خاصة في رسائله وفتاواه المضمنة في الجزء العاشر من مجموعة الفتاوى الذي يحمل عنوان كتاب السلوك والجزء الحادي عشر الذي يحمل عنوان كتاب التصوف.

ولقد ركز ابن تيمية في مناقشاته على التفريق بين بدايات مدارس الإصلاح والتجديد وبين المصير الطرقي الدرويشي الذي انتهت إليه. فالبدايات حسب تحليل ابن تيمية قامت على أصول سليمة تتفق مع الكتاب والسنة، أما النهايات فقد نسيت تلك الأصول الشرعية ونسبت إلى الشيوخ المؤسسين الكثير من بدعها وضلالاتها ومبالغاتها.

وحينما سئل ابن تيمية عن البدع التي أحدثتها الطرق الصوفية وجماعات الدراويش كالرقص في حلقات الذكر والغناء بالدف أجاب:

«واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة، هو من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة ولا أكابر شيوخها: كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، وسري السقطي، وغير هؤلاء. وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل: الشيخ عبد القادر، والشيخ عدي، والشيخ أبي مدين، والشيخ أبي البيان وغير هؤلاء، فإنهم لم يحضروا السماع البدعي، بل كانوا يحضرون السماع الشرعي، سماع الأنبياء وأتباعهم كسماع القرآن والله أعلم».

والمنهج الذي استعمله ابن تيمية في نقد الطرق الصوفية يركز على إظهار مخالفة هذه الطرق للأصول الإسلامية في الكتاب والسنة، ولكنه لا يحاول كشف المؤثرات والظروف التي انتهت بمدارس الإصلاح والتجديد إلى المصير الذي آلت إليه، وحينما نتحرى هذه المؤثرات والظروف نجدها تتمثل في عوامل ثلاثة هي:

الأول: نقص الفقه الحركي الذي وجه نشاطات هذه المدارس.

والثاني: أثر قيم العصبيات الأسرية والقبلية في تنظيمها القيادي والإداري.

والثالث: أثر سياسات السلطنة المملوكية المفرطة في الظلم.

أما عن العامل الأول فإن هذه المدارس ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر الإخلاص في العمل دون العناية نفسها بعنصر الصواب، أي أنها ركزت على التربية أكثر من الإستراتيجية، ولذلك لم تفرز فقه الحكمة اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد وتنظيم مسؤوليات العاملين فيها وأدائهم وحسن استثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما اكتفت بفقه الآباء الذي يركز على المظهر الديني للعبادة دون المظهر الاجتماعي، وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق الزهد وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم مثلا بـ«قادري السلوك.. حنبلي المذهب».

كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين الفقه المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية وتسخير تطبيقها في ميادين الحضارة المادية المختلفة. وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على صلاح الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات القيادية عن مسرح الحياة برز تأثير العامل الثاني، أي أثر قيم العصبيات الأسرية والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي أفرز ظاهرتين سلبيتين هما:

الأولى: حين لم يجد جيل الأبناء فقها سياسيا وإداريا ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة، ارتد إلى تقاليد العصبية الأسرية والقبلية وروابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثا يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدى إلى تفكك الدولة وانقسامها حيث تقاسم الأبناء ما وحده جيل الآباء، وأداروه طبقا لتقاليد العصبيات الأسرية التي سبقت جيل الإصلاح، والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

كذلك أدى النقص في الفقه السياسي الإداري إلى انفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش، ومن ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري الذي يصفه ابن خلكان بأنه كان أميرا كبيرا وافر الحركة معدودا بين الملوك، وكان صلاح الدين قد أقطعه وهو شاب إقطاع نابلس إكراما لوالده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش وقادته، فقد اتفق عماد

الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفائز، ولكن المحاولة لم تنجح ودب الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين، وانسحب عماد الدين إلى قلعة تلعفر بين الموصل وسنجار، وانتهى أمره بالقبض عليه واعتقاله في قلعة حران حيث بقي فيها حتى وفاته عام 610هـ.

والخلاصة أن الجدب في الفقه السياسي والإداري أفرز بعد جيل صلاح الدين قيادات وإدارات متسلطة فردية، ارتدت لتحكم الأمة بقيم: القوة فوق الشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى، والارتجال بدل التخطيط، وهكذا.

والظاهرة السلبية الثانية هي أن قيم العصبية الأسرية تسللت إلى مدارس الإصلاح نفسها، إذ يستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة كابن الوردي، وابن المستوفي أن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعيات دينية وعصبيات مذهبية، وأدى إلى انصراف النابهين المثقفين من صفوفها واجتماع العامة فيما عرف باسم الطرق الصوفية التي اشتقت أسماءها من أسماء الآباء المؤسسين كالطريقة القادرية والطريقة البيانية والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال، وهذه النهاية هي الصورة التي شاعت بين الباحثين والمؤرخين وانحدرت إلى المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر.

وأما عن العامل الثالث أي سياسات السلطنة المملوكية المفرطة في الظلم، فقد أدى الرعب الذي أشاعته هذه السياسات في واقع المجتمع إلى انتحار المعارضة السياسية اجتماعيا واغترابها في عالم الرؤى والتصورات التي لا وجود لها. ولقد تجسد هذا الانتحار الاجتماعي في المقولات الخوارقية والكرامات المعجزة والمبالغات التي نسبتها الطرق إلى الشيوخ الكبار المؤسسين لمدارس الإصلاح. فكانت هذه المقولات تطورا متخلفا للمعارضة السلبية التي قادها الشيوخ المؤسسون ضد من أسموهم بالسلاطين الظلمة وحلفائهم من علماء السوء وفقهاء الدنيا، وهي المعارضة التي تشبه ما يسمى بالعصيان المدني في الوقت الحاضر.

وتتضح أصول هذه المعارضة المفرطة في السلبية أو الانتحار الجماعي من فيض المصطلحات التي أفرزتها الطرق الصوفية التي قسمت الدولة في المجتمع الإسلامي

آنذاك إلى دولتين: دولة الباطن ودولة الظاهر، ومن قائمة الوظائف والرتب في كلا الدولتين والتي تجعل الأفضلية والمكانة والفاعلية لقيادات دولة الباطن وسلاطينها. فالشيخ المؤسس هو «سلطان الوقت» و «المتصرف في الزمان» و «صاحب الفتح السني» و «المتمكن من الأحوال». فالشيخ عبد القادر مثلا هو سلطان الأولياء والشيخ أحمد الرفاعي هو سلطان العارفين وآخر هو سلطان العلماء، والملوك وسلاطين الدنيا حكام على الأجساد، بينما شيوخ الطرق الصوفية هم حكام على الأرواح والنفوس. كذلك أفرغت مصطلحات القطب والأبدال والأوتاد وأمثالها من مضامينها الإدارية والتنظيمية، وحل محلها مضامين خوارقية خيالية تجسد الآمال المحبطة لدى المنتحرين اجتماعيا المغتربين في عوالم الغيب الذي لا وجود له.

ومن السطحية أن توصف ظاهرة المقولات الخوارقية والكرامات المعجزة على أنها مجرد بدع وضلالات ومبالغات كما يطلق عليها أصحاب منهج الحكم والإدانة، وإنما هي بمقياس المنهج التحليلي التشخيصي إسقاطات نفسية لمعارضة سياسية شعبية مفرطة في السلبية، يئست من عدالة الواقع فارتدت تبحث عنها في دنيا الخيالات والرؤى. وهي تبرير الولاء للشيخ الصوفي بدل شيخ السلطة، وللسلطان الروحي بدل السلطان العسكري. وهي مبررات تمتد إلى مختلف ميادين الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وتطرح نفسها بأساليب نابعة من ثقافة ذلك العصر ومناهج التفكير التي سادت فيه. وتزخر كتب التراث الصوفي، وكتابات مؤرخي تلك الفترة بأشكال الإسقاطات النفسية المشار إليها.

ولعله من المناسب هنا أن نقول إن العلة التي وسمت عهد سلاطين المماليك بالظلم، الذي دفع بالملايين الغفيرة إلى الاغتراب في عالم الدراويش ورؤى السعادة المتخيلة، هي أن الإنسان المملوكي لم يعرف المحبة والرحمة والعطف والعدل في طفولته ونشأته وحالات ضعفه وفقره، لذلك لم يمنحها لأحد عند رجولته وفي حالات قوته وغناه. فالمماليك كانوا في الأصل بعض إفرازات الجشع لدى أصحاب التجارة والاقتصاد في الشام ومصر حين فسق المترفون فيهما عن طرق الكسب الحلال، فصاروا يجلبون أبناء شرق العالم الإسلامي وبناته بضاعة بشرية تتراوح أعمار سلعها بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ثم يتوزعهم المترفون، غلمانا وإماء، حيث يتعرضون لأسوأ الخبرات التي تنال من كراماتهم وإنسانيتهم وعفتهم ومفهوم الذات لديهم. وحين صار المماليك سلاطين وقادة

وجندا تضافرت هذه الخبرات السلبية لتجعل من المملوك السلطان، والمملوك القائد، والمملوك الجندي، إنسانا قاسي الفؤاد، عديم الانتماء. ووسمت السياسة الداخلية للسلطنة المملوكية بالقسوة والظلم الشديد لـ «المسلمين» في الشام ومصر، وإن انتصروا لـ «الإسلام» في عين جالوت.

وجميع هذه السياسات الظالمة تركت آثارها المدمرة في الشخصية المسلمة حتى الوقت الحاضر. فصارت السمة العامة للجماهير المسلمة هي الاغتراب في عالم الغيب الحالم، والانتحار الجماعي في خوارق الطرق الصوفية، والسلبية إزاء الحاكم، والنكوص عن مجابهة التحديات وتحمل المسؤوليات . وهكذا دفع العالم الإسلامي وبخاصة الشام ومصر الثمن فادحا، إذ سمح لظاهرة الرق المملوكي أن تشيع في المجتمع الذي سبق قيام دولة المماليك، وتفرز مضاعفاتها السلبية في قيمه وتقاليده ونظمه السياسية والاجتماعية.

والواقع أن إقبال الجماهير المسلمة على الطرق الصوفية وجماعات الدراويش هو لون من ألوان الانتحار الاجتماعي الذي تمارسه الجماهير المسلمة حين تيأس من عدل المجتمع الظاهر الحي، فتنسحب منه إلى عالم ميتافيزيقي وتعيش معطلة الفاعلية لا أثر لها في الأحداث ولا وزن في مجابهة الأخطار والتحديات. وهو انتحار ما زال يمارسه الشرقي، بشكل عام، حين ترهبه السلطة العسكرية والسياسية، وتكمم فاه عن المطالبة بقوام حياته المادية وحرياته الأساسية. فينسحب للركوع بين يدي شيوخ الطرق والدراويش بالقدر الذي يجبر سلاطين السياسة وأمراء العسكر مظلوميهم على الركوع بين أيديهم. فهو انتحار اجتماعي يطور مبرراته في ظل ثقافة الدين، تماما كما ينتحر الغربي انتحارا جسديا حين يضربه الإحباط واليأس في ظل ثقافة المادة. ويساعد الشرقي على هذا الانتحار الاجتماعي أن نظام القيم في المجتمعات الشرقية عامة يدحر قيم العدل والحرية من المحور إلى الهامش، ويجعل الإنسان يرضى باغتصاب حريته وكرامته قرونا وقرونا بانتظار الرسول أو المهدي المخلص!!.

انعكاسات حركة المقاومة على المجتمع الإسلامي

أولاً : الفقهاء والقضاة واستجابتهم لمقاومة الغزو الصليبي

أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية، ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس

للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد، والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو.

1- **استنجاد فقهاء وقضاة دمشق بخلافة بغداد:** لم تكن دمشق في البداية هدفاً لذلك الغزو، ولكن فقهاءها وقضاتها أدركوا خطورته على مدينتهم التي كانت لا تختلف عن القدس، فهي ملتقى لطلاب العلم والفقهاء والقضاة من أقاليم الخلافة الإسلامية كافة، وخاصة عندما عرفوا ما حل برفاقهم هناك، ولذلك اتفقوا على إرسال وفد من قبلهم (عام 492هـ/ 1098م) برئاسة قاضي دمشق زين الإسلام محمد بن نصر أبو سعد الهروي المتوفى سنة 519هـ إلى مركز الخلافة الشرعية بغداد، ومدن كبيرة في بلاد العجم، وشرفت له الحال؛ وعظمت رتبته وعلاجته كما يقول السبكي. ولذلك كان اختياره إشارة واضحة لضخامة المخاوف والآمال التي كانت تجول بأذهان فقهاء الشام وقضاتها، وقد استقبله الخليفة العباسي المستظهر بالله (486-512هـ) (1091-1118م) مع جماعته وأورد في الديوان كلاماً في حال المسلمين في القدس والشام، والتهديدات الصليبية لوجودهم، ولكن دون جدوى، ولذلك فكر القاضي الهروي في خطة ذكية لإثارة السكان في بغداد كوسيلة للضغط على الخليفة حتى يرغمه في التفكير جدياً بطلبهم ودعوتهم عن طريق استخدام الجوامع في بغداد مركز الرأي العام الإسلامي هناك وهذه هي المرحلة الثانية من مهمتهم، وقال ابن الأثير في ذلك: وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد، صحبة القاضي أبي سعد الهروي – فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمع، فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، وذكروا ماداهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو سعد الحلواني إلى السلطان السلجوقي بركياروق في أصفهان مقر السلطة السياسية والعسكرية الفعلية لمساعدة فقهاء دمشق في طلبهم، ولكي يتخلص من عبئهم، ويحمله مسؤولية تلك المهمة حتى أن اختياره لأولئك الفقهاء كان ذكياً هو الآخر، لأن البعض منهم تشير ألقابهم إلى أن أصولهم من مناطق فارس وبلاد ما وراء النهر – دامغان – مفارقين – زنجان وأنهم ربما بإمكانهم التأثير في سلاجقة فارس، لإمدادهم بالقوة العسكرية، فالدامغاني ولي قضاء نيسابور، والشاشي ولد بميافارقين ودامغان لم تبعد كثيراً من أصفهان ولكن هدف الوفد كان بعيداً عن

التحقيق، وعند وصول ذلك الوفد إلى مدينة حلوان علم بمقتل الوزير السلجوقي مجد الملك البلاساني، واختلاف سلاطين السلاجقة ببلاد فارس حول حكم المنطقة وبذلك عاد الوفد من بغداد دون أن يحقق نجاحاً، وعاد القاضي ورفقته بغير نجدة ولا قوة إلا بالله، ودافعت دمشق عن نفسها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وفي عام 513هـ/ 1120م عندما حاصر الصليبيون دمشق أرسل أميرها وفداً آخر للخلافة العباسية في بغداد لطلب نجدتها مرة أخرى. وترأس هذا الوفد القاضي عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي الدمشقي الذي كان آنذاك شيخ الحنابلة بالشام إلى الخليفة المسترشد بالله (512-529هـ) وذلك لمكانة العائلة الشيرازية بدمشق آنذاك لكونها تحتل زعامة الفقه الحنبلي في تلك المدينة، وتدير العديد من المؤسسات الدينية في القضاء والوعظ والتدريس وإمامة الجوامع. وعلى الرغم من أن القاضي الشيرازي قد تمكن من مقابلة الخليفة العباسي في بغداد الذي خلع عليه ووعده بالإنجاد إلا أن مهمته لم تأت بالشيء الجديد كما هي الحال بالنسبة لمهمة زميله الهروي، ويبدو أن الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك شيئاً غير الوعود بالمساعدة ولعل القاضي الشيرازي أدرك هو الآخر عجز السلطة السياسية والشرعية في بغداد ولجأ للاعتماد على النفس والعودة إلى دمشق وتعبئة سكانها للدفاع عنها، حيث كان له مجلس يعظ فيه للجهاد، ويلقى تأييداً من حكام المدينة حتى وفاته عام 536هـ.

2- القاضي الأمير: فخر الملك بن عمار والاستنجاد بالإمارات المحلية وخلافة بغداد: في بداية الغزو الصليبي لبلاد الشام هادن فخر الملك الغزاة وأمدهم بالمال والمرشدين ليبعدهم عنه لكن ما إن تحقق هدفهم في أخذ بيت المقدس حتى تفرغوا له وحاصروا طرابلس وتوجه ابن عمار في طلب النجدة من الإمارات المحلية في مدن الشام والجزيرة، واستطاع أن يقاوم الحصار، وراسل السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه شارحاً له حالة طرابلس وأحوال بلاد الشام أمام مخاطر ذلك الغزو. وتتابعت المكاتبات إلى السلطان محمد بن ملكشاه من فخر الملك بن عمار، صاحب طرابلس بعظيم ما أرتكبه الإفرنج من الفساد في البلاد، وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل والفتك بالمسلمين، ومضايقة طرابلس، والاستغاثة إليه والاستصراخ على تدارك الناس بالمعونة، ولم يكن من أمر ذلك السلطان إلا أن يبادر بالكتابة إلى أميريه: في الحلة حيث الأمير سيف بن صدقة، وجكرمش أمير الموصل، وحثهما على نجدة ابن عمار وتقويته بالمال والرجال على الجهاد، وأنه سيمنحهما منطقتي الرحبة وما على الفرات إن هما ساعداه، وأرسل

السلطان محمد حملة بقيادة «جاولي سقاوة» بحجة أنها متجهة لنجدة ابن عمار في طرابلس، فاستولى على الموصل بدلاً من نجدة طرابلس، التي لم يتوجه إليها إطلاقاً. وأدرك القاضي ابن عمار عجز القوى الإسلامية المحلية كلها عن نجدته، وقرر التوجه بنفسه إلى بغداد مقر الخلافة العباسية ووصل الأمير محملاً بالهدايا والتحف الثمينة، ورغم الحفاوة التي استقبل بها في بغداد إلا أن رحلته لم تحقق نجاحاً في الأهداف التي سعى من أجلها، كما هو الحال لمدينة دمشق وقضاتها الهروي والشيرازي.

3 - **استنجاد فقهاء وقضاة حلب بخلافة بغداد:** وكان لعائلة ابن أبي جرادة الدينية المتولية أمر القضاء والإمامة بحلب دور تحمل تلك المهمة في طلب نجدة من بغداد، عندما تعرضت حلب هي الأخرى بحكم موقعها الاستراتيجي لخطر الغزو الصليبي عام (504هـ/ 1111م) فقد أرسلت وفداً من الفقهاء وأعيان البلد، والذي يبدو كان برئاسة قاضي حلب أبي غانم هبة بن أبي جرادة إلى بغداد، وكان يعتقد بتحقيق هدفه في نجدتها، لأن وجوده بحلب كان بسبب علاقته الوطيدة بالسلطة الشرعية ببغداد، وأمام فشل ذلك القاضي وجماعته في عدم التمكن من مقابلة الخليفة العباسي المستظهر بالله أدركوا حقيقة ضعف ذلك الخليفة عن قرب، وأن السلطة الفعلية ليست بيده بل بيد السلطان السلجوقي، لذا بدأوا به أولاً بإثارة السكان ضده، حيث دخلوا الجامع الذي بقرب داره يوم الجمعة، فأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه.. وصاحوا بها لحق الإسلام من الإفرنج. وشرحوا للناس ما حل بإخوانهم المسلمين في حلب وأعماله ومدن بلاد الشام من تدمير وخراب على أيدي الغزاة الصليبيين، مما أدى إلى استجابة الناس وشحذ هممهم؛ لكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى مقر السلطان بركيارق، الذي منعهم حّراسه من مقابلته. غير أنه أوعز إلى حّراسه ليبلغوهم أنه سيرسل قواته لإنجادهم. وقرّر فقهاء حلب التوجه مّرة أخرى إلى الخليفة المستظهر بالله نفسه، فاندفعوا إلى دار الخليفة بعد أن دخلوا جامع القصر، ومنعوا الناس من الصلاة وشرحوا أمرهم لهم، فثار الناس من حولهم، وكان ذلك الأمر قد أجبر الخليفة العباسي على ضرورة مقابلتهم وقولهم له: أما تتقي الله أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم. وهنا يشير النص السالف الذكر إلى أن وجود فقهاء حلب ببغداد عام 504هـ/ 1111م قد تزامن مع وصول وفد الدولة البيزنطية إلى بغداد أيضاً؛ للتفاهم مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي حول إمكانية توحيد جهودهما لمواجهة الخطر الصليبي لبلاد الشام مؤكداً للجانب الإسلامي بأن الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس قد منعهم من العبور

إلى بلاد المسلمين وحاربهم. ويفهم من هذه الرواية أن الجانب البيزنطي أراد الاستعانة بالجانب الإسلامي لمواجهة ذلك الخطر الصليبي، خاصة بعدما نقض الصليبيون الاتفاقية المُبرمة مع البيزنطيين (عام 490هـ/ 1096م) والتي تضمنت إرجاع الممتلكات البيزنطية في بلاد الشام في حالة استعادتها من الجانب الإسلامي.

على أية حالة لم يكن فقهاء حلب أوفر حظاً مع خلافة بغداد من بقية وفود المدن الشامية الأخرى، رغم ما أشار إليه ابن كثير أن فقهاء بغداد وعلى رأسهم الفقيه «ابن الدغواني» قد استجابوا لفقهاء حلب، وقرروا الخروج معهم لجهاد الصليبيين في بلاد الشام، ولما علموا بما آلت إليه تلك المدن من وقوعها تحت الغزو الصليبي رجعوا إلى بغداد ولم يفعلوا شيئاً. ومهما يكن من أمر تلك الرواية فإن فقهاء حلب على ما يبدو قد سئموا من نجدة الخلافة في بغداد، وتوجهوا للاستغاثة بالإمارات المحلية لنجدتهم.

4- دور الفقهاء والقضاة في التحريض على الجهاد بالكتابة والتأليف: لم تكن الاستجابة من قبل الفقهاء والقضاة في بلاد الشام ضد الغزو الصليبي مقتصرة على الاستغاثة وطلب النجدة، بل تعدت إلى العديد من الوسائل الأخرى التي من بينها الكتابة والتأليف في الجهاد ضد ذلك الغزو، لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة، حيث نالت اهتماماً كبيراً من جماعة الفقهاء والعلماء قبل وأثناء الغزو الصليبي، فقد كانت حاجة العصر للتعبئة الفكرية، ونشر الثقافة الإسلامية من الأمور الأساسية آنذاك في وقت كانت بلاد الشام تخوض صراعاً سياسياً ومذهبياً عسكرياً انعكس على تدوين التاريخ في الشرق العربي، وظهور العديد من المصنفات والتراجم حول سير السلاطين والملوك والأسر الحاكمة وأحداث القتال والصراع ضد الصليبيين، ولذلك اندفعت فئة الفقهاء والقضاة إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، وقد جاء ذلك مجسداً عبر مؤلفاتهم وكتبهم من خلال مجموعتين: الأولى ركزت على التأليف والوعظ بصورة تقليدية؛ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيف للناس، والثانية التي توجهت للتحريض والتأليف في الجهاد، وحث المسلمين عليه، لأنها أدركت الضعف العام في إيمان المسلمين وتركهم لأمور دينهم، لذلك كتبت الكثير من المصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام.

5- المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد: إن من أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك الفقهاء للعساكر النظامية في ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن الأرض والنفس كانت حالة القاضي أبو محمد عبد الله بن

منصور المعروف بابن صليحة قاضي حصن جبلة، الذي تولى إمارة وقضاء ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور عام 494هـ/ 1100م وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه أحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته، وقد برزت مواهب ذلك الأمير القاضي عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه عام (494هـ/ 1100م) واستخدامه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولاً؛ وذلك عندما خطط بدهاء، لنشر الذعر بين صفوف قوات الإفرنج، حيث أظهر أن السلطان بركيارق قد توجه إلى الشام لمساعدته، مما أثار الفرنجة، والقلق بين عسكرهم، ورحيلهم فيما بعد. وعندما أدرك الفرنجة حقيقة تلك الخدعة، عادوا فحاصروا المدينة مرة أخرى، ولكن كرر ذلك القاضي تلك الحيلة بصورة أخرى، ونشر بين صفوف الصليبيين أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن، ويبدو أن الفرنجة لم يكن لديهم المعلومات الكافية عن حالة الحصن، ولا عن عدد قوات ذلك القاضي وإلا لما تركوا محاصرة ذلك الحصن في المرتين السابقتين، ولكن سرعان ما فطن الفرنجة لتلك الحرب النفسية وأهدافها، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة في شهر شعبان عام 494هـ، إلا أن ذلك القاضي أدرك أن الفرنجة قد عرفوا أساليبه القديمة ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهتهم بأن قرر مع النصارى الذين في الحصن، واتفق معهم على إرسال وفد منهم إلى الفرنجة للتفاهم حول تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم لاستلام الحصن، وأن يبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فوافق الفرنجة على ذلك ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم، فلم يزالوا يرقون في الحبال واحد بعد واحد، وكلما صار عند ابن صليحة وهو على السور رجل منهم قتله، إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى الرؤوس إليهم، ورغم ذلك لم يسترح الصليبيون للطعم والفخ الذي نصبه لهم قاضي جبلة، وتحقيق ذلك النجاح. ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، ونصبوا على البلد برج خشب، وهدموا أبراجاً من أبراجه. ولكن ما يملكه ذلك القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفطن لذلك الخطر المحدق به، حيث لم يركن للهدوء والاستسلام، وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبدت ذلك الغزو الخسائر والفشل أكثر من مرة. ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الصليبين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقوباً في أسوار المدينة. ويبدو أنه كان السور الخلفي، وذلك لتسهيل مهمة خروج مجموعة من جيشه ونقب في السور نقباً، وعندما خرج القاضي ابن صليحة وجيشه من الأبواب لقتالهم تظاهر بالهزيمة أمامهم. بحيث انطوت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لم

يفطنوا لها، وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذي استغل فيه جنده الفرصة في الخروج من تلك الثقوب، والتفوا من حوله، فأتوا الفرنجة من ظهورهم فولوا منهزمين. ولا بد أن القاضي ابن صليحة قد أطلع على فنون الحرب، وبعض الأساليب العسكرية الإسلامية، فأسلوب الحرب النفسية ليس جديدا على التراث العسكري الإسلامي، إذ استخدم الرسول الكريم ﷺ ذلك الأسلوب في غزوة الخندق من العام الخامس للهجرة عند ما حفر الخندق وهزم جيوش الأحزاب، وكذلك معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة عندما حول القائد خالد بن الوليد المعركة مع الروم من الهزيمة إلى النصر وذلك باستخدامه الحرب النفسية عن طريق تكثيف الغبار بفرسانه حتى ظن أولئك الروم أن إمدادات وصلت إلى المسلمين فولوا منهزمين، وانسحب الجيش الإسلامي من أرض المعركة دون أية خسائر أخرى، وقد طبق تلك الحرب النفسية في العديد من المعارك الأخرى، والتي من بينها معركة اليرموك عام 13هـ عندما عمل على تقسيم قواته، بحيث جعل الميمنة ميسرة والخلف إلى الأمام وبهذا الأسلوب العسكري التكتيكي أرهب جيوش الروم الكبيرة العدد وأوقع بهم الهزائم.

6- **تحريض الفقهاء والقضاة على القتال في ساحات المعارك:** تبرز شخصية القاضي أبو الفضل الخشاب قاضي حلب المعروف في هذا المجال، فعندما أشتد الحصار الصليبي على حلب عام (513هـ/ 1119م) أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب على حجر وبيده رمح حيث ألقى فيهم خطبة بليغة، استنهض بها هممهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة، ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العام إلا الصليبيين لم يترددوا في بذل محاولة أخرى لأخذ حلب عام 518هـ/ 1124م وذلك عندما قاموا بتخريب كل القرى المجاورة لها، حتى لا يقدموا المساعدة لمدينة حلب ونزل الإفرنج حران ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في التحريض على قتال ذلك الغزو، بل كان له دور في تحريض الأمير آقسنقر البرسقي أمير الموصل على قتالهم.

ثانياً: الشعراء ودورهم في حركة المقاومة

قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد وهتك الأعراض ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم

إنه، في هذا المطلع، يصّرح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للذم، ولكنه ولا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته، لن يغني عن شيء في معركة لا يسعّر نيرانها إلا السيوف القواطع ومنها:

فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمةً في ظل أمن وغبطةٍ ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كلّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلهُم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان، وأنتم ... تجرون ذيل الخفض، فعل المسالم

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع أخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيبدأ هذه المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين: إيهاً بني الإسلام أنِ اصُحوا من نومكم فما دهمكم من الغزو يجعل أعزتكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم، إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون ناعماً آمناً وغير بعيد منهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس أخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات خيولهم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثبات النعمة كما أنكم مسلمون أو متحالفون مع الأعداء، ومنها:

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمىً ... تواري حياءً حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمُر العوالي داميات اللَّهاذِم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سنَّ نادم
سَللن بأيدي المشركين قواصناً ... ستُغْمد منهم في الطُّلا والجماجم
يكاد لهن المستجنُّ بطيبة ... ينادي، بأعلى الصوت، يا آل هاشم

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثيرة من المسلمين ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدن ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحّر فيها القتل حتى بدت أسنَّة السيوف والرماح حمراء لا هبة، وحتى أن الصبيان ربما يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب، ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتحدث عن أخطارها فيهّون من شأن الأعداء وأسلحتهم فما استلّوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفي آخر الآبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول ﷺ، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد على الأعداء، بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب.

أرى أمتـــي لا يــشرعون إلى العـــدا	رمـــاحهم، والــدين واهــي الــدعائم
ويجتنبـون النـار خوفـاً مــن الـردى	ولا يحـسبون العــار ضربـــة لازم
أتــرضى صـناديد الأعاريـب بـالأذى	ويغــضي عـلى ذلّ كـماة الأعــاجم؟
فليـــتهم إذ لم يـــذودوا حميـــة	عــن الــدين، ضـنوا غـيره بالمحـارم
وإن زهـدوا في الأجـر، إذ حمـي الـوغى	فهـــلا أتـــوه رغبـــة في الغنـــائم؟

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكيت الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعَرَضها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج ونيل الشهادة!! وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصغار في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن والقعود عن الجهاد. ولم يزل الشاعر يستصرخهم والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقن الفرنجة درساً قاسياً، كما تعّودوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد الإسلام:

لـئن أذعنـت تلـك الخياشـيم للـبُرى ... فــلا عطــست إلا بأجــدع رغــم
دعونــاكمُ والحــرب تــدعو ملحــة ... إلينــا بألحــاظ النــسور القــشاعم
تراقــب فينــا غــارة عربيــة ... تطيـل عليهـا الـروم غَـضَّ الأبـاهم
فــإن أنــتمُ لم تغـضبوا بعـد هـذه ... رمينــا إلى أعــدائنا بــالجرائم

وقال شاعر آخر في الغزو الصليبي لبيت المقدس:

أحــلَّ الكفــرُ بالإســلام ضـيماً ... يطــول عليــه للــدين النحيــب
فحــقٌّ ضــائع وحمــىً مبــاح ... وســيف قــاطع ودم صــبيب
وكــم مــن مــسلم أمــسى سـليباً ... ومــسلمة لهــا حــرم ســليب
وكــم مــن مــسجد جعلــوه ديـراً ... عــلى محرابــه نُــصبَ الــصليب
دم الخنزيــر فيــه لهــم خَلــوقٌ ... وتحريــق المــصاحف فيــه طيــب
أمــور لــو تــأملهن طفــل ... لطفَّــل في عوارضــه المــشيب
أتــسبى المــسلماتُ بكــل ثغــر؟ ... وعــيش المــسلمين إذن يطيــب
أمــا لله والإســلام حــق؟ ... يــدافع عنــه شــبان وشــيب
فقــل لــذوي البـصائر حيـث كـانوا ... أجيبــوا الله، ويحكــم، أجيبــوا

ويبدو للمتأمل في هذه الأشعار أنها تسجل مشاعر الإنسان المسلم في مرحلة غزو الإفرنج وظفرهم من مراحل الحروب الصليبية وأبرز هذه المشاعر:

- الشعور الديني: فالأبيوردي يستصرخ بني الإسلام «فإيهاً بني الإسلام» لأن الأعداء مشركون «سللن بأيدي المشركين» فهو بعد نداء المسلمين عامة يؤمل ألا يقبل بهذا الغزو لا صناديد الأعاريب ولا كماة الأعاجم، كما أنه يرى أن الرسول ﷺ يستفظع هذا الغزو ويدعو قومه لدرئه؛ وفي الوقت الذي يدعوهم للصمود والثبات في وجه الغزاة يقلب لهم أسباب هذا الصمود وعوامله فيطالبهم بأن يتذكروا أولاً، ثواب الله في الآخرة عليه، فإن تناسوا هذه، فيطالبهم، بأن يذبوا عن محارمهم على الأقل، وربما كان هذا الشعور الديني في القصيدة البائية أكثر بروزاً ووضوحاً من سابقتها، فمنذ الكلمة الأولى يطلعنا الشاعر على أن الضيم قد حل أولاً بالإسلام، ثم أخذ يعدد ألوان هذا الضيم المتعددة مهتماً بما حدث للمساجد من تحويل إلى أديرة، وبما ارتفع على محاريبها من صلبان،

ومما أخذ يفوح فيها من رائحة لحم الخنزير أو المصاحف المحروقة، وإنه ليربط ربطاً محكماً بين ما يكاد يقشعر له شعر رأسه من سبي النساء وبين العيش الهنيء للمسلمين المتخلفين عن الجهاد، ويتجمع الحسّ الإسلامي عند هذا الشاعر المؤمن المجاهد، فيصرخ في وجه القعدة المتخاذلين صرخة تهز أعماقهم «أما لله والإسلام حق؟؟». إن هذا هو الأساس الثابت وراء هذا الأدب الإسلامي الملتزم بقضايا الأمة وهمومها؛ إن كل الحروب بما فيها رد للغزو أو نفير للجهاد «أجيبوا الله ويحكم أجيبوا» والويل والثبور لمن يتخلف عن تلبية نداء هذا الداعي. أما مكانة القدس في قلوب المسلمين في ذلك العهد وفي كل عهد فهي مما يكمل هذا الشعور ويؤكد عليه؛ فبعد الانتصار على حاكم مملكة أنطاكية النصراني، وبعد فتح مصر ثم توحيدها مع الشام تحت القبضة الإسلامية، وبعد فتح حلب، بعد هذا كله لم يكن النداء التالي إلا الشروع في العمل لتخليص القدس والمسجد الأقصى من أسر المشركين وتطهيره من مظاهر الشرك والدنس.

- الشعور الاجتماعي: ويتبع الإحساس بما حاق بالدين إحساس بالهوان الذي ألم بالمسلمين أنفسهم «تسومهم الروم الهوان» وهم إما على صهوات الخيل وإما في بطون طيور الجو، وكم من دماء قد أبيحت، فحقٌّ ضائع وحمى مباح «وكم من مسلم أمسى سليباً». إنه شعور بالضياع والهزيمة أمام هذه الزحوف الغازية في حالة تقاعس بعض المسلمين عن شد أزر بعض في ساعات العسرة:

أرى أمتـــي لا يـــشرعون إلى العـــدا رمـــاحهم والـــدين واهـــي الـــدعائم

ومما يثقل كاهل الإنسان المسلم، الذي يعيش هذه الآلام، ما يحيق بنساء المسلمين في المجتمع الإسلامي، من سبي وقهر واغتصاب، فما عسى النساء الجميلات أن يدفعن عن أنفسهن إذا دُخلت عليهنَّ خدورهن من أقطارها؟ وما عسى المعاصم النسائية التي تشابكت لتواري النفس من الخجل ولئلا تقع عيون علوج الأعداء المهاجمين في عيونهم، ما عساها أن تدفع عنهن من الشرور المقتحمة؟ وغاية ما يهدد به هذا الشاعر المتألم بني قومه أن يخلي بين النساء وسائر المحرمات وبين الأعداء إذا هم ظلوا متخاذلين عن المشاركة في الجهاد لدفع عدوان أعداء الله، ومما يدلل على عمق تأثير هذا الشعور في النفس المسلمة أن شاعر القصيدة البائية عدد أصناف الشقاء التي حاقت بالمسلمين، إثر الغزو الصليبي بألم، حتى إذا ما وصل إلى صورة سبي النساء المسلمات صرخ بأعلى صوته، ومن أعماق إحساسه، بسؤال يهز أعماق السامعين أتسبي المسلمات بكل ثغر؟؟ وذلك

مقابل مالا يليق لدى الطرف الثاني من اهتمام المسلمين «وعيش المسلمين إذن يطيب؟» ويتبع هذه الأسئلة سؤال آخر يضرب في أعماق هذه المشاعر كلها، وهو ما ذكرنا من شعور ديني متألم «أما لله والإسلام حق» فالله سبحانه، لا يرضى أن تسبى المسلمات وهو القائل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:39] وهو القائل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:8] هل في هذا الإلحاح على الألم الشديد مما حاق بنساء المسلمين إثر هذه الحروب، بقايا من الإحساس القبلي بعار العشيرة، إذا أضيمت نساؤها؟ لو سلمنا بوجوده فإننا نلمح في الوقت نفسه أن الإسلام طالب بالدفاع عن الحمى والمحرمات، والنساء أولى هذه المحميات في الإسلام.

– الشعور النفسي: وإذا كان الشعور الاجتماعي يتسع أفقه لحمل هموم المجتمع الإسلامي بجميع أفراده فإن الفرد المسلم، على النطاق الفردي، قد أخذ يحسُّ بمجموعة من الأحاسيس الطاحنة تحت وطأة هذا الغزو الغاشم من جهة، وتخلف الكثيرين من أبناء الإسلام من جهة أخرى. وأولى مشاعر الفرد في هذه الجو، هو الحزن الشديد الذي لف نفوس جميع الأفراد لفاً، فأول ما نطقت به كلمات الأبيوردي هو البكاء الذي لم يذرف الدموع فحسب ولكنه استنزل الدم من العيون بعد أن جفت الدموع!! وسرعان ما يزداد هذا الحزن حينما يفتح الشاعر عينيه على الحقيقة المرة: ما نفع الدموع في معركة لا تتكلم فيها إلا السيوف المواضي؟ وهنا تحدق الشرور بنفسية هذا الشاعر، ومن هذا الإحساس العاصف ينبت استنجاد الشاعر بأهله من المسلمين، للنهوض والرد على هذا الخطر المحدق «فإيها بني الإسلام» وما نفع الفرد، حينما تحيط به الأخطار، إن لم يكن له أهل يمنعونه؟ ونخرج بمثل هذا الحزن العاصف حينما نقرأ القصيدة البائية ونحس بخفقان قلب صاحبها المضطرب، لكثرة ما رأى وأحس وعاش من الأخطار التي تهددت وجوده ووجود أهله، فحقوقهم ضائعة ودماؤهم سائلة، ورجالهم كنسائهم في السبي والنهب، وبلادهم مباحة، ومساجدهم غدت أديرة. وحينما يبلغ الحزن مبلغ هز الأعماق تخرج الصرخات والاستنجاد والتذكير بحقوق الله في الجهاد والذب عن الحياض، ونكاد نلمح مثل هذه المشاعر الفردية الحزينة حينما يأخذ الشعراء في تزيين فتح القدس للقادة الفاتحين بمختلف ضروب الإقناع، فقد كان هذا الأمل يداعب نفوس المسلمين، جميع المسلمين، منذ أن فتحوا عيونهم على قبلتهم الأولى فوجدوها في أيدي أعداء الله.

– تصوير الحروب: وتكاد قصيدة الأبيوردي تنفرد بتصوير ما وقع بين المسلمين وبين أعدائهم المهاجمين من حروب، قبل استيلاء الصليبيين على مقدساتهم، وهذه مأثرة

إيجابية تحسب لها، فالقدس لم يستول عليها الأعداء دون قتال، وإلا لكان هذا دليلاً على الضعف والخور، فهذه الحروب تسعّرها السيوف القاطعة، وحينما كان الهجوم صمد لهم أبناء الشام الأبطال حتى ليظل الواحد منهم على صهوة جواده ليل نهار حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه فتتخطفهم سباع الأرض أو نسور الجو، كما قال أحد خطباء العصر الأموي، كما أن النساء اللواتي اقتحمت عليهن خدورهن دافعن بعد أن استعر القتال بين رجالهن وبين الأعداء:

بحيث السيوف محمرة الظبا ... وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم

إنها صدمات تصير لها الولدان شيباً، كما ورد في القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة؛ إنها حروب يستل فيها المشركون سيوفاً قاطعة، لكن المدافعين عن حرمات الإسلام يردون هذه السيوف المعتدية إلى نحور أصحابها ورؤوسهم، أجل إن المقاومة الإسلامية قد هبت في وجوه المعتدين مُنذ أن وطئت أقدامهم النجسة أراضي المسلمين في سواحل بلاد الشام الشمالية، وظلت راية الجهاد مرفوعة لرد المعتدين، حتى خرج آخر صليبي معتدٍ من هذه الديار الإسلامية، بعد قرنين من الصراع المستمر.

- **الدعوات إلى الجهاد**: إن أحزان الشعراء والأفراد وشعورهم بالضياع أمام ما رأت أعينهم من مصير الدين الذي صار بهذا الغزو الصليبي واهي الدعائم، ومن فظائع شتتت شمل أهلهم المسلمين وسبت نساءهم وأذلت رجالهم، بعد القتال الشديد، وحولت مساجدهم إلى كنائس؛ إن هذا الحزن الجارف لم يقعد بهؤلاء الشعراء عند مرحلة البكاء وذرف الدموع وتصوير ما حاق بالناس من مصائب، إنه حملهم على أن يسلكوا السبيل الأصوب في مثل هذه المواقف، فقد أصبح الشاعر نذيراً لأمته بالشرور التي ستطبق عليهم في الدنيا وبغضب الله في الآخرة إذا هم ظلوا متقاعسين عن الجهاد لدرء الأخطار، فلقد قال الشاعر لأهله إن الدموع لا تغني في حروب السيوف، فدعاهم للتجمع والرد فوراءهم ما يذل الأعزة. ويبكتهم على تقاعسهم ليهبوا للجهاد:

أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنّوار الخميلة ناعم

وقابل لهم بين الصورتين غير المتوازنتين: قتال فريق من المسلمين وتقاعس الفريق الآخر، وما أفعل قوله وأشد تأثيره: أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا... الخ البيت، فقوله

أمتي فيها الإيجاز والتأثير ومنطق النداء والدعوة، ومرة يمدحهم بالشجاعة والنخوة ويذكرهم بها ليهبوا للجهاد، ومرة يناقشهم في أسباب الدفاع والصمود، أما حينما يخامره الشك في أن يستمعوا إلى نداءاته هذه كلها فإنه يلجأ للتأثير عليهم من جهة أخرى هي جهة التذكير بالنساء والأعراض واحتمال وقوعها تحت أيدي الأعداء المهاجمين. وكذلك يفعل الشاعر المجهول، فبعد أن يصور لهم ما حاق بأهليهم من شقاء وهوان، يدعوهم بصريح العبارة إلى تلبية نداء الله بالجهاد والثأر للكرامة الإسلامية، ديناً ومتدينين وبلاداً ومسلمين.

نهضة آل زنكي

كانت الحالة الاجتماعية والسياسية في المشرق الإسلامي من أعظم الأسباب التي ساعدت الصليبيين على نجاحهم في الحملة الصليبية الأولى، وتكوين الإمارات اللاتينية. وكانت المنافسات الداخلية في الإمبراطورية السلجوقية، والمنازعات والقتال بين ورثة هذا الملك العظيم أكبر معين على استقرار الصليبيين بالبلاد الشامية، وتطاولهم على الممالك الإسلامية، وإدخال الرعب والفزع على المجتمع الإسلامي بينما الملوك والأمراء والقواد يتحاسدون، ويقتتلون، ويخذل بعضهم بعضا، فكانت هذه الحال السيئة من فقد الوازع الديني، ومن التفسخ الأخلاقي، والانحلال الاجتماعي، تتطلب نهضة صالحة، وقائدا منقذا يتبعه الأمن الاجتماعي، والضرب على أيدي الظلمة والمفسدين، ثم محو هذا العار الذي التصق بالجموع الإسلامية، عار استقرار الصليبيين بعقر ديار الإسلام.

واستمرت هذه الحالة السيئة إلى ما بعد استقرار الصليبيين ، حتى قيض الله رجالا مصلحين عملوا على إزالة تلك العلل قدر المستطاع. وقد بدأت هذه الحركة الإصلاحية بنهضة آل زنكي، التي تمخضت عن نهضة آل أيوب.

بيت آل زنكي

آل زنكي عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان ملكشاه السلجوقي. وهو قسيم الدولة آقسنقر. كان من مماليك ملكشاه وأصحابه وتربى معه منذ الصغر، فلما تولى ملكشاه السلطنة اتخذ آقسنقر من قواده وأمرائه، إذ كانت تبدو عليه علامات الكفاءة والقيادة والاستقامة، وبإشارة من الوزير نظام الملك ولي آقسنقر مدينة حلب من قبل السلطان ملكشاه. فاستمر واليا عليها إلى أن جرت بينه وبين تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان معارك انتهت بقتله سنة 487هـ ولم يترك آقسنقر إلا ولدا صغيرا له من العمر عشر سنوات (عماد الدين).

عماد الدين زنكي (الأتابك)

قضى الطفل عماد الدين زنكي حياته الأولى تحت أوصيائه وأصدقاء أبيه. ومن أبرز هؤلاء عماد الدين كربوغا صاحب الموصل. وشارك وهو شاب في بعض المعارك والمناوشات التي كانت تثار ضد الإمارات الصليبية، فكانت تبدو منه البراعة والشجاعة. واسترعى انتباه السلاجقة والخليفة العباسي فأقطع سنة 516 هـ مدينة واسط وشحنكية البصرة. وفي سنة 519هـ أعطيت له شحنكية بغداد والعراق. وفي سنة 521هـ نال الولاية على الموصل. وهنا فسح المجال أمامه ليظهر نبوغه، ويقوم بنهضته الإصلاحية.

كان عماد الدين زنكي ذا همة عالية، لا مطمع له إلا تكوين مملكة إسلامية موحدة تقوى على مجابهة الصليبيين، وإبعاد خطرهم، وإزالة نفوذهم. وكانت سياسته مبنية على بث الأمن والعدالة الاجتماعية داخليا. وعلى توسيع مملكته وتنظيمها خارجيا. وكان من عدله ونظامه أن شاع ذكره، واشتهر صيته، وبعثت إليه المدن تستنجد به ضد ظلم حكامها وسوء سيرتهم. وصادف ذلك هوى في نفس عماد الدين، فأخذ يحتل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية وديار بكر وغربي الفرات. ولم يمض زمن حتى أصبحت دولته تشمل الجزيرة الفراتية وأعالي الفرات وحمص وحماة وحلب وبعلبك ومعرة النعمان. كما افتك عدة حصون من الصليبيين، إذ أصبح يتاخمهم في كثير من الجهات، ولم يبق خارجا عنه من البلاد الشامية إلا دمشق وما حولها، والممتلكات الصليبية، فكانت مملكة دمشق والممالك الصليبية هي الأعداء الرئيسيون لعماد الدين زنكي.

فتح الرها

وأعظم ما سجله عماد الدين زنكي هو فتحه لمدينة الرها، وانتصاره على أميرها جوسلين الثاني سنة (539 هـ-1144م) فأزال بذلك أول إمارة صليبية من حيث تكوينها، ومن حيث امتدادها بالمشرق الإسلامي. وكان للرها من القداسة ما يقرب من بيت المقدس في أخيلة العالم المسيحي، ولأنها تمت بأصولها إلى المسيحية الأولى، وهي أول الدول الصليبية وترس الصليبيين من ناحية الشرق.

واستمر عماد الدين زنكي في أعماله الجهادية والإصلاحية إلى سنة (541هـ-1146م) وعندما ذهب إلى محاصرة قلعة جعبر، على الضفة اليسرى من الفرات الأوسط، وبينما كان محاصرا لهذه القلعة، اغتالته وهو نائم جماعة من مماليكه بتحريض من أعدائه، فأثخنوه جراحا، مات بعدها بقليل.

وهكذا انتهت حياة عماد الدين زنكي بعد أن سار العدل في أيامه، واطمأن الناس إلى سلامتهم الشخصية، بعد أن أتى على تلك البلاد حين من الدهر عدم فيه الناس الثقة والأمن. هذا زيادة على محبته للعلم والعلماء، وإجرائه المصالح العامة، وتأمين السبل، وترفيه العيش والتيسير على الناس في الضرائب.

نور الدين محمود زنكي

لما توفي عماد ألدين زنكي ترك عدة أبناء أكبرهم سيف الدين غازي ونور الدين محمود، فاقتسم الأخوان المملكة بينهما: القسم الشرقي لسيف الدين غازي، وعاصمته الموصل، والقسم الغربي لنور الدين محمود، وعاصمته حلب. وكانت مملكة نور الدين محمود بهذا الوضع هي المتخمة للمالك الصليبية. مما جعل نور الدين محمود يقوم معهم بصراع عنيف دام طول حياته، فقدر له بذلك أن يكون من أعظم أبطال الإسلام مقاومة للصليبيين.

ولقد كان حسن النية ما بين الأخوين (سيف الدين غازي ونور الدين محمود) خير ضمان لعدم الشقاق بينهما، فلم تؤثر فيهما الأغراض والمنافسات كما أثرت في غيرهما من ورثة الممالك والإمارات.

وكان أعداء عماد الدين زنكي قد انتهزوا فرصة موته فانقض جوسلين الثاني على مدينة الرها واسترجعها وعاث فيها، وانقض صاحب دمشق على بعلبك، وكان الوالي عليها إذ ذاك من قبل عماد الدين زنكي القائد أيوب بن شاذي، فالتحق بصاحب دمشق وأصبح من قواده.

كانت حركة هذا الانقضاض خير ما عجم به عود نور الدين محمود بعد موت أبيه. ولهذا فما إن سمع بتوجه جوسلين الثاني إلى الرها حتى توجه إليه من حلب في عشرة آلاف فارس واسترجعها منه. وفر جوسلين بعد أن مكث فيها نحو أسبوع فقط، وأدب نور الدين أهل الرها المتنفضين. ثم أخذ يوسع مملكته على حساب الصليبيين، ففتح عدة حصون ومعاقل من أهمها حصون: أرتاح، باراة، بصرفوت، كفرلاثا. وبينما كان نور الدين محمود في عمله هذا كانت الأخبار قد وصلت إلى أوربا مستنجدة مستصرخة، فأخذت أوربا المسيحية تستعد لحرب صليبية أخرى.

الحرب الصليبية الثانية

يرجع سبب إثارة الحرب الصليبية الثانية إلى احتلال الرها من قبل عماد الدين زنكي، ثم إلى استرجاعها مرة ثانية من طرف ابنه نور الدين محمود ومعاقبته لأهلها، فقد

كان هذا هو السبب الأصلي للحرب الصليبية، نظرا لما لهذه المدينة من الحرمة والقداسة عند المسيحيين، ونظرا لهذه الوثبة الإسلامية الجديدة التي جعلت الإمارات الصليبية تتعرض لخطر داهم.

وكان الداعي المحرض لهذه الحملة الصليبية راهبا فرنسيا اسمه سان برنارد، وكان البابا إذ ذاك اوجان الثالث، وعقد مجمع كنسي في مدينة فيزولاي (في مارس 1146م-540هـ) واستجاب لذلك ملك فرنسا لويز السابع وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث، وسارت الجيوش الصليبية سالكة أوربا الوسطى حتى وصلت القسطنطينية (أكتوبر - نوفمبر 1147م-542هـ). ولم تكن علاقات الصليبيين مع الإمبراطور البيزنطي عمانويل حسنة، ولهذا سرعان ما توجه الصليبيون إلى آسيا الصغرى.

أما كونراد الثالث فقد سلك الطريق الذي سلكته الحرب الصليبية الأولى، فاصطدم مع سلاجقة قونية قرب إسكيشهر، فأجبروه على التراجع إلى نيقية ومنها إلى القسطنطينية حيث امتطى سفنا نقلته إلى بيت المقدس عن طريق البحر. وأما لويز السابع ـ ملك فرنسا ـ فقد سلك الطريق الساحلي لبلاد الأناضول تجنبا لملاقاة السلاجقة. ولكن رغم ذلك فقد التقت به الجيوش الإسلامية السلجوقية وفتكت به عام (1148م-542هـ) في جهة بيسيدي. ولما وصل إلى ميناء أطاليا اكترى من واليها البيزنطي مراكب نقلته مع حاشيته والبعض من جيشه إلى أنطاكية. وهناك اجتمع بصاحب أنطاكية ريموند، وكان من رأي هذا الأخير أن تقع محاربة نور الدين محمود، لأنه يمثل الخطر الحقيقي ضد الإمارات الصليبية. ولكن لويز السابع امتنع عن ذلك، مفضلا زيارة بيت المقدس قبل كل شيء. واحتدم الخلاف بينهما حتى خرج لويز السابع مغاضبا متجها إلى بيت المقدس، حيث كان ينتظره إمبراطور ألمانيا. وفي بيت المقدس تداول الرأي إمبراطور ألمانيا ولويز السابع وملك بيت المقدس، فاستقر أمرهم على أن يتوجهوا إلى مدينة دمشق ويحتلوها رغم أن صاحبها يعتبر حليفا للصليبيين ومن أنصارهم ضد آل زنكي. وعلى هذا القرار سارت القوات الصليبية إلى دمشق وناصبتها الحصار. ولكن هذا الحصار لم يستمر إلا نحو خمسة أيام إذ دب الخلاف بين القادة الصليبيين، وهددوا بقدوم سيف الدين غازي ونور الدين محمود. كما أن الدماشقة ساوموا مملكة بيت المقدس على تسليم حصن بانياس إذا رفع الحصار عن دمشق. وهكذا انتهى الأمر برفع الحصار عن دمشق (543هـ-1148م) وانتهت الحرب الصليبية الثانية بهذا الفشل الذريع والخيبة المرة، مما أنعش المجتمع الإسلامي، وقوى من معنوياته.

وقد كان من أهم أسباب هذه الخيبة تلك الغلطة السياسية التي ارتكبها الصليبيون عندما توجهوا إلى حليفتهم دمشق وناصبوها الحصار.

بقية أعمال نور الدين محمود

كان نور الدين محمود متبعا لخطة أبيه (عماد الدين زنكي) عاملا على إيجاد وحدة إسلامية قوية، يستطيع بها التغلب على الصليبيين. وما فتئ نور الدين يحارب أعداءه، ويوسع دائرة ملكه على حساب هؤلاء الأعداء من صليبيين ودماشقة، فأخذ يفتح الحصون والقلاع، وتغلب على صاحب أنطاكية (ريموند) وقتله (جويلية 1149م - صفر 544 هـ). كما تغلب على جوسلين الثاني، واحتل الكثير من حصونه وقلاعه الواقعة شمالي حلب ومنها: عين تاب، عزاز، حصن الباره، تل خالد، كفرلاثا، كفر سوب، دلوك، مرعش، نهر الجوز، برج الرصاص. وهكذا لم يمض سوى قليل من الوقت حتى أصبحت أملاك إمارة الرها وغالب أملاك أنطاكية - خصوصا ما كان منها شرقي نهر العاصي - خاضعة لسيادة نور الدين محمود.

احتلال الصليبيين لعسقلان واحتلال نور الدين محمود لدمشق

كانت المملكة المصرية في هذا الزمن على غاية من الفوضى والاضطراب. وأمام هذه الحالة السيئة اتجهت إليها أنظار الصليبيين، خصوصا مملكة بيت المقدس التي استغلت هذا الضعف والفوضى، فتوجهت جيوشها إلى مدينة عسقلان واحتلتها سنة (548هـ- 1153م). وكانت عسقلان هي آخر ما بقي للفاطميين بالبلاد الشامية. أما نور الدين محمود فقد أخذ منه هذا الأمر مأخذا عظيما، سيما وهو لا يستطيع إنجاد عسقلان ما دامت مملكة دمشق تحول بينه وبينها، ولما كانت تظهره هذه المملكة من التقرب إلى الصليبيين والخضوع لهم. لهذا وغيره عزم نور الدين محمود على فتح دمشق واحتلالها قبل أن يحتلها الصليبيون. وقد ساعده على هذا العزم وجود حزب يناصره في دمشق يتزعمه القائد أيوب بن شاذي. وسار نور الدين إلى دمشق، وسرعان ما استسلمت إليه المدينة وفتحت أبوابها (في صفر 549هـ - 1154م). وبذلك ضم نور الدين جميع البلاد الشامية الإسلامية. ثم عين نور الدين محمود القائد أيوب بن شاذي حاكما على مدينة دمشق، وعين أخاه شيركوه بن شاذي حاكما على ولايتها.

النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين

كانت مصر في غاية الفوضى والاضطراب، وذلك بسبب الثورات الداخلية التي تثار من أجل التحصيل على منصب الوزارة، فالخليفة الفاطمي أصبح لا يمثل شيئا إنما

الأمر بيد المتغلبين من الوزراء والقواد. وكم جرت من مذابح ومعارك من أجل الوزارة للخلافة الفاطمية. ولم تستقر الحالة إلا بتولية طلائع بن رزيك للوزارة سنة 549هـ. ولكنه ما إن قتل (558هـ-1163م) وتولى بعده ابنه رزيك بن طلائع حتى عادت الفوضى.

وكان كل من نور الدين محمود، وملك بيت المقدس أموري ينظر إلى مصر نظرة خاصة، ويود ضمها إليه لتعزيز جانبه. ولا يمنع كلا منهما عن احتلالها إلا خوفه من الآخر. وكانت الخلافات الداخلية من أجل الوزارة الفاطمية موجبة لتدخل كل من نور الدين وأموري في السياسة المصرية، وباعثة بهما إلى النزاع من أجل مصر.

ثورة شاور السعدي

عندما انتصب رزيك بن طلائع وزيرا للخلافة الفاطمية، ثار ضده شاور بن مجير السعدي الوالي على مصر العليا. واستطاع أن يتغلب على رزيك ويقتله، وأن ينتصب وزيرا للخليفة الفاطمي «العاضد» في المحرم سنة (558هـ-1162م).

وأساء شاور السعدي وأبناؤه السيرة مما جعل أحد القواد (ضرغام بن عامر اللخمي) يتواطأ مع الخليفة الفاطمي ضد الوزير شاور، فثار عليه وألجأه إلى الفرار وانتصب ضرغام على كرسي الوزارة، فتوجه شاور السعدي إلى دمشق مستنجدا بنور الدين محمود، متعهدا له بنفقات الحملة، وغرامة سنوية قدرها ثلث إيراد البلاد المصرية. ولكن نور الدين محمود تلكأ وتردد في إجابة طلب شاور السعدي إلى أن حدث ما أباد هذا التردد، فقد جاءت الأخبار معلمة بان أموري (ملك بيت المقدس) هجم على مصر وتغلب على ضرغام، فحالفه وأقر له بالجزية خوفا من تحالف شاور السعدي، فبعث معه قائده أسد الدين شيركوه. وكان من ضمن رجاله صلاح الدين الأيوبي. وهو ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي. وسرعان ما انتصر أسد الدين شيركوه على ضرغام.

وانتصب شاور السعدي على الوزارة من جديد، إلا انه لم يف بها لنور الدين محمود بل حالف مملكة بيت المقدس سريا، فاضطر أسد الدين لمحاربته بمساعدة صلاح الدين ابن أخيه. واستنجد شاور السعدي بملك بيت المقدس، واستطاعت الجيوش الشامية أن تصمد للجيوش المصرية والصليبية في بلبيس من رمضان إلى ذي الحجة (559 هـ-1164م) وانتهز نور الدين محمود اشتغال أموري بحرب مصر، فتوجه إلى حصن حارم وحصن بانياس وفتحها، فخشي أموري على مملكته، واخذ يفاوض أسد الدين شيركوه

في عقد هدنة بينهما. وعلى هذه النتيجة انتهت الجولة الأولى في النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين.

الدور الثاني من النزاع على مصر

استفاد أسد الدين شيركوه من ذهابه الأول إلى مصر، إذ سبر أغوار المملكة المصرية وعرف ما فيها، وأيقن بضرورة الاستيلاء عليها للتغلب على الصليبيين، لهذا اخذ يهون أمرها على نور الدين، ويطلب منه الإذن في احتلالها، وأذعن نور الدين أخيرا لرأي قائده فجردت حملة ثانية على مصر سنة (562 هـ-1167م) بقيادة أسد الدين شيركوه. وما إن سمع الوزير شاور بتوجه الجيوش النورية إلى مصر حتى بعث إلى أحلافه الصليبيين فأسرع إلى نجدته أموري ملك بيت المقدس. وتقابل الجيشان في صعيد مصر قرب «المنية» فانتصرت الجيوش النورية (563 هـ-1167م) انتصارا باهرا. واظهر الشاب صلاح الدين الأيوبي براعة وثباتا. ثم سارت الجيوش الشامية شمالا إلى الإسكندرية فدخلتها دون مقاومة تذكر. وعمل القائد شيركوه على إتمام فتح البلاد المصرية (الفسطاط والقاهرة) فترك نصف جيشه في الإسكندرية، موكلا قيادته وأمره إلى صلاح الدين الأيوبي. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها صلاح الدين القيادة وتحمل المسؤولية، وكأن القدر قد هيأ له المجال لإظهار بطولته وعبقريته، فانه ما إن توجه عمه أسد الدين شيركوه إلى الفسطاط والقاهرة حتى هاجم الصليبيون الإسكندرية وحاصروها برا وبحرا بمساعدة الأسطول البيزنطي. وأشتد الضيق على المحاصرين بالإسكندرية وكادوا يستسلمون. ولكن صلاح الدين (القائد الشاب) أظهر الجلد والمقاومة ودافع أحسن دفاع إلى أن أدركه عمه شيركوه. ومثل المرة الأولى انتهى الدور الثاني من النزاع على مصر بعقد هدنة التزم فيها الطرفان بالانسحاب عن مصر وتركها لأصحابها.

الدور الثالث والأخير من النزاع على مصر

لم يكن أموري (ملك بيت المقدس) مخلص النية في الهدنة السابقة، إذ لم يسحب كامل جيشه عن مصر، لأنه كان ينوي الاستيلاء عليها متى ابتعدت الجيوش الشامية عنها. وما إن اطمأن لهذا حتى جرد حملة على البلاد المصرية واستولى على بلبيس، وفتكت جيوشه بالسكان وذبحوا الكثير منهم، وأغراهم هذا الانتصار فتقدموا إلى الفسطاط. وخاف الوزير شاور من استيلاء الصليبيين عليها، فأشعل فيها النيران التي استمرت (54) يوما أتت عليها تماما. وتقدم الصليبيون إلى القاهرة وناصبوها الحصار. وأجرى

شاور السعدي مفاوضات مع الصليبيين واحكم التمطيط لهذه المفاوضات ريثما تصل الجيوش النورية التي بعث يستنجد بها.

وإذ كان نور الدين محمود عازما على الاستيلاء على مصر فقد انتهز الفرصة مره أخرى، وأرسل للمرة الثالثة قائده شيركوه بمعية صلاح الدين (ابن أخيه) وما إن وصلت الجيوش الشامية وانضم إليها الجيش المصري حتى بادر الصليبيون بالانسحاب، وفك الحصار دون إقدام على قتال.

ودخل شيركوه إلى القاهرة دخول القائد المنقذ، وهلل له الناس واستبشروا به، وقربه الخليفة العاضد منه وخلع عليه. ثم دبرت مؤامرة ضد شاور السعدي فقتل (564 هـ-1169م) وانتصب أسد الدين شيركوه وزيرا للخلافة الفاطمية. ولكن لم تدم وزارته أكثر من شهرين فتوفي في جمادى الآخرة 564 هـ (مارس 1169م).

وهكذا أصبحت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هي: دمشق، والرها، وحلب، والموصل، ثم القاهرة. واخذ نور الدين يلح على صلاح الدين الذي تولى وزارة مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة في (567 هـ/ 10 سبتمبر 1171م) حيث حل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة التي ألقيت في مسجد عمر بن العاص. وكان الخليفة الفاطمي العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع واحد دون أن يدري أن دولة آبائه قد دالت، وانه آخر الفاطميين.

كان انفراد صلاح الدين الأيوبي بالسلطة في مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ أن مصر بمواردها الهائلة جعلت قامته السياسية أكثر طولا. ثم جاءت وفات نور الدين محمود في (11 شوال 569 هـ/ 1174م) ثم موت عدوه اللدود أماليك(أموري) ملك بيت المقدس، في السنة نفسها، فرصة طيبة لكي يوحد الجبهة العربية الإسلامية، ويؤكد زعامته على العالم الإسلامي.

الفصل السابع

سلطنة صلاح الدين الأيوبي والحملة الصليبية الثالثة

فكر الخليفة «العاضد» الفاطمي في اختيار خليفة له بعد وفاة أسد الدين شيركوه، فقر قراره على اتخاذ يوسف صلاح الدين خلفا لعمه شيركوه رغم صغر سنه. ولم يكن تسلم صلاح الدين للوزارة في مصر حدثا عابرا في التاريخ، بل كان من الأحداث الكبرى التي غيرت لا مصيره الشخصي فحسب، ولكن مصير مصر والشرق العربي، وبالتالي اتجاه التاريخ الإسلامي كله، فقد حققت عملية تسليم الوزارة لصلاح الدين ثلاثة انقلابات معا:

1 - انقلاب في شخصية صلاح الدين: فلم يكن تتويجه بعمامة الوزارة البيضاء من الحرير التنيسي المطرز بالذهب، وبالثوب الديبقي المذهب، وعقد الجوهر، والسيف المحلى بالأحجار الثمينة، والفرس الصفراء، والتخت والأعلام..الخ، لم يكن ذلك كله مجرد مظهر خارجي، ولكن الشاب الذي لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره والذي عقدت له الوزارة انقلب شخصا آخر، وما لبث أن نمت فيه وعظمت أعباء المهمة التي يتصدى لها، ففي الوقت الذي هان فيه المال عنده تضخمت في ذاته مسؤولياته في الحكم، وبقدر ما جاء الحكم إليه عفوا بقدر ما صار أكثر حرصا على خدمته والتمسك به ليبقى فيه، ويذكر ابن شداد الذي عايشه السنوات العشر الأخيرة عنه أنه هانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا زاد إلا جدا.

كانت قفزته كبيرة، وبقدر كبرها كانت خطورتها، وكان من العقل بحيث ملأ مكانه واصطنع له ما يلائمه من التصرف.

2 - انقلاب في تاريخ مصر: لم يكن بدعا أن يلي منصب الوزارة الفاطمية وزير سني، فقد كان هناك وزراء سنيون على فترات متقطعة طيلة قرن تقريبا، ولكن البدع كان في اختلاف الولاء، فلأول مرة بعد عهد شيركوه القصير يتولى منصب الوزارة وزير سني لخليفة شيعي، والوزير يتبع الخلافة العباسية والخليفة عنده فاطمي معاد للعباسيين السنة، وإذا كان اجتماع السلطة التنفيذية بيد واحدة في مصر يحمل الاتجاهين معا، ويشير إلى وحدة الجبهة الإسلامية - الشامية المصرية - فإن من شأن ذلك أن يثير الكثير من المتاعب لصاحب المنصب، لأن عليه التجديف بين تيارين متضادين في السياسة، ويحتاج إلى براعة السياسي البهلوان، ليجمع بينهما دون تناقض، وقد استطاع صلاح الدين ببراعة أن يسير الأمور سنتين ونيفا حتى وحد الطرفين في الخط العباسي السني وماتت الخلافة الفاطمية في صمت، وتغيرت بذلك مصائر المشرق العربي.

3 - شعر بسرعة أن الوزارة ألقت عليه حملين ثقيلين هما: تنسيق جبهتي مصر والشام في خط متماسك واحد، والجهاد في سبيل الله لتحرير القدس، ولم تكن الفكرتان جديدتين عليه أو خطرتا له عفوا بعد توليه الحكم، فقد نشأ عليهما، وكانتا من أهداف الجماهير الإسلامية، ولكنه شعر وهو في مركزه أنه مسؤول شخصيا عن تنفيذهما، وأن الناس تنتظر منه بالذات تحقيق الهدفين بعد أن صار في إمكانه أن يعمل لهما وإلا فقد مكانته التي وصل إليها.

بهذه الانقلابات الثلاثة كان على صلاح الدين أن ينهج كل السبل السياسية والدبلوماسية الحازمة للتوفيق بين عدة أمور قد تبدو مشتبكة معقدة وصعبة، وعليه ترتيب الأولويات فيها، وهكذا فعل، وبرهن بكرمه مع الصديق والعدو وبحزمه وقوته على أنه رجل دولة موهوب.

كان عليه أن يعمل أولا على استقرار الأمور في البلاد، وبذل في ذلك المال الكثير وحسن المعاملة للناس، فاستمال قلوبهم وأحبوه، وضعف أمر العاضد، ولم يكن ليخفى عليه أن الكتلة الفاطمية الموجودة في الجيش أو في القصر أو بين الدعاة للمذهب والملتحقين بهم من الناس قد لا يرضون طويلا عن بقائه في السدة العليا، وأنهم لا شك منقلبون عليه متى استقرت له الأمور، وأن مشكلة الولاء المزدوج سوف تقوم بدورها في الشغب عليه خاصة وأنه متابع للقوم والناس يهرعون إليه من كل صوب.

لهذا جعل همه في السنة الأولى من حكمه الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع جميع مراكز القوى في مصر، وأرضى صلاح الدين كبار الرجال في الجيش المصري، وخلع السلطان

على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد، وعم الناس جميعا بالهبات والصلات. وقام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها، وجرى في منهاج العدل على حددها، واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل، وتيقظ للتدبير وحفظ ناموس الشرع وأمه الناس بنفائس الخطب والأشعار.

ويبدو أن الخليفة العاضد كان ضعيف الرأي والإرادة، تلعب به الأهواء، فهو يتخذ القرار ثم يوسوس رجال الحاشية في صدره فيتخذ عكسه، وإذ أعجب بصلاح الدين لشخصه فإنه لم يتقبل عساكر الشام من الترك القبول الحسن، وقد كتب إلى نور الدين بذلك. وكان السلطان يرى ذلك ويغض الطرف، ويرى من الحاشية الفاطمية بعض الازورار فينساه، لكن توالي الأحداث وتراكم البوادر دفعته إلى تقوية مركزه بعملين اثنين متقابلين:

- الإكثار من الجند الموالين له، وكان يجند الترك القادمين من الشام حتى ألف منهم فرقة عرفت بالصلاحية جعلها حرسا له.

- قص أجنحة الجند الفاطمي من الأمراء والعساكر وبخاصة عنصر السودان فيهم، لأن فاطميتهم كانت واضحة وهجومية فيهم.

ضرب الجماعة الفاطمية

لكن السلطان رغم سلطانه لم ينقطع عن التفكير والتدبير للجماعة الفاطمية التي لم تكن بالهينة لا في العدد ولا في النفوذ، ولاسيما في الجيش الفاطمي، وكان المصريون قبل دخول الفاطميين إلى مصر سنة 358هـ على المذهب المالكي في بعضهم، وعلى المذهب الشافعي في معظمهم، أي على مذهبين من مذاهب السنة.

وحين دخل جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر تعهد لأهلها في منشور الأمان أن يحترم مذهبهم، وكانت الخلافة العباسية قد أخرجت من مصر إلى العراق آل أبي طالب واستتر من كان على رأي الشيعة، وفي أيام العزيز الفاطمي بدأت الدعوة بين المصريين دون إلزام للمذهب الفاطمي بتعيين 35 فقيها في الجامع الأزهر لهذا الغرض، وكان وزراء الخلافة وقضاتها يقرأون شروحا من تأليفهم عن الفقه الشيعي ويستمع إليه الناس، ثم خطا الفاطميون خطوة أخرى أيام الحاكم بأمر الله فوضعوا نظاما دقيقا لتحويل المصريين إلى مذهبهم وبدأوا بالموظفين، وسميت الدعوة بالدعوة الهادية، وصار

لها دعاة يرأسهم داعي الدعاة، وانتشروا في أرجاء مصر، ولم تعد الدعوة شروحا للفقه والتشريع وهو الظاهر ولكن بالدعوة للباطنية، أي أن للقرآن ظاهرا وباطنا ولا يعرف هذا الباطن إلا الله والأئمة أولو العلم، ولكل لفظ فيه معنى خفي. وأصبح الدعاة درجات، ولا يكون من المذهب إلا من أقسم اليمين على حفظ السر، ومركز الحركة في دار الحكمة أو دار العلم التي أضيفت للجامع الأزهر، وانبث دعاتها في جميع الأراضي الإسلامية وبخاصة في مصر. وقد بلغت هذه الدعوة غايتها حتى انتشر المذهب الفاطمي في مصر، وأصبح المذهب السني غريبا وبخاصة في العاصمة القاهرة.

كان صلاح الدين يعتبر – مثله مثل كل المسلمين السنيين في المشرق – أن الفاطميين كفرة، وإذا كان لديه من السياسة ما يكفي لاستيعابهم، فلم يكن لديه من الثقافة الدينية ما يفهم به كفرهم ومعانيهم الباطنية وفلسفة المذهب اللاهوتية. ولما كان قد أضحى وزير تفويض مطلق اليد، والخليفة العاضد أكثر عزلة فأكثر، وليس في يده أمر سوى الشكل والاسم، فإن صلاح الدين أخذ في تعديل وتسوية ما كان يعتبره انحرافا عن الدين السوي بتقوية السنة، ويعتبره واجبا أمام الله، فقام بخطوات عديدة بهذا الاتجاه التقويمي التصحيحي حسب معتقده، يرضي به نفسه وسيده نور الدين والخلافة العباسية وأهل السنة جميعا، ومن ذلك:

- أنه عزل قضاة مصر الشيعة بوصفه كافل القضاة وقطع أرزاقهم، وجعل القضاء للشافعية فقط.

- سرح الدعاة وألغى مجالس الدعوة.

- أزال مظاهر المذهب في العبادة – الأذان بحي على خير العمل، صلاة الضحى، صيام رمضان ثلاثين يوما.

- ألغى عن السكة لفظة «علي ولي الله».

- منع صلاة الجمع في الجامع الأزهر وجامع الحاكم.

- خطب لنور الدين في الجوامع.

- جعل همه في دعم مذهبي الشافعي ومالك، وكانا – أي المذهبان – موجودين بين الناس، وجعل لهم المدارس المنظمة دينيا، والتي بناها بالتدريج في مختلف أنحاء مصر.

وإذ لم يجد صلاح الدين صعوبة أو معارضة عامة في ذلك كله فقد زاد بالمقابل في عدد الناقمين عليه من أصحاب المصالح ومن المتعصبين للفاطمية والتشيع عامة، وكان يعتبر هذه الأعمال عملية إصلاح ديني ضرورية لتوحيد الجبهة الإسلامية في منحى واحد، ولم يكن ذلك غريبا منه كحاكم، ألم يفعل ذلك الفاطميون من قبل؟

ونظر صلاح الدين في العصبية الفاطمية فوجد أنها تتمركز في حاشية القصر الفاطمي من حول الخليفة، وأنها تفسده عليه وقد تتآمر، ولم تكن هذه الحاشية بالقليلة في النفوذ ولا في العدد، فهي جماعة كبيرة سبق وأن قتلت الوزير طلائع بن رزيك قبل سنين، وقد تقتله إذا شاءت وهو متردد بصورة دائمة على القصر، ولم تعرف البلاطات الإسلامية مثيلا لها من قبل، فقد كان عددها عند سقوط الفاطميين حسب قول المقريزي ثمانية عشر ألفا، وهم موظفون من كل لون ودين وجنس لأعمال القصر، وفيهم العبيد الصقالبة البيض، والسودان السود، والخصيان وغير الخصيان، وهم الأستاذون (جمع أستاذ وهي كلمة فارسية تعني الأسطة الماهر) ويشرف عليهم الأساتذة المحنكون (أي الذين يلفون طرف العمامة حول وجوههم من تحت الحنك) وهم الخاصة، وقد يلقب بعضهم بالأمير، وكان بعض الوزراء والأمراء يتملقونهم بعملية التحنيك هذه مما يكشف شأنهم.

وهذه الجماعة كانت كالشوكة في حلق صلاح الدين، وكان يشعر بعدائها له في خائنات الأعين، وما كان منتظرا - خاصة من كبرائهم - أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تصرفات صلاح الدين المهينة لهم. ولكنهم كانوا يلتزمون بما قرر سيد القصر، فهم يخدمون دون اعتراض، وكان رئيسهم أيام السلطان صلاح الدين يدعى «جوهر» مؤتمن الدولة، وهو خصي أسود وإليه الحكم في القصر، ويبدو أنه غضب من سيطرة صلاح الدين وأراد أن يلعب لعبة شاور السابقة بالتعاون مع الفرنجة، ولما لم يكن يستطيع الذهاب إليهم فقد كتب رسالة بالاتفاق مع جماعة من الأمراء المصريين يستدعيهم للخلاص من صلاح الدين ومن معه، وسير الرسالة مع رجل يثق به ومكث ينتظر. وكان العرض الذي عرضه على الملك الإفرنجي أن يأتي بجيشه كالعادة فإذا تحرك صلاح الدين للدفاع ثار الفاطميون في القاهرة فقتلوا أصحاب عسكر الشام ثم تبعوا صلاح الدين فأتوه من خلف جيشه ووراء ظهره، فيكون بين نارين فلا تبقى له باقية، واتفق أن أوقف عسكري تركماني حامل الرسالة حين وجد معه نعلين ثمينين جديدين ليسا من ملبسه، وفتق النعل فوجد الرسالة فأتى به إلى السلطان، لكن صلاح الدين كتم ذلك ولم يظهره.

واستشعر مؤتمن الخلافة بالخطر، لكن السلطان أنظره فلازم القصر لا يخرج منه، وإذا خرج لم يبعد، فلما طال انتظاره خرج إلى قرية له يتنزه، وعلم صلاح الدين بخروجه فأرسل إليه جماعة أخذوه فقتلوه وأتوه برأسه، ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، وجعل زمام القصر بيد رجل من مماليكه الأقوياء يدعى قراقوش (الطائر الأسود) وهو تركي أو يوناني خصي، فأشرف على كل ما يتعلق بالقصر فلا يجري أمر فيه إلا بعلم صلاح الدين.

تحجيم النفوذ الفاطمي

وتبع ذلك أن استبد صلاح الدين بقواد الجيش من الأمراء المصريين، على الرغم من أنه بذل لهم المال أول الأمر فأحبوه وخدموه، ولكن بعضهم كانت الفاطمية تخالط اللحم والدم منه فخشي انتفاضتهم عليه، وبدأ فأنقص إقطاعاتهم لمصلحة الأمراء الشاميين القادمين، ثم قبض عليهم جميعا في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرق أقطاعاتهم على هؤلاء، وكانت هذه هي العادة المتبعة من قبل في الدولة من أن أراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده.

ورافق هذا كله وتبعه تدريجيا خطوات أخرى تتصل بالخليفة ومنها:

- مصادرة مخصصات العاضد ومنعه من المال والخيل والرقيق، فلم يبق عنده سوى فرس واحد طلبه منه.

- منع مراسيم الخلافة التي اعتاد الخلفاء القيام بها في الأعياد من الركوب في المواكب والجلوس العام للرعية في القصر الكبير.

- حجب الخليفة نفسه عن الناس ليعتادوا غيابه.

- فتح القاهرة - وكانت مدينة خاصة بالخلافة - للناس يدخلونها ويخرجون منها كما يشاؤون ويبنون حولها.

- ألغى من نقش السكة كلمة (المعزّية) بعد كلمة القاهرة.

- خفض من القيمة المعنوية للخليفة أمام الناس بأن جعل العاضد يخرج لاستقبال أيوب والد صلاح الدين مع أهله، وكانت مكانة الخليفة عند الفاطميين تمثل ظل الله على الأرض.

كان صلاح الدين في هذا كله يدرك أنه يمشي في أرض مملوءة بالألغام ، وعليه أن يسير بين بين، وبمنتهى الحذر والتؤدة لئلا تأخذه مباغتة غير منتظرة، وكان اعتقاده مطلقا وحاسما بأنه إنما يقوم بما يقوم به لحسم نابتة الكفر ولمصلحة الإسلام والمسلمين، ولم تمض سنة على وزارته حتى كان قد شكل فرقة خاصة من الجند موالية له تدعى الصلاحية، وفيها استعان بالمماليك من الأتراك لإيجاد قوة بديلة في مصر يركن إليها في القطاع العسكري.

فيما كان صلاح الدين بقوم بهذه الخطوات لتصفية الجو الداخلي في مصر، وفي اعتقاده أنه يعمل على جعلها قوة إسلامية إضافية إلى الشام ودعما لها، كان الفرنجة قد امتلأت صدورهم بخليط من المشاعر هي بين الحسد والرعب والحقد، وعرفوا أن استقامة الأمر لصلاح الدين في مصر يعني تطويقهم وخراب مملكتهم والإمارات.

الدفاع عن دمياط

وكان الفرنجة قبل حملتهم الأخيرة على مصر وتخريب بلبيس وذبح أهلها أيام شاور قد عقدوا اتفاقا مع الإمبراطور البيزنطي للهجوم على مصر التي وصفها الإمبراطور - حسب قول وليام الصوري - بأنها قد سقطت في أيدي جنس مخنث وضعيف، وأصبحت الشعوب المجاورة لها أيضا مدركة لعجزها وضعف الحاكم (الخليفة) والأمراء فيها. ولما كان من المستحيل أن تستمر على حالها الراهن لفترة طويلة من الزمن، فالإمبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك (أموري) أن يخضعها لسلطانه بسهولة، وبسبب هذه المسألة أرسل مبعوثين اثنين من عنده للملك، وقد وصلا إلى صور وقابلا الملك ثم عادا ومعهما وليم الصوري نفسه بوصفه بطريرك صور وحامل الجواب للإمبراطور. وقد عاد إلى صور في تشرين الأول سنة 564هـ، وكان الملك أموري قد استبق الأمر وظن أن في إمكانه الفوز وحده بمصر دون إشراك بيزنطة معه، فقام بهجومه الفاشل على مصر والذي انتهى باستقرار شيركوه وصلاح الدين فيها، وهكذا عاد ينتظر الشريك البيزنطي، ويبدو أن أخبار مصر التي وصلت الإمبراطور في القسطنطينية دفعته إلى نسيان غضبه على الملك أموري لخيانته العهد وتفرده ولإرسال الأسطول الذي وعد به، وكان الاتفاق معه يقضي بإرسال أسطول بيزنطي يجتمع مع الأسطول الصليبي في صور للهجوم على دمياط من البحر واحتلال مصر وتقاسمها بين الملك والإمبراطور، وهكذا وصل الأسطول البيزنطي إلى صور أواخر شهر أيلول سنة 564 هـ.

وقد أمر الملك أن يتجمع الجيش بأكمله من الصليبيين والبيزنطيين في مدينة عسقلان في 15 تشرين الأول، وكان الأسطول قد أبحر من عكا قبل عدة أيام نحو مصر، وكان زحف الجيش بطيئا لعدم إنهاك المشاة ووصل بعد تسعة أيام إلى (العزما) وكان يريد متابعة الطريق الساحلي ولكن مياه البحر كانت قد غمرت الأرضين بسبب خراب السدود وشكلت بركة كبيرة فأخذ الجيش طريق البر الطويل، ثم انتقل بالمراكب إلى دمياط تاركا مدينة تنيس عن يساره حتى وصل دمياط أواخر أكتوبر، وأعاقت الأمواج والرياح الأسطول فوصل بعده بثلاثة أيام، وضرب الحصار على دمياط.

كانت هذه هي المرة الخامسة التي يغزر فيها الصليبيون مصر، وكانوا يتمنون أن تكون هذه البلاد حليفة لهم أو حيادية على الأقل إن لم يكن بالإمكان احتلالها، وقد جاءتهم بيزنطة في هذه الحملة الأخيرة لتكون الشريك في اقتسام مصر، وهو حلم قديم من أحلامها الدائمة، ولم تؤد هذه الحملات المجازفة إلى تقلص الموارد العسكرية والمالية لمملكة القدس فحسب وإنما أدى فشلها إلى تغيير خريطة المشرق العربي بإلغاء الخلافة الفاطمية، وبقيام الجبهة الإسلامية الواحدة ما بين مصر والشام وبانقلاب التوازن الذي قام في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي لمصلحة المسلمين، فكانت حطين من نتائجه.

كانت الحملة البحرية البرية على ثغر دمياط قوية، وقد زودها النورمانديون من صقلية بعدة وافرة من أدوات الحصار والمجانيق التي تلقي بالأحجار وبالنار (النفطية) وبالدبابات التي تثقب الأسوار، وعلم صلاح الدين بالهجوم فجعل أقصى همه وهو في القاهرة أن يمد الحامية في دمياط بالمدد لتستطيع المقاومة.

يقول وليام الصوري: أرجئ شن الهجوم ومن الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزا، لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لا يحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك بإحباط، ودون أن يستطيع فعل شيء، فيما امتلأت المدينة حتى التخمة بعد أن كانت عمليا فارغة في وقت سابق، واتضح للمسيحيين على الفور أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق، مع أنها بدت لدى وصولهم إليها وكأنها لن تتمكن أبدا من الصمود أمام أول هجوم.

وهكذا شيد برج ضخم يمكن منه الإطلال على المدينة، وشيدت آلات المجانيق لقذف الصخور الضخمة، ولحماية النقابين للأسوار وحفر الأنفاق تحتها. ولكن المدافعين

بنوا برجا عاليا مقابل البرج الإفرنجي وصاروا يقاومون بضراوة، واخترعوا كل الحيل للمقاومة، وبعد أن كانت المدينة مسكونة بأناس ضعفاء مسالمين جاهلين تماما بفن الحرب، جاءهم إمداد من المقاتلين الشجعان قاوموا هجماتنا، لا في المدينة نفسها لكن خارجها.

وبدأت علائم الجبن واللامبالاة على المسيحيين بسبب تغير المعنويات نتيجة الخيانة أو الإهمال، وتصرف القادة تصرفات حمقاء في الحصار ووضع آلاته. ثم أضيفت محنة أخرى حين بدأ البيزنطيون يعانون من نقص المؤن، وكان زادهم من الخبز قد نفد تماما، ولم يبق لديهم أي نوع من الطعام، وهطلت الأمطار بغزارة، وهبت الأعاصير العنيفة حتى امتلأت الأرض بالأوحال. وانتهز المدافعون فرصة هبوب رياح ملائمة فأرسلوا مركبا مملوءا بالنفط فألهبوه بالنيران وتركوه يندفع نحو سفننا المتجمعة، فحوصرت بألسنة اللهب والشرر المتطاير، فأنقذ منها ما أنقذ لأن مياه النهر كانت قريبة، وخرجت على جند بيزنطة جماعة من المدينة ففتكت بهم وهم جياع فصمدوا بصعوبة، وبدأ التذمر بين الناس ورأوا أن الحملة فاشلة، فقبلوا مفاوضة بعض القواد الأتراك، ووافق البيزنطيون والفرنجة على المهادنة، وأعلن السلام على الفور بصوت المنادي وذلك بعد حصار دام خمسة وخمسين يوما.

وخرج المدافعون فاختلطوا مع خصومهم وتاجروا معهم بحرية كما يشاؤون، وانسحب الفرنجة بجيشهم إلى الشام، أما الأسطول فقد لقي مصيرا مشؤوما وحظا تعيسا، إذ هبت عليه حين تحرك عاصفة هائلة، وحطم الموج السفن على الشاطئ، كما أغرق بعضها، فلم يبق سليما من الأسطول البيزنطي الضخم سوى بضع سفن بعضها كبير وبعضها صغير تمكنت وحدها من العودة، وكانت نتائج الحملة بعكس ما كان متوقعا لها، فشلا كبيرا.

وهذا الذي يذكره وليام الصوري هو وجهة النظر الصليبية وأعذارها للفشل، أما من الناحية الإسلامية فقد شبه ابن الأثير الفرنجة بالنعامة التي ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين، والواقع أن الذي أنقذ دمياط من الاحتلال هو استماتة المدافعين عنها، وتواصل الإمداد إليها من صلاح الدين الذي كان يسهر الليل ولا ينام النهار خوفا من تمركز الفرنجة فيها، فكان يرسل العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو له ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي

عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنجة من أمامه، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضا، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الفرنجة فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع.

وقال ابن شداد: إن الفرنجة قصدوا دمياط لتمكن القاصد إليها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ (آلة لرمي السهام والحجارة والنفط) وآلات الحصار، وشغل نور الدين قلوبهم بالنزول على الكرك وبقصد فرنجة الساحل.

أما صلاح الدين فبالغ في العطايا والهدايا والهبات يعطيها من ماله ومال الدولة ومال الخليفة، وأخرج منها أموالا لا تحصى، وبعث من يناوش المحاصرين الفرنجة من وراء ظهورهم، وهو في القاهرة يراقب في الوقت الذي يدبر به سبل الإمداد والدفاع، ويحرك الأعراب ويرسل الأسلحة والمؤن والجند، وكان من جملة من أرسله إلى دمياط تقي الدين ابن أخيه فدخلها وخاله شهاب الدين محمود فنزلها، وأنهض عسكرا ثقيلا مع قطب الدين خسرو الهذباني، وكان مقداما، فوقع روعه من الكفر في كل روع. وكان لا ينام ولا ينيم لكثرة ما اغتم واهتم واستصعب الملم.

تأمين الطريق بين الشام ومصر

وكان قد ورد قبل هذه الواقعة كتاب من العاضد إلى نور الدين بالاستقالة من الأتراك خوفا منهم، والاقتصار على صلاح الدين وأزلامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يهنئه بهزيمة الفرنجة، كما كتب إليه يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنجة ليس لها إلا سهام الأتراك (والقنطارية نوع من الرماح الخشبية بأسنة حديد) فإن الفرنجة لا يرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى مضافا إليه نعمه التي لا تحصى، وأكدت معركة دمياط سداد كلمة نور الدين ومكانة جيشه في مصر.

وبدا صلاح الدين بعد الهزيمة المزدوجة للجيشين الإفرنجي والبيزنطي في دمياط كأنه رجل الساعة والمنقذ، وثبت عمليا كفايته، وإذا كان هذا النصر قد أرعب منه الجماعة التي ما تزال على الفاطمية في مصر، فإنه بالعكس قد شدد من عزيمته على المضي في سياسته معتمدا على السمعة التي نالها من جهة، وعلى يده المطلقة في الحكم وفي الجيش

التركي حوله، ويبدو أنه كان أول الأمر يداري أعداءه وحساده والذين لا يرون بقاءه، ثم لما وثق من قوته اتخذ مختلف التدابير لتسيير البلاد حسب الخطة السياسية التي رسمها، شاء (فاطميو الهوى) أم لم يشاؤوا، فإنها متصلة بعقيدته الدينية، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية.

كان صلاح الدين يرجو السرعة في ذلك، كما كان نور الدين يلح عليه في الأمر نفسه، ومن ورائه إلحاح الخليفة العباسي في بغداد، لكن صلاح الدين كان أكثر رصانة وحرصا من أن يتسرع، وهزيمة مؤتمن الدولة والجند السوداني والمصري معه، ثم هزيمة الصليبيين في دمياط لم تطمئنه بما فيه الكفاية، ولم يكن نور الدين ولا الخليفة العباسي في صورة الوضع المصري، وهكذا بدأ نوع من الفترة بينه وبين سيده في الشام، فيما كان صلاح الدين يفكر في أمرين:

الأول: فتح الطريق حرة بين الشام ومصر من التهديد الإفرنجي لضمان تحرك التجارة بين القطرين ومرور الفرق العسكرية.

الثاني: ضمان عدم انقلاب المصريين عليه، وفيهم آثار واضحة من الولاء للخليفة الفاطمي، وإن كانوا قد أعانوه كثيرا جدا أيام غزو دمياط.

لهذا اختار أولا أن يطهر الطريق إلى الشام، ويبدو أنه اختار طريق الساحل الذي أغلقه الفرنجة باحتلال عسقلان؟ ففي سنة 566هـ/ 1170م هاجم غزة وتقدم لحصار الداروم وهدم بعض سورها، وأوغل في المنطقة حتى قارب الرملة. ولكنه لم يفتح أي بلد بل كاد يأسر ملك القدس الذي استجار صاحب الداروم به، ونهب أرباض غزة ثم عاد للانسحاب بعد أن هاجم ما بين الرملة إلى عسقلان نفسها.. وكان لهذه الغزوة عدة معان: فقد كانت أول خروج من مصر للجهاد، كما كان من الضروري إظهار القوة للفرنجة بعد هزيمتهم في دمياط، بالإضافة إلى تحذيرهم من التعرض للقوافل التجارية الإسلامية بين مصر والشام، وتحذير الأعراب في جنوب فلسطين في الوقت نفسه من التعرض للتجار وقطع المرور والنهب كلما سنحت لهم الفرصة، وبخاصة في فترات الغزو الإفرنجي لمصر.

ولم يقنع صلاح الدين بأنه وصل إلى النتائج الإيجابية التي يرجو من هذه الغزوة، فقد عاد في السنة نفسها – سنة 560 هـ – بعد ثلاثة أشهر، فاختار الطريق الصحراوي المؤدي إلى مدينة أيلة (العقبة) وفتحها، وهي مفتاح الطريق إلى الحجاز والحج بالإضافة إلى التجارة. وقد بنى السفن قطعا ونقلها على الجمال والخيل إلى أيلة وطوقها برا وبحرا

حتى سقطت. وإذا كانت حملة الداروم مجرد عرض عضلات ومظاهرة قوة فقد كانت الحملة التي تلتها فورا حملة تأديب ناجحة ضد الفرنجة وضد البداة الناهبين الذين كثيرا ما كانوا يعملون أدلاء وجواسيس للفرنجة.

أما الأمر الثاني وهو ضمان ولاء الناس في مصر: فقد ادخره لما بعد إلغاء الخلافة الفاطمية، واتخذه بعد ذلك سياسة دائمة وهو إلغاء المكوس والضرائب عن الناس، ولكنه خلال ذلك كان ينثر العطايا بسخاء ويظهر العدل وينهي المظالم مما أسكت الكثير من أعداء الحكم الشامي النوري في مصر.

إلغاء الخلافة الفاطمية

ولم يجد نور الدين من عذر لصلاح الدين بعد أن صار قوي المركز في تأجيل المطلب الأساسي، فبعث (في شهر حزيران 1170م) بأمر رسمي له باتخاذ الخطوة الحاسمة وإعلان الخلافة العباسية في مصر، وأبلغ الخليفة العباسي في بغداد ذلك.

ونفذ صلاح الدين الأمر (في أول جمعة من محرم سنة 567هـ/ سبتمبر 1170م) وقصة هذا الإلغاء يجعلها بعض المؤرخين ذوي العواطف الفاطمية قصة مأساوية، ولكنها تمت بكل هدوء وبساطة بين صمت هؤلاء وترحيب أهل السنة في مصر، وضجيج الشام، وأفراح بغداد وزيناتها وضرب الطبول ونشر الرايات ونثر الدنانير.

وكان العاضد قد مرض مرضا شديدا واشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بما تم من قطع الخطبة له، وقالوا إن عوفي فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي في يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة.

الجهاد في الشام

كانت وفاة نور الدين مفاجأة لم يكن أحد ينتظرها، فبينا دمشق تحتفل معه بختان ولده في عيد الفطر سنة 569هـ، إذا بالبلاد الإسلامية كلها تفتقده بعد أسبوعين مرة واحدة، ولما عرف الخبر انطلقت من عقالها كل الأطماع لا في أسرة نور الدين الأقربين فقط، ولكن في أمرائه وقادته العسكريين أيضا، وفي الفرنجة المحتلين على السواء. فكل سعى ليستفيد أقصى الفائدة من غياب الرجل الذي كان يمسك حتى وفاته بمصير المنطقة والفرنجة جميعا بين يديه بمهابة وشجاعة وبتقى وبعد نظر.

ترك نور الدين إرثا يمتد من برقة واليمن إلى الشام والجزيرة والموصل، وهو إرث نظري لأنه عمليا بيد الأمراء الذين أقطعوا المناطق المختلفة ضمن المملكة، وإن كان

يستطيع أن يأمرهم ويسوقهم معه إلى الجهاد متى شاء، فالإقطاع خبز لهم وللجند الذين يجندون لخدمته. وإذا استعرضنا شريط الأحداث عقب وفاته مباشرة وجدنا أن الصراع بين القوى قد بدأ، وأن مجموعات القوى تصرفت كل منها حسب قوتها:

- فالأسرة الزنكية في الموصل كان ممثلها ونائب نور الدين فيها هو سيف الدين غازي، وهو ابن أخيه، وكان قد جمع جيشه لمعاونته في حرب الفرنجة، فإذا به يتجه إلى نصيبين فيملكها، ويرسل الشحن إلى الخابور فيملكه ويقطعه، ثم يسير إلى حران فيحاصرها أياما ويملكها بعد أن استسلم حاكمها (قايماز الحراني) مملوك نور الدين، ثم يحاصر الرها ويملكها من الخصي خادم نور الدين، ثم يرسل إلى الرقة على الفرات من يتسلمها وكذلك إلى سروج. وهكذا أضحت مدن الجزيرة بيده، عدا (قلعة جعبر) وقد أعاد المكوس وتسامح في أمر اللهو والشراب.

- والأمراء في دمشق تمسكوا بالطفل الملك الصالح الذي خلفه نور الدين وعمره 11 سنة، واتفقوا أن يكونوا يدا واحدة، وجعلوا الأمير ابن المقدم كالرئيس على جماعتهم حين أعطوه أتابكية الطفل أي الإشراف على تربيته.

- والأمير شمس الدين بن الداية مع أخويه كان يحكم حلب وما حولها، فبقي مقطوعا ما بين الزنكيين في شرقه ومجموعة دمشق، وإن كان صديقا لصلاح الدين وميله معه.

- وأما الفرنجة فانتهزوا الفرصة فورا وهاجموا حصن بانياس عند مدخل الجولان الجنوبي (آخر شوال سنة 569هـ/ مايو 1174م) وأرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم النساء على قول وليام الصوري، تطلب رفع الحصار، ومنح البلد هدنة مؤقتة ودفع مبلغ كبير من المال. ورفض الملك واستمر يحاصر بانياس أسبوعين، دمر فيها آلاته، وأخيرا قبل المال مع إطلاق سراح الفرسان الصليبيين الأسرى، وعاد ليموت بعد ذلك ويتولى بدلا منه ابنه المجذوم الفتى بغدويه الرابع، وهذه هي رواية الفرنجة. أما المصادر العربية فتذكر أن ابن المقدم خرج إليهم بوصفه الأتابك، وهادنهم على أن يؤدي مبلغا ضخما من المال ويطلق الأسرى الفرنجة ويهادنوه. ويبدو بوضوح أن زوجة نور الدين - وهي ابنة الأتابك الثعلب أنر - كانت ذات نفوذ في دمشق وبمكان رئاسة بوصفها أم الملك، ولهذا كانت الرسالة باسمها، والأتابك ابن المقدم هو قائد الجيش والمدبر لأمور الدولة، وقد اتفق مع الفرنجة على الهدنة وقطع مواد الحرب والفتنة.

– أما صلاح الدين في مصر فقد وصله الخبر عن طريق الفرنجة فلم يصدقه، وكتب إلى نور الدين يقول: ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر وضاق الصدر، فإذا كان والعياذ بالله قد تم فما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها، ولا تنازعوا فتفشلوا، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقد كانت وصيته إلينا سبقت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من عاداه، وإن أسفر الخبر عن معافاة الغرض المطلوب. فورد إليه الكتاب من أمراء دمشق بتوقيع الملك الصالح يقول: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر السيد الأجل، وعظم أجرنا وأجره في والدنا السيد العادل، وقد اجتمع أمراء الحضرة على البيعة المؤكدة والأيمان المغلظة للملك الصالح، وما ها هنا ما يشغل السر غير شغل الفرنجة خذلهم الله، فما كان اعتماد مولانا السيد الملك العادل رضي عنه إلا عليه (أي على صلاح الدين) وسكونه إلا لمثل هذا الحادث الكارث، وقد أمله ليومه وغده ورجاء لنفسه وولده».

وكان أمراء دمشق يريدون تطمين صلاح الدين من جهة ليبقى بعيدا، وتحديد عمله بقتال الفرنجة فقط من جهة أخرى، لأن نور الدين كلفه ذلك، وكانوا يعرفون قوته ويخشون تدخله. أما صلاح الدين فجلس للعزاء ثلاثة أيام، وكتب للملك الصالح يعزيه.

على أن صلاح الدين بقي يراقب الأحوال في الشام والعراق، وحين سمع أخبارها وهو في مصر صار يكتب محتدا تارة وناصحا ومشيرا تارة أخرى:

– سمع بما اقتطعه سيف الدين غازي من مملكة عمه، فأرسل إلى الملك الصالح يعاتبه إذ لم يعلمه بذلك ليحضر في خدمته، ويرد سيف الدين عن مقصده.

– وسمع بهجوم الفرنجة على بانياس والهدنة التي اشتراها ابن المقدم منهم بالمال الكثير فاستنكر المعاهدة وكتب إلى جماعة من الأعيان وإلى ابن المقدم وإلى القاضي ابن أبي عصرون في دمشق يقول: «لما بلغني وفاة المرحوم خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر، فبلغني حادث الهدنة المؤذنة بذل الإسلام .. وسيدنا الشيخ أولى من جرد لسانه في إنكار هذا الأمر، فإن بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق». وأدرك صلاح الدين من هذا مبلغ ضعف أمراء دمشق.

- وسمع بالخلاف ما بين أمراء دمشق وابن الداية في حلب، ثم تمكن القائد (شاد بخت) قائد قلعة حلب من التآمر مع ابن المقدم ونقل الملك الصالح إلى حلب وتدبير مؤامرة قبضوا بها على ابن الداية غدرا، بعد أن وعدوه بأتابكية الدولة، وعلى أخويه، وأودعوهم السجن بعد ضربه بالأيدي والأرجل، ثم غضب ابن المقدم أخيرا وهو بدمشق فكتب إلى صلاح الدين يستدعيه للتدخل!.

مكث صلاح الدين ثلاثة أشهر ونصف الشهر في مصر يتربص (15شوال حتى مطلع صفر سنة 571هـ) ولم يكن يكل من المكاتبة، وهو مشغول بأمرين: حركة كنز الدولة في الداخل، والهجوم النورماندي الصقلي على الإسكندرية، وكلاهما خطر كبير. وحين انتهى منهما وجد أن حادثة القبض على ابن الداية دليل أخير على أن الأمراء في الشام سائرون مع أنانياتهم ومصالحهم وتنافساتهم، ولم يرعوا رغبات نور الدين نفسه (وكان صلاح الدين يعتقد بأن ولد نور الدين يتولاه بعد أبيه مجد الدين ابن الداية وإخوته في حلب وهم أصدقاؤه وحلفاؤه ويطمئن إليهم) لكن ضربهم واعتقالهم غدرا جعله - أي صلاح الدين - يقول: أنا أحق برعي العهود والسعي المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر ببلاد الإسلام.

وكتب إلى ابن المقدام وهو صاحب دمشق، ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة، وكيف اجترأوا على أعضاء الدولة وأركانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة ويقبح له التفكير بذلك ويقول: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك ورباك وأسسك وأصفى مشربك وأجلى سكونك لملك مصر وفي دسته أجلسك، فما يليق بها لك ومحاسن أخلاقك وخلائك غير فضلك وأفضالك.

ووقع صلاح الدين في حيرة بين الاستجابة لواجب الوفاء لبيت نور الدين وبين نار الاتهام بالطمع فيه، ويبدو أن كثرة المكاتبات التي وصلته من أكابر الشام ووجوهه من دمشق وشيوخها حسمت حيرته، وقرر التدخل، ولو لم يفعل والناس قد نقلوا آمالهم من نور الدين بعد وفاته إليه، وعلقوا عليه الآمال، لم يكن صلاح الدين اليوم شيئا مذكورا، وكان اسما من أسماء الأمراء العابرين في عصره.

ولم يكن صلاح الدين منذ أواخر عهد نور الدين مجرد قائد بارز بين أمرائه، ولكنه أضحى مؤسسة عسكرية تابعة له، وأسرة متعاونة مع القادة، كان فيها أولا شيركوه ونجم

الدين أيوب، ثم صلاح الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ثم أخوته، وبرز منهم توران شاه وطغتكين وأبو بكر العادل وبوري، وبعض أبناء أخي صلاح الدين أمثال: فروخشاه وتقي الدين عمر وشيركوه الثاني - ابن عمه - بالإضافة إلى بعض أولاد صلاح الدين: الأفضل علي والظاهر غازي والعزيز عثمان، فهم ثلاثة أجيال من القادة وضعوا أنفسهم في خدمة نور الدين، وحملوا لواءه، وقد جمعهم نور الدين بنفسه بعضهم مع بعض ليتعاونوا بسبب رابطة القربى بينهم.

وإذا كان ولاء إخوة صلاح الدين والجيل الثالث من أولاد إخوته لنور الدين فيه بعض الشك والقلق، فإنه كان واثقا من صلاح الدين من جهة، وواثقا من تعاونهم معه وسيطرته عليهم كمجموعة في مصر، وواثقا أيضا من حسن تأتيه للأمور.

ولم تكن قوة صلاح الدين في هذا وحده، ولكنها كانت أيضا في غنى مصر ومواردها من الاقتصاد ومن البشر، وكانت الأرض التي صارت إقطاعه أوسع وأكبر في المدى والغنى من مملكة نور الدين الأصلية نفسها في الشام والجزيرة، فقد كانت خلافته وحدها لها من برقة إلى النوبة إلى اليمن. وهكذا كان وضع صلاح الدين لا يشبه وضع القادة الآخرين لنور الدين، ويفوقهم قوة وغنى ومكانة. وأولاد الداية الثلاثة لم يبرز منهم غير واحد، ولم تتح له الفرصة التي أتيحت لصلاح الدين، الذي كانت مصر بمثابة المجمع أو المختبر الذي برزت فيه قدرات الأسرة الأيوبية، وكان صلاح الدين يدرك هذا جيدا، كما يدركه الأمراء الآخرون.

وحين اجتمع أمراء دمشق على التعاون يدا واحدة ومنابذة صلاح الدين: الشيخ إسماعيل خازن المال، والحسين الجراحي، وشهاب الدين العجمي، والطواشي حسام الدين ريحان، وعلى رأسهم ابن المقدم بحضور القاضي كمال الدين الشهرزوري، وقال القاضي: «قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ونوابه والمصلحة أن يشاور في الذي نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بحكم مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح» فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، وظنوا أنه إذا دخل البلاد أخرجهم منها.

وتفرغ صلاح الدين من مهامه في مصر بعد أن أساءه وأغضبه ما كان يجري، وبخاصة ما جرى بحلب من شقاق سني - شيعي، وغدرهم بصديقه ابن الداية، وكان

قد كتب إلى ابن المقدم في دمشق وإلى الأمراء يقول: «لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق به مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني. وسوف أصل إلى خدمته وأجازي أنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده». وهكذا اعتبر نفسه مسؤولا عن دولة الملك الصالح وحسن حمايته وحمايتها.

وكتب إلى الأمراء بحلب ينذرهم بقدومه إلى الشام، فكتبوا إليه يسيئون الأدب، ويبدو أنهم ظنوا أنه لن يغادر مصر، وكتبوا إلى صاحب الموصل يطلبون إليه الحضور إلى دمشق ليملكها قبل صلاح الدين، فظن ذلك مكيدة منهم ولم يلب طلبهم.

وألح أهل دمشق على ابن المقدم - الذي عاد إليهم - بدعوة صلاح الدين الأيوبي لئلا يستولي كمشتكين الذي استأثر بحلب على دمشق أيضا. وكثرت المكاتبات التي وصلته للحضور إلى الشام، فقرر صلاح الدين ذلك.

بتحرك صلاح الدين إلى الشام بدأت مرحلة جديدة مختلفة في حياته، وفي مصير المشرق العربي، يمكن أن نسميها بالمرحلة الشامية بعد المرحلة المصرية، وإذ دامت الأولى سبع سنوات فقد دامت الثانية سبع عشرة سنة، وقد اختلفت طبيعة المرحلتين إحداهما عن الأخرى كثيرا، فقد كان في مصر تابعا لنور الدين ونائبا عنه، أما الآن فهو سيد قراره، وكان من جبهة القتال مع الفرنجة في زاوية بعيدة فصار بدخول الشام ضمن الجبهة وعلى طولها، وكان يعمل لمصر وحدها وعليه الآن أن يعمل للمشرق العربي كله.

وكبرت مطامحه وآماله حتى شملت مع القيام بالجهاد القيام بتوحيد الجبهة الإسلامية، وهو المبدأ الذي سبقه إليه عماد الدين زنكي ونور الدين من قبل. ومنذ أعلن هذا الشعار في الشام وعمل عليه، صار في واقع الأمر أسيره، فلا يستطيع التخلي عنه، لاسيما وهو المؤمن به والموقن أنه طريق الخلاص والوصول إلى القدس. وليست القدس عند صلاح الدين مدينة كغيرها من المدن، ولكنها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وتحريرها من الفرنجة عمل مقدس وفريضة على كل مسلم قادر، ولا تنفصل صفتها القدسية عن كونها مدينة، لأن الله تعالى وصفها بالأرض التي باركنا حولها.

وفي تحرك صلاح الدين إلى الشام معنى آخر لا يقل أهمية، وهو أن نور الدين بعث جنده إلى مصر لدعم الجبهة الإسلامية وتوحيدها في خط سياسي جهادي واحد، وإلغاء

السياسة المتقلبة والكافرة في رأيه فيها، وتم له ذلك بفضل صلاح الدين وأسرته والعسكر الذي زوده به، ويعود صلاح الدين الآن من مصر إلى الشام ليجد أن ملك نور الدين قد تقسم وتوزع وأن بعضه يستعين بالفرنجة. فعليه أن يجمعه ويوحده مع مصر، وأن يقمع من يتعاون مع الفرنجة لإبقاء هذا التمزق، ولو بقي نور الدين حيا لما عمل غير ذلك. فعمل صلاح الدين هو في الوقت نفسه صيانة لوحدة الجبهة الإسلامية من جهة، وإتمام لأماني نور الدين ورسالته، وذهابه إلى مصر بعسكر نور الدين ثم عودته بهذا العسكر نفسه إلى الشام بعد تمزقه هما أمران يتمم أحدهما الآخر. وإذا كان لم يتح لنور الدين استخدام الجبهة الإسلامية التي كونها لأنه احتضر ومات مبكرا، فقد كان لا بد للقوة الأعظم بين أمرائه من أن تحل محله، وإلا أغلق باب الجهاد والتحرير، وكانت أعمال صلاح الدين في مصر لتوحيد الجبهة، وعمله في الشام أيضا لتوحيدها.

وبهذا الشكل حل صلاح الدين محل نور الدين في استكمال وتحقيق شعار الجهاد لتحرير القدس، وحق لصلاح الدين أن يعتبر نفسه بعد تنابذ الأمراء في الشام وتقسيم مملكة نور الدين أنه الوارث الروحي له.

ولقد قيل وما يزال يقال عن حركات صلاح الدين في الشام إنها مطامح شخصية، وليس في البشر من ليس له مطامح شخصية، ولكن المهم أن تتفق هذه المطامح مع أماني الناس ورغباتهم، وأن يقوم المطمح الشخصي كعون لصاحبه في تحقيق الآمال المعقودة عليه من الجماهير. وقد كان بإمكان صلاح الدين أن يتخذ من مصر مقرا له ولأمرائه - وهي أكثر من كافية لهم مع ملحقاتها - وأن يترك الشام للنزاعات وللأمراء المتنافسين، لولا أن وخزة الواجب الديني كانت تدمي صدره بضرورة الجهاد وتحرير المنطقة المحتلة على الساحل الشامي من أهل الكفر. فالجهاد بالنسبة لوضعه - وهو التقي المتدين - فريضة كالصلاة وباقي العبادات، وعليه واجب القيام بها لقدرته عليها، وإلا فهو آثم في نظر نفسه ونظر الناس.

وأكد صلاح الدين مرات على نبل مقاصده أثناء تحركه من الشام، وأعلن أنه إنما جاء لدعم دولة الصالح ورعايته، وأنه إنما جاء للجهاد ودعوة الأمراء له وأنه لا يرجو المنافع لنفسه وإنما للمسلمين جميعا، فلم يصدقه الأمراء والحكام، وصدقه الشعب بشكل عفوي تجلى في دعمه والفرح به، ولكن تاريخ الرجل في المستقبل برهن على صدقه، وأثبت نواياه فيما أعلن من رسالته التي تصدى لها، وكانت أنانيات الأمراء هي التي تعمي

عيونهم عن ذلك وعن رؤية المستقبل، وكانوا يرون فيه صدى لما كانوا يشتهون عمله ويعجزون عنه. وعرف صلاح الدين منذ أن وطئت قدمه الشام أن عليه نوعين من الجهاد:

1- جهاد ضد المزقين للإمارات والمقدمين مصالحهم الشخصية وأنانياتهم على مصالح المسلمين، بدفعهم مرغمين أو طائعين إلى المعاونة ماديا وعسكريا في الجهاد ضد الفرنجة، وليس يدخل في هذا الجهاد سلبهم إقطاعاتهم وقطع خبزهم، ولكنه يتقدم في الأولوية على الجهاد الثاني، لأن صلاح الدين يجب أن يستند إليه من جهة وأن يحمي ظهره به من جهة ثانية.

2- جهاد الكفار بقيادة واحدة موحدة، فالاشتراك مع الآخرين في العمل لا يكفي، ولقد عبر صلاح الدين عن ذلك في كتاب أرسله إلى ديوان الخلافة في بغداد يشرح فيه الأسباب التي دعته للمسير نحو حلب سنة 571هـ حيث قال: «الخادم ينهي أن الذي يفتحه من البلاد ويتسلمه.. إنما يعده طريقا إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار. ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتدها.. وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة».

ترك صلاح الدين أخاه العادل في مصر واصطحب أخاه طغتكين وابني أخوته تقي الدين عمر وعز الدين فروخشاه، ولم يكن خروج صلاح الدين إلى الشام خروج محارب، فقد خرج في 700 جندي فقط، وقطع الطريق متمهلا جدا في ثلاثة أشهر، وتوقف على الطريق في بلبيس وتفقد حصن أيلة (العقبة) ، هل كان يفكر فيما سوف يشيعه الأمراء والزنكيون في اتهامه بالعقوق وبالطمع الشخصي؟ أم كان يتأنى وهو يرسم الخطة لكسب أمراء نور الدين دون حرب أو نزاع؟ أم كان يقيس شعبيته لدى الناس بهذا الجيش القليل، فيأتي الشام كالأعزل وجيشه في مصر؟ أم كان يتحدى الذين يريدون عزله في مصر والانفراد بإرث نور الدين وولده؟ أم كان يمهد بهدوء لدخوله البلاد سلما بالاستناد إلى محبته الشعبية؟

أفكار كثيرة يمكن أن ترد إلى خاطره، ولعل أشدها أن أعداءه سيظنون به الظنون ويركبونها، ويشنعون عليه بالمطامع الشخصية، فقد كتب كتابا بالإنشاء الفاضلي قال فيه: «إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة تظهر آثارها عند تكاثر العداة، وبالجملة فأنا في واد والظانون بي ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد لن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولا لمن ألقى السلاح إنك جارح، وما مرادنا إلا مصلحة

تؤثر لا فتنة تثار، فلو زدنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب، فلا يحمل أمرنا إلا على أحسنه، ولا يظن بنا إلا الخير الذي طبعنا أخص بوجوده من معدنه».

وذكر القلقشندي الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى دار الخلافة ببغداد في عشر صفحات يعدد فيه أسباب تقدمه إلى الشام فذكر:

1 - كثرة المكاتبات له بالسير نحو الهدف الكبير: فتح القدس.

2- أنه لا يتمكن وهو بمصر من جهاد الكفار بشكل ناجع «ومن بعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة».

3- القضاء على بعض العقائد المعتلة (ويقصد الإسماعيلية) الذين دخلوا في المؤامرة الرباعية سنة 569هـ لقتله.

4- سوء نية ابن المقدم وكمشتكين اللذين تمسكا بكفالة الملك الصالح، وأعلن أنهما إنما «يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء بخدمته، وهم عاملون بظلمه».

5- والمراد هو كل ما يقوي الدولة ويجمع الأمة ويفتح بقية البلاد بما فيها القدس، ولا بد لذلك الفتح من دولة قوية موحدة وشعب متماسك.

وواضح من هذا أن صلاح الدين ترك لمختلف أمراء الشام والجزيرة الوقت الكافي (ستة أشهر) ليكشفوا عن نواياهم تجاهه وتجاه الملك الصالح، وتجاه توارث نور الدين ومملكته، وأخيرا تجاه الفرنجة. فتقدم ليكون العوض والبديل عن نور الدين في إنجاز مهمته الكبرى، ولم يكن في الساحة أقوى منه ولا أقدر على حملها من منكبيه.

باسم الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين تقدم صلاح الدين إلى الشام، والتسلح بالدين وأوامره كان سلاح العصر، وكان أمراء الشام يردون عليه بأنه يتابع طمعه الشخصي - الذي قد لا يكون بريئا كل البراءة منه - ولكن السلاح الديني الذي رفعه كان أقوى من دعاواهم، وقد جعله صلاح الدين واجبا جماعيا لا يستطيع الأمراء إنكاره لأنه يهز قاعدتهم الشعبية وشرعية حكمهم، وإذا جابهوه بالعداوة، فكأنما كانوا يدافعون عن إقطاعاتهم وخبزهم وسلطانهم، وكلها مهددة بوجوده في الشام، وكما أن السلطة

عزيزة غالية على من يطلبها، كذلك فإنها عزيزة غالية على من يملكها وقد يفقدها، ولكن صلاح الدين بمجيئه شبيها بالمسالم في سبعمائة جندي كان يحتقر قوى الأمراء، ويراهن على قوى الشعب، وكسب الرهان بالفعل.

وصل بصرى الشام، وكان صاحبها قد كاتبه فاستقبله، ثم خرج من بصرى إلى صلخد، فسار معه حاكمها إلى الكسوة على مشارف دمشق، فدخلها في نهاية ربيع الآخر سنة 571هـ/ 28/ أكتوبر 1174م، واستقبله ابن المقدم في عسكره كله، وأنزله في دار والده أيوب وهي دار العقيقي، ثم خرج إلى دار القاضي الشهرزوري فزاره، وكانت بينهما خصومات منذ كان صلاح الدين على شحنة ـ شرطة ـ دمشق.

ثم حضر حفلا في الميدان الكبير - المرجة غرب القلعة بدمشق - ابتهاجا بقدومه، وامتنع صاحب القلعة عن تسليمها، فلما أكد له صلاح الدين أنه إنما جاء لإقرار شرعية الحكم ودعم الملك الصالح تنازل عنها بالأمان، وكتب السلطان إلى الملك الصالح فور دخوله دمشق يقول: إنما جئت من مصر خدمة لك لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك، فتفسد أحوالك ويختل أمرك، وما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنجة. لكن كيف يصل مثل هذا الكتاب إلى الصبي ودون ذلك كمشتكين المسيطر؟

على أن صلاح الدين كان يبلغ الأمراء أنفسهم في حلب بهذه الرسالة، وعمد معها على الفور فنشر منشورا أعلن فيه العفو عن أهل دمشق، وتصميمه على محاربة من اغتصبوا سلطة مولاه وأملاكه، وفاء للملك الصالح ولحق والده، وتبع ذلك إنفاق الأموال والمناداة بأطراف دمشق وتوابعها باتباع الأوامر الجديدة، وأمر بإبقاء الخطبة للملك الصالح، وارتاح الدمشقيون وعمهم السرور.

وعرف أمراء حلب باحتلال صلاح الدين لدمشق، فاضطربوا وشفقوا وخافوا، وأجمعوا على مراسلته، وبعثوا إليه على الفور. ومع أنهم كانوا يعرفون أنه أقوى منهم ماديا ومعنويا، فقد أخطأوا بالتخطيط للتعامل معه، واعتمدوا على إمكان إثارة ثلاث قوى معهم ضده: الموصل والفرنجة والإسماعيلية، وهكذا أرسلوا رسولا هو قطب الدين ينال بن حسان المنبجي برسالة تبرق وترعد. ومع أن صلاح الدين استقبل الرسول بنفسه بالترحاب ثلاثة أيام، إلا أنه - أي الرسول - أدى الرسالة في النهاية قائلا لصلاح الدين: إن السيوف التي ملكتك مصر ما تزال في أيدينا، والرماح التي حويت بها قصور الفاطميين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصديت

له تصدك، فقد تعديت طورك، وجاوزت حدك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده. ولم يجبه صلاح الدين على هذا كله، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وخاطبه بكلام رقيق وقال: اعلم يا هذا أني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين، فقال ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خرط القتاد، وإيتام الأولاد. فتبسم صلاح الدين، وأومأ لرجال بإقامته من بين يديه، وتماسك بعد أن كاد يسطو عليه، وقال له: والله ما جئت إلا لأستنقذ هذا الملك الصالح من يد أمثالك، فأنتم سبب زوال دولته عليه.

وواضح أن أمراء حلب فهموا القضية كلها على أنها تقاسم إقطاعات وأملاك لا جبهة جهاد واحدة.

وأرسل السلطان يطلب حضور الجند من مصر، وجمع عساكره للتحرك نحو الشمال، ولم يكن بين نزوله دمشق وحركته منها سوى عشرة أيام، في حين صارت دمشق بعد ذلك موئلا للهاربين أو المطرودين من ظلم الزنكيين ومشاكل الأمراء في حلب.

في 11 جمادى الأولى سنة 570هـ/ 8 كانون الأول 1174م وصل صلاح الدين حمص، فلم تعانده سوى قلعتها فحصرها، وترك المدينة إلى حماة - وكانت مع حمص وسلمية ومرعش إلى الرها في إقطاع فخر الدين الزعفراني - والقلعة بيد الأمير جورديك.

وفي هذه الأثناء كشف أمراء حلب عن جانب من خطتهم لمقاومة صلاح الدين بالتقرب من الفرنجة، فقد أطلقوا رأسا من كبار رؤوسهم الخطرين: الكونت (القومص) ريمون الثالث من السجن، وكان نور الدين قد أسره سنة 559 هـ وهو أمير طرابلس. أطلقوه مقابل مائة وخمسين ألف دينار وألف أسير مسلم. وفهم صلاح الدين فورا معنى إطلاقه، فسرعان ما أصبح هذا الرجل الخطر على الفور وصيا على مملكة القدس وملكها الصغير المريض يتصرف بها كما يشاء. ويبدو أن المفاوضات على إطلاق هذا (القومص) قد بدأت قبل موت نور الدين، وأن إطلاقه تم بعد موته وبعد أن قام الفرنجة بتلبية الشروط.

حين وصل الرستن جنوب حماة ، لقيه جورديك صاحب قلعتها - وهو زميله القديم في قتل شاور بمصر - وقد اختار الانضمام إليه ثم اقتنع بوجهة نظره في حفظ مملكة نور الدين، وتطوع في أن يكون سفيرا بينه وبين كمشتكين وأمراء حلب للصلح. ولكنه

حين وصل حلب اتهموه بممالأة صلاح الدين، فقبضوا عليه وأودعوه السجن، فتنازل أخو جورديك لصلاح الدين عن قلعة حماة.

ويظهر أن الملك الصالح عارض أولا في سجن جورديك، ولكنه أرغم على ذلك وهو صبي دون حول ولا إدراك ناضج، وثقل السجين بالحديد، وأنزل بئر القلعة مع ابن الداية وإخوته، وعاد الخبر إلى السلطان وهو ينتظر عند الرستن، فرحل من ساعته إلى حماة، فتسلمها وتسلم قلعتها من شقيق جورديك، ثم مضى بالجيش إلى حلب، ونزل حيالها في الثالث من جمادى الآخرة سنة 570هـ/ 1174م.

وما كان الحلبيون ينتظرون مجيئه، وما راعهم إلا نصب خيمته وأعلامه حول مشارف المدينة، وخافوا أن يتآمر السنيون في البلد مع صلاح الدين فيسلموها إليه، كما جرى في دمشق، لذلك قام كمشتكين بعمليتين ذكيتين جدا في حلب القلعة:

1 - لعب على الخلاف الطائفي وفاوض الفريق الشيعي في البلد، وهم كثرة كبيرة، وتملقهم. فاشترطوا عليه إعادة العمل بشعاراتهم التي منعها نور الدين: من الأذان بحي على خير العمل، والتكبير خمسا على الموتى، وإعطائهم شرقية الجامع للصلاة، والتذكير بالأسواق، وذكر الأئمة الاثني عشر أمام الجنائز وغير ذلك مما كان نور الدين قد منعه من قبل، فسمح لهم بكل ذلك ليدافعوا معه.

2 - لعب بعواطف الجمهور، فجمع الناس، وكان فيهم الشيعة بالطبع، وأخرج إليهم الملك الصالح الصبي، فخطب فيهم بما وضعه كمشتكين على لسانه: يا أهل حلب، أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد..ثم خنقته العبرة وعلا نشيجه، فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. ولا شك أن معظم الجمهور كان من الشيعة بعد أن أعيدت إليهم شعائرهم.

على أن جيش صلاح الدين تأذى من جو الشتاء، وكانت تلك السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائلة الأهوية، فأرسل إلى حلب يطلب إطلاق ابن الداية وأخويه، وجعل ذلك سببا لمجيئه. ثم أرسل رسولا يطلب الصلح فرفضه كمشتكين، فما كان إلا أن اشتد في قتال البلد. وكانت ليالي الجماعة لا تنقضي إلا بنصب الحبائل

للسلطان، فأجمعوا أمرهم على تدبير اغتياله بواسطة الإسماعيلية، وكتبوا إلى صاحبهم سنان شيخ الجبل، فأرسل جماعة من فتاكه، واختلطوا بالعسكر، وعرفهم أحد القادة فقتلوه، وجاء قوم إلى خيمة السلطان يقصدونه فقتلوا دون الوصول.

وعلم صلاح الدين أن أصحاب حلب كاتبوا الزنكيين في الموصل، فأرسلوا إليهم لمعونتهم، واتضحت خطتهم كاملة حين علم بأنهم كاتبوا ريموند صاحب طرابلس ليهاجم حمص ويقطع الطريق عليه. إذن فهو حلف رباعي (حلبي، زنكي، إسماعيلي، إفرنجي) وقد وعدوا القومص أموالا يؤدونها وإقطاعات يأخذها، وكتبوا إليه: أنت طليقنا وكنت رفيقنا في الأسر، والآن أنت عتيقنا، وحقنا عليك متعين وبرهان ذلك بين، وقد استجاب (القومص) لطلب كمشتكين، وتقدم لحمص وحاصرها (في 7 رجب سنة 570هـ/ كانون الأول سنة 1174م).

وأمام هذا الحلف الرباعي وجد صلاح الدين أنه من المصلحة أن يتراجع عن حلب نحو حماة وحمص لحمايتها، وهكذا عاد في أول رجب، فما إن وصل الرستن وسمع القومص بمجيئه حتى ترك حصار حمص، وهرب بجيشه إلى قلعة حصن الأكراد (الحصن) ودخل صلاح الدين المدينة وجدّ في أخذ قلعتها حتى فتحت عنوة، ووجد أن ثمة ثغرة باقية في المنطقة هي بعلبك، وكان أمراء حلب يعتمدون عليها في المقاومة، وعليها القائد (يمن)، فما إن وصلها صلاح الدين حتى استسلم له في 4 رمضان سنة 570هـ، بعد أن قطع الأمل من جماعة حلب، واختار السلامة. وكتب صلاح الدين إلى أخيه بدمشق يبشره بفتح بعلبك سلما، وصار صلاح الدين بذلك يملك من الشام ما بين أيلة إلى بصرى إلى دمشق وحمص وبعلبك وحماة، أي معظم الداخل الشامي.

ومن الطريف أن نعرف موقف الفرنجة من هذا التوسع الصلاحي السريع، فقد كتب وليام الصوري صفحة هامة حول دخول صلاح الدين إلى الشام قال فيها: «وفي هذه السنة - 1174م - استدعى أعيان دمشق البارزون سرا صلاح الدين من مصر، وكان الملك الصالح بن نور الدين قد جعل مقره في حلب، فأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف الدين (العادل) وأسرع عبر الممرات الصحراوية للشام، ووصل دمشق ليستولي على المملكة، وتقدم بعد بضعة أيام، وبعد أن استلم المدينة من سكانها ضمها إلى سورية المجوفة - الوسطى - حيث أمل في ضم جميع مدن المنطقة تحت حكمه دون حرب، وثبت أن هذا الأمل كان صحيحا، إذ استسلم سكان تلك المدن

خلال وقت قصير له طوعا. وهكذا وخلافا للولاء الذي كان مدينا به لسيده وحاكمه، استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الإقليم أي مدينة (هليو بوليس) - بعلبك - ومدينة حمص المسماة عموما باسم كاميلا، وحماة وشيزر - قيسارية الكبيرة - وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة(!) إلا أن ذلك لم يحدث بالمصادفة».

«هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في ذلك الجزء من المنطقة، وكان الملك - ملك القدس - قد تلقى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل عندما توشك تغييرات هامة أن تحدث، وتقرر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء وبموافقة الجميع أنه ينبغي على الكونت (القومص صاحب طرابلس) أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة، وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدم صلاح الدين، وكان هذا إجراءا حكيما، لأن أي زيادة لقوة صلاح الدين كانت سببا للريب في نظرنا. وبدا كل شيء يزيد من سلطته بأنه مضر تماما بمصلحة المملكة، لأنه كان رجلا حكيما في الرأي وشجاعا في الحرب، وسخيا بشكل يفوق الحدود، ولهذا السبب بالذات ارتاب به نبلاؤنا الذين كانت لهم بصيرة أشد. فحتى في أيامنا لا توجد وسائل أفضل يستطيع الملوك بواسطتها أن يكسبوا قلوب رعاياهم أو قلوب سواهم، وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء، خاصة عندما تأتي من الأمراء. ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية، لأن صلاح الدين إذا زاد في حجم ممتلكاته ووسع إمبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة بقوات كبيرة، ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من ذي قبل. هذا وكانت جميع المحاولات للتصدي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها. ونرى اليوم بعيون باكية أن مخاوفنا قد تحققت، لأنه قد نهض بقوة جبارة ضدنا برا وبحرا، وليس لدينا أي أمل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين».

«وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى (الصالح) الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد، ليس بإبداء اللطف نحوه إكراما له، بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خططه، وتقليل فاعلية هجماته على المملكة».

ولنلاحظ في النص السابق كلمة النصيحة، ولعل كاتبه يقصد كتاب حلب بدعوة الفرنجة لمقاومة صلاح الدين. ولنلاحظ أمرا آخر هو أن سلسلة: مودود - جاولي - زنكي

- نور الدين - صلاح الدين لم يمد واحد منهم يده للاستعانة بالفرنجة ضد المسلمين، في حين أن عددا من الأمراء الآخرين (مثل رضوان وطغتكين في دمشق وكمشتكين وغيرهم) تعاونوا في بعض الفترات مع الفرنجة.

ووليام الصوري يضيف بعد هذا قوله عن نور الدين بعد ملكه الشام ومصر: «وهكذا أصبحت جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد، وتنفذ أمر رجل واحد، وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط، وأن تحمل السلاح حتى على مضض لإلحاق الضرر بنا، ولا يجرؤ أحد على الرفض. وصلاح الدين هذا ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع، وهو يسيطر الآن على جميع هذه الممالك لأن القدر ابتسم له بلطف كثير، وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب المعروف بالإبريز، وتزوده أقاليم أخرى بمجموعات لا تحصى من الفرسان والمقاتلين، رجال متعطشون للذهب، وهي مسألة سهلة بالنسبة لمن يملك كميات وافرة منه. ونكمل الآن القصة، فقد جمع الكونت العساكر من جميع المناطق المجاورة، وأسرع بالتوجه إلى منطقة طرابلس بمرافقة نبلاء المملكة وتمركز في مدينة عرقة. في هذه الأثناء كان صلاح الدين قد تمرد الآن على سيده الشرعي بتحد واضح للقوانين الإنسانية، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة، وبإنكار المساعدات التي كان قد أغدقها عليه والد ذلك الفتى».

ثم يقول عن حصار حمص من الفرنجة:

«وأرسل اللاجئون المقيمون في قلعة حمص (وهي محصنة بشكل جيد ومزودة بالأسلحة) رسلا إلى كونت طرابلس وإلى قواتنا (في عرقة) وكانت تنتظر على أنه بحدوث هذا الاضطراب الهائل لا بد أن هذا الطرف أو الآخر سيستدعيهم وفق الشروط المرغوبة. وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتوسلوا إليهم للقدوم دون تأجيل، وأن يعدوهم بمكافأة لائقة. وكان في هذه القلعة - بحمص - رهائن كان الكونت قد أعطاها لنور الدين مقابل إطلاق سراحه كضمان لمبلغ 60 ألف قطعة ذهب، كما كان يحتجز فيها رهائن قدمها رينو صاحب صيدا لاسترداد أخيه يوستاس. وأسرع المسيحيون بالزحف مع جميع قواتهم بكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إطلاق سراح هؤلاء الأسرى، غير أنهم اكتشفوا أنه لا يمكن الاعتماد على أقوال الكفرة، حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفع الحصار بجهود الأمير المذكور (صلاح الدين). وزادت حقيقة أن المسيحيين انسحبوا كالغاضبين من عجرفة صلاح الدين».

«وأرسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت أن لا يعترض تقدمه الظافر، ويتركه للصراع منفردا مع حلب والآخرين، وعرض أن يطلق سراح الرهائن في حمص دون دفع المال، فوافق الكونت، وصرف النبلاء الذين شاركوا في الحملة بسخاء».

ونتساءل عن السبب في إطلاق الرهائن في حمص لنجد أن تحالفا جديدا قد تم بين حلب والموصل أثناء الفترة القصيرة من الراحة التي أعطاها صلاح الدين لجنوده بعد فتح بعلبك وعودته منها إلى دمشق، فقد علم أن انسحابه عن حلب فسر على أنه ضعف وتخاذل فاجتمعت جيوش الموصل مع جيوش حلب، وأرادوا أن يستغلوا فرصة انشغال صلاح الدين بحمص وبعلبك وتسريح جنده وإراحته، وكان بحمص حين مشوا بالجيشين من حلب إلى حماة، فاستنفر السلطان جنده ومشى بما عنده بعد أن استدعى الجند من مصر إلى المتحالفين الذين تأملوا أن يساندهم الكونت من طرابلس، فقام صلاح الدين بإرسال الرسالة المذكورة إليه من جهة، كما أرسل رسالة مماثلة مع فريق من الجند إلى شقيق سيف الدين صاحب الموصل، وكان عماد الدين في سنجار، وكان مخاصما لأخيه مع أنه كبير الزنكيين، ومناه فيها بولاية الموصل، فلم يشارك في التحالف، وغضب أخوه منه، وذهب لحصاره في سنجار، وأرسل الجيش مع قائده الأول (زلفندار).

وكان قصد صلاح الدين واضحا من الرسالتين، فهو يريد أن يأمن على جبهته الواسعة مع الصليبيين والممتدة من حدود مصر حتى حماة لئلا يضطر للحرب على جبهتين، هذا من جهة، وأراد من رسالته إلى صاحب سنجار أن يمنعه من الانضمام إلى التحالف الموصلي الحلبي. وقد نجح في الثانية، لكن الصليبيين، وإن لم يتمسكوا طويلا بالحياد، إلا أنهم لم يستغلوا الفترة القصيرة التي واجه فيها صلاح الدين جيش المتحالفين، وكان هذا يكفيه منهم مؤقتا.

وصلت جيوش التحالف إلى حماة، وطلبوا من نائبها لصلاح الدين علي بن الفوارس تسليمها بحجة أنهم جاؤوا مسالمين، وقالوا إنما وصلنا للصلح والاجتماع فيما يعود على الجانبين بالنصح والنجح.

وكتب النائب إلى صلاح الدين يحثه على القدوم لعل الصلح يتم، ووصل السلطان بجمع يسير من عسكره، وهو يرجو هذا الصلح، والتقى بالأمير سعد الدين كمشتكين أتابك حلب، وبشهاب الدين أبو صالح ابن العجمي. وقد طلبوا منه التنازل عن كل

الحصون التي فتحها في الشام، فأجابهم إلى طلبهم شريطة أن يكون نائبا عن الملك الصالح، وتبقى له دمشق فقط، بعد أن أقسم أن يسلك مع الصالح سبيل الأمانة والرعاية لحق والده، فرفض أصحاب التحالف وحسبوا تساهله ضعفا، واغتروا بقوتهم حين رأوا قلة عسكره، فاشتطوا في الطلب، وطلبوا منه منطقة الرحبة وأعمالها لكي يحرجوه أمام ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد أقطعه إياها، وغرضهم أن يشقوا صفوفه مع أقربائه بضرب قوته من الداخل فامتنع، وقد عرف المقصد من الطلب، فأخذ يداريهم ويماطلهم لأن القوات القليلة معه لا تكفي لقتالهم في انتظار أن يلحق به جنده، فنهض مقدمو حلب والموصل من مجلسه إلى مخيمهم، ثم ساروا بعسكرهم موازين لنهر العاصي عند شيزر، وأظهروا أنهم يريدون الحرب.

ولحق بهم صلاح الدين حتى موقع (قرون حماة) وحاول مرة أخرى مصالحتهم واجتهد في ذلك. وعرض التنازل عن حمص وحماة وبعلبك وتبقى له دمشق، فأصروا على أن يتنازل عن الشام ويعود إلى مصر، وكان قآسيا عليه قتال المسلمين بعضهم لبعض من حيث المبدأ، لكنهم رفضوا المصالحة ورأوا أنهم يربحون حربه، فاضطر للقتال على كره، واستنفر عسكره في كردوس واحد، حتى تصل عساكره من المدن القريبة، وفي يوم الأحد (19 رمضان سنة 570هـ/ 13 نيسان 1175م) التحم معهم في معركة حامية، وكان كردوس صلاح الدين يحارب ميمنة وميسرة لسد النقص في عدد الجند ومشاغلة الوقت. وكانت الأمداد تأتيه تباعا من المواقع القريبة، حتى وصل العسكر من مصر في عشرة من المقدمين الكبار، ومنهم تقي الدين عمر وعز الدين فروخشاه - ابن أخيه - وشهاب الدين الحارمي - خاله - وجماعة من خواصه ورجاله، فاندفعوا في المعركة بقوة زلزلت الجيش الحلبي - الموصلي فانهزم موليا الأدبار تاركا أثقاله وأحماله، وأسر جماعة كبيرة منه، رغم ثبات عز الدين مسعود - شقيق صاحب الموصل - بعض الثبات، وغنم صلاح الدين كل ما كان معه!.

وأمر بعد فرار العسكر الزنكي الحلبي أن لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في الأسر حتى قيل - حسب المقريزي - إنه لم يقتل في هذه المعركة أكثر من سبعة أنفس. ثم تبع المنهزمين إلى قرب حلب، وكان على عزم حصارها الثاني حين راسله الحلبيون يطلبون الصلح على أن يكون لهم ما بأيديهم، وله ما بيده من جنوب حلب حتى مصر، فوافق صلاح الدين (في 10 شوال سنة 570هـ/ 1170م) أي تنازلوا لصلاح

الدين أيضا عن كفر طاب والمعرة. واستوثق منهم بالأيمان المغلظة على شروط هذا الصلح، فأجابوه. وطلب إطلاق سراح ابن الداية وإخوته من السجن، وقبلوا. فانسحب عن حلب إلى قلعة بعرين، فنزل له صاحبها ابن الزعفراني عنها، فأعطاها لخاله الحارمي.

ويقول ابن أبي طي إنه كان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدو حضر صلاح الدين بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولايات أصحابه، وأن تكون السكة باسمه.

ويعزو ابن الأثير هزيمة التحالف إلى القائد (زلفندار) الذي كان على حد قوله: «جاهلا بالحروب والقتال، غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه» وغنم الجيش الصلاحي «غنائم كثيرة وآلة وسلاحا عظيما ودواب فارهة».

وأما ابن أبي طي فيعزو الهزيمة إلى أن صلاح الدين استفسد جماعة من عسكر التحالف، كما وصلته النجدة في الوقت المناسب، ولولا ذلك لم يقدر على الثبوت ساعة.

كانت أصداء معركة القرون خطيرة بقدر ما كانت نتائجها خطيرة، فإن السلطان ما إن وصل حماة في طريق العودة حتى وصلته رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام عدا حلب، فأصبح السلطان الشرعي والأكبر والأقوى في المنطقة كلها، والوارث الحقيقي لنور الدين في مبادئه، وهذا ما أحفظ عليه الزنكيين المهزومين، وزاد في حقد الحلبيين والفرنجة معا، ودفع ذلك كله إلى تجدد القتال، وكأن الصلح مع حلب والأيمان كانت لغوا.

فأما الفرنجة فقد استغلوا فرصة انشغال السلطان بحصار حلب وقلعة بعرين في الشمال، فقاموا بغارة مفاجئة على حوران جنوب دمشق.

يقول الصوري: «وصلت في هذه الآونة فيما كان صلاح الدين منشغلا بانهماك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب أخبار مفادها أن منطقة دمشق خالية من جيش يحميها، وفريسة سهلة لأي عدو بموجب حق الحرب. وجمع الملك بلدوين قوة من الفرسان وعبر الأردن، ومر خلال الغابة الواقعة قرب مدينة بانياس، وكان ذلك في زمن الحصاد، وتفرقت قواتنا في السهول وأودعت النيران في المحاصيل النامية والبيادر ومخازن الحبوب، فيما اختفى المزارعون في الأماكن الحصينة، وتقدمت قواتنا حتى داريا - وهي بلدة في جنوب دمشق على بعد أربعة أميال منها - ثم تقدمت إلى عين الجسر - عنجر حاليا - عند

سفح لبنان، واستولت عليه، ثم رحلت ناقلة معها مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين.

حين عاد صلاح الدين إلى دمشق عرف بهذه الأمور كلها، لكن ما علمه من تجديد التحالف الزنكي الحلبي صرفه مؤقتا عنها، فرحل إلى حلب بجيشه للمرة الثالثة، واستغل الفرنجة مرة أخرى بدفع من جماعة حلب لمهاجمة البقاع. يقول وليم الصوري في ذلك:

«ثم استدعى الملك في الأول من شهر آب سنة 572هـ زعماء المملكة فيما كان صلاح الدين ما يزال منشغلا أمام حلب، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد، فعبر صيدا، ثم صعد الجبال الواقعة بين أراضينا وأراضي العدو: ونزل من هناك مجددا إلى واد يدعى البقاع: وهي منطقة تربتها خصبة ومياهها صحية وسكانها كثر في القرى الكثيرة، وفي أسفلها مدينة ذات أسوار قوية هي (عين جر) فبدأت قواتنا منذ وصولها اجتياح المنطقة بأسرها دون عائق، واشتعلت النار في كل شيء ولم يمنعهم أحد من السكان الذين هربوا إلى الجبال ودفعوا القسم الأكبر من قطعانهم إلى الغياض الواقعة في منتصف الوادي. وتقدم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده بعدما عبر سهل جبيل، حسب ترتيب مسبق. وأسرع شعبنا بتلهف إلى المنطقة المجاورة لبعلبك وشرع في إحراق كل شيء، وتلاقى الجيشان في منتصف الوادي.

كان شمس الدولة، أخو صلاح الدين في دمشق حاكما لها، فجمع قواته، واستعد للزحف، ورتبنا قواتنا للمعركة، وحارب الجانبان بشجاعة، وقتل الكثيرون وجرح عدد أكبر، ووقعت أعداد كبيرة في الأسر، إلا أنه تم في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار، ونجا شمس الدولة مع قليل من أتباعه إلى الهضاب. وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغل في الغياض للنهب. وعاد المسيحيون بالمغانم مع قطعان المواشي وكميات كبيرة من الأغنام، كما قفل كونت طرابلس بغنيمة ثمينة ضخمة، وعاد إلى ممتلكاته مع قواته...».

وواقع الأمر أن شمس الدين محمد بن المقدم صاحب بعلبك أتاه خبر بأن جمعا من الفرنجة قصدوا البقاع، وأغاروا عليها، فسار إليهم وكمن لهم في الغياض، وأوقع بهم، وقتل فيهم وأكثر. واسر نحو مائتي رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين.

وكانت هذه الهجمة على ما يبدو مجرد استكشاف لقوة الموقع تبعها هجمة ملك القدس، وأمير طرابلس. وكان شمس الدولة توران شاه قد عاد من اليمن إلى دمشق،

فسمع بخروج الفرنجة إلى البقاع، فسار إليهم ولقيهم عند عين الجر - عنجر - فلم يثبت لهم، وانهزم عنهم، فظفروا بجمع من أصحابه، وأسروهم، ومنهم سيف الدين أبو بكر بن السلار - وهو من أعيان الجند الدمشقيين - واجترأ الفرنجة بعدها وانبسطوا في تلك الولاية، وجبروا الكسر الذي نالهم من ابن المقدم...».

ومن الصعب أن نتصور أن هاتين الحملتين كانتا من مبادهات صاحب القدس وأمير طرابلس، وأن الأخبار التي وصلتهما من حلب لم تكن مرسلة من صاحب حلب، بدليل أن الجماعة الحلبية أطلقت الفارس (أرناط) من السجن بعد 16 عاما من أسره، وكان يوم أسر أمير أنطاكية، وقد أسره نور الدين كما أطلق معه (جوسلين) كونت الرها وخال ملك القدس، وذلك بجهود (الكونتس) والدة الملك وبفدية كبيرة لأرناط دفعها أصدقاؤه وتوجه الاثنان إلى طرابلس، وسواء كان إطلاقهما قبل هذه الحملات التخريبية أو بعدها، فقد كان نتيجة اتصالات مسبقة، وكان الثمن الذي قدمه جماعة حلب أو البرهان الذي قدمه ليثق بهم الفرنجة ويقوموا بحملاتهم.

وما إن عاد صلاح الدين إلى دمشق منتصرا على حلب مصالحا لها، حتى أدرك الفرنجة أنهم راهنوا على الجواد الخاسر، وان مهادنة صلاح الدين قد تكف عنهم ثأره لهجماتهم «وقد خافه الفرنجة وغيرهم وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون - وهو في مرج الصفر - الهدنة، فأجابهم إليها وصالحهم بشروط قبلوها» في المحرم سنة 572هـ.

أمر العساكر المصرية بالعودة إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم، وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين، فيما بعد. وإنما هادن الفرنجة فيما يبدو لسنتين ليريح جنده، وكانت الشام في سنة محل شديد، ونقص في الغلات كبير، وقد هجرها الكثيرون إلى مصر وغيرها.

وأما سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقد سمع - وهو ما يزال يحارب أخاه في سنجار - بأمر الهزيمة، ثم بأمر الصلح مع جماعة حلب، فغضب أشد الغضب، وكان شابا ضعيف السياسة في قرابة الثلاثين من العمر، فصالح أخاه بعد أن كادت سنجار تسقط في يده، وهرع إلى الموصل يجمع القوات من جديد للانتقام من صلاح الدين، وبعث إلى جماعة حلب يعتب عليهم ويوبخهم، ونسبهم إلى التسرع والضعف وعدم الحزم حتى

حملهم على نقض الصلح والنكث بالأيمان، وأنفذ من أخذ عليهم المواثيق من جديد بالتحالف معه ضد السلطان الجاحد! وبعث برسول من عنده إلى صلاح الدين بدمشق ليأخذ له عهدا بعدم مهاجمته بعد أن تجاورت أرض الطرفين في الشمال، ولم يكن القصد من الرسول هو هذا العهد، ولكن التعرف إلى قوته وخططه المقبلة والتجسس على قواه.

واتفق أن هذا الرسول حين مثل أمام صلاح الدين أخرج من كمه لسوء حظه ـ نسخة العهد التحالفي بين الحلبيين وصاحب الموصل بدلا من العهد الذي لصلاح الدين. فلما استلمه منه وقرأه انكشفت له اللعبة، وعرف بالوثيقة نقض الحلبيين للصلح من ورائه، واتفاقهم مع سيف الدين، فأخفى ما علم. وقال للرسول: لعلها تبدلت.. فارتبك الرسول، فقال السلطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة وفي شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمرا إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم منا؟ وصرف الرسول ليستعد لهذا الحلف مرة ثالثة. وأرسل إلى أخيه يستدعى عسكر مصر، وكتب إلى الخليفة كتابا طويلا يفصل فيه ما جرى – من إنشاء الفاضل – وفيه:

«يطالع أن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح.. اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات – الحرب – إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها والأيمان فبذلوها، وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يمينا جعل الله فيها حكما... وعاد رسوله ليسمع منا اليمين. فلما حضر وأحضر نسختها أومأ يده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعد والاستنفار لمن هو على قربنا وبعدنا. وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الأولى، فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا: هذه يمين عن الأيمان خارجة وأردت عمرا وأراد الله خارجة..

وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله أن يكون اسمه معرضا للحنث العظيم والنكث الذميم... والمواقف الشريفة – يعني الخلافة – النبوية أعلاها الله، مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة الواقعة لنا تضييق خناقه...».

وبعد أن ذكر أمر الفرنجة قال: «والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظا، ولا ينوون لما استحفظوا حفظا، وعدو كافر فما يجاورهم إلا بلاده، ولا يقارعهم إلا

أجناده». ثم طلب خروج الأمر - من الخليفة - بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للملك - أي صلاح الدين - على المشركين أعوانا، وأن يتمثلوا أمر نبينا ﷺ في أن يكونوا بنيانا، فيعضدوه إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس، الذي طابت النفوس عن ثأره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته. والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك.. ولا أقل من أن لا يكونوا أعوانا عليه يلفتونه عن قصده، حريصين على إيصال المكروه إليه».

ويبدوا أن صلاح الدين في هذه الفترة، وبعد أن رأى نقض الصلح من الحلبيين ألغى الخطبة للملك الصالح على المنابر، وأنزل اسمه عن السكة المضروبة معتبرا أن نقضهم قد حلله من يمينه، وأن مرسوم الخليفة قد منحه السلطنة له على مصر والشام. ولهذا لن نجده - بعد أن انتصر في المعركة المقبلة - يطالب بتربية الملك الصالح، ولا بالإشراف عليه، معتبرا أنه أضحى نهائيا في الجانب الآخر المعادي له، أو أنه يستخدم من الجانب المعادي، وبهذا الشكل قطع صلاح الدين آخر صلة كان يحرص عليها وفاء لنور الدين مولاه السابق وللبيت النوري.

في هذه الأثناء كان سيف الدين غازي قد جمع عساكره من الموصل وديار بكر واستنجد بصاحب حصن كيفا وماردين، وأنفق الأموال الكثيرة على إعداد الحملة الكبيرة التي نزل بها على نصيبين - ربيع الأول سنة 571هـ/ أيلول 1175م - وأقام هناك حتى انتهى موسم الشتاء والأمطار والثلوج والبرد، ثم سار فعبر نهر الفرات إلى حلب، وخيم في غربها. وراسل الحلبيين مرارا في مراسلات طويلة، كانوا خلالها يتلكأون خائفين من هزيمة أخرى، حتى هم سيف الدين أكثر من مرة في العودة إلى الموصل، وترك المقاومة لصلاح الدين، وأخيرا نزل إليه كمشتكين الخادم مدير دولة الصالح ومعه عساكر حلب. وكان صلاح الدين في قلة من العساكر لأنه كان صالح الفرنجة في المحرم من هذه السنة - 572هـ - وقد سير عساكره إلى مصر فأرسل يستدعيها.. فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه، لكنهم تريثوا وتأخروا عنه، فجاءته عساكره، فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين.

والتقى العسكران بتل السلطان، وكان سيف الدين قد اجتمع قرب قلعة حلب بابن عمه الملك الصالح الذي عانقه وبكى، ثم افترقا وعاد الصالح إلى حلب... وكان عسكر كمشتكين يخرج إلى خدمة سيف الدين كل يوم، ثم غادر السيف بجيشه الكبير إلى

تل السلطان وسبق صلاح الدين إليه، وبعد أن توثق من تصميم كمشتكين على مقاومة صلاح الدين، وعلى وجوب التعاون مع الصليبيين للهدف نفسه، ولهذا الغرض أطلقوا سراح الأسيرين المزمنين عندهم أرناط وجوسلين. ولا شك أنهم طلبوا إليهما العمل على وقوف الفرنجة بجانبهم وضرب صلاح الدين من ظهره ما استطاعوا باعتباره العدو المشترك، وفي ذلك تأييد للملك الصالح لا كعدو ولكن كخصم لصلاح الدين.

خرج السلطان من دمشق (في أواخر رمضان سنة 571هـ/ نيسان 1175م) وكان يجتاز نهر العاصي بعد حماة، ثم وافى جيش التحالف عند تل السلطان، والتقى العسكران، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان، فحمل بنفسه وركب أكتافهم وأخرجهم من خيامهم، ووكل بسرادق سيف الدولة غازي ومضاربه ابن أخيه فروخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعداه، وانكسر القوم ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدمين (ثم منّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم) ونزل في السرادق السيفي فتسلمه بخزائنه واصطبلاته ومطابخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجود، وفرقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيبا للرسل والوفود، ووجد في السرادق طيورا، فأرسلها ليلعب بها سيف الدين مع الجواري والحظايا، وقد شنع عليه الناس بوجود المغنيات والخمور في عسكره.

وفيما أمر السلطان برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم يقتل أو ينهب، كان سيف الدين جادا في الوصول إلى حلب، وما إن وصل حتى أخذ منها خزائنه وتابع هربه مع من سلم من أصحابه، حتى قطع الفرات وسار إلى الموصل، وهو لا يصدق النجاة، كما سار عسكر حلب إليها في أقبح حال، وبعضهم حفاة عراة، وخافوا من أن يقصدهم السلطان، فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السلطان فعلا، وخيم على حلب أياما، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حولها من الحصون والقلاع فنفتحها، فإنه إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها، فصوبوا رأيه.

وصرف صلاح الدين همه إلى السيطرة على الحصون المحيطة بحلب شمالا وجنوبا ليفرض عليها الحصار الذي يدفعها إلى الاستسلام، وتقدم إلى بزاعة فتسلمها في 22 شوال 571هـ، ثم منبج فأخذها، وكان حانقا على صاحبها (ينال المنبجي) يوم فظاظته معه، وهو رسول الحلبيين إلى دمشق، وامتنعت عليه قلعتها فضيق عليها وامتلكها عنوة مع أخذ مدخراتها التي يقدرونها بستمائة ألف دينار من عين ونقد ومصاغ وغير ذلك ما يساوي ألفي ألف دينار.

وفي الرابع من ذي القعدة تقدم إلى مدينة عزاز فحاصرها 38 يوما، ونصب عليها المجانيق، واتفق أثناء الحصار أن حاول ثلاثة من بعض الإسماعيلية الوثوب عليه وقتله، وكان وراء هذه المحاولة الثانية أمراء حلب مما زاده حنقا وإصرارا، وزاد جنده حمية لفتح المدينة، حتى كثرت الثقوب في قلعتها، وطلب حاكمها الاستسلام، وتسلمها صلاح الدين في 11 ذي الحجة 571هـ/ 26 حزيران 1176م، وعاد فضرب الحصار حول حلب في 15 من الشهر نفسه، وجبى أموال المنطقة، وأقطع ضياعها.

وكان كمشتكين قد خرج إلى حصن حارم، فقطع عليه طريق العودة إلى حلب، وكان يخاف أن يقع صلح مع حلب وهو غائب فيبقى منقطعا، فراسل صلاح الدين يرجوه أن يفسح له في الدخول إلى حلب، فإذا فعل «سارعت في الخدمة، وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان». وراسل الملك الصالح والأمراء يقول: قد حصلت خارجا، وقد بلغني أمور، ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم، فإن الذي حصل عندي لا يمكن الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له بدخول حلب فأذن. وكان صلاح الدين يمنع دخول أي شيء إليها أو أن يخرج منها أحد.

وتبادل السلطان مع أمراء حلب نسخ اليمين على الصلح، فلم يقبلها الأمراء الحلبيون، وكانت مجرد حيلة احتالها كمشتكين لدخول المدينة، فاستمر السلطان في الحصار حتى مطلع سنة 572هـ، بعد أن أطلق رهينهم عنده، فلما يئس الحلبيون عادوا إلى التذلل وطلب الصلح، فأجابهم السلطان وعفا عما سلف، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها مع أن الخليفة العباسي أعطاه حكمها، وزاد صلاح الدين فأعطاه معها بلدة عزاز، إذ أخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين في الليل، فلما دخلت عليه قام قائما وقبل الأرض بكى على نور الدين، فسألته أن يرد عليهم بلدة عزاز فقال: سمعا وطاعة، وأعطاها إياها، وأكرمها إكراما عظيما، وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا. ثم اتفق مع الملك الصالح أن له من حماة وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد ابن الداية، وحلف له أمراء حلب على كل ما اشترطه واعتذروا عن كل ما أسخطه. وكان الصلح عاما لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر، وكتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر واحد منهم وخالف كان الباقون عليه يدا واحدة حتى يفيء إلى الوفاء.

فلما انتظم الصلح رحل السلطان لتأديب الإسماعيلية وشيخهم سنان، فحاصر حصنهم - مصياف - ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلا وأسرا، وساق

أبقارهم وهدم ديارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين الحارمي حاكم حماة، وكانوا راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فكف السلطان عنهم، لأنه علم أن الفرنجة أغاروا على البقاع وقاتلهم صاحب بعلبك، وأخذ منهم مائتي أسير أحضرهم إلى السلطان وهو على مصياف، فصالح صلاح الدين سنانا وعاد إلى دمشق.

وابن الأثير يعلل الصلح مع أمراء حلب بأن «أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنهم ربما ضعفوا، وصلاح الدين رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد، ولا على قتال من به، فأجاب للصلح، وتقررت القاعدة في الصلح للجميع: للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين، وتحالفوا» . وفي قوله مغالاة بقوة الحلبيين ليحجب بذلك المبدأ الرئيسي الذي كان يعتمده صلاح الدين، وهو العفو عند المقدرة، وقد برهن على ذلك عشرات المرات من قبل، وفي مختلف المواقف. وهذه السياسة بالذات هي التي كانت ترفع من شأنه، وتزيد في سمعته الشعبية تألقا وتقديرا. وكان كل همه أن يصل إلى ما يريد بأقل ما يمكن من إراقة دماء المسلمين، وأن يدخل الجميع في خط واحد هو معركة الجهاد ضد الصليبيين، ومتى تم له ذلك اكتفى.

ولو كان أمراء حلب من القوة بحيث لا يستطيع صلاح الدين أن يدنو من البلد فهل يعقل أن يصالحوه بعد أن هزمهم مرات عديدة إلا مرغمين؟

لقد كانت نقطة القوة الوحيدة لديهم أنهم يطوقون الملك الصالح، بمعنى أنهم كانوا يملكون الشرعية، وهدف صلاح الدين أن يسلبهم هذه القوة بالذات، فصالحهم وعفا عنهم ثلاث مرات في هذا السبيل دون نتيجة، حتى شعر أنه بقوته وبتوقيع الخليفة مستغن عنها، فاستغنى! وكانت سنة 571هـ بما سبقها من أشهر معدودة، وما لحقها من أسابيع قليلة، هي فترة الغضب الكبرى في حياة صلاح الدين، وكانت تصرفاته فيها نماذج للتسلح الخلقي الإسلامي الذي نسيه الناس لمدة طويلة واستيقظ في عهد نور الدين ثم صلاح الدين.

وقد اتهمه أعداؤه وحساده بالمطامع الشخصية، وقد لا يكون هذا بعيدا عن ذاته العميقة، ولكن من ذا من الخلق يعمل دون مطمح شخصي إلا الملائكة؟ وصلاح الدين لم يكن ملاكا، ولكنه أثبت بمواهبه الخلقية، وبمسلكه الشجاع، أنه جدير بالمبادئ التي آمن بها وأعلنها.

لقد دافع أمراء الشام وبخاصة جماعة الموصل في الدرجة الأولى وجماعة أمراء حلب عن تمزيق دولة نور الدين واقتسامها كإرث، وتمسكوا منها بالشام والموصل حيث

يوجدون، في حين كان صلاح الدين يدافع عن وحدتها، وقد تمسك بالشرعية أولا ما استطاع، واكتفى بأن يقفوا معه ضد الصليبيين فقط، وكانت حجتهم الوحيدة ضده أنه يعمل لمصلحته الشخصية، وأنه جاحد لنور الدين.. ترى ألم يكونوا هم أنفسهم يعملون لمصالحهم الشخصية ويجحدون نور الدين ويتنكرون لمبدئه في وحدة الجبهة الإسلامية؟ وماذا في المصالح الشخصية وفي الأطماع إن كان هدفها مصلحة المسلمين جميعا، وكانت توضع عمليا في خدمة المبادئ السامية؟ ومن هو المبرأ منها في كل ملوك الأرض والتاريخ، إلا الأنبياء والرسل؟ ولم يدع صلاح الدين لا النبوة ولا الرسالة، ولكنه في الحياة التي عاشها كان صاحب رسالة معينة هي: تحرير القدس من الكفار .. وقد فعل!.

وإذ هادن المسلمين الذين حاربهم حتى جعلهم ينقادون لتوحيد جبهة القتال الإسلامية، ولم يكن يطلب غير ذلك منهم أو من أقربائه الذين زرعهم في كل مكان، ولم ينقض عهدا أو ينكث بيمين أقسمها لهم، فإنه كان يهادن الفرنجة لهدف آخر، هو فقط كف شرهم مؤقتا لعدم استعداده لهم في حينه، فأساس سياسته الإسلامية هو السلم مع المسلمين ما داموا على استعداد للوقوف بجانبه ضد الفرنجة، وأساس سياسته مع الفرنجة هو الحرب والقتال ما توفر له ذلك عدة وعددا وتوقيتا، وأشرف الميتات عنده أن يموت مجاهدا للكفار. ولقد قضى صلاح الدين سنة 582هـ/1187م في معظمها بدمشق مشغولا بخمسة أمور:

الأول: تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه: ولم يكن صلاح الدين إداريا بارعا ولكنه برع بالتسويات الرضائية، وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع، فكره المبسط لم يكن يحتمل تعقيدات الإدارة، فكان يتركها لغيره بسبب انشغاله الكامل بالمهمة الحربية. ولما كان المتطوعون بالولاء الشخصي له قد كثرت نسبتهم في الجيش، وجلهم من الأكراد، فقد قلت نسبة المماليك فيه، وقام هذا الولاء مقام الكابح المشترك للجميع، فلم تظهر المنافسات ولا التحاسد على الإقطاعات، وإن نال أفراد أسرته - وهم المؤسسة العسكرية الأم - النصيب الأوفى من ذلك، ولما كان لا يشترط على نوابه وحكامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات إلا معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دوما للقتال. فقد ترك الأمور الإدارية كلها وراء ظهره، وكان لا يهتم سوى بالولاء المخلص من أتباعه، لأنه كان يعرف أن هذا الولاء هو الذي يجمع القوى بيده، ولذلك كان يهتم به، وقد قال مرة لصديقه المصاحب له ابن شداد: «إنني لو حدث

لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر». وقد كتب منشورا في الرقة ذات مرة قال فيه: «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق، ومن ترك لله شيئا عوضه، ومن أقرض الله قرضا حسنا وفاه ما أقرضه».

قال العماد: كتب له النواب بدمشق مرة: «إن الأموال ضائعة، وإن الأطماع فيها رائعة، وإن في أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها، وإن أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وإن المصلحة تقتضي إفراد جهاد جهات لما سنح من مهمات» وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعا بالإمضاء، ولا تكدر على ذوي الآمال موارد العطاء، فقلت: أما أتلو عليك الأسماء، فقال: لا! بل نزهني عن هذه الأشياء.. فبقيت تلك الرسوم دارة.

وكان صلاح الدين يبني فكره الإداري بكل بساطة على الثقة بنوابه وعماله، ويقبل شكوى الناس فيهم أحيانا - كما جرى مع أبي الهيجاء السمين - وقلما كانت تقوم الشكوى، ومشى مع هذه الثقة، وربما كان ذلك سببا لها أريحيته المبالغ فيها في كثير من الأحيان، فقد كان سفاحا للمال لا يدخره لوقت الحاجة. وهذا ما أحرجه كل الإحراج أيام الحرب ضد الحملة الصليبية الثالثة... وقد كتب القاضي الفاضل: إن المولى أنفق مال مصر في الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل. وقد قال مرة: «يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب». وكانت هذه الناحية نقصا في إدارته، لأن عددا من ولاته أثروا الثراء الفاحش ولم يحاسبوا، وكانت حملاته العسكرية مناسبات لحملات من السخاء كانت تغضب أمراءه وخواصه، وتحرج القائمين على خزائنه.

الثاني: تنظيم أطماع أسرته وإرضاؤها: وكانت الأسرة الأيوبية هي سنده وشاغله في وقت معا.. وكانت مطامع أفرادها متفقة مع مفاهيم عصره، لكنها لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة.. كانوا جديدين على عمليات الحكم، ويفهمونه على أنه امتلاك لأراضي الناس ورقابهم، لا على أنه إدارة لشؤونهم وتسيير لرعية هم مسؤولون عنها.. ومفهومه أتاه من توقد حماسته الدينية، أما أسرته فكان مفهومها مستقى من واقع ما يجري في العصر.. وقد عانى صلاح الدين من تباين الحالين، وعبر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل - وهو يطلب عقد تملك لحلب مقابل 150 ألف دينار اقترضها صلاح

الدين منه - «أظننت أن البلاد تباع وتشرى، أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم؟».

وقد انتهى الأمر بعد عدد من التغيرات والمبادلات (في سنة 582هـ) كما يلي:

- أعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا مليك قلعة ولا إقطاع كامل، ولكن بصفة وصي على العزيز عثمان بن صلاح الدين.

- عين ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع ميافارقين وديار بكر بعد أن تمرد في مصر أو كاد يخرج عن الطاعة وعن مصر.. وقد أقنعة القاضي الفاضل بعدم التهور.

- وتم إعادة ابن صلاح الدين: الظاهر غازي لولاية حلب.

- وبقي شيركوه بن ناصر لدين محمد في إقطاعه بحمص لم يتغير.

الثالث: العمل الدبلوماسي الخارجي: فقد أدرك صلاح الدين من خلال تجاربه ومسؤولياته خلال عشرين سنة ونيف أن الإطار الخارجي للأحداث له أثره فيها، وقد يمارس عليها تأثيرا خطيرا، وأن القوى المادية التي بنى منها دولته قطعة قطعة لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي، ولا بد من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم مع القوى الخارجية، بل ومع المعادية أحيانا.

وهكذا وجه دبلوماسيته إلى القسطنطينية - بيزنطة - وقد جاء وقت كانت فيه هذه الإمبراطورية - في عهد مانويل كومنين - حليفه لملك القدس، وكانت لها جهود في إقناع الفرنجة بالهجوم على مصر، وقامت معهم بتجهيز أسطول لغزوها، وشكلت خطرا عليها، ولكن سياستها انقلبت إلى نوع من العداء في عهد ألكيسيوس كومنين ومن بعده. وكان التقرب منها من جانب صلاح الدين يؤدي في الوقت نفسه إلى إغضاب أعدائها سلاجقة الروم.. ولكن الأمور تغيرت أيضا بعد أن هزم السلاجقة الإمبراطور مانويل سنة 572هـ في موقعة ميريو كفالونو بعد وفاة مانويل، لأن خلفاءه بادروا بإقامة العلاقات الحسنة مع صلاح الدين وأيدوها بمعاهدة سنة 577هـ وعودة القسطنطينية إلى فتح الجامع الإسلامي فيها، وإطلاق حوالي مائتي أسير مسلم عندها. وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام، مما زاد في اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وإلى قبرص.

الرابع: ومن جهة أخرى فإن الأساطيل الإيطالية - أساطيل جنوا وبيزا والبندقية وأمالفى - كانت متصلة الورود والتكاثف على السواحل الشامية، ولها امتيازاتها في

المرافئ كلها، وهي تحمل الرجال والمال والسلاح إليهم دون انقطاع، وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب.. ودورها الفعال هو الذي ساند الإمارات الإفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن، ولولا أشرعتها ما بقيت هذه الإمارات ولا قويت.. فكان على صلاح الدين أن يكبح من قوتها ما استطاع، لا بحربها في البحر، فلم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك، وإنما بفتح بعض مرافئه لمصالحها، وهو يعرف أن مصلحة هؤلاء التجار تغلب تدينهم وتجعلهم ينسون حتى الحرمان الذي يمكن أن يرميهم به البابا، كما أنهم متنافسون فيما بينهم، فاستغل منافساتهم، وبذل كثيرا من الجهود لاجتذاب تجارهم إلى مرافئ مصر، مما يؤدي إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها، ومنافع التجار المصريين من وراء الفرنجة. وقد أقام مع البيازنة - البياشنة تجار بيزا - معاهدة سنة 569هـ كان من نتائجها أن شاركوا القوات المصرية في دفع الهجوم الصقلي عن الإسكندرية سنة 570هـ. وثم فقرة في كتاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد تؤكد وجود اتفاق مماثل مع جنوا والبندقية.. تقول الفقرة: «وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده - أسلحة - ويقترب إلينا بإهداء الطرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد تقررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة».

الخامس: قضية الجهاد: وهي القضية المركزية التي شغلته حتى وهو في صيده أو صلاته أو خلوته مع أولاده.. وكانت الأشهر الأخيرة من سنة 582هـ هي أشهر المكاتبات والرسائل لنوابه وعماله والتابعين له في مصر والشام والجزيرة والاستعداد للحرب، وكان لا يجهل بالطبع ما يجري في مملكة القدس من منازعات، ويعرف معنى الهدنة التي منحها لريموند أمير طرابلس الغاضب على ملك القدس.

فقد ساءت أحوال مملكة القدس في أواخر أيام ملكها المريض المجذوم (بغدوين الرابع) ولم يلبث تحت تأثير بارونات المملكة، أن أبعد (غي لوسينيان) عن وصاية المملكة وأعلن ابن أخته الصغير (بغدوين الخامس) شريكا في الحكم، ولما رفض لوسينيان ذلك واعتصم بإقطاعه في يافا، قرر مجلس المملكة اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصيا على المملكة. ثم توفي بغدوين الرابع، فأعلن بغدوين الخامس الصغير ملكا تحت وصاية ريموند، وكان في السادسة من العمر، كما كان بدوره معتل الصحة.. وخشي الوصي أن يموت هذا الطفل بدوره ويهتم به وتتعقد الأمور.

كما كانت بلاد الشام عامة في قحط شديد تلك السنة (سنة 581-582هـ/ 1185م) فطلب من صلاح الدين هدنة لمدة أربع سنوات، فوافق عليها (1185-1189م) لأنه

كان ينوي تصفية غلاقاته مع الموصل.. ثم مرض وصفى الأمور. فلما عاد إلى دمشق سمع أن بغدوين الخامس توفي بدوره (أواخر أغسطس 1186م)، وتعقدت الأمور في القدس بسبب الصراع الشديد الذي قام حول الفوز بالعرش.. ولعب أحد البارونات دوره في إلهاء ريموند الوصي وإعلان زوجة لوسينيان ملكة للقدس بالاتفاق مع بطريك القدس والفارس أرناط. وانشق النبلاء بين مؤيد ومعارض، لأن ذلك أعاد زوجها غي لوسينيان إلى رئاسة الدولة.. وقام فرسان الداوية بحراسة أبواب المدينة المقدسة أثناء تتويجه، فيما تجمع الأمراء الناقمون في نابلس، لكنهم تسربوا واحدا بعد الآخر وقبلوا الواقع خوفا على إقطاعاتهم، ولم يبق على إنكار ذلك سوى ريموند الوصي السابق صاحب طرابلس، وبوهيموند صاحب أنطاكية، وزاد في حقد ريموند أن ملك القدس الجديد بعث يطالبه بحساب البلاد وما أنفق أثناء وصايته، وكان من حسن حظ الصليبيين أن هذه الأمور كانت تجري في ظل الهدنة التي كان ريموند قد عقدها مع صلاح الدين.

وهكذا أرسل ريموند إلى صلاح الدين يعتضد به ويرجو مساعدته ضد هذه التطورات..ولم يترك السلطان هذه الفرصة تفوته للمزيد من الفصل بين إمارة طرابلس ومملكة القدس، فوعد بنصرته. ويضيف ابن الأثير أنه «ضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للفرنجة قاطبة - وهو زعم يخالف كل مبادئ صلاح الدين - وكان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فأطلقهم، فحل ذلك عنده أعظم محل، وأظهر صلاح الدين.. ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنجة، فاختلفت كلمتهم، وتفرق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ البيت المقدس منهم». وفي ذلك مبالغة كبيرة من ابن الأثير واتهام لصلاح الدين بالخداع ولريموند بالطاعة له، وهو ما لم يكن من الممكن أن يحدث من الطرفين، بالإضافة إلى أن كلمة الفرنجة لم تكن أبدا متفرقة ولا شملهم مبددا يوم حطين، بل كانوا بما فيهم صاحبا طرابلس وأنطاكية جبهة واحدة متراصة، وقاتلوا حتى الموت... وهزموا، وكل ما في الأمر أن ريموند أجرى اتصالات مع صلاح الدين وقويت مناصحته له، وباين أهله ملته، وبث السرايا في بلادهم تنهب وتدمر، لأنه كان يملك مع زوجته بالإرث مدينة طبرية وما حولها، وكان يخشى اعتداء ملك القدس عليها.

وهذا بالضبط ما أشار إليه أبو شامة وابن واصل من بعده. والقول بأن الهزيمة كانت نتيجة تفرقهم ينسي الداوية والاسبتارية وأرناط والأحقاد الكبيرة التي كانت تجمع

جماهيرهم ضد المسلمين.. إنها لم تكن لتفرقهم ولكن لغباء الرأي والتدبير في زعمائهم. وإذا كان ريموند قد هرب بعد بدء المعركة، فقد كان يريد أن يثبت للأمراء الآخرين مدى غبائهم وتهورهم وراء لوسينيان وأرناط، ولم يكن ينتظر أن تكون المعركة فاصلة ولا بهذا القدر الواسع من النتائج.

على أي حال كانت جميع الخيوط في يد صلاح الدين في مطالع سنة 583هـ، وكان ينتظر الفرصة التي يتذرع بها لنقض الهدنة، وقد أرسل بعض قواته بالفعل لمعونة حامية طبرية، وكان في نية غي لوسينيان مهاجمتها بتحريض من فرسان الداوية. وكان صلاح الدين يرجو من ذلك إثارة مملكة القدس ودفعها لحربه، ولكن تهور أرناط صاحب الكرك جعله يسبق ويعطيه الذريعة التي كان يرجوها، فقد كانت قوافل التجارة والمرور والحج تعبر ما بين مصر والشام والحجاز تحت ظل الهدنة التي طلبها أرناط نفسه بعد فشل حملته في البحر الأحمر. وكان يستفيد منها بفرض الضرائب والمكوس على عبور صحراء الأردن، ولكن طبيعة التهور فيه والطمع بالنهب تغلبت عليه حين سمع بقرب مرور قافلة ثقيلة معها نعم جليلة متجهة من القاهرة إلى دمشق أوائل سنة 1187م.. فقطع الطريق عليها ونهب جميع ما فيها، وألقى رجالها أسرى في سجون الكرك، وعلى الرغم من وجود حامية عسكرية معها، فإنه تغلب عليها مستعينا بمجموعة البدو التي حول الكرك (أوائل سنة 583هـ).

أرسل صلاح الدين إليه يقبح عمله ويتهدده إن لم يطلق الأسرى، ولكن أرناط امتنع عن إجابته وأصم آذانه عن التهديد، ويقولون إنه قال للوسطاء: قولوا لمحمدكم يخلصكم. واتجه صلاح الدين إلى ملك القدس لوسينيان وأصر على تسليم الأسرى والأموال، ولكن تدخل هذا الملك لم يجد نفعا، فقد تحداه أرناط بالرفض أيضا لأنه كان يعتبر نفسه ذا فضل عليه بتتويجه.. وكان هذا كافيا لإطلاق يد صلاح الدين في العمل والحرب، وأقسم أن ينذر دمه.

أمر.. فتدفقت الجيوش عليه من مصر والشام وديار بكر والموصل (أواسط مارس سنة 583هـ).

واتجه من دمشق نحو جنوب حوران حيث تجمعت الجيوش عند موقع يدعى رأس الماء، وترك ابنه في الموقع لينتظر قافلة الحجيج القادمة من الحرمين عند بصرى وفيها أخته. فما إن اطمأن على وصولها في 11 مايو حتى اتجه يحاصر الكرك لملاقاة جيوش مصر

القادمة. وكان في عزم أرناط أن يقطع عليها الطريق ففاتته الفرصة، لأن صلاح الدين لقيها بعساكره وعاد معها إلى (رأس الماء) حيث كانت جميع القوى الإسلامية تتجمع بعد أن دمر أرباض الكرك والشوبك كافة.

كانت القوى الإسلامية في 12 ألف فارس يتبعهم عدد مماثل من المشاة والمتطوعين والبدو.. ولما كان صلاح الدين حريصا على تفريق الصف الصليبي، فقد أعطى تعليماته - وهو مطمئن إلى حياد أمير طرابلس - لأمرائه في الشمال بعقد هدنة لثمانية أشهر لأمير أنطاكية (بوهيموند). وتصور بذلك أنه سينفرد بقوى مملكة القدس. وأراد القيام بتظاهرة عسكرية لمعرفة مدى القوى المعادية التي تجمعت ضده في صفورية، والتي لم يبق صاحب قوة في المملكة لم يجتمع إليها، فأرسل في أواخر نيسان سنة 1187م قوة استطلاعية من بضعة آلاف يقودها أمير حران (مظفر الدين كوكبري)، وأمير عسكر دمشق ـ للإغارة على إقليم عكا. وكان لابد لهذه القوة من المرور بالجليل، أي في أراضي ريموند الحليف المحايد، فحار في الأمر، ولكنه قبل السماح لهم بالمرور، وأعطى تعليماته للمدن - التابعة لطبرية كالناصرة وغيرها - بإغلاق أبوابها لئلا تداهمها، وكان هو نفسه مع زوجته في طبرية.. وهذا يكشف مدى المبالغة التي وصف بها تحالفه مع صلاح الدين.

وعلم مقدم الداوية بالحملة، فجمع حوالي 500 فارس، وحاول التصدي لها قرب صفورية، فدارت معركة عنيفة بين الطرفين - أوائل مايو - انتهت بالفرنجة بين القتل والأسر، فلم ينج منها سوى عدد لا يجاوز الخمسة منهم مقدم الداوية، وكان بين القتلى مقدم الاسبتارية.. وجاءتهم نجدة من الفرسان بعد انتهاء المعركة فأبيدت عن آخرها، وعادت الحملة تحمل رؤوس الفرنجة على أسنة الرماح.

كان هذا النصر المحدود مقدمة للمعركة التي عرفت (بحطين)، وقد بحثت هذه المعركة ودرست وحللت بشكل واسع من قبل المؤرخين العرب والغربيين، ودرسها العسكريون، وأهم خطوطها:

عبأ صلاح الدين جيشه تعبئة الحرب، وحدد لكل أمير موقعه وعمله لا يفارقه، ثم نزل بكتلة القوى إلى الأقحوانة - شمال طبرية - وبلغ الفرنجة كثرتها، ولم يشاؤوا ترك ريموند ينفرد عنهم، فأرسلوا إليه الرسل من القسس والرهبان مع بطريرك صور وبعض الفرسان، ينكرون عليه موقفه المجامل للمسلمين وسماحه بمرورهم في أرضه، وذكروه بالقتلى والأسرى الذين وقعوا نتيجة ذلك.. وتهدده البطريرك بالحرمان والفصل بينه وبين

زوجته، فلما رأى شدة الأمر، خاف فاعتذر وتنصل وتاب.. وكانوا قدموا عليه لهذا فطلبوا انضمامه إليهم، فسار معهم إلى ملك الفرنجة في عكا، فقدم له الولاء، وضم جيشه إليهم في صفورية، أما أمير أنطاكية فلم يكن معهم، لكن ابنه البكر هو الذي كان واشترك في المعركة.

كان الحاجز بين الجيشين هو تلك الآكام والمرتفعات في نهايات الجليل ما بين سهل حيفا وعكا ومنخفضات بحيرة طبرية، وقد اجتازها صلاح الدين أكثر من مرة ليراقب تحرك الفرنجة، ويحاول أن يجرهم إليها نحو الداخل، ولكنهم بقوا في مواقعهم، وفيها الماء الوفير والظلال الواقية من الحر - في مطالع تموز (يوليو) سنة 1187م - فلم يجد من وسيلة لتحريكهم عن هذا الموقع إلا بالهجوم على طبرية، فزحف إليها - وقد نقض ريموند الهدنة بالطبع - واقتحمت جيوشه المدينة وأحرقتها، إلا أن قلعتها قاومت، وكانت زوجة القمص فيها (وهي أخت ملكة القدس).

حين سمع الفرنجة بسقوط طبرية ووصلهم استنجاد زوجة ريموند بملك القدس، عقدوا مجلس الحرب لبحث الموقف، وكان رأي بعضهم الصبر وانتظار مجيء الجيش الصلاحي إليهم، وتزعم هذه الفكرة القمص ريموند نفسه قائلا: إن المسلمين لن يستطيعوا عمل شيء بعد أخذ طبرية، وسوف ينتظرون طويلا، ثم تمل جيوشهم فينسحبون ونستعيد المدينة، فإن مشينا إليهم وصلناهم والجيش متعب، وإن مشوا إلينا كنا في موقف أفضل.. وثار عليه أرناط وأتهمه بالجبن وبالميل للمسلمين، وقال: لا ترهبنا كثرتهم فالنار لا تهمها كثرة الحطب.. وتقرر المسير، وقال القمص: إنما أنا واحد منكم!.

حين سمع صلاح الدين بمسيرهم، قال: جاءنا ما كنا نريد.. واجتمع أصحابه وأشاروا بالقيام بالغارات، فرفض وقال: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد والجهاد، وقال للجند: لا تقاتلوا عني ولكن قاتلوا في سبيل الله، وتموضع الجيش الصلاحي فيما بين بحيرة طبرية والآكام المشرفة عليها. ووجد جيش الفرنجة الزاحف العطش لشدة الحر، ولم يكن في طريقهم ماء، وقد أفنوا ماء الصهاريج، فوصلوا لمواجهة جيش صلاح الدين وباتوا وهم عطاش. وفي الصباح حاول بعض فرسانهم الوصول إلى الماء فصدهم كثرة السهام والنشاب وقتلت الخيل. وكان صلاح الدين قد وزع النشاب في العسكر، وترك لمجموعاته مستودعات احتياطية منه..

وانتصف النهار والحر الشديد يصهر النفوس، والقتال محتدم، ومر اليوم الأول، وقد بلغ الجهد من الفرنجة كل مبلغ.. وأدرك القمص أن المعركة إذا دامت بهذا الشكل خاسرة، فحمل على المسلمين ناحية الغرب فشق له تقي الدين عمر الطريق، فهرب بأصحابه، ولم يلحقه المسلمون لانشغالهم، ودامت الحرب في الليل، فانحازت كتلة جيش الفرنجة إلى مرتفع جبلي ذي قمتين اسمه حطين، فألقى بعض المتطوعة النار في النباتات اليابسة، فاحترقت، وكان المسلمون يطوقون موقع الفرنجة، ويزحفون مكبرين مهللين إليهم، فاجتمع حر النار إلى حرارة تموز إلى حرارة العطش على الفرنجة، فكانوا رغم المقاومة القاسية يتساقطون من الإعياء، ولم يتمكنوا أن ينصبوا على الجبل إلا خيمة الملك وأمامها صليب الصلبوت بيد البطريرك، فلما سقطت الخيمة عرف صلاح الدين أنه انتصر، وسجد شكرا لله، وصار يبكي من الفرح!! (آخر جمادى الأولى سنة 583هـ/ 3ـ7 تموز(يوليو) سنة1187م).

كانت ساحة المعركة ملأى بالجثث والدماء والأشلاء المبعثرة من بقايا الدواب والأسلحة والفرسان، فيما كان الأسرى يلتقطون بالمئات ويساقون فوق الضحايا كالأغنام الطيعة.

كان من يرى القتلى لا يظن أن أحدا أسر، ومن يرى الأسرى لا يظن أن أحدا قتل.. خسر الفرنجة في هذه المعركة جيشهم كله، وكانوا في حوالي ثلاثين ألفا، وخسروا ما هو أهم، وهو الرهان على بقاء الإمارات الصليبية في المشرق أو زوالها.

ونزل صلاح الدين في خيمته، وسيق كبار الأسرى إليه: ملك الفرنجة غي، البرنس، أرناط، البطريك،صاحب جبيل، وابن هنغري، ومقدم الداوية، وكبار الاسبتارية وقد أرهقهم العطش، فاستقبلهم صلاح الدين وقدم الماء المثلج للملك، وأخرجهم إلى دهليز الخيمة، واستدعى أرناط فندد به وذكره غدره ونكثه وجرائمه وأعماله ضد الأماكن الإسلامية المقدسة، ثم وفى نذره بقتله بيده.. فلما جروا بأشلائه من الخيمة ارتاع الملك، فطمنه صلاح الدين قائلا: ليس من العادة قتل الملوك. وأمر بسوق الجميع إلى دمشق.. وزحفت الناس بالأسرى، فما من جندي إلا وعنده الواحد والعشرة والعشرون يسوقهم مربوطين بعمود خيمة! ورخصت أسعارهم بسبب الكثرة، فبلغ سعر الأسير بدمشق ثلاثة دنانير! وباع أحدهم أسيرة بحذاء.. أما أسرى الداوية والاسبتارية، فقد أمر صلاح الدين بقتلهم، لأنهم ألد الأعداء، ولا ينفعون في الخدمة.

لم تكن حطين كارثة حربية، ولكنها كانت نصرا على أكبر حركة استيطانية غربية شهدتها العصور الوسطى.. حررت المشرق العربي وأرضه بالذات من المجموعات البشرية التي غزته للبقاء فيه، وإذا أخذ هذا التحرير مئة سنة أخرى بعد حطين، فقد كانت هذه المعركة هي المؤشر الأول والأساسي لرفض استقرار الغرباء على هذه الأرض.. ولم يفقد الفرنجة جيشهم فيها فقط، ولكن زهرة شبابهم ورجالهم أيضا، وسوف يضطرون باستمرار إلى حمل المزيد من الرجال والأموال لسد النقص البشري الذي كشفته هذه المعركة. ولم يكن بقاء الإمارات بعد حطين بقوتها، ولكنه كان بقاء اصطناعيا، وقد حاول الغرب إعاشتها بالحملات المتتالية عبثا حتى انقرض آخر ممثليها في عكا سنة 1291م.

غدا المشرق العربي بعد حطين في يد صلاح الدين، ومشت قواته العسكرية فيه تتسلم المواقع تسلما في الغالب رغم المقاومة الشرسة أحيانا في بعض البلاد والقلاع العصية.. ويسترعي الانتباه في هذه المرحلة من الحروب الصليبية، أن صلاح الدين لم تستبد به نشوة النصر، ولم تخرجه عن خلقه الطيب المتسامح الذي أخذه عليه أحيانا أمراؤه وبعض المؤرخين.. ظل يعتبر الأرض المسلمة واستردادها أهم من محو من عليها من الأعداء، وكانت فكرة إجلائهم لا إبادتهم هي محور اهتمامه وسياسته، وكانت بساطة إيمانه بذلك تجعل الخداع يمر عليه أكثر من مرة دون أن يتنكر للتسامح والرحمة - وقصة خداع الملك (غي) ملك القدس الذي حلف لا يرفع سيفا في وجهه ثم نكل، معروفة.. ولم يكن الوحيد في ذلك، فهناك باليان الثاني وصاحب جبيل وغيرهم -.

حين فرغ صلاح الدين من حطين خيب ظن الفرنجة، فلم يذهب لأخذ القدس، ولكن إلى عكا ليتسلم الموانئ التي يأتي منها مدد السلاح والرجال إلى الفرنجة، وخرج أهلها يتضرعون إليه، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين البقاء فيها أو الخروج، فاختاروا الرحيل إلى صور، فاستلمها مع قلعتها، وكانت المرفأ التجاري الأول للفرنجة ومقصدهم من أنحاء الأرض، ووجد جنده فيها من البضائع والأموال ما لا يحصى.. وتفرق عسكر صلاح الدين، فأخذوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من بلاد عكا، ونهبوا وسبوا. وسار تقي الدين عمر على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور. وحسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى سبسطية وقلعتها، ثم إلى نابلس فأستلمها مع قلعتها بالأمان، وأقر أهل البلد على أملاكهم، وكتب صلاح الدين إلى أخيه بمصر الناصر، وأمر أن يأتي بجنده من جنوب فلسطين فيتسلم إلى

البلاد، فجاء وتسلم (مجدل يابه) وغنم فيه، ثم أخذ يافا وملكها عنوة، ونهبها وأسر رجالها ونساءها.

أما صلاح الدين فسار إلى تبنين الحصن العصي، فاستسلم حماته وسيرهم إلى أهاليهم، ثم زحف إلى صيدا، واخذ في طريقه صرفند، وهرب صاحب صيدا، فاستسلمت... وقاومت بيروت أياما، ثم خضعت بالأمان. واستعصت جبيل رغم أن والد صاحبها أسير لديه، فرفض تسليمها ولو قتل أبوه، فتركها وأطلق الأسير! وأمر أسطول مصر بالخروج لقطع طريق البحر على الفرنجة. واتفق في تلك الفترة بالذات أن وصل إلى عكا نبيل إفرنجي هو (دي مونتفرات) ويسميه العرب المركيش، فدخلها بماله وتجارته وسفينته، فرأى فيها من الناس ما استغربه، ثم عرف بكسرة الفرنجة، فاحتال حتى هرب بسفينته إلى صور، وقد تجمع فيها معظم الفرنجة في خلق كثير وهم عازمون على التسليم، فلما وصلها وكان من شياطين الإنس اجتمعوا إليه، فشد عزائمهم وتسلم زعامة البلد وشرع في تحصينها، وجدد حفر خنادقها وأسوارها، وهي شبه جزيرة في البحر وحمايتها سهلة من البر، فتركها صلاح الدين وفي ظنه أنها ليست أهم من عسقلان التي تربط مصر بالشام، ولا أهم من القدس وهي هدف هذه المعارك كلها ومهوى أفئدة المسلمين، لذلك اتجه من بيروت إلى عسقلان، واستقدم ملك الفرنجة ومقدم الداوية من دمشق ليطلبوا من حماتها التسليم مقابل فكاكهم من الأسر، فرفضت الحامية بأقبح رد، فنصب صلاح الدين المجانيق وحاصر المدينة ونقب أسوارها، وأضرم فيها النار، حتى استسلمت بالأمان بعد أربعة عشر يوما، ثم بث السرايا، ففتحت الرملة والداروم وغزة والخليل ويبنى وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية من القلاع، وتفرغ بعد ذلك لبيت المقدس.

ولقد كان في هذه المدينة بطريرك القدس وملكتها وباليان بن بارزان، صاحب الرملة، والفرسان الذين نجوا بالهرب من حطين وعسقلان والمدن الأخرى التي استسلمت، وكثير من الخلق، لدرجة أن الأزقة والطرق اكتظت بهم، وكلهم يفضل الموت على التسليم بالقدس، وبقي صلاح الدين خمسة أيام يعرض السلم عليهم مرتين، ويطوف حول المدينة ويسمع الجلبة والضجيج فيها، والسور في غاية الامتناع، ثم بدأ رمي المجانيق، وخيالة الفرنجة يخرجون كل يوم فيقاتلون في ظاهر البلد ثم يرجعون، فحمل المسلمون مرة واحدة عليهم حتى أزالوهم، ووصلوا الخندق فجازوه وبدأوا نقب

الأسوار، فلما رأى الفرنجة عبث المقاومة خرج وفدهم يفاوض على التسليم بالأمان، وكان صلاح الدين حزينا على مقتل أميرين من كبار أمرائه، فرفض إلا أن يذيقهم ما فعلوه بأهل القدس يوم دخلوها من المذابح، ثم خرج ابن بارزان يطلب الأمان لنفسه فرفض، فلما يئس قال: إذا كان لا بد من الموت فإننا نقتل أطفالنا ونساءنا وندمر الصخرة وقبتها والمسجد الأقصى، ونحرق أمتعتنا وأموالنا ولا نترك لكم شيئا تنتفعون به، ولا دابة أو حيوانا، ونقاتلكم حتى الموت.

واستشار صلاح الدين أصحابه، فرأوا قبول منح الأمان، على أن يدفع الرجل فدية عن نفسه عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينارين من الجميع. وسلمت المدينة في 27 رجب، ورتب السلطان على كل باب من أبوابها من يجبي الأموال، وازدحم النساء والأطفال والناس خلف الأبواب، وأساء كثيرون الجباية بالرشاوى، وتهرب كثيرون، وتدلى بعضهم بالحبال عن الأسوار، ودفع ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وكان الاتفاق لمدة أربعين يوما، غير أنها انقضت، وبقي في المدينة فقراء ليس يملكون الفدية، فافتداهم صلاح الدين من ماله، ولم يعتبرهم مماليك حسب الاتفاق، وبعض الأمراء أخرج بعضهم على أنهم من رعاياه.

أما ملكة القدس فقد طلبت المسير إلى زوجها الذي نقل إلى قلعة نابلس، فأذن صلاح الدين لها، وأطلق مالها وحاشيتها، كما أطلق امرأة أرناط على أن تطلب من حاميتها في الكرك والشوبك التسليم، وعلى الرغم من رفض الحامية، فقد أطلقها مع أتباعها وحاصر الحصنين حتى استسلما له مرغمين وأسر الحامية. وخرج بطريرك القدس ومعه أموال البيع والكنائس وكنوزها في أحمال محملة، فلم يعرض له صلاح الدين بشيء رغم غضب الحاشية، ودفع عشرة دنانير، ومضى صلاح الدين يقول: لا أغدر به. وقسم صلاح الدين الخارجين ثلاث مجموعات، سيرهم إلى صور بحماية الجند خوفا عليهم من البدو وقطاع الطرق، وكان في القدس نساء أخريات منهن أرملة عموري الأول وزوجة باليان فسيرها محروسة إلى طرابلس، وهناك أميرة بيزنطية مترهبة فأطلقها.

وفي 27 رجب / 2 أكتوبر دخل المسلمون البلد وتسلق بعضهم قبة الصخرة، وعليها صليب مذهب كبير فاقتلعوه، فلما سقط صاح المسلمون بصوت واحد بالتكبير فيما صاح الفرنجة بالخارج متفجعين، فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها، كما يقول ابن الأثير.

وأمر السلطان بإعادة الأبنية الإسلامية إلى حالها الأول، وكانت الداوية قد اتخذت في غرب المسجد الأقصى دورا للسكن، فهدم ما بنوا وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار، وفي الجمعة التالية رابع شعبان صلى صلاح الدين والمسلمون في المسجد الأقصى، ثم نقل المنبر الذي كان صنعه نجار حلبي اسمه (الاختريني) لنور الدين برسم هذا المسجد فنصب فيه بعد أن جلبه من حلب، وكان قد بقي فيها عشرين سنة ينتظر. وطلب بعضهم هدم كنيسة القيامة لقطع أمل الفرنجة بالعودة فرفض، وأمر السلطان بترخيم المسجد وتزيينه وتزويده مع قبة الصخرة بالمصاحف والربع. كما سمح للنصارى المحليين بالبقاء في المدينة. ودعا المسلمين للسكن فيها بعد أن فرغت، وغادرها في 25 شعبان لفتح صور، بعد أن أطلق آخر اليتامى والأرامل والشيوخ والمعوزين من الفرنجة دون فداء، ومنحهم مساعدات مالية تعينهم على السفر.

فيما كان صلاح الدين يتجه بقواه إلى صور، كان الصليبيون يرفضون إخوانهم، ويغلقون أبواب مدنهم وبلادهم في وجه المشردين منهم وينهبونهم، حتى وصل بعضهم إلى إمارة أنطاكية بعد طردهم من إمارة طرابلس التي كان أميرها ريموند بعد هربه من معركة حطين قد أصابته حمى ذات الجنب فمات، وتولى أمرها أحد أبناء الأمير الأنطاكي ويعرف باسم بوهيموند الرابع.

وقد ذكر أبو شامة أن الفتح في فلسطين شمل 52 مدينة وبلدا وعددها بأسمائها، وأضاف أنه لم يذكر ما تخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية مجرى القلاع، ولكل واحدة من هذه البلاد أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع، فلم يبق في أيدي الفرنجة منها موضع إلا صور في أقصى الشمال، على أن هذه المدينة كانت مجمع الهاربين والشاردين من الفرنجة، وملتقى البقايا العسكرية منهم، وكان المركيز (دي مونتفرات) قد انتهز فرصة انشغال صلاح الدين بفلسطين، فحصنها ونظم المقاومة فيها، وحين رأى صلاح الدين أنه انتهى من أمر القدس سار إلى صور، وكان أكثر من يستعجله في المسير إلى صور هو الأمير علي المعروف بالمشطوب، ويقول: الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث، وقد صارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء.

ووصل صلاح الدين إليها تاسع رمضان بعد حوالي شهر ونصف الشهر من فتح القدس، ونزل قربها ينتظر اجتماع العسكر، وزحف إليها بالمجانيق والعرادات والدبابات وأولاده وأخوه وابن أخيه يتناوبون القتال عليها، ولكن الشقة البرية التي تربطها بالبحر

ضيقة، والفرنجة يخرجون بالشواني من البحر ويغيرون من الطرفين على الجند والمدينة كالكف في البحر، فكثرت الجراحات في الجند، وجاءت الشواني المصرية إلى صلاح الدين من عكا وهي عشر قطع، وكانت تمنع أهل صور من الخروج في البحر، فتمكن المسلمون من أن يقتربوا من السور، واتفق في بعض الليالي أن هاجم الفرنجة خمسا من هذه الشواني على غرة عند الفجر فأوقعوا بها وقتلوا أصحابها أمام أعين الجيش المسلم في البر، فأمر صلاح الدين الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت، فتبعتها شواني الفرنجة، فساق البحارة المسلمون بشوانيهم إلى البر للنجاة، فأخذها صلاح الدين، لكنه وجد أن الإقامة على محاربة صور من البر قليلة الجدوى، وأمرها يطول ويضيق الوقت، وأن العسكر ملوا الإقامة والحرب فقرر الرحيل عنها.

قضى صلاح الدين الشتاء سنة 583هـ/ 1187-1188م في عكا. وفي مطالع الربيع سنة 584هـ توجه إلى دمشق معرجا في طريقه على قلعة كوكب، فحاصرها وهو في قلة من العسكر بعد أن تملك البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب ما عدا صفد والكرك وهذه القلعة، فلما رأى امتناعها رحل عنها تاركا حصارها لبعض قادته، وسار عنها في ربيع الأول إلى دمشق، وكتب إلى جنده بالمجيء إلى شمال الشام للحرب، فنزل على بحيرة قدس - بحيرة حمص على العاصي - وأتاه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر، صاحب سنجار ونصيبين والخابور، وتلاحقت العساكر من الموصل والجزيرة وغيرها فاجتمعت له، فسار حتى نزل على حصن الأكراد ـ قلعة الحصن ـ فأقام يومين وسار جريدة وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن، ودخل بلد الفرنجة، فأغار على صافيتا والعريمة ويحمور، وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين سلك منها، ثم عاد إلى معسكره سالما، وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حد له، وأقام تحت حصن الأكراد حتى آخر ربيع الآخر، وأتاه قاضي جبلة ليسلمها إليه، وكان مسموع الكلمة وافر الحرمة عند أمير أنطاكية، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، وتكفل له بفتح اللاذقية معها والبلاد الشمالية، فسار صلاح الدين معه، فنزل بأنطرطوس، فرأى الفرنجة قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة ومعقل منيع، فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم.

وكان الداوية بأحد البرجين فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه من في أحد البرجين وسلموه، وخرب البرج وألقى حجارته في البحر. وكان معهم مقدمهم وكان من أسرى

صلاح الدين يوم حطين، وأطلقه يوم فتح بيت المقدس، فخرب صلاح الدين ولاية أنطرطوس، وأتى مرقبة، وقد أخلاها أهلها، وسار إلى قلعة المرقب وهو من حصونهم التي لا ترام ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه، وهو للاسبتار، والطريق تحته مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد (وأمامه البحر) فاتفق أن صاحب صقلية قد سير نجدة إلى فرنجة الساحل في ستين قطعة من الشواني، وكانوا بطرابلس، فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على (سيف البحر) من أول المضيق إلى آخره ووراءها الرماة، فمنعوا الفرنجة من الدنو إليهم، وعبروا المضيق إلى جبلة، فلما وصل صلاح الدين رفع علمه على سورها وسلمها القاضي إليه، وتحصن الفرنجة بقلعتها، فسار إليهم القاضي يخوفهم حتى استنزلهم بالأمان، وأخذ رهائنهم إلى أن يطلق الفرنجة رهائن المسلمين الذين أخذهم بوهيموند أمير أنطاكية رهائن عنده، فأطلقوا. وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من أمنع الجبال وأشقها مسلكا، وفيه حصن يعرف بكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة، فملكه المسلمون، فأمن المسلمون الطريق، وعهد صلاح الدين بجبلة إلى صاحب شيزر.

وسار صلاح الدين إلى اللاذقية في 24 جمادى الأولى فهرب أهلها إلى حصنين في الجبل، وحاصر المسلمون القلعتين ونقبوا السور ستين ذراعا، فلما اشتد الأمر على المحاصرين طلبوا الأمان ورفعوا الأعلام الإسلامية على الحصنين بعد ثلاثة أيام من الحصار، وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرب المسلمون كثيرا منها، وشعثوا بيعها الثمينة، وسلمها صلاح الدين لابن أخته تقي الدين، فعمرها وحصن قلعتها حتى من يراها اليوم ينكرها، وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة.

وجاء أسطول صقلية فوقف بإزاء ميناء اللاذقية، فلما رأوا سرعة تسليمها حنقوا على أهلها وعزموا على أن يأخذوا من يخرج منها، ولكن سكانها بقوا فيها ورضوا بدفع الجزية.

وقبل الرحيل عنها طلب مقدم الأسطول الحضور عند صلاح الدين فأمنه وحضر وقبل الأرض بين يديه وقال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت ما فعلت بالفرنجة فذلوا، فاتركهم يكونون مماليكك وجندك وتفتح بهم البلاد، وترد عليهم

بلادهم، وإلا جاءك من البحر ملا طاقة لك به، فيعظم الأمر ويشتد الحال. فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر، وإنهم إن خرجوا أذاقهم ما ذاق أصحابهم من القتل والأسر، فصلب على وجهه ورجع إلى أصحابه.

ثم رحل صلاح الدين إلى قلعة صهيون وهي منيعة وشاهقة في الهواء على جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع، وقد عملوا لها خندقا عميقا لا يرى قعره، وخمسة أسوار منيعة. فنزل صلاح الدين على الجبل الملتصق بها، ورماها بالمجانيق والسهام، ورغم شجاعة الحلبيين المشهورة، فقد أظهر حماة القلعة التجلد والامتناع، حتى زحف المسلمون من منطقة وعرة حتى السور الأول حتى ملكوه، ثم ملكوا الأسوار الباقية وما اجتمع فيها من الدواب والذخائر، واحتمى الفرنجة أخيرا بالقلعة حتى طلبوا في النهاية الأمان، حتى أستلم الحصن وسلمه صلاح الدين إلى من يعيد تحصينه القوي.. وتفرق المسلمون يستولون على الحصون التي حوله.

وتوالى فتح الحصون بعد ذلك من قلعة بكاس إلى قلعة الشعر، وكان حصنا لا يرام، وقد يئس المسلمون منه، ولكنهم فوجئوا بطلب الأمان لحماته إن لم تصلهم النجدة خلال ثلاثة أيام، وسلموها لصلاح الدين في اليوم الثالث، ثم حاصر (سرمين) وفتحها وهدم الحصن، وكان فيه من أسرى المسلمين الجم الغفير، فأطلقهم بعد أن أعطاهم الكسوة والنفقة.. وكانت هذه الفتوح كلها في ستة أسابيع، وهي جميعها من أعمال أنطاكية.

ورحل صلاح الدين من بعد إلى قلعة (برزية) مقابل حصن أفامية وبينهما بحيرة من ماء العاصي، وكان أهلها أضر شيء على المسلمين، يقطعون الطريق ويبالغون في الأذى.. ولم يكن قتالها ممكنا أبدا من الشمال والجنوب، لأن الجبال على الجانبين هاوية، وأما من الغرب، فالوادي مرتفع لا يسمح بوصول حجارة المجانيق والسهام.. وكانت النساء فيها يدافعن مع الرجال، فقسم صلاح الدين جيشه إلى ثلاثة أقسام تعمل على التوالي حتى يتعب الفرنجة ويسلموا.. وهكذا توالى الزحف حتى ضعف الفرنجة وأنهكوا قتالا وحرا، فصعدت طائفة من الجيش المسلم من الجهة الأخرى، وملكوا الحصن عنوة، وكان الفرنجة قد أخرجوا أسرى المسلمين من القيود والخشب إلى أعلى القلعة، فلما سمعوا تكبير المسلمين ألقى بعضهم بأيديهم إلى الأسر، وألقى بعضهم النار في منازلهم، وأسر صاحب الحصن وأهله، فاشتراهم صلاح الدين، ولما بلغ أنطاكية أطلق سراحهم، لأن الزوجة كانت أخت زوجة بوهيموند، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال.

ثم فتحت قلعة (دربساك) بالقوة، وأخرج من فيها بثيابهم إلى أنطاكية، ثم سار صلاح الدين إلى قلعة (بغراس) قرب أنطاكية فتسلمها بالأمان، وتسلم المسلمون قلعتها بما فيها وهدموها لقربها من أنطاكية، لكن المسلمين تضرروا بذلك، لأن ابن ليون صاحب الأرمن أعاد بناءها، فصار يغير منها على حلب. وعزم صلاح الدين على التوجه إلى أنطاكية، وخاف أميرها من الهزيمة، فأرسل يطلب هدنة، وبذل إطلاق الأسرى عنده.. فمال أكثر الأمراء إلى القبول، وأقر الهدنة معه على مضض ثمانية أشهر اعتبارا من أول أكتوبر - تشرين الأول - سنة 1188م. وكان صاحب أنطاكية يملك أيضا إمارة طرابلس وليس أبرز منه في فرنجة المشرق.

وعاد صلاح الدين إلى حلب ثالث شعبان ثم إلى دمشق بعد أن فرق العساكر الشرقية، فدخلها أول رمضان سنة 584هـ، وأشير عليه بتفريق عساكر مصر، فقال: العمر قصير والأجل غير مأمون، وبيد الفرنجة حصون كوكب وصفد والكرك، ولا بد من الفراغ منها. وقد تم بالفعل الاستيلاء على حصن الكرك بعد أن فنيت فيه الأزواد وأكل أهله آخر حصان عندهم، وسلم أهله بالأمان سنة 1188م. وبعد أشهر استسلم حصن الشوبك. وفي منتصف رمضان سنة 584هـ - أكتوبر 1188م- مشى صلاح الدين من دمشق إلى قلعة صفد التي طاولت الحصار طويلا، فنصب عليها المجانيق ليلا ونهارا، وخاف أهلها من إصراره مع نفاد الأقوات لديهم، فسلموا القلعة بالأمان وساروا إلى صور، وبقيت قلعة كوكب التي حاول الفرنجة من صور نجدتها بمائتين من المحاربين، فوقعوا في أيدي المحاصرين، وكان معهم مقدمان من الاسبتار. وهدد أهل كوكب بالقتل والسبي، وزحف إليهم على دفعات متتالية بالنشاب حتى استسلموا في الخامس من يناير سنة 1189م - منتصف ذي القعدة - وسيرهم إلى صور التي لم يبق غيرها على الساحل للفرنجة مع طرابلس وأنطاكية. وسار صلاح الدين في عيد الأضحى إلى القدس، ثم أتم سنة 584هـ في عكا.

تمت هذه الفتوح وتم تقليص الإمارات الصليبية في الشام إلى ثلاث مدن فقط مع بعض القلاع في فترة لا تزيد على 18 شهرا، ولم يكن ذلك راجعا إلى كون صلاح الدين قائدا استراتيجيا عظيما وصاحب خطط حربية مبتكرة، ولكن إلى أنه كان يملك جميع صفات القائد العسكري الشجاع والنبيل في وقت واحد.. شخصيته ومناقبه الخلقية هي التي مكنته من جمع القوى حوله وتوجيهها إلى الهدف الذي آمن حتى الأعماق به. إن

استدراج العدو - كما جرى في حطين - وحصاره الشجاع للقلاع، والقتال 24 ساعة كل يوم بدفعات متتالية، واغتنام الفرص المناسبة، كانت من الأمور التي يعرفها جميع القادة قبله، ولكن ميزته الكبرى كانت في رعايته الدقيقة لمبادئه الخلقية، مما جعل أتباعه والأعداء على السواء يثقون به ثقة كاملة كما يثق هو في نفسه حتى بعهود أعدائه، يضاف إلى ذلك أنه كان لا يستبد برأيه أو كان من بساطة الطبع بحيث يترك للآخرين حتى مجال نقده، وكان يشاور أمراءه في كل موقف ليكونوا هم أصحاب القرار معه عند تنفيذه، وكثيرا ما كانوا يغلبونه على قراره، وبصورة خاصة على إصراره بدوام الجهاد، فقد كان مأخوذا بعقيدته الدينية لدرجة تشبه التصوف، وهذا ما جعله يتحمل أمراضه وآلامه الجسدية الممضة دون أن يشعر بها، فثمة ما يشغله عنها. وصفاته الخلقية استطاعت أن تمسك قواته الخاصة دوما ولعدة سنوات بجانبه، لكنها لم تستطع أن تتغلب على مصالح وأهواء الأمراء الذين ضمنهم إليها، وتلزمهم بما ألزم نفسه به.

ولقد نشأ صلاح الدين على الحرب الهجومية، وتمرس دوما بها، وما عرف أبدا الحرب الدفاعية والمقاومة إلا مرة واحدة في أول عمره في الإسكندرية، وهي النوبة التي جعلته يتردد كثيرا في معاودة الذهاب إلى مصر.. صار الهجوم الحربي جزءا من كيانه، ولذلك كان يحزن لتخاذل بعض أمرائه وطلبهم الراحة، لأنه هو نفسه لا يعرفها ولا يقرها، وللدفاع أو المقاومة أساليبها، ويبدو أنه لم يكن يتقنها لأنه ما كان بحاجة إليها، لذلك فشل حين فوجئ بها فيما بعد يوم نزلت به الحملة الصليبية الثالثة.

وصفاته الخلقية الخاصة به هي التي مكنته من الانتصار على تقليد عسكري كان متبعا منذ قرون في المشرق العربي وفي المغرب، وهو تسريح الجنود بعد كل معركة أو مهمة... فقد استطاع - وهو يحارب الفرنجة في المرحلة المقبلة- أن يمسك قواته الخاصة بجانبه تحارب ثلاث سنوات متتالية على عكا دون راحة، وكان صراعه ضد الفرنجة وضد هذا التقليد العسكري في وقت واحد، إلى أن انتصر هذا التقليد عليه في النهاية وأجبره على الهدنة... وكان ثمن هذا النصر نكسات وكوارث عسكرية مع الفرنجة وانتقادات مرة من قواده، وتراخيا في القتال حتى رضخ لمقتضياتها برغمه، رغم شجاعته وقوة إيمانه وقدوته الحسنة.

والذين يلومون صلاح الدين على ترك الفرنجة يجتمعون في صور لا يسألون أنفسهم عن أمرين:

1- أين يمكن أن يحشر الفرنجة لو أسروا، وليس تحت يديه أسطول ينقلهم إلى بلادهم؟

2- ماذا كان يمكن أن يكون مصير المشرق العربي لو أخذ صلاح الدين صور بعد مطاولتها وحصارها، وترك ظهره غير محمي وأمين من قلاع الفرنجة حين نزلت من السواحل الحملة الصليبية الثالثة؟

ومن جهة أخرى فقد كان لعقيدته السنية دورها في تكوينه الروحي..فالخلافة العباسية كانت قد أضحت في هذا العصر في مستوى من القداسة الروحية يعادل مستوى قداسة البابوية بالنسبة للفرنجة الكاثوليك.. صحيح أن كل متمرد منذ القرن الثالث الهجري كان يقتطع من أرضها قطعة تكبر أو تصغر، ولكن نادرا ما استغنى أحد المتمردين عن رضا الخليفة، لأنه بحكم استقرار شرعيته خلال القرون صار مصدرا للشرعية عند كل مغتصب، وقد بلغ إيمان الناس بقدسية هذه الخلافة وخلودها درجة اعتبارها جزءا من نظام الكون الإلهي. وحين سقطت بغداد بيد المغول بعد حوالي سبعين سنة من وفاة صلاح الدين، خشي الناس من انهيار النظام الكوني، ومن طلوع من المغرب.. فلا عجب إذا كان صلاح الدين على هذا الإيمان بها، وكان يوالي دون انقطاع الكتابة لها بكل أمر منذ خدمها الخدمة الكبرى بإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر.. وحتى وفاته كان يعتبرها شاهدا أمام الله بأنه قام بأوامره وعبده أكثر من غيره بالجهاد في سبيله، وكان لا يرى العبودية إلا لهذا المقام القدسي، ويقبل عتبه ولومه حتى في بعض الأمور التافهة، لأنه يعتبره السلطة الأولى والوحيدة في العالم، ورضاها من رضا الله، ويعتبر فتوحاته لها إنما تتم ببركتها، ولقد عبر عن ذلك مرات عديدة، وفي كتاب فاضلي أرسله من حارم بعد فتحها، قال: «وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمة من الدنيا إذا منحها، والله يعلم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش، ولا لغضب من نزق أو طيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي توسم أنها تلازم، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يسطر في الصحيفة».

فهو نموذج من البطولة، مزيج من النفس الطيبة، والخلق المتين، والورع الديني، والشجاعة المتناهية، والرحمة الإنسانية.

في أوائل صفر سنة 585هـ، بعد سنتين وثلاثة أشهر من فتح القدس ومن كتاب العتب الذي أدرك الخليفة الناصر سعي الوشاة فيه، وعاد يواصل صلاح الدين بمنتهى

الرضا، وصل رسول خاص من دار الخلافة يبلغه كما هي العادة الجارية دوما للخلفاء العباسيين مع أتباعهم وولاتهم البارزين بإعلان الخطبة على المنابر لولي العهد الذي عينه أبوه وهو عدة الدين أبو نصر محمد أبن الخليفة الناصر. فابتهج السلطان بالرسول ضياء الدين ابن سكينة، فتلقاه يوم دخوله دمشق مع أولاده في يوم مشهود، وأعطاه العهد بذلك، وأمر بأن يخطب لولي العهد بعد أبيه على منابر مصر والشام وجميع دار السلام، وبأن ينقش اسمه على السكة.. وخطب له بدمشق في 13 صفر، ونثر الدنانير على الناس، وندب لجواب الرسالة القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وسيرت معه الهدايا والتحف مع تاج ملك القدس والفرنجة. وقد جاءت الرسالة في ثلاث صفحات كلها تهنئة واستبشار، ومن جملة التهنئة إبلاغ الخليفة أن يطمئن إلى قيام صلاح الدين بواجب الجهاد إلى أن «يظهر الحق ببطلان الباطل ويغرق بحر المجر الجرار- جيش صلاح الدين- ما تخلف من ساحات الساحل، فلم يبق به من المدن المعنية إلا صور وطرابلس ومعالم الكفر بهما في هذه السنة بعون الله تدرس. أما أنطاكية فإنها بالعراء منبوذة الاتجاه، لأنها مأخوذة. وحدود العزائم عند انقضاء هدنتها مشحوذة. وقد خرج الخادم- يعني صلاح الدين نفسه- ليدخل البلاد ويستأنف الجهاد».

وبعد أن قام السلطان شهر صفر في دمشق خرج في ثالث ربيع الأول سنة 586هـ إلى بانياس ومرج عيون لاحتلال قلعة (شقيف أرنون) التي اخذ صاحبها مهلة ثلاث أشهر لإخلائها، وكان خلال ذلك يراوغ السلطان مرة بعد مرة، حتى انتهت المهلة، فرماه بالسجن لامتناع حاميته عن التسليم، وقد تسلمه بعد سنة من ذلك بالحصار الدائم، وسار السلطان إلى صور، فرتب اليزك - الحراس المراقبين - حولها وانتهى إلى منطقة عكا.

حصار عكا والحرب الصليبية الثالثة

ما إن اجتمعت الفلول الصليبية المنهزمة بمدينة صور حتى أغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد. الذي أعطته لصلاح الدين، لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة عكا وناصبوها الحصار، اعتمادا على قوتهم المجتمعة، وعلى الإمدادات التي ترد إليهم من أوروبا. وحصار عكا كان له دور هائل في التاريخ نظرا لطوله الزمني (أستمر عامين) ونظرا لضروب الشجاعة والبسالة والإقدام التي أظهرها كل من المتحاربين، سواء من المسلمين أو من الصليبيين.

سارت الجيوش الصليبية إلى عكا في (8 رجب 585هـ/ 1189م) ووصلتها في منتصفه. وكانت هذه الجيوش تساير الساحل، ترافقها المراكب البحرية. وما إن وصل الصليبيون إلى عكا حتى حاصروها برا وبحرا. ثم وصلت الجيوش الإسلامية. وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البحر. ونصب صلاح الدين خيمة على تل كيسان. واستمرت المناوشات والمعارك. كان الأمر يشتد ويزداد كل ساعة، فصلاح الدين بعث النفير إلى أطراف مملكته، والصليبيون تتوارد عليهم الإمدادات من أوروبا، التي ضجت لنبأ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس.

وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة عكا كانت ممالك أوروبا تستعد لحرب صليبية ثالثة إثر الانتصارات الباهرة التي سجلها صلاح الدين الأيوبي ضد الأمارات الصليبية، واسترجاعه لبيت المقدس. وقد امتازت الحرب الصليبية الثالثة بأن كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا في ذلك الزمان:

1- إمبراطور ألمانيا «فريدريك بربروس».

2- ملك فرنسا «فيليب أغسطس».

3- ملك الإنكليز «رتشارد قلب الأسد» .

مصير الحملة الألمانية

سار الإمبراطور الألماني في جيش لجب يشمل نحو مائة ألف محارب عبر بلاد المجر في اتجاه القسطنطينية. وأفزع هذا الجيش العرمرم الإمبراطورية البيزنطية، فلم يجد الألمان مساعدة ولا استبشارا من البيزنطيين. وبلغ الأمر بالإمبراطور البيزنطي أن أخطر صلاح الدين بمجيء الألمان. وأعلمه بأنه سوف لا يمدهم بأية أعانة. وعبرت الجيوش الألمانية إلى آسيا الصغرى. مقتفية خطى الصليبية الأولى. واعترضتهم قوات سلاجقة قونية، ولكنها لم تستطع صدهم عن متابعة السير. ولما وصلوا أرمينية وجدوا من الأرمن خير مساعد. إلا أن غرق الإمبراطور الألماني، وموته بنهر «سالف» في جبل أرمينية جعل هذا الجيش في تشتت واضطراب، ورجع غالبه إلى ألمانيا. أما بقيته فقد امتطت السفن إلى عكا وصور بقيادة «فريدريك دوسواب» ابن الإمبراطور الألماني. وحتى هذا الابن مات في الطريق. ولم يصل إلى عكا إلا عدد قليل من هذا الجيش العرمرم، الذي لو وصل تاما لكان له اثر كبير في النزاع بين الصليبين وصلاح الدين.

التقى الانكليز والفرنسيون في صقلية. وأقاموا فيها لمدة طويلة بينما الصليبيون في عكا كانوا ينتظرونهم بفارغ الصبر. إذ لم يكن الملكان الفرنسي والانكليزي على وفاق، فقد بارح الفرنسيون صقلية في آخر مارس (1191م/ 587هـ) بينما الانكليز بارحوها بعد ذلك بعشرة أيام.

ووصل الفرنسيون إلى عكا في 20 أبريل فأضافوا للصليبين بعكا قوة أخرى وشدوا أزرهم.

أما ملك الانكليز «قلب الأسد» فألقت عاصفة بأسطوله على جزيرة قبرص، التي كانت تابعة للإمبراطور البيزنطي، فما كان من قلب الأسد إلا محاربة البيزنطيين والاستيلاء على قبرص والاستقرار بها مدة. ثم أبحر إلى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس الذي أطلقه صلاح الدين من الأسر.

انتهاء مقاومة عكا واحتلالها من طرف الصليبين

ازداد الصليبيون قوة بمجيء قلب الأسد. ورغم المحاولات العديدة التي بذلها صلاح الدين ورجاله لإنقاذ من بعكا من المسلمين وفك الحصار، فإن كل المحاولات لم تجد نفعا. وأضطر المحصورون إلى الاستسلام بعد أن أيقنوا باستحالة نجدتهم وفك الحصار عنهم. في ظهر يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الثانية (587هـ/ جويلية 1191م) وبينما كان صلاح الدين يستشير خاصته فيما ورد عليه من عزم المحصورين على المصالحة والاستسلام، ارتفعت الأعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا معلنة احتلالها واستسلامها، ففوجئ المسلمون وارتاعوا، وأستبشر الصليبيون وصاحوا.

الخلاف لدى القادة الصليبين ورحيل الفرنسيين

لم يكن الاتفاق سائدا بين القادة الصليبيين. وقد رأينا الخلاف الذي كان بين ملك فرنسا وملك الانكليز عندما كانا في صقلية. وكان الخلاف أشد بين ملك بيت المقدس الطريد وبين المركيز صاحب مدينة صور. وقد كان ملك الانكليز يميل إلى ملك بيت المقدس بينما ملك فرنسا هواه مع المركيز صاحب صور، الطامع في تاج ملك بيت المقدس. وحالما تم انتصار الصليبين في عكا عادت الخلافات إلى الظهور. وانتهت على اتفاق يتضمن استمرار ملك بيت المقدس حاملا للتاج مدة حياته. وبعد موته يتولاه المركيز كونراد.

وبادر الملك الفرنسي بالرحيل إلى بلاده. أما قلب الأسد فقد انتشى بهذا الانتصار، وأخذ يهاجم القوات الإسلامية محاولا افتكاك بيت المقدس من يد صلاح الدين الأيوبي، وجرت بينه وبين صلاح الدين معارك كثيرة، من أشهرها معركة أرسوف (شعبان 587هـ/ سبتمبر 1191م) وأنتصر فيها الصليبيون، واعتبروها أخذا بثأر معركة حطين.

صلح الرملة ونهاية صلاح الدين الأيوبي

استمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبين، الذين حاولوا مرات الاقتراب من بيت المقدس حتى أصبحوا مرة على بعد فرسخين منها، وكان قلب الأسد لا يجسر على محاصرة بيت المقدس مخافة أن يكون الحصار قاضيا عليه، لان حماة بيت المقدس في هذه الصليبية لم يكونوا كحماتها في الصليبية الأولى. وتكاد تكون الوقعات سجالا بين الصليبين وصلاح الدين، فالصليبيون لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الشامية وإنقاذ بيت المقدس، وصلاح الدين لم يستطع زحزحة الصليبين عن الساحل وإلقائهم في البحر، أو إبادتهم والانتصار عليهم. ولهذا كانت الدعوة إلى المهادنة تجد رغبة عند الجانبين. وإنما كان يعرقلها اشتراط الشروط وعدم التنازل.

معاهدة وصلح الرملة

وأخيرا ركن الطرفان إلى الصلح والمهادنة، فتم ذلك في شعبان (588هـ/ سبتمبر 1192م) وكان أهم ما في هذا الصلح:

1- أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلي الممتد من صور إلى حيفا.
2- السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها.
3- أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

والشريط الساحلي الذي استقر فيه الإفرنج هو الذي اعتبر امتدادا لمملكة بيت المقدس السابقة. وأصبحت مدينة عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس الجديدة. وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشامية قاصدا بلاده بعد أن أكتسب شهرة عظيمة، وأصبح ألمع شخصية في الحرب الصليبية الثالثة.

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة. وكان صلح الرملة قطعا لسلسلة الحروب التي أثارها صلاح الدين ضد الصليبين، والتي اكتسب بها شهرة عالمية ومجدا لا يبلى. وقبل هذه الحروب كان المسلمون لا يملكون شيئا غربي الأردن، وإذا بنتيجة هذه

الحروب تسفر عن استرجاع بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام، واستيلاء المسلمين على الأراضي المحصورة بين نهر العاصي ونهر الأردن وبين البحر الأبيض المتوسط، ما عدا أجزاء ساحلية قليلة بقيت لإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس الجديدة.

نهاية صلاح الدين الأيوبي

بعد صلح الرملة سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وأمر بإجراء عدة إصلاحات وتنظيمات. ثم سار قاصدا دمشق فوصلها في (25/ شوال/ 588هـ). ولم يعمر صلاح الدين طويلا بعد صلح الرملة، فقد وافاه الأجل وهو بدمشق فأسلم الروح في (27/ صفر/ 589هـ/ 4 مارس/ 1193م) وفارق الحياة بعد أن أدى رسالته على أكمل وأتم وجه. وبعد أن خلد له مجدا في جهاده وأخلاقه وتعميره وإنشائه.

الفصل الثامن

بقية الحملات الصليبية

الحملة الرابعة

بوفاة صلاح الدين توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء العين والقلب موضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه، أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التي أنجبته لقيادة الأمة كانت لا تزال قائمة. فالصليبيون ما زالوا موجودين فوق أرض الشام، كما إن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائما. والإحياء الأيديولوجي والأخلاقي الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لا يزال في طور النمو، ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

وفي ظل هذه الظروف جاء خلفاء صلاح الدين الأيوبي على غير شاكلته، إذ أدت وفاته إلى تفسخ دولته في الحال إلى قطع يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبي. وكان التوتر الذي ساد بين الورثة الأيوبيين نعمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يشغل حيزا ضيقا من أرض فلسطين ولبنان الحالية، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التي أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهي فترة كافية لان يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التي مرت بهم. وكان واضحا أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن ندا للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة من أوروبا لنجدتهم.

وفي السنة التي تولى السلطان العادل الأيوبي منصب السلطنة الأيوبية في القاهرة، أي سنة (596هـ/ 1200م) كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوروبيين. وحين رأى الصليبيون أن السلطان العادل الأيوبي يفرض نوعا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي خشوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوه

أيام صلاح الدين الأيوبي، وأدرك البابا والغرب والصليبيون في الشرق، أدركوا جميعا، أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم في بلاد الشام. لقد بات غزو مصر، بكل مواردها قضية منطقية وضرورة حربية لضمان الاستيلاء على ما استرده صلاح الدين من أراضي مملكة بيت المقدس اللاتينية.

وهكذا أخذ البابا «انوسنت الثالث» (1198-1216م) على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر. وكان ذلك البابا قد درس القانون قبل اعتلائه عرش القديس بطرس في روما، كما كان رجلا سياسيا على أتم الاستعداد لان يستخدم أي وسيلة متاحة تمكنه من الوصول إلى هدفه. وقد أعلن انوسنت الثالث انه يريد خروج حملة صليبية لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين. وفي سنة 1199م كتب رسالة إلى بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرا وافيا عن حال المملكة الصليبية التي كانت عكا قد صارت عاصمة لها. ثم بدأت الاستعدادات لتجميع حملة صليبية جديدة ضد مصر، بيد أن مشكلة نقل قوات الحملة وعتادها إلى الشواطئ المصرية فرضت على الصليبيين أن يدخلوا في مفاوضات شاقة مع جمهورية البندقية التجارية، التي كانت تملك أسطولا من أقوى الأساطيل العاملة في البحر المتوسط آنذاك، لنقل الصليبيين.

على أي حال، كانت أحداث هذه الحملة التي عرفت بالحملة الرابعة مزيجا من المأساة والملهاة. فقد كان هدفها الأساسي مصر. وفي سنة 1201م توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية لكي تنقلهم السفن إلى الشواطئ المصرية، ولكن الصليبيين بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على القسطنطينية العاصمة المسيحية بدلا من القاهرة العاصمة الإسلامية ففي (24 يونيو 1203م) كان الأسطول قد رسا قبالة القسطنطينية.

وسبب ذلك أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية كان مستحكما فالمذهب الكاثوليكي كان يسود أوروبا الغربية، وعاصمته روما، مركز البابا. والمذهب الأرثوذكسي كان يسود أوروبا الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، مركز كنيسة أيا صوفيا.

وكنيسة روما تعتبر كنيسة القسطنطينية منشقة عنها، مخالفة للكثير من مبادئها المسيحية. وزيادة على هذا الخلاف المذهبي فهناك خلاف جنسي، فالبيزنطيون يعتبرون نصارى الغرب رواسب للقبائل البربرية التي هاجمت الحضارة الرومانية، والبيزنطيون هم الذين حافظوا على ذلك التراث قدر الإمكان، وسدوا كل قوة تريد الانقضاض عليه وعلى العالم المسيحي، لاسيما الزحوف الإسلامية.

أما اللاتينيون فإنهم يزدرون البيزنطيين ويسخرون منهم، إذ كانوا رعايا للدولة الرومانية العظمى. وكان اليونان – كما كانت بقية المشرق – تحت الحكم الروماني البيزنطي وسيادته. وكان يسودهم اعتقاد أنه لن يستطيع مقارعة المسلمين إلا دولة لاتينية، تحل محل البيزنطيين على البوسفور.

وهذا الاعتقاد كان هو المبدأ الذي انبنت عليه الخلافات السياسية بين أوروبا الغربية والإمبراطورية البيزنطية، ونتجت عنه الحروب الكثيرة والمحاولات المتعددة للاستيلاء على أملاك الإمبراطورية البيزنطية. وقد سبقت الإشارة إلى بعض هذه الحروب والمحاولات في الحديث عن الحرب الصليبية الأولى. وكنتيجة لهذا الشعور فإن الحرب الصليبية الرابعة تحول اتجاهها إلى القسطنطينية.

وبمجرد وصول الصليبين إلى هناك شنوا هجومهم ضد القسطنطينية. وفي مارس 1204م كانوا يرسون دعائم دولة جديدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية بمعاهدة فصلوها على أهوائهم. وفي 13 أبريل تم اقتحام المدينة، وتركت عرضة للنهب والمذابح الصليبية على مدى ثلاث أيام مرعبة.

و لما استولى الصليبيون على القسطنطينية انتخبوا «بودوين التاسع» إمبراطورا عليها تحت اسم «بودوين الأول» أما منافسه «بونيفاس» فقد تولى ملكية مقدونيا وشمالي تساليا. وكان نصيب البنادقة من هذه الغنيمة كبيرا اشتمل على أهم الجزر بالبحر الأيوني وشبه جزيرة المورة وجزائر بحر الأرخبيل وغير ذلك. كما أصبح بطريق القسطنطينية من البنادقة. وهكذا كانت نتيجة الحرب الصليبية الرابعة عندما تحول اتجاهها عن مقصدها الأصلي. مما يزيد تأكيدا أن الروح الدينية لم تكن المسيطر الرئيسي على الصليبيين. واستمرت هذه الإمبراطورية اللاتينية (الفرنسية) مستولية على القسطنطينية إلى أن تمكن الإغريق من إرجاع عاصمتهم والتغلب على الصليبيين (سنة 1261م/ 660هـ) بقيادة ميخائيل إمبراطور نيقية.

لقد توارت أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بدايتها، وحتى نهايتها، خلف ضبابية الشك وقلة المعلومات. وتوالت الاتهامات والاتهامات المضادة بين زعماء أوروبا والصليبيين حول حقيقة ما جرى. مع أن انوسنت الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها إلا أنه سرعان ما بلع احتجاجاته حين رأى أن سقوط عاصمة قسطنطين تحت سنابك الخيول الصليبية يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم في السيطرة على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية. ولكن بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على العاصمة البيزنطية، وتغير

هدف الحملة وصلوا حتى شواطئ بلاد الشام. وهناك تعاونوا مع الصليبين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيد المصري ومدينة فوه القريبة منها. وقد ظلوا في عباراتهم سنة (600هـ-1204م) خمسة أيام. وسرعان ما أدرك الصليبيون في عكا استحالة قدوم حملة صليبية لنجدتهم، ومن ثم سعا ملك عكا «أماريك الثاني» لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبي الذي رحب بعقد الهدنة نظرا لازدهار التجارة ومكاسبها في حال السلم من ناحية، وبسبب متاعبه الداخلية مع بقية الأيوبيين من ناحية أخرى. وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في أواخر سنة 1204.

بعد ذلك خرجت من أوروبا الغربية حملة عجيبة هي تلك التي عرفت باسم «صليبية الأطفال»، وهي حركة جاءت تعبيرا عن التدين العاطفي الذي ملك على الأوربيين عقولهم في تلك الأثناء، كما كانت بمثابة رد الفعل الشعبي لفشل البابوية وحكام أوروبا في أخذ مدينة القدس. وقد خرج من طيات هذه الموجة الدينية الجارفة صبي فرنسي في الثانية عشر من عمره اسمه «ستيفين» من مدينة «كلوي» الصغيرة في إقليم أورليانز. وفي أحد أيام شهر مايو سنة 1212م ظهر هذا الصبي الراعي أمام بلاط الملك الفرنسي فيليب أغسطس في لمعان دوني ومعه خطاب قال إن المسيح شخصيا أعطاه إياه لكي يوصله للملك. وقد زعم ستيفن أن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال الأبرياء الذين سوف يستردون مدينة القدس بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وغيرهم من الكبار في استعادتها بسبب ذنوبهم. واجتذب ستيفن بعض مئات من الأطفال من باريس وغيرها من أقاليم فرنسا، وتجمع حول الموكب عدد من صغار القساوسة. وسار موكب الأطفال الصليبيين حتى مرسيليا في انتظار أن ينشق البحر معجزة مثل تلك التي حدثت للنبي موسى عليه السلام، ثم جاءت سفن لكي تنقل عددا منهم إلى جهة مجهولة.

ويبدو أن أطفال ألمانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة ستيفين إلى حوض الراين، فخرجت من ألمانيا، بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفين، حملة أطفال أخرى بقيادة صبي اسمه «نيقولا» من إحدى قرى إقليم الراين. وانطلق الموكب العجيب من مدينة كولون وسار عبر جبال الألب في إيطاليا، وهناك أنقسم إلى قسمين: أحدهما ركب السفن من ميناء بيزا، والقسم الآخر وصل إلى ميناء برنديزي. وعلى أرض إيطاليا تخلفت أعداد كبيرة من أولئك الأطفال بسبب الجوع والبرد أو الخوف من ركوب البحر. أما الذين سافروا بالفعل فإن أحدا لم يعرف أبدا ماذا جرى لهم على وجه اليقين.

على أية حال فإن حملة الأطفال لم تحل دون إعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر بطلب من يوحنا بريين الذي تزوج ماريا وريثة مملكة عكا، وصار ملكا على الصليبيين في فلسطين سنة 1210 م. واستجاب البابا انوسنت الثالث وأخذ يدعو لحملة صليبية جديدة في شتى أرجاء الغرب الأوربي. وفي مجمع اللاتيران الكنسي، الذي عقد سنة 1215م، شرح البابا مدى سوء حال المستوطنين الصليبيين في فلسطين، وبعض الإجراءات الضرورية لتوفير النفقات لتجهيز الحملة المقترحة. ولكن البابا انوسنت الثالث مات سنة 1216 م قبل أن تبدأ عجلة الحملة الصليبية الخامسة في الدوران. وخلفه الكاردينال المسن سافيللي تحت اسم البابا هونريوس الثالث الذي جدد الدعوة إلى الحرب الصليبية الخامسة، فاستجاب لدعوته ملك المجر «أندري الثاني» ودوق النمسا «ليوبولد السادس» وكان الغرض المعلن منها إنقاذ بيت المقدس واستخلاصها من أيدي المسلمين.

لكن الهدف الحقيقي من تلك الحملة كان احتلال مصر. وكانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على النزول بقواتهم في دلتا النيل بدلا من ضفاف الأردن، أولها رغبة المدن التجارية الايطالية (الممول الرئيس للحملة) في السيطرة على تجارة المتوسط، وضرب المنافسة المصرية في عقر دارها بالسيطرة على ميناء دمياط أهم موانئ شرق المتوسط آنذاك، وثاني الأسباب يكمن في المذهب السياسي ـ العسكري للصليبيين. ومؤداه أن هزيمة مصر، أو تحييدها على الأقل، خير ضمان لبقاء المستوطنات الصليبية. أما السبب الثالث فكان استرداد الشرف العسكري الذي تمرغ بهزيمة حطين، وفقدان القدس. وبالفعل بدأت بعض قوات الحملة الصليبية الخامسة في الوصول إلى عكا. وقد استمرت أحداثها أربع سنوات تنقص شهرا على حد رواية ابن الأثير. وفي أوائل نوفمبر سنة1217م خرج الصليبيون من عكا لكي يشنوا هجوما مباغتا ضد مصر في جيش ضخم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، بيد أن فوضى القيادة في الجيش الصليبي الضخم جعلته عاجزا عن القيام بأي حملات عسكرية حقيقية. وسرعان ما عاد الجيش إلى أسوار عكا لكي يظل هادئا حتى ابريل سنة 1218م حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا.

وقرر مجلس الحرب الصليبي الذي اجتمع في عكا مهاجمة دمياط على دلتا النيل. وقد أخذ جيمس الفيتري على عاتقة مهمة إخبار البابا بقرار رجال الحرب. وعند نهاية شهر

مايو سنة 1218م وصلت القوات الصليبية قبالة دمياط التي كانت بها قلعة حصينة كما كانت أهم ثاني ميناء في مصر بعد الإسكندرية. وخرج الكامل، أكبر ابني السلطان العادل وخليفته، للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين الذين أقاموا معسكرهم على الشاطئ الغربي للنيل وأحاطوه بخندق يمنعهم ممن يريدهم.

وظل الوضع متجمدا قرابة أربعة أشهر حتى امتلكوا برج السلسلة، ولكن القوات المصرية ضلت تقاتلهم في البر وفي فرع النيل الدمياطي. ثم توفي الملك العادل في (جمادى الآخرة 615هـ) وعاد الكامل من دمياط ليواجه مؤامرة انقلاب دبرها أحد الأمراء ضده، وتفرقت جموع المدافعين عن دمياط التي سقطت بأيدي القوات الصليبية في (27 شعبان سنة616هـ/ 5نوفمبر1219م).

وفي أثناء الحصار قبل سقوط المدينة، كان السلطان الكامل قد يئس من إمكانية صمود دمياط، وأرسل في نهاية شهر أكتوبر يقترح على الصليبيين الجلاء عن مصر مقابل أن يأخذوا الصليب المقدس، وأن يمتلكوا بيت المقدس ووسط فلسطين والجليل، على أن يدفع المسلمون جزية مقابل الحصون التي تبقى بأيديهم. وكان العرض الذي تقدم به الكامل الأيوبي غاية في الكرم والسخاء والتخاذل، ونصح الملك يوحنا بريين الصليبيين بقبوله. ولكن المندوب البابوي بلاجيوس، وبطريك بيت المقدس رفضا العرض، وآزرهما زعماء المنظمات الرهبانية العسكرية من الداوية والاسبتارية. كما أن الإيطاليين التجار الذين كانوا مصدر التمويل الأساسي للحملة رفضوا العرض إذ كانوا يريدون دمياط مركزا تجاريا لهم.

جمد الصليبيون نشاطهم في دمياط على مدى ثمانية عشر شهرا كاملة. وعندما وصلت قوات إضافية من أوروبا وعكا بدأوا يزحفون جنوبا حتى مدينة فارسكور في منتصف شهر يوليو سنة 1221م، وهذا هو وقت فيضان النيل السنوي الذي يشتد في شهر أغسطس. وعبئت قوات الجيش المصري لكي تحاصر الصليبيين في المنزلة. ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأغرقت كل الطرق أمام الجيش الصليبي المحاصر. وعلى صفحة النهر كانت سفن البحرية المصرية تستولي على عدد من سفن العدو ومعداته، وتقتل وتأسر بحارته. وهكذا غرقت أحلام الصليبيين بالاستيلاء على مصر في أوحال الدلتا، وتحدد مصير الحملة الخامسة بشكل نهائي، وفي التاسع من شهر رجب سنة 618هـ/ سبتمبر1221م، دخلت القوات المصرية دمياط التي كان الصليبيون قد حصنوها جيدا.

كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة. ومن ناحية أخرى، فإن الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي اتخذت طابعا مختلفا لحملات القرن الثاني عشر الميلادي. فالحملة الثانية جاءت ردا على سقوط الرها سنة 1144م في يد عماد الدين زنكي، كما إن الحملة الثالثة كانت استجابة للكارثة التي حاقت بالصليبيين في فلسطين بعد معركة حطين وسقوط بيت المقدس سنة 1187م. أما حملات القرن الثالث عشر الميلادي فكانت نتيجة الضعف الدائم الذي ألم بالمستوطنات الصليبية، ولم تبرأ منه منذ عمليات صلاح الدين الأيوبي على الرغم من أن فرنجة الشرق لم يواجهوا أي خطر حقيقي طوال الفترة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين. وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت في هذا القرن موجات متصلة من الفرسان، والمغامرين، وشذاذ الآفاق، والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، وبعض هذه الموجات كانت عاتية تضم فيالق من الفرسان والمحاربين، وبعضها كان اقرب إلى الرذاذ الخفيف إلا إن هذا المد المتواصل لم يستطع أن يقدم شيئا للكيان الصليبي الذي كان يمضي إلى نهايته المحتومة.

ولأن فشل حملة دمياط كان في التحليل الأخير ضربة موجعة للهيبة البابوية، فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة.

الحملة السادسة

كان الإمبراطور الألماني - فريدريك الثاني - أعظم ملوك أوروبا إذ ذاك، فقد كان تاجه يشمل ألمانيا وإيطاليا الشمالية وصقلية. وضم إليه أيضا تاج مملكة بيت المقدس لما تزوج بابنة جان دوبريان، وارثة مملكة بيت المقدس. ولقد سعى البابا هورنوريوس الثالث في هذا الزواج حتى يستغل قوة فريدريك الثاني للقيام بحرب صليبية جديدة، وإنقاذ بيت المقدس. وقد حصل البابا على وعد منه للقيام بهذه الحملة الصليبية، إذ لما ذهب ملك بيت المقدس سنة 619 هـ (1222م) إلى إيطاليا، مستنجدا بالبابا بعد هزيمته في مصر، وقع الاتفاق مع فريدريك الثاني حتى يقوم بحرب صليبية ويسترجع بيت المقدس.

فريدريك الثاني والحضارة الإسلامية

كان فريدريك الثاني إمبراطورا على صقلية التي كانت حينئذ ما تزال عامرة بالمسلمين. وكان محبا للمسلمين والثقافة الإسلامية، متخذا كثيرا من العادات الإسلامية، معتمدا على المسلمين في كثير من الأمور. وله إطلاع واسع على الثقافة الإسلامية، شديد

الإعجاب بها. وكانت سيرته هذه لا يرضى عنها المسيحيون، وعلى رأسهم البابا، فأشاعوا عنه أنه كفر واعتنق الديانة الإسلامية.

وكانت له صلات بملوك الإسلام خصوصا الملك الكامل، سلطان مصر، فقد كانت المراسلات والوفود تتبادل بينه وبين فريدريك الثاني. وزاد من غضب البابا والمسيحيين على فريدريك الثاني أنه تباطأ في التوجه إلى المشرق واستخلاص بيت المقدس. حتى إذا تولى البابوية جريجور التاسع لم يحتمل هذا التلاعب والتباطؤ من الإمبراطور الألماني فأعلن حرمانه، وحرم الذهاب معه إلى الأماكن المقدسة، مما جعل المسيحيين يحجمون عن المشاركة معه في حربه الصليبية، ولم يصاحبه إلا مئات قليلة من الفرسان لما توجه إلى البلاد الشامية فيما بعد.

الخلافات في العائلة الأيوبية

كانت السلطنة العظمى التي شادها صلاح الدين الأيوبي مسرحا للخلافات والاضطرابات بعد موته. ولكن أخاه الملك العادل استطاع أن يتغلب على الموقف. وأن يمسك بزمام السلطنة ويصبح سيدا قويا. إلا أنه لما مات الملك العادل، خلال حصار دمياط سنة 615هـ، عادت الخلافات بين أبنائه الثلاثة: الملك الكامل صاحب مصر، والملك المعظم صاحب دمشق وبيت المقدس، والملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط. وساءت العلاقة بينهم، خصوصا بين الملك الكامل والملك المعظم.

وتحالف الملك المعظم ضد أخويه الكامل والأشرف مع جلال الدين بن خوارزم شاه، طريد جنكيزخان زعيم التتار، فقد تفاقم أمر التتار في هذا الوقت وأخذوا يزحفون على المشرق الإسلامي، فتغلبوا على الدولة الخوارزمية ووصلوا إلى شرقي العراق. وخاف الملك الكامل (سلطان مصر) من هذا التحالف الذي أمضاه أخوه المعظم مع جلال الدين بن خوارزم شاه الذي لا تقل قسوة جيوشه ونهبهم وتخريباتهم عن أعمال التتار القاسية.

ونتيجة لهذا الخوف من تحالف الملك المعظم والخوارزميين بعث الملك الكامل إلى الإمبراطور فريدريك الثاني يستقدمه إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه. ووعده ببيت المقدس. وكان رسوله الموفد لهذا الغرض فخر الدين بن الشيخ.

وحدث أن مات الملك المعظم قبل مجيء فريدريك الثاني، لأنه مات في ذي القعدة 624هـ (نوفمبر 1227م) فانتهى بذلك أكبر منافس للملك الكامل. ولكن رغم هذا فقد سارت الأمور إلى غايتها.

نزل الإمبراطور فريدريك الثاني بعكا سنة 625هـ (سبتمبر 1228م). وكان الملك الكامل آنذاك بالبلاد الشامية، فقد توجه إليها من مصر ليستولي على مملكة أخيه المعظم، التي أصبحت لابنه داود، الملك الناصر بن المعظم. ورغم قلة العدد الذي كان مع الإمبراطور فريدريك فإن مخابرات في الصلح جرت بين الإمبراطور والملك الكامل انتهت إلى اتفاق بينهما على القواعد الآتية:

أ- تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين على شرط أن يبقى سور بيت المقدس مخربا ولا يعاد تجديده وبناؤه، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (جامع عمر). ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين.

ب- يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية.

ج- يتعهد فريدريك الثاني بمساعدة الملك الكامل ضد خصومه سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين، كما يتعهد الإمبراطور بالحيلولة دون الإمدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف. وكان الاتفاق سنة 626هـ - 1229م.

ماهية هذا الصلح

كان الملك الكامل مدفوعا إلى هذه المصالحة نظرا إلى الخلاف الذي نشب في العائلة الأيوبية، ونظرا لما يعلمه في الإمبراطور فريدريك من اللين وقلة التعصب، وما له من تسامح وتفهم.

وهذا الصلح يجعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسحيين والمسلمين، احتفظ فيه كل منهم بأماكنه المقدسة. ولكن هذا لم يكن مرضيا عنه لا من المسلمين ولا من الصليبيين. وقد استغل أعداء الملك الكامل هذا الصلح للتشهير به، فعقدت المجالس العامة في دمشق، وبكى الناس لهذا الحادث، واستغله أعداؤه ضده، أما الصليبيون فكان من اشد الأمور عليهم تعهد فريدريك بمساعدة الملك الكامل ومنع الإمدادات الجديدة إلى الإمارات الصليبية.

وبعد الصلح بقليل توجه فريدريك الثاني إلى زيارة بيت المقدس، واستقبله فيها شمس الدين، القاضي بنابلس، نيابة عن الملك الكامل، ثم أقلع إلى أوروبا. أما الملك

الكامل فانه انصرف بعد ذلك إلى توحيد مملكة بني أيوب تحت رايته فتم له ذلك. ولكن ما إن مات سنة (635هـ/ 1237م) حتى عاد البيت الأيوبي إلى الانقسام.

استرداد الملك الصالح أيوب لبيت المقدس

تولى الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل سنة (637هـ-1239م). وكان حسن التدبير، يعتبر آخر عظماء سلاطين بني أيوب. وكانت له عداوة مع بقية أمراء بني أيوب، خصوصا عمه الملك الصالح إسماعيل، الذي استولى على دمشق، وتحالف مع الصليبيين، وتنازل لهم عن بعض البقاع، منها طبرية.

وكانت نزلت قوات صليبية جديدة قادمة من فرنسا من أشهر رجالها «طيبو الرابع كونت شمبانيا» و «كونت بروطانيا بيير موكلير» فلم يكن أمام الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية. وجرت بينه وبين عمه الصالح إسماعيل والصليبيين معارك شديدة انتصر فيها الملك الصالح أيوب عليهم جميعا سنة (642هـ/ 1244م) واسترجع بيت المقدس حظيرة السيادة الإسلامية، فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار، وفزعت أوروبا منه، مما كان داعيا لإثارة حرب صليبية أخرى.

الحملة السابعة

كان لاسترجاع المسلمين بيت المقدس رد فعل في أوروبا المسيحية تجلى في الحرب الصليبية التي قام بها ملك فرنسا (لويز التاسع) فقد تجهز لحرب صليبية تجهزا عظيما، واصطحب معه الكثير من الأمراء والأشراف في بفرنسا. وكان معه إخوته الثلاثة: روبير دارتوا، والفونس دو بواتييه، وشارل دانجو، كما كان المؤرخ الفرنسي لهذه الحملة (جوفروا دو سرجين). وأرسلت أساطيل لويز التاسع بجزيرة قبرص في سبتمبر (1248م 646هـ) لكنه بقي هنالك نحو ثمانية أشهر اتصل فيها بالإمارات الصليبية في البلاد الشامية. وبإشارة من قيادة الفرسان الداوية قرر لويز التاسع الهجوم على البلاد المصرية وغزوها، لأنها ذات السيادة على الأماكن المقدسة، ولأن سلاطينها هم الذين استرجعوا بيت المقدس المرة الأولى والثانية.

الاستيلاء على دمياط

وفي شهر ماي سنة (1249م/ 647هـ) أقلعت الحملة الصليبية من قبرص في اتجاهها إلى دمياط. ولكن عاصفة بحرية فرقت سفن الأسطول، وجعلتها تصل إلى

سواحل مصر في فترات متعاقبة. وقد كانت مراكب لويز التاسع أولى السفن التي وصلت إلى دمياط (صفر647هـ/ 1249م) وفوجئ سكان دمياط وحاميتها بهذا النزول الصليبي، فاضطربت أحوالهم ودخلت الرعب، فاخلوا المدينة وفروا تاركين بها الكثير من السلاح والمتاع، وأمتلكها الصليبيون دون مقاومة ولا عناء. حتى إن الملك الصالح أغتاظ لهذا الهروب، وعاقب الكثير من حماة المدينة بالشنق.

ولم يتجه الصليبيون إلى القاهرة بعد احتلال دمياط مباشرة فقد بقي لويز التاسع نحو ستة أشهر ينتظر بقية السفن الصليبية ليزداد قوة. وقد مكن التأخير المصريين من الاستعداد، والجمع لملاقاة الصليبين. وبادر الملك الصالح بالتوجه إلى المنصورة بعيد احتلال دمياط من طرف الصليبيين حتى يستعد لملاقاتهم وصدهم عن احتلال القاهرة.

موت الملك صالح ومعارك المنصورة

في الوقت الذي زحف فيه الصليبيون متجهين إلى القاهرة كان الملك الصالح أيوب على فراش الموت، فبعد تسعة أيام من الزحف الصليبي توفي الملك الصالح (647هـ/ نوفمبر1249م) في هذا الوقت الحرج العصيب. ولكن جاريته «شجرة الدر» أنقذت الموقف، إذ أخفت موته إلا عن بعض خاصته من القواد، وأخذت تدبر معهم الأمر، وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح، ريثما يصل ابنه وولي عهده، الملك المعظم توران شاه. واستطاعت بذلك حفظ المعسكر الإسلامي من الاضطراب والفوضى.

وكان مسلك الصليبين هو مسلك الصليبية الخامسة حيث تكثر الترع والخلجان والبحيرات. وكانت للصليبين هجمات موفقة واندفاعات كثيرة واستطاعت فرقة من فرسانهم الدخول إلى شوارع المنصورة، لكنها قتلت عن آخرها.

وكان للمماليك البحرية المقام الأول في الحرب والقتال، خصوصا المملوك بيبرس البندقداري. واستمرت المعارك مع الصليبين بقيادة المماليك إلى قدم توران شاه إلى المنصورة في ذي القعدة، فاخذ بزمام الأمر، وتولى قيادة الحرب وتسيير دفتها.

انهزام الصليبين وأسر لويز التاسع

كان مركز الصليبين في غاية الحرج، إذ كانوا محصورين في المثلث الواقع بين فرع النيل والمنزلة والبحر الصغير (النهر الصغير). ولهذا كانت أولى خطط الملك توران شاه أن يحول دون الصليبيين والمدد الذي يأتيهم من دمياط، فنقل سفنا مفككة على ظهور الإبل

وأنزلهم بفرع النيل بين دمياط والعساكر الصليبية، وبذلك سد عن الصليبين منفذهم الوحيد. وجرت بين الأسطول المصري والأسطول الصليبي معارك كبيرة انتهت بظفر الأسطول المصري وافتكاك ثلاثين سفينة صليبية. وأشتد الضغط على الصليبيين، فقل زادهم وانقطع مددهم، فتشت فيهم الأمراض ونالهم الجوع، وأباد منهم المسلمون نحو ثلاثين ألفا. وضاقت الأرض على الصليبيين فأخذوا يخابرون في المصالحة على أن يتخلوا عن دمياط مقابل استرجاعهم لبيت المقدس. ولكن توران شاه أبي هذا، وأيقن الصليبيون بتصلب القوات الإسلامية فدخلهم الاضطراب وعمدوا إلى إحراق سفنهم وأخشابهم وخيامهم، وتشتتت جموعهم فذهب معظم الجيش تجاه دمياط. أما لويز التاسع فإنه التجأ إلى «تل منية عبد الله» قرب المنصورة. ولما احتوته القوات الإسلامية وأيقن بالهلاك طلب الأمان فأمنه الطواشي محسن الصالحي، وكان معه نحو خمسة آلاف جندي. ثم اقتيد لويز التاسع إلى مدينة المنصورة حيث أعتقل في دار القاضي إبراهيم بن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي في (المحرم 648هـ/ 1250م).

نهاية الصليبية السابعة

لما اتجهت بقية الصليبين إلى دمياط سارت القوات المصرية والتقت بهم بفارسكور وهزمتهم، وانتهت بذلك المقاومة الصليبية. ثم أفتدى الملك لويز التاسع رقبته وبقية من جيشه بغرامة مالية مقدارها (500.000 من العملة الفرنسية إذ ذاك) وتسليم دمياط بلا قيد ولا شرط.

وفي (الثامن من شهر ماي 1250م/ 648هـ) أقلع لويز التاسع مع فلول جيشه من دمياط، متجها إلى مملكة عكا الصليبية حيث بقي هناك أربع سنوات قضاها في تنظيم الإمارات الصليبية الباقية، وعقد محالفة مع سنان شيخ الجبل، زعيم الإسماعيلية بالشام. كما تقرب من التتار الذين كان خطرهم على العالم الإسلامي يزداد يوما بعد يوم. وفي شهر(أبريل 1254م/ 648هـ) جاءت أخبار فرنسا معلمة لويز التاسع بوفاة أمه، فارتحل الشام قاصدا بلاده.

مقتل توران شاه وانتهاء الدولة الأيوبية

قبل ارتحال لويز التاسع عن مصر قتل الملك المعظم توران شاه، إذ دبر المماليك البحرية مؤامرة ضده، لأنه أراد الاستغناء عنهم بالمماليك الذين جلبهم معه من الجزيرة الفراتية. وقد تواطأت مع المماليك «شجرة الدر» لأن توران شاه كان يضايقها ويلح عليها

في إعطائه مال أبيه، وقد توعدها إن لم تقر له بذلك. ونجحت المؤامرة وقتل توران شاه على أبشع صورة (آخر المحرم 648هـ/ 1250م). وبمقتل توران شاه انتهت الدولة الأيوبية، وحلت محلها دولة المماليك، التي استمرت مستولية على مصر إلى سنة (923هـ/ 1517م).

ولا بد هنا من التعريف بالمماليك بعض الشيء، فالمماليك من جهة اللغة جمع مملوك، وهو العبد الذي لا يملك حريته، بل كان ملكا لغيره. وتطلق دولة المماليك أو سلطنة المماليك على المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ليكونوا له جندا وحرسا، لأنه لم يكن محبوبا من «الأكراد» جيش الدولة الأيوبية وعمادها. وفي ذلك يقول العلامة ابن خلدون: وأراد (الملك الصالح) الإكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك والإكثار منهم كما كانوا آخرا في الدولة العباسية ببغداد. وأخذ التجار في جلبهم إليه فاشترى منهم أعدادا. وأقام لتربيتهم أساتيذ معلمين لحرفة الجندية من الثقافة والرمي، بعد تعليمهم الآداب الخلقية والدينية، إلى أن اجتمع منهم عدد جم يناهز الألف.

وهؤلاء المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح أيوب يرجعون إلى الجنس التركي، وقد جلبوا من بلاد الخزر والقوقاز وسواحل البحر الأسود. وقد بنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالنيل، ولذلك يقال لهم المماليك البحرية أو التركية، وظهر منهم نوابغ القواد إذ كان لهم ولع بالحرب والفروسية. وما زال أمرهم يعلوا حتى دبروا مؤامرة ضد السلطان «توران شاه» وقتلوه واستبدوا بالأمر آخر سنة648هـ. واستمروا سلاطين على مصر والشام 784هـ. وكان من أشهر سلاطين المماليك البحرية المظفر قطز، والظاهر بيبرس، وقلاوون الصالحي، وابنه الاشرف خليل.

ثم استبد المماليك الشراكسة، وهم الذين اشتراهم السلطان قلاوون الصالحي (اقتداء بسيده الصالح أيوب) ووضعهم في القلعة (قلعة صلاح الدين) ولذلك سموه بالبرجية تمييزا لهم عن المماليك البحرية.

واستمروا على حكم مصر والشام إلى سنة 923هـ. وأشهر المماليك البرجية الظاهر برقوق، والسلطان الأشرف قانصوه الغوري. وكان آخرهم السلطان الغوري وطومان باي، وهما اللذان انتصر عليهما السلطان العثماني سليم الأول (922-923هـ) وكانت دولة المماليك من أشهر الدول الإسلامية بمصر. وقد اعتنى سلاطينها بإقامة المدارس

والمساجد. وأصبحت مصر في عهدهم ملجأ العلماء والمهاجرين من المشرق الإسلامي بعد سقوط بغداد وهجومات المغول. وهم الذين صدوا الزحف المغولي عن بقية العالم الإسلامي، وجددوا الخلافة العباسية في القاهرة بعد انقراضها من بغداد. واستمروا إلى أن انقرضت سلطنة المماليك وزالت بزوالهم.

الحملة الثامنة

لما أعتلى الملك الظاهر بيبرس عرش سلطنة مصر أخذ يهاجم الصليبين ويفتك منهم المدن والحصون (قيسارية - حصن الأكراد - حصن عكار - وغير ذلك) عنوة أو مصالحة وقبل أن يتوفى الظاهر بيبرس، استطاع، بما له من دهاء وحسن تدبير، أن يعقد محالفة مع الإمبراطورية البيزنطية، وتعاون مع تتر القفجاق، الذين اعتنقوا الإسلام مع زعيمهم بركة خان، فخابت بذلك الآمال التي كان يعلقها الصليبيون على غزو التتار للعالم الإسلامي، فقد أصبحت منهم قوة مسلمة تتعاون مع سلاطين مصر ضد المغول الذين لم يسلموا بعد.

قلاوون الصالحي والأشرف خليل

ولما آلت سلطنة المماليك بمصر إلى سيف الدين قلاوون (678هـ/ 1279م) بادر بعقد هدنة مع بقايا الصليبيين. ودفعه إلى ذلك عزم التتار على مهاجمة المماليك، ومخالفة بعض أمراء الشام عنه. واستعد السلطان قلاوون لملاقاة التتار الذين تقدموا إلى البلاد الشامية، وجرت بينه وبينهم معركة عظيمة قرب مدينة حمص (رجب 680هـ/ 1282م) انتصر فيها قلاوون على التتار انتصارا باهرا. وطاردهم على أعالي الفرات. ثم وقع الصلح لحقن الدماء بين السلطان قلاوون وملك التتار. وما إن أمن السلطان قلاوون جانب التتار حتى التفت إلى الصليبيين فاستولى على المرقب (684هـ/ 1285م) وفي سنة (688هـ/ 1289م) استولى على مدينة طرابلس بعد أن ضيق عليها الحصار. وأمر قلاوون بهدمها وبناء مدينة جديدة على بعد ميلين منها، حاملة اسم المدينة الأول.

وبالاستيلاء على مدينة طرابلس لم يبق للصليبيين في السواحل الشامية إلا مدينة عكا وما حولها. ثم عزم قلاوون على فتح مدينة عكا وما حولها. فأمر بصنع المنجنيقات والإكثار منها استعدادا لمهاجمة عكا وما حولها. وبينما كان الاستعداد يسير حثيثا لهذا الهجوم إذ بالأجل يوافي السلطان قلاوون الصالحي (سنة 689هـ/ 1290م) فتولى سلطنة مصر من بعده ابنه السلطان الأشرف خليل، الذي سجل في عهده نهاية الصليبيين بالبلاد الشامية.

ما إن تسلم الأشرف خليل زمام السلطنة المصرية حتى شرع في إتمام ما أراد والده من مهاجمة عكا الصليبية والاستيلاء عليها. وأستعد لهذا الأمر استعدادا عظيما فخرج هو من مصر، وخرجت الجيوش الشامية من دمشق، والتقى الجمعان على عكا، ونصب عليها حصارا شديدا حتى اضطرت حاميتها الصليبية إلى الاستسلام في (17جمادي الأولى 690هـ/ ماي 1291م) وفر الكثير من الصليبيين على طريق البحر إلى جزيرة قبرص وأوروبا.

وكان وقع هذه الهزيمة شديدا على بقية الصليبيين فبادروا إلى الاستسلام بدون مقاومة. وهكذا استسلمت تباعا مدن (صور - صيدا - بيروت - طرطوس) وكانت هذه الجولة هي الصورة الأخيرة من صور الصراع المرير بين المسلمين والصليبين في المشرق الإسلامي، ذلك الصراع الذي استمر قرنين من الزمن (490-690هـ) اتصل أثناءهما العالمان المسيحي والإسلامي. وكان لكل منهما أثر في الآخر. وكان غنم المسيحيين اكبر و أوفر، فقد استفادت أوروبا المسيحية من احتكاكها بالعالم الإسلامي فوائد كثيرة، كان لها أبعد الأثر في نهضتها الحديثة، وخروجها من الحالة التي كانت عليها من جهالة وبعد عن الحضارة، مما سنراه أكثر تفصيلا في فصل لاحق.

الفصل التاسع

الحملات الصليبية في المغرب العربي

الدولة الحفصية وعلاقتها بصقلية

كانت سيادة تونس (أفريقيا) تابعة للموحدين بالمغرب الأقصى، ولكن عندما ثار ابن غانية بتونس على الموحدين توجه إليه أمير الموحدين الناصر بن منصور من مراكش وقضى عليه. وقبل رجوعه إلى مراكش اختار أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص للولاية على أفريقيا، فتقلد ولايتها من سنة 603 هـ إلى سنة 618 هـ. ولما تولى ابنه أبو زكرياء الأول سنة 625 هـ (1229م) ساد الاضطراب دولة الموحدين بالمغرب الأقصى، فاستبد أبو زكرياء بإمارة أفريقيا سنة 632هـ وبويع على ذلك. ثم ضم إليه قسنطينة وتلمسان وبجاية. واتجهت إليه الأنظار بالمغرب الإسلامي فجاءته البيعة من ملوك الأندلس وخطبوا له، واستغاث به بعض هؤلاء الملوك لرد كيد النصارى، كما اعترفت به الكثير من المدن بالمغرب الأقصى، وأصبح أبو زكرياء الحفصي من أشهر ملوك المغرب الإسلامي، وأصبحت عاصمته (تونس) قبلة القصاد والمنتجعين، وملجأ المهاجرين.

ونظم أبو زكرياء الأول علاقات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية: البندقية وبيزة وجنوة، وكانت له علاقات مع الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية، الذي عين له سفيرا في تونس. كما عقدت معاهدة بين الطرفين، التزم فيها أبو زكرياء بدفع أداء سنوي مقابل حرية سفنه التجارية، والاتجار في مناطق سيادة الإمبراطور الألماني.

المستنصر بالله الحفصي

في سنة 647 هـ (1249م) توفي أبو زكرياء الأول، فتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد (المستنصر بالله)، وازداد مقام الحفصيين في عهده اعتبارا وازدهارا، وجاءته البيعة من مدينة فاس، ودعي له على منابرها.

ولما سقطت بغداد في يد التتار (656هـ-1258م) جاءته البيعة من شريف مكة فتسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بلقب المستنصر بالله، واعتبر خليفة للمسلمين وأعظم ملوك العالم الإسلامي.

وفي عهد المستنصر بالله ساءت العلاقات بين مملكة صقلية والبلاط الحفصي. فقد مات الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي عرفت علاقاته الحسنة مع المسلمين، وتسامحه معهم، ومحبته للثقافة الإسلامية. وبعد موت هذا الإمبراطور لحقت مسلمي صقلية وجنوب إيطاليا اضطهادات كثيرة ومعاملات سيئة. وتولى أمر صقلية بعد فريدريك الثاني «شارل دانجو» أخو لويز التاسع. وكان قد سار إلى مصر بصحبة أخيه الملك لويز عندما قام بحملة صليبية سابقة.

كان تولي شارل دانجو مملكة صقلية نتيجة لرغبة البابا الذي كان يكره فريدريك الثاني، فعمل على إقصاء جنسه وأهله عن حكم مملكة صقلية. ولم يستتب الأمر لشارل دانجو، فقد ثار عليه كثير من الصقليين، وقدم منهم جماعة إلى تونس واستنجدوا بالمستنصر بالله الحفصي، فاقتبلهم بحفاوة وأعطاهم قوة عسكرية، فاغتاظ لذلك شارل دانجو، واستحكم العداء بينه وبين الملك الحفصي، وطالب بالإتاوة التي كان يدفعها الحفصيون لملك صقلية مقابل الاتجار في مناطق سيادته، فامتنع المستنصر ولم يعترف بها طلبه منه.

حملة لويز التاسع على تونس

وعندما ترامت الأخبار إلى فرنسا معلمة بالضربات القاسية التي كان يكيلها الظاهر بيبرس إلى الصليبيين في البلاد الشامية عادت إلى الملك لويز التاسع الحمية الدينية، ونسي ما قطعه من عهد بعدم الرجوع إلى محاربة المسلمين، فقرر أن يقوم بحملة صليبية أخرى رغم الهزيمة والأتعاب التي قاساها في حملته الصليبية السابقة. وقد كان المقصد الأصلي من هذه الحملة الجديدة هو الاتجاه إلى المشرق الإسلامي حيث اشتد الخطر على الصليبيين. لكن حدثا جديدا حول هذه الحملة عن اتجاهها الأصلي، فاتجهت إلى تونس عوض أن تتجه إلى مصر أو الشام.

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد حول اتجاهها دوق البندقية لمصالح جمهوريته، فإن هذه الحملة الصليبية قد حول اتجاهها واستغلها شارل دانجو، عدو المستنصر الحفصي، وأخو لويز التاسع قائد الحملة.

لقد تمكن شارل دانجو من التأثير على أخيه لويز (التقي المتحمس) وأقنعه ضرورة التوجه إلى تونس، التي أصبح ملكها يلقب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين. وفي ذلك ما فيه من إشباع العاطفة الدينية مع إمكان التوجه إلى الأماكن المقدسة من هناك، وافتكاكها من أيدي المسلمين المستولين عليها. ونجح شارل دانجو في مسعاه، فاتجه لويز التاسع إلى تونس تنفيذا لخطة أخيه ومراميه الشخصية، لعله بذلك يسترد حقه الذي ادعاه، ويتغلب على خصمه المستنصر بالله الحفصي.

نزول الصليبيين بقرطاجنة

جاءت الأخبار إلى المستنصر تعلمه بتوجه الصليبيين إلى تونس، فعقد مجلسه الشوري الذي بحث في كيفية لقاء الصليبيين: هل يسمح لهم بالنزول، أو يصدون عنه. وأخيرا استقر الرأي على أن يسمح لهم بالنزول مخافة أن ينزلوا في مكان آخر غير حصين، ولا مستعد لقتال. وأخذ المستنصر يستعد لهذا اللقاء، وبعث بالنفير إلى أطراف مملكته، فجاءت النجدات من مختلف الجهات.

وفي آخر ذي القعدة سنة 668هـ (1270م) رست أساطيل لويز التاسع أمام مدينة قرطاجنة العتيقة، وأنزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة من قرطاجنة وكانت ماثلة الجدران، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى. وكانت عدتهم ستة آلاف فارس وثلاثين ألفا من الرجالة، وكنت أساطيلهم 300 مركب بين كبير وصغير . ولم يشرع الصليبيون في مهاجمة أو قتال جدي، فقد كان لويز التاسع يترقب وصول أخيه شارل دانجو من صقلية.

خطة المستنصر بالله الحفصي

ولم يكن المستنصر بالله يفكر في مهاجمة الصليبيين، فقد كانت خطته مبنية على مجرد الدفاع والمحاصرة. وكان جنده يتكون من جيشه، وقوات الموحدين، ومن المتطوعة. وملئت سواحل قرية رادس بالجند تحت قيادة محمد بن أبي الحسين، رئيس الدولة. وعقدت سبعة ألوية تحت نظر يحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح لحصار الصليبيين من الناحية البرية. وخرج كثير من الصلحاء والفقهاء والمرابطين لمباشرة القتال بأنفسهم.

ولم تكن بين الفريقين معارك ذات أهمية سوى ما ذكره ابن خلدون من أنه في أول المحرم من سنة 669هـ (1270م) وقعت معركة كبيرة قتل فيها كثير من الفريقين. كما قام

بعض الجند بمفاجأة للصليبيين عندما سلكوا طريق البحيرة حتى وصلوا إلى المعسكر الصليبي من طريق غير منتظر خروجهم منه، وظفر هؤلاء المغامرون ببعض الشيء من الصليبيين الذين تفطنوا لهذا، وأقاموا حراسة من جانب البحيرة.

موت لويز التاسع

وطالت محاصرة الصليبيين حتى نالهم التعب والجوع، وتفشت فيهم الأمراض والأوبئة، ولم يسلم لويز التاسع من هذا الوباء فمات بإصابة وبائية في المحرم من عام 669هـ (25 أوت 1270م) في نفس اليوم الذي وصل فيه أخوه ملك صقلية وبعد ساعات من موته. وباشر شارل دانجو القيادة، وكان من فائدته استمرار الحرب والقتال، إلا أن مرض فيليب (ابن الملك لويز ووارثه على العرش) من جهة، وعزم العرب المتطوعة على الانصراف والإقلاع عن الحرب من جهة أخرى جعل كلا من المستنصر الحفصي والملك الفرنسي يميل إلى الصلح والكف عن القتال. وجرت المخابرات والمفاوضات بين الطرفين وانتهت بهما إلى الاتفاق والصلح.

اتفاقية المستنصر والصليبيين

كان أهم ما اشتملت عليه اتفاقية الصلح: عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمسة عشر عاما تدفع أثناءها الغرامة الحربية التي التزم بها المستنصر بالله الحفصي، وأن يقع احترام مصالح الطرفين الدينية والتجارية، وألا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالا أو مآلا. وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة بملك صقلية بشأن الأموال التي ادعاها على الدولة الحفصية.

وبإتمام العقد على الصلح اتصل الفريقان اتصالا سلميا، ودخل المسلمون محلة النصارى وباعوا معهم واشتروا، وكانت مدة إقامتهم بتونس أربعة أشهر وعشرة أيام. وأقلعت القوات الصليبية عن تونس بعد مدة يسيرة من إتمام الصلح، وصادفتها في عرض البحر عاصفة شديدة أتت على الكثير من سفنها ورجالها، ووصلت البقية إلى صقلية سالمة.

لقد كانت الحملة الصليبية على تونس آخر الحملات الصليبية التي اتخذت رقما عدديا. والواقع أن الحملات الصليبية هي أكثر من هذا، فقد بقيت الإمدادات الصليبية ترد إلى المشرق الإسلامي طيلة هذين القرنين من الزمن، وكانت الاتصالات بين الصليبيين بالشام والنصارى بأوروبا لا تعرف الانقطاع طول تلك المدة.

وإذا كانت الحروب الصليبية هي الحروب التي تدعو إليها البابوية متخذة الصليب شعارا لها، وجاعلة هدفها العام حماية المسيحية والمسيحيين، فإن كثيرا من الحروب التي أثيرت ضد بني عثمان لا تخرج عن نعتها بالحروب الصليبية. وكانت الحروب التي أثيرت ضد المسلمين بالأندلس تتجلى فيها صفة الحروب الصليبية بشكل واضح جلي.

وإذا كانت الحروب الصليبية في المشرق قد انتهت إلى خيبتها المرة، فإن الحروب الصليبية في المغرب (الأندلس) قد انتهت إلى انتصار صليبي حاسم، وأدت إلى زوال الإسلام والمسلمين هناك وانتصار المسيحيين.

صلة الصراع بين النصرانية الإسلام في المغرب العربي بالحروب الصليبية العامة

1- الفتوحات الإسلامية بأوروبا الغربية

كانت القوات الإسلامية التي زحزحت القوات المسيحية عن غرب آسيا وشمال أفريقيا قد عبرت البحر وجعلت من الأندلس (شبه جزيرة أيبيريا) وطنا إسلاميا لعب فيه العرب والمسلمون دورا حضاريا خالدا. وتقدمت الفتوحات الإسلامية شمال جبال البرانس وشرقها، خصوصا خلال مدة ولاية الفاتح عبد الرحمن الغافقي، فقد وصلت طلائع جيشه إلى مدينة صانص التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة كيلومتر، وأصبحت ضفاف الرون والصاوون ولالوار تحت سيادته.

وقبل عبد الرحمن الغافقي كان البطل موسى بن نصير قد رسم خطة عظيمة لما اخترقت جيوشه جبال البرانس، فقد كان عازما على الوصول إلى دمشق عن طريق أوروبا الجنوبية والقسطنطينية. وبذلك يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، ويقضي على الإمبراطورية البيزنطية، وتفتح عاصمتها التي صمدت للغزوات الإسلامية الأولى.

ولكن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أجبر موسى بن نصير على الرجوع إلى دمشق وترك بلاد الأندلس والإقلاع عن متابعة خطته الكبرى، فغادر موسى بن نصير الأندلس سنة 95هـ / 715م آسفا حزينا لما حيل بينه وبين تحقيق هذا الأمل الكبير.

ولما عبر المسلمون جبال البرانس كانت غاليا (فرنسا) تحت سيادة الملوك «الميروفنجيين» الذين كانوا قد فقدوا قوتهم وعظمتهم الأولى، فقد مضى عليهم زمن طويل انتهوا بعده إلى الضعف والانقسام، وأصبحت السلطة بيد غيرهم خصوصا رؤساء البلاط.

وكان الميروفنجيون قد اعتنقوا المسيحية منذ عهد الملك كلوفيس، مؤسس المملكة، سنة 493م، فعظم شأن الرهبان والأساقفة، وأصبحت لهم قوة ونفوذ، وكان ذلك سببا في توثيق عرى الصلات بين البابا في روما وبلاط الإفرنج في فرنسا.

وعندما رأى الإفرنج التوغل الإسلامي في بلادهم بقيادة عبد الرحمن الغافقي استعدوا لرد الخطر الداهم. وكانت المقاومة الإفرنجية تحت قيادة رئيس البلاط المشهور باسم «شارل مارتيل». والتقى الجمعان على ضفاف نهر لالوار بين مدينتي تور وبواتييه سنة 114هـ (732م) وكانت قد مضت على الجيش الإسلامي شهور عديدة وهو مواصل للجهاد والغزو، فكان يوم اللقاء منهوك القوى مثقلا بالغنائم، واستمرت المناوشات أسبوعا ثم احتدم القتال عنيفا كامل اليوم بدون تغلب جانب على جانب. وأثناء هذا القتال العنيف أصيب القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي بسهم فأرداه شهيدا بين الصفوف. وتابع المسلمون قتالهم إلى الليل بدون أن يظهر عليهم فتور بعد موت قائدهم. ولكن أثناء الليل دب الخلاف بين صفوف المسلمين، فقرروا الانسحاب والرجوع تحت جنح الظلام. ولم يصدق الإفرنج في الغد بحقيقة انسحاب المسلمين، فقد ظنوها مكيدة حربية، لأنهم لم يلحظوا عليهم علائم ضعف وانهزام عندما كانوا يقاتلونهم.

وعلى هذه الصورة انتهت معركة بلاط الشهداء، وكانت بداية لتراجع القوات الإسلامية عن أراضي فرنسا. ومنذ ذلك العهد أخذت السيادة العربية تتراجع شيئا فشيئا حتى انكمشت في بلاد الأندلس، وأصبحت سلسلة جبال البرانس فاصلا بين المسلمين والإفرنج المسيحيين في أوروبا الغربية.

ولكن صراعا جديدا بين الإسلام والنصرانية سيبدأ في الأندلس نفسها بين القوات الإسلامية وفلول القوط، الذين التجأوا إلى جبال أشتورية وجايقية الصخرية، وكانت تلك الفلول نواة للممالك الإسبانية التي تصدت لمقاومة المسلمين، ومن ورائها أوروبا المسيحية تمدها بالمساندة المادية والمعنوية.

وبعد أن عم الفتح الإسلامي بلاد الأندلس التجأ بعض أشراف القوط وأعيانهم مع فلول المنهزمين إلى الناحية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة، وكانت جبلية صخرية منيعة، فاستقروا هناك واعتصموا بالجبال تحت زعامة أحد أشراف القوط ويدعى بلاي.

واحتقر المسلمون أمر هذه الشرذمة المعتصمة بالجبال، ولم يحاولوا جديا القضاء عليها كما قضوا على قوات البربر المعتصمة بجبال الأطلس، فكانت هذه أعظم هفوة سياسية

وحربية ارتكبها المسلمون لأنها هي التي جعلت من تلك الشرذمة نواة للممالك الإسبانية التي كانت الخلافات والثورات الداخلية التي أعقبت الفتح الإسلامي للأندلس خير معين لها على التقوي والنمو شيئا فشيئا، فتكونت مملكتان صغيرتان في أشتورية وجليقية، وكانت مملكة الجلالقة أعظم قوة وأوفر حظا، ثم اتحدت المملكتان، إلا أن الخلافات كثيرا ما كانت تشتت من تلك الوحدة، فكانت إسبانيا النصرانية متحدة مرة ومنقسمة أخرى.

2 – صلة الصراع في الأندلس بالحروب الصليبية

يعتبر البابا الجالس على الكرسي الرسولي بروما، الرئيس الديني الأعلى لنصارى الغرب والمذهب الكاثوليكي. وكان البابا يساند أي ملك من الملوك ينهض للدفاع عن المسيحية والنفح عنها. ولا شك أن البابوية كانت تنظر إلى التقدم الإسلامي في أوروبا الغربية نظرة حقد عليه، وإشفاق على مواطن المسيحيين. حتى إذا كانت معركة بلاط الشهداء وتوقف الزحف الإسلامي بعدها، انتعشت البابوية واهتزت أوروبا النصرانية أيما اهتزاز، وأضفت على شارل مارتيل مختلف نعوت الإجلال والبطولة. واعتبرته الكنيسة الكاثوليكية حاميا للنصرانية ومنقذا لها من الانهيار. وهكذا اكتسبت حروبه مع المسلمين صبغة الجروب المقدسة. ولما خلفه ابنه بيبان على زعامة الإفرنج، ونهج منهج أبيه في محاربة المسلمين، ساعدته الكنيسة الكاثوليكية على إسقاط العائلة الميروفنجية وانتصابه ملكا على غاليا (فرنسا) عام 132هـ-751م، وجاءه البابا إلى فرنسا وباركه. والملك بيبان هو الذي حارب اللمبارديين في شمال إيطاليا لما استنجد به البابا، فحماه من هذا الهجوم. ثم منح الكنيسة البابوية الأراضي التي افتكها من اللمبارديين، وكان ذلك بداية لمملكة الكنيسة البابوية.

وفي عهد شارلمان ازداد الاتصال توثقا بين مملكة الإفرنج الكارولنجية والكنيسة البابوية، وسار شارلمان على سنة أبيه في حماية الكنيسة البابوية ومحاربة اللمبارديين والمسلمين ومحاولة انتزاع إسبانيا منهم. وفي سنة 183هـ – 800م سار شارلمان إلى روما ليتوّجه البابا، وأصبحت إمبراطوريته تدعى «الإمبراطورية الغربية المقدسة».

فإذا عرفنا أن هؤلاء الثلاثة (مارتيل – بيبان – شارلمان) كانوا هم الذين تتابعوا على محاربة المسلمين خارج جبال البرانس حتى انحصر الإسلام في شبه الجزيرة، وعرفنا صلتهم المتينة بالبابا، أمكننا أن ندرك قدم ظهور فكرة الحروب الصليبية التي ظهرت بالمغرب الإسلامي عن ظهورها بالمشرق.

لقد كان الإسبان على المذهب الأريوسي الذي لا يقول بإلوهية المسيح، عكس المذهب الكاثوليكي، إلا أن الملك ريكارد جحد سنة 557م المذهب الأريوسي واعتنق المذهب الكاثوليكي، فأخذ هذا المذهب منذ ذلك العهد ينتشر شيئا فشيئا.

وفي بادئ الأمر لم يكن نصارى الإسبان معترفين بسيادة البابا عليهم، ولكن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (قبيل اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق) أصبحت أديرة مملكة أرغونا تحت السيادة البابوية. وفي مقابل هذا الاعتراف نال الملك صانشو راميريز إذنا من البابا بمحاربة المسلمين من ريع أحباس الكنائس الواقعة في مملكته.

وفي عهد البابا جريجور السابع (468هـ - 1075م) اعترفت جميع إسبانيا النصرانية بسلطة البابوية وإشرافها، وتأسست هيئة إكليروس في البلاد. وبعد سقوط طليطلة سنة 478هـ - 1086م وفد إلى إسبانيا كثير من المحاربين الفرنسيين نتيجة لمساعي المطران برنارد الذي ارتفعت منزلته، فمنحه البابا أربان الثاني الثوب الكهنوتي، وانتصب رئيسا أعلى للكنيسة الإسبانية. كما أصبح للبابا أربان نفوذ كبير في إسبانيا، وأصبح مسموع الكلمة في تعيين وعزل الأساقفة الإسبان.

وفي سنة 482هـ - 1089م دعا إلى مساندة الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، فاستجاب لندائه كثير من فرسان جنوب فرنسا، إذ لم تكن تلك الحروب إلا أعمالا صليبية جليلة. ولم يتخذ هذا البابا جنوب فرنسا مركزا لإعلان الحروب الصليبية إلا لما يعلمه من اتصال هذه المناطق بإسبانيا، ومشاركتها السابقة في محاربة المسلمين في البلاد الإسبانية.

وفي مجمع كليرمون الذي أعلنت فيه الحروب الصليبية في المشرق، أراد المطران برنارد وعدد من القساوسة الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق، إلا أن البابا أربان منعهم من ذلك، لأنه توجد في بلادهم «إسبانيا» حرب صليبية. كما أصدر هذا البابا مرسوما حرم فيه على رجال الدين والفرسان الإسبان المشاركة في صليبيات المشرق، لأن محاربة المسلمين في إسبانيا لا تقل أهمية واعتبارا عن الحرب الصليبية المشرقية. وقد ترتب على ذلك أن هرع الكثير من الفرسان من مختلف أنحاء أوروبا إلى الأندلس ليساهموا في حرب صليبية هي أقرب سبيلا وأيسر مشقة وعناء. ولما أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن نجاحها أعلن البابا باسكال الثاني الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس.

وقد أصبح من المألوف أن يأذن البابا لملوك الإسبان في استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين. وكانت البعثات الصليبية الواردة من أوروبا الشمالية (انجليز - ألمان -

هولنديون) لا ترى مانعا إذا تعطلت في سيرها أن تساعد ملوك الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، وأن يكتفي البعض منهم بتلك المساهمة.

وفي سنة 632هـ / 1244م أصدر البابا جريجور التاسع قرارا وعد فيه النصارى الذين يحاربون مع ملك البرتغال صانشو الثاني بغفران ذنوبهم كما لو كانوا في الحروب الصليبية بالأراضي المقدسة، وكان البابا يثير حماسة البرتغاليين ضد المسلمين.

ويعتبر الملك خايم الأول ملك أرغونه من أشد ملوك الإسبان محاربة للمسلمين وتنكيلا بهم. ولما اعتزم احتلال جزيرة ميورقة جعل الصليب شعاره وانضم إليه الكثير من الجنويز والبروفانسيين. وعندما عزم هذا الملك على احتلال بلنسية أيده البابا جريجور التاسع ودعا النصارى إلى مساندته، فاستجاب لذلك فرسان فرنسا وانجلترا.

واهتم الملك خايم لما يقع في الشرق وما يكيله الظاهر بيبرس من ضربات للصليبيين فتهيأ للقيام بحرب صليبية في بيت المقدس باعتباره من كبار ملوك النصرانية إذ ذاك، فأقلع في مستهل سبتمبر 1269م (668هـ) من برشلونة في حملة صليبية قاصدا البلاد الشامية، إلا أن عاصفة أجبرته على الرجوع إلى أرغونه. لكن ابنيه غير الشرعيين (فيراندو وفيرانديز) تابعا سيرهما بقسم من الأسطول، ونزلا بساحل عكا في شهر أكتوبر.

لم تشابه الحروب في الأندلس الحروب الصليبية المشرقية في الروح الديني فحسب، بل تابعتها في روح الفروسية. فقد كان لفرسان المعبد والاسبتارية قيمة واعتبارا في الحروب الصليبية في المشرق، وقد ذاع صيت هؤلاء الفرسان عند النصارى الإسبان وعند ملوكهم، حتى أوصى ألفونسو المحارب ملك أرغونه أن تقسم مملكته أثلاثا: الأول لسلام روح أبويه وللقبر المقدس وسدنته وكهنته، والثاني لفقراء الاسبتارية وفرسانها، والثالث لفرسان المعبد. كما انتظم ريموند الثالث في سلك فرسان المعبد. أما ابنه ريموند الرابع فقد بعث إلى كبير فرسان المعبد ببيت المقدس أن يرسل عددا من فرسانه إلى قطلونية. وقد أسس أول دير لهذه الطائفة ووهبها الكثير من الأملاك والحقوق والمزايا. ثم تأسست في سائر إسبانيا النصرانية فرق من الفرسان على شاكلة فرسان المعبد. وكان لهذه الفرق عظيم الأثر في الانتصارات التي سجلها الإسبان ضد المسلمين في الأندلس.

وهكذا تبدو الصلة وثيقة متينة بين الحروب الصليبية العامة، التي كانت تهدف إلى استخلاص بيت المقدس، وبين الحروب الصليبية في المغرب التي كانت تهدف إلى

استرجاع إسبانيا إلى حظيرة النصرانية من جهة، وإلى محاربة الإسلام، ومحاولة القضاء عليه من جهة أخرى.

3- أدوار السيادة الإسلامية بالأندلس

تولى موسى بن نصير ولاية أفريقيا سنة 89هـ بعد أن وطد دعائم الإسلام فيها ولاة مختلفون، كان آخرهم حسان بن النعمان الغساني. وقاوم موسى بن نصير ثورات البربر وقمعها. واجتمع بقية الثوار في طنجة فتغلب عليهم وولى على طنجة مولاه طارق بن زياد. ولم يبق خارجا عن النفوذ الإسلامي إلا مدينة سبتة التي كانت تحت حكم ملك إسبانيا القوطي، وكان واليها من قبله الكونت جوليان.

ولقد خضعت إسبانيا منذ القرن الخامس الميلادي إلى حكم القوط الغربيين، فأسسوا هنالك مملكة قوية. ثم دخلها الوهن والاضطراب فيها بعد. وقبيل الفتح الإسلامي كانت إسبانيا خاضعة لحكام القوط الذين ركنوا إلى الراحة والترف، وأوغلوا في التنكيل واضطهاد الشعب الفقير البائس. وكانت هذه الحال السيئة قد جعلت الناس متطلعين إلى من ينقذهم من هذا العذاب. وهكذا لم تكن الحياة السياسية مستقرة في إسبانيا القوطية، فكانت قبيل الفتح مسرحا للثورات والحروب الداخلية.

وقبل الفتح الإسلامي كان الجالس على عرش القوط بطليطلة الملك «غيطشه» وكانت سيرته القاسية المستهترة باعثة على اندلاع نار الثورة ضده بزعامة «لذريق» قائد الجيش القوطي. وانتهت ثورته بالانتصار وانتصابه ملكا على إسبانيا. وقد أعانه في ثورته النبلاء ورجال الدين، ولكن سرعان ما عسف لذريق وانغمس في الشهوات، فنفرته القلوب وكرهه الناس. واندلعت نيران الثورة ضده، والتجأ أبناء خصمه (غيطشه) إلى حاكم سبتة الذي كان من ألد أعدائه، ثم استنجد هذا الحاكم بالمسلمين فاهتبلوا الفرصة وتقدموا إلى فتح الأندلس.

وفي رجب 92هـ (أبريل 711م) عبر طارق بن زياد البحر في سبعة آلاف مقاتل ونزل إسبانيا، واندفع قاصدا مدينة طليطلة عاصمة القوط. ثم أنجده موسى بن نصير بخمسة آلاف آخرين، بينما كان لذريق بشمال إسبانيا مشغولا بقمع ثورة هناك. وما إن سمع بنزول العرب في بلاده حتى عاد مسرعا، والتف حوله رجال الدين والنبلاء واجتمع له من الجيوش نحو مائة ألف مقاتل.

وفي رمضان التقى الجمعان بسهول شريش فجرت بين الطرفين مناوشات أعقبها التحام شديد انتصر فيه المسلمون رغم قلتهم وانهزم القوط شر هزيمة. ثم تابع طارق بن زياد فلول الجيش القوطي المنهزم فقضى عليها قرب استجة واطرد النصر لفائدة المسلمين، ففتحت مدائن (قرطبة - ألبيرة - غرناطة) وغيرها. وسار طارق بن زياد صوب طليطلة فاستولى عليها. ثم تابع فتوحه إلى شمال إسبانيا (جليقية) وعاد بعد ذلك إلى طليطلة حيث تلقى أمرا من موسى بن نصير بالتوقف عن الزحف. وفي رمضان عام 93هـ عبر موسى ابن نصير المضيق في جيش مؤلف من العرب والبربر وافتتح عدة مدن أخرى (شذونة - قرمونة - اشبيلية - ماردة) ثم قصد طليطلة، والتقى قريبا منها بمولاه طارق بن زياد.

ثم تضافرت جهود القائدين على فتح بقية الأندلس، فلم يبق فيها خارجا عن الحكم الإسلامي إلا مناطق ضيقة جبلية التجأ إليها بعض القوط واعتصموا بها.

وبينما كان موسى بن نصير منهمكا في إتمام فتوحاته إذ وردت إليه من الخليفة الأموي بدمشق رسائل تدعوه بإلحاح إلى دمشق (مركز الخلافة) فغادر موسى بن نصير الأندلس في ذي الحجة عام 95هـ (715م) بعد أن ترك ولده عبد العزيز واليا عليها. وبهذه الولاية دخلت الأندلس في عصر الولاة، وتعاقب عليها ولاة كثيرون منهم المستقل بولايتها، ومنهم التابع لولاية القيروان أو مصر. وامتد عصر الولاة من 95هـ (715م) إلى 138هـ (755م) وكان من أبرز هؤلاء الولاة:

1 - عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي يعتبر متمما للأعمال التي قام بها والده وطارق بن زياد. وكان شهما عادلا شجاعا، إلا أن الأمد لم يطل به إذ اغتيل من طرف الجند بعد نيف وسنة من ولايته.

2 - وفي سنة 100هـ جعل عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية مستقلة تابعة لمركز الخلافة مباشرة بولاية السمح بن مالك الخولاني. وكان حازما وعادلا، ساد الأمن في عهده وغزا وراء البرانس وأثخن في لانكدوك وأكوتين وتولوز. وفي هذا العهد بدأ النزاع بين الإفرنج والمسلمين في أرض غاليا (فرنسا) ومات السمح شهيدا في وقعة تولوشة (تولوز) سنة 102هـ 721م.

3 - عنبسة الكلبي، تولى أمر الأندلس باختيار بشر بن صفوان (والي أفريقيا) فتابع هو أيضا قتال الإفرنج ومات شهيدا في غاليا سنة 107هـ 725م. ثم جاء بعده ولاة إلى الأندلس لم يكن لهم شأن عظيم حتى كانت سنة 113هـ.

4- ففيها تولى الأندلس عبد الرحمن الغافقي، الذي استطاع أن يلم الشمل الآخذ في التصدع، وأن يوحد كلمة المسلمين. ثم عبر البرانس وأثخن في أرض الإفرنج واستطاع أن يستولي على غالب فرنسا الجنوبية والوسطى، مما أزعج الإفرنج ودعاهم إلى تكتيل جهودهم ضده بزعامة شارل مارتيل حتى كانت وقعة بلاط الشهداء سنة 114 هـ 735م التي استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي.

5- وفي عهد ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (من سنة 116هـ 735م إلى سنة 123هـ 741م) أخذت القوات الإسلامية تتراجع عن غاليا، فلم يبق بأيدي المسلمين إلا شريط ساحلي صغير يمتد من البرانس الشرقية إلى مدينة نربونة. واضطربت الأحوال بالأندلس واندلعت فيها نيران الثورة، وتكاثرت الفتن بين الأحزاب والقبائل (عرب - بربر - يمنية - قيسية) وكان هذا في الوقت الذي دخلت فيه الخلافة الأموية دور الهرم والاحتضار، فقام ضدها العباسيون وقضوا عليها وطاردوا أتباعها وورثة ملكها، ونكلوا بهم تنكيلا فظيعا (سنة 132هـ). واستمرت الاضطرابات في بلاد الأندلس إلى سنة 138هـ 755م وقد تولاها يوسف بن عبد الرحمن الفهري منذ سنة 129هـ، لكنه لم يكن ينتهي من إخماد ثورة حتى تقوم ثورة أخرى.

واستطاع عبد الرحمن الداخل أن يفلت من مطاردة العباسيين إلى أن وصل الأندلس متخفيا سنة 138هـ بعد أن مهد له الأمر مولاه بدر. واستجاب لدعوته كثير من الناس، خصوصا القبائل اليمنية وجنود الشام. وسرعان ما تغلب على يوسف الفهري فهزمه وبويع له بالإمارة، ودخل قرطبة ظافرا في العاشر من ذي الحجة.

كان عبد الرحمن الداخل داهية حكيما فكان يدعو للمنصور العباسي، ثم قطع الخطبة عنه لما تم له ملك الأندلس ومهد أمرها وخلد لبني أمية السلطان بها وجدد لهم ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها. ولما استوثق له الأمر أمر بلعن «المسوّدة» وقطع الدعاء لأبي جعفر المنصور. وكان هذا الفتى الأموي جلدا صبورا حازما، فإنه رغم الثورات والانتفاضات التي وقعت طول مدته، قد تغلب عليها ونجح في إخضاع الأندلس، وأسس دعائم دولة أموية جديدة لا في بلاد الشام وإنما في الطرف الأقصى من المغرب الإسلامي. وجعل من مدينة قرطبة عاصمة لمملكته الجديدة. وأخذت هذه العاصمة تعظم وتزدهر حتى غدت من أعظم الأمصار حضارة وعمرانا وثقافة وازدهارا. وكانت تنافس بغداد في هذه الميادين وتبزها أحيانا. وقد عاصر عبد الرحمن الداخل أبا

جعفر المنصور الذي اعترف لهذا الفتى الأموي بالنبوغ، وأطلق عليه لقب صقر قريش كما عاصر أعظم ملك إفرنجي شارلمان حفيد شارل مارتيل. وقد انتهز شارلمان فرصة دعوته من طرف الثوار على عبد الرحمن الداخل فعبر البرانس وزحف على شمال الأندلس، لكنه رجع خائبا منهزما.

ولقد امتد ملك بني أمية بالأندلس إلى سنة 422هـ، وتتابع على عرش قرطبة ملوك كثيرون. ورغم أن الأندلس أصبحت قوية متحدة إلا أن هذا لم يمنع أعداءها من إفرنج وأسبان أن يستغلوا أي اضطراب أو شغب يقع في البلاد، ففي عهد هشام الأول (172 - 180هـ) خرج عن سيادة الإسلام أهم الأراضي الواقعة وراء البرانس. وفي عهد الحكم الأول (180 - 206هـ) سقطت مدينة برشلونة أمنع ثغر بشمال إسبانيا كان يعتمد عيه المسلمون سنة 175هـ (801م) وكان يطلقون عليها اسم الثغر الأعلى.

وفي عهد عبد الله بن محمد الأول (275 - 300هـ) تفاقم أمر الثورة ودخل البلاد الاضطراب والانقسام وأشرفت الدولة الأموية على الانقراض والزوال لو لم يتدارك أمرها عبد الرحمن الناصر.

ويعتبر عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك بني أمية في الأندلس وواسطة عقدهم. وقد بلغت البلاد في عهده (300-350هـ) غاية المجد والعظمة والازدهار. واشتهر عبد الرحمن بالحزم والصرامة والشجاعة، فعندما تولى الإمارة كانت الأندلس تكاد تفقد فيها سيادة بني أمية لما نالها من الفوضى والتمزيق والتشتت وانحلال السلطة، فأخذ الناصر يجمع الشمل ويقمع الثائرين إلى أن خلصت له البلاد، ودانت له بالطاعة، وطمع الفاطميون - بأفريقيا - في الاستيلاء على الأندلس لما رأوا ما أصبحت عليه من الفوضى، إلا أن عبد الرحمن الناصر رد كيدهم، ومنع تسرب دعوتهم إلى بلاده وحارب ملوك النصارى بشمال إسبانيا وقهرهم، وكان له أسطول بحري بلغ عدده مائتي سفينة.

عندما استقل عبد الرحمن الداخل بالأندلس اكتفى بلقب أمير وسار على ذلك خلفاؤه. ولكن ضعف الخلفاء العباسيين بالمشرق، واستبداد المماليك الأتراك بأولئك الخلفاء ترتب عليه أن انشقت أقطار كثيرة عن سيادة بني العباس وانبعثت الخلافة الفاطمية في المغرب العربي. ولما رأى عبد الرحمن الناصر هذا الضعف وعلم أن الخليفة العباسي المقتدر قتله مملوكه مؤنس المظفر سنة 317 هـ أعلن الخلافة وتلقب بلقب أمير المؤمنين. والتصق هذا بمن أتى بعده من ملوك بني أمية.

تولى بعد عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم الثاني المستنصر، فعاشت البلاد ست عشرة سنة في هدوء واطمئنان. ولما توفي سنة 366هـ ولي ابنه هشام الثاني المؤيد، وكان ابن عشر سنين، فتغلبت عليه أمه «صبح» ثم حاجبه المنصور بن أبي عامر، وكان المنصور بن أبي عامر من ألمع الشخصيات التي لعبت دورا عظيما في تاريخ الأندلس، فقد استبد بالأمر، وأصبح الخليفة الأموي لا رأي له ولا نفوذ، وضرب اسم المنصور على السكة بعد اسم الخليفة، ودعي له على المنابر. واشتهر المنصور الحاجب بغزواته الكثيرة وإثخانه في بلاد النصارى (الإسبان) فقد تغلب عليهم واستولى على الكثير من مدنهم، وخضع له ملوكهم وأدوا إليه الإتاوة، وقدموا إليه مراسيم الطاعة والولاء. ثم مات المنصور سنة 393هـ شهيدا في إحدى غزواته بشمال الأندلس، وتولى الحجابة بعده ابنه المظفر، فسار على نهج أبيه في الاستبداد بالأمر، لكن لم تطل حياته. وبعد موت الحاجب المظفر اختل توازن الدولة وقامت الثورات والفتن وانقسم البيت المالك. وأصبح الأندلسيون يستعينون بملوك النصارى ضد بعضهم بعضا. واستبد أصحاب الأطراف بما تحتهم. ودخلت الأندلس المسلمة في دور جديد بقتل المستعين واستيلاء بني حمود على قرطبة سنة 450هـ. واستغل «الاذفونش الخامس» ملك قشتالة هذا الاضطراب فاسترد ما استولى عليه المنصور بن أبي عامر من مدن النصارى. واستمرت الاضطرابات إلى سنة 422هـ (1030م) بخلع هشام «المعتد بالله»، ولم يعد لبني أمية ذكر، وكان عصر ملوك الطوائف.

ويعد عصر ملوك الطوائف بالأندلس من أخطر عصور هذه البلاد، فقد انقسمت الأندلس إلى ممالك عديدة، وتربع على عروشها ملوك كانوا فريسة للتحاسد والحقد والخلاف والغرور. وقد كان عدوهم الأصلي (الإسبان) يذكي نيران الفتن، يعين الضعيف على القوي حتى يضعفوا جميعا، فيسهل عليه بذلك افتراس هذا القطيع الذي تفرق شمله وضل رعاته. وهكذا تغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد، وبعضهم تسمى بالمأمون، وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية.

ولقد تكاثرت ممالك الطوائف حتى بلغت نحوا من عشرين مملكة، ومن أشهر هذه الممالك، بنو حمود بقرطبة ثم مالقة والجزيرة الخضراء. وبنو ذي النون بطليطلة ونواحيها، وبنو عباد باشبيلية، وبنو الأفطس ببطليوس، وبنو هود بسرقسطة، وبنو زيري بغرناطة، وبنو جهور بقرطبة.

وطيلة مدة عظمة الدولة الأموية بالأندلس اكتفت الممالك الإسبانية بما عندها، وكانت تقف في غالب الأحيان موقف الدفاع عن حوزتها. وفي أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) آل أمر الأندلس إلى مهزلة ملوك الطوائف، وهنا تحلبت لها ملوك الإسبان، وشمروا عن سوقهم للإجهاز على المسلمين، وإلى هذا الوقت كانت الأراضي التي بيد الإسبان تبلغ ثلث الجزيرة فقط.

ورغم أن الدويلات النصرانية كانت متعددة إلا أنها كانت أقرب إلى الوحدة، كما كانت توجد من ضمنها مملكة قوية تتزعم قيادتها وتوجيهها. وفي النصف الأول من هذا القرن استطاع صانشو الكبير «شانجة» أن يضم إليه جميع الممالك النصرانية ضما حقيقيا أو بالتبعية إليه. ولما توفي صانشو الكبير (428هـ-1065م) تقلد زعامة نصارى الإسبان ابنه فرديناند الأول الذي وجه همه إلى محاربة ملوك الطوائف لاسيما بنو الأفطس. ولم يمت فرديناند (458هـ-1065م) إلا بعد أن خضع له ملوك اشبيلية وطليطلة وبطليوس ودفعوا له الإتاوة. ورغم اقتسام المملكة بعد موته فإن ابنه الأذفونش «الفونس السادس» استطاع بعد حروب طويلة أن يضم إليه مملكة أبيه (قشتالة - ليون - جليقية - البرتغال) وأن يقتسم مع شانجة (ملك أرغونه) مملكة نفاره، فتقوت المملكتان وعظم شأنهما وتحالفتا على محاربة المسلمين والنيل منهم.

ولقد كان موقف ملوك الطوائف موقف العداء والحروب والدسائس ضد بعضهم بعضا، على نقيض موقفهم مع ملوك النصارى، خصوصا الأذفونش السادس (ملك ليون وقشتالة)، فالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة كان يثق تمام الثقة بالآذفونش، حتى أنه جعله من جملة الأوصياء على ولي عهده يحيى عندما أحس بقرب أجله. وأما المعتمد ابن عباد (صاحب اشبيلية وأعظم ملوك الطوائف إذ ذاك) فقد تحالف مع الآذفونش وعاهده ألا يتعرض له إذا غزا طليطلة في مقابل إعانته بالجيوش المرتزقة ضد أعدائه من ملوك الطوائف.

وهكذا وجد الآذفونش الفرصة سانحة فاندفع صوب طليطلة للقضاء على بني ذي النون واحتلالها. ولم يجد صاحبها يحيى القادر معينا يدفع به الخطر سوى بني الأفطس، أصحاب بطليوس. أما ابن عباد فقد كان يوسع دائرة مملكته على حساب إخوانه المسلمين! وأخيرا وبعد نحو ست سنوات استطاع الآذفونش أن يتغلب على طليطلة، فاستسلمت له ودخلها ظافرا منتصرا في المحرم سنة 478هـ (1085م)، وبذلك استرجع النصارى عاصمة القوط الأولى بعد خضوعها للسيادة الإسلامية نحوا من أربعة قرون.

ولم يكتف الآذفونش بهذا بل اندفع متقدما صوب قرطبة وماردة وبطليوس، مما جعل ابن عباد يندم على محالفة الآذفونش، الذي أعلن عزمه على محاربة جميع المسلمين، ومن ضمنهم المعتمد بن عباد.

وأحس ملوك الطوائف بالخطر الداهم وسوء مغبة خلافهم، وكان هذا الضغط دافعا بهم إلى التقارب وإزالة الخلاف ولو ظاهريا، فعقدوا الاجتماعات وتداولوا الأمر وأيقنوا أنهم لا يستطيعون إيقاف هذا الخطر ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وهكذا لم ير الأندلسيون بدا من الاستنجاد بدولة المرابطين الناشئة في المغرب الأقصى.

في الوقت الذي كان فيه ملوك الإسبان منهمكين في احتلال المدن والقرى الإسلامية واتحدوا على ذلك وتحالفوا، فكان الآذفونش السادس يضيق الخناق على سرقسطة، وملك أرغونه يحاصر طرطوشة، وأمير برشلونة يتأهب لغزو بلنسية، في ذلك الوقت العصيب عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس فاقتبله المعتمد بن عباد قرب الجزيرة الخضراء واحتفى به. وتقاطرت الجموع الإسلامية وملوك الطوائف إلى معسكر ابن تاشفين حتى اجتمع عنده جيش عظيم من الأندلسيين، زيادة على جيوشه التي أتى بها من المغرب. وطار الخبر إلى ملوك النصارى، فأقلعوا عما كانوا بصدده، والتفوا جميعا تحت راية الآذفونش السادس الذي سار إلى الجنوب قاصدا ملاقاة المرابطين.

وعلى مقربة من بطليوس، في فحص الزلاقة التقى الفرقان في رجب عام 479هـ/ أكتوبر1086م. وكان يوم اللقاء الحاسم يوم جمعة، فصدق المسلمون اللقاء وأظهر ابن عباد شجاعة نادرة، فانهزم النصارى هزيمة لم يعرفوها منذ قرون، وجندلت منهم عشرات الآلاف. ولم ينج الآذفونش إلا بأعجوبة في نفر قليل من أصحابه، بعد أن جرح في المعركة بطعنة كادت تقضي عليه.

وسار خبر الانتصار إلى المغرب وكافة المدن الأندلسية، فانتعشت النفوس وعم الابتهاج، إلا أن ابن تاشفين لم يتابع مقاتلة الإسبان والقضاء عليهم بعد هذه الهزيمة الكبرى، ووافاه نعي ولده (نائبه) بمراكش فعجل بالعودة إلى المغرب وأناب عنه بالأندلس قائده سير بن أبي بكر.

لم تكن وقعة الزلاقة قاضية على الآذفونش السادس، فقد كان جبارا صبورا، ولم تزده هزيمته يوم الزلاقة إلا تحفزا، فأخذ يجمع أشتاته ويلم شعثه. واشتعلت الحماسة الدينية في صدور المسيحيين، فتقاطر عليه سيل من الفرسان (فرنجة ونورمان). وبعد عام

واحد من الهزيمة أصبح الآذفونش قويا كما كان، وأخذ يهاجم المدن الإسلامية ويعيد الخطر المسيحي من جديد. وعاد ملوك الطوائف إلى ما كانوا عليه من تشتت ومخاصمة فاضطر ابن تاشفين إلى النزول بالأندلس مرة ثانية (481هـ-1088م)، ولم يتجه سلطان المرابطين هذه المرة إلى محاربة الإسبان، وإنما اتجه إلى إلحاق الأندلس بسلطنته والقضاء على ملوك الطوائف الذين لم تزجرهم الوقائع والمواعظ عما تملكهم من تحاسد وتباغض، فاستولى على غرناطة ومالقة، وعلى قرطبة وقرمونة، وعلى اشبيلية سنة 484هـ. ومن غرائب المعتمد بن عباد (صاحب اشبيلية) أنه استنجد بالآذفونش ضد ابن تاشفين، ولكن لم يمنعه ذلك إذ تغلب عليه ابن تاشفين وأسره وأرسله مع عائلته منفيا إلى أغمات بالمغرب الأقصى، حيث مات هناك كمدا وحسرة. وتابع ابن تاشفين عمله فاستولى على المرية ونواحيها، كما ضم إليه بلنسية وبطليوس والجزائر الشرقية. وهكذا قضى سلطان المرابطين على ملوك الطوائف، وأصبحت الأندلس المسلمة ضمن سلطنته، عدا بني هود بسرقسطة الواقعة مملكتهم بين مملكة أرغونه ومملكة قشتالة.

ولم يسجل المرابطون بعد إخضاع الأندلس إليهم شيئا ذا أهمية، اللهم إلا معركة إقليش (501هـ-1108م) التي انتصر فيها المرابطون انتصارا عظيما على جيوش الآذفونش السادس، ولكن لم يصحب هذا الانتصار تقدم للمرابطين أو ضعف للإسبان.

وفي الوقت الذي أخضع فيه المرابطون بلاد الأندلس إليهم اندلعت نيران الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، فكانت هذه الحروب خير مشجع ومساند للملوك الإسبان على محاربة المسلمين في المغرب الإسلامي، خصوصا بعد أن أصبح الآذفونش المحارب (ملك أرغونه) صاحب السيادة المطلقة على إسبانيا النصرانية، إذ دخلت في تصرفه مملكة (ليون - قشتالة) بتزوجه من «أوراكا» وارثة الآذفونش السادس على عرش ليون قشتالة. وأخذ ملك أرغونه يهاجم دولة بني هود بسرقسطة وأحوازها، فاستولى على تطيلة سنة 503هـ (1110م).

ورغم الخلاف الذي دب بين الآذفونش المحارب وزوجته «أوراكا» فإن المرابطين لم يستطيعوا استغلال هذا الخلاف. وفي سنة 512هـ (1118م) استولى الآذفونش المحارب على سرقسطة فانهار ثاني معقل إسلامي بعد طليطلة، وأخذ يهدد المرابطين بالأندلس وتعيث جنوده في البلاد، وحاصر مدينة غرناطة ووصل إلى أقصى جنوب الأندلس (نواحي مالقة) بدون أن يستطيع المرابطون صده وإرجاعه، بعد أن سرى فيهم الضعف واختل أمرهم بالمغرب، وبدأ الموحدون يناوئونهم ويثيرون المعارك ضدهم.

وما إن أحس الأندلسيون بضعف المرابطين حتى شقوا عصا الطاعة في وجههم واندلعت نيران الثورة في كل مكان، وكان من متزعمي الثورة: احمد بن قسي، ابن الرميمي، ابن عياض، مروان بن عبد العزيز. وأغرى ملوك الإسبان هؤلاء الثوار، خصوصا سيف الدولة بن هود الذي قام ضد المرابطين متحالفا مع مملكة قشتالة.

ولم يستطع ابن غانية (والي المرابطين بالأندلس) التغلب على الثوار لانقطاع المدد عنه من المغرب الأقصى نظرا لاشتغال المرابطين بثورة الموحدين. وحتى ابن غانية لما رأى خطر الموحدين وتفوقهم على المرابطين، خشي على نفسه وتحالف مع قشتالة ضد الموحدين، وازداد خطر الإسبان ودخلت جيوش قشتالة إلى قرطبة وأقيم في المسجد الجامع قداس ديني حضره أسقف طليطلة.

وخاف مسلمو الأندلس من سوء المصير، فقد أصبحت حالتهم أشبه بآخر عهد ملوك الطوائف: تفرق وتدابر، ضعف وتخاذل، عدو متكالب على أخذ البلاد وإذلال المسلمين. وهنا اتجهت أنظارهم إلى المغرب الأقصى حيث اشتد ساعد سلطان الموحدين (عبد المؤمن بن علي) وقضى على المرابطين، فوفد عليه أعيان الأندلس لتدارك الحالة والأخذ بيد الإسلام.

كانت صقلية قد وقعت في أيدي النورمان نهائيا منذ سنة 484هـ وأصبحت تحت سيادتهم، وما كان سقوطها إلا نتيجة حتمية لما ساد أهلها من ضعف وافتراق كلمة، ولما كانت عليه إفريقيا (تونس) زمن الدولة الصنهاجية من اختلاف وانحلال، لاسيما بعد زحف الهلاليين وبثهم الرعب والخراب في البلاد.

ولم يكن النورمان بعيدين عن الفكرة الصليبية، فقد كانت لهم مشاركة عظيمة في الحملة الصليبية الأولى، إذ كانت الحملة التي خرجت من جنوب إيطاليا بقيادة «بوهيموند» و «تنكريد» من هؤلاء النورمان الذين استولوا على صقلية، وكان انتصارهم على المسلمين فيها يغريهم بمتابعة الغزو والاستيلاء.

وقد حاول روجر الثاني تنظيم حملة صليبية لغزو إفريقيا (تونس) بالاتفاق مع إمارة برشلونة لو لم تصده ظروف داخلية عن ذلك. وقد سادت العلاقات الطيبة مدة من الزمن بين روجر الثاني (ملك صقلية) والصنهاجيين بالمهدية، إلا أنه في مدة علي بن يحيى بن تميم (509 - 515هـ) ساءت العلاقات بينهما، وبعث روجر الثاني بتهديداته إلى علي بن يحيى، واستعد كل منهما لمجابهة الآخر.

وعندما اعتلى الحسن بن علي الصنهاجي عرش المهدية كاتب عليا بن يوسف بن تاشفين بشأن تهديدات صاحب صقلية. وصادف أن هاجم أسطول المرابطين مملكة روجر بقيادة علي بن ميمون فجزم روجر الثاني أن ذلك كان نتيجة لتحريض الحسن الصنهاجي، فعزم على مهاجمته واحتلال بلاده.

لم تكن الدولة الصنهاجية عندما هاجمها النورمان سوى بناء آيل للسقوط، فقد استقلت أطراف البلاد، وساد الأعراب في الداخل، وتكاثرت الثورات والحروب الداخلية، ولم يكن تحت تصرف الملك الصنهاجي إلا المهدية وأحوازها، أما بقية البلاد فنهبٌ مقسم، وأشلاء مبعثرة. وهكذا أتى الهجوم النورماني على إفريقيا (تونس) في ظروف ملائمة لفوزه ونجاحه.

وزيادة على ذلك فإن روجر الثاني انضم إليه (جرجير الأنطاكي) وهو رجل عاش في المهدية وخدم الصنهاجيين وتصرف في أموال دولتهم، وعرف ما فيهم من ضعف، فوضع روجر الثاني قيادة حملاته على إفريقيا بيد جرجير الأنطاكي، في الوقت الذي اعترف به البابا ومنحه لقب ملك. ومنذ سنة 517هـ ابتدأت حملات النورمان على السواحل الأفريقية، ففي نفس السنة جاء النورمان في أسطول كبير بقيادة جرجير الأنطاكي ونزلوا برأس الديماس (أمام قرية البقالطة قريبا من المهدية) إلا أنه وقع التغلب عليهم والفتك بهم فرجعوا منهزمين. ثم تتابعت حملات النورمان فاستولوا على جزيرة جربة سنة 529هـ. وفي سنة 537هـ خضعت لهم قرقنة وطرابلس الغرب وجيجل بالجزائر. وفي سنة 541هـ دخلت قابس تحت طاعة النورمان، وكذلك القرى الساحلية الصغيرة الواقعة بين شرشال وتنس من الجزائر، ثم جاء دور صفاقس وسوسة فاستسلمتا بدورهما.

وفي صفر سنة 543هـ (1148م) أرسى الأسطول النورماني أمام المهدية في ثلاثمائة سفينة، وكانت المهدية خالية من الجيش المدافع، إذ كان مشغولا بحرب قرب تونس، فاضطر الحسن بن علي إلى الانسحاب والخروج من المهدية، وبذلك تمت السيادة للنورمان على السواحل الأفريقية، وإن بقي آل خراسان في تونس، إلا أنهم كانوا يظهرون الخضوع والطاعة للنورمان.

ولم يجد الحسن الصنهاجي وسيلة ترجعه إلى مملكته وعرشه سوى الالتجاء إلى سلطان الموحدين عبد المؤمن بن علي واستصراخه لإنقاذ البلاد من الخطر النصراني.

وهكذا أصبح الموحدون محل الرجاء للمغرب الإسلامي، الذي اشتد عليه خطر النصارى في الأندلس والسواحل الأفريقية.

اختل أمر المرابطين بعد القرن الخامس الهجري اختلالا شديدا، فظهرت المناكر والاستبداد، واستولت النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور. وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور. وقنع سلطان المرابطين باسم «إمرة المسلمين» وبما يرفع إليه من الخراج.

وكانت هذه الحالة خير مساعد لانبعاث دعوة الموحدين ونجاحها، ففي مستهل القرن الخامس الهجري خرج محمد بن تومرت من السوس بجنوب المغرب الأقصى قاصدا المشرق طلبا للعلم والثقافة، فوصل إلى بغداد والتقى بأبي حامد الغزالي، ثم رجع فمر على الإسكندرية وتابع سيره إلى المغرب واجتمع في مراكش بسلطان المرابطين. وكان ابن تومرت يقوم بالوعظ والإرشاد أينما حل، وكثيرا ما أخرجه الحكام والولاة من مدنهم خوفا من تأثير دعوته. ثم ألقت به عصا التسيار في تينمل في جنوب المغرب، حيث تقطن قبيلة المصامدة البربرية الشهيرة، وأخذ ابن تومرت يدعو ويعظ حتى كثر أتباعه ومريدوه. ثم ادعى أنه المهدي المنتظر لخلاص الأمة مما هي فيه من فساد وانحلال أخلاقي، وسمى أتباعه بالموحدين والمؤمنين، وكان من أعظم أنصاره ومريديه عبد المؤمن بن علي الكومي. ولما اشتد ساعد الموحدين وتكاثرت جموعهم وأنصارهم أعلن محمد بن تومرت «المهدي» الحرب على المرابطين بقيادة عبد المؤمن بن علي.

في سنة 524هـ مات ابن تومرت فخلفه عبد المؤمن بن علي الذي أظهر براعة عظيمة في الحرب والتنظيم والدعاية، وشيئا فشيئا أخذ ظل المرابطين يتقلص، فاستولى عبد المؤمن بن علي على المغرب الأقصى بقضائه على المرابطين، وعلى المغرب الأوسط بقضائه على بني حماد الصنهاجيين في بجاية. وعظم شأن عبد المؤمن فجاءته البيعة من جهات مختلفة بالأندلس، وخصوصا اشبيلية.

ولما انسحب الحسن بن علي الصنهاجي من المهدية واستولى عليها النورمان ذهب مستنجدا بعبد المؤمن بن علي، فالتقى به في المغرب الأوسط، وما زال يغريه على إنقاذ إفريقيا من النورمان حتى استجاب لذلك، فتوجه آخر سنة 553هـ إلى تونس في جيش عظيم حسن الترتيب قوي العدة. وفي سنة 554هـ حاصر مدينة المهدية حصارا شديدا،

ولم يستسلم من بها من النورمان إلا بعد أكثر من ستة أشهر في عاشر المحرم سنة 555هـ (1160م) وبذلك خلصت له إفريقيا من طرابلس الغرب إلى المحيط الأطلسي.

ومنذ سنة 540هـ بعث عبد المؤمن بن علي بقائده أبي عمر بن سعيد إلى بلاد الأندلس، بعد أن اعترف أحمد بن قسي بمبادئ الموحدين ودعاهم إلى الأندلس، فأخذ الموحدون يتقدمون في الجزيرة. واتحد الإسبان الشماليون بقيادة الآذفونش قيصر فاستولوا على المرية سنة 542هـ (1147م) بينما كان ملك البرتغال الآذفونش هنريكيز «ابن الريق» يحارب المسلمين في الجنوب والغرب، فاستولى على مدينة اشبونة.

واستطاع الموحدون أن يتغلبوا على الإسبان بعد كفاح طويل، وأن يضموا إليهم جميع الأراضي التي استولى عليها النصارى إبان اضطراب الأندلس بعد ضعف المرابطين إلا مدينة أشبونة فقد استمرت عند البرتغاليين. وفي سنة 567هـ (1172م) استولى سلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن على بلنسية عاصمة ابن مردنيش حليف النصارى، وأصبحت الأندلس الإسلامية كلها تحت سيادة الموحدين. ومات السلطان يوسف بن عبد المؤمن في معركة شنترين سنة 580هـ (1184م) متأثرا بجراحه.

أما السلطان المنصور فقد كان شديدا على الإسبان. وقد جرت بينه وبينهم معركة الأرك (591هـ - 1195م) التي انتصر فيها الموحدون انتصارا عظيما وخسر فيها الإسبان عشرات الآلاف بين قتيل وأسير. واستطاع المنصور أن يصل إلى طليطلة ويحاصرها. واضطر ملك قشتالة الآذفونش النبيل إلى عقد هدنة وصلح مع الموحدين. وفي عهد السلطان المنصور بلغ الموحدون غاية مجدهم وعظمتهم في بلاد الأندلس.

وكان صلاح الدين - كما مر معنا - قد رأى أن يعزز جانبه بقوة الموحدين في المغرب الإسلامي بعدما استطاع تحقيقه في المشرق ضد الصليبيين، وبذلك تتضافر الجهود لرد الخطر الصليبي المشترك. وعلى هذا بعث صلاح الدين إلى السلطان المنصور سنة 580هـ رسالة يستنجد به فيها على الإفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد الشامية، وكان حامل الرسالة شمس الدين بن منقذ، فلم يجبه سلطان الموحدين لذلك، لا لشيء سوى لأنه لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين، واكتفى بقوله (إلى أمير المسلمين) فضاعت فرصة غالية لاتحاد المسلمين ضد الصليبيين في المشرق والمغرب، وكان التشبث بالنعوت والألقاب الجوفاء سببا في ضياع الصالح العام، بل إن سلطان الموحدين كان يفكر في غزو مصر واحتلالها.

ولم يستفد الموحدون من معركة الأرك كثيرا، فقد مات المنصور بعدها بقليل. واشتغل خلفه أبو عبد الله محمد الناصر بإخماد الثورات التي اندلعت عقب توليته، فلم يتغلب عليها إلا سنة 604هـ (1208م).

أما الآذفونش فإن هزيمته في الأرك جعلته يتحفز من جديد ويعقد المحالفات مع ملوك الإسبان، فلما استتب له الأمر وعظمت شوكته اندفع يغزو المناطق الإسلامية في الأندلس، حتى اضطر محمد الناصر سنة (607هـ - 1211م) إلى النزول بالأندلس قصد الحد من هجمات الآذفونش النبيل وأحلافه. وارتاع الآذفونش لهذا النزول، وخاف أن تتجدد الزلاقة أو الأرك فسعى جهده ليضم كلمة ملوك الإسبان. وأرسل إلى البابا «إينوسان الثالث» مستنجدا به. كما ذهب مطران طليطلة إلى فرنسا داعيا ومثيرا لحماسة المسيحيين.

وأعلن البابا في روما الصوم ثلاثة أيام، وصلى ودعا لانتصار الصليبيين في الأندلس. وكانت دعوة صليبية عنيفة استجاب لها نصارى أوروبا حتى غصت بهم مدينة طليطلة وفاضت نواحيها، فقد كان عدد الوافدين من خارج أسبانيا فقط يقارب المائة ألف. واستولى هذا الجيش العرمرم على قلعة «رباح» التي سلمها إليهم المسلمون مقابل الأمان من الأذفونش. واغتاظ الصليبيون عندما منعهم الأذفونش من قتل المسلمين الذين استسلموا في القلعة وقالوا له: «إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين. ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه» ورجع الكثير من هؤلاء الصليبيين إلى بلادهم.

وعمل السلطان محمد الناصر (سلطان الموحدين) على اجتناب لقاء الجيوش الصليبية، فلما علم برجوع أغلبهم تصدى لملاقاة الأذفونش. وفي (صفر 609هـ/ جويلية1212م) التقى بالأذفونش في مكان يعرف بالعقاب قرب حصن سالم. ولم يكن جيش الموحدين موحد القلوب - هذه المرة - ولا متقد الحماسة، فلم تغنه كثرته. وفي أول جولة في ميدان القتال انسحب الكثير من الجنود ودب الفزع والاضطراب في صفوف الموحدين، وأعمل فيهم الأسبان السيف فجندلوا منهم عشرات الآلاف. أما محمد الناصر فقد فر منهزما ناجيا من الموت.

واهتزت اسبانيا لهذا النصر واعتبرته أخذا بثائر الزلاقة والأرك. وأرسلت الهدايا والتحف إلى البابا. وجعل من يوم 16 جويلية عيد ظفر الصليب. واستقبل الموحدون -

بعد العقاب – عهد الضعف والتراجع والانحلال، فقد مات السلطان محمد الناصر عقب الهزيمة في شعبان سنة (610هـ) وبموته بدأ ضعف السلاطين الموحدين ونجمت بينهم الفتن.

نعم ساد الاضطراب أيضا مملكة قشتالة بعد معركة العقاب، إلا أن البابا تدخل في النزاع حتى تسود نصارى اسبانيا الوحدة، ويمكن القضاء على المسلمين. وما كانت سنة (628هـ/ 1230م) حتى تم التلاؤم والوفاق بين ممالك أرغونه والبرتغال وقشتالة، للإجهاز على الأندلس المسلمة واقتسامها.

ولقد تولى سلطنة الموحدين بعد محمد الناصر ابنه يوسف «المستنصر بالله» الذي كان أبن عشر سنوات..واستغل صغر سنه من طرف رجال الدولة والقواد وأصحاب المطامع، فكثر الارتشاء والاستبداد، واندلعت نيران الفتن في السلطنة الموحدية لاسيما في الأندلس. ومات المستنصر في العشرين من عمره، بدون عقب. وبموته أنشق بيت عبد المؤمن بن علي وتفرق شمله، فقد بايع المغاربة عبد العزيز بن يوسف بن يعقوب الأول، وثار ضده بالأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور وتسمى بالعادل، فدخل بذلك بنو عبد المؤمن في حروب أهلية كانت القاضية عليهم.

وقد كانت إفريقية (تونس) تابعة للموحدين تحت ولاية بني حفص، فلما تولى أبو زكرياء الحفصي هذه الولاية سنة626هـ، ورأى ما أصبح عليه الموحدون من ضعف وتقهقر، أعلن استقلاله عن الموحدين، وتأسست بها الدولة الحفصية.

وفي الجزائر (المغرب الأوسط) استطاع بنو عبد الوادي (بنو زيان) أن يكونوا إمارة خاضعة للموحدين على يد زعيمهم جابر بن يوسف. وفي سنة 633هـ تولى هذه الإمارة «يغموراسن» بن زيان فأعلن هو أيضا استقلاله. وجعل عاصمته مدينة تلمسان.

وكان بنو مرين من بداة البربر يقيمون في جهات بسكرة من البلاد الجزائرية. فلما هجم بنو هلال على إفريقية هاجر بنو مرين من هنالك، وألقت بهم عصا التسيار بجنوب المغرب الأقصى. وكان دخولهم إليه (سنة 610هـ) بزعامة كبيرهم «عبد الحق بن محيو» في الوقت الذي كان بداية لضعف الموحدين وتقهقرهم. ومنذ سنة 642هـ تولى أمر مرين «أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق» فاستولى على مدينة فاس وبايع أبا زكرياء الحفصي صاحب تونس. وعظم شأن بني مرين لما تولى أمرهم يعقوب بن عبد الحق، فاستولى على مراكش سنة 668هـ وتغلب على آخر سلطان للموحدين، وقضى عليهم نهائيا.

وكان من المتحتم أن تثور الأندلس ضد الموحدين عندما انتابهم الضعف ونالهم الانقسام. وكانت الممالك النصرانية تنتظر بفارغ الصبر ظهور الاضطراب في الأندلس، خصوصا قشتالة وأرغونه، فكانتا تحرضان على الثورة وتغريان على الانتقاض. وذرت قرون الفتنة وعادت الأندلس من جديد إلى الانقسام والتشتت. وكان من أبرز هؤلاء الثوار - أبو عبد الله محمد بن يوسف (من سلالة بني هود أصحاب سرقسطة) فاستولى على مرسية وجيان وقرطبة وماردة وبطليوس. وعظم شأن ابن هود حتى أن المأمون سلطان الموحدين تحالف مع الأسبان ضده.

وثار بشرق الأندلس زيان بن أبي الحملات بن مردنيش. واتخذ مدينة بلنسية عاصمة له. ومن هؤلاء الثوار أيضا محمد بن الأحمر الذي أصبح له فيما بعد شأن بتأسيسه مملكة غرناطة.

حركة الاسترجاع

أصبحت كلمة «الاسترجاع» ذات مدلول تاريخي خاص في تاريخ الأندلس الإسلامية، فقد عمل الأسبان منذ الفتح الإسلامي على استرجاع الأراضي الاسبانية التي فتحها المسلمون. إلا أن هذه الحركة لم تأت بنتائجها الحاسمة إلا منذ عصر ملوك الطوائف.

وازدادت هذه الحركة استفحالا بعد اضمحلال الموحدين، وعدم وجود دولة قوية في المغرب الإسلامي تستطيع إنقاذ الأندلس من الخطر، كما فعل المرابطون والموحدون من قبل.

في هذا الوقت العصيب على المسلمين بالأندلس اتحدت نوايا ممالك إسبانيا النصرانية على مهاجمة الإمارات الإسلامية، فقد جعل خايم الأول ملك أرغونه هدفه إمارة بلنسية، فأخذ يكيل لها الضربات ويشن عليها الغارات حتى استسلمت سنة 636هـ (1238م) رغم محاولة إنجادها من أبي زكرياء الحفصي. وتتابع سقوط مدن هذه الإمارة الواحدة بعد الأخرى، وانتهى أمرها بطرد جميع المسلمين الموجودين هناك، فالتجأوا إلى غرناطة بجنوب الأندلس.

أما فرديناند الثالث ملك قشتالة فكان هدفه الوسط والجنوب حيث يوجد محمد بن هود في غرناطة وقرطبة، ومحمد بن الأحمر في جيان ووادي آش. أما اشبيلية فكانت تحت سيادة بعض أمراء الموحدين.

وابتدأ فرديناند بقرطبة، وبعد حصار طويل بدون مدد من الخارج استسلمت عاصمة بني أمية إلى ملك قشتالة سنة 633هـ (1236م) وخرج أهلها فارين إلى الجنوب. ولما مات محمد بن هود ضم محمد بن الأحمر إليه مدينة غرناطة وما حولها في جنوب الجزيرة، وعظم نفوذه في تلك النواحي، وأصبح ملجأ للمسلمين الفارين من مطاردة الإسبان. وخشي فرديناند من نفوذ ابن الأحمر وتجمع الهاربين عنده، فبادر بالتوجه إليه وتسديد ضرباته نحوه. وكان حرص ابن الأحمر على سلامته وتكوين مملكته دافعا به إلى الاتفاق مع فرديناند ومصالحته. وتم ذلك سنة 643هـ (1246م) على أن يسلم إلى فرديناند مدينة جيان، وأن يعترف بسيادته العليا مقابل الإبقاء على مملكته. بل الأنكى من ذلك دخول ابن الأحمر مع فرديناند في حلف ضد بقية الأمراء المسلمين بالأندلس.

وعلى أساس هذا التحالف المخجل اتجه فرديناند بهجماته إلى اشبيلية، وقد تمثلت في هجومه وحدة ملوك إسبانيا ضد المسلمين، إذ كان في جيشه وليا عهد البرتغال وأرغونه، وحاصرت الجيوش الإسبانية مدينة اشبيلية، واستمر الحصار ثمانية عشر شهرا أبدى فيها المسلمون ضروبا من الصبر والشجاعة دون مدد وارد، ولا إعانة مساعد، مما جعل صبرهم ينتهي بعد هذا الثبات الطويل، فاستسلمت المدينة سنة 646هـ (1248م) وخرج من فيها من المسلمين ملء العين دمعا والقلب حسرة، وتابع فرديناند زحفه حتى وصل إلى قادس.

أما مملكة البرتغال فكان نصيبها الأراضي الإسلامية التي بقيت بغرب الأندلس، وبذلك ضاع غالب الأندلس من المسلمين، ولم تبق إلا غرناطة وما حولها تحت سيادة محمد بن الأحمر.

ولا تمثل مملكة غرناطة سوى رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة أيبيريا، تمتد من ألبيرة شرقا إلى رندة غربا، وهي محصورة بين الوادي الكبير والبحر الأبيض المتوسط في مسافة يبلغ عرضها مرحلة واحدة. وتتمثل أهمية هذه المملكة الصغيرة في اعتبارها امتدادا لوجود الإسلام بالأندلس من ناحية، ولكونها أصبحت ملجأ للمسلمين الفارين من مختلف النواحي التي استولى عليها نصارى الإسبان. كما أنها من ناحية أخرى تعتبر مظهرا ممتازا من مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس إذ التجأ إليها غالب مهرة المسلمين وحذاقهم في مختلف الفنون والصناعات.

واستمرت هذه المملكة قائمة الذات أكثر من قرنين ونصف 635-897هـ، واختلفت علاقاتها مع الممالك النصرانية، إلا أنها كانت تدين غالبا بالطاعة لمملكة قشتالة.

وكانت سياسة سلاطين هذه المملكة الاستنجاد بملوك المغرب، لاسيما سلطنة بني مرين بالمغرب الأقصى، كلما داهمهم الخطر الإسباني، رغم أن بني الأحمر كانوا شديدي الحذر والخوف من استيلاء بني مرين عليهم. وكان من أعظم سلاطين بني مرين اتصالا بالأندلس السلطان المنصور الذي عبر إلى الأندلس أربع مرات ووصلت جيوشه إلى مدينة طليطلة، وأجبر ملك قشتالة على الرضوخ إلى الصلح، والتعهد بعدم التعرض للمسلمين، وكان ذلك سنة 684هـ.

وفي عهد سلطان غرناطة «أبي الحجاج يوسف» اتحدت ممالك إسبانيا الثلاث على مهاجمة مملكة غرناطة، فاستنجد أبو الحجاج بسلطان بني مرين «أبي الحسن» فعبر هذا الأخير إلى الأندلس بجيوش عظيمة، ولكن انهزم المسلمون هزيمة كبيرة استولى فيها النصارى على حريم السلطان المريني الذي فر هاربا إلى المغرب. واعتصم أبو الحجاج يوسف في حصونه، واستولى الإسبان على الجزيرة الخضراء وطريف، وكانت هذه المعركة من أشد ما نال المسلمين بعد وقعة العقاب، وقد جرت هذه المعركة سنة 771هـ (1340م) واشتهرت باسم معركة طريف.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري دخلت سلطنة بني مرين في الفوضى والاضطراب، فقل المدد الذي كانوا يرسلونه نجدة إلى مسلمي الأندلس، وهو وإن لم يكن مددا فعالا إلا أنه على كل حال كان يحد من خطر الإسبان نوعا ما، وبانقطاع ذلك المدد جابهت مملكة غرناطة الخطر الإسباني بمفردها، واستمرت بكفاحها إلى أن تسرب إليها الضعف والاضطراب.

ولقد بدأ ضعف سلطنة غرناطة بموت السلطان يوسف بن الأحمر (827هـ - 1424م) وكانت مملكة قشتالة تذكي نيران الفتن والدسائس والمنافسات بين بني الأحمر، فكانوا يتبعون هواهم، وينخدعون للباطل، ويدوسون المصلحة العامة سعيا وراء مطامعهم وأغراضهم الزائلة. وازداد الضيق على مملكة غرناطة باستيلاء قشتالة على جبل طارق (868هـ - 1462م) وهو معبر النجدات الواردة من المغرب الأقصى.

وسنة 871هـ (1466م) تولى سلطنة غرناطة علي أبو الحسن (الغالب بالله) فثار ضده أخوه أبو عبد الله محمد (الزغل) حليف هنري الرابع ملك قشتالة. واستمرت الحروب والمنازعات بين الأخوين حتى استقر بهما الأمر على اقتسام هذه المملكة الصغيرة: غرناطة ونواحيها للغالب بالله، ومالقة ونواحيها لأبي عبد الله الزغل. وهكذا تعاون

الأخوان على زيادة الضعف والاختلال، ولم يعلما بأن ذلك كان تمهيدا للحدث الأعظم على الإسلام بالأندلس.

وقد كان لحالة الاسبان النصرانية أثر كبير على مجرى الحوادث في الأندلس المسلمة، ففي زمن اضطراب هذه الممالك أو ضعفها تقل هجمات الإسبان ويخف الضغط على المسلمين، أما إذا سادها الاتحاد فإن ضغطها يشتد وخطرها يعظم.

ولما مات هنري الرابع ملك قشتالة، ورثت أخته إيزابيلا عرش المملكة، وكانت قبل ذلك قد تزوجت بفرديناند (ابن عمها) ولي عهد مملكة أرغونه، واشترطت عليه في عقد هذا الزواج أن يتعهد بمحاربة المسلمين، حتى إذا كانت سنة 884هـ (1479م) مات يوحنا الثاني ملك أرغونه فأصبح فرديناند ملكا على أرغونه وقشتالة معا. وكان هذا من أعظم الأحداث التي أصيب بها المسلمون في الأندلس، إذ أصبحوا هدفا لمملكة قوية متحدة بني اتحادها على محاربة المسلمين، وإخراجهم من الأندلس، خصوصا بعد أن أصبحوا في شقاق واضطراب، وانقطع المدد عنهم بزوال دولة بني مرين من المغرب الأقصى واستيلاء بني وطاس الذين لم يكونوا من القوة التي تمكنهم من أن ينجدوا المسلمين بالأندلس وينقذوهم من الخطر.

استهدفت غرناطة للخطر الماحق بعد اتحاد قشتالة وأرغونه، وقد أصبحت في أتون من الفوضى من جراء سلوك السلطان أبي الحسن (الغالب بالله) الذي حيكت في قصره الدسائس والمؤامرات، خصوصا بين زوجتيه عائشة الحرة وثريا الإسبانية، فقد كانت ولاية العهد لأبي عبد الله محمد (ابن عائشة) فعملت ثريا على إقصاء عائشة وولديها وزجت بهم في ظلمات السجن حتى تخلص ولاية العهد لابنها. واستطاعت عائشة الحرة أن تفلت من السجن مع ولديها، وأن يتزعم ولدها الأكبر (أبو عبد الله محمد) مقاومة والده المشغول بمحاربة قشتالة، وأمكن لهذا الولد العاق أن يتغلب على أبيه، ويستولي على غرناطة سنة 887هـ. أما أبوه فقد التجأ إلى مالقة عند أخيه أبي عبد الله الزغل.

ويجزم فرديناند أن أخطر أعدائه هو أبو عبد الله الزغل، ولهذا السبب اتجه بقواته صوب مالقة، إلا أن الزغل استطاع أن يثبت أمام هجمات فرديناند الخامس رغم الخسائر الفادحة، وحاول أبو عبد الله محمد محاربة القشتاليين إلا أنهم أسروه سنة (888هـ - 1483م) واحتفظ به فرديناند رغم الفداء الكبير الذي بذل له، وذلك ليضرب به الضربة القاضية فقد جهزه لمحاربة عمه الزغل بقوات عديدة واستطاع أن يستولي على غرناطة

سنة 892هـ (1487م) في السنة التي استولى فيها فرديناند على مالقة بعد أن ثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر.

وأخذت مدن الزغل تسقط الواحدة بعد الأخرى، وأبدى الزغل وصحبه تفانيا عجيبا في المقاومة والثبات، وأوقعوا بالإسبان عديدا من الوقعات وأبدوا في مقاومة الحصار ما يفوق الوصف خصوصا في بسطة ومالقة. ولكن طول الأمد وقلة المدد أنهيا هذه المقاومة باستسلام الزغل إلى فرديناند سنة 895هـ (1490م) بينما كان أبو عبد الله محمد صاحب غرناطة في هدنة مع ملك قشتالة!.

بقي أبو عبد الله محمد صاحب غرناطة، الأمير المسلم الوحيد بالأندلس، وقد سعى بتصرفاته الشاذة إلى أن يكون بطل المأساة المبكية (مأساة نهاية الإسلام بالأندلس). ولم يكن فرديناند الخامس يهادنه أو يساعده إلا ليستعين به على إخضاع عدوه الألد أبي عبد الله الزغل. ولهذا فما إن استراح ملك إسبانيا منه حتى طلب من أبي عبد الله تسليم مدينة غرناطة. وارتاع آخر بني نصر، وأيقن أنه سعى إلى حتفه بظلفه، فصمم على الامتناع، ومن ورائه الغرناطيون، فاستعدوا للدفاع. وأقبل فرديناند بجيوشه قاصدا غرناطة، ولكنه وجد مقاومة جبارة من هؤلاء الذين أصبحوا في دائرة ضيقة لا مخرج لهم منها إلا إلى الفناء أو المذلة الدائمة. وأعاد الإسبان الكرة في جيش لجب وأحكموا الحصار على الغرناطيين وأشاعوا الخراب والعيث في جنانها الغناء فأصبحت خرابا، وصمد المسلمون وصبروا. ولكن طول الحصار ونفاد الذخيرة، وتفشي الجوع والمرض أجبرهم على الاستسلام والخضوع لإرادة الطاغية فرديناند الكاثوليكي، واتفق أن يكون تسليم غرناطة في الثاني من ربيع الأول سنة 897هـ (1492م).

وجاء فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيان إلى غرناطة، ودخلتها الجيوش الإسبانية في مظهر صليبي رهيب. وغادر أبو عبد الله محمد عاصمته غرناطة إلى الأبد. وانقرض بذلك آخر مظهر للسيادة الإسلامية بالأندلس بعد ثمانية قرون منذ فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير.

كانت وثيقة تسليم غرناطة تشتمل على 67 شرطا تضمن احترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وحريتهم وأمنهم وسلامتهم، والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج إلى الديار الإسلامية. وكان من جملة شروط هذه الوثيقة أن يصادق البابا على جميع هذه الشروط، ومن جملتها أن يترقب المسلمون سبعين يوما عسى أن تأتيهم نجدة أو مدد من الخارج.

ولكن لم تكن هناك دولة إسلامية قوية أو ذات غيرة وحمية تستطيع إنقاذ الغرناطيين من سوء المصير. هذا زيادة على إحكام الإسبان للحصار البحري حتى لا يتسرب أي مدد أو أية معونة لمسلمي غرناطة.

لم يتظاهر الإسبان في أول الأمر بالشدة بعد استسلام غرناطة. وكان لشرط اختيار الهجرة أن رحل الكثير من المسلمين إلى الشواطئ الأفريقية فرارا بدينهم وعزتهم. وكانت إسبانيا في أشد الحاجة إلى بقاء المسلمين؛ ورثة الحضارة وعصارة الفنون المختلفة التي عاشتها الأندلس طوال القرون الإسلامية العديدة.

ولكن تبعا للتعصب الديني والحقد الجنسي، واستجابة لتحريض الكنيسة، وخصوصا مساعي الكاردينال كيمناس لدى الملكة إيزابيلا، فقد نقضت شروط الأمان التي منحت للمسلمين مقابل تسليم غرناطة، فبدأت الدعوة إلى تنصير المسلمين بطريق الوعظ والاختيار، ثم كانت الطامة الكبرى عام 905هـ (1499م) عندما صدر قانون بتنصير المسلمين جبرا وتحريم إقامة شعائرهم الدينية وإغلاق المساجد. وعمد الكاردينال كيمناس إلى الكتب الإسلامية الموجودة بغرناطة فأحرق منها مئات الآلاف، ولم يبق منها إلا ثلاثمائة كتاب في الطب.

وفي عام 907هـ (1501م) منع وجود الإسلام والمسلمين في إسبانيا، إذ أصبح وجودهم يعتبر خطرا على الدولة الكاثوليكية، ومنعوا من حمل السلاح بأي وجه كان. وكان نتيجة لهذا الضغط الجديد أن ثار المسلمون بجبال البشرات فاستعمل الإسبان ضدهم كل وسيلة لقمع الثورة، واستعان الثوار بالسلطان العثماني بايزيد الثاني ولكنه كان مشغولا بالاستعداد لغزو سلطنة المماليك بمصر والشام!!

وفي عهد الإمبراطور شارلكان صدر قانون بإكراه الموريسكو على ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزي الإسباني، ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات، وحظر عليهم التكلم بالعربية، كما أوجب الإسبان عليهم تبديل أسمائهم العربية بأسماء إسبانية. ثم حولت جميع المساجد إلى كنائس مسيحية في عهد فيليب الثاني، وتنصير من بقي على دينه من المسلمين أو أن يخرج من إسبانيا في مدة معينة، وإلا كان مصيره العبودية طول الحياة.

وكان هذا الضغط الجديد موجبا لاندلاع ثورة أخرى في جبال البشرات من جانب الموريسكو في عام 976هـ (1568م) بقيادة محمد بن أمية «اسمه الإسباني هرناندو

دوفلور» وأمكنه أن يضم إليه جهات البشرات، واستفحل أمره وعظم خطره. ولكن الإسبان أعانوا على تدبير مؤامرة ضده فاغتيل من بعض أتباعه، فتولى بعده «عبد الله بن أبوه» إلا أن اتجاه إسبانيا الكلي إلى هذه الثورات، وعدم وصول أي مدد إلى الموريسكو جعل الإسبان يتغلبون عليهم، مستعملين معهم كل وسيلة للتعذيب والتنكيل والإرهاق، فقضوا على الثورة بعد طول كفاح. وكانت تلك آخر محاولات الموريسكو للتخلص من النير الإسباني. ولم يكن الموريسكو بجهات بلنسية أقل انتفاضا وثورة من إخوانهم في جبال البشرات.

وعندما اعتلى عرش إسبانيا فيليب الثالث جرت في عهده المأساة الأخيرة لبقايا المسلمين الموريسكو في الأندلس، فقد كانت الاضطهادات المتواصلة تجبر المتنصرين على الثورات ومتابعتها، وكانت الكنيسة دائمة التحريض على الفتك بهم وعدم الاغترار بادعائهم النصرانية. وما زال أسقفا بلنسية وطليطلة يثيران غضب فيليب الثالث ضدهم حتى استجاب لذلك، وعقد مجلس ديني كبير بإشارة البابا، ثم تعددت المجالس حتى صدر أمر النفي والجلاء في 22 سبتمبر 1609م (1017هـ) وحشدت لهم السفن من مختلف الجهات، فذهب البعض إلى فرنسا وإيطاليا (شرط الاستمرار على الكاثوليكية) وذهب البعض الآخر إلى مصر والآستانة، ولكن الأغلبية الساحقة منهم نقلوا إلى المغرب العربي خصوصا البلاد التونسية. وكان عددا عظيما جدا هؤلاء الذين أصابهم النفي والجلاء، أوصله بعضهم إلى عدة ملايين، هلك منهم أثناء عملية النفي ما يفوق المائة ألف بين أسير وقتيل. وعلى هذه الصورة المرعبة انتهى أمر المسلمين بالأندلس. وما جنت إسبانيا – بعملها هذا – على الموريسكو فقط بل جنت على نفسها أيضا أعظم جناية. يقول غوستاف لبون: «ومما يرثى له أن حرمت إسبانيا عمدا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية، ثم رأت محاكم التفتيش أن تبيد كل نصراني ترى فيه شيئا من النباهة والفضل. وقد كان من نتائج تلك المظالم المزدوجة أن هبطت إسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط، بعد أن بلغت في أيام العرب قمة المجد، وأن انهار كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب».

الفصل العاشر

نتائج الحروب الصليبية

تأثير الحضارة الإسلامية على أوروبا

لم تكن الحضارة وقفا على أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب. وإنما هي جهود متضافرة متتابعة لكل أمة فيها عمل ونصيب، ولكل حضارة من الحضارات حلقة في سلسلة التمدين والعمران.

والذي لا مراء فيه أن الشرق هو أصل الحضارات والمدنيات لأنه موطن البشرية الأول، ثم تفرعت وتفرقت في سائر الأقطار والأصقاع. ومن هذه الناحية كان الشرق أسبق الجهات الأخرى للمدنيات القديمة والحضارات الغابرة، وكان مهبط الأنبياء والمرسلين، ومصدر الاتصال بين الجانب الإلهي والجانب الإنساني.

وعندما بزغت شمس الحضارة الإسلامية إلى الوجود كان العالم في فترة خمود وسكون وانحلال واضطراب، وتكاد معالم الحضارات السابقة تنسى وتتلاشى ولم يتبق منها إلا هياكل جوفاء أو رسوم بالية، فقد ذهب لبابها وأخذ البشر يلوك قشورها في شيء من الجمود والعجز عن التقدم بها نوعا ما.

وكان ظهور الإسلام في إبانه حتى لا تندثر معالم الحضارات القديمة، محييا لها، مجددا لمعالمها، مشاركا في تنميتها وربط صلة الماضي السحيق بالمستقبل الباهر.

وسرعان ما ازدهرت الحضارة الإسلامية فتلقفت بقايا حضارات الهند والفرس واليونان والرومان، بحثت عنها في كل مكان، وترجمت أصولها، وهضمت مبادئها وزادت فيها، ونقحت منها. ثم ابتكرت وابتدعت، مما ساعد على القفز بالحضارة إلى رتبة عليا ومقام محمود.

لقد كان انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية يوجب التصادم مع القوى والدول السائدة آنذاك بسبب ممانعة تلك القوى في قبول الإسلام. وكانت أهم تلك القوى الدولة الفارسية في الشرق، والإمبراطورية البيزنطية في الغرب. وقد استطاع الإسلام أن يتغلب على الفرس بسهولة، فدخلت بلاد فارس في حظيرة الإسلام، وأصبح لها مقام محمود في الجامعة الإسلامية، ومشاركة عظيمة في مدنية الإسلام، مع تأثير واضح في الجانب الآخر - السلبي - من دخول الحركات الشعوبية وغيرها بهدف تحطيم دولة الإسلام. أما القوة الرومية البيزنطية فقد أخذ الإسلام يزحزحها عن مراكزها في آسيا وأفريقيا.

وكان الصراع الإسلامي مع القوات البيزنطية يمثل أيضا الصراع الإسلامي مع القوات المسيحية في أفريقيا وآسيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ومناطق هذا الصراع تعتبر من ناحية أخرى مسالك الحضارة الإسلامية إلى القارة الأوربية.

وتتمثل أهم مسالك الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في:

1- الأندلس.
2- صقلية.
3- الحروب الصليبية.
4- طريق القسطنطينية.
5- الاتصالات التجارية بين الشرق والغرب.

وكان لكل مسلك نصيب وافر في نقل معالم الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

وإذا كانت الحروب الصليبية قد امتدت لقرنين من الزمن، احتك أثناءهما الغرب بالشرق، فإنه لا مجازفة إذا قيل: إن الحروب الصليبية كانت من أبرز تلك المسالك، ومن أكثرها نقلا لحضارة الإسلام إلى قارة أوروبا وشعوبها.

ما استفادته أوروبا من الحروب الصليبية

أولا - الخبرة وتصحيح المعلومات واتساع النظر

كانت الأمية ضاربة أطنابها في شعوب أوروبا عندما تحركت هذه الشعوب إلى الحروب الصليبية. وكان الغالب منهم لا يتصور من العالم إلا المحيط الذي يعيش فيه، ولم تكن لهم معلومات ولا صور صحيحة عن بلاد الشرق وعن المسافة التي تفصل بينهم وبينه، وحتى عن المناطق والأقطار التي يجب عليهم اجتيازها وسلوكها، فكان من أهم ما

استفاده هؤلاء الصليبيون الخبرة والمشاهدة وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع الإسلامي وبلاد الشرق.

وقد رجع آلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة. فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصّوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ود ووفاء وفضل ومجاملة. ولم تجد أوروبا في الحروب الصليبية سبيلا للاتحاد الداخلي فحسب ومؤثرا جديدا في شتى مرافقها الداخلية، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة. وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر أكبر ما اكتسبته من الحروب الصليبية إذا أضفنا إليه روح الكشف وتقدم الجغرافيا.

وقد وجد الصليبيون أنفسهم أمام حضارة إسلامية ذات إشعاع عظيم، فبهرهم هذا الإشعاع، ولمسوا التفوق السياسي والتنظيم الاجتماعي عند العرب، فعادوا يحملون انطباعاتهم وينشرون الدعوة إلى إصلاح شامل يبدأ بتحرير الفكر وبتسهيل التبادل المادي والفكري، ويصون الحرية الفردية، ويكفل للرعية الرفاهية والطمأنينة.

ثانيا- التسامح

الدين الإسلامي دين تسامح، لا يجبر الناس على الدخول فيه، ولا يجعل من الاختلاف في العقيدة موجبا للظلم والاعتساف، فهو الذي أقر قاعدة (لا إكراه في الدين) و (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ولم يكن المسيحيون يعرفون صفة التسامح السامية في العقائد إلا في العصور الأخيرة.

وإذا كان التعصب يصاحب الجهالة والجمود الفكري، فإن الصليبيين عندما هاجموا العالم الإسلامي كانوا مشبعين بروح التعصب المقيت، لا يصدهم عن التنكيل بالمخالفين لهم في الدين أي شيء. وكانوا يعتدون على أي شخص تمكنوا منه، كبيرا كان أو صغيرا، رجلا كان أو امرأة، سواء كان مقاتلا أو مسالما.

وقد بدا تعصب الصليبيين وقسوتهم البالغة في مذبحة المسجد الأقصى التي قتلوا فيها ما يزيد على السبعين ألفا ممن التجأ إليه من ضعاف المسلمين والمسالمين. وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين الأيوبي عندما استرجع بيت المقدس، فقد منع الاعتداء

على أي صليبي بعد أن استسلمت الحامية الصليبية في القدس وتم منحها الأمان، وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الإسلامي فوصلوا آمنين إلى مدينة صور.

ولما مرض الملك الانجليزي قلب الأسد بعث إليه صلاح الدين طبيبه الخاص ورفه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج. وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الصادر عن أعدائهم المسلمين نحوهم، ومن هذه الرحمة التي يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذين مسهم الجوع أو أضنتهم الجراح وأقعدهم العجز، وكيف أن المسلمين لم يستغلوا العجز لإكراههم على الإسلام، بل لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سببا في التجاء الكثير من الصليبيين إلى المسلمين والدخول في الإسلام.

والواقع أن الصليبيين كانوا في غاية التعصب وعدم احتمال أي نوع من الشفقة مع المسلمين. ولكن هؤلاء الصليبيين إذ اختلطوا بالمسلمين واتصلوا بهم بدا منهم التسامح والاعتدال في معاشرة المسلمين. فقد أجبرت العواصف أسطولا صليبيا قادما من انجلترا وفلاندر على الرسو بموانئ البرتغال، وأظهر هؤلاء الصليبيون غاية القسوة مع المسلمين واليهود الذين كانوا تحت حماية نصارى البرتغال بمدينة أشبونة. كما أن الصلح الذي عقده مسلمو مدينة شلب مع الملك صانشو لم يرض هؤلاء الصليبيين حيث لم يبقوا من سكان المدينة سوى ثلاثة عشر ألفا، أما بقية الستين ألفا فقد كانوا ما بين قتيل وأسير.

ويذكر أسامة بن منقذ أنه زار بيت المقدس، والقدس إذ ذاك عند الصليبيين، فأفرد له فرسان الداوية زاوية ملحقة بالمسجد الأقصى ليصلي فيها، فاغتاظ لذلك أحد الصليبيين الحاضرين، من الذين كانوا قد قدموا حديثا إلى بلاد الشام، وتدخل في الأمر مما ساء فرسان الداوية الذين طال مكثهم في بلاد الإسلام وزال عنهم ما كان عندهم من تعصب ديني.

وأثر الحروب الصليبية في أخلاق المسيحيين الصليبيين الذين اختلطوا بالمجتمع الإسلامي له صور عديدة ذكر الكثير منها ابن جبير في رحلته وأسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار».

ثالثا- الناحية السياسية والقومية

لعله من أصدق القول إذا قيل: إن أوروبا في عصورها الوسطى لم تجتمع على هدف معين مشترك، هز شعوبها، وعم جميع طبقاتها، مثلما اجتمعت على الحروب الصليبية، فقد

كانت الحمية تشمل جميع الطبقات تدفعها الأغراض المختلفة والدواعي المتنوعة، ولكنها كانت تحت هدف واحد هو الاتجاه إلى المشرق، وقتال المسلمين تحت راية الصليب. وكانت الدعاية تصل إلى كل أذن، وكان الإحساس المتدفق والشعور الملتهب يشمل كل من وصلته الدعاية أو استمع إلى الدعاة، واتصل بالعالم الخارجي بعد أن كانوا منعزلين عنه.

وكانت أعظم العلل التي تفتك بالممالك والقوميات الأوربية في العصور الوسطى هي النظام الإقطاعي القاسي، الذي كان شوكة في حلق الملوك. فقد كان الإقطاعيون يمثلون ملوكا بجانب الملوك. وكانت إقطاعياتهم تمثل دولا وسط الدولة، وقد نعت بعضهم أوروبا في ذلك الزمن بأنها عبارة عن ممالك عديدة صغرى تبلغ الآلاف. وكانت الشعوب الأوربية تحت تصرف وحكم هؤلاء الإقطاعيين، يحكمونها حكم العسف والإرهاق والإذلال. وكان للحروب الصليبية أثر حسن على الملوك والشعوب معا، فقد سيطرت على كثير من الإقطاعيين فكرة تكوين الممالك والإمارات في بلاد المشرق، فأخذوا يجهزون الجيوش والمعدات الحربية لسفر طويل شاق، وفي سبيل ذلك كانوا يبيعون المدن والقرى لأفراد الشعب المضطهد، فأخذت هذه الطبقة الدنيا تستنشق نسيم الحرية والانطلاق، وتتذوق لذة امتلاك الأراضي والعقارات.

ولم تكن استفادة الملوك أقل من ذلك، فقد كان نفوذهم يقوى ودائرة تصرفهم الفعلي تتسع شيئا فشيئا بقدر ضعف النظام الإقطاعي. وكانت قوة الملوك وضعف الإقطاعيين من أهم أسباب ظهور القوميات واتحاد الممالك في أوروبا.

رابعا- التشريع والإصلاح

كان نفوذ الكنيسة سائدا في العصور الوسطى، وأثناء الحروب الصليبية ازداد هذا النفوذ زيادة عظيمة، وأصبح للبابوية سلطة نافذة على الملوك وطبقات الشعب، وأثرت الكنائس ورجالها إثراءا فاحشا، مما دعا رجالها إلى الانغماس في الترف والإغراق في الشهوات. واشتهر الكثير منهم بالتفسخ الأخلاقي، مما دعا مفكري أوروبا فيما بعد إلى الثورة على الكنيسة، واندلاع حركة الإصلاح الديني.

وكان ملوك انجلترا وألمانيا أول الثائرين على الكنيسة، وهي البلاد التي كان لها ملوك وأمراء أقاموا بالمشرق زمن الحروب الصليبية، وإن فصل الدين عن الدولة في العالم المسيحي، الذي يعتبر من أهم الإصلاحات في نظر الأوربيين، كان من آثار رؤية المسيحيين

لفقدان سلطان علماء الدين المسلمين على الملوك، فلقد رأوا ذلك سواء في الأندلس أو في الحروب الصليبية. كما أن دستور انجلترا المتين يعتبر كنتيجة بعيدة وأثرا من آثار الحروب الصليبية. وتعتبر الإصلاحات التي أدخلها لويز التاسع في مملكته (فرنسا) نتيجة لمشاهداته التي رآها بمصر والشام عندما ذهب إلى المشرق متزعما الحملة الصليبية السابعة. أما فريدريك الثاني ملك صقليا وإمبراطور ألمانيا، الذي يعتبر أعظم ملوك أوروبا تشبعا بالحضارة الإسلامية واحتذاء لها، والذي قاد الحملة الصليبية السادسة، فإنه أول من أسس جامعة علمية بأوروبا (جامعة نابلي) وأول من أسس مجلسا نيابيا ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكاليف، وأيد سيطرة القانون على جميع الطبقات وأطلق حرية العقائد كافة، وأصدر قانونا بالإسعاف الدولي للفقراء. وقد رتب أمور الدولة ترتيبا أجمع المؤرخون على أنه كان حجر الأساس في تكوين الدول الحديثة، وأسس الدواوين المختصة وفصل بين السلطة القضائية والمالية والتشريعية، التي كانت من خصائص الملك وحده، وقضى على سلطة الكهنوت. ولعل تشبع فريدريك الثاني بالأفكار الإصلاحية ومحبته للثقافة الإسلامية وتقليدها هو ما دعا البابا إلى حرمانه والحكم بإلحاده.

خامسا - الطب

ظلت أوروبا في عصورها الوسطى وزمن الحروب الصليبية خاضعة للنفوذ الكنسي والسلطة البابوية. وكانت الكنيسة متسلطة على الشعوب الأوربية وطبقاتها المختلفة، تفرض عليهم القوانين التي يتقبلونها مهما كان نوعها. وحرمت الكنيسة الغربية الاستحمام، وحظرت فتح الحمامات بعد أن كانت شائعة في الدولة الرومانية، وربما اتخذت غلق الحمامات عقابا تعاقب به أعداءها.

وكانت الكنيسة الغربية تحرم الطب وصناعته، لأن المرض ـ من وجهة نظرها ـ عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجورا عليه إلى ما بعد استهلال القرن الثاني عشر للميلاد.

وكانت طرق المعالجة عند الصليبيين الذين وردوا إلى المشرق بدائية تعتمد على الرقى والتعاويذ، أو على أساليب في غاية الفظاظة والقسوة. وقد ذكر أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» صورا من هذه المعالجات الوحشية التي يعالج بها الصليبيون مرضاهم، وكان الصليبيون تبهرهم أساليب المعالجة الإسلامية ويقتنعون بصلاحها ووجوب الأخذ بها.

ونتيجة لاختلاط الصليبيين بالعالم الإسلامي واطلاعهم على أساليب العلاج والتداوي بدأت تظهر دور المعالجات والبيمارستانات وطرق العلاج الصحيحة في أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وكان نصارى الشرق، غير الصليبيين، قد انضموا إلى هؤلاء النصارى الذين كانوا يعيشون بالمشرق تحت السيادة الإسلامية. وكان هؤلاء النصارى يؤلفون أغلب الأطباء والصيادلة في الجيش والمعسكرات الصليبية، كما كانوا يضطلعون بأعباء الترجمة في مختلف الدواوين.

واشتغل بعض الصليبيين بنقل الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية، فقد اشتغل برنارد سلفستر وفيليب الطرابلسي بالنقل من العربية إلى اللاتينية، ونقل اصطفان الأنطاكي حوالي سنة 1127 م كتاب «الملكي» في الطب لعلي بن العباس ابن المجوسي.

سادسا- التجارة، الرفاهية، البناء

لعل من أعظم ما استفادته أوروبا من الحروب الصليبية ذلك النشاط التجاري الذي حصل بين الشرق والغرب، وذلك التقدم في الملاحة البحرية وتحسين وسائلها ومقوماتها، لاسيما استعمال الإبرة المغنطة (البوصلة) التي شاع استعمالها في السفن العربية ونقلها عنهم ملاحو البحر الأبيض المتوسط الأوربيون، ثم شاعت شيئا فشيئا عند بقية الملاحين الأوربيين.

وكانت السفن الصليبية التي ترد من جنوب أوروبا ومن شمالها، محملة جنودا ومقاتلين، تعود إلى أوروبا مملوءة بمختلف السلع والبضائع، من أقمشة حريرية ومزركشة ومن ألوان مطعمة مزخرفة ومن مواد غذائية متنوعة، لعل من أعظمها قيمة السكر الذي لم تكن أوروبا قد عرفته بعد، فقد كان اعتمادها قبل ذلك على العسل فقط. وانتقلت إلى أوروبا الزرابي الفاخرة التي تنافس في شرائها النبلاء والسادة وزينوا بها قصورهم واستعاضوا بها عن سجاجيد الزعف والقش، ثم أخذوا في تقليدها والنسج على منوالها، وإلى اليوم ما زال بعض الأقمشة بأسماء عربية.

وبسبب هذا الاتصال التجاري انتقلت كذلك نباتات جديدة إلى أوروبا مثل السمسم والخروب والدخن والأرز والليمون والبطيخ والمشمش. كذلك عرفت أوروبا التوابل والأباريز فاستعملتها في الأكل، وكانت في أشد الحاجة إليها نظرا لبرودة الجو في أوروبا.

ودخلت الرفاهية والثروة إلى الأوساط الشعبية. وكانت المدن التي تولت النقل التجاري بين الشرق والغرب من أغنى مدن أوروبا في ذلك الزمن مثل مدن: جنوه وبيزة والبندقية ومرسيليا.

وتأثر الصليبيون بهندسة البناء العربي خصوصا في القلاع والكنائس، فقد بنى الإنجليز قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقابل الطراز العربي في مضاعفة الجدران وإقامة البروج فيما بينها، وتخطيط الحصون المركزية وإقامة الأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الأفنية الداخلية. وقد أخذوا من الكنائس الشرقية التي تأثرت بالطراز العربي أنماطا من الزوايا والبروج المستديرة التي لم يكن لبناة الكنائس عهد بها في الغرب قبل الحروب الصليبية.

سابعا- الفن الحربي والفروسية

ولم يكن الفن الحربي أقل حظا من بقية الفنون الأخرى، فقد اقتبس الصليبيون من العالم الإسلامي أمورا كثيرة عادت عليهم بالتقدم والخروج شيئا فشيئا عما كانوا عليه في العصور الوسطى. فاستعمال القوس القذاف والدروع يلبسها الفرسان والخيل واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع واستخدام الحمام الزاجل لحمل المعلومات الحربية وانتشار علامات النسب على الأسلحة وشارات الفرسان.. كل ذلك أخذه الصليبيون عن المسلمين. وعن المسلمين أخذ الصليبيون طريقة تنعيل الجياد بالحديد. وأدخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبور والطبل، ونقلوا عادة الاحتفال بالظفر بإشعال الأنوار وإجراء سباقات الخيل ولعب الجريد. كما شاعت بينهم الأسلحة المزركشة والاعتناء بتطعيمها. وقد نشّطت الحروب الصليبية علم الحيل الحربية الحصارية وحسنته بما فيه من طرق الهدم واللغم واستخدام المجانيق والكبوش والاعتماد على أنواع المشعلات والمفرقعات.

على أنه مهما عدد الإنسان أنواع هذا التأثير ومظاهره، فإنه لا يصل إلى نهاية الحصر وكامل الاستقصاء، ذلك أن قرنين من الزمن تمثل فيهما احتكاك الصليبيين بالعالم الإسلامي لا بد أن تتولد عنهما نتائج بعيدة الأثر عميقة الغور. ومن المتفق عليه أن حملات الصليبيين إنما كانت تمثل هجوم جماعات جاهلة متبدية على عالم متحضر متمدن.

ومما تجدر ملاحظته أن أثر الحروب الصليبية في أوروبا إنما كان يبدو في النواحي المادية أكثر مما يبدو في الثقافة والعلوم، ومرجع هذا أن الصليبيين لم يكن همهم في حروبهم

العلوم والثقافة، ولم تتجه أوروبا بعد إلى الأخذ بأسباب الثقافة والعلوم. وكانت علاقات الصليبيين بالعالم الإسلامي تغلب عليها النزاعات الدينية والعدائية.

والواقع أن أثر العلوم الإسلامية في النهضة الأوروبية الحديثة إنما أخذ طريقا آخر غير الحروب الصليبية، وهو الطريق الذي يتمثل في انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريق صقلية والأندلس.

أثر الحروب الصليبية في العالم العربي

لم يكن سقوط عكا تحت سنابك خيول فرسان المماليك سنة 690هـ/ 1291م، وما أعقب ذلك من نهاية الوجود الصليبي على أرض فلسطين، سوى آخر فصول المواجهة العسكرية الطويلة التي استمرت قرنين من الزمان، بيد أن هذا الفصل الأخير في قصة المواجهة العسكرية لم ينته على تراب عكا ورمال الساحل الفلسطيني. إذ انسحبت فلول الصليبيين، من القادة والفرسان، إلى قبرص ورودس لتتخذهما مقرا للقرصنة والإغارات السريعة على شواطئ الشام ومصر في القرن الرابع عشر الميلادي، وبداية القرن الخامس عشر الميلادي. وقد تكفلت دولة سلاطين المماليك في مصر والشام (648-922هـ/ 1250-1517م) بمواجهة هذا العبث الصليبي. وقد كان مشهد ملك قبرص الصليبي من آل لوزنيان، وهو يمشي ذليلا والأصفاد تكبله في شوارع القاهرة في القرن الخامس عشر الميلادي، إعلانا بنهاية المواجهة العسكرية.

بيد أن هذه ليست كل القصة. إذ أن خروج الصليبيين من المنطقة العربية، وانتهاء آخر فصول المواجهة العسكرية، لم يكونا ليحولا دون تفاعل الآثار التي خلفتها الحروب الصليبية على العالم العربي، إذ استمرت تداعياتها تفرز استجاباتها للتحدي الحضاري الذي فرضه العدوان الصليبي على المنطقة العربية والعالم الإسلامي. وقد برز بعض هذه الاستجابات في زمن مبكر عندما كانت المعارك لا تزال محتدمة فوق رمال الشام والعراق ومصر وشبه الجزيرة، وأخذ بعض الاستجابات الأخرى وقتها اللازم، بحكم طبيعتها، لتفرز في النهاية ظاهرة واضحة في تاريخ المنطقة.

ولأن المواجهة الصليبية - العربية الإسلامية لم تكن مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صداما بين حضارتين، فإن الاستجابات التي خلفتها هذه المواجهة تجلت في عدة مستويات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية. ومن نافلة القول أن ننبه إلى أن التفاعل بين هذه الجوانب جميعا أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب

الفصل بينها بشكل قاطع. وسنحاول هنا رصد تأثير الحروب الصليبية في العالم العربي سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

وتبرز الاستجابة السياسية للتحدي الذي فرضه العدوان الصليبي على العالم العربي في الحقيقة القائلة إن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عمليا في خضم الصراع ضد الفرنجة على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الديني والواجهة الشرعية. ومع أننا نسلم بأن عوامل التدهور والاضمحلال كانت تهدم نموذج دولة الخلافة، وتنخر في بنيانه منذ فترة قبل الحروب الصليبية، فإن حقائق المواجهة العسكرية السياسية كرست نموذج الدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب بدلا من الدولة التي يقودها خليفة لا يتمتع بأي سلطة حقيقية، مثلما كان حال كل من الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة عندما بدأت قوات الصليبيين تطأ أرض المنطقة العربية.

ومن ناحية أخرى، فإن أول ما يلفت النظر في تاريخ الحروب الصليبية هو ذلك التشرذم السياسي والتفرق والتنازع الذي ساد المنطقة قبل قدوم الحملة الأولى وبعدها بحوالي نصف قرن من الزمان. لقد أدرك العالم العربي، وقد حدث هذا بعد خمسين سنة من قدوم الصليبيين، أن مؤسساته السياسية القائمة (سواء كانت ممثلة في نظام الخلافة، أو في الإمارات والدويلات التي مزقت بلاد الشام والجزيرة عشية الحروب الصليبية) غير قادرة على قيادته سياسيا وعسكريا في مواجهة الهجوم الصليبي الاستيطاني. وأدان الرأي العام تخاذل الخليفة العباسي عندما توجه إليه عدد من أهل الشام بصحبة القاضي «أبي سعد الهروي» بعد سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين سنة 492 هـ/ 1099م. كما راعهم موقف الخلافة الفاطمية التي انتهزت فرصة التوغل الصليبي في شمال الشام، وأرسلت سفارة إليهم، وهم أمام أنطاكية، تفاوضهم من أجل اقتسام النفوذ والسيطرة على حساب السلاجقة السنّة. أما موقف الأمراء الصغار، من حكام المدن والإمارات الصغيرة في بلاد الشام، فكان أكثر سوءا بطبيعة الحال. ولم يكن هذا كله سوى تعبير واقعي عن ميراث قرن من الحروب المتبادلة، والشك والحقد والمرارة التي نجمت عن التشرذم السياسي في المنطقة العربية.

وهكذا، شاءت تطورات الأحداث التاريخية، وتزايد إحساس الرأي العام بمدى خطورة الهجوم الصليبي، إلى فرض صياغة سياسة جديدة تضع الدولة الموحدة بدلا من الكيانات السياسية الهزيلة المبعثرة، وتقوم على أسس عسكرية تضع كل الموارد في خدمة

المجهود الحربي تحت قيادة ملك محارب يقود جيوشه في الميدان بنفسه بدلا من نموذج الخلافة الذي صار الخليفة فيه اسما لا معنى تحته، ولم يعد قادرا على قيادة الأمة سياسيا أو عسكريا.

ولم يكن غريبا أن تذوب هذه الإمارات الصغيرة في خضم الصراع الإسلامي – الصليبي، وتحت وطأة الاتجاه الوحدوي الذي بدأ واضحا منذ أتابكية عماد الدين زنكي ودولة ابنه نور الدين محمود، ثم تكرس في عهد صلاح الدين الأيوبي، وأصبح راسخا منذ بداية عصر سلاطين المماليك.

صحيح أن الخلافة الفاطمية (358-567 هـ/ 969-1170م) هي التي سقطت في خضم الحروب والصراع ضد الصليبيين، ولكن الخلافة العباسية كانت هي الأخرى قد تضاءلت في قيمتها السياسية ودورها التاريخي حتى صارت مجرد رمز عاطفي يدل على ماضي التاريخ المجيد، ورمزا دينيا عاطفيا يشير إلى عظمة الأيام الخوالي، بيد أنها لم تعد أكثر من واجهة شرعية تستمد منها الدولة العسكرية، التي قامت لتقود الصراع ضد الصليبيين، التأييد لكسب ولاء رعاياها. وحين سقطت الخلافة العباسية فعلا في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حرص السلطان الظاهر بيبرس على إعادتها في القاهرة واجهة شرعية لحكم سلاطين المماليك. وتكرس هذا الوجود الرمزي للخلافة العباسية في القاهرة حتى دخول العثمانيين القاهرة سنة 922هـ/ 1517م. ونعرض هنا تفاصيل الأحداث التاريخية التي تؤكد هذا الفرض.

كانت الخلافة العباسية قد بدأت منحنى التدهور والأفول قبل قدوم جيوش الحملة الصليبية الأولى بزمن طويل، بيد أن النتائج السياسية لضعف الخلافة العباسية لم تصبح واضحة إلا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ففي سنة 358هـ/ 969م نجح الفاطميون في انتزاع مصر من الخلافة العباسية، ولم يلبثوا أن أخذوا يتوسعون على حسابها في المنطقة العربية، ولاسيما في فلسطين وبلاد الشام. وهكذا، قامت خلافة شيعية في القاهرة لتنافس الخلافة السنية في بغداد، وتنازعها السلطان والنفوذ. وعلى مدى حوالي قرنين من الزمان ظلت المنطقة العربية نهبا للنزاع بين القاهرة الفاطمية وبغداد السنية. وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بلغ النزاع ذروته، عندما قام أبو الحارث البساسيري بانقلاب داخل بغداد السنية لصالح الخلافة الفاطمية الشيعية، وأقام الخطبة للمستنصر الفاطمي على حين اعتقل الخليفة القائم العباسي.

واستنجد الخليفة العباسي بالقائد السلجوقي طغرل بك الذي دخل بغداد سنة 447هـ/ 1055م، ثم تمكن من القضاء على البساسيري بعد فترة من الوقت. وبذلك صار السلاجقة القوة الحقيقية المسيطرة في بغداد. وبينما تحول الخليفة إلى مجرد رمز وواجهة شرعية كان السلطان السلجوقي هو الحاكم الفعلي في تلك الأنحاء التي امتدت فيما بين خراسان وبلاد الشام.

وقد اكتسبت الدولة السلجوقية حيوية عسكرية دافقة جعلتها تتوسع منذ وقت مبكر شمالا وغربا على حساب كل من الأرمن والبيزنطيين، ثم الفاطميين الذين فقدوا أملاكهم كلها في بلاد الشام تحت وطأة الهجوم السلجوقي، بيد أن الانقسام ما لبث أن نشب بين الدول والإمارات السلجوقية التي قامت نتيجة توسعاتهم الباكرة. وحين قدم الصليبيون إلى المنطقة فشل السلاجقة في توحيد جهودهم إزاء الهجوم الصليبي. وكانت هزيمتهم في ضوروليوم، ثم ضياع نيقية وإنطاكية وغيرها في خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى مؤشرا على فشلهم في عمل موحد، ودليلا على أن تراث الفرقة والتشرذم الذي ساد فترة طويلة قبل قدوم الصليبيين كان لا يزال يعوق أي عمل وحدوي على الرغم من أن الطابع العسكري للدول والإمارات السلجوقية كان هو الأساس الذي قامت عليه الدول العسكرية الكبرى فيما بعد، مثل دولة نور الدين محمود، ثم دولة الأيوبيين، فدولة سلاطين المماليك.

وفي خضم هذه الأحداث جميعا لا نجد أي إشارة تدل على وجود دور إيجابي للخلافة العباسية. بل إن ما رواه ابن الأثير من تخاذل الخليفة العباسي وعجزه عن فعل شيء إزاء سقوط القدس سنة 492هـ يؤكد أن الدور التاريخي لدولة الخلافة، ونموذجها السياسي، كانا قد تجمدا منذ فترة، وعجزا عن مواجهة التحدي الذي فرضه العدوان الصليبي. وتحملت إمارات السلاجقة العبء الأكبر في مواجهة الموجات الصليبية الأولى، ولكن عجزها عن الاتحاد جعل كل جهودها العسكرية تفشل في القضاء على الكيانات الصليبية على الرغم من بعض الانتصارات الباهرة التي حققها السلاجقة ضد الفرنجة.

أما الخلافة الفاطمية في القاهرة فقد كانت أحوالها الداخلية تنبئ عن أن الخلفاء لم يعد لهم من الأمر شيء، وأن الخلافة صارت تحت حكم الوزراء الذين اغتصبوا السلطة لأنفسهم على حساب الخلفاء الضعفاء. وقد ذكر المقريزي أن بداية ضعف الخلافة الفاطمية يرجع إلى الاشتباكات المسلحة بين الأتراك والجنود السود سنة 454هـ. وعلى

أي حال، كان الأفضل بن بدر الجمالي هو صاحب السلطة الفعلية عندما جاءت جيوش الفرنجة إلى المنطقة، ولم يعد للخلفاء من شيء سوى لقب الخليفة الفارغ من أي معنى. وكان هذا يعني أن دولة الخلافة الفاطمية فقدت دورها التاريخي، وقد جاءت أحداث الحملة الصليبية الأولى وما بعدها لكي تؤكد أن نموذج الدولة، التي يحكمها خليفة ليس له من الأمر شيء، قد دخل متحف التاريخ.

وقد تجسد الفشل السياسي الأكبر للفاطميين في موقفهم من الصليبيين، إذ أن استئثار الوزراء بالسلطة من دون الخلفاء، ثم تعاظم الصراع على كرسي الوزارة أدى إلى نتيجتين غاية في السوء، سياسيا وعسكريا. فقد فشل الأفضل في إدراك حقيقة الخطر الصليبي، كما أن اغتياله سنة 515هـ/ 1121م جعل مصر تدخل في دوامة شريرة من المؤامرات والاغتيالات في سبيل كرسي الوزارة. وفي خضم الصراع بين شاور وضرغام على هذا الكرسي استنجد أحدهما بنور الدين محمود وقوات المسلمين، واستنجد الآخر بالصليبيين. وكانت النتيجة النهائية أن سقطت الخلافة الفاطمية في خضم الصراع. وحلت محلها دولة عسكرية هي دولة الأيوبيين التي شادها صلاح الدين الأيوبي على أسس عسكرية محضة على الرغم من تمسكه بتبعية شكلية للخلافة العباسية الواهنة في بغداد.

وهكذا أثبتت الأحداث التاريخية التي جرت في المرحلة الأولى من المواجهة العربية - الصليبية أن دولتي الخلافة (العباسية والفاطمية) ليستا النموذج الأمثل لقيادة الأمة العربية الإسلامية في مواجهة هجوم الصليبيين. وفرضت الأحداث التاريخية نمط الدولة العسكرية بديلا مناسبا، بشرط أن يقوم بتوحيد الجهود، في مواجهة الصليبيين. وكانت دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل/ حلب هي السابقة التاريخية، أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه في ميدان الحرب.

لقد تولى عماد الدين زنكي حكم الموصل سنة (521هـ/ 1127م) ليقود دولته الصغيرة في الموصل نحو هدف مزدوج: توحيد الجهود العربية الإسلامية، وطرد الصليبيين. ومن ثم برزت أتابكية الموصل باعتبارها الدولة العسكرية التي تسعى لتحقيق هذا الهدف المزدوج من ناحية، وباعتبارها سابقة لدولة الأيوبيين ودولة سلاطين المماليك اللتين تولتا إدارة الصراع في أدواره التالية من ناحية أخرى. وعندما استولى على حلب في العام التالي بدأ العمل العسكري ضد الصليبيين على محور الموصل/ حلب يحقق تقدما في الضغط على الصليبيين في الرها وإنطاكية وشمال الشام.

وعندما توجت جهود عماد الدين زنكي ودولته العسكرية باستعادة الرها من الصليبيين سنة 539هـ/ 1144م كان ذلك تكريسا للنموذج السياسي الذي تجسد في دولته.

وقد واصل نور الدين محمود سياسة أبيه ودعم اتجاهات دولته العسكرية الساعية لتوحيد الجهود الإسلامية في مواجهة الصليبيين. وعندما نجح نور الدين محمود في دخول دمشق سنة (549هـ/ 1154م) كانت تلك خطوة هامة في سبيل تكريسه نموذج الدولة العسكرية التي بدأها أبوه. وقد ثبت نجاح هذا النموذج في الضغط على الصليبيين في الشمال، فاتجهوا صوب الخلافة الفاطمية المتداعية في الجنوب. وتسابق الصليبيون بقيادة أماليك الأول ملك بيت المقدس الصليبي، والمسلمون بقيادة نور الدين محمود (الذي أرسل جيشا بقيادة شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي) للفوز بمصر. وكانت أهم نتائج هذا الصراع اختفاء الخلافة الفاطمية، وتكريس نموذج الدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب. لقد باتت الدولة الموحدة تضم خمس عواصم عربية كبرى هي القاهرة ودمشق وحلب والموصل والرها.

وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الصراع ضد الصليبيين، إذ رسخ نموذج الدولة الجديدة تماما، وتضاءل دور الخلافة العباسية إلى مجرد منح الموافقة والبركة وإضفاء الشرعية على الكيان السياسي الموحد الجديد الذي قاده السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وحتى سنة (577هـ/ 1181م) كان قائد هذه المرحلة يبسط سلطان دولته على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات. وهكذا توفرت إمكانية النجاح في القضاء على الوجود الصليبي للمرة الأولى على هذا النحو.

لقد بنى صلاح الدين الأيوبي دولته على أساس من الوحدة الأيديولوجية والأخلاقية للعالم الإسلامي. وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة التي امتدت من شمال العراق وديار بكر حتى اليمن جنوبا، ومن الفرات في الشرق حتى النيل في الغرب، مع سلطة روحية ومعنوية شملت كل أنحاء المنطقة العربية والعالم الإسلامي. وفي كل خطواته لبناء دولته كان صلاح الدين حريصا على أن يحصل على موافقة الخلافة العباسية ومباركتها على الرغم من معرفته التامة بمدى ضعف هذه الخلافة. وكان هذا الموقف من جانبه تعبيرا عن مرارته السياسية وإدراكه لأهمية هذه الواجهة الشرعية في تعبئة المنطقة تحت قيادته.

لقد قامت دولة صلاح الدين في الأصل على أساس أن الحروب ضرورة دائمة، ومن ثم فإنه وزع مسؤوليات الحكم بمستوياتها المختلفة على أساس من شرط الالتزامات

العسكرية، إذ تولى أفراد عائلته حكومات الأقاليم داخل دولته الكبيرة بشرط المساهمة في نفقات الحرب ضد الصليبيين، والإبقاء على جيوشهم في حال الاستعداد الدائم للنزول إلى ميدان القتال.

وقامت شهرة صلاح الدين على انجازاته العسكرية التي تجسدت في معركة حطين سنة (582هـ/ 1187م) واسترداد القدس في السنة نفسها. وكانت هذه الانجازات العسكرية هي الأساس الذي قامت عليه الدولة الأيوبية عسكرية الطابع والهدف والتنظيم. لقد كانت دولته دولة ذات طابع حربي صرف، بحيث كرست كل مواردها لخدمة الهدف العسكري وهو محاربة الصليبيين لإخراجهم من المنطقة.

لقد كان مبرر قيام الدولة الأيوبية هو دورها التاريخي في مواجهة الهجوم الصليبي، وكان هذا الدور التاريخي هو الذي أضفى عليها الشرعية في نظر رعاياها، كما كان هو مبرر وجودها واستمرارها. بيد أن وفاة صلاح الدين الأيوبي أحدثت فراغا سياسيا كبيرا في المنطقة العربية، إذ تفسخت دولته في الحال بين أفراد أسرته الذين اقتسموا الحكم بمنطق الورثة الذين يهم كلا منهم الفوز بأكبر قدر من التركة دون أن يحفل بالمصير المشترك للجميع. وكانت النتيجة المباشرة لهذا التفكك السياسي أن تفككت دولة صلاح الدين إلى عدة إمارات منفصلة ومتنازعة. وبدا كأن الأمور قد عادت إلى الوراء، وأن جهود عماد الدين زنكي، ونور الدين، وصلاح الدين قد ذهبت أدراج الرياح. بيد أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعا من الوحدة على الأيوبيين في مصر والشام.

ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين كان قد أصبح يميل إلى مهادنة الصليبيين، وهذا يعني أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخي الذي هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت للنظر أن الدولة الأيوبية التي ظهرت على مسرح التاريخ، لأن مؤسسها صلاح الدين الأيوبي قد التزم بهذا الدور التاريخي، قد فقدت مبرر وجودها منذ أخذ ملوك بني أيوب وسلاطينهم يتخلون عن هذا الدور بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من جهود العادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب العسكرية ضد الصليبيين فالواضح أنها كانت جهودا دفاعية تأتي رد فعل للهجمات والحملات الصليبية.

ومثلما برزت الدولة الأيوبية في خضم الصراع ضد الصليبيين، فإن سقوطها في مصر، ثم في بلاد الشام بعد ذلك، جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب... وكان المماليك هم الذين

يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة نجاحهم فيما فشل فيه الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية في مواجهة الصليبيين.

وينبغي أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية، وقيام دولة سلاطين المماليك، لم يغير من اتجاه حركة التاريخ في المنطقة. فالواقع أن دولة سلاطين المماليك كانت امتدادا للدولة الأيوبية في بنائها، وطبيعتها العسكرية، والأسس السياسية والاقتصادية التي قامت عليها، كما أنها ورثت دورها في قتال الصليبيين.

لقد كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي انتهت سنة 648هـ/ 1250م بأسر الملك لويز التاسع،وتبدد جيشه بين الأسر والقتل عقب الهزيمة الفادحة التي ألحقها به الجيش المصري في المنصورة وفارسكور، بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك. وقد برز زعماء المماليك البحرية من أمثال فارس الدين أقطاي وعز الدين أيبك وبيبرس البندقداري خلال المعارك ضد الصليبيين، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة.

وعلى الرغم من أنهم حافظوا على العرش للسلطان توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب حتى يصل إلى مصر إلا أن السلطان الأيوبي الجديد جاء إخفاقا أيوبيا جديدا. وبدلا من الانصراف لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماما، بدأ سلسلة جديدة من المؤامرات والدسائس. وانتهى الأمر في صباح يوم الاثنين 27 محرم 648هـ/ 21 مايو 1250م بمصرع توران شاه على أيدي أربعة من كبار أمراء المماليك على نحو مأساوي مروع، فقد مات آخر الأيوبيين «جريحا غريقا محترقا» على حد تعبير المقريزي.

تبددت دماء توران شاه مع موجات مياه النيل، ومعها تبددت آخر مظاهر حكم دولة الأيوبيين في مصر، ولكن أبناء الأسرة الأيوبية كانوا لا يزالون فوق عروشهم الصغيرة في إماراتهم ببلاد الشام وأعالي العراق، إلا أن زوالهم عن مسرح التاريخ بات مسألة وقت لا غير، إذ أن دورهم التاريخي قد انتهى عندما تخلوا عن الأساس الذي قامت عليه دولتهم زمن صلاح الدين، أي قيادة الحرب ضد الصليبيين.

لقد كان القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي أخطر فترة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية على الإطلاق، إذ تعين على العالم العربي آنذاك أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذي كان يتعرض له من الشرق والغرب على حد سواء. ففي الأندلس كانت المساحة الإسلامية على خريطة إسبانيا تتراجع أمام الهجوم الكاثوليكي.

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطئ البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي، وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد.

وإذا كانت انتصارات المماليك في المنصورة وفارسكور سنة 648هـ/ 1250م هي صرخة الميلاد للدولة المملوكية فإن معركة عين جالوت التي حسرت المد المغولي سنة 657هـ/ 1260 م كانت تأكيدا للدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين المماليك، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي.

لقد كانت ظروف العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي تستوجب قيام دولة عسكرية موحدة على غرار دولة صلاح الدين الأيوبي تتولى قيادة العالم العربي الإسلامي تحت راية قائد عسكري وزعيم سياسي يقود جيشه ويخوض المعارك، ويدير الأحوال الداخلية. ولم يكن الأمراء الأيوبيون قادرين على القيام بهذا الدور التاريخي.

وكان سقوط بغداد سنة 656هـ ومصرع الخليفة المستعصم بالله العباسي حدثا زلزل أركان العالم الإسلامي، كما كان تعبيرا عن تغيرات كبيرة في موازين القوة العالمية. وكان على دولة سلاطين المماليك الناشئة أن تؤكد جدارتها بالدور التاريخي الذي انتزعته من الأيوبيين. وتحت قيادة «السلطان المظفر سيف الدين قطز» تمكن الجيش المصري من كسر الموجة التترية الطاغية، وبذلك تأكد دور دولة سلاطين المماليك باعتبارها القوة الحامية للعالم الإسلامي.

ومرة أخرى تأكد الدور الرمزي والعاطفي للخلافة العباسية. فمنذ البداية حاول السلطان المعز أيبك أن يعلق تبعيته للخليفة العباسي ليكون سندا له في صراعه ضد الأمراء الأيوبيين، ثم كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (659هـ/ 1261م) بمثابة الحل السعيد الذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التي قامت بدور هائل في تصفية الوجود الصليبي. وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة شيء سوى اسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الاعتقال.

وتمكنت الدولة الجديدة بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أن تغير مصير المنطقة في أكثر من اتجاه، إذ طاردت فلول المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات

الصليبية من كل اتجاه. وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيرا مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدهم صراع وجود. ويتأكد هذا الفرض من خلال الحقيقة القائلة إن المغول الذين غزوا المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

ولم يلبث بيبرس أن هاجم الممتلكات الصليبية، ثم خلفه السلطان المنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل، وانتهى الوجود الصليبي فوق الأرض العربية في سنة (690هـ/ 1291م).

وهكذا نجحت الدولة المملوكية في القيام بدورها التاريخي الذي كان امتدادا وتطورا لدور كل من الزنكيين والأيوبيين، بيد أن هذا الدور التاريخي الذي نجح في القضاء على الوجود الصليبي في المنطقة العربية كان يستلزم إعادة صياغة البنية السياسية والاقتصادية على أساس أن الحرب حقيقة دائمة من حقائق الحياة في ذلك العصر. وهو ما يعني ضرورة إيجاد نظام قادر على تعبئة الجيوش وإعالتها على النحو الذي يجعلها دائما في حال من الاستعداد الدائم لخوض القتال، ولم يكن هناك نظام أفضل من النظام الإقطاعي العسكري.

كان نظام الجيش الإسلامي الباكر يقوم على أساس من عقيدة الجهاد، وكان هذا يعني على مستوى الواقع تعبئة كل القادرين على العمل في الجيش. بيد أن التطورات السياسية والاجتماعية والإدارية الناجمة عن حركة الفتوح الإسلامية من ناحية، وما حدث في بنية الدولة من تقدم نأى بها عن البساطة الأولى من ناحية ثانية، أدت إلى تطورات أخرى على الصعيد العسكري. فقد بدأت العناصر الفارسية والتركية والزنجية تدخل في تركيب الجيوش الإسلامية. وبدأ في العصر العباسي نوع من الإقطاع الإداري الذي كان الخلفية التي خرج منها الإقطاع العسكري فيما بعد.

وكان السلاجقة هم أول من استبدل العطاء النقدي للجنود بالإقطاع، وتروي المصادر التاريخية أن الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك كان أول من أقطع الإقطاعيات للمماليك الأتراك. وقد أدخل السلاجقة عدة تعديلات جوهرية على أشكال الإقطاع التي كانت سائدة قبلهم. وأدخلوا الخدمة العسكرية مقابل الإقطاع الذي يجعل المستفيد يملك الموارد العامة في الإقطاع الممنوح له، أي أنه كان ملتزما بأن يصطحب معه عددا من

الجنود يتناسب تناسبا طرديا مع حجم الإقطاع. ولكن هذا الشكل الفضفاض للإقطاع العسكري كان مختلطا بأنماط أخرى من الإقطاع أهمها: الإقطاع الإداري. وقد أدى هذا الوضع إلى ضعف الجيوش السلجوقية، إذ كانت العمليات العسكرية الكبرى تتطلب تجميع جيوش مركبة من جيوش الأمراء أصحاب الإقطاعيات الإدارية، ولم تكن هذه الجيوش تخضع لقيادة السلطان نفسه، مما جعلها في كثير من الأحوال مجرد تحالف بين كبار الأمراء، مما كان يصيب جهود السلاجقة بالشلل العسكري في مواجهة الصليبيين. ولعل أوضح مثال على ذلك هو فشل الجيش المركب الذي قاده كربوقا في القضاء على الفرنجة في أنطاكية سنة 1098 م، على الرغم من الحال البائسة التي تدهوروا إليها.

بيد أن عماد الدين زنكي وابنه محمود سارا شوطا جديدا في بناء جيوشهما على أساس النظام الإقطاعي العسكري. فقد اعتمد عماد الدين زنكي على قوته العسكرية الخاصة، وربط الإقطاع بالخدمة العسكرية والولاء الشخصي، وبذلك نجح في تحقيق انتصاره الهام على الصليبيين في الرها سنة 1144 م. وفي عصر نور الدين محمود كانت هذه الإقطاعيات وراثية، كما كانت هناك سجلات تبين عدد الرجال والعتاد الذي كان على كل أمير صاحب إقطاع أن يقدمه لجيش نور الدين. ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي قد سار على نهج نور الدين محمود وأبقى الإقطاعيات الوراثية. ومن الواضح أن الإقطاع العسكري زمن صلاح الدين ارتكز على الأرض الزراعية فضلا عن «الجامكيات» أي الرواتب النقدية والعينية التي كانت تمنح للأجناد والفرسان الصغار، وكانت تلك الجامكيات تمنح في العصر الأيوبي لمن لا يأخذون إقطاعيات.

لقد كانت فترة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود بمثابة الفترة الانتقالية في تطور التنظيم الإقطاعي العسكري باعتباره الوسيلة الفعالة لتعبئة الجيوش وإعالتها تحت قيادة مركزية، إذ إن التحالفات العسكرية التي قامت بين جيوش أمراء السلاجقة والتي قامت على أساس من الإقطاع الإداري الفضفاض عجزت عن إنجاز أي نصر حاسم في مواجهة الصليبيين. وعندما تطور التنظيم الإقطاعي خطوة تحت قيادة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود كان عنصر «الإقطاع» والولاء الشخصي لمانح الإقطاع من أهم عناصر التنظيم الإقطاعي، وأصبحت الالتزامات الإقطاعية بتقديم الخدمة العسكرية أكثر دقة وتنظيما في عهد نور الدين محمود. وعلى الرغم من أن الدولة الأيوبية كانت استمرارا في نظامها الإداري وبنائها الإقطاعي العسكري لدولة أتابكة الموصل على نحو ما أوضح

القلقشندي وغيره من المؤرخين إلا أن صلاح الدين الأيوبي وخلفاءه ساروا بالتنظيم الإقطاعي العسكري خطوة أبعد في سبيل جعله أكثر قدرة على مواءمة التطورات العسكرية ومواجهة ضرورات الحرب ضد الصليبيين.

كان لصلاح الدين جيشه الخاص، بيد أنه كان يعتمد أيضا على جيوش أتباعه من حكام الولايات في دولته الكبرى، ومنهم أخوته وأقاربه وأبناؤه، وكانت هذه الجيوش قائمة على أسس إقطاعية جمعت بين الإقطاع الشخصي والإقطاع الوراثي. بيد أن أهم التطورات في التنظيم الإقطاعي زمن صلاح الدين الأيوبي تمثلت في أن خيوط العلاقة الإقطاعية تجمعت في شخص السلطان الذي كان هو السيد الإقطاعي لجميع الأمراء الإقطاعيين، وصار السلطان يعبئ الجيش لكي يقوده بنفسه في ميدان القتال. فقد كان من حقه عزل أي أمير عن إقطاعه إذا تخلف عن أداء واجباته العسكرية في الجهاد ضد الصليبيين. ولم يكن ذلك التنظيم الإقطاعي من النمط الذي يقوي نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة المركزية، وإنما كان على العكس وسيلة فعالة لإحكام سيطرة السلطان على الأمراء التابعين له تحت وطأة العزل والحرمان من الإقطاع.

وخلال العصر الأيوبي، الذي استمر أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان، جرت على النظام الإقطاعي العسكري عدة تطورات هامة أوصلته إلى شكله الناضج والنهائي في عصر سلاطين المماليك. ولما كان الصليبيون لا يزالون يشكلون خطرا على المنطقة العربية فإنه تعين على سلاطين هذه الدولة مواصلة الحرب ضد الصليبيين اعتمادا على المؤسسات نفسها التي ورثوها عن الأيوبيين، ومن بينها التنظيم الإقطاعي العسكري للدولة بطبيعة الحال.

لقد قام نظام الجيش المملوكي على أساس من العلاقات الإقطاعية التي اتخذت طابع الولاء الشخصي، إذ كان مماليك السلطان، الذين تتكون منهم القوة الرئيسة في الجيش المملوكي، يعسكرون في القاهرة. وكان هذا القسم يتألف أساسا من المماليك الذين اشتراهم السلطان، ثم يضم إليهم مماليك السلاطين السابقين، ومماليك القتلى والمغضوب عليهم من كبار الأمراء، ويمنحهم أكبر الإقطاعيات وأعلى الوظائف. وكانت جيوش الأمراء تشكل القسم الثاني من الجيش المملوكي العام. وكان كل أمير يملك جيشا يتناسب مع حجم إقطاعه. وقد تراوحت أعداد هذه الجيوش مابين ثلاثمائة وثمانمائة فارس في بداية عصر سلاطين المماليك. وكانت تتمركز خارج القاهرة، إذ كانت موزعة

على الولايات في مصر وبلاد الشام. أما القسم الثالث من الجيش المملوكي فكان يتألف من أجناد الحلقة من «أولاد الناس» أي الأحرار من أبناء المماليك والتركمان، بالإضافة إلى المصريين. وكان ذلك القسم يقوم بدور أشبه بدور «الحرس الوطني» حاليا، وقد تضاءلت مكانة أجناد الحلقة في أواخر ذلك العصر بحيث أخذت منهم إقطاعياتهم.

بيد أن أهم تطور حدث في النظام الإقطاعي العسكري هو تحوله إلى إقطاع شخصي غير وراثي. ومنذ عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (النصف الأول من القرن الثامن الهجري — الرابع عشر الميلادي) خضع النظام الإقطاعي المملوكي لعدة تغيرات جوهرية، إذ صار الإقطاع يتوزع بين عدة مناطق، بعد أن كان يتركز في ناحية واحدة، كما كان الإقطاع يتغير بتغير وظيفة صاحبه. وكان الهدف هو مزيد من سيطرة السلطان على الأمراء.

بيد أن هذا التغير الذي حدث في النظام الإقطاعي المملوكي حدث بعد خروج الصليبيين من بلاد الشام والمنطقة العربية بعد هزيمتهم في عكا. وهو ما يعني أن النظام الإقطاعي الذي قامت عيه الدول العسكرية التي أفرزتها الضرورة التاريخية في مواجهة الصليبيين قد بدأ مرحلة التدهور.

وعلى الرغم من نجاح الدول العسكرية في دورها التاريخي والقضاء على الكيان الصليبي إلا أن هذه الدول فشلت في مواجهة متطلبات الإدارة المدنية، إذ أن الدولة المملوكية، التي تمت صياغة مؤسساتها ونظمها على أساس أن الحرب حقيقة يومية، وعلى أساس أن الخطر الصليبي يستوجب توجيه كافة الموارد نحو الجهد العسكري، وجدت نفسها في مواجهة مهمات الإدارة المدنية بعد زوال الوجود الصليبي. وكانت خطوة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في تعديل النظام الإقطاعي تعبيرا عن هذا الموقف.

صحيح أن ما أحدثه الناصر محمد بن قلاوون قد نجح في تشديد قبضة السلاطين الأمراء في المدى القصير، بيد أنه أثبت أنه كارثة على وجود الدولة نفسها. فقد عزف الأمراء عن الاهتمام بإقطاعياتهم، وقلت إنتاجية الأرض الزراعية. وهو الأمر الذي ترك آثاره السلبية على النظام السياسي الذي قامت عيه دولة سلاطين المماليك. فبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والرواتب العينية. ومع تزايد تدهور الإنتاج الزراعي تزايد عجز الدولة عن سد حاجات فرسان المماليك الذين يوجهون طاقاتهم العسكرية نحو الناس في الداخل، وتشهد الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك صورا عنيفة من الاستبداد والتسلط، تقابلها مقاومة متصاعدة

من الناس، وتدهور اقتصادي، ثم مزيد من الخلل السياسي. وتصير السلطنة عبئا يتهرب الجميع من تبعاته، وهكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل قبل أن تدهمها جيوش العثمانيين سنة (922هـ/ 1517م).

هذه هي أهم ملامح التطورات السياسية التي نجمت عن المواجهة ضد الصليبيين، ونخرج منها باستنتاج مؤداه أن الظروف التاريخية التي أفرزت الدولة العسكرية القائمة على أساس من التنظيم الإقطاعي العسكري قد تغيرت بخروج الصليبيين في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ولم تنجح الدولة المملوكية العسكرية في التوافق مع الظروف التاريخية الجديدة ولكنها مرت بفترة انتقالية، ثم بدأت رحلتها نحو التدهور والأفول في القرن الأخير من حياتها. وهكذا كان الحصاد السياسي سلبيا في النهاية.

لقد كان تأثير الحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية واضحا في بلاد الشام أكثر منه في أي منطقة أخرى من العالم العربي، إذ أن البنية السكانية، وعلاقات القوى الاجتماعية، والنظام القيمي والأخلاقي قد اهتزت كثيرا نتيجة الاستيطان الصليبي الذي عاش فوق تراب هذه المنطقة حوالي قرنين من الزمان. كما أن الحروب المستمرة تركت تأثيراتها السلبية أيضا.

وفيما يتعلق بطبيعة التركيبة السكانية في بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية ينبغي أن نلاحظ أمرين غاية في الأهمية: أولهما الطبيعة الفسيفسائية لبنية السكان، وثانيهما عدم إمكانية بحث هذه الفسيفساء السكانية داخل أطر البحث التقليدية، أو محاولة تفسيرها وفق النظريات والقوالب الجاهزة. ويعني هذا أن الدراسة الوصفية – التحليلية هي التي يمكن أن تعيننا على رؤية الظاهرة في إطارها التاريخي الموضوعي.

وربما يكون من المناسب أن نوضح أن هذه الفسيفساء السكانية التي ميزت بلاد الشام تفصح عن حقيقة تاريخية غاية في الأهمية، على الرغم من بساطتها وقربها من البديهيات. فقد كان لموقع بلاد الشام أثره في جعل هذه المنطقة مسرحا لكل الهجرات والحركات التاريخية الكبرى التي عرفها العالم القديم، كما كان لهذه التفاعلات أكبر الأثر في قيام الحضارات الراقية التي عثرت على نفسها في المنطقة التي تمتد من جبال طوروس في الشمال حتى بادية الشام جنوبا، ومن الفرات شرقا حتى مياه البحر المتوسط غربا. وداخل هذه المنطقة الشاسعة سكنت أقوام وجماعات عديدة عبر عصور التاريخ، وساعدتها طبيعة التضاريس المتنوعة على أن تكون بمثابة متحف حي يدل على الأقوام،

والحضارات، والأديان، والمذاهب التي عرفتها بلاد الشام طوال تاريخها. وعندما جاءت جيوش الحملة الصليبية الأولى كانت التركيبة السكانية في بلاد الشام تضم عناصر عربية وتركية وكردية وسريانية، فضلا عن الأرمن والبيزنطيين. وبينما كانت العناصر العربية تشكل أغلبية السكان، كانت عناصر الأتراك السلاجقة والتركمان تمثل العنصر السكاني الذي يلي العرب في الأهمية، وقد زادت أهميتهم بفضل نشاطهم العسكري والإمارات التي نجحوا في حكمها ببلاد الشام قبيل وأثناء الحروب الصليبية. أما الأكراد فقد كانوا موجودين في المنطقة قبل قدوم الصليبيين حقا، ولكن أهميتهم الاجتماعية زادت بعد أن صاروا يمثلون أغلبية جيوش صلاح الدين، مما أدى إلى اشتعال العلاقات بينهم وبين التركمان. كذلك يمثل الدروز أحد عناصر السكان الهامة في بلاد الشام، وعلى الرغم من مشاركتهم في الحرب ضد الصليبيين إلا أنهم عاشوا حياة أقرب إلى العزلة والانغلاق جعلتهم نهبا لكثير من الأقاويل والروايات المثيرة.

وقد تحدث المؤرخون الصليبيون، والرحالة الذين زاروا بلاد الشام زمن الحروب الصليبية عن مدى تعدد أجناس السكان في هذه البلاد. وكان أول من تنبه إلى هذه الحقيقة فوشيه دي شارتر الذي رافق أحد جيوش الحملة الصليبية الأولى، كما كان شاهدا على تجربة الاستيطان الصليبي في فلسطين خلال الجيل الأول بعد نجاح الصليبيين في استيطان الشام.

فقد ذكر فوشيه العرب والأتراك والأحباش، واليونان والسريان، كما تحدث عن مستوطنين فرنسيين وانجليز وإيطاليين، كما ذكر ويلبراند سنة 1212م أن مدينة أنطاكية بها سكان كثيرون أغنياء، الفرنجة والسريان واليونان واليهود والأرمن والمسلمون. وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب ثييتمار عن السكان اليونان واليعاقبة والجورجيين والأرمن والنساطرة واليهود والسامرة والصدوقيين والحشاشين. وفي سنة 1241م كتب جيمس الفيتري عن عناصر السكان في بلاد الشام وزاد عليهم الموارنة. كما أن الرحالة بوركهارد ذكر سنة 1283م المسلمين والسريان واليونان والأرمن والجورجيين والنساطرة واليعاقبة والميديين والفرس والأحباش والمصريين، وغيرهم كثير من الصليبيين. كذلك قال الرحالة بنيامين التطيلي الذي زار بيت المقدس حوالي سنة 1167م: إن سكان بيت المقدس يتحدثون لغات مختلفة، ويعتنقون ديانات مختلفة، ومذاهب شتى.

ويتضح من الفقرة السابقة أن تنوع عناصر السكان كان يوازيه تنوع آخر في دياناتهم ومذاهبهم. وعندما جاء الصليبيون جاءت معهم عناصر جديدة زادت من تنوع الفسيفساء

السكانية في بلاد الشام من جهة، كما أدت إلى جعل هذه التركيبة السكانية الفسيفسائية في حال من السيولة وعدم الاستقرار من جهة ثانية، إذ أن المذابح الصليبية، والتهجير الجماعي والاستيطان، وإعادة التوطين، فضلا عن تبادل السيادة على بعض مناطق الحضر والريف بين المسلمين والصليبيين خلال الصراع الطويل، كل ذلك أدى إلى حالة من السيولة السكانية ربما لم تعرف مثله أي منطقة أخرى.

فقد تحولت أقليات إلى أغلبيات في بعض المناطق، كما أن بعض مناطق أخرى شهدت العكس، أو شهدت تحول السكان عن دياناتهم. كذلك صحبت الهجمات حالات كثيرة تحول فيها السكان إلى عبيد يباعون ويشترون، في حين بقي عدد منهم للقيام بواجبات الخدمة في مدن العدو.

وقبل أن نقدم بعض الأمثلة الدالة على حال السيولة السكانية، ربما يكون مفيدا أن نشير إلى أن سكان بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية كانوا حوالي مليونين وسبعمائة ألف نسمة حسب تقديرات بعض الباحثين. وهذا الرقم اعتمد على أدلة استقرائية وتحليلية، ولم يعتمد على إحصائيات دقيقة لعدم توفرها، وهو يبدو معقولا في ضوء الحقيقة القائلة إن بلاد الشام في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، أي بعد قرن من قدوم الحملة الأولى، كانت قد فقدت الكثير من سكانها نتيجة المذابح الصليبية الشهيرة، ونتيجة الهجمات الاستردادية الإسلامية، ونتيجة الهجرات الإجبارية التي تصحب الاستيلاء على كل مدينة. ومن ناحية أخرى فإن أعداد الصليبيين الذين بقوا في فلسطين بعد الحملة الأولى كان قليلا. ولم يكن ممكنا أبدا تعويض نقص السكان في المستوطنات الصليبية بأعداد القادمين من أوروبا التي كانت تتناقص باستمرار. كما أن مدنا كثيرة تعرضت للتخريب من جانب المسلمين أو الصليبيين مثل حمص وبعلبك وحماة وعسقلان وقنسرين والرملة وطبريا التي دمرها صلاح الدين الأيوبي سنة (582هـ/ 1187م) حتى لا يفيد الصليبيون من تحصيناتها إذا نجحوا في استردادها. وفي وسعنا أن نسوق عشرا الأمثلة من المصادر العربية واللاتينية عن تأثير العمليات العسكرية في البنية الديموغرافية لمدم بلاد الشام.

وربما يكون من الصعب تقدير المساحة المأهولة من بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، بيد أن القسم الأكبر من سكان هذه البلاد آنذاك كانوا خارج أسوار المدن موزعين على حوالي ستة عشر ألف قرية. وكان سكان هذه المناطق من الفلاحين ومن البدو الرحل. ويبدو أن أحوال البدو لم تتأثر كثيرا بالغزو الصليبي لوقوعهم على هامش

مناطق الصراع والقتال، على الرغم من مشاركتهم في القتال أحيانا كثيرة. أما الفلاحون من سكان القرى فإنهم كانوا الفريسة السهلة على الدوام لأي هجوم صليبي يشنه المستوطنون المحليون، أو الصليبيون القادمون من أوروبا. وقد بقيت الأغلبية الكبرى من الفلاحين متمسكة بالحقول والقرى. وبعد فترة من العداء الصامت تجاه الصليبيين تمثلت في رفض الفلاحين زراعة أرضهم، حتى لا يفيد الصليبيون منها، حدث نوع من التعايش الإجباري بين الطرفين. ومن ناحية أخرى فإن ما جرى من معارك بين الجانبين طوال مائتي سنة قد جاء في معظم الأحوال ليزيد من تعاسة الفلاحين بحكم طبيعة الريف التي تجعله مفتوحا أمام أي هجوم عسكري، بعكس المدن التي نعمت دائما بالأسوار والحصون والقلاع.

وكان من أسباب السيولة السكانية أيضا عمليات التفريغ السكانية، والإحلال السكاني، أي زرع مستوطنين جدد محل السكان الأصليين. فعندما تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة بيت المقدس سنة 1099م أخرجوا منها اليهود والمسلمين الذين راحوا ضحية مذبحة مروعة. وعندما تملك الفرنجة المدينة كانت خاوية تقريبا، ولم تكن أعداد الفرنجة تكفي لملء شارع واحد على حد قول وليم الصوري عندما تولى بلدوين حكم مملكة بيت المقدس. ومنذ البداية حرم الصليبيون على المسلمين واليهود دخول المدينة، كما أن الصليبيين سارعوا بعد أن خفت شهوة القتل في نفوسهم إلى وضع أياديهم على منازل أهل القدس الذين حصدتهم المذبحة الرهيبة، كما تم نقل سكان القرى المسيحية للسكن في المدينة التي كانت بحاجة إلى سكان يملأون فراغها الموحش. وكان ما حدث في المدينة المقدسة مثالا لما حدث في سائر المدن التي استولى عليها الصليبيون، بيد أن المسلمين الذين هجروا المدن الشامية والفلسطينية التي احتلها الصليبيون لم يلبثوا أن عادوا لسكنى مدنهم والإقامة فيها نتيجة الاستقرار ونمو الإمكانات الاقتصادية في مدن الساحل على نحو خاص. ولكن المصادر التاريخية لا تمدنا بأي معلومات عن أعداد أولئك العائدين أو نسبتهم العامة قياسا إلى سكان المدن التي حكمها الصليبيون وأقاموا فيها.

لقد عاش سكان الشام الأصليون في المدن والريف والصحراء، سواء في القطاع الإسلامي أو القطاع الصليبي، ولكن ما يلفت النظر هو أن نسبة المسلمين منهم كانت قليلة في المدن الصليبية الكبيرة، في حين تزايدت أعدادهم في المراكز العمرانية الصغيرة. وكان المسلمون في المناطق الصليبية يعانون من وطأة الضرائب الإضافية، ومن التعاسة

التي تسببها تسميتهم بـ«الكلاب» أو «الكفار» في بعض الأحيان. وفي الجانب الإسلامي كان يعيش عدد من الصليبيين في حال متدنية في المناطق التي حررها المسلمون طوال تلك المواجهة. وربما يكون مفيدا في هذا المقام أن نشير إلى حقيقة أن القضاء على مملكة الصليبيين وإماراتهم في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي لم يكن يعني على الإطلاق أن جميع الفرنجة قد رحلوا عن بلاد الشام. فقد رحل القادة والفرسان والقادرون على الرحيل، في حين بقي عامة الصليبيين الذين اعتنق بعضهم الإسلام، وبقي البعض الآخر على دينه ودخل في التركيبة الفسيفسائية للبنية السكانية في بلاد الشام.

أما المسيحيون الذين عاشوا في المناطق الصليبية فإنهم لم يلقوا معاملة حسنة من الصليبيين الذين اعتبروهم منشقين وخارجين على الدين المسيحي. كذلك فإن الصليبيين لم يقيموا أي علاقات ودية مع أي طائفة مسيحية باستثناء الموارنة في لبنان.

ومع استمرار المعارك، وتبادل النصر والهزيمة، كانت هناك باستمرار أعداد من الأسرى من الجانبين. وكان بعضهم يتحول إلى رقيق يباع في أسواق النخاسة، في حين يبقى البعض الآخر من الرجال والنساء لأداء الأعمال الحقيرة وهم في حال الأسر. والراجح أن هذه الأعداد الكبيرة من الأسرى، خصوصا من يباع منهم في أسواق الرق، كانوا يدخلون في نسيج التركيبة السكانية لبلاد الشام ويزيدونها تنوعا وثراء. وقد أثر هذا في الملامح الجسدية لسكان بلاد الشام نتيجة التزاوج والاندماج الذي أذاب الفروق العرقية بمرور الأجيال.

هكذا إذن تمثلت النتيجة الأولى للوجود الصليبي والصراع ضده في سيولة البنية السكانية في بلاد الشام، فقد هرب غير المقاتلين من السكان الأصليين أثناء العمليات العسكرية. وحين عاد أبناء المدن التي احتلها الصليبيون لم يعودوا جميعا، كما أن التركيب السكاني لم يعد إلى سابق عهده، إذ كان لا بد من توفير الأماكن للفرنجة المستوطنين على حساب السكان الأصليين. وقد توالت أعداد الصليبيين من أوروبا لتسبب خللا دائما وسيولة مستمرة في التركيب السكاني.

ومن ناحية أخرى كانت الهجرة من بلاد الشام صوب مصر سببا في زيادة عدد السكان. صحيح أن مصر قد تعرضت لهجمات الصليبيين على أراضيها بين الحين والآخر جعلتها تتعرض لعمليات عسكرية تسببت في هجرات داخلية، مثلما حدث أثناء الصراع بين جيوش أسد الدين شيركوه وجيوش الصليبيين بقيادة أماريك الأول (عموري)،

ومثلما حدث لأهالي دمياط والمناطق المجاورة أثناء أحداث الحملة الصليبية السابعة، بيد أن عدم نجاح الصليبيين في احتلال الأرض المصرية لفترة طويلة، مثلما حدث في بلاد الشام، جعل التأثيرات السلبية في البنية السكانية محدودة للغاية.

وعندما تولى سلاطين المماليك حكم مصر والشام صارت مصر هي المعقل الأخير الآمن للحضارة العربية الإسلامية. وبينما كان الصراع ضد الصليبيين في بلاد الشام يمر بأطواره الأخيرة لصالح المسلمين، دفعت الغزوات التترية بالكثير من أهل العراق والشام إلى مصر، كما أن هجوم الكاثوليك على مسلمي الأندلس دفع بالكثيرين إلى مصر. فإذا أضفنا إلى ذلك عدد من هاجروا طوال قرن ونصف قرن (قبل تولي المماليك الحكم) من فلسطين وشمال الشام تحت وطأة الحروب الصليبية، أدركنا مدى تزايد معدل النمو السكاني في مصر في تلك الأثناء. ومن المهم أيضا أن نشير إلى أن أولئك المهجرين قد عوضوا النقص الفادح في أعداد السكان نتيجة المجاعة الكبرى التي عرفت باسم «الشدة المستنصرية» في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي.

وقد كانت لأحداث الحروب الصليبية تأثيراتها السلبية من الناحية الاجتماعية، أي من ناحية الحياة اليومية في بلاد الشام. وقد تجلت هذه التأثيرات السلبية في عدة مستويات. فمنذ نجاح الصليبيين في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وقيام مملكتهم وإماراتهم الثلاث في القدس، وأنطاكية، والرها، وطرابلس، باتت بلاد الشام نهبا للمنازعات والصراعات السياسية التي أفرزت نتائج سلبية خطيرة على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، إذ أن النزاع والحروب لم تتوقف بين المسلمين والصليبيين، وبين السنة والشيعة، وبين أمراء المناطق الحضرية ونظرائهم في المناطق الريفية أو الصحراوية أو الجبلية، وبين أبناء الأسر الحاكمة ووزرائهم الطامعين وبين عامة السكان (وكان أغلبيتهم من العرب) والعساكر والوافدين (وأغلبيتهم من السلاجقة والتركمان) وبين الأتراك والأكراد. ولقد كانت هذه المنازعات والصراعات المسلحة مصدر اضطراب أمني وخلل اجتماعي خطير، إذ كان أحدها يكفي لتعكير صفو الحياة اليومية والإضرار بالصالح العام للمجتمع، بيد أنها تجمعت لتنشر مظاهر انعدام الأمن، وحدة الخروج على القانون بشكل متصاعد، وبروز اللصوصية، وقطع الطريق، والسطو. ويشير أسامة بن منقذ إلى وجود عصابات لقطع الطريق في تخوم بعلبك وشيزر ونابلس. ولم تكن تلك هي المناطق الوحيدة التي راحت نهبا لعبث مثل تلك العصابات بطبيعة الحال.

وعلى الرغم من ذلك فإن الحياة استمرت في سيرها ولم تتوقف. وعادت الحياة تزدهر مرة أخرى في بعض المناطق التي حررتها جيوش صلاح الدين، بيد أن بعض المناطق التي دمرها لاعتبارات أمنية وعسكرية، مثل عسقلان، خربت بعد أن كانت من المراكز الحضرية المزدهرة، بحيث بكى الناس وأسفوا عليها. كذلك ازدهرت الحياة في المناطق التي كانت بعيدة عن خطوط الحرب التقليدية، فكلما كانت المنطقة منطقة حرب كان التدهور السكاني والاجتماعي واضحا، والعكس صحيح تماما. إذ أن المناطق التي شهدت نوعا من التعايش السلمي، بسبب الضرورات الاقتصادية، مثلما حدث في بانياس عندما اقتسم أهل دمشق والصليبيون المناطق الزراعية، ومثلما كانت الضرورة الاقتصادية تسمح بالحفاظ على أمن طرق التجارة وقوافلها في عكا. هذه المناطق عاشت قدرا من الازدهار النسبي، بيد أنه لم يلبث أن تدهور في ظل الحركة الاستردادية التي قادها صلاح الدين الأيوبي وأحداث الحملة الصليبية الثالثة.

أما تأثير الحروب الصليبية في النظام القيمي والأخلاقي في العالم العربي، فيمكن أن نرصده من خلال الحقيقة القائلة بأن تلك الحروب الطويلة المرهقة كان لها من الإفرازات السلبية ما يفوق إفرازات الحروب العادية. فقد وقعت أحداث الحملة الصليبية الأولى في زمن كان العالم العربي الإسلامي يعاني من شرور التمزق والتشرذم السياسي، بحيث فشل في القضاء على الموجة الصليبية الأولى، على الرغم من موارده الهائلة بشريا واقتصاديا، وقبل أن يستوعب المسلمون الصدمة كان قد مر حوالي خمسون عاما.

هذه الحقيقة كانت لها انعكاساتها على جماهير الناس في العالم العربي، فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة التي زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد.

لقد شعر الناس في المنطقة العربية بمدى عجز الحكام، وامتلأت النفوس في كل مكان بروح العجز، وشاعت روح من التقوى السلبية، والتدين العاطفي الهروبي. وقد تجسد هذا كله في انتشار الطرق الصوفية الجاهلة من الدراويش وأتباعهم الذين رددوا الخرافات وأنباء معجزات الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ. ومع أن التصوف بمعنى النسك والزهد والتفقه في الدين قد ظهر على استحياء في القرن الثالث الهجري، ثم انتشر رويدا رويدا، فإنه لم يتخذ شكل الظاهرة السائدة في الحياة الاجتماعية قبل العصر الأيوبي.

لقد كان هناك فريق من المتصوفة، أقرب إلى الفلاسفة، يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات، ولكن مصرع شهاب الدين السهروردي، المعروف باسم «السهروردي المقتول» بأمر من صلاح الدين الأيوبي سنة 587هـ، بتحريض من علماء حلب وبفتوى منهم، كان مؤشرا على اتجاه يناصر الدراويش الذين كانت تؤيدهم جيوش المريدين من العامة. وتمثل اهتمام الأيوبيين بهذا النمط من التصوف في اعتماد صلاح الدين الأيوبي عليهم في إذكاء حماسة الجنود من جهة، وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليها من جهة أخرى. وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة ظهر المتصوفة الدراويش وأصحاب الطرق. ومع مرور الوقت بدأت تظهر أنماط غريبة من الدراويش لاسيما في عصر سلاطين المماليك حتى وجد منها نحو ست وثلاثين فرقة في ذلك العصر.

لقد سلك الاتجاه العام للتصوف اتجاها سلبيا ضم الكثير من الدراويش والمجاذيب. وكان التفاف عامة الناس حول هذا النمط من المتصوفة – الدراويش تعبيرا عن روح اليأس، والهروب إلى المجهول، التي سيطرت على قطاعات كبيرة من سكان المنطقة العربية زمن الحروب الصليبية.

ولقد استغل سلاطين المماليك الصوفية في تدعيم سلطانهم، والترويج لأنفسهم عند عامة الناس. ومنذ البداية كان السلطان الظاهر بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش والمجاذيب، وكذلك فعل المنصور قلاوون، وسائر سلاطين المماليك، وكانت أوقافهم على الصوفية، واهتمامهم ببناء الخانقات لهم، تعبيرا عن ذلك الموقف. لقد ورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين الاهتمام بالصوفية وتشجيعها مثلما ورثوا عنهم كثيرا من الأمور الأخرى. وبينما كانت البداية نابعة من رغبة صلاح الدين في استخدام الصوفية للتعبئة المعنوية لجنوده، ومحاربة التشيع، انتهى الأمر في عصر سلاطين المماليك بالرغبة في تدعيم سلطة السلطان ومكانته عند جماهير العامة.

وقد أخذ الناس عن الصوفية عدة عادات وممارسات ذميمة أشاعت المزيد من التفسخ في الحياة الاجتماعية، منها: لبس الغريب من الثياب، والغناء، والرقص على أنغام الدفوف باسم الدين، وشرب الخمر، وتدخين الحشيش أو أكله. وقد عرف في ذلك العصر باسم حشيشة الفقراء (والفقراء هنا بمعنى الصوفية).

وعلى كل حال فإن اتساع التصوف على نطاق الدراويش والمجاذيب، وتقلص التصوف الفلسفي الذي مثله ابن عربي والسهروردي المقتول وأمثالهما كان تعبيرا عن

إفراز سلبي آخر من إفرازات الحروب الصليبية وتعبيرا عن روح العجز والتدهور الأخلاقي الناجمة عن الوجود الصليبي، والتوسع على حساب المسلمين طوال جيلين قبل أن يبدأ رد الفعل الإسلامي المنظم.

وعندما بدأت حركة الاسترداد الإسلامية تشتد استخدم الأيوبيون الحركة الصوفية لتعبئة المشاعر الدينية ضد الأعداء، بيد أن نجاح هذا السلاح المعنوي زمن صلاح الدين كان يوازيه تحول في الحركة الصوفية، بحيث باتت عنصرا سلبيا في الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك. وتقتضي منا الحقيقة التاريخية أن نقرر أن التيار السلبي الهروبي الذي مثلته الحركة الصوفية عارضه تيار إيجابي ديني كان هو البذرة التي نمت منها شجرة الجهاد. فقد شن عدد من الفقهاء هجوما قاسيا على الصوفية الذين أرادوا صرف الناس عن واجب الجهاد ضد الصليبيين بالحديث عن خمر الجنة، والعشق الصوفي، والحب الإلهي، وحب الجمال المطلق، وما إلى ذلك. وكان الشاعر المتصوف «ابن الفارض» – في حياته وكتاباته – تجسيدا لهذه الروح الهروبية. وقد أدان الشيخ تقي الدين بن تيمية وأمثاله هذا التقاعس، ووصم أبن تيمية معاصريه بأنهم «قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة». ومن هذا التيار الذي سبق عصر أبن تيمية كانت روح المقاومة التي استمرت طوال قرنين من الزمان.

كذلك عانت المجتمعات العربية الإسلامية كثيرا من مظاهر التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي. فانتشر الشذوذ الجنسي بشكل واسع، وهو من أخطر الأمراض الاجتماعية على الإطلاق. ذلك أنه إذا لم يكن من أسباب الانهيار الاجتماعي فهو على أقل تقدير من مظاهر هذا الانهيار. وربما يكون من عوامل تفشي هذا الشذوذ غياب القوات الرئيسية في الجيوش المتحاربة فترات طويلة في ميدان القتال بشكل كان يحول بينها وبين الاستقرار اللازم لحياة الأسرة، فضلا عن أن جزءا كبيرا من الجيوش، لاسيما في عصر سلاطين المماليك، كان من جنود غرباء انتزعوا من بلادهم ليباعوا في أسواق النخاسة، وينشأوا بعد ذلك في ظل نظام تربية المماليك. وقد اشتهر عدد كبير من سلاطين ذلك العصر «بمحبة الذكران». كما أن الشذوذ الجنسي انتشر بين المتصوفة بدرجة جعلت بعض الحكام يأمرون بألا يدخل إلى أماكن الصوفية «شاب أمرد» أو صبي مليح، أما الدعارة فقد صارت من أكثر المهن رواجا وتنظيما في ذلك العصر، إذ كانت الدولة المملوكية تفرض على من يمارسنها ضريبة معينة كانت من ضمن إرادات

الخزانة، وكانت المرأة المسؤولة عن العاهرات تسمى «ضامنة المغاني». ويبدو أنه كانت هناك أحياء خاصة بالبغايا في المدن.

على أن أهم النتائج السلبية للحروب الصليبية على المستوى الاجتماعي تمثلت في توتر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، لاسيما في بلاد الشام. وعلى الرغم من أن الفرنجة الصليبيين قد عاملوا المسيحيين الأرثوذكس معاملة قاسية، إذ استولوا على كنائسهم وحولوها إلى كنائس لاتينية، كما منعوا الأقباط من زيارة بيت المقدس على اعتبار أنهم هراطقة، على الرغم من هذا وغيره.. إلا أن مشاركة المسيحيين الموارنة والسريان والأرمن في بلاد الشام في مساعدة الصليبيين قد زرع بذور الشك والمرارة التي تولدت منها أحداث عنيفة ضد المسيحيين تصاعدت حدتها طوال عصر الأيوبيين والمماليك من بعدهم.

ومن ناحية أخرى، أدت الحروب الصليبية إلى اختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق، إذ تحول المسلمون إلى أقليات في المدن التي احتلها الصليبيون من جراء المذابح الصليبية والهجرات الضخمة التي نجمت عنها.

كما أن بعض المسلمين آثروا أن يرتدوا عن دينهم فاعتنقوا المسيحية خوفا على حياتهم. وكان من الطبيعي أن يتمسك أبناء الأقليات الإسلامية في المناطق التي خضعت للصليبيين بهويتهم الحضارية، ويؤكدوا انتماءهم للحضارة العربية الإسلامية بشتى الصور. فقد كان المسلمون من سكان المناطق الريفية المجاورة لعكا يخفون الأسرى المسلمين عن عيون الصليبيين ويساعدونهم على الوصول إلى المناطق الإسلامية. كذلك تركزت الحياة في قرى الريف الخاضعة للصليبيين حول المساجد الصغيرة، واستمر الفقهاء والقضاة في مباشرة خدماتهم الدينية وغير الدينية لأبناء هذه القرى. لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم في شؤون الزواج والميراث وغيرها. أما علاقة الفلاحين المسلمين بالصليبيين فكانت علاقة تقوم على الاستغلال والابتزاز.

أما التأثير الاقتصادي للحروب الصليبية في العالم العربي فقد اتخذ أبعادا غير متسقة. فبينما كانت الزراعة قد وصلت حدا بعيدا من التدهور والتخريب في بعض المناطق، ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية في مناطق أخرى، وبينما ازدهرت بعض المدن الواقعة على طرق التجارة البرية والبحرية اضمحلت مدن أخرى كانت مزدهرة قبل عصر الحروب الصليبية. وإذا ما تذكرنا دوافع الجمهوريات التجارية الإيطالية للاشتراك في الحروب والحملات التي جردها الغرب الأوروبي، والاتفاقيات التي عقدوها مقابل

مساعداتهم البحرية للصليبيين، أدركنا أن زيادة نصيبهم في تجارة البحر المتوسط والتجارة العالمية كانت على حساب نصيب التجار المسلمين. وبينما لاحظ ابن جبير ازدهار التجارة الداخلية، ينبغي أن نلاحظ أن سيادة العملات الأوروبية، والإيطالية، خصوصا في أسواق المنطقة العربية، كانت مؤشرا ودليلا على تدهور السيادة الإسلامية على التجارة العالمية. فإذا ما أضفنا إلى ذلك كله النتائج السلبية للنظام الإقطاعي المملوكي على الحرف والصناعات والتجارة الداخلية التي باتت تئن من وطأة الضرائب الإضافية، والحمايات التي فرضت على أرباب الحرف والأسواق، أدركنا أن الناتج النهائي للاستجابة الاقتصادية للصراع الإسلامي – الصليبي كان سلبيا.

لقد عانت المناطق الريفية في بلاد الشام أكثر من غيرها من الآثار السلبية للحروب الصليبية. ففي ظل الفاطميين والسلاجقة عاش الفلاحون حياة تقرب من القنانة في كثير من الأحيان نتيجة العلاقات النهبية التي ربطت أولئك الفلاحين بسادتهم من أصحاب الإقطاعيات. ومع تزايد الإقطاع الشخصي صارت الأرض الزراعية مجرد مورد للحصول على النفقات اللازمة لتجنيد المقاتلين، ولم يعد أصحاب الإقطاعيات يهتمون بالأرض أو رفع كفاءتها، أو وسائل الري والصرف، وسائر أوجه العناية الواجبة بالأرض الزراعية. وكانت النتيجة أن تدهورت إنتاجية الأرض الزراعية إلى حد مخيف. ومن ناحية أخرى، فإن أحوال الفلاحين في المناطق الخاضعة للأتراك السلاجقة لم تكن أفضل من أحوالهم في المناطق الخاضعة للصليبيين. ففي الريف لم يكن ثمة فارق ملحوظ بين معاملة صاحب الإقطاع المسلم، (السلجوقي) أو صاحب الإقطاع الصليبي للفلاحين. وقد حدثنا الرحالة المسلم ابن جبير عن أن المسلمين و الفرنجة كانوا يتقاسمون الإنتاج الزراعي في منطقة بانياس، كما تحدث عن حسن معاملة الصليبيين لفلاحيهم في منطقة تبنين فقال: «سكانها كلهم مسلمون، وهم مع الإفرنج على حال ترفيه نعوذ بالله من الفتنة، ذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عن أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الفرنجة من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله».

وما لم يقله ابن جبير يمكن استنتاجه من بين السطور، وتؤكده المصادر التاريخية الأخرى. وهو أن النظام الإقطاعي العسكري، الذي قام على أساس الأرض الزراعية، قد هبط بأحوال الفلاحين إلى مستوى أكثر تدنيا من ذي قبل. وفي المناطق الصليبية كان الفلاحون مربوطين بالأرض بشكل عام، ولكنهم كانوا ملزمين ببعض الضرائب. وإذا كان الفلاحون في تبنين قد لقوا معاملة أفضل على نحو ما ذكر ابن جبير فالسبب في تقديرنا راجع إلى حقيقة أنهم جميعا من المسلمين، وأن الصليبيين بحاجة إلى قوة عملهم في هذه المنطقة بسبب قلة مواردهم البشرية، وينبغي أن نلاحظ أن أحوال الفلاحين المسلمين في المناطق الصليبية لم تكن كلها على هذا المستوى، ففي مناطق صليبية أخرى كانوا أشبه بالسجناء. بيد أن هذا لا يعني، من ناحية أخرى، أن أحوالهم كانت أفضل في ظل النظام الإقطاعي العسكري في المناطق الإسلامية. ولدينا نص أورده أبو شامة لا يخلو من دلالة هامة. ففي حوادث سنة (545هـ) عاث الفرنجة فسادا في نواحي حوران، فعزم نور الدين على الخروج لقتالهم، «وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه على العبث والإفساد في الضياع، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم». هذا النص يكشف عن أن الفلاحين كانوا تحت عبء ثقيل بدليل أن نور الدين محمود طلب من الأمراء أن يخففوا عنهم، ويحسنوا الرأي فيهم. وفي تقديرنا أن مثل هذا الأمر لا يصدر عن نور الدين إلا إذا كان هناك ما يستوجب إصداره. وعلى أي حال، فإن هناك أدلة عديدة على سوء أحوال الفلاحين آنذاك.

وعلى الرغم من الانتعاش المؤقت الذي شهدته الزراعة في بعض المناطق الإسلامية والصليبية، لاسيما في القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن الآثار السلبية للحروب الصليبية كانت على المدى الطويل كارثة على الزراعة والإنتاج الزراعي في مصر وبلاد الشام على السواء. فقد كانت العمليات العسكرية من الجانبين سببا في خراب مناطق كثيرة. فقد ذكر ابن جبير - الذي زار المنطقة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي - أن الطريق من حمص إلى دمشق كان خرابا مهجورا «قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة». ومن الواضح أن مناطق كثيرة خربت زراعتها بحيث أضطر الفلاحون إلى النزوح للمدن حيث يجدون الخبز من خلال العمل في أي حرفة متدنية، وحيث يجدون الأمان داخل أسوار تلك المدن.

ولدينا عديد من الأمثلة على نهب الريف خلال زحف الجيوش وأثناء القتال. وقد أدى ذلك إلى تدهور الإنتاج الزراعي. ومنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي

حتى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (658-676هـ/ 1260-1277م) عانت بلاد الشام أوقاتا عصيبة بسبب نقص الإنتاج الزراعي، وتعرضت مناطق عديدة لخطر المجاعة أكثر من مرة. وقد كان للإجراءات الأمنية الهائلة التي قام بها بيبرس أثرها الفعال في عودة الاستقرار، وزيادة الإنتاج الزراعي في مناطق الحدود في بلاد الشام وأعالي الفرات.

ومن ناحية أخرى كانت للتنظيم الإقطاعي العسكري آثاره السلبية على المدى الطويل، ولاسيما بعد التعديلات الجوهرية التي جرت على النظام الإقطاعي المملوكي في عصر الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم ثلاث مرات، آخرها وأهمها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إذ أصبح الإقطاع الواحد موزعا في أقاليم مختلفة من البلاد. والأهم من ذلك أن الإقطاع صار يتغير بتغير وظيفة صاحبه.

والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء هذه السياسة عدم التمكين لنفوذ الأمراء إذا استقروا فترة طويلة في إقطاعياتهم. وهو ما نجحوا فيه بالفعل. ولكن هذه السياسة أثبتت أنها كارثة على الاقتصاد الزراعي خاصة، وعلى الكيان الاقتصادي والسياسي للدولة عامة. ذلك أن صاحب الإقطاع، الذي كان يعلم مسبقا أنه لن يستمر في حوزته زمنا طويلا، لم يكن يولي الأرض الزراعية أي اهتمام أو رعاية حقيقية. ومع إهمال وسائل الري والصرف تضاءلت إنتاجية الأرض. وأصبحت العلاقة بين صاحب الإقطاع والفلاحين علاقة نهبية بكل المقاييس. وكان لتدهور الإنتاج الزراعي، وتدني أحوال الفلاحين أثرهما السلبي على النظام الإقطاعي العسكري الذي قامت عليه دولة سلاطين المماليك. وهكذا، فإن التنظيم الإقطاعي الذي قام على أسس أن الأرض الزراعية مصدر الثروة والقوة العسكرية اللازمة لتعبئة الجيوش اللازمة لمواجهة الصليبيين كان سببا في إنهاك موارد هذه الأرض الزراعية، وقد أدى ذلك بدوره إلى هز أركان النظام الإقطاعي. وقد أدت هذه التفاعلات الجدلية السلبية في نهاية الأمر إلى سقوط دولة سلاطين المماليك.

وقد عرفت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عددا من الصناعات والحرف التي اكتسبت لنفسها شهرة تاريخية في العالم المعروف آنذاك.

إذ عرف العالم من منتجات الشام: الورق، والسكر، والزجاج، والخزف، والقيشاني، وصناعة الأثاث، إلى جانب صناعة النسيج، والأقمشة الشهيرة، والعقاقير، والعطور، والخمور، والنبيذ. وقد أنتعش بعض هذه الحرف في القرن السابع عشر الميلادي واكتسب

قوة إضافية حين فتحت أمامه أسواق جديدة. وتوسعت أسواقه القديمة بفضل نشاط الجاليات التجارية الإيطالية في مدن القطاع الصليبي. كذلك فإن صياغة الذهب والفضة، وصناعات الحديد والأسلحة، والجلود، والصابون والسجاد انتعشت على نحو لم يسبق له مثيل إبان ازدهار الكيان الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي، والهدوء النسبي الذي ساد في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي.

ولكن العمليات العسكرية العنيفة التي جرت في عصر صلاح الدين الأيوبي، ثم تدهور الكيان الصليبي تحت ضربات بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف، جعلا الإيطاليين ينقلون عددا من هذه الصناعات إلى بلادهم، ولم يلبثوا أن تفوقوا في بعضها، وأصبحوا مصدرا هاما من مصادرها في التجارة العالمية. إلا أن صناعة النسيج الشامية ومنتجاتها ظلت طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تسيطر على الأسواق الخارجية، ولم تعان أي منافسة إيطالية قبل القرن السادس عشر. وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي نعمت به بلاد الشام خلال الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك.

أما التجارة فكانت المجال الذي تجلت فيه الآثار السلبية للحروب الصليبية في أوضح صورها. فحتى بداية الحروب الصليبية كانت التجارة بين الشرق وأوروبا تسير في اتجاه واحد تقريبا لصالح الشرق. ولكن نجاح الحملة الصليبية الأولى ترتب عليه أمران غاية في الأهمية، أولهما: أن كل موانئ الساحل الشرقي للبحر البيض المتوسط صارت تحت سيطرة أوروبا حتى سنة 1187م عندما نجح المسلمون بقيادة صلاح الدين في استرداد معظم مدن الساحل. ثم بقي بعض الموانئ بيد الصليبيين، وأهمها عكا التي كان سقوطها سنة 1291م نهاية الوجود الصليبي في المنطقة العربية، وثانيهما: تأسيس الأحياء التجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون، وما نتج عن ذلك بالضرورة من تعاظم النفوذ الإيطالي، ثم الأوروبي عامة، في التجارة العالمية على حساب التجار المسلمين. وعلى الرغم من الأزهار التجاري الذي شهدته بلاد الشام آنذاك إلا أن تعاظم الدور الأوروبي في التجارة العالمية بعد ذلك، قد جاء على حساب التجارة والتجار المسلمين، وخصص من دورهم الذي كان هو الدور الأكبر في التجارة العالمية حتى ذلك الحين.

لقد استولى الصليبيون على موانئ الساحل الشرقي المتوسط خلال فترة النمو والتوسع التي أعقبت نجاح الحملة الأولى، واستخدموا هذه الموانئ من الناحيتين

العسكرية والتجارية معا. وكانت عكا هي أهم موانئ التجارة العالمية والداخلية في بلاد الشام طوال تلك الفترة. ولم تكن التجارة العالمية في المناطق الصليبية قاصرة على عكا بطبيعة الحال، فقد كانت مدينة صور مدينة تجارية جاءت بعد عكا في مكانتها التجارية.

كذلك لعبت كل من طرابلس، وبيروت، واللاذقية، وصيدا دورا هاما في الانتعاش التجاري للكيان الصليبي، كما وجدت في كل منها جالية إيطالية كبيرة. كما لعب الايطاليون دورا هاما في تنشيط كل من الصادرات والواردات بفضل الحريات والمزايا الكبيرة التي تمتعوا بها في سائر المدن الصليبية. وقد استثمر الايطاليون أموالا جمة في التجارة عبر موانئ بلاد الشام، ثم خرجوا إلى الإسكندرية التي سمحت لهم السلطات المصرية بالإقامة فيها بقصد تشجيع التجارة. ولأن طبيعة هذه الدراسة لا تسمح بالتفصيل فإننا نود أن نشير في سرعة إلى أن مصر ظلت طوال القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي تتحكم بتجارة العبور ما بين أوروبا، والهند، والمنطقة العربية، على الرغم من أن بعض منتجات الهند قد بدأت بالفعل تتسرب عبر ميناء عكا إلى أوروبا. وفي نهاية الأمر كان لابد للمسلمين من أن يفسحوا مكانا في تجارة البحر المتوسط للقوى التجارية الأوروبية النامية. وسرعان ما أخذت هذه القوى تكبر على حساب المسلمين. ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي أخذت العملات التي تصدرها الجمهوريات التجارية تسود الأسواق المحلية في مصر والشام.

لقد ازدهرت إلى التجارة الداخلية والخارجية في عصر الحروب الصليبية بسبب حرص كل من المسلمين والصليبيين على الموارد التي توفرها لهم عائدات التجارة. وقد لفت انتباه الرحالة المسلم «ابن جبير» أن «اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنجة غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك... والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب».

بيد أن خروج الصليبيين من بلاد الشام لم يكن يعني نهاية الدور الأوروبي في التجارة العالمية، وإنما نقل نشاطهم إلى مناطق أخرى، كما أنه لم يؤد إلى قطيعة تجارية مع دولة سلاطين المماليك، بل إن حجم التجارة، وعدد الجاليات التجارية زادا في المناطق الخاضعة لهذه الدولة. وعندما بدأت علامة التدهور تضرب داخل جسد هذه الدولة منذ القرن الخامس عشر الميلادي - لأسباب عديدة متشابكة - زادت سيطرة الأوروبيين على

التجارة العالمية. ومن الجدير بالذكر أن القرن الخامس عشر الميلادي قد شهد بداية المحاولات الأوروبية للسيطرة على تجارة الحر الأحمر، وتجارة المحيط الهندي أيضا.

على أي حال، فإننا نرى أن الاستجابة الاقتصادية للحروب الصليبية كانت كارثة على العالم العربي. حقيقة أن آثارها السلبية لم تظهر عقب خروج الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ولكن القرن الخامس عشر الميلادي قد شهد تجسيد هذه الآثار في انهيار الإنتاج الزراعي، وما ترتب عليه من تفسخ النظام الإقطاعي العسكري الذي تمت صياغة الدولة على أساسه، وتزايد معدل الاعتماد على الضرائب بالشكل الذي أدى إلى تدهور الحرف والصناعات، وخراب الأسواق، وضمور التجارة الداخلية.

وعندما تحول المماليك إلى التجارة الخارجية، ثم احتكرها السلاطين منذ عهد برسباي، كان ذلك تعبيرا عن إفلاس الأساس السياسي - الاقتصادي الذي بنيت عليه الدولة المملوكية. وجاء انهيار العملة تجسيدا للوضع المتردي الذي لم يلبث أن انكشف بوضوح عند الصدام بين دولة سلاطين المماليك المتهاوية والدولة العثمانية التي كانت في طور صعودها وفتوتها.

كانت الحروب الصليبية صداما عسكريا ومواجهة حضارية طويلة ومضنية بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوربي الكاثوليكي. وقد بدأت هذه المواجهة في وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت أقصى مراحل نضجها وتطورها. وفي خضم الصراع تجلت عوامل الضعف في العالم العربي الإسلامي، وتجلت في الوقت نفسه عوامل القوة التي ساعدته على الصمود أمام الغزوات الصليبية والانتصار عليها. وإذ لم تكن الحروب الصليبية هي السبب في توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها فإن تلك الحروب، التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان، كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية، ثم جمودها الذي أدى إلى تخلف المنطقة العربية. إذ كان على العالم العربي أن يحشد كل طاقاته وإمكاناته البشرية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والاجتماعية والثقافية جميعا في مجال العمل العسكري، أو العمل المعنوي والثقافي المصاحب للحرب. وهكذا، تعين على المنطقة العربية أن تعيد صياغة كل حياتها على أساس أن الحرب هي محور هذه الحياة. وعلى الرغم من هذا كله فان العالم العربي لم يكن قد دخل، بعد، في منحنى التدهور، إذ كان المستقبل لا يزال يحتفظ للحضارة العربية الإسلامية ببعض من أهم إنجازاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية.

وإذا كنا قد عرضنا في الصفحات السابقة لتأثير الحروب الصليبية في المجالات السياسية الاجتماعية والاقتصادية فانه يبقى لنا أن نحاول عرض الخطوط العريضة لهذا التأثير في مجال الحياة الفكرية والثقافية.

ونحن هنا نهتم بالثقافة في معناها الحقيقي الواسع، آداب المجتمع وفنونه، فكره وفلسفته، مثله وقيمه التي دارت من حولها أشكال التعبير الفكري، وألوان الإبداع الأدبي والفني التي تضمنتها الفنون الشعبية، بأنماطها التشكيلية والقولية.. وما إلى ذلك.

وربما يكون من المفيد أن نؤكد أن النتائج والآثار الفكرية والثقافية، التي تنتج من الحروب في مجتمع ما، لا تظهر بين عشية وضحاها من ناحية، كما أنها لا تختفي بمجرد انتهاء الحروب من ناحية أخرى. ولكن هذه التأثيرات تتخذ لنفسها شكل تيار اجتماعي/ثقافي مستمر ومتصاعد، بحيث يتبلور من خلال إبداعات هذا المجتمع في فنونه وآدابه، سواء منها الإنتاج الراقي المكتوب، أو ذلك التيار الشعبي مجهول المؤلف الذي يعبر عنه عادة بالآداب والفنون الشعبية.

لقد اقترنت جهود توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين بجهود أخرى لإعادة نشر المذهب السني، وتأسيس المدارس لتدعيم هذا المذهب في مواجهة الدعوة الشيعية. وكان فشل الخلافة الفاطمية الشيعية في فهم حقيقة الحركة الصليبية من جهة، ثم إخفاق هذه الخلافة في جهودها العسكرية ضد الصليبيين من جهة أخرى من أهم عوامل بروز الجهود السنية على محور الموصل - حلب. ثم جاءت نهاية الخلافة الفاطمية في خضم الصراع الإسلامي - الصليبي تجسيدا لانتصار المذهب السني على منافسه الشيعي. وأسس صلاح الدين المدارس في بيت المقدس، والشام، والقاهرة، والإسكندرية لتدعيم المذهب السني ومحاربة التشيع، ثم قرن ذلك بتقريب علماء السنة الذين كانت عليهم مهمات أخرى هي شحن روح الحماسة في نفوس المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم ضد الصليبيين.

ومن أولئك العلماء السنة خرج أرباب الأقلام الذين تولوا الوظائف العليا في الدول الأيوبية، وخرج القضاة، والمدرسون الذين كانوا يعقدون حلقات دروسهم في أورقة المدارس السنية التي انتشرت في كل مكان، وغالبا ما كانت الدولة تقربهم بسبب نفوذهم الواسع على الناس.

وكان صلاح الدين الأيوبي نفسه شديد الكلف بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه أشهر العلماء. لقد كان صلاح الدين مهتما بإعادة المذهب السني،

ولذلك قاوم أي محاولة تصور أنها يمكن أن تعوق حركته بهذا الاتجاه الذي كان يعتقد انه طريق التعبئة المعنوية اللازمة لضرب الوجود الصليبي. وربما يمكن تفسير قتل «السهروردي المقتول» بأمره، وبيع كتب مكتبة القاهرة الفاطمية في ضوء حماسة صلاح الدين الغامرة للمذهب السني، بيد أن ذلك لا ينفي أن هذين الإجراءين كانت لهما آثار بعيدة المدى في جنوح الحياة الفكرية والثقافية إلى المحافظة. لقد كانت النشاطات الفكرية والثقافية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مرآة صادقة على الحضارة العربية الإسلامية، إذ تجلت فيها كافة الخصائص والقسمات التي ميزت تلك الحضارة آنذاك. فباستثناء الغزالي لم يشهد ذلك القرن مفكرا من الطراز المبدع الذي عرفته القرون السابقة في تاريخ الثقافة والفكر العربي الإسلامي، بل إن الغزالي نفسه كان دارسا للفلسفة، واستخدم دراسته في هدم الفلسفة على حد تعبير أحد الباحثين. وكان الاتجاه العام للتيارات الفكرية يسير نحو تأمل ما أنجزه السابقون ومحاولة شرحه وتبسيطه، أو تجميعه.

وفي تقديرنا أن ذلك كان يعكس حال حضارة وصلت إلى أقصى نمو وتطور، وعندما بدأت تستبقر لتجني ثمار إنجازاتها الثقافية والفكرية فوجئت بهجوم أتباع دين آخر يهددون وجودها ذاته. ولذلك صار النشاط الثقافي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي موجها نحو الحفاظ على التراث الفكري المجيد أكثر منه نحو المشاركة في إثراء هذا التراث. ولم تبد في هذا القرن بادرة حقيقية تدل على الإبداع والتجديد اللذين ميزا حركة الثقافة العربية الإسلامية قبل هذا القرن. وبدأ العلماء يتجهون نحو التجميع والتركيب بدلا من الابتكار والإبداع والتجديد. وظهرت في هذا العصر مؤلفات ضخمة ذات طبيعة موسوعية، أو شروح وتفسيرات جامعة، أو كتب تبسط العلوم وتختصرها مثل: تفسير القرآن الكريم الكبير للفخر الرازي، وكتاب «المبسوط» للسرخسي، و «بدائع الصنائع» في الفقه للكاساني، وما إلى ذلك.

وفي عصر السلاطين المماليك تزايد اعتماد السلاطين على أهل العمامة من علماء الدين والفقهاء باعتبارهم واجهة شرعية للحكم، كما تزايد تدعيم الاتجاه المحافظ في الفكر والتأليف، بل إن مفكرا سلفيا مثل «ابن تيمية» تعرض لمحنة كبيرة لأنه أراد الرجوع بالفكر الإسلامي إلى بساطته الأولى - ولم يطرح اتجاها فلسفيا أو عقليا جديدا - في مواجهة تيار المحافظة والاجترار الذي أدى إلى الجمود. وقد ارتبط أهل العمامة ارتباطا وثيقا بالدولة المملوكية، وجنحت آراؤهم إلى تملق الدولة وتبرير أفعلها - على الرغم من

ظهور بعض المواقف المعارضة في بداية ذلك العصر على نحو خاص -. وكانت النتيجة تصاعد الاتجاه الاجتراري والتبريري، بل إن مجالس السلطان الغوري مثلا، تكشف عن عقم الحياة الفكرية، لأن الفقهاء كانوا يتبارون في حل مسائل فقهية مستحيلة على سبيل الرياضة العقلية، وكأنهم فرغوا من حل مشكلات زمانهم المتأزمة. ولكنهم وجدوا في اجتهادات الأئمة الأربعة مخزنا لا ينضب لحلول تقليدية في أمور غير تقليدية.

وفي ذلك العصر تصاعد الاتجاه نحو التجميع والتأليف الاجتراري، والشروح، والمبسطات وشروح الشروح. وغالبا ما يكون هذا الاتجاه علامة على التوقف الفكري والجمود الذي يعتري حضارة من الحضارات. وعلى الرغم من أن الموسوعات والمؤلفات الشاملة مثل: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للعمري، «ونهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي قد حفظت لنا تراثا فكريا مجيدا في نواحي الحياة كافة ألا أن هذا النمط من التأليف التجميعي، الذي لا يقوم على الابتكار، كان انعكاسا لظروف الحضارة العربية الإسلامية التي كانت تعيش عصره الأخير، وتحاول الدفاع عن نفسها ضد الهجوم الذي واجهته في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادي من جانب الصليبيين، وضد الخطر الذي واجهته بشكل مؤقت من الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي، وضد الهجوم الأوروبي المستمر في الأندلس، ثم محاولة الالتفاف حول المشروعات الصليبية المتأخرة في القرن الخامس عشر الميلادي. لقد كانت هذه الموسوعات، والمعاجم التي جمعت مفردات اللغة العربية مثل «لسان العرب» لابن منظور و «القاموس المحيط» للفيروزبادي تعبيرا عن رغبة في الحفاظ على الذات الحضارية التي يتهددها الهجوم من كل مكان. فقد كان هدف الموسوعات والمعاجم جمع شتات الإنجازات الفكرية للحضارة العربية بقصد حفظها من الضياع. لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية في حال الدفاع عن الذات، وأراد أبناؤها لم تراثها وحفظه.

وفي هذا العصر تجسد «السلف الصالح» مفهوما اجتماعيا ثقافيا، وصار البحث في تراث السلف الصالح من الفضائل الثقافية آنذاك. وظهرت تجليات هذا التوجه في سيادة الاتجاه المحافظ الذي لم يلبث أن تحول إلى التأليف التجميعي والاجتراري. وفي عصر سلاطين المماليك باتت مصر هي المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية، ولذلك توافد عليها اللاجئون من العلماء والفقهاء الهاربين من الظروف السياسية والاجتماعية

المتردية في المشرق العالم الإسلامي ومغربه. واتجهت أعمال أغلبية أولئك العلماء إلى جمع الموسوعات الضخمة التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة دون تدوين.

وعلى الرغم من التدهور الثقافي العام إلا أن حركة التدوين التاريخي كانت مزدهرة بشكل لافت للنظر. ففي ذلك العصر وصلت الكتابة التاريخية إلى أرقى مستوى وصلت إليه في تاريخ الفكر العربي. وكان ذلك العصر بمثابة المعرض الحي لمدى التنويع والثراء الذي وصل إليه التدوين التاريخي. بيد أن هذا التوهج الأخير شابته ظاهرة لافتة للنظر وهي ظاهرة «الذيول»، أو تأليف كتاب استكمالا لكتاب آخر مشهور، وربما يكون السبب في ذلك أن مؤلفي هذه الكتب «الذيول» كانوا يرغبون في ضمان الرواج لأنفسهم ولكتاباتهم بنسبتها إلى كتاب مشهور مثلما فعل السخاوي عندما ألف كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك». وربما يكون الاتجاه المحافظ الذي ساد الحياة الفكرية وراء مثل هذه الظاهرة التي تمثل جانبا هاما من جوانب الروح المحافظة، والسمة الاجترارية للتأليف آنذاك.

ولأن الشعراء والأدباء والمفكرين الرسميين انصرفوا إلى محاولات حفظ التراث، أو جمعه، أو شرحه، أو تكراره، ولأن معظمهم أصبحوا من أبواق الدعاية والتبرير لتعبئة الناس حول قائد بعينه، أو للترويج لاتجاه أو لآخر فقد فشل الأدب الرسمي في الإجابة عن تساؤلات كثيرة طرحها عامة الناس حول عجز الحاكم، ونجاح الصليبين، على الرغم من أنهم كانوا أقل عددا وعدة، وعلى الرغم من أنهم أقل شأنا في المفهوم الشعبي. أليس المسلمون هم أتباع الدين الحق؟ فلماذا كانت الهزيمة وانتصار الفرنجة الكفرة؟ لقد فشل الحكام ودعاتهم في تفسير هذه التناقضات، كما فشلوا في تبرير عجزهم عن دحر الصليبيين كل هذه السنوات الطوال. ولذلك تبلورت تيارات شعبية أخذت تعبر عن رؤيتها الوجدانية، وتفسيرها النفسي التعويضي لإحداث التاريخ. ومع مرور الوقت بدا الأدب الشعبي يطرح نفسه بديلا من الأدب الرسمي الذي ناله الجمود والاجترار. وقدم الأدب الشعبي من خلال الشعر، والزجل، والبلاليق (أبيات من الشعر) ومن خلال السيرة، والحكاية، والنادرة إجابات فنية تعويضية عما طرحه الناس تساؤلات محيرة مضنية.

وعلى الرغم من نجاح المسلمين النهائي في طرد الصليبيين من المنطقة في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلا أن ذلك تم تحت مظلة النظام الإقطاعي العسكري الذي أفرز نظما سياسية سرعان ما تسلطت على الناس عندما انتهت من أداء دورها التاريخي في التصدي للصليبيين. وقد أدى ذلك إلى تمرد الناس على سلطة المماليك المتصاعدة في الوقت الذي ازدهر فيه الأدب الشعبي، والفنون الشعبية.

ففي ذلك العصر الذي شهد أول هزيمة كبرى للمسلمين في تاريخهم، والذي شهد خطرا استيطانيا يقتطع أجزاء من قلب المنطقة العربية، وشاعت أنباء الرؤى والأحلام التي يرى النائم فيها النبي عليه الصلاة والسلام، أو الخضر، أو أحد أولياء الله الصالحين. وغالبا ما كانت هذه الرؤى والأحلام مرتبطة بالحرب والجهاد ضد الصليبيين.

كذلك كانت هذه الرؤى والأحلام تعبيرا عن الآمال التي تجيش في نفوس الناس حيال واقعهم المرير. وطفق المتعلمون يتكلمون عن القيامة وعلاماتها، ويتناقشون حول الجنة ونعيمها. وأزداد تأثير طرق الدراويش في ثقافة المجتمع، فشاعت أخلاقيات الحزن والاستسلام، والاعتقاد بالخوارق والمعجزات، وهو ما تكشف عنه تلك الطائفة الكبيرة من أخبار الخوارق والكرامات والخرافات التي تداولها مؤرخو تلك الفترة باعتبارها حقائق تاريخية. لقد بث الناس همومهم وأحزانهم في أنماط الأدب الشعبي الذي اختاروه وعاء لأمانيهم وأحلامهم، وإطارا لأفكارهم ورغباتهم.

ففي مجال الشعر ظهرت «النبويات» وهي قصائد مطولة كتبت في غرض جديد هو الاستغاثة بالرسول، والتوسل إليه برفع المعاناة. وتجلت هذه الظاهرة أيضا في مجال القصص الشعبي الذي كان القصاصون يلقونه على مسامع الناس في محافلهم وأنديتهم فيطربون لما تحمله هذه القصص في ثناياها من أحداث وشخصيات تحمل لهم التعويض من واقعهم البائس، وتوفر لهم الأمل وتنتقم لهم من رموز الظلم.

وحكايات «ألف ليلة وليلة» تحمل أصداء هذه التأثيرات التي تدور حول الحروب الصليبية، ففي «ألف ليلة وليلة» ثلاث حكايات تستغرق أكثر من مائتي ليلة هي:

1 - حكاية الملك نعمان وولديه شركان وضوء الزمان

2 - حكاية علي نور الدين ومريم الزنارية،

3 - حكاية الصعيدي وزوجته الإفرنجية

لقد سربت الحروب الصليبية بعض أحداثها ووقائعها إلى حكايات «ألف ليلة وليلة»، وفيها نرى التفاعل بين الفن الشعبي والتاريخ. لقد لجأ الفنان الشعبي إلى التعويض من خلال هذه الحكايات لكي يتجاوز الواقع المؤلم بحدوده المكانية، صوب اللامحدود زمانا ومكانا، ولكي يطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض. لقد جسدت هذه الحكايات البعد البطولي في تصور الناس. كما جسدت البعد الديني أيضا

في البطل الشعبي من ناحية، كما كشفت عن الكراهية والمرارة تجاه الفرنجة الصليبيين من ناحية ثانية، وعبرت عن آمال الناس ورؤيتهم للأحداث من ناحية ثالثة. وحكايات «ألف ليلة وليلة» نموذج ينسحب على السير الشعبية، وعلى سائر أنماط الأدب الشعبي التي أنتج عصر سلاطين المماليك الجزء الأكبر منها والتي عوضت ذلك العجز والجمود الذي ميز الحركة الفكرية الرسمية آنذاك.

لسنا ندعي أن هذا هو كل حصاد التجربة الصليبية في التاريخ العربي، لكننا حاولنا، قدر الطاقة، أن نشير في إيجاز ووضوح إلى معالم رئيسة في هذا الموضوع الذي يستحق دراسة قائمة بذاتها. بيد أن أهم ما لفت نظرنا في معالجتنا لتأثيرات الحروب الصليبية في العالم العربي أن الفصل بين تفاعلات الاقتصاد والسياسة، والاجتماع والثقافة، أمر يقرب من الاستحالة، فضلا عنه أنه يمكن أن يؤدي إلى متاهات ضبابية، كما يمكن أن يفتت الظاهرة التاريخية إلى شذرات متناثرة لا يفيد شيئا. والأهم من ذلك، أن رصد هذه التأثيرات يكشف عن مدى ما ينتج من استجابات في مجتمع يتعرض لعدوان يتهدد وجوده ذاته من ناحية، وما ينتج من فشل الإدارة العسكرية لمجتمع مدني بعد زوال الخطر الذي يتهدده من ناحية ثانية. وهذا ما يجعل الحركة الصليبية وتأثيرها في العالم العربي جديرة بالدراسة والتأمل.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

القسم الثاني

الدولة العثمانية

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

البدايات الأولى

1- جذور الأتراك وأصولهم

استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى في منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، وقد عرفت تلك العشائر بالترك أو الأتراك.

وفي النصف الثاني من القرن السادس الميلادي تحركت هذه القبائل، منتقلة من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة. ويذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هذه الهجرة؛ فالبعض يرجعها إلى العوامل الاقتصادية، حيث يرى أن الجدب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، وبالتالي فقد هاجرت بحثاً عن الكلأ والمراعي والعيش الرغيد، والبعض الآخر يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عدداً وعدة وقوة وهي القبائل المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وتترك أراضيها بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار.

ولقد اتجهت تلك القبائل المهاجرة غرباً، فنزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان، فأصبحت بالقرب من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة 21هـ/ 641م.

وفي عام 22هـ/ 642م تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها حيث كان الأتراك يسكنونها، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة بملك الترك شهر براز، فطلب من عبد الرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبد الرحمن إلى القائد العام سراقة بن عمرو، وقد قام شهر براز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يعلمه بالأمر، فوافق على ما فعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها.

وتقدمت الجيوش الإسلامية لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الإسلامية في تلك البلدان، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الإسلامية، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان والأقاليم ومنهم الأتراك فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية، واعتنق الأتراك الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة 31هـ، ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين.

وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها في تلك الأقاليم فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان، وتوغلت تلك الجيوش المظفرة حتى وصلت سمرقند، وما إن ظهر عهد الدولة الإسلامية حتى صارت بلاد ما وراء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الإسلامي وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة.

أما في العهد العباسي فقد ازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتاب. وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شؤون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف إلى تقليص النفوذ الفارسي، الذي كانت له اليد المطلقة في إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون.

وقد تسبب اهتمام المعتصم بالعنصر التركي بحالة سخط شديدة بين الناس والجند، فخشي المعتصم من نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هي (سامراء) التي تبعد عن بغداد حوالي 125كم شمالا وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ في الظهور في أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

ولقد كان لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في المشرق العربي الإسلامي، أثر كبير في تغيير الأوضاع السياسية في تلك المنطقة التي كانت تتنازعها الخلافة العباسية السنيّة من جهة، والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة ثانية.

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) لتشمل خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى. وكانت الري في إيران ثم بغداد في العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية في خراسان وما وراء النهر (كرمان) وبلاد الشام (سلاجقة الشام) وآسيا الصغرى (سلاجقة الروم) وكانت تتبع السلطان السلجوقي في إيران والعراق.

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام. فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية).

لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام 447هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض.

لقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، وبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على

العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة. ومنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم.

كان طغرل بك يتمتع بشخصية قوية، وذكاء حاد، وشجاعة، فائقة، كما كان متديناً ورعاً عادلاً، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشاً قوياً، وسعى لتوحيد كلمة السلاجقة الأتراك في دولة قوية.

وتوطيداً للروابط بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرل بك، فإن الخليفة تزوج من ابنة جفري بك الأخ الأكبر لطغرل بك، وذلك في عام 448هـ/ 1059م ثم في شعبان عام 454هـ/ 1062م تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسي القائم بالله. لكن طغرل بك لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث أنه توفي ليه الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام 455هـ/ 1062م، وكان عمره إذ ذاك سبعين عاماً، بعد أن تمت على يده الغلبة للسلاجقة في مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق.

تولى ألب أرسلان زمام السلطة في البلاد بعد وفاة عمه طغرل بك، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولي السلطة في البلاد، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلب عليها. وكان ألب أرسلان - كعمه طغرل بك - قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته. كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدول المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحرك لعمليات الفتوح التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية.

لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسع خارجي.

وعندما اطمأن على استتباب الأمن، وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية (العبيدية) في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي

تحت راية الخلافة العباسية السنيّة ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً أتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق. وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة 414هـ/ 1023م وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي (العبيدي) سنة 462هـ/ 1070م. ثم أرسل قائده التركي أتسز بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام فأنتزع الرملة وبيت المقدس من يد (الفاطميين) العبيديين ولم يستطيع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس.

وفي سنة 462هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر (العبيدي) وترك الأذان بـ (حي على خير العمل) فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال له: إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار.

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان دومانوس ديوجينس إمبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن إمبراطوريته. ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة (ملاذ كرد) في عام 463هـ الموافق أغسطس عام 1070م، قال ابن كثير: (وفيها أقبل ملك الروم ارمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والرخ والفرنجة، وعدد عظيم وعُدد، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، ومن الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً، ومعه مائة ألف نقّاب وحفار، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمجانيق، منها منجنيق عدة ألف ومائتي رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً، فقال له: أرفق بذلك الشيخ فانه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين، والقدر يقول: (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) (سورة الحجر: الآية: 72). فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً، بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة،

وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجهت الفئتان، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسر ملكهم ارمانوس، أسره غلام رومي، فلما أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال: لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال: كل قبيح، قال: فما ظنك بي؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني. قال: ما عزمت على غير العفو والفداء. فأفتدى منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه، وقبل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله).

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الإمبراطور ارمانوس الذي بلغ مائتي ألف، حدثاً كبيراً، ونقطة تحول في التاريخ الإسلامي لأنه أدى إلى إضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت من ركائز وأعمدة الإمبراطورية البيزنطية. وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين.

لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي، في معركة ملاذ كرد عندما قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههُنا سلطان يأمر ولا ينهى. وألقى القوس والنشاب، واخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني، الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله.

وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام 465هـ الموافق 1072م ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملك شاه.

ولقد كان ألب أرسلان رحيم القلب، رفيقاً بالفقراء وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله، وكان يكثر الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم.

وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولّما اشتهر بين الملوك بحُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقاصي الشام.

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملك شاه وعارضه عمه قارود بن جفري حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قارود وقتل وبذلك سيطر ملك شاه على دولة سلاجقة كرمان وعين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة 465هـ/ 1073م.

واتسعت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملك شاه لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة 468هـ/ 1075م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسي.

وأسند ملك شاه المناطق التي سيطر عليها في بلاد الشام، لأخيه تاج الدولة تتمش سنة 470هـ/ 1077م، وذلك من أجل متابعة الفتح. فأسس هذا الأخير دولة سلاجقة الشام كما عين ملك شاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل والياً على آسيا الصغرى التي كانت تتبع بلاد الروم، لمتابعة الفتح سنة 470هـ/ 1077م، فأسس هذا أيضاً دولة سلاجقة الروم. وقد استمرت هذه الدولة 224 سنة، ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليلة قتلمش بن إسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلمش الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة، وقد تمكن من فتح أنطاكية سنة 477هـ/ 1084م، كما تمكن ابنه داود من السيطرة على قونية سنة 480هـ/ 1087م ليتخذها عاصمة له. وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية في آسيا الصغرى؛ وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية

مسيحية إلى مدينة سلجوقية إسلامية. وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة 700هـ/ 1300م، وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية.

لقد كان سلاجقة الروم حريصين على تتريك آسيا الصغرى ونشر الإسلام فيها على المذهب السني وكانوا سبباً في نقل الحضارة الإسلامية إلى تلك الأقاليم، واسقطوا الخط الدفاعي الذي كان يحمي المسيحية في أوروبا ضد الإسلام في الشرق.

ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملك شاه، لم يفلح قائده أتسز في توحيد بلاد الشام ومصر، بعد أن شكل السلاجقة تهديداً فعلياً للدولة العبيدية (الفاطمية) داخل مصر.

وعندما أراد أتسز غزو مصر، حلت به الهزيمة على يد قوة من العرب، قبل مواجهة الجيش الكبير الذي أعده الوزير بدر الجمالي في رجب 469هـ/ 1076م، وقد أدى فشل أتسز إلى مزيد من التشرذم، والتمزق السياسي والصراع الدامي، لينتهي الأمر بمقتله سنة 471هـ/ 1078م.

كذلك لم يفلح ملك شاه في جعل الخلافة العباسية تتحول إلى أسرته السلجوقية، عندما زوج ابنته إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة 480هـ/ 1087م، فرزقت منه بولد، كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسي. ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده.

وبوفاة السلطان ملك شاه (447-485هـ/ 1055-1092م) انتهى دور القوة والمجد الذي عرفته الدولة السلجوقية في عهد السلاطين الثلاثة، طغرل بك، وألب أرسلان، وملك شاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع. ولقد ظهر في زمن ألب أرسلان وملك شاه الوزير نظام الملك الذي يهمنا معرفة سيرته ودوره في قوة الدولة السلجوقية.

فلقد قال عنه الذهبي: الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقرّاء والفقهاء. أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم، وأدرّ على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته.

تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملك شاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه.

وأشار على ملك شاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة، وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد، ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر والجزيرة. قال عنه ابن كثير: (من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة) وقام ولده عماد الدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي.

وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة 520هـ قتله الباطنيون، وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل. قال عنه ابن الأثير: «وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً».

ويحدثنا المؤرخ أبو شامة من آثار السلاجقة لاسيما في زمن نظام الملك: (فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها).

لما تولى ملك شاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس، وقالوا ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لأذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبين له ما في هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: أفعل في هذا ما تراه مصلحة! فقال له نظام الملك: ما يمكنني أن افعل إلا بأمرك، فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهر من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بغض حجّابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لا حاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته.

وكان يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول: إني أعلم بأني لست أهلاً للرواية ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ ، فسمع من القشيري، أبي مسلم بن مهر بزد، وأبي حامد الأزهري.

وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها، فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبياتا من الشعر يستحثه على المساعدة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى على الفتنة.

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء، حيث يقضي معهم جُلّ نهاره، فقيل له: (إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال: إنهما إذا دخلا عليّ قالا: أنت وأنت، يطروني ويعظموني، ويقولوا فيّ مالا فيّ، فأزداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر، وإذا دخل عليّ أبوعلي الفارندي ذكرني عيوبي وظلمي، فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه).

قال عنه ابن الأثير: (وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح).

كان من حفظة القرآن، ختمه وله إحدى عشرة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفّل، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة. وكان، إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات، وكانت له صلة بالله عظيمة وقال ذات مرة: رأيت ليلة في المنام إبليس فقلت له: ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجود له مشافهة وأنا أسجد له في كل يوم مرات، وأنشأ يقول:

مـــن لم يكـــن للوصـــال أهـــلاً فكـــلّ إحـــسانه ذنـــوب

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه، ومكفول الرزق، قال في هذا المعنى: كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه.

ومن تواضعه انه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خُراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى

العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرّب المقطوع إليه فأكل معه. وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه، ويدنيهم.

في يوم الخميس العاشر من شهر رمضان من عام 485هـ، وقد وحان وقت الإفطار، صلّ نظام الملك المغرب، وجلس على السماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء، والقرّاء، والصوفية، وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، ومن استشهد هناك من الأعيان، ويقول: طوبى لمن لحق بهم.

فلما فرغ من إفطاره، خرج من مكانه قاصداً مَضْرِب حَرَمه فبدر إليه حدث ديلميّ، كأنه مُستميح، أو مستغيث، فعلق به، وضربه، وحمل إلى مضرب الحرم، فيقال: إنه أول مقتول قتلته الإسماعيلية (الباطنية)، فأنبث الخبر في الجيش، وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملك شاه حين بلغه الخبر، مظهراً الحزن والنحيب والبكاء، وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجُود بنفسه، حتى مات، فعاش سعيداً، ومات شهيداً فقيداً حميداً. وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه. وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: لا تقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه، وتشهد ومات.

ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه، وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد.

ولقد كان للسلطان ملك شاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود، والذي عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلاً فبايعوه على تولي السلطة لأن أمه تركان خاتون، كانت ذات شأن كبير أيام ملك شاه. وقد استمر حكمه حوالي العامين من 485هـ/ 1092م وإلى عام 487هـ/ 1094م، حيث توفي هو وأمه. ثم جاء من بعده ركن الدين أبو المظفر بركيارق بن ملك شاه، واستمر حكمه حتى عام 498هـ/ 1105م، ثم تلاه ركن الدين ملك شاه الثاني وفي نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع محمد، واستمر حكمه حتى عام 511هـ/ 1128م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتي كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق. وقد انقرضت دولتهم عام 522هـ/ 1128م وذلك على يد شاهنات خوارزم. وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم، حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة،

تتصارع فيما بينها، حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى إلى عدة دول وإمارات صغيرة. ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال في عهد كل من السلطان طغرل بك الأول والسلطان ألب أرسلان والسلطان ملك شاه وأسلافهم. بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لا يوجد بينها أي تعاون يذكر.

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهي تلك الدولة التي وقفت ردحاً من الزمن أمام الهجمات المغولية وقد قامت معها إمارات سلجوقية في شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الروم، وهي السلطنة التي قاومت الحملات الصليبية، واستطاعت أن تحصرها في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى. أما سلطنة السلاجقة الأتراك فقد دمرتها الغارات المغولية المتلاحقة.

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية. ومن هذه العوامل:

1 - الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.

2 - تدخل النساء في شؤون الحكم.

3 - إذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك.

4 - ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي.

5 - عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

6 - الانقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل إلى حد المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.

7 - المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقادتهم.

8 - الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا وغير ذلك من الأسباب والعوامل.

إلا أن السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها:

أ- كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان، حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهيين الشيعة الروافض.

ب- منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلى توحيد المشرق العربي الإسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الرافضية.

ج- كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية بمثابة التمهيد لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنيّة.

د- قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

هـ- وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولي إلى حد كبير.

و- رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في تلك المناطق.

2- قيام الدولة العثمانية

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام 617هـ / 1220م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فأستقر في مدينة أخلاط، ثم بعد وفاته في عام 628هـ الموافق 1230م خلفه ابنه الأوسط ارطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس، وحين كان ارطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين وبيزنطيين، وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على البيزنطيين، وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضا في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم،

وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة 699هـ/ 1299م خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم.

عثمان مؤسس الدولة العثمانية

وكان عثمان الذي تنتسب إله الدولة العثمانية قد ولد لأرطغرل في عام 656هـ/ 1258م، وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم».

لقد كان الخطب عظيما والحدث جللا، والأمة ضعفت ووهنت وتسلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار.. وفي تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية.

وعندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري، ورجل سياسي، ومن أهم هذه الصفات: الشجاعة، فعندما تنادى أمراء البيزنطيين في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله في عام 700هـ/ 1301م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجاب بقية البيزنطيين لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية، وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين. كما أنه كان يتحلى بالحكمة، إذ بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من

الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد البيزنطيين، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له بسك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته. ولقد كان عثمان مخلصا لدينه، وعندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان هذا الإخلاص للدين من قبله تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين. ناهيك عن أنه كان صبورا، وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة 707هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفي سنة 712هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها، وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام 717هـ/ 1317م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته، حيث حدث بينه وبين قائد حاميتها اقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. وقد كان عثمان يتمتع بشخصية قوية، وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام، حيث أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم، بل إن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أي غزاة الروم، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ما جاء به الإسلام من نظام، وجماعة الإخيان (أي الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة جهادهم ضد البيزنطيين، وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذي سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل: إقامة المساجد والتكايا والخانات (الفنادق) وكانت لهم في الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا على نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس في التمسك بالدين، وجماعة (حاجيات روم) أي حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالإسلام، ومعرفة دقيقة بتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً، وغير ذلك من الجماعات.

وتروي معظم المراجع التركية التي أرّخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد افتكاكها من البيزنطيين في عام 684هـ/ 1285م وذلك لأنه توسم فيه العدل، وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك، فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وكان هذا العدل الكريم سبباً في اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام.

لقد استخدم عثمان الأول العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر أو الطغيان أو البطش، وإنما عاملهم بهذا الدستور الرباني: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:87-88]. والعمل بهذا الدستور الرباني يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

كم كان عثمان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة اولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك، وكذلك من جاء بعده.

ويرى كثير من الباحثين والمؤرخين أن عثمان كان متجردا لله في فتوحاته، فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كانت هذه الفتوحات بالنسبة له فرصة لتبليغ دعوة الله ونشر دينه، ولذلك وصفه المؤرخ احمد رفيق في موسوعته (التاريخ العام الكبير) بأنه (كان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام).

ويقول مصر اوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف».

هذه بعض صفات عثمان الأول والتي كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه

العميق للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هي: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية. أما ما عداهم فقد شن عليهم جهاداً لا هوادة فيه فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران.

الدستور الذي سار عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

يقول عثمان في وصيته: (يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مؤئلاً. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي أرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله. يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل).

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: (اعلم يا بني، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها).

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: (يا بني، إنني أنتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله، لنشر دين الإسلام. يا بني، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بخير. يا بني، إياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير. واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا).

وفي التاريخ العثماني المصور، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتي لأبنائي وأصدقائي، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائماً؛ لان الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله، ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر. يا بني: ليس في الدنيا أحد لا تخضع رقبته للموت، وقد اقترب اجلي بأمر الله جل جلاله، أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى عز وجل. اعدل في جميع شؤونك).

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش، وبالمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاتهم إلى أقصى مكان وصلت إليه راية الجيش المسلم وبالإمارة وبالحضارة.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية: فهي دعوة إلى الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة، وبحيث يكون حكم الله وأمره مهيمناً على كل شيء. كما أن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ولذلك أمر عثمان الأول ابنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له في معضلات الأمور وفي هذا الإرشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول الله.

لقد ساهمت الشورى في بناء الدولة العثمانية وتماسك رعاياها، وعززت السلطان السياسي والجهادي والدعوي للدولة وكانت الآراء تتقلب وفقا لجدارتها، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة، لقد كان الحكام العثمانيون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يستقر ولذلك حرصوا على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ولقد تطورت الشورى في الدولة العثمانية بل أصبح لكل إقليم حاكم يطلق عليه باشا وله مجلس الديوان يتشاورون في شؤون الحكم والرعية، ولقد شكلت مجالس وعيّن نواب وممثلون لكل جماعة وأتيحت الفرصة للاختيار وتطور الأمر حتى وصل في عهد السلطان محمد الفاتح إلى تشكيل مجلس استشاري لأمور الدولة.

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها كانت في زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى في إدارة شؤون الدولة فكان بالنسبة لهم من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله وإن كان تاريخ الدولة العثمانية لا يخلو من ظهور بعض السلاطين المتسلطين.

ولقد كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكبار الصالحين في عهده وكثيراً ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم ويتلقى مواعظهم ويستفيد من علمهم ويشاورهم في أمور الدولة وكان يتردد على المولى الشيخ (إده بالي) القرماني المولد.

إن وصية عثمان لابنه باحترام العلماء أصبحت منهجاً سار عليه حكام الدولة العثمانية وهذا يدل على التزام العثمانيين بشرع الله تعالى، لأن الشريعة أعطت اعتباراً خاصا للعلماء. ولهذا كان العلماء في مسير الدولة العثمانية مرجعا للسلاطين عند الفتن والملاحم والمحن وكانت لهم مقدرة عظيمة على حشد الناس تحت لواء الجهاد في سبيل الله تعالى، وإقامة شرعه على الرعية، وكانوا لا يسمحون للسلطان أن يتجاوز أحكام الشرع وإلا ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه.

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يكون نظامها السياسي على عقيدة التوحيد، وتطبيق شريعة الله، وتقوم على الشورى، وأن يقوم نظامها الاقتصادي على التعامل بالذهب والفضة، وعدم التعامل بالربا، وعدم الاستغلال والاحتكار، وعدم الاتجار بما حرم الله، وأن يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي والاجتماعي على أساس عقيدة الإسلام،

وأن يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم الشرعية، وأن تقوم علاقتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التي وضعها الله سبحانه وتعالى. ولهذا كان العلماء والفقهاء في الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله، وإقامة الحدود، وتحريم ما حرم الله، وعد استحلال ما حرم الله.

ولقد فهم عثمان الأول أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لا تتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض، وأن من أهداف الدولة الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الأمام ليصل نور الإسلام إلى كل إنسان. والدولة العثمانية كانت ترى أن من مسؤولياتها القيام بوظيفة الدعوة ونشرها في أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية. وهكذا أهتم العثمانيون بأمر الدعوة إلى الله على المستوى الخارجي وإدخال الناس في دين الإسلام ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلي في الدولة وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد بين عثمان الأول أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنق الحاكم المسلم وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك بإشراف الحاكم المسلم، فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين.

كما فهم أن أمة الإسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة في نفسها، مصلحة لغيرها، فهي الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

وهناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم، ومن وصية عثمان لابنه أنه بين له حق الرعية على الحاكم، ولقد حرص العثمانيون كحكام على تنفيذ حقوق الرعية، لذلك كان المجتمع العثماني شديد السمع والطاعة لحكامه ماداموا ملتزمين بالشريعة؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله.

وهكذا كان المجتمع العثماني دائماً يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى. وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم؛ من نصرة الحاكم ألا يهان، ومن معاضدته أن يحترم، وأن يكرّم، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكراماً لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه. كما أن المجتمع العثماني كان يناصح ولاة أمره ويرى ذلك من صميم الدين.

ولقد استقر في مفهوم المجتمع العثماني أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن باستقامة ولاتها، ولذلك نجد في التاريخ العثماني صورا مشرقة في تقويم الحكام وإرشادهم ونصحهم، فهذا المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي المتوفى سنة 932هـ، الذي كان عالماً عاملاً يمضي وقته في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، كريم النفس، طيب الأخلاق، عظيم المهابة، صدّاعاً بالحق، عفيف اللسان، لا يذكر أحدا بسوء، علاء الدين هذا له احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام 926هـ، ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب إلى الديوان، ولم تكن عادته الحضور إلى السلطان إلا لأمر عظيم، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له: أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام، فاستأذنوا له على السلطان، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس، وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعاً، فغضب السلطان وكان صاحب حدة، وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال الشيخ: بل أعترض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فإن أمامك جهنم وعليك عقاب عظيم، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك، فما كان من السلطان إلا الإذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب، وخضع للحق، وعفا عنهم جميعاً، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك بل طالبه أن يعيد الجميع إلى وظائفهم ففعل. ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأرسل إليه بعد ذلك وطلب منه أن يكون قاضي العسكر، وقال له: جمعت لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق، فكتب إليه يقول: وصل إلي كتابك، سلمك الله تعالى وأبقاك، وأمرتني بالقضاء، وأني أمتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهداً أن لا تصدر عني لفظة «حكمتُ» فأحبه السلطان محبة عظيمة.

وقد كان عثمان الأول يرى أن الجهاد في سبيل الله تعالى من وسائل نشر دين الله في كل الآفاق في، وأن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحدة لا شريك له. ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهداً في سبيل الله ولسان حاله يقول ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن

ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد كانت وسيلة العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض الجهاد في سبيل الله.

وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا في شن هجومهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التي تتحطم عليها محاولاتهم المتكررة. ولقد عمل العثمانيون على إزالة كل العوائق التي تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التي جاءت لتعطي الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطويرها.

ولقد جاهدت الدولة العثمانية في سبيل الله تعالى وفتحت الله على يديها دول وشعوب مازال الإسلام باقياً فيها حتى الآن، مثل دول البلقان. وعملت على حماية شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة، فكانت سبباً في بقاء الشمال الأفريقي على إسلامه ودينه وعقيدته، وكانت عاملاً مهماً في حماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى، إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة.

ويتبرأ عثمان في وصيته ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته ويدعو من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل. فالعدل هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الرباني؛ فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها. ثم إن ترك العدل يعد ظلماً، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا. ومن خلال هذه التوجيهات حرص عثمان على إقامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هذا المبدأ واقعاً تعيشه الأمة العثمانية من بعده، حيث كان يتحرك بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان. ولذلك حرص في وصيته على أن يحكم من بعده بالحق والعدل.

وفي فقرة أخرى من الوصية نجد أن عثمان يبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها من الدول، فالغاية التي قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الإسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم، ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود يتسلم به راية الجهاد من عالم كبير، وأن الغازي عثمان دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له

الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية.

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

ولقد ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها تبلغ 16.000 كيلومتر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذا على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهما: ازنيق وبورصة.

الفصل الثاني

السلاطين الأوائل

1 - السلطان أورخان بن عثمان

(726-761هـ/ 1327-1360م)

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وفي عام 727هـ الموافق 1327هـ سقطت في يده نيقوميديا، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة اسطنبول ، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري، أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر، واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشاً نظامياً.

وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة إستراتيجية تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده سليمان لعبور مضيق الدردنيل والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

وفي عام (758هـ) اجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولمّا أدركوا الضفة الغربية، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك، حيث كانت دولتهم ما تزال في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق التي نقلتهم إلى الشاطئ الأوروبي حيث فتحوا ميناء قلعة ترنب، وغاليبولي التي فيها قلعة جنا قلعة، وأبسالا، وردستو، وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح القسطنطينية.

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامي وحرص على إدخال نظام خاص للجيش، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

كما أنه أضاف جيشاً آخر عرف بالانكشارية، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكرياً وحربياً يعينون في مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى.

ولقد زعم معظم المؤرخين الأجانب أن جيش الانكشارية تكون من انتزاع أطفال النصارى من بين أهاليهم وإجبارهم على اعتناق الإسلام، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام (الدفشرية) وزعموا أن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم «ضريبة الغلمان» وأسموها أحياناً «ضريبة الأبناء»، وهي ضريبة زعموا أنها تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية، باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين، ومن هؤلاء المؤرخين الأجانب الذين افتروا على الحقيقة، كارل بروكلمان، وجيبونز، وجب. إن الحقيقة تقول إن نظام الدثرمة المزعوم ليس سوى كذبة دُسَّت على تاريخ أورخان بن عثمان ومراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيين قاطبة، فلم يكن نظام الدثرمة هذا إلا اهتماماً من الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتاماً أو مشردين، فالإسلام الذي تدين الدولة العثمانية به يرفض رفضاً قاطعاً ما يسمى بضريبة الغلمان التي نسبها المغرضون من المؤرخين الأجانب إليها.

لقد كانت أعداد هائلة من الأطفال فقدوا آبائهم وأمهاتهم بسبب الحروب والمعارك، فاندفع المسلمون العثمانيون إلى احتضان أولئك الأطفال الذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم وأمهاتهم وحرصوا على تأمين مستقبل كريم

لهم، وهل من مستقبل كريم وأمين إلا في الإسلام، فأن يحرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشردون التائهون الإسلام، لا يسوغ للمفترين أن يزعموا أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمهاتهم ويكرهونهم على الإسلام؟

إن الذين كانوا يربون تربية خاصة على الجهاد لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء آباء مسلمين انخلعوا عن النصرانية، واهتدوا إلى الإسلام، وشرعوا من أنفسهم وعن طواعية لا عن إكراه، يقدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية إسلامية، أما باقي الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة العثمانية.

إن حقيقة الجيش الجديد الذي أنشأه أورخان بن عثمان هي تشكيل جيش نظامي يكون دائم الاستعداد والتواجد قريباً منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء، فشكل من فرسان عشيرته ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يسارعون لإجابة داعي الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام في قلوبهم، وحسن إسلامهم. وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن التقي الحاج بكتاش وطلب منه أن يدعو لهم خيراً، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود، ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم، ويجعل سُيوفهم حادة قاطعة، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الله ثم مال تجاه أورخان فسأله، هل اتخذت لهذا الجيش اسماً.. ؟ قال: لا، قال: فليكن اسمه «يني جري» وتلفظ «يني تشري» أي الجيش الجديد.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم ذي الفقار تيمناً بسيف الإمام علي ﷺ .

لقد كان علاء الدين بن عثمان أخو أورخان صاحب الفكرة وكان عالماً في الشريعة ومشهورا بالزهد والتصوف الصحيح.

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين، فاختار عدداً من شباب الأتراك، وعدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فضمهم إلى الجيش واهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية إسلامية جهادية. ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده، وأصبح يضم آلافاً من المجاهدين في سبيل الله.

لقد كان أورخان وعلاء الدين متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها، والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقوا تربية إسلامية جهادية وترسخت في قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكاً وجهاداً.

ولقد كانت غزوات أورخان منصبة على الروم ولكن حدث في سنة (736هـ-1336م) أن توفي أمير قره سي - وهي إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم واختلف ولداه من بعده وتنازعا الإمارة. واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخل في النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة، وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه، واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه.

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته فقام بالأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وانشأ المعاهد العلمية، ووضع الإشراف عليها بيد خيرة العلماء والمعلمين الذين كانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة، وكانت كل قرية بها مدارسها وكل مدينة بها كليتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافيزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك، بالإضافة إلى تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة والفقه والعقائد.

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب، بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة، مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه، وحكمته وبعد نظره، فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعاً في التوسع وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يتاح له ضمها. وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي، وبذلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من أملاكهم، بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة. وهذا يدل على فهم واستيعاب أورخان لسنة التدرج في بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب.

وما أن أتمّ أورخان البناء الداخلي حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الإمبراطور (كونتاكوزينوس) مساعدة السلطان أورخان ضد خصمه، فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوربا.

وفي عام 1358 أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار غاليبولي وهجرها أهلها مما سهل على العثمانيين دخولها. وقد احتج الإمبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى، وكان رد أورخان أن العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته. وما لبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا، ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالاستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان.. وحين انفرد حنا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقر كل فتوح أورخان في أوروبا في مقابل تعهد السلطان بتسهيل وصول الطعام والمؤن إلى القسطنطينية. وأرسل أورخان أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة بغية الدعوة إلى الإسلام ومنع تمكن البيزنطيين من طرد العثمانيين من أوربا.

ومن العوامل التي ساعدت السلطان أورخان على تحقيق أهدافه :

1 - المرحلية التي سار عليها أورخان، واستفادته من جهود والده عثمان، ووجود الإمكانيات المادية والمعنوية التي ساعدته على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول وتدعيم سلطته فيها، ولقد تميزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة في توسيع دولته ومد حدودها، ولم ينتبه العالم المسيحي إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبرت البحر واستولت على غاليبولي.

2 - كان العثمانيون يتميزون، في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية، بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني.

3 - وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد، وكان المجتمع البيزنطي قد أصابه تفكك سياسي وانحلال ديني واجتماعي، فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة.

4 - ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر، ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين.

5 - الخلاف الديني بين روما والقسطنطينية أي بين الكاثوليك والأرثوذكس الذي استحكمت حلقاته وترك آثاراً عميقة الجذور في نفوس الفريقين.

6- ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقدية، ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

2- السلطان مراد الأول

(761-791هـ/ 1360-1389م)

كان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين، شكل منهم مجلساً لمشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

ففي أوروبا هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنه في عام (762هـ/ 1360م) وكانت لتلك المدينة أهمية إستراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (768هـ/ 1366م) وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنه عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة:

1- استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقربها من مسرح العمليات الجهادية.

2- رغبة مراد في ضم الأقاليم الأوروبية التي وصلوا إليها في جهادهم وثبتوا أقدامهم فيها.

3- جمع مراد في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية.

واستمرت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام (857هـ-1453م) فأصبحت عاصمة لدولتهم.

ومضى السلطان مراد في حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم في أوروبا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكون تحالف أوروبي بلقاني صليبي باركه البابا أربان الخامس، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جندي تصدى لهم القائد العثماني لالاشاهين بقوة تقل عدداً عن القوات

المتحالفة، وقابلهم على مقربة من تشيرمن على نهر مارتيزا، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت، أما السلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشتغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدة مدن ثم عاد إلى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم.

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمة منها:

1 - تم لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا وإلى شرقي صربيا.

2 - أصبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف.

ولما اشتد ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها، خصوصاً الضعفاء منهم، فبادرت جمهورية راجوزه وأرسلت إلى السلطان مراد رسلاً ليعقدوا معه معاهدة ودية وتجارية تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها 500 دوكا ذهب وهذه أول معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية.

وكان السلطان مراد قد توغل في بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قواده مما آثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا للهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها، ولكنهم فشلوا في تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين، فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار وأعدوا جيشاً أوروبياً صليبياً كثيفاً لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعداداً قوياً إلى منطقة كوسوفو في البلقان، ومن الموافقات التي تذكر أن وزير السلطان مراد الذي كان يحمل معه مصحفاً فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (سورة الأنفال: الآية 65) فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمي وطيسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصاراً باهراً حاسماً.

وبعد الانتصار في قوصوه، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة ودار بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ودعا لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جندي

من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فمات في 15 شعبان 791هـ. وكان له من العمر 65 عاماً.

وكانت كلماته الأخيرة «لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد إن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذونهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء».

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت 95.000 كيلومتر مربع وعند وفاته تسلم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت 500.000 كليومتر مربع بمعنى أنها زادت في مدى حوالي 29 سنة أكثر خمسة أمثال ما تركه له والده أورخان.

أما النتائج التي ترتبت على انتصار المسلمين في معركة قوصوه فتمثلت في:

1 - انتشار الإسلام في منطقة البلقان وتحول عدد كبير من الأشراف القدامى والشيوخ إلى الإسلام بمحض إرادتهم.

2 - اضطرت العديد من الدول الأوروبية إلى أن تخطب ود الدولة العثمانية، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، وقام البعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم.

3 - امتدت سلطة العثمانيين على أمراء المجر ورومانيا والمناطق المجاورة للأدرياتيك حتى وصل نفوذهم إلى ألبانيا.

3 - السلطان بايزيد الأول

(791-805 هـ/ 1389-1402م)

بعد مقتل السلطان مراد تولى الحكم ابنه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الإسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب الصاعقة.

وقد شرع بايزيد في إقامة علاقات ودية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني ضد الدولة العثمانية، وكان غرضه من هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له في سياسته العسكرية النشطة التي استهدفت الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية في آسيا الصغرى، ولذلك وافق على أن يحكم الصرب ابنا الملك (لازار) الذي قتل في معركة قوصوه وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب وأعرافها وتقاليدها وعاداتها، وأن يدينا له بالولاء ويقدما له جزية وعدداً معيناً من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم في حروبه، وتزوج ابنة الملك لازار.

وبعد أن تم التفاهم مع الصرب وجه بايزيد ضربه خاطفة في عام (797هـ/ 1393م) إلى بلغاريا، فاستولى عليها وأخضع سكانها، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسي. وكان لسقوط بلغاريا في قبضة الدولة العثمانية صدى هائل في أوروبا، وانتشر الرعب والفزع والخوف في أنحائها، وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان.

ولقد قام سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع بالدعوة لتكتل أوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه، والتي أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات، وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصليبية 120.000 مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا إنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبورج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الايطالية).

وتحركت الحملة عام (800هـ/ 1396م) إلى المجر، ولكن زعمائها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان وبدأوا في حصارها، وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية، إلا أن بايزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مئة ألف جندي، وهو عدد يقل قليلاً عن التكتل الأوروبي الصليبي، ولكنه يتفوق عليهم نظاماً وسلاحاً، فانهزم معظم الأوروبيين ولاذوا بالفرار والهروب وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس

بغنائم كثيرة وفيرة واستولوا على ذخائر العدو. وفي نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد انه سيفتح ايطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما.

لقد وقع كثير من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر نفسه في الأسر، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى والكونت دي نيفر وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته، فقال له بايزيد: إني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين فأنت في حل من عدم الرجوع لمحاربتي إذ لاشيء أحب إليّ من محاربة جميع مسيحيي أوروبا والانتصار عليهم.

أما سيجسموند ملك المجر والذي كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال: لو انقضت السماء علياؤها لأمسكناها بحرابنا، فقد ولى هارباً ومعه رئيس فرسان رودس، ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود وجدا هناك الأسطول النصراني فوثبا على إحدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء، وتضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوروبي بعد معركة نيكوبوليس وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة.

لقد كان لذلك النصر المظفر أثر على بايزيد والمجتمع الإسلامي، فقام بإرسال رسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامي يبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم في القاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبته في العالم الإسلامي، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب لأنه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية، وهاجر إلى الأناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية، وكانت الهجرة مليئة بالجنود وممن أسهموا في الحياة الاقتصادية والعلمية والحكومية في إيران والعراق وما رواء النهر، بالإضافة إلى الجموع التي فرت من أمام الزحف التيمورلنكي على آسيا الوسطى.

وكان بايزيد قد استطاع قبل معركة نيكوبوليس أن يشدد النكير على الإمبراطورية البيزنطية وأن يفرض على الإمبراطور أن يعين قاضياً في القسطنطينية للفصل في شؤون

المسلمين، وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص 700 منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية، كما تنازل لبايزيد عن نصف حي غلطة الذي وضعت فيه حامية عثمانية قوامها 6.000 جندي، وزيدت الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية، وفرضت الخزانة العثمانية رسوماً على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة. وأخذت المآذن تنقل الآذان إلى العاصمة البيزنطية.

وبعد الانتصار العظيم الذي حققه العثمانيون في معركة نيكوبوليس ثبت العثمانيون أقدامهم في البلقان، حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة وبلغاريا إلى الدولة العثمانية، واستمر الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى في ارتدادهم. وعاقب السلطان بايزيد حكام شبه جزيرة المورة الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبي، وعقاباً للإمبراطور البيزنطي على موقفه المعادي طلب بايزيد منه أن يسلم القسطنطينية، وإزاء ذلك استنجد الإمبراطور مانويل بأوروبا دون جدوى. والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً في برنامج فتوحات السلطان بايزيد الأول. ولذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصاراً محكماً حول العاصمة البيزنطية وضغط عليها ضغطاً لا هوادة فيه واستمر الحصار حتى أشرفت المدينة في نهايته على السقوط، وبينما كانت أوروبا تنتظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر فإذا بالسلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية لظهور خطر جديد على الدولة العثمانية، ذلك هو تيمورلنك.

ينتمي تيمورلنك إلى الأسر النبيلة في بلاد ما وراء النهر، وفي عام 1369م جلس على عرش خراسان وقاعدته سمرقند. واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامي؛ فقد انتشرت قواته الضخمة في آسيا من دلهي إلى دمشق، ومن بحر آرال إلى الخليج العربي، وأحتل فارس وأرمينيا وأعالي الفرات ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود، وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر، وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكاً له وكان يردد: «أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء». وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية، وكان قبل أن يقرر أمرا، يجمع المعلومات ويرسل الجواسيس، ثم يصدر أوامره بعد ترو وتأن بعيدا عن العجلة، وكان من الهيبة بحيث أن جنوده كانوا يطيعون أوامره مهما كانت. وكان تيمورلنك باعتباره مسلماً يرعى العلماء ورجال الدين وبخاصة أتباع الطريقة النقشبندية.

وكانت هناك عوامل وأسباب ساهمت في إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد منها:

1- لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسيا الصغرى، وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون من استجاروا به على شن الحرب ضد الطرف الآخر.

2- تشجيع النصارى لتيمورلنك ودفعه للقضاء على بايزيد.

3- الرسائل النارية بين الطرفين، ففي إحدى الرسائل التي بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمنياً حين ذكّره بغموض أصل أسرته، وعرض عليه العفو على اعتبار أن آل عثمان قد قدموا خدمات جليلة إلى الإسلام، ولو أنه اختتم رسالته - بصفته زعيماً للترك- باستصغار شأن بايزيد الذي قبل التحدي وصرح بأنه سيتعقب تيمورلنك إلى تبريز وسلطانية. وكان كل منهما يسعى كل منهما لتوسيع دولته.

تقدم تيمورلنك بجيوشه واحتل سيواس، وأباد حاميتها التي كان يقودها الأمير أرطغرل بن بايزيد، والتقى الجيشان قرب أنقرة في عام 804هـ/ 1402م وكانت قوات بايزيد تبلغ 120.000 مقاتلا لملاقاة خصمه، وزحف تيمورلنك على رأس قوات جرارة في 20 يوليو 1402 (804هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد في الأسر وظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية.

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع وعجلة بايزيد فلم يحسن اختيار المكان الذي نزل فيه بجيشه الذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف، ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء وكان الوقت صيفاً شديد القيظ. ولم يكد يلتقي الجيشان في أنقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا في جيش بايزيد وجنود الإمارات الآسيوية التي فتحها منذ عهد قريب وانضموا إلى جيش تيمورلنك، ولم ينفع السلطان العثماني بعد ذلك ما أظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة والاستماتة في القتال.

لقد فرحت الدول النصرانية في الغرب بنصر تيمورلنك وهزها الطرب لمصرع بايزيد وما آلت إليه دولته من التفكك والانحلال، وبعث ملوك انجلترا وفرنسا وقشتالة وإمبراطور القسطنطينية إلى تيمورلنك يهنئونه على ما أحرزه من النصر العظيم والظفر المجيد واعتقدت أوروبا أنها قد تخلصت إلى الأبد من الخطر العثماني الذي طالما روعها وهددها.

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على ازنيق وبروسة وغيرها من المدن والحصون ثم دك أسوار أزمير وخلصها من قبضة فرسان رودس (فرسان القديس يوحنا) محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأي العام الإسلامي الذي أتهمه بأنه وجه ضربة شديدة إلى الإسلام بقضائه على الدولة العثمانية، وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القديس يوحنا أن يضفي على معارك الأناضول طابع الجهاد.

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصغرى إلى أملاكهم السابقة، ومن ثم استرجعت الإمارات التي ضمها بايزيد استقلالها، كما بذر تيمور بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش.

لقد تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي تمثل في نشوب حرب أهلية في الدولة بين أبناء بايزيد للجلوس على العرش، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (806-816هـ/ 1403-1413م).

فقد كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال، أما مصطفى فقد ظن أنه قتل في المعركة، وأما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار. أما أكبرهم سليمان فقد ذهب إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً هناك، وذهب عيسى إلى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه، ونشبت الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة، يتنازعون بينهم أشلاء الدولة الممزقة، والأعداء يتربصون بهم من كل جانب. ثم أطلق تيمورلنك الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراماً وشدة، واخذ يحرضهم على القتال ويغري بعضهم ببعض.

وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه الأخضر واليابس وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى.

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية. ولقد صمد العثمانيون لمحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية، إلى أن أنفرد محمد الأول بالحكم في عام 1413م، وأمكنه لم شتات الأراضي التي سبق للدولة أن فقدتها.

4- السلطان محمد الأول

ولد السلطان محمد الأول عام (781هـ/ 1379م) وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي).

كان متوسط القامة، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، ابيض البشرة، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوي، في غاية النشاط وجسوراً، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس. اشترك أثناء حكمه في 24 حرباً وأصيب بأربعين جرحاً.

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر، وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر، وتفرد بالسلطان، وقضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة، فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان، وكان قد استقل، عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد، وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه. وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود وفي تساليا، وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام كليتبولي، وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا، واخضع بعض الإمارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء.

وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمى بدر الدين انتحل صفة علماء الدين الإسلامي، وكان في جيش موسى اخو السلطان محمد، وتولى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد.

قال صاحب الشقائق النعمانية: (الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل.. المشهور بابن قاضي سيماونه، ولد في قلعة سيماونه في بلاد الروم إحدى قرى أدرنة التي تقع في الجزء الأوروبي من تركيا، كان أبوه قاضياً لها وكان أيضاً أمير على عسكر المسلمين فيها وكان فتح تلك القلعة على يده أيضاً... ولادة الشيخ بدر الدين كانت في زمن السلطان الغازي خداوندكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان، ثم أخذ الشيخ العلم في صباه عن والده ...وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدي، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل إلى الديار المصرية، وقرأ هناك مع (اي مزمل) السيد الشريف الجرجاني، على مولانا مبارك شاه المنطقي المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيعلي، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع السيد الجرجاني على الشيخ أكمل الدين (البايبوري) وقرأ على الشيخ المذكور (اي تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر (سلطان مصر المملوكي برقوق).

ثم أدركته (اي الشيخ بدر الدين) الجذبة الإلهية، والتجأ إلى كنف الشيخ سعيد الأخلاطي الساكن بمصر وقتئذ وحصل عنده ما حصل (اي أصبح مريده). وأرسله الشيخ أخلاطي إلى بلدة تبريز للإرشاد (الصوفي) حكى انه لما جاء تيمورلنك تبريز ...نال (اي بدر الدين) من الأمير المذكور (تيمورلنك) مالاً جزيلاً بالغاً إلى نهايته، ثم ترك الشيخ الكل، ولحق ببدليس ثم سافر إلى مصر..ثم إلى حلب ثم إلى قونية ثم إلى تبرة من بلاد الروم ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز (وهو نصراني) فأسلم على يدي الشيخ...ثم لما تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازي نصب الشيخ (اي جعل من الشيخ بدر الدين) قاضياً لعسكره ثم أن أخا موسى (محمداً) قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق).

وفي أزنيق - وهي مدينة في تركيا - بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل يدعو إلى مذهبه الفاسد، فكان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة ، والأديان، ولا يفرق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة، فالناس أخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ما تدعو إليه الماسونية اليهودية،

وانضم إلى هذه الدعوة الباطلة كثير من الأغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة وأصبح للمفسد بدر الدين تلاميذ يدعون إلى منهجه ومذهبه ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى (بير قليجة مصطفى) وآخر يقال إنه من أصل يهودي هو طوره كمال.

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محمد جلبي لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد سيسمان الذي أرسله محمد جلبي على يد الخائن (بير قليجة) وهزم جيشه وأعد السلطان محمد جلبي جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول (بايزيد باشا) فحارب (بير قليجة) وأنتصر عليه في موقعة (قره بورنو) وبعدها أقيم حد الحرابة على (بير قليجة مصطفى).

واستمر الشيخ بدر الدين في غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ما تمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها في كل أرجاء البلاد وكان بدر الدين يقول: (إني سأثور من أجل امتلاك العالم، وباعتقاداتي ذات الإشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدين بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل باتساع مشاربي بعض المحرمات).

وكان أمير الأفلاق (في رومانيا) يدعم هذا بدر الدين مادياً وعسكرياً وكان السلطان محمد جلبي متصديا لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق عليها الخناق، حتى

اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن). يقول محمد شرف الدين في مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان: (إن هذه المنطقة وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنية، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحق التي قامت ضد الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع الهجري، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات).

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوربية تفد إلى الشيخ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثماني محمد الأول، ووصلت فلول أتباعه إلى مابين 7-8 آلاف مقاتل.

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين، وكان هذا على رأس جيش عظيم في دلي أورمان.

اتخذ السلطان محمد من سيروز (في اليونان الآن) مركزاً لقيادته. وأرسل قواته إلى الثوار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته، في منطقة دلي أورمان، فراراً من السلطان. واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين في الأسر. وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له: مالي أرى وجهك قد اصفر؟ أجابه بدر الدين: إن الشمس يا مولاي، تصفر عندما تقترب من الغروب. وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء.

كان السلطان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة، وهي عبارة عن قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة.

وقد أحب الشعب العثماني السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان (ومعناها البطل) وذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته كما أن أعماله العظيمة، وعبقريته الفذة التي قاد من خلالها الدولة العثمانية إلى بر الأمان، وجميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب جلبي أيضا وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة. حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة، إلا

أن بالإمكان اعتباره من أنبل حكام العثمانيين، فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته واعتبره المؤرخون العثمانيون بمثابة القبطان الماهر الذي حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية، والفتن الباطنية.

وبعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده في محو آثار الفتن التي مرت بها الدولة العثمانية وشروعه في أجراء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب في المستقبل، وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهام السلمية شعر بدنو أجله، فدعا الباشا بايزيد وقال له: (عينت ابني مراد خليفة لي فأطعه وكن صادقاً معه كما كنت معي. أريد منكم أن تأتونني بمراد الآن لأنني لا استطيع أن أقوم من الفراش بعد. فان وقع الأمر الإلهي قبل مجيئه فحذار من أن تعلنوا وفاتي حتى يأتي). وفاجأه الموت في سنة 824هـ (1421م) في مدينة أدرنة واسلم روحه لخالقه وعمر 43 سنة.

وخوفاً من حصول ما لا تحمد عقباه لو عُلم موت السلطان محمد الأول اتفق وزيراه إبراهيم وبايزيد على إخفاء موته عن الجند حتى يصل ابنه مراد الثاني، فأشاعا أن السلطان مريض وأرسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوماً واستلم مقاليد الحكم.

ولقد كان السلطان محمد الأول محباً للسلام والعلم والفقهاء ولذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة (مدينة الغزاة) إلى بروسة (مدينة الفقهاء) وكان على خلق رفيع، وحزم متين، وحلم فريد، وسياسة فذة في معاملة الأعداء والأصدقاء.

5- السلطان مراد الثاني

تولى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه (محمد جلبي) عام (824هـ/ 1421م) وكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، وكان محباً للجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوروبا.

كان معروفاً لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة، واستطاع أن يقضي على حركات التمرد الداخلية التي قام بها عمه مصطفى والتي كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية. وكان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التي تعرض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عم السلطان مراد واسمه مصطفى بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان

واتخاذها قاعدة له، إلا أن السلطان مراد قبض على عمه وقدمه للمشنقة، ومع ذلك، فقد مضى الإمبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان، واحتضن شقيقاً لمراد الثاني، ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقية في الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقضي على قواته، واضطر خصمه للاستسلام ثم قتل. ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلقن الإمبراطور درساً عملياً، فأسرع باحتلال سلولنيك، فهاجمها ودخلها عنوة في مارس 1431م (833هـ)، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثماني في تلك الديار، واتجه الجيش العثماني نحو الشمال لإخضاع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد (ستيف لازار ميتش) إلى الخضوع للعثمانيين والدخول تحت حكمهم وجدد ولاءه للسلطان، واتجه الجيش العثماني نحو الجنوب، حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان. ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوي وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا والمجر.

واستطاع العثمانيون أن يفتحوا ألبانيا عام (834هـ/ 1431م) وركزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد. أما شمالي ألبانيا، فقد خاض العثمانيون فيه جهاداً مريراً، وتمكن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين في جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب، ووقفت الدول النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضد العثمانيين وخصوصاً حكومة البندقية التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم الهام بشاطئيه وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي، وأنهم في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقراراً للحكم العثماني في ألبانيا.

وأما فيما يتعلق بجبهة المجر، فقد استطاع العثمانيون في عام (842هـ/ 1438م) أن يهزموا المجريين ويأسروا منهم سبعين ألف جندي وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته، وسرعان ما تكون حلف صليبي كبير باركه البابا، واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوروبا كلية. وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوه والبندقية والإمبراطورية

البيزنطية ودوقية برجنديا، وانضمت إلى الحلف أيضاً كتائب من الألمان والتشيك. وأعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هنيادي. وقد قاد هنيادي القوات الصليبية البرية وزحف جنوباً واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام (846هـ/ 1442م) واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في سيزجادن وذلك في شهر يوليو عام 1444م / 848هـ تنازل فيها عن الصرب واعترف بجورج برانكوفيتش أميراً عليها. كما تنازل السلطان مراد عن الأفلاق للمجر، وافتدى زوج ابنته محمود شلبي الذي كان قائداً عاماً للجيوش العثمانية، بمبلغ 60 ألف دوقية.. وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية والمجرية، وأقسم لاديسلاسي ملك المجر على الإنجيل كما اقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعى شروط المعاهدة بذمة وشرف.

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوروبيين عاد إلى الأناضول، وفجع بموت ابنه الأمير علاء، واشتد حزنه عليه، وزهد في الدنيا والملك، ونزل عن السلطنة لابنه محمد، وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره، ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته ثم ذهب إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى، ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة، ويتفرغ في هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل في ملكوته بعد أن أطمأن إلى استتباب الأمن والسلام في أرجاء دولته.

ولم يستمتع السلطان طويلاً بهذه الخلوة والعبادة، حيث قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهود مع العثمانيين وطردهم عن أوروبا، خصوصاً وأن العرش العثماني قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى الذي لا خبرة له ولا خطر منه، وقد اقتنع البابا أوجين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية، وطلب من النصارى نقض العهد ومهاجمة المسلمين، وبين للنصارى أن المعاهدة التي عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض، وكان الكاردينال سيزاريني عظيم النشاط دائم الحركة لا يكل من العمل، يجد ويسعى للقضاء على العثمانيين، ولذلك كان يزور ملوك النصارى وزعمائهم، ويحرضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين، ويقنع كل من يعترض عليه نكث المعاهدة ويقول له إنه باسم البابا يبرئ ذمتهم من نكثها ويبارك جنودهم وأسلحتهم، وعليهم أن يتبعوا طريقه فانه طريق المجد والخلاص، ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشي الإثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه.

لقد نقض النصارى عهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين، وحاصروا مدينة فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، والتي كانت قد تحررت على أيدي المسلمين.

وعندما تحرك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية وسمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفزع والرعب، وبعث رجال الدولة إلى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر، وخرج السلطان من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبي. واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطول الجنوي لينقل أربعين ألفاً من الجيش العثماني من آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره، في مقابل دينار لكل جندي.

وأسرع السلطان مراد في السير فوصل فارنا في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون. وفي اليوم التالي نشبت المعركة بين الجيشين النصراني والإسلامي وكانت عنيفة حامية، وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده. واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد أن يكون النصر فيها للنصارى نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد، إلا أن تلك الحمية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين، والتقى الملك لاديسلاس ناقض العهود مع السلطان مراد الوفي بالعهود وجها لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة، تمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجري النصراني، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده فأسرع بعض المجاهدين وجزوا رأسه ورفعوه على رمح مهللين مكبرين وفرحين، وصاح أحد المجاهدين في العدو «أيها الكفار هذا رأس ملككم» وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بددت شملهم وهزمتهم شر هزيمة، وولى النصارى مدبرين، ولم يطارد السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر.

كانت هذه المعركة في سهول قوصوه في 17 أكتوبر 1448م (852هـ) واستمرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين. وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين. ولم تفارق السلطان مراد زهادته في الدنيا والملك فنزل على العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته في مغنيسيا.

ولقد ذكر لنا التاريخ مجموعة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الملك إلى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ولكن لم يذكر لنا أن أحدا منهم نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد فإنه لم يكد يذهب إلى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية في أدرنة وشغبوا وهاجوا وماجوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا، وكان السلطان محمد فتى يافعاً حديث السن، وخشي بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر ويعظم الخطر ويتفاقم الشر وتسوء العاقبة، فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه. وجاء السلطان مراد، وقبض على زمام الأمر، وخضع له الانكشارية، وأرسل ابنه محمد إلى مغنيسيا حاكماً عليها بالأناضول، وبقي السلطان مراد الثاني على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته، وقد قضاها في الغزو والفتح.

قال صاحب النجوم الزاهرة: في وفيات عام 855هـ في مراد الثاني: (وكان خير ملوك زمانه شرقاً وغرباً، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد، وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى، وغزا عدّة غزوات، وفتح عدّة فتوحات، وملك الحصون المنيعة، والقلاع والمدن من العدوِّ المخذول. على أنه كان منهمكاً في اللذات التي تهواها النفوس، ولعل حاله كقول بعض الأخيار - وقد سئل عن دينه - فقال: أمزقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار - فهو أحق بعفو الله وكرمه، فإن له المواقف المشهورة، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدوّ، حتى قيل عنه إنه كان سياجاً للإسلام والمسلمين).

توفي السلطان في قصر أدرنه عن عمر يناهز 47 عاماً وبناء على وصيته دفن في جانب جامع مرادية في بورصة. ووصى بان لا يبنى على قبره شيء وأن يعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم وأن يدفن في يوم الجمعة فنفذت وصيته.

الفصل الثالث

السلطان محمد الفاتح والقسطنطينية

1 - السلطان محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

هو السلطان محمد الثاني (431هـ-1481م) ويعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان. يلقب بالفاتح وأبي الخيرات. حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين.

تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في 16 محرم عام 855هـ الموافق 18 فبراير عام 1451م وكان عمره آنذاك 22 سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال، حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات، ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف. وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم، وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال، وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الإمام.

وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها: الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها، ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل انه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية، وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية.

فتح القسطنطينية

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام 330م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها» ومنذ تأسيسها اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها.

عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك ما حدث أثناء غزوة الخندق، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ : (لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش).

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها سنة 44هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ.

واستمرت المحاولات لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها

وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد سنة 190هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها ألب أرسلان (455-465هـ / 1063-1072م) استطاع أن يهزم إمبراطور الروم ديمونوس في موقعة ملاذ كرد عام 464هـ/ 1070م ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من إمبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية، وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غربا وإضعاف الإمبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم، وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد «الصاعقة» الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة 796هـ-1393م، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فسادا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة 1402م، وكان نتيجة ذلك ان تفككت الدولة العثمانية مؤقتا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة 824هـ-863هـ/ 1421-1451م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية، وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثرة من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله عن هدفه الذي حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة 855هـ الموافق 1451م، كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها، ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى والورع، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعا على نشر العلوم، ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلقاها منذ الصغر، بتوجيهات من والده، وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم، ممن أشرفوا على رعايته.

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني أحمد بن إسماعيل الكوراني المشهود له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه في عهد السلطان مراد الثاني والد الفاتح. وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني - الفاتح - أميرا في بلدة مغنيسيا وقد أرسل إليه والده عددا من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئا، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، فطلب السلطان المذكور رجلا له مهابة وحدّة، فذكروا له المولى «الكوراني» فجعله معلما لولده وأعطاه قضيبا يضربه به إذا خالف أمره. فذهب إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربا شديداً، حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة.

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسمه، ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، متقيدا بالأوامر والنواهي، معظماً لها، ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين.

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

1 - مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

2 - الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور.

الإعداد للفتح

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مقاتل، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية، وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوروبي على مضيق البوسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد بها، إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى 82 متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى 660م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البوسفور إلى غربيه، وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة.

ولقد اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى (أوربان) كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه

يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة، وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع (المجد) و(البندقية) وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية، مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره، ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه.

ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وكان بينهما عداء شديد، وقد أضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: (إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية).

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية من ثلاث جبهات، مضيق البوسفور، وبحر مرمره، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمره إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه 60 قدماً ويرتفع السور الداخلي منها 40 قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى 60 قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمسة وعشرين قدماً، وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

كان السلطان الفاتح يتابع استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 26 ربيع الأول 857هـ الموافق 6 أبريل 1453م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام

الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قابي، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الأسطول العثماني أن يستولي على جزر الأمراء في بحر مرمره.

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، واحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخل الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين، وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوه مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوي جوستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة، وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جوستنيان قائداً للقوات المدافعة عن المدينة.

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف.

ولقد استبسل العثمانيون المهاجمون للمدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح، وصمد البيزنطيون بقيادة .قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع، وحاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً).

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم 18 أبريل تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جوستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

وبعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد

الأسطول وقال له: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً) لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول بالطه أوغلي بعد ما رجع إلى مقر قيادته، حيث استدعاه وعنفه واتهمه بالجبن، وتأثر بالطة أوغلي لهذا وقال: (إنني استقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة). وأدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا.

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبطله أوغلي بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثروا في السفن تأثيراً ليناً.

ولقد كان للهزائم البحرية للأسطول العثماني دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها، وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، خصوصاً وأن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة، وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها.

ولقد لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنوبيين، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاق السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن.

وجرت السفن من البوسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق أحد إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته.

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه، بل معجزة من المعجزات، تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة. ويرجع الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكائه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوفر الأيدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم 22 أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين. ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر).

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة، وكان لوجود السفن

الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق كانت تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى.

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي، إلا أن العثمانيين كانوا بالمرصاد لكل محاولاته المستميتة، حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلق أسوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم، مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس.

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبوسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبوسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً.

وعقد الملك قسطنطين ومعاونوه ومستشاروه ورجال النصرانية في المدينة اجتماعاً، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية، لعل الجيوش النصرانية تأتي، فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر على أن يقاوم إلى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس، وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبدا، واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة، ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة.

وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها.

ولقد ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الأسوار وجعله مركزاً وعنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من

الشجاعة والتضحية والتفاني، وكان أكثر ما يرعب جنود الإمبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول: (الله أكبر الله أكبر) فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة.

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الأخرى، وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهدة تثور لأي سبب، وأصبح كل واحد من الجنود ينظر إلى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

واضطر الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمر ثان، اقترح فيه احد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي، وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم إلى مكان القتال، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون.

وكان السلطان محمد يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو.

ففي المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة، حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية

تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فأختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا.

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين (أكرى فبو) وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار، وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون إن هي إلا أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملأون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون: (هذا تركي...هذا تركي) ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها تطاردهم، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها احدهم بعيني رأسه، وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وما هم بسكارى)، فريق يجري، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فان هذه الأنفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحتراقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين.

وقد لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتال شديد واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن

الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب.

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع: غداً نصنع أربعاً أخرى.

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً في 24 مايو داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الإمبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم 16 جمادى الأولى الموافق 25 مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم) وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك شؤما ونذيرا بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصاً المدافعون عنها، وحدث في اليوم التالي 26 مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشاءم البطريق، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتى أغمي عليه.

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض، التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد.

وأيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخوله إليها بسلام؛ فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة

دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها) فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال: (حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر).

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع.

وعقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطئة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها، كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا) وهو من أصل ألباني كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان.

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت: (ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة ارناؤوطية: حاشا وكلا

أيها السلطان، أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع. وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال: إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران. إن جيش الاسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن اكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما الدول الغربية هذه؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطنة، أما وقد سألتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة، يجب أن تكون قلوبنا كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا اقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة، لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا استطيع أن أقول شيئاً غير هذا).

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور: إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه يا سلطاني. ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما. وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأي زوغنوش باشا وقالا: (يجب الاستمرار في الحرب، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر).

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين، وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول: من كان من أجدادي في مثل قوتي؟

لقد أيد العلماء الرأي القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن

الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة، وأن على الجنود الاستعداد لذلك.

في يوم الأحد 18 جمادى الأولى 27 من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه، لعل الله ييسر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه، وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني، وتفقد أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء، كما بعث إلى آل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكدا عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنا لهم الوفاء بعهده معهم، وانه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث.

وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون نارا كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدما، مما أوقع الرعب في قلوب الروم، وفي اليوم التالي 28 مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدا وموجها ومذكرا بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد.

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد، والثواب الجزيل من الله تعالى، وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين، وسيكون لأول جندي ينصب راية الإسلام على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة.

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين : لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية.

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه اصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: (إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا فردا، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون).

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجوا المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، حديث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم، ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم، وكان مشهدا مؤثرا، وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد فقال من حضره: (لو أن شخصا قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر).

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس، ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري. وقبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذا خفيفا كأنما كانت ترش الأرض رشا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: (لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة).

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء 20 جمادى الأولى سنة 857هـ الموافق 29 مايو 1435م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار، وخاف البيزنطيون خوفا عظيما، وشرعوا

في دق نواقيس الكنائس، والتجأ إليها كثير من النصارى، وكان الهجوم النهائي متزامنا بريا وبحريا في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة، ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء، ونال الكثير من المجاهدين الشهادة، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق، ولكنه كان مركزا بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ، وكانوا قد أرهقوا، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال، كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم، وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها، وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم، واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية، مما زاد في حماس بقية

الجيش للاقتحام، كما فتوا في عضد الأعداء، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جوستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة مما أثر في بقية المدافعين، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جوستنيان الذي ركب إحدى السفن فارا من أرض المعركة، وقد بذل الإمبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة، ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة.

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين، وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة، وكان الفاتح مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده، وكان قواده يهنئونه وهو يقول: (الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر).

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس، ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء 20 جمادي الأولى 857هـ الموافق 29 من مايو 1453م إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون: ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ، وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى.

بعدها توجه محمد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا، وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب

من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى، ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع.

لقد حاول المؤرخ الانجليزي ادوارد شيبردكريسي في كتابة «تاريخ العثمانيين الأتراك أن يشوه صوره الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامي المجيد، وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام 1980م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك.

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص، وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس بطريركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية، وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر انه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريقهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

كان العثمانيون حريصون على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم. إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها، وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها.

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي الكريم ﷺ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم.

2- أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا، ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذي قبل، ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة.

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب إسلام بول أي مدينة الإسلام.

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزي، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من اسطنبول، وبذل الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين، وعقد الأمراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة، وتنادى النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات.

وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الايطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع

جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمداً في 25 مارس سنة 1455م.

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماساً وحمية واستنفر ملوك النصارى إلى قتال المسلمين، وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم، وتزعمت البابوية في روما حروب النصارى ضد المسلمين، وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ ما رآه مناسباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمد أو يتاخمون حدوده في آماسيا، وبلاد المورة، وطرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقي، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم.

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنودا، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين، ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد أنهكت حرب المائة عام انكلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس، وأما الجمهوريات الايطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً في المال.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا وأصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها، وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية، واستطاع العثمانيون أن يضموا إلى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والافلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل. وقد تم ذلك في فترة قصيرة، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم، وأخذهم أخذاً عظيماً.

وحاول البابا (بيوس الثاني) بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين: حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصراني، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح

يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة. ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجري.

وأما في المشرق الإسلامي فلقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وأفريقيا، فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأجيال، ولقد تطلعت له طويلاً، وها قد تحقق.

وأرسل السلطان محمد الفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية في مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبرهم بهذا النصر الإسلامي العظيم، وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة.

يقول ابن إياس صاحب كتاب (بدائع الزهور) في هذه الواقعة: (فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنته بهذا الفتح).

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: (قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة باسطنبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً. ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة. وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل).

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الإسلامية الأخرى. وقد

بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته.

3- الأعمال الحضارية لمحمد الفاتح

أ- اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

كان السلطان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته. وقد كان السلطان أورخان أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه، وانتشرت المدارس والمعاهد في بروسة وأدرنة وغيرها من المدن.

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم، واشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن الكبيرة والصغيرة وكذلك القرى، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة. ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات، فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة ويخضع لامتحان دقيق.

وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها وأحيانا يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس بين الحين والحين، ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد، ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان، أما المواد التي تدرس في تلك المدارس فكانت: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والبلاغة، وعلوم اللغة من المعاني والبيان والبديع، والهندسة...الخ.

وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس، على كل جانب من جوانب المسجد أربع مدارس يتوسطها صحن فسيح وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم، ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي على طول السنة في هذه المدارس،

وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب والمؤلفين، وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص، وهذا الأمين مسؤول عن الكتب التي في عهدته ومسؤول عن سلامة أوراقها. وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل، وكانت مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص، وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية.

ب- اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا ليتفرغوا للعلم والتعليم وأكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية، غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل ومن بينهم العالم احمد جلبي بن السلطان أمير علي، فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه وأعاده إلى وطنه مع رفقائه معززاً مكرماً.

وبعد أن هزم أوزون حسن زعيم التركمان، وكان هذا الزعيم لا يلتزم بعهد ويناصر أعداء العثمانيين من أي ملة كانت، فبعد أن هزمه محمد الفاتح وقع في يده عدد كبير من الأسرى، فأمر السلطان الفاتح بقتلهم، إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف مثل القاضي محمد الشريجي، وكان من فضلاء الزمان، فأكرمه السلطان غاية الإكرام.

وكان السلطان الفاتح يحترم العلماء وأهل الورع والتقى وقد تستبد به في بعض الأحيان نزوة جامعة أو غضبة طارئة ولكنه ما يلبث إلا أن يعود إلى وقاره واحترامه لهم.

وتحدثنا كتب التاريخ أن السلطان محمد بعث مع احد خدامه بمرسوم إلى الشيخ احمد الكوراني، وكان حين ذاك يتولى قضاء العسكر، فوجد فيه أمراً يخالف الشرع فمزقه وضرب الخادم. وشق ذلك على السلطان محمد وغضب من فعل الشيخ وعزله من منصبه، ووقع بينهما نفور وجفوة، ورحل الكوراني إلى مصر حيث استقبله سلطانها

قايتباي وأكرمه غاية الإكرام وأقام عنده برهة من الزمن. وما لبث الفاتح أن ندم على ما كان منه فكتب إلى السلطان قايتباي يطلب منه أن يرسل إليه الشيخ الكوراني، فحكى السلطان قايتباي كتاب السلطان محمد خان للشيخ الكوراني ثم قال له لا تذهب إليه فاني أكرمك فوق ما يكرمك هو. قال: نعم هو كذلك، إلا أن بيني وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد. وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر وهو يعرف ذلك مني ويعرف أني أميل إليه بالطبع، فإذا لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فتقع بينكما عداوة. فاستحسن السلطان قايتباي هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً وهيأ له ما يحتاج إليه من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة إلى السلطان محمد خان. واسند إليه الفاتح القضاء ثم الإفتاء وأجزل له من العطاء وأكرمه إكراما لا مزيد عليه.

قال عنه الشوكاني: وانتقل من قضاء العسكر إلى منصب الفتوى وتردد إليه الأكابر وشرح جمع الجوامع وكثر تعقبه للمحلي (جلال الدين المحلي المفسر) وعمل تفسيراً، وشرحاً للبخاري وقصيدة في علم العروض نحو ستمائة بيت. وأنشأ بإسطنبول جامعاً ومدرسة سماها دار الحديث وانثالت عليه الدنيا، وعمر الدور، وانتشر علمه، فأخذ عليه الأكابر، وحج في سنة 761هـ إحدى وستين وسبعمائة، ولم يزل على جلالته حتى مات في أواخر سنة 793هـ ثلاث وتسعين وسبعمائة وصلى عليه السلطان فمن دونه.

وقد ترجمه صاحب الشقائق النعمانية ترجمة حافلة، وانه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وانه كان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه وكان يقول له، مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط. وذكر له مناقب جمة تدل على أنه من العلماء العاملين.

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكان أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء العلماء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

ج- اهتمامه بالشعراء والأدباء:

ذكر مؤرخ الأدب العثماني أن السلطان محمد الفاتح كان راعيا لنهضة أدبية، وشاعرا مجيدا، حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء، وعرف بأبي الفتح لأنه غلب على إمبراطوريتين، وفتح سبع ممالك، واستولى على مائتي مدينة، وشاد دور العلم ودور العبادة، فعرف كذلك بأبي الخيرات.

وكان الفاتح مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم مثل أحمد باشا محمود ومحمود باشا وقاسم الجزري باشا. وكان في بلاط الفاتح ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان طبيعياً بعد هذا الاهتمام أن يتفنن الشعراء والأدباء في مدح السلطان محمد لما قدمه إلى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التشجيع.

وكان محمد الفاتح ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب الذي يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاطه.

د- اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقنا للغة الرومية ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب «مشاهير الرجال» لبلوتارك، ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي جورج اميروتزوس ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومي) الذي كان يجيد اللغتين الرومية والعربية ترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة. وكان العلامة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك، كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح.

وكان الفاتح مهتما باللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم، كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة في ذلك العهد. وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من انه طلب

إلى المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها.

ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة، وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وعين الشيخ لطفي أميناً عليها، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام 1465م، وقد وصف الأستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول في العلم بين الشرق والغرب.

هـ- اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة، وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقاً، واهتم بالعاصمة (اسطنبول) اهتماماً خاصاً، وكان حريصاً على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون. وكثر العمران في عهد الفاتح وانتشر، واهتم بدور الشفاء ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب - ثم زيد إلى اثنين - من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحّال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم وأن لا تصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق في إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

و- الاهتمام بالتجارة والصناعة:

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب، وكان بذلك مقتفياً خط آبائه وأجداده السلاطين الذين كانوا دائماً على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وأن كثيراً من المدن

الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً عندما خلصها الفتح العثماني مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية.

وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة وأنشأوا الجسور الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة، واضطرت الدول الأجنبية إلى فتح موانئها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة في ظل الراية العثمانية، وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة، ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد.

ز- الاهتمام بالتنظيمات الإدارية:

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته، ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في الدولة، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم. وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين، وببعض التقاليد، وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية، وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه.

واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجد في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية.

وأبقى السلطان محمد النظام الذي كان سائداً لحكم الولايات أيام أسلافه، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التي تناسب عصره ودولته. وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى «بكلربك» وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء، وكان يسمى «سنجق بك» وكلا الحاكمين كان يقوم بأعمال مدنية

وعسكرية في آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلبية في أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلي، فكان يحكمها بعض أمراء منها، ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا في الثورة على الحكومة العثمانية، وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعو أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجة من إيراد إقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفين من مشاه وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشاوات الإيالات وبكوات الألوية.

وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته. واهتم بالنظام المالي ووضع القواعد المحكمة الصارمة في جباية أموال الدولة، وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثروات هائلة.

لقد أظهر السلطان محمد في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لا تقلان عن كفايته ومقدرته في الناحيتين السياسية والحربية.

ح- اهتمامه بالجيش والبحرية:

لقد أنشأ الجيش النظامي من زمن السلطان أورخان، واهتم من جاء بعده من السلاطين بتطوير الجيش وخصوصاً السلطان محمد الذي أولى الجيش رعاية خاصة، فالجيش في نظره من أسس الدولة وأركانها المهمة، فأعاد تنظيمه وتربيته، وجعل لكل فرقة (آغا) يقودها، وجعل لقيادة الانكشارية حق التقدم على بقية القواد، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذي جعل له السلطان القيادة العليا للجيش.

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه

من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى «لغمجية» وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها، وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء.

ولقد تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين، وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة في الدقة والنظام.

لقد حرص السلطان محمد على تطوير الجيش البري والقوة البحرية، وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية، حيث كان للأسطول البحري العثماني دور واضح في إحكام حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعاً، وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحري، فلم تمض إلا مدة من الزمن حتى سيطر الأسطول العثماني على البحرين الأسود والأبيض، وعندما نطالع كتاب (حقائق الأخبار عن دول البحار) لمؤلفه إسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وانه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوا أكبر الدول البحرية في ذلك الوقت، وعندما وجد في سيئوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر السلطان محمد بأخذها وبناء سفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها. وكان الأسطول العثماني تشرف الترسانة على إدارته وكانت احد فروع الخاصة وتسمى بطاقة العزب، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي بحري تتألف من: القبطان، وقواد السفن، والضباط، والبحارة.

ط- اهتمامه بالعدل:

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه، شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته، ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة، ويمنحهم مرسوما مكتوبا يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم، وقد أعطى هؤلاء المبعوثين الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأشد الناس حرصاً على أنفاذها، وكان يرى أن العلماء في الدولة بمنزلة القلب في البدن، إذا صلحوا صلحت الدولة، ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب ليتفرغوا للدرس والتحصيل، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم.

وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب، بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية.

وتحدثنا كتب التاريخ: أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضرباً شديداً، فما إن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة، وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم، فالتمسوا من المولى محيي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه، فقال له المولى محي الدين: إن النائب (أي القاضي) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء فلم يكن هو عند الضرب قاضياً فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (أي قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه. فأحضر السلطان محمد خان عصاً كبيرة فضربه بنفسه ضرباً شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيراً للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا. وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول: إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه. أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

وكان السلطان الفاتح، برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات، يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوي، وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس ويستمع إلى شكاواهم بنفسه، كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة، وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، وقد استنبط السلطان الفاتح هذه المعاني من حال سليمان ﷺ في قوله تعالى: (وتفقد الطير) وذلك بحسب ما تقتضيه أمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيه وخاصة الضعفاء.

4- منهج السلطان محمد الفاتح ووفاته

تعبر وصية محمد الفاتح وهو على فراش الموت لأبنه اصدق تعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها.

تقول الوصية: (ها أنذا أموت، ولكني غير آسف لأني تارك خلفاً مثلك، كن عادلاً صالحاً رحيماً، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها، وسع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة، فان الدين غايتنا، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، وأحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله

ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أوأكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك).

أ- (كن عادلاً صالحاً رحيماً):

لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين أصبحوا من رعايا دولته، وعندما دخل القسطنطينية فاتحاً كان يحارب حرب الإسلام (التي لا تهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيه صبي ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولا يمثل فيها بإنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين).

كان «محمد الفاتح» وهو يمثل إسلامه وعقيدته ومنهجه الإسلامي في الحرب على تعاليم الصديق أبي بكر في معاملته للروم (لا تخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له...اندفعوا باسم الله).

لقد دخل محمد الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم الغرب النصراني دروسا في العدالة والرحمة، أصبحت معلماً من معالم التاريخ العثماني.

إن الدولة العثمانية سارت على منهج الإسلام، فأخذت منه العدالة والرحمة بالرعايا الذين حكموهم ولقد تحدث عبد الرحمن عزام عن رحمة العثمانيين وعدالتهم بالشعوب التي حكموها فقال: (وقد يظن بعض الناس بها يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق... ولقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في «بسرابيا» من رومانيا على نهر «الدنيستز» وقيل لي: إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله. ومنها ما يشير إلى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض. وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لا تزال تشير إلى ما استقر في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم عادل. وفي سنة 1917م كنت في فيينا فروي لي أن البولونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مدداً للنمساويين. إن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا. وبالعدل والرحمة خرجت

هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف، ويكفي أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون. وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبولونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من «البويار» إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين. ولقد جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة صلى الله عيه وسلم، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رؤوسهم جميعاً إلى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا).

وهكذا سار محمد الفاتح على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذي يمثل حقيقة الإسلام.

ب- (وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز):

وهذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء كانوا مسلمين أو نصارى، ومن القصص اللطيفة في هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار «غلطة» يدعى فرانسسكوا درالبيريو، ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم، وأرسل إلى الجزيرة عدة سفن بقيادة حمزة باشا، إلا أن أهالي جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفع الحقوق. فقال محمد الفاتح للتاجر درالبيريو (أنا الذي سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطالب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود الذين هلكوا).

وسير السلطان إلى هذه الجزيرة أسطولا وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه إلى الجزر القريبة منها وفتح اينوس بغير حرب ولا قتال وبادرت جزيرتا ايمبروس وساموتراس إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما على مصاريعها للعثمانيين، فاضطرت جزيرة خيوس إلى دفع ما عليها من دين للتاجر الجنوي ودفعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسفن العثمانية التي غرقت.

ج- (واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض)

كان السلطان محمد الفاتح في حروبه لا ينسى أنه داعية إلى الإسلام، ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين والعقيدة والإسلام، ويثني على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا ويستولي عليها ويضمها إلى الدولة العثمانية تحرك القائد عمر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم وزار السلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها فقال: (ما أعظم ما يدين به الإسلام لابن طرخان).

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعوة إلى الله وتركت بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة في أوروبا؛ فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تقاوم شتى أنواع الضغوط التي بذلت لتحويلها إلى المسيحية ولازالت هذه الأقليات الإسلامية تعيش إلى يومنا هذا في بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا، وتصل أعدادها إلى الملايين من البشر، وهذا يرجع إلى فضل الله على تلك الشعوب ثم إلى سياسة السلاطين العثمانيين الذين حرصوا على هداية الناس ودخولهم في الإسلام.

د- (قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه):

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة إسلامية، خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من أجلها حروباً دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة على ألسنة العثمانيين عند التنادي للجهاد الزحف إلى الفتوحات إما غاز وإما شهيد، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي - أي المجاهد في سبيل الله- وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظام، وكانت غاية الدولة العثمانية (الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الأنام).

لذلك اصطبغت الدولة شعباً وسلطاناً، حكومة وجيشاً، ثقافة وتشريعاً، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة، بصبغة إسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون. لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيماً وقدموه على كل شيء وواظبوا عليه إلى أقصى حدود وأكدوا أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته. وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة تعني الأمة والدين معاً، وذلك كان هدف المنهج التربوي في جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم

في الكتاتيب وجميع المسلمين كانوا يسجلون في دوائر النفوس - سجلات المواليد- وفي التذاكر العثمانية - بطاقات الهوية- كمسلمين فحسب، دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك، أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد. إن ما يهم الدولة كان ينحصر في ملتهم في ديانتهم؛ إنهم مسلمون وكفى، واعتبر العثمانيون أي مقاتل مسلم جاهد في سبيل الله ميراثهم البطولي وخلفيتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت الأزمان؛ من ذلك المجاهد «عبد الله البطال» الذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصغرى عام 122 للهجرة، زمن الدولة الأموية والذي يقول عنه الطبري وهو يعلق على حوادث سنة 122هـ : (وفيها قتل عبد الله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم) إذ يعتبره العثمانيون بطلهم القومي، وبين «عبد الله البطال» العربي وقيام الدولة العثمانية ما يقرب من سبعمائة عام. لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين، نسب الإسلام، وتاريخ الإسلام، ومجاهدي الإسلام.

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التي تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين.

هـ- (ولا تستخدم الأشخاص الذي لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش):

ولذلك أهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة في الدولة، ووضعوا منهجاً تربوياً لإعداد القادة وخصوصاً في داخل الجيوش، وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهى والتقى، وأسندوا إليهم الولايات والقيادات في الجيوش ومناصب القضاة، وأبعدوا عنهم كل من لا يهتم بأمر الدين، ولا يجتنب الكبائر والفواحش. هكذا كان السلاطين الأوائل.

و- (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها):

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة، وعرفوا خطورة البدع والاقتراب من أصحابها، واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين.

إن الشريعة الإسلامية الغراء التي سار عليها السلاطين العثمانيون ذمت البدع، والابتعاد عن المبتدعة ومحاربتهم من صميم الدين، لأن المبتدع لا يقبل منه عمل، وينزع منه التوفيق، وملعون على لسان الشريعة، ويزداد من الله بعداً، وممنوع من شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة، لأنه ينشر ببدعه العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام، ويرفع السنن، فيلقى عليه الذل في الدنيا والآخرة، ويسود وجهه في الآخرة. ولذلك كانت وصية السلطان محمد الفاتح لمن بعده (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها).

ز- وسع رقعة البلاد بالجهاد:

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد، وبسطوا الأمن وقمعوا الأخطار التي هددت دولتهم، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرماً أو يسفكوا دماً مسلماً أو معاهداً، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعداداً جهادياً وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين، ولقد صبغ المجتمع العثماني بالصبغة الإسلامية الجهادية الدعوية، وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة منذ نعومة أظافرهم إعداداً دقيقاً كاملاً، ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة في الساحات الأوروبية، إذ حققت إلى عهد سليمان القانوني آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون، برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى في أوروبا، وإخضاع كثير من الممالك والإمارات للحكومة الإسلامية، وأخذ ظل الإسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوروبا وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة.

لقد كانت الدولة تعطي لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الرباني وحققت من خلاله ثمرات مهمة الإسلام والمسلمين من أهمها:

- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين.
- دخول الناس في دين الله أفواجا.
- إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته.

لقد اصطبغت الدولة العثمانية بالروح الجهادية ووضعت أهدافاً لها من أهمها:

- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض.

- دفع عدوان الكافرين.
- إزاحة الظلم عن الناس.
- نشر الدعوة الإسلامية بين البشر.

ز- (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد):

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسؤولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع فحسب، وإنما هي مسؤولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير، والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال وأهم هذه الموارد:

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها في مصارفها المشروعة.

- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائداته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة.

- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين.

- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.

- التوظيف بقدر الحاجة على أفراد الأمة سواء كان تطوعياً أو إلزاميا، لإنفاقها في دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقاً لقاعدة المصالح المرسلة.

- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمامات والمناجم وإحياء الموات، وتحصيل أنصبة الدولة منها لاستخدامها في مجالات الإنفاق الحكومي.

وعلى الدولة أن تراقب النشاط الاقتصادي وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة فيه، وتشمل:

- ضبط المقاييس والمواصفات المعيارية التي يحتاجها الناس في أسواقهم مثل المكاييل والموازين، ومواصفات البضائع الجيدة.

- منع الغش، وإبطال العقود الفاسدة في البيع والعمل (الاستصناع).

- الأمر بالمعروف في المعاملات، كالصدق والعدل والوفاء في المعاملة، والنهي عن المنكر في البيوع، كالحلف الكاذب على السلعة.

- منع تلقي الركبان والمناجشة في البيع والتدليس والغبن الفاحش وغيره من الأساليب التي تؤدي إلى العداوة والبغضاء بين الناس.

- منع ترويج المحرمات كالخمر والخنزير وآلات القمار والميسر، ووسائل اللهو المؤدي إلى تمويت القلوب.

- منع مظاهر الترف والإسراف، والتشجيع على نبذها.

ح- (وإياك أن تمد يدك إلى أحد من أموال رعيتك إلا بحق الإسلام):

إن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعة، والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم. وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة:188].

وحرم السرقة، وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ... ﴾ [المائدة:38]. وكذلك حرم الإسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران:130].

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب والاختلاس والغلول، وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال، وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه.

ووظيفة الحاكم حماية أموال الرعية من السرقة والنهب لا أن يمد يده بغير وجه حق ويعتدي على أموال الناس.

ط- (واضمن للمعوزين قوتهم وابذل أكرامك للمستحقين):

كان السلاطين العثمانيون يتسابقون في الإحسان للفقراء والمساكين وأبناء السبيل..وكل من هو محتاج إلى البر والإحسان، وقامت الدولة بأعمال جليلة في هذا الباب بل أوقف السلاطين والوزراء أوقافاً عظيمة على طلاب العلم والفقراء والمساكين والأرامل وغير ذلك، وكان الوقف ركناً أساسيا في اقتصاد الدولة. يقول الأستاذ محمد حرب: (نشطت الحركة العلمية في جوامع اسطنبول، وكان صقوللي محمد باشا - على سبيل المثال - ينفق على الحركة العلمية في اسطنبول من دخل وقف 2000 قرية عثمانية

في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) وأسعد أفندي قاضي عسكر الروملي (يعني البلقان) أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلن إلى سن الزواج. وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة؛ وكانت هناك أوقاف بصرف مرتبات للعائلات المعوزة - غير الأكل - لأن الأكل المجاني له أوقاف عامة أخرى تسمى (عمارات وقفي) أي وقف المطاعم الخيرية وكانت الـ(عمارات) تقدم أكلاً مجانياً لعدد يبلغ 20.000 شخص يومياً مجاناً، وكان مثل هذا في كل الولايات). وكان المطعم الخيري بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام 1586م ما يعادل عشرة ملايين دولار أمريكي إلا قليلا.

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والأمراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام.

ي- (وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال):

لقد أهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبرى، ووضع لها تقاليد سابقة، ونظمها بمرسوم خاص، واهم الوظائف في المساجد الكبرى: الخطيب، والإمام، والقيم، والمؤذن، ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدينية الكبيرة التي كثيراً ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلا، ويخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة، وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر؛ أما في الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكافة المهام الدينية وخاصة في الأرياف.

وكانت توجد في المدارس التي تعد الموظفين الدينيين ثلاث فئات من طلبة العلم هي: (الصوفتا) وهي أدناها، تليها فئة المعيدين الذي يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم، أما الفئة الأعلى فهي منصب المدرس، وبلغ عدد الصوفتا في عهد السلطان مراد الثاني 90 ألفا. وكانوا كثيراً ما يكون لهم أثر في شؤون الدولة.

وقد استحدث محمد الفاتح لقب شيخ الإسلام وهو الذي يترأس الهيئة الإسلامية في الدولة، وهو يلي السلطان في الأهمية. وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الأوقاف الواسعة جميعها خاضعة له، كما كان خاضعاً له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون. وكانت الأولوية في بداية نشأة الدولة العثمانية

لقاضي عسكر الذي رافق الجيش المحارب، ثم صارت للمفتي رئيس العلماء والفقهاء في عهد السلطان سليمان القانوني، وأصبح المفتي هو شيخ الإسلام نفسه، وحرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام، فكانوا يلجأون إلى استغلال سلطته والإفادة منها كلما تعرضوا لأزمة خطيرة. وبلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام أنه كان يحق له إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه.

كما كانت الدولة لا تقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين، وكانت أحكام المفتي نهائية لا معقب عليها، وكان الجهاز الإسلامي المنبث في جسم الدولة يضم الأشراف وهم الذين ينحدرون من سلالة الرسول ﷺ، وكان نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية في المجتمع.

لقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس جهاز للهيئة الدينية الإسلامية، وحرصت على أن تمتد جذورها في أوساط الشعب والجيش وكل رعايا الدولة المسلمين، وقد أصبح أفراد هذه الهيئة يتولون مناصب القضاء والإفتاء وتدريس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة المناسبات الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل: التكايا والأسبلة وغيرها، وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية، ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس، وشمالاً إلى بلاد الشام، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقية، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس. ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الاستشهاد. ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت، حتى استطاعت الجيوش الإسلامية وقتذاك أن تدك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية، كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود في صلاة الخوف وهم في ساحات القتال.

كان علماء الدولة الذين قادوا الهيئة الدينية ينظرون إلى السلطان على أنه يعتبر إماماً للمسلمين، وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولي الأمر كما يأمرهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:59].

وكانوا يعتقدون أنه ليس لولي الأمر طاعة فيما وراء الشريعة لأن الطاعة لهم تبعية، وليست أصلية، إنما طاعة مستمدة من أصل، وليست هي بذاتها أصلا. وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها منهجه في الحكم. وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله: «أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله. إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وكان العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام يعتمدون على الشريعة عند الخلاف مع السلطان أو الصدر الأعظم، ولا يسمحون لهم أن ينحرفوا عن مبادئ الشريعة، وكان الشعب يقف معهم ويلتحم معهم في القضايا المصيرية، لأن العلماء كانوا يملكون القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية، ونشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمتها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين، ولذلك كانوا أكثر التفافاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلين.

ك- (حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا):

إن السلطان محمد الفاتح يحذر وليه من بعده أن يغتر بالمال أو الجند، ويبين له خطورة إبعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم، كما يحذره من أن يخالف أحكام الشريعة، لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو على حياة الأمة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتتابع وتتوالى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:63]. إن من الآثار عن الابتعاد عن أحكام الشريعة أن تصاب الأمة بالتبلد وفقد الإحساس

بالذات وموات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، ويحدث لها ما حدث لبني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:78-79]. فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل.

وعندما تتغير النفوس من الطاعة والانقياد لأحكام الله إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله تتحقق فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:53] كما يترتب على ذلك توقف حركة الفتوح الإسلامية، وحرمان شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع أحكام الشريعة وارتكاب ما يخالفها من أفعال قبيحة، وتحدث الحروب فيما بين المسلمين، وتكثر الاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، كما يقوى الأعداء وتشتد شوكتهم ويغيب نصر الله عن الإسلام والمسلمين، ويحرمون من التمكين، ويصبحون في خوف وفزع وجوع، وتضيع المدن والقرى، ويتسلط عليها الأعداء وتتوالى المصائب، وهذا ما حدث في تاريخ الدولة العثمانية المتأخر.

إن من سنن الله تعالى المستنبطة من حقائق الدين وأحداث التاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه، كما حدث في تسليط النصارى على المسلمين في الأندلس، وكما فعل اليهود والانجليز والروس في تفتيت الدولة العثمانية.

إن السر في قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة في طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته والجهاد في سبيله والدعوة إليه، ولذلك قال محمد الفاتح لابنه (فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا).

ل- (واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله) :

إن تعزيز هذا الدين وإقامته في الأرض يحقق نتائج طيبة في حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الديني ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين، ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة ومحاسبة النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين، مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائماً وأبداً، كما أن تعزيز

الدين وإقامة الشرع يحقق المساواة بين الراعي والرعية في الحقوق والواجبات، وتنشر العدالة في الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها، كما أن في تطبيق الشريعة نزول البركة، وتوالي النعم، إذ ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق مستقل لصلاح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، وفي تطبيقها بركات في النفوس وبركات في المشاعر وبركات في طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامي معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة، كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقي والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة، كما أنها تتضمن نبذ عفن الحياة الحضاري لمجتمعات الرذيلة أياً كانت وأينما وجدت.

إن الناس يحتاجون إلى العلماء الربانيين لكي يعلموهم دينهم ويربوا نفوسهم على طاعة الله، ولذلك لابد للقيادة الإسلامية من احترامهم وتقديرهم وإكرامهم، فهم الذين يبينون للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية قال تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

م- (ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك):

إن هذه الوصية ترشد ولي عهد السلطان محمد الفاتح إلى الاعتدال والتوسط في الاستهلاك، وهذه الوصية فهم لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط، ولقد أنزل الله كثيراً من الآيات التي تمتدح التوسط في الأمر وذم ما سواه من البخل والشح والتبذير والإسراف والترف قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:29]. وقال تعالى يصف المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:67].

إن السلطان محمد الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله. ولقد كان للدولة العثمانية كدولة مجاهدة خطة اقتصادية لتدبير موارد الأمة في ظروف الحرب لتأمين احتياجات جيشها، وتوفير الحاجات الضرورية لشعبها من

السلع والخدمات، ولذلك كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية يمنعون الإسراف والتبذير في القطاع الحكومي والقطاع الخاص، وكانت الدولة ترشد الاستهلاك العام والخاص حتى لا تقع الأمة في أزمات اقتصادية خلال الحرب التي تسبب في هزائم الأمم، فكانت الدولة بالتعاون مع قطاعات أخرى حكومية وشعبية تقوم بما يلي:

1- توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحرب، وعلى ضروريات المجتمع من الغذاء والدواء والحماية.

2- توفير الإمدادات اللازمة خلال الحروب والأزمات.

3- تعويض النقص من مخزون السلع والأجهزة الحيوية من الإنتاج المحلي بقدر الإمكان.

4- السيطرة على التضخم في الأسعار الذي يصاحب عادة حالات الحرب.

5- التوزيع العادل للسلع والخدمات الضرورية بما يؤمن حد الكفاية لكل فئات المجتمع.

إن الدول التي تقع في الترف واللهو، وتصرف أموالها في غير محلها، مآلها إلى الهلاك والدمار. ولقد أدى الترف إلى انغماس بعض السلاطين المتأخرين في حياة الفسق واللهو بحيث كانوا يقضون أوقاتهم في الملذات وبين الحريم، وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن أمور الحكم وتركها للصدور العظام وللحريم، فانعكس ذلك على أوضاع الدولة وأدى إلى ضعفها ثم اضمحلالها وضياعها فيما بعد.

وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق

في شهر الربيع من عام 886هـ - 1481م غادر السلطان الفاتح القسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أعد في اسكدار جيشا آخر كبيرا. وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه من اسطنبول قد أصابته وعكة صحية، إلا أنه لم يهتم بذلك لشدة حبه للجهاد وشوقه الدائم للغزو، وخرج بقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أمراض، إلا أن المرض تضاعف عليه هذه المرة وثقلت وطأته بعد وصوله إلى اسكدار فطلب أطباءه. غير أن القضاء حم به فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول 886هـ (3 مايو 1481م) وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفاً وثلاثين عاماً.

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة في الشرق والغرب، أحدث دوياً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام، أما النصرانية فقد غمرها الفرح والابتهاج والبشرى وأقام النصارى في رودس صلوات الشكر على نجاتهم من هذا العدو المخيف، وكانت جيوش الدولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كل ايطاليا وضمها للدولة العثمانية، إلا أن خبر الوفاة وصلهم فانتاب الجنود هم شديد وحزن عميق، واضطر العثمانيون إلى الدخول في مفاوضات مع ملك نابولي لينسحبوا آمنين على حياتهم وأمتعتهم وعتادهم، وتمّ الاتفاق على ذلك، إلا أن النصارى لم يفوا بما تعهدوا به، واعتقلوا بعض الجنود الذين كانوا في المؤخرة وصفدوهم بالحديد.

وعندما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما ابتهج البابا وأمر بفتح الكنائس وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهي تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع، وظلت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة في روما طيلة ثلاثة أيام. لقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظم خطر كان يهددها.

لم يكن أحد يعلم شيئاً عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتى. فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالي إيطاليا ففرنسا وإسبانيا؟ لقد ظل ذلك سراً طواه الفاتح في صدره ولم يبح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك.

فلقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها سرا، ويتكتم أشد التكتم، ويترك أعداءه في غفلة وحيرة من أمرهم، لا يدري أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة، ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ، فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والاستعداد، وذات مرّة سأله أحد القضاة أين تقصد بجيوشك فأجابه الفاتح: «لو أن شعرة في لحيتي عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها في النار».

ولقد كان من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشمال ويستمر في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وأسبانيا وما وراءها من الدول والشعوب والأمم.

وتأثر المسلمون في العالم الإسلامي لوفاة محمد الفاتح وحزنوا عليه حزناً عميقاً، وبكاه المسلمون في جميع أقطار المعمورة، فلقد بهرتهم انتصاراته، وأعاد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح.

قال عبد الحي بن العماد الحنبلي في وفيات سنة ست وثمانين وثمانمائة عن وفاته: (كان من أعظم سلاطين بني عثمان وهو الملك الضليل الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداما واجتهاداً وأثبتهم جأشاً وقواداً وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً، وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان، وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام، من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجري رخاءً براً وبحراً، هجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يوماً أشد الحصار وضيق على من فيها من الكفار الفجار وسل على أهلها سيف الله المسلول وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ودق باب النصر والتأييد ولج ومن قرع باباً ولج ولج وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح اسطنبول في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى في أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهي آيا صوفيا وهي قبة تسامى قبة السماء وتحاكي في الاستحكام قبب الأهرام ولا وهت كبراً ولا هرماً وقد أسس في اسطنبول للعلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمسه الأفول وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر إفاقتهم وجعل بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوسلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى وإنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم وعطف بإحسانه عليهم كمولانا علي القوشجي والفاضل الطوسي والعالم الكوراني وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام فصارت اسطنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام وأهل حرفها أدق الفطناء في الأنام وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام فللمرحوم المقدس قلادة منن لا تحصى في أعناق المسلمين لاسيما العلماء الأكرمين).

الفصل الرابع

السلاطين الأقوياء بعد الفاتح

السلطان بايزيد الثاني

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني (886هـ-918هـ) السلطة في البلاد وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفقهاً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك. واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور لربط أقاليم الدولة ببعضها.

أولاً: الصراع على السلطة مع أخيه :

كان الأمير جم عندما بلغه نبأ وفاة أبيه محمد الفاتح يقيم في بروسة، وقد استطاع أن يتحصل على اعتراف السكان به سلطاناً على الدولة العثمانية في المناطق الخاضعة له. وبعد أن استتب له الأمر في بروسة وما حولها، أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصلح، ويقترح عليه التنازل، ورفض السلطان بايزيد ذلك لأن والده أوصى له بالحكم من بعده، لكن الأمير جم لم يقتنع بذلك فعاد واقترح على أخيه بايزيد تقسيم الدولة العثمانية إلى قسمين: القسم الأوربي لبايزيد والقسم الآسيوي له، ولكن بايزيد رفض أيضاً مبدأ التقسيم من أساسه لأن ذلك سوف يعمل على تفتيت الدولة التي سهر أسلافه على بنائها وتوحيدها، وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته وأعد جيشاً ضخماً وسار به إلى بروسة وهاجمها، وفر منها جم إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر، فرحب به وأكرمه وأمده بجميع ما احتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ولما عاد من الأراضي المقدسة إلى مصر أرسل إليه السلطان بايزيد يقول له: (بما أنك اليوم قمت بواجباتك الدينية في الحج، فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث أن الملك كان

نصيبي بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة الله؟ فأجابه بقوله: هل من العدل أن تضطجع على مهد الراحة والنعيم وتقضي أيامك بالرغد واللذات، وأنا أحرم من اللذة والراحة وأضع رأسي على الشوك؟ وقام جم بالاتصال بكبار أتباعه في الأناضول، وأثارهم ضد بايزيد، وتقدم بأتباعه ليغتصب العرش، ولكنه هزم، واستأنف المحاولة فهزم أيضاً.

والتجأ جم إلى رودس حيث يوجد بها فرسان القديس يوحنا، وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقاً إلا أنه نقضه تحت ضغط بايزيد، وأصبح جم سجيناً في جزيرة رودس، وكسب رئيس فرسان القديس يوحنا بهذه الرهينة الخطيرة امتيازات طوراً من بايزيد الثاني، ومرة أخرى من أنصار جم بالقاهرة، فلما تحصل على أموال ضخمة باع رهينته للبابا أنوست الثامن، فلما مات هذا البابا ترك جم لخلفه اسكندر السادس، ولكن الأخير لم يبق على جم كثيرا حيث قتل، واتهم في ذلك بايزيد الثاني الذي تخلص من خطر أخيه.

ثانياً: موقف السلطان بايزيد من المماليك:

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما، الأمر الذي أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة 1491م. ومع أن السلطان المملوكي قايتباي قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته في مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثماني بايزيد الثاني قد بدّد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكي سنة 1491م ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون على الحدود، وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين، وأسهمت سياسة بايزيد السلمية في عقد صلح بين العثمانيين والمماليك في نفس السنة (1491م) وظل هذا الصلح سارياً حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني عام 1512م، وأكد هذا الحدث على حرص السلطان بايزيد على سياسة السلام مع المسلمين.

ثالثاً: السلطان بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية :

استمرت راية الجهاد مرفوعة طيلة عهد السلطان بايزيد، وأدرك الأعداء أنهم لا يستطيعون مواجهة القوات الجهادية في حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم، لذا لجأوا إلى

أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكي ينخروا في عظام الأمة ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل، ففي عهد السلطان بايزيد وصل أول سفير روسي إلى (إسلامبول) عام (898هـ/ 1492م).

إن وصول السفير الروسي عام (1492م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة في نفوس أبنائها.

وفي عهد بايزيد الثاني في عام (886هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدي المسلمين العثمانيين، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية.

ولا يعني ذلك أن السلطان (بايزيد) وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوروبا الشرقية كلها، فانشغلت بها.

رابعاً: وقوفه مع مسلمي الأندلس:

تطورت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبيرية في مطلع العصور الحديثة، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها، خصوصاً بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أراغوان، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كل اسبانيا، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة؛ غرناطة، التي كانت رمز للمملكة الإسلامية الذاهبة. وفرضت اسبانيا أقسى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبيرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون - المورسكيون - إلى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية والتي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنوا المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم

إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من ظلم، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فسادا وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم.

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامي. وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا المسيحيين، إذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم، ولم يستجب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف، ومضوا في خطتهم لتصفية الوجود الإسلامي في الأندلس، وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني لإنقاذ الموقف هناك، إلا أن السلطان بايزيد كان يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا، وما أسفر عنه هذا التحالف من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق، ومع ذلك قام السلطان بايزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً يرسل بموجبه السلطان بايزيد أسطولا إلى سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة اسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية أفريقيا. وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولا عثمانياً تحول إلى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدأوا في التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين، وفي نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من النصارى، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني، ودخلوا في خدمته. بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين، وهذا الذي كان في وسع السلطان بايزيد الثاني فعله.

ولاشك أن تصرفات جم المشينة كانت سبباً أعاق حركة التوسع الإقليمي وعرقل السلطان بايزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكافة الوسائل.

وعلى العموم، فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة في خليج لبانتوا ببلاد اليونان عام 1499م/ 905هـ وفي العام التالي استولى على مدينة لبانتو. وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة في اليونان أقام البابا (إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة - حلفاً ضد العثمانيين مكوناً من فرنسا واسبانيا. وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسي والإسباني والبابوي واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحاً مع البنادقة.

وكان بايزيد ميالاً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلي وفرنسا وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر.

اهتم بايزيد بإنشاء المباني العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور، ورتب للمفتي ومن في رتبته من العلماء في زمنه كل عام عشرة آلاف عثماني، ولكل واحد من مدرسي المدارس السلطانية مابين سبعة آلاف وألفي عثماني، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر رتبته، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة.

وحدثت في زمانه زلازل عظيمة في القسطنطينية فخربت ألفاً وسبعين بيتاً ومائة وتسعة جوامع، وجانباً عظيماً من القصور وأسوار المدينة، وعطلت مجاري المياه، وصعد البحر إلى البر، فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، ولبثت تلك الزلزلة تحدث يومياً مدة 45 يوماً، وعندما سكنت الأمور كلف السلطان 15 ألفاً من العمال بإصلاح ما تهدم.

عاش سبعاً وستين عاماً، وكان قوي البنية، أحدب الأنف، أسود الشعر رقيق الطبع، محباً للعلوم، مواظباً للدرس، وشاعراً أديباً، ورعاً تقياً، يقضي العشرة الأخيرة من شهر رمضان في العبادة والذكر والطاعة، وكان بارعاً في رمي السهام، ويباشر الحروب بنفسه. وكان يجمع في كل منزل حلّ فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه، ولما دنا

أجل موته، أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر أن توضع معه في القبر تحت خدّه الأيمن، ففعل ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله ﷺ : «من أغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار». وكان مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياماً.

كان السلطان بايزيد الثاني عالماً في العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالماً في الفلك، مهتماً بالأدب مكرماً للشعراء والعلماء، وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالماً، كما كان هو نفسه شاعراً يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله وقدرته وكانت له أشعار في الحكمة توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله.

وفي 18 صفر 918هـ الموافق 125 ابريل 1512م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (918-926هـ/ 1512-1519م) وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام. وتوفي السلطان بايزيد الثاني وهو ذاهب إلى ديمتوقة، فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن بجوار جامعه الشريف.

السلطان سليم الأول
(918-926هـ/ 1512-1520م)

تربع السلطان سليم الأول على العرش العثماني في عام 918هـ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا من إخوته وأبنائهم، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم، وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي.

عندما ارتقى السلطان سليم الأول العرش العثماني، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو تستمر في التوسع الإقليمي في أوربا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامي؟

والواقع أن السلطان سليم الأول قد أحدث تغييراً جذرياً في سياسة الدولة العثمانية الجهادية فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوربي أو كاد أن يتوقف، واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي، وقد ذكر بعض المؤرخين الأسباب التي أدت إلى تغيير السياسة العثمانية منها:

1 - التشبع العسكري العثماني في أوربا، إذ يرى أصحاب هذا الرأي أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع، وهذا الرأي يخالف الصواب، لأن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً من الجبهة الغربية، ولكن لا ريب في أن مركز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشرق، ليس بسبب التشبع كما تقول بعض المصادر غير المدركة للواقع.

2 - كان تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه.

3 - سياسة الدولة الصفوية في إيران والمتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى، هي التي دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة.

إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سارت على هذه الأسس، ألا وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضم الدولة المملوكية، وحماية الأراضي المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقي للقضاء على الأسبان ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا.

أولاً: محاربة الدولة الصفوية الشيعية:

يعود نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي 650-735هـ/ 1252-1334م الجد الأكبر للشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية.

وقد التف حول الشيخ صفي الدين الأردبيلي عدد كبير من الأتباع المريدين نتيجة للدعوة القوية أو الدعاية المؤثرة التي قام بها هو وأتباعه من المتصوفة والدراويش الذين استطاعوا نشر دعوتهم لا في إيران وحدها وإنما في بعض أقاليم الدولة العثمانية وفي العراق وبلاد الشام.

لقد استطاع الشيخ صفي الدين عن طريق إحدى الفرق التي تزعمها أن يشق طريقه في المجتمع الإيراني، كما استطاع أن يكسب تأييد ومساندة الكثير من الإيرانيين مما

أدى إلى تحول هذه الفرقة إلى الدعوة للمذهب الشيعي، حيث أشيع أن الشيخ صفي الدين وأولاده يتتمون إلى علي بن أبي طالب، ومن ثم لهم الحق في المطالبة بالحكم. وكان صفي الدين قد لجأ إلى التقية، إذ كان مظهره يوحي بأنه سني الاتجاه بل إنه من أتباع المذهب الشافعي، ولما تمهدت السبل أمام هذه الدعوة الشيعية أعلن أحد أحفاد الشاه إسماعيل الدعوة الشيعية، بل إن السلطان حيدر أكد صلة نسبه بالإمام موسى الكاظم ومن ثم أصبحت الدولة الصفوية في إيران تعد نفسها من آل بيت رسول الله ﷺ.

صمم إسماعيل الصفوي على فرض المذهب الشيعي على شعبه، وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة في إيران، وقضى بالقوة المسلحة على معارضيه، واستطاع الصفويون أن يجمعوا حولهم أعداداً غفيرة من الأتباع والمريدين، وتكاتفت الدعاية الشيعية القوية سواء في بقايا (العبيديين) الفاطميين في مصر أو الإسماعيلية أو الأسرة الصفوية نفسها في إعلان المذهب الشيعي في إيران لتتحول كلها من بعد ذلك من المذهب السني إلى مذهب الدولة الجديدة وهو المذهب الشيعي.

وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرا من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا من السنة، بل إن علماء الشيعة أنفسهم كانوا يخشون على المذهب من رفض السنة له وإعلان عصيانهم على الحاكم الصفوي شيعي المذهب.

بذل الشاه إسماعيل الصفوي جهوداً ضخمة في فرض المذهب الشيعي في إيران، فعلى الرغم من التهيئة الروحية للدعوة الشيعية بين سكان إيران الذين كانوا في غالبيتهم من السنة فقد لقي هذا المذهب بعض المعارضة، غير أن إسماعيل الصفوي قرر أن يواجه هذا الموقف بتجنيد العناصر الشيعية، ووجد منها تأييداً ومناصرة، واستغل حميتهم لمناصرته فدفع بهم لضرب معارضيه والتأكيد لمذهبه في إيران.

كما لجأ السلطان إسماعيل الصفوي إلى سياسة ماهرة في تأكيد دعوته السياسية والمذهبية فاعتمد على قبائل الترلباش التركية الأصل لتكون نواة لقوته العسكرية، ذلك أن المجتمع الإيراني في ذلك الوقت كان يتكون من عناصر مختلفة نتيجة لموجات الغزو المتعاقبة على البلاد، مما كان يصعب معه صهر كل هذه العناصر في بوتقة واحدة. لقد استطاع إسماعيل الصفوي بهذه السياسة أن يجند الطاقة المذهبية عند هذه العناصر لتكون المحور الذي تلتف حوله وتذوب فيه الفوارق العرقية وتحل محلها وحدة مذهبية يمكن له أن يقيم عليها الكيان السياسي الجديد.

لقد كان إسماعيل الصفوي شرساً في حروبه شديد الفتك بمعارضيه وخصوصاً إن كانوا من أهل السنة، فقد افتتح ممالك العجم جميعها، وكان يقتل من ظفر به، وما نهبه من الأموال قسمه بين أصحابه، ولا يأخذ منه شيئاً، ومن جملة ما ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان، وكاد أن يدعي الربوبية، وكان عسكره يسجدون له ويأتمرون بأمره. قال قطب الدين الحنفي في الأعلام: انه قتل زيادة على ألف ألف نفس، بحيث لا يعهد في الجاهلية ولا في الإسلام ولا في الأمم السابقة من قبل في قتل النفوس ما قتله شاه إسماعيل، وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق من أهل العلم أحد من بلاد العجم، واحرق جميع كتبهم ومصاحفهم، وكان شديد الرفض بخلاف آبائه، ومن جملة تعظيم أصحابه له أنه سقط مرة منديل من يده إلى البحر وكان على جبل شاهق مشرف على ذلك البحر فرمى بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفس تحطموا وتكسروا وغرقوا، وكانوا يعتقدون فيه الألوهية، ولم تنهزم له راية حتى حاربه السلطان سليم فهزمه.

لقد تزعم الشاه إسماعيل المذهب الشيعي وحرص على نشره ووصلت دعوته إلى الأقاليم التابعة للدولة العثمانية وكانت الأفكار والعقائد التي تنشر في تلك الأقاليم يرفضها المجتمع العثماني السني حيث كان من عقائدهم الفاسدة، تكفير الصحابة، لعن العصر الأول، تحريف القرآن الكريم، وغير ذلك من الأفكار والعقائد، فكان من الطبيعي أن يتصدى لتلك الدعوة السلطان سليم زعيم الدولة السنية، فأعلن في اجتماع لكبار رجال الدولة والقضاة ورجال السياسة وهيئة العلماء في عام 920هـ/ 1514م أن إيران بحكوماتها الشيعية ومذهبها الشيعي يمثلان خطراً جسيماً لا على الدولة العثمانية بل على العالم الإسلامي كله، وأنه لهذا يرى الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية. وكان رأي السلطان سليم هو رأي علماء أهل السنة في الدولة، لقد قام الشاه إسماعيل عندما دخل العراق بذبح المسلمين السنيين على نطاق واسع، ودمر مساجدهم ومقابرهم، وازداد الخطر الشيعي ضراوة في السنوات الأخيرة من عهد السلطان بايزيد. وعندما تولى السلطان سليم السلطنة قامت أجهزة الدولة العثمانية الأمنية بحصر الشيعة التابعين للشاه إسماعيل والمناوئين للدولة العثمانية، ثم قام بتصفية أتباع الشاه إسماعيل، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من أنصار الشاه إسماعيل في الأناضول، ثم قام بمهاجمة إسماعيل نفسه، فتداولت الرسائل الخشنة بينهما حسب المعتاد، وكتب السلطان سليم رسالة إلى إسماعيل الصفوي قال فيها: (إن علماءنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا إسماعيل،

بصفتك مرتداً، وأوجبوا على كل مسلم حقيقي أن يدافع عن دينه، وأن يحطم الهرطقة في شخصك، أنت وأتباعك البلهاء، ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم فإننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا، وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الأقاليم التي اغتصبتها منا اغتصاباً، ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك).

وكان رد إسماعيل الصفوي على هذا الخطاب أن بعث للسلطان العثماني هدية من الأفيون قائلاً انه اعتقد أن هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر.

كذلك جاء في خطاب آخر مشابه: (أنا زعيم وسلطان آل عثمان، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الاسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الأصنام ومبيد أعداء الإسلام، أنا خوف الظالمين وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذي تذل أمامه الملوك المتصفون بالكبر والجبروت، وتتحكم لدى قوتي صوالج العزة والعظموت، أنا الملك الهمام السلطان سليم خان بن السلطان الأعظم مراد خان، أتنازل بتوجيه إليك أيها الأمير إسماعيل، يا زعيم الجنود الفارسية..ولما كنتُ مسلماً من خاصة المسلمين وسلطاناً لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين..وإذ قد أفتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجوب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا أن ننشط لحربك وتخلص الناس من شرك).

أعد السلطان سليم الأول لمعركة فاصلة مع الدولة الصفوية، حيث وصل إلى اسطنبول وبدأ في التحرك منها تجاه الأراضي الإيرانية، وبعد أن غادر اسكوتراي أرسل يهدد الشاه إسماعيل الصفوي في رسالة يقول فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم قال الله الملك العلام إن الدين عند الله الإسلام ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، اللهم اجعلنا من الهادين غير المضلين ولا الضالين وصلى الله على سيد العالمين محمد المصطفى النبي وصحبه أجمعين).

وفي نفس الوقت أرسل السلطان سليم الأول إلى أحد أفراد أسرة آق قويونلو وهو محمد بن فرج شاه بيك يحثه على الاشتراك معه في قتال إسماعيل الصفوي، وبدأت حرب الاستطلاع بين المعسكرين المتحاربين، إلا أن سليم الأول قد بدأ التحرك نحو الدخول في القتال، حيث عسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من أذربيجان، ووصلت الأنباء التي

أتت بها عيون ياس جمن تقول إن الشاه إسماعيل الصفوي لا ينوي القتال وإنه يؤخره إلى أن يحل فصل الشتاء حتى يهلك العثمانيون برداً وجوعاً.

وبدأ سليم الأول يسرع في تحريك الصراع بينه وبين الشاه إسماعيل فأرسل إليه للمرة الثانية وأرسل مع رسالته خرقة ومسبحة وكشكولاً وعصا رمز فرق الدراويش، وهو بهذا يقصد إلى أن يذكره بأصله، وبأهل الأسرة الصفوية التي لا تستطيع الصمود في الحرب، ومع ذلك فقد رد الشاه إسماعيل بطلب المهادنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين، ولم يقبل سليم الأول هذا من شاه الصفويين، وأهان رسوله وأمر بقتل رسول الشاه الصفوي، وقد أدرك سليم الأول أن خطة أعدائه تتلخص في المهادنة والتباطؤ لتأجيل موعد اللقاء حتى يحين فصل الشتاء، واستمر السلطان سليم في تحركه، ووصلته الأخبار أن إسماعيل الصفوي قد بدأ الاستعداد للقتال والحرب بل إنه على وشك الوصول إلى صحراء جالديران، فبدأ سليم الأول المسير نحوها فوصلها في أغسطس عام 1514 م واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الأماكن الهضابية فيها مما مكنه من إيقاع الهزيمة بإسماعيل الصفوي وجنوده، وكانت هزيمة ساحقة حلت بالجيش الصفوي الشيعي على أرضه. واضطر إسماعيل إلى الفرار في نفس الوقت الذي كان سليم الأول يستعد فيه للدخول إلى تبريز عاصمة الصفويين. ودخل سليم الأول تبريز وحصر أموال الشاه الصفوي ورجال القلزباس واتخذها مركزاً لعملياته الحربية.

لم ينته الصراع بين السنة في الدولة العثمانية والشيعة في إيران بانتهاء معركة جالديران وإنما ازداد العداء حدة وازداد الصراع ضراوة وظل الطرفان يتربص كل منهما بالآخر.

لقد انتصر السلطان سليم الأول بفضل الله تعالى، وعقيدته السليمة، ومنهجه الصافي، وأسلحته المتطورة، وجيشه العقدي المتدرب، وعاد إلى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر ومرغش وأبلسين وباقي أملاك دلفاود، وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق، وصارت الطرق إلى أذربيجان والقوقاز مفتوحة للعثمانيين.

وما أن هزمت فارس في موقعة جالديران السابقة أمام السلطان سليم حتى كان الفرس أنفسهم أكثر استعداداً وتقبلاً من قبل للتحالف مع البرتغاليين، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز، عندها وصل سفير من لدن شاه إسماعيل، وتم الدخول في اتفاقية محدودة مابين البرتغاليين والصفويين نصت على أن يقدم البرتغال أسطوله ليساعد الفرس في غزو البحرين والقطيف، كما يقدم

البرتغال المساعدة للشاه إسماعيل لقمع الثورة في مكران وبلوجستان، وأن يكوّن الشعبان البرتغالي والفارسي اتحاداً ضد العثمانيين، إلا أن وفاة البوكرك التي أتت بعد ذلك قد أعاقت ذلك التحالف.

لقد أظهر البرتغاليون تودداً للشاه إسماعيل قبل معركة جالديران، وكانوا يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية في الخليج قد يؤدي إلى فشل البرتغاليين في تحقيق أهدافهم، ولاسيما أن مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر منيت بالفشل إلى حد كبير.

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الفرس في رسالة أرسلها البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي جاء فيها:

(إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد).

لقد أدت هزيمة الشاه إسماعيل أمام العثمانيين إلى حرصه الشديد على التحالف مع النصارى وأعداء الدولة العثمانية، ولذلك تحالف مع البرتغاليين وأقرّ استيلاءهم على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف، إلى جانب تعهدهم بمساندتهم ضد القوات العثمانية، وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوي تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بينهما، حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين.

يقول الدكتور عبد العزيز سليمان نواز: (إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط، وكان مستعداً لان يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطراً على العالم الإسلامي حينذاك. وهكذا بينما كان البرتغاليون يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم في المياه الإسلامية، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم. ومع أن ملك هرمز، الجزيرة الصغيرة التي أضيرت بشدة في اقتصادياتها التجارية بمجيء البرتغاليين

المريعة، إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين في مقدمة أية تسوية أو تحالف مع البرتغاليين، فلا غرو أن وافق على أن تظل هرمز تحت السيطرة البرتغالية في مقابل حصوله على الإحساء، ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه. وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالي على الخليج).

اكتفى السلطان العثماني بانتصاره في جالديران واضطر إلى الرجوع إلى بلاده وترك مطاردة الشاه إسماعيل لعدة أسباب:

1 - حدوث نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثماني على متابعة الحرب في فارس بعد أن حقق السلطان هدفه واضعف شوكة إسماعيل الصفوي.

2 - خوف السلطان سليم من أن يقع جيشه في كمائن للصفويين إذا توغل في بلادهم.

3 - رأى أن يهتم بالقضاء على المماليك لأن جهاز أمن الدولة العثمانية ضبط رسائل بين المماليك والصفويين تدل على وجود تعاون ضد الدولة العثمانية.

وكانت نتيجة الصراع بين العثمانيين والصفويين:

1 - ضم شمالي العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية.

2 - أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية.

3 - سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوي، ثم هزيمة الشيعة في جالديران. وهذا أشعر الدولة بمسؤوليتها تجاه العالم الإسلامي، وبخاصة بعد أن أعلن نفسه حامياً للمسلمين.

4 - شعور الدولة العثمانية بضرورة القضاء على القوة الثانية ألا وهي دولة المماليك.

5 - أثر الصدام المسلح بين الدولة العثمانية والصفويين على قيمة إيرادات جمارك الدولة العثمانية من الطرق القديمة في الأناضول. لقد هبطت الإيرادات بعد سنة 918هـ/ 1512م نتيجة الحروب القائمة بين الصفويين والعثمانيين، إذ أقفلت معظم الطرق التجارية القديمة، كما سادتها الأخطار، وصار التبادل التجاري بين الأقاليم الإيرانية والعثمانية محدوداً، إذ انخفض إيراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي.

6- استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

7- دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين، وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا.

ثانياً: ضم دولة المماليك:

بعد أن تغلب السلطان سليم الأول على الصفويين في شمال وغربي إيران، بدأ يستعد للقضاء على دولة المماليك، ولقد ساهمت عدة أسباب في توجه العثمانيين لضم الشام ومصر منها:

1- موقف المماليك العدائي من الدولة العثمانية، حيث قام السلطان قانصوه الغوري (907-922هـ/ 1501-1516م) سلطان الدولة المملوكية بالوقوف مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم، وكان في مقدمتهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم، وأرادت السلطات المملوكية أن تتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديها أداة لإثارة مزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم، كما كان هناك الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه إسماعيل الصفوي، فهي لم تلتزم الحياد التام بين العثمانيين والصفويين، وهي لم تتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطان سليم.

2- الخلاف على الحدود بين الدولتين في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام. فقد تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت في ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك. وكان هذا التأرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر. وأراد السلطان سليم الأول بادئ ذي بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسيطرة التامة على منطقتها وسكانها.

3- تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلى الدولة العثمانية، فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي مع الشعب، وتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون إن الشعب السوري ضاق «بالظلم» المملوكي، وإن حكام

المماليك «يخالفون الشرع الشريف» وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه إلى عينتاب – البعيدة عن حلب – ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سراً ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس.

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب أن هذه الوثيقة موجودة في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في اسطنبول، رقم 11634 (26) ويبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية إلى العربية كما يلي: (يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي، بدون استثناء طاعتهم وولاءهم – طواعية – لمولانا السلطان عز نصره – وبإذنهم جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضاً من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، أن الشريعة الإسلامية لا تأخذ مجراها هنا، وهي معطلة، إن المماليك إذا أعجبهم أي شيء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالاً أو نساءً أو عيالاً، فالرحمة لا تأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلاً من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا، ونريد قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزير من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة، مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعيالنا، أرسلوا لنا رجلاً حائزاً على ثقتكم يأتي سراً ويلتقي بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين).

أما علماء وفقهاء مصر فقد ذكر عبد الله بن رضوان في كتابه: تاريخ مصر (مخطوط رقم 4971) بمكتبة بايزيد في اسطنبول، أن علماء مصر (وهم نفس الشعب المصري وممثلوه) يلتقون سرّاً بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه (شكواهم الشريف) و (يستنهضون عدالة السلطان العثماني) لكي يأتي ويأخذ مصر. لقد كان علماء مصر يراسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه، ليستولي عليها، ويطرد منها الجراكسة (المماليك).

4- رأى علماء الدولة العثمانية بأن ضم مصر والشام يفيد الأمة في تحقيق أهدافها الإستراتيجية، فإن الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الإسلامية، وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط، كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يتوجه نحو الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض في البداية، ثم تحمل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي.

ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثماني لطومان باي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة (ويعني الصفويين) والفجار (ويعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا)، فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر إلى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه).

وقوع الصدام:

بعد التطورات التي حدثت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية كان على السلطان المملوكي قانصوه الغوري أن يتخذ واحدا من ثلاثة مواقف: فإما أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين. أو أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين. أو أن يقف على الحياد بين الطرفين.

وفضل الغوري أن يقف على الحياد في ظاهره، إلا أن المخابرات العثمانية عثرت على خطاب تحالف سري يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والفرس، والخطاب محفوظ في أرشيف متحف طوب قابو في إسطنبول.

وكان السلطان سليم يريد الكرّة على الشيعة الصفوية في بلاد فارس، ومع توتر الأحداث رأى السلطان سليم تأمين ظهره وذلك بضم الدولة المملوكية إلى أملاكه.

والتقى الجمعان على مشارق حلب في مرج دابق عام 1517م وانتصر العثمانيون وقتل الغوري سلطان المماليك، وأكرم العثمانيون الغوري بعد مماته وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه في مشارف حلب، ودخل سليم حلب ثم دمشق، ودُعي له في الجوامع وسُكّتْ النقود باسمه سلطانا وخليفة. ومن الشام أرسل السلطان سليم إلى زعيم المماليك في مصر طومان باي على أن يلتزم بالطاعة للدولة العثمانية، وكان رد المماليك السخرية برسول السلطان ثم قتله.

وقرر السلطان سليم الحرب التحرك نحو مصر فقطع صحراء فلسطين قاصداً مصر، ونزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسر على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال، بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يَسهل اجتيازها.

يروي المؤرخ سلاحثور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب - وكان مصاحباً لسليم - أن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاءً حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر. وحقق العثمانيون انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية.

وتعود الأسباب التي أدت إلى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم إلى:

1 - التفوق العسكري لدى العثمانيين: فسلاح المدفعية المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرك، في حين كان سلاح المدفعية العثماني يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كل الاتجاهات.

2 - سلامة الخطط العسكرية العثمانية: فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة في سرعة اضطروا إليها، ومحاربتهم في ارض يسيطر عليها عدوهم، إلا أن مباغتتهم للمماليك كانت من عوامل نصرهم. ومن سلامة التخطيط أيضاً استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة -إذا أريد تحريكها- ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

3 - معنويات الجيش العثماني العالية وتربيته الجهادية الرفيعة واقتناعه بأن حربه عادلة بعكس القوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات.

4 - حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، بعكس الدولة المملوكية التي انحرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها.

5 - قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالانضمام لجيش السلطان سليم، وكانوا مستعدين للتعاون مع الدولة العثمانية وتحمل مسؤولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني، ومن أمثال هؤلاء: فاير بك الذي اسند إليه سليم الأول حكم مصر، وجان بردي الغزالي الذي تولى حكم دمشق.

لقد تلقى المماليك الهزيمة في سنة 1516/ 1517م وهم في شيخوخة دولتهم، وفي آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى، سواء في الشرق الأوسط أو في العالم، فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التي كانت تحت حكمهم للنفوذ العثماني.

وقد نقل الدكتور علي حسون عن الجبرتي من كتابة تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار في المجلد الأول وصفاً لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء نقتطف بعضاً منها:

(وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الإسلام، ولما خلص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية، بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين والأنبار، ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين، وأبطل المظالم والمكوس والمغارم، ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان، فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالك وأنار الحوالك، ورفع منار الدين وأخمد نيران الكافرين، ولم تزل البلاد منتظمة في سلكهم ومنقادة تحت حكمهم.. وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذبَّ عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين، فلذلك اتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم..هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين).

مسألة انتقال الخلافة:

إن مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان ترتبط بالفتح العثماني لمصر، وقد قيل إن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة، فالمؤرخ ابن إياس المعاصر لضم العثمانيين لمصر لم يتطرق إليها، كما أن الرسائل التي أرسلها السلطان سليم إلى أبنه سليمان لم ترد فيها أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان، كما أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الذين لا ينتسبون إلى الرسول ﷺ.

إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب «خليفة الله في طول الأرض وعرضها» منذ عام 1514م (920هـ) أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان. فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة

عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به. كما أن فتوح سليم أكسبته قوة ونفوذاً معنوياً ومادياً، وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه، وأصبح السلطان العثماني مقصداً للمستضعفين المسلمين الذين يتطلعون إلى مساعدته، بعد أن هاجم البرتغاليون الموانئ الإسلامية في آسيا وإفريقيا. وخلاصة القول: إن السلطان سليم لم يكن مهتماً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده، وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية.

أسباب انهيار الدولة المملوكية:

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وساعدت في وضع نهاية لدولة المماليك أهمها:

1 – عدم تطوير المماليك أسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائداً في العصور الوسطى كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الأسلحة النارية وبخاصة المدفعية.

2 – كثرة الفتن والقلاقل والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم في أحرج الأوقات.

3 – كره الرعايا للسلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة ارستقراطية مترفعة منعزلة عن الشعوب.

4 – وقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك، كما فعل والي حلب خاير بك مما أدى إلى سرعة انهيار الدولة المملوكية.

5 – سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

6 – العامل الجامع للأسباب السابقة ضعف التزام المماليك بمنهج الله ويقابله قوة تمسك العثمانيين بشرع الله.

خضوع الحجاز للعثمانيين:

كانت الحجاز تابعة للمماليك، وعندما علم شريف مكة بركات بن محمد بمقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار، فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميراً على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة.

وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الإسلامية، وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافاً كثيرة على الأماكن المقدسة، وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني، وقد أدى ضم الحجاز للعثمانيين إلى بسط السيادة العثمانية في البحر الأحمر مما أدى إلى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر، واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر.

اليمن:

بعد انهزام المماليك قدّم حاكم اليمن المملوكي الجركسي (اسكندر) وفداً إلى السلطان سليم ليقدم فروض الولاء والطاعة له، فوافق السلطان العثماني على إبقائه في منصبه، وكانت اليمن تشكل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز، وكانت السيطرة العثمانية في بداية الأمر ضعيفة، بسبب الصراعات الداخلية بين القادة والمماليك إلى جانب نفوذ الإمامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلاً عن الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية، وهذا دفع السلطان إلى إرسال قوة بحرية إلا أنها فشلت بسبب النزاع الذي دب بين قائدها حسين الرومي متصرف جدة والريس سلمان احد قادة البحر العثمانيين.

ثم أرسل السلطان سليمان حملة بقيادة سلمان باشا ارناؤطي سنة 945هـ/ 1538م، وقد ضمت الحملة 74 سفينة و 20.000 شخص، وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصة عدن ثم إغلاق مضيق باب المندب أمام السفن البرتغالية، ودخل العثمانيون عدن عام 946هـ/ 1539م، وتعز عام 952هـ/ 1545م وسقطت صنعاء في قبضتهم عام 954هـ/ 1547م وتحرك سلمان باشا بأسطوله فاستولى على بعض الموانئ العربية في حضرموت ومنها الشحر والمكلا واجتاح ساحل الحبشة، وسواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الأحمر 964هـ/ 1557م. وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني (1538-1635م) تنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركة المقاومة التي واجهتهم. وقد استفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

ثالثاً: الصراع العثماني البرتغالي:

قامت دولة البرتغال في عام 1514م بتحريك حملة على المغرب الأقصى يتزعمها الأمير هنري الملاح، واستطاعت تلك الحملة أن تحتل ميناء سبتة المغربي، وكان ذلك بداية

لسلسلة من الأعمال العدوانية المتتالية. ثم واصلت البرتغال حملاتها على الشمال الأفريقي حتى تمكنت من الاستيلاء على أصيل، والعرائش ثم طنجة في عام 1471 للميلاد. وواصلت بعد ذلك أطماعها في مراكز هامة جداً مثل ميناء أسفي، وأغادير، وأزمورة، وماسة.

وأما عن توجه البرتغال إلى المحيط الأطلسي ومحاولتهم الالتفاف حول العالم الإسلامي فقد كان العمل مدفوعاً بالدرجة الأولى بدوافع صليبية شرسة ضد المسلمين، حيث اعتبرت البرتغال أنها نصيرة المسيحية وراعيتها ضد المسلمين، وأن قتال المسلمين ضرورة ماسة وصارمة، ورأت أن الإسلام هو العدو اللدود الذي لابد من قتاله في كل مكان.

وكان الأمير هنري الملاح شديد التعصب للنصرانية، عظيم الحقد على المسلمين، وقد تحصل هذا الأمير من البابا نيقولا الخامس حقاً في جميع كشوفه حتى بلاد الهند، حيث قال: (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم خُطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله إلى أقاصي البلاد وأبعدها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة).

وقال البوكيرك في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله إلى ملقا ما نصه: (إن إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام).

وفي نفس الخطبة قال: (الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب، وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم، يقصد المسلمين، لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك).

وقال في يومياته: (كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوي وأخذ رفاة النبي محمد رهينة لنساوم عليها العرب من اجل استرداد القدس).

وقال ملك البرتغال عمانويل الأول معلناً أهداف الحملات البرتغالية: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق.

وهكذا يظهر للباحث المنصف أن الدافع الديني للكشوف البرتغالية كان من أهم العوامل التي دفعت البرتغال لارتياد البحار والالتفاف حول العالم الإسلامي، فصدرت المراسيم والأوامر، ورسم الصليب والمدفع كشعار للحملات، وكان القصد من ذلك أن على المسلمين اعتناق المسيحية وإلا عليهم مواجهة المدفع.

وكان الدافع الاقتصادي في الدرجة الثانية كعامل مؤثر في سير الكشوف الجغرافية البرتغالية، فقد سهل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام 904هـ/ 1497م بواسطة فاسكو دي جاما مهمة وصول منتجات الشرق الأقصى للأسواق الأوروبية دون الحاجة إلى مرورها عن طريق مصر، ولهذا ساعد تحويل الخط التجاري عن مناطق العبور العربية والإسلامية على تحقيق الهدف الديني وذلك لما للمجال الاقتصادي من اثر فعال في إضعاف القوة الإسلامية التي كان لها ابلغ الأثر في زعزعة أوروبا خلال عدة قرون، فضلاً عن الركود الاقتصادي الذي مُنيت به الدولة المملوكية بسبب هذا التحول المفاجئ.

ومما يجدر ذكره أن البرتغاليين استعانوا في حملاتهم باليهود الذين استخدموا كجواسيس، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربية، وعلى سبيل المثال فقد أرسل ملك البرتغال يوحنا الثاني خادمه الخاص ومعه رفيق آخر يهودي إلى مصر والهند والحبشة، وكان من نتائج رحلتهما تقديمهما تقريرا يتضمن بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندي.

وذكر ابن إياس إنه في زمن الشريف بركات أمير مكة تسلل ثلاثة أشخاص إلى مكة وكانوا يحومون حول المسجد الحرام وعليهم لباس عثماني ويتحدثون العربية والتركية، فأمر بالقبض عليهم وبالكشف على أجسامهم فاتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان، وبعد التحقيق معهم ظهر أنهم جواسيس، أرسلوا للعمل كأدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخوله لمكة، وتم بعد ذلك إرسالهم إلى السلطان قانصوه الغوري.

ولتحقيق الأهداف البرتغالية رأى رواد الكشوف وساستهم ضرورة التحكم في مضيقي هرمز و باب المندب لكي يحكم أعداء الإسلام غزوهم للعالم الإسلامي من الخلف ودق عصب الاقتصاد في المناطق العربية والإسلامية ثم بالتالي نشر المسيحية في كل موقع يصلون إليه.

ونجح البرتغاليون في خططهم وتمكنوا من السيطرة على معابر التجارة في الساحل الأفريقي والخليج العربي وبحر العرب، وقاموا بمنع وصول المنتجات الشرقية إلى أوروبا

عن طريقها، وقد ساعدهم في تحقيق ذلك عدم وجود منافس بحري لهم، مما سهل لهم السيطرة على المراكز الهامة بيسر وسهولة، ثم لم يتورع البرتغاليون بعد ذلك عن استخدام العنف، فشهدت المناطق التي وصلوا إليها واحتلوها الكثير من المجازر وإشعال النيران والتدمير، والاعتداء على حرمات الناس ومنع المسلمين من الذهاب إلى الحج وهدم المساجد عليهم.

أما عن موقف المسلمين من هذا الغزو الغاشم فقد كان المماليك آنذاك في موقف لا يحسدون عليه حيث أصابهم الوهن الاقتصادي والسياسي، وانشغل السلاطين بمشاكلهم الداخلية ومجابهة الدولة العثمانية وقمع نشاط الفرسان الإسبارتية في شرق البحر الأبيض المتوسط، ولهذا واجه السكان في الساحل الأفريقي والخليج واليمن مصيرهم بأنفسهم، فهاجموا الحاميات البرتغالية في كل مكان، في شرق أفريقيا وفي مسقط والبحرين وقريات وعدن، ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى.

ثم إن المماليك شعروا بالمسؤولية على الرغم من المشاكل التي كانت تعيشها دولتهم، وبذلوا ما في استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين إلى الأماكن المقدسة، فقام السلطان قانصوه الغوري بإرسال حملة بحرية مكونة من ثلاث عشرة سفينة عليها ألف وخمسمائة رجل بقيادة حسين الكردي الذي وصل إلى جزيرة ديو ثم شول، والتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة الونز دي الميدا وذلك في عام 914هـ/ 1508م فكان النصر حليفه، ثم إن البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة أخرى مما أدى إلى هزيمة الأسطول الإسلامي سنة 915هـ/ 1509م في معركة ديو المشهورة في التاريخ.

أما عن الدولة العثمانية فكانت في البداية بعيدة عن ساحة المعركة ويفصل بينها وبين البرتغال دولة المماليك والدولة الصفوية، ومع ذلك لبى السلطان بايزيد الثاني طلب السلطان الغوري مساعدته ضد البرتغال، فأرسل في شهر شوال سنة 916هـ/ 1511م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطاراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة. ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا.

وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية

بقيادة الأمير علي بك إلى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة ومُنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني 927-974هـ/ 1520-1566م تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي.

لقد أدرك السلطان سليمان أن مسؤولية الدفاع عن الأماكن المقدسة هي مسؤولية الدولة العثمانية، فبادر بعقد اتفاق مع حاكمي قاليقوط وكامباي وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي، وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغال، ثم أعقب ذلك الاتفاق إصداره مرسوماً إلى سليمان باشا الخادم والي مصر هذا نصه: (عليك يابيك البكوات بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجتك، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كافٍ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية إلى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر).

وقام سليمان الخادم بتنفيذ أوامر السلطان العثماني، ووصل بعد سبعة أيام إلى جدة ثم اتجه إلى كمران، وبعد ذلك سيطر على عدن وعيّن عليها أحد ضباطه وزودها بحامية بلغ عدد جنودها ستمائة جندي، ثم واصل سيره إلى الهند، وعند وصوله إلى ديو لم يتمكن من الاستيلاء عليها، وانسحب عائداً بعد أن فقد حوالي أربعمائة من رجاله، وحاول مرة أخرى الاستيلاء على القلعتين الأماميتين حتى استسلمت إحداهما وتم أسر ثمانيين برتغالياً، ولولا الإمدادات الجديدة للجيش البرتغالي لاستسلمت جميع القلاع، وتمّ طرد البرتغاليين من الهند ولخضعت قلعة ديو للعثمانيين خضوعاً تاماً.

وهكذا تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن المماليك الإسلامية والحد من نشاطهم، وهكذا نجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

إن النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الإسلامي يستحق كل تقدير وثناء، فدولة المماليك المتهالكة كانت على وشك الانهيار، ولم تكن على

مستوى من القوة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغالي، فتحملت الدولة العثمانية أعباء الدفاع عن حقوق المسلمين وممتلكاتهم بالإضافة إلى خوفها على دولتها، ونجحت أيما نجاح في الحد من مطامع الغزاة ووصولهم إلى الأماكن المقدسة كما كانوا يرغبون.

أما عن الدولة الصفوية فقد تخلت عن مساعدة سكان المناطق التي وصل إليها الغزو البرتغالي، فتركت مدن الخليج العربي تواجه مصيرها بنفسها، وزادت على ذلك أن سارت الدولة الصفوية في فلك الأعداء ولبت رغباتهم، خاصة وأنها على عداء وخلاف مذهبي مع المماليك والدولة العثمانية، ولذلك نجد البوكيرك القائد البرتغالي يستغل هذا الموقف ويرسل في عام 915هـ/ 1509م مبعوثه روي جومير ومعه رسالة ذكر فيها: (إني أقدّر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، واعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي، وسأنفذ له كل ما يريد).

وقد صادف هذا العرض أو هذا الموقف خلال الفترة التي كانت القوات العثمانية تتوجه فيها لمجابهة الصفويين على الحدود، حيث كانت بعد ذلك معركة جالديران سنة 920هـ/ 1514م التي انهزم فيها الفرس هزيمة ساحقة أمام الجيش العثماني، مما جعلهم - أي الفرس- أكثر استعداداً للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، فكانت فرصة البرتغال التي لا تعوض لاسيما وأنهم يدركون مدى الخطر الذي يُهددهم ويقلق أمنهم من قبل الدولة العثمانية، فاستغلوا احتلالهم لهرمز عام 921هـ/ 1515م وارتبطوا بعد ذلك مباشرة مع الصفويين بمعاهدة كان من أهم بنودها؛ تقديم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاه في حملته على البحرين والقطيف، مقابل اعتراف الشاه بالحماية البرتغالية على هرمز، وتوحيد القوتين في حالة المواجهة مع الدولة العثمانية عدوهما المشترك.

ويظهر أن البرتغال رأوا في تحالفهم مع الصفويين وسيلة تحقق عدم الوفاق بين الدول الإسلامية التي فيما لو اتحدت ضدهم لما تمكنوا من السيطرة على مقدرات الشعوب في مناطق الخليج والبحر الأحمر وعدن وغير ذلك من الأماكن التي خضعت للسيطرة البرتغالية؛ ومن جهة أخرى فإن التحالف الصفوي البرتغالي والوضع السياسي والاقتصادي المتدهور لدى دولة المماليك، كل ذلك جعل الدولة العثمانية تتحمل المسؤولية كاملة في الدفاع عن الأماكن الإسلامية في كل موقع حاول البرتغاليون الوصول إليه والسيطرة عليه.

لقد كان من نتائج الصراع العثماني البرتغالي:

1- احتفاظ العثمانيين بالأماكن المقدسة وطريق الحج.

2- حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر.

3- استمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.

4- استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوروبا في أسواق حلب، والقاهرة واسطنبول ففي سنة 1554م اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل، وفي الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدة عشرون سفينة محملة بالبضائع الهندية (توابل، أصباغ، أنسجة).

وفاة السلطان سليم:

في التاسع من شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، ليلة السبت توفي السلطان سليم وله من العمر أربع وخمسون سنة، وكانت مدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر، ولقد أخفى موته الوزراء، وأرسلوا يعلمون ولده السلطان سليمان، فلما وصل إلى القسطنطينية أعلنوا موت السلطان سليم، وصلوا عليه في جامع السلطان محمد، ثم حملوه ودفنوه في محل قبره، وأمر السلطان سليمان خان ببناء جامع عظيم، وعمارة لطعام الفقراء صدقة على والده.

السلطان سليمان القانوني

ولد سليمان القانوني في مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك والياً عليها، واهتم به والده اهتماماً عظيماً، فنشأ محباً للعلم والأدب والعلماء والأدباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، ارتقى عرش السلطنة وهو في السادسة والعشرين من عمره وكان متأنياً في جميع شؤونه ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها بل كان يفكر بعمق ثم يقرر وإذا اتخذ قراراً لا يرجع عنه.

أولاً: الفتن التي واجهته في بداية حكمه:

ابتلى سليمان في السنوات الأولى في عهده بأربعة تمردات شغلته عن حركة الجهاد، حيث ظن الولاة الطموحون أن فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان بردي

الغزالي وإلى الشام بتمرد على الدولة وأعلن العصيان عليها وحاول أن يستولي على حلب، إلا أنه فشل في ذلك، وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة فقمعت وقطع رأس المتمرد جان بردي وأرسل إلى اسطنبول دلالة على انتهاء التمرد.

أما التمرد الثاني فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر، وكان هذا عام 930هـ/ 1524م وكان هذا الباشا طامعاً في منصب الصدر الأعظم ولم يفلح في تحقيق هدفه، وطلب من السلطان أن يعينه والياً على مصر فعينه. وما إن وصل إلى مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً، إلا أن أهل الشرع وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية قاموا ضد الوالي المتمرد وقتلوه، وظل اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن.

والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين هو تمرد شيعي رافضي قام به بابا ذو النون عام 1526م في منطقة يوزغاد، حيث جمع هذا البابا مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على المنطقة، وقويت حركته حتى أنه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة بابا ذو النون وأرسل رأسه إلى اسطنبول.

والتمرد الرابع ضد الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني كان تمرداً شيعياً رافضياً أيضاً وكان على رأسه قلندر جلبي في منطقتي قونية ومرعش وكان عدد أتباعه ثلاثين ألف شيعي قاموا بقتل المسلمين السنيين في هاتين المنطقتين. ويقول بعض المؤرخين إن قلندر جلبي جعل شعاره أن من قتل مسلماً سنياً واعتدى على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب.

توجه بهرام باشا لقمع هذا العصيان فقتله العصاة، ثم نجحت الحيلة معهم إذ أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد استمال بعض رجال قلندر جلبي، فقلت قواته وهزم وقتل.

بعد هذا هدأت الأمور في الدولة العثمانية وبدأ السلطان في التخطيط لسياسة الجهاد في أوروبا.

ثانياً: فتح رودس:

كانت رودس جزيرة مشاكسة إذ كانت حصناً حصيناً لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، فضلاً عن أعمالهم العدوانية

الموجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية، فأهتم السلطان سليمان بفتحها وأعد حملة عظيمة ساعده على تحقيقها عدة أمور:

1 - انشغال أوروبا بالحرب الكبرى بين شارل الخامس (كنت)، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرانسوا ملك فرنسا.

2 - عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية.

3 - نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول.

وشن سليمان القانوني حرباً كبيرة ضد رودس ابتداء من منتصف عام 1522م وفتحها، وأعطى للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا إلى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارك كنت) حق حكم هذه الجزيرة.

ثالثاً: قتال المجر وحصار فينا:

كان ملك المجر (فيلاد يسلاف الثاني جاجليو) قد عزم على فك أي تعهدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب إلى حد قتل مبعوث السلطان سليمان إليه.

وكان المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر. ولهذا رد سليمان في عام 1521م بغزوة كبيرة ضد المجر، ولكن المعارك استمرت حتى أحرز الأتراك انتصارهم الكبير في موقعة موهاكس عام 1526م، ودخل سليمان القانوني (بودا) في 11 سبتمبر (أيلول) عام 1526م واستمرت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السلطان ضغطه حتى بلغت جيوشه أسوار فينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1529م، إلا أن طول خطوط المواصلات وتحول (شارل كنت) من قتال فرانسوا إلى التصالح معه للتفرغ لحرب العثمانيين ولإنقاذ عاصمة الهايسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها، بينما استمر الصراع بين سليمان والقوى الأوروبية المؤيدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتى وفاة سليمان.

على أن أبرز حدث تاريخي في السياسة الخارجية العثمانية على عهد سليمان القانوني هو علاقته مع فرانسوا، تلك العلاقة التي تحولت إلى محالفة.

رابعاً: سياسة التقارب العثماني الفرنسي:

كان عهد السلطان سليمان القانوني بمثل رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك. ويعتبر عصر السلطان سليمان هو العصر الذهبي للدولة

العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من 926-972هـ الموافق 1520-1566م توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة وبالأخص على دول أوروبا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة. وكان تشارلز الخامس ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسي الحكم للإمبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية. وكانت بلغراد تعاني من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثاني مما أدى إلى نشوب النزاع بين الأمراء.

ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانه وقوة الدولة العثمانية ويكسبها صديقاً له، فوقف منه موقف التودد والرغبة في الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات تشارلز الخامس وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسي ما ذكره للسفير الفينسي عندما قال:(سعادة السفير، لا يمكنني أن أنكر أنني أرغب بشدة في أن أرى الأتراك أقوياء جداً ومستعدين للحرب، ليس فقط لمصلحة السلطان العثماني الذاتية، بل لإضعاف قوة الإمبراطور تشارلز الخامس وتكليفه غالياً، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا «الإمبراطور تشارلز»).

بدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة بافيا التي أسر فيها ملك فرنسا فرانسوا الأول عام 1525م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها جون فرانجيباني ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهابسبرج وإطلاق سراح الأسير.

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها في مدريد بين فرنسا وأسرة الهابسبرج سنة 1526م، إلا أن فرنسوا، بعد إطلاق سراحه أرسل في عام 941هـ/ 1535م سكرتيره جان دي لافوريه إلى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف في شكل معاهدة، سُميت فيها بعد بـ «معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية» ونظراً لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى بعد ذلك نورد هنا أهم نصوصها:

1 - حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

2 - حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

3 - تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية.

4 - الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك.

5 - حق التمثيل القنصلي، مع حصانة قنصلية للقنصل ولأقاربه وللعاملين معه.

6 - من حق القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم في هذه القضايا، وللقنصل الحق في الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

7 - في القضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني، لا يستدعى ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي ولا يحاكم إلا بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.

8 - إفادات رعية الملك في القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند إصدار الحكم.

9 - حرية العبادة لرعايا الملك.

10 - منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني وشن الأسطول العثماني هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة لـ «شارل كنت». وفي عام 1543 م تجمعت وحدات الأسطولين العثماني والفرنسي وهاجمت «نسير» التابعة لدوق سافوي حليف شارل كنت.

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل في الحماية تحت علمها لرعايا الدول الغربية الأخرى، مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوروبي.

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية، وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربية، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابل يذكر. وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذي بني عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التي عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بصفة عامة.

لم يستطع ملك فرنسا أن يلتزم بالعهود مع الدولة العثمانية بسبب الرأي العام النصراني، فيضطر إلى التراجع ونقض العهود ثم يعود من جديد فيستجدي عطف وتأييد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأي العام. والحقيقة التاريخية تقول إنه لا يمكن للصليبيين أعداء الإسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام تحدِّيه القوي لهم وإن كانوا مختلفين ظاهرياً تبعاً للمصالح والأهواء.

وإن أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين لا أحلاف ولا مواثيق لهم في تعاملهم مع المسلمين كما يبين لنا الله عز وجل في كتابه الكريم. وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان ما يقوى ساعدهم كي يجهزوا عليهم، وهم في الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين، وأنه مهما اختلفت المصالح فهم جميعاً يتفقون في محاربة هذا الدين وتقتيل أهله في كل زمان ومكان.

لقد كانت تلك الامتيازات التي أعطيت للدولة الفرنسية أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد.

وفي أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل في شؤونها تحت حماية الامتيازات وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدول الأجنبية وخاصة في بلاد الشام.

الفصل الخامس

الدولة العثمانية وشمال أفريقيا

كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداداً كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي، ولما كان من بين المسلمين النازحين إلى هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، فكان من الضروري أن تبحث هذه الولايات عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط. ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الدافع الديني بسبب الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الأسبان والبرتغال للمسلمين في الشمال الأفريقي.

وقد ظلت حركات الجهاد الإسلامي ضد الأسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهر الأخوان خير الدين وعروج بربروسا واستطاعا تجميع القوات الإسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام عن التوسع في موانئ ومدن الشمال الأفريقي.

وقد اعتمدت هذه القوة الإسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية، ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين.

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة، وكذلك شككوا في أصل أهم قادتها وهما خير الدين

وأخوه عروج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وتأثير هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط في زمن السلطان سليم والسلطان سليمان القانوني.

أولاً : أصل الأخوين عروج وخير الدين:

يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين، وكان والدهما يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل. وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الأسبان والبرتغاليين. وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحاق ومحمد إلياس، ولقد استند المؤرخون المسلمون في أصلهم الإسلامي إلى الحجج التالية:

1- ما ذكره المؤرخ الجزائري «أحمد توفيق مدني» مستنداً على أثرين مازالا موجودين في الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله «أوروج بن يعقوب» بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة (1518م) ونقش على الرخامة الثانية : (اسم «أوروج» بن أبي يوسف يعقوب التركي). وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ما شيده خير الدين في الجزائر سنة 1520م.

2- إن اسم «عروج» - «أوروج» مأخوذ من حادثة الإسراء والمعراج التي يرجح أنه ولد ليلتها، وأن الترك ينطقونه «أوروج» ثم عرب إلى «عروج».

3- إن ما ذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع أسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمالي أفريقيا، ولقد أبدع الأخوان في الجهاد البحري ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن.

ثانياً: دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو النصراني:

اتجه الأخوان عروج وخير الدين إلى الجهاد البحري منذ الصغر، ووجها نشاطهما في البداية إلى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة 1510م، لكن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمالي أفريقيا وبين المسلمين هناك، والذي اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق وبخاصة بعد أن تمكن الأسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمالي أفريقيا.

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين الأمر الذي أثار أعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان «الحفصي» لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية، وهو أمر عرضه لهجوم أسباني متواصل اضطره لقبول الحماية الاسبانية بالضغط والقوة، كما يبدو من خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما، وتأثيرهم داخل بلادهم، مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة. ويرى بعض المؤرخين أن دخول «عروج» وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول «عروج» وأخيه كان بناءً على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الأسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض الحكام الذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد، حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداد كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبي الأسباني.

ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الاسباني سنة 1512م، وقد نقلا - لهذا الغرض- قاعدة عملياتهما ضد القوات الأسبانية إلى ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنوبيين سنة 1514م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى، ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعوداه لكن أجبرا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف

قتل «عروج» في إحدى المعارك سنة 1518م مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقاومة ومواصلة الجهاد، وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط أم لأن القوى المحلية في الشمال الأفريقي كانت متعاطفة معها، أو لتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية، وأن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدورهما وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم هذا التحالف في إكساب دورهما تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منها أو التحالف معها عملاً مرغوباً.

ومن جهة أخرى كانت الظروف في الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الأول مهيأة لقبول هذا التحالف وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية إلى الشرق العربي، وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه -كما سبق التوضيح- هو التصدي لدور البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا في المنطقة، وكان من المنطقي التحالف مع أي من القوى المحلية التي تعينها على تحقيق هذه الأهداف.

ثالثاً: التحالف مع العثمانيين:

اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج خير الدين، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهما إلى الساحل الأفريقي تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقي وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة البحر المتوسط. وعلى الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة البحر المتوسط.

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة 1514م في أعقاب فتح عروج وخير لميناء «جيجل» حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود. وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط ودور الأخوين ودعمه. على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة «عروج» سنة 1518م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر إلى استانبول سنة 1519م.

على أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح «بجاية»، كما أنهما حوصرا في «جيجل» بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الأسبان وبين «سالم التومي» حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه على دعم الأسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الأسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصرهم في البحر؛ فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل، حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما الجزائر قبل القوات الاسبانية وذلك لموقعها المتاز من ناحية ولكي يسبقوا الأسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الاسباني كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الاسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة 1516م في موقعة مرج دابق.

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة، وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية.

بعد أن بويع «خير الدين» في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الأسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التي كانت مازالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان، ومع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخل «خير الدين» إلا أن موقع تلمسان الاستراتيجي الذي كان يجعل وجود «خير الدين» في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك.

وأعد «خير الدين» جيشاً كبيراً زحف به إلى تلمسان سنة 1517م، وأمن الطريق إليها. وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الأسبان وعملاؤهم من بني حمود، من استعادتها، ولقي أحد إخوة «خير الدين» حتفه وهو «إسحاق»، كما قتل «عروج»

وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة، ذلك الحصار الذي أمتد لستة أشهر أو يزيد حتى سنة 1518م.

وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه إلى التفكير في ترك الجزائر لولا أن أهلها ألحوا عليه بالبقاء. وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الأسبان ومؤيدوهم، كما أن ذلك قد أدى إلى اتجاهه إلى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن دالت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر.

رابعاً: سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول:

قام الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باسطنبول - طوب قابي سيراي- تحت رقم 4656، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام 925هـ، في الفترة من 26من شهر أكتوبر (تشرين الأول) إلى 3 من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1519م، وكتبت بأمر من خير الدين إلى السلطان سليم بعد عودته من مصر والشام إلى استانبول، وكان الغرض من تلك الرسالة ربط الجزائر بالدولة العثمانية. وجاء في الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة في أن يذهب بنفسه إلى اسطنبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً أبعاد قضية الجزائر. ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا. وطلبوا منه أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة عنه، وكانت الرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وكان الذي يتزعم السفارة «الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس احمد بن قاضي» وكان من أكبر علماء الجزائر، كما كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التي تحيط بها من كل جانب.

لقد أشاد الوفد بجهاد بابا عروج في مدافعة الكفار، وكيف كان ناصراً للدين وحامياً للمسلمين، وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيداً في حصار الاسبانيين لمدينة تلمسان، وكيف خلفه أخوه «المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين» وكان له خير خلف فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف وإتباع الشرع النبوي الشريف،

وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله، ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً إجلالها وتعظيمها. على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي، وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام.

إن الرسالة السابقة تبين للباحث آراء الجزائريين تجاه الدولة العثمانية وكان من تلك الآراء:

- أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال افريقية، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية، ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له في الحكم.
- أن نشاطه يتركز في قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.
- أنه يكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.
- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية ووضوح الهدف أمام مسلمي الجزائر.

خامساً: استجابة السلطان سليم الأول لأهل الجزائر:

سارع السلطان سليم إلى منح رتبة بكلر بك إلى خير الدين بربروس وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلاً للسلطان، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية، وأصبح أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية، ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية، إذ أرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وألفين من الجنود الانكشارية. ومنذ ذلك الوقت (1519م) بدأ الانكشاريون يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية في الأقاليم العثمانية في شمال أفريقيا، وأصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم، وأذن السلطان سليم لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر إلى الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين. ولقد هاجر سكان الأناضول إلى الجزائر شوقاً إلى عمليات الجهاد ضد النصارى، كما ترتب على القرارات التي أصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

1 - دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام 1519م، ودعي للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.

2 - إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم، فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلد.

3 - إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمال أفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية في البحر المتوسط، وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الأفريقي لتوحيده تحت راية الإسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الأسبان النصارى.

لقد كان زمن السلطان سليم البداية المتواضعة لمد النفوذ العثماني إلى أقاليم شمال أفريقية من أجل حماية الإسلام والمسلمين، وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي.

لقد استجاب السلطان العثماني سليم لنداء الجهاد من أخوة الدين، وشرعت الدولة العثمانية في إنشاء أسطول ثابت لهم في شواطئ شمال أفريقيا والذي ارتبط منذ البداية باسم الأخوين عروج وخير الدين بربروس.

سادساً: التحديات التي واجهت خير الدين:

كان أمام خير الدين بربروس في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب على جبهتين:

1 - الجبهة الاسبانية لطرد الاسبانيين من الجيوب التي أقاموها فضم إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر، وحقق انتصاراً باهراً على الإسبانيين حين استولى عام 1529م على حصن بينون الاسباني على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر، وكان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على البينون سنة 1529م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمال افريقية العثمانية فيما بعد. وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

2- الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط التي لم تخل من مؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة، ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية، ودخلت الإمارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكي تحتمي بهذه القوة من الأطماع الصليبية الاسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية. وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل قسنطينة.

لقد نجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر، وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني، واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية، وكانت جهوده مثمرة في إنقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا، فقد قام عام 936هـ/ 1529م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات للدولة العثمانية إلى السواحل الاسبانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي ومغانم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت لدولة الجزائر قاعدة اقتصادية قوية.

لقد تضررت اسبانيا من نجاح خير الدين في الشمال الإفريقي، وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي كانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا، وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدفع عن أوروبا المسيحية الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بيليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي، لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثاً للتجسس في شمال أفريقيا سنة 940هـ/ 1533م وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر أن هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على أفريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من أخوته، فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان أخو الحسن المسمى

بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب إلى خير الدين في الجزائر وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه، فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركزاً اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس في نظره أهمية إستراتيجية كبيرة لإشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي بالإضافة إلى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس..

سابعاً: سفر خير الدين إلى اسطنبول

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى اسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الإفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطابا يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وأن لم يجد من يصلح لذلك، يبعث إليه السلطان نائباً، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه، ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان، الذي وجهه إليهم وأعلمهم أنه لا يمكنه التخلف عن أمره، وعندما سمع اندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح اسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك، أراد أن يشغل خير الدين من سفره إلى حضرة السلطان، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الاسبانية في الهجوم على الجزائر، وتخليصهم من الأسر، ففرح الأسرى الأسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة إعدام أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهراً أتم الطاعة للسلطان.

عزم خير الدين على السفر إلى اسطنبول 940هـ/ 1533م، وعين مكانه حسن آغا الطوشي، وكان رجلاً عاقلاً وصالحاً، صاحب علم واسع.

أبحر خير الدين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة وهزم في طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة، واستمر خير الدين في رحلته

ووصل إلى مدينة بيروازن، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم اندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورست مراكبه في قلعة اوارين «انا وارنيه» فصادف هنالك أسطولا للسلطان سليمان القانوني وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعاً حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان يعلمه بوصوله ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يستحثه بالقدوم عليه، اقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى اسطنبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره وفوض إليه النظر في دار الصناعة، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية - حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان، وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته، فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهاً إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين، وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان ويلبس الخلعة، فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة واحتفل به احتفالاً مهيباً، وأكرم إكراماً عظيماً لما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط. ثم رجع خير الدين إلى اسطنبول وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام وشرع خير الدين في النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان.

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد خرج خير الدين بربروسا بأسطوله القوي من الدردنيل متجهاً نحو سواحل ايطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو.

كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار إستراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي

لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر اسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس، وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين ثم الإمكانيات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم بالمواصلات البحرية في البحر المتوسط وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء الأهمية العسكرية على تونس.

كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتي تقتضي تطهير شمال أفريقيا من الأسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق وأن أشار خير الدين بربروسا على السلطان سليمان القانوني في خطابه الذي بعثه قبيل استدعاء السلطان له في 940هـ/ 1533م، إذ قال فيه: (إن هدفي إذا قدر لي شرف الاشتراك هو طرد الأسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الأسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة، وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك، أنني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا ... لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولاسيما أن حروبك في آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً).

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت، وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى اسبانيا، ثم عين خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي.

ثامناً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدي من الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائري بقيادة خير الدين بربروسا، فقام بمحاصرة مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة 941هـ/ 1534م، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التي بعثها

البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأن تعاوناً قد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الأفريقي، وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث بوصول الأسطول العثماني في 3 ربيع الأول 941هـ/ بقيادة خير الدين بربروسا إلى الشمال الأفريقي، فكر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبته وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غرب البحر المتوسط. ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الأيبيرية بعث الملك يوحنا الثالث استفتاءا إلى جميع الوجهاء والأعيان والأساقفة في بلاده يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الإجابة على الأسئلة الآتية: هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة، هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ما هي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟

تلقى الملك البرتغالي أجوبة عديدة بين مؤيد في الإبقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، وأن يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالي لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين بربروسا، فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز وأسفي وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة خوفاً من هجوم خير الدين عليها.

إن الوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته، فوصل التهديد العثماني أقصاه، فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وأفريقيا.

تاسعاً: استيلاء شارل الخامس على تونس

كان الموقف ملائماً بالنسبة لاسبانيا وذلك للقيام برد عنيف، فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغت هذه الحرب على الصراع في أوروبا، وعلى وعد فرنسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد.

تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجاد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل اسطنبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم. وقاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل اسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين، الأمر الذي أعاد السيطرة الاسبانية على تونس في 942هـ/ 1535م، إذ لم تكن قوة خير الدين كافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد، فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، ونصب الأسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم بونه والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونه، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الأسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي اسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد. وعاد شارل الخامس إلى اسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب الدولة الصفوية الشيعية الرافضية في بلاد فارس.

عاشراً: عودة خير الدين إلى الجزائر:

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسنطينة، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الأسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين وقد استقر مؤقتا بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي العثماني أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في 942هـ/ 1535م. من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف رسمي مع فرنسا في 943هـ/ 1536م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الأسبان على تونس، وبدا وكأن

الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد، كما صارت أهداف اسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية.

الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي :

تلقى الملك أحمد الوطاس هزيمة 943هـ/ 1536م من السعديين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلي قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش. وأثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الأسبان، ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة، وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الأسبان ولا البرتغاليين إلى أراض برتغالية محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشتري منها شيئا، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين، ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر ما لم تقم قوات العدو بمهاجمتها.

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه الوطاسيين في موقعة بير عقبة 943هـ/ 1536م، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في 25 ذي القعدة 944هـ/ 25ابريل 1537م لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعايا الطرفين.

كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبيرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف اسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس.

اشتغل خير الدين بربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في الأسطول العثماني، وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينما استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلر بك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية، فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائر مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الإفريقي، فاكتسبت الجزائر مهابة وجلالاً وجعلت الأمم المسيحية تهرع إلى عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس 946هـ/ 1539م عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب أمله، مثلما خاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سراً الاعتراف به حاكماً لشمال أفريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف اسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال أفريقيا عن اسطنبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال أفريقيا إبداء مقاومة قوية ويكون من السهل سقوطها.

انهمك حسن آغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً وأقام به حامية.

ركب الجيش العثماني في شهر جمادي الأول 949هـ/ سبتمبر 1539م البحر، وكان قوامه 1300 رجل، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا عليها باتجاه الأسبان، ونزل حسن آغا وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين وتوغل في جهات الساحل الاسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الأسبان، وكان يختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان، وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر اعترض طريقه أسطول اسباني كبير العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت خسائر الأسبان في هذه المعركة عظيمة.

عزم شارل الخامس على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقبل أن يشرع في تنفيذها كان هدوء نسبي

يسود القارة الأوربية إثر عقد هدنة نيس في محرم 945هـ/ يونيو 1538م مع فرنسا والتي كانت مدتها عشر سنوات. رسا شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة 948هـ الموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر 1541م وعندما شاهده حسن آغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الإسلام والوطن قائلاً لهم: لقد وصل العدو إليكم ليسبي أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف... هذه الأراضي فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا، نحن أهل الحق. فدعا له المسلمون وأيدوه في جهاد العدو، ثم بدأ حسن آغا في إعداد جيوشه والاستعداد للمعركة.

من ناحية أخرى بدأ الأسبان في تحضير متاريسهم، وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن آغا وأراد أن يستهزئ به، فأمر كاتبه بإعداد خطاب لحسن آغا جاء فيه: أنت تعرفني أنا سلطان .. كل ملة المسيحيين تحت يدي إذا رغبت في مقابلتي سلمني القلعة مباشرة.. أنقذ نفسك من يدي وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة في البحار، ثم لا أبقي عليك ولا على سيدك ولا الأتراك، وأخرب كل البلاد. وصل ذلك الخطاب إلى حسن آغا وأجاب عليه: أنا خادم السلطان سليمان ... تعال واستلم القلعة ولكن لهذه البلاد عادة، أنه إذا جاءها العدو، لا يعطى إلا الموت.

وفي الليلة ذاتها، وصل إلى معسكر شارل رسول من قبل والي الجزائر يطلب إذناً للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد) وعرف (شارل) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميراً تاماً. ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الاسبانية، في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة: «لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل». وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الاسبانية، وكان المجاهدون يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع، وسخر الله لجنود الإسلام الأمطار والرياح والأمواج (وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ وهجم عليها

المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود. وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل)، وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذي استطاع بجنوده أن يحصد رؤوس النصارى بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وبطولة رائعة. لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن تستفيد من الوضع المحيط بالنصارى، ووجهت جنودها بطريقة متميزة في الكر والفر أفنت جزءاً كبيراً من الأعداء، واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن، واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من اسبانيا، وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور، القيادة الرشيدة والتفاف الشعب الجزائري حولها وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى طلباً للشهادة في سبيل الله، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم فقالوا في رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان: إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً، فجعلهم بسواحل البحر مابين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل.

لقد قام سكان الجزائر، سواء أهل الإقليم الأصليون أو مسلمو الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر، بإرسال رسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس، وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم، وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التي أداها للإسلام خير الدين باشا «المجاهد في سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين»، ومضت الرسالة تقول: إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم، وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين. وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

1- إرسال نجدات عسكرية «لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة».

2- إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلر بك الجزائر - «فهو المتمثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار، وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر».

وصل خير الدين بربروسا إلى مدينة الجزائر للإسهام في الدفاع عنها، وكان توفيق الله للمسلمين وسواعدهم قد قضت على أسطول الأسبان فاكتفى بتفقد أمور البليربكية واطلع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الاسبانية يذيقها العذاب الأليم، وأنعم السلطان سليمان على حسن آغا الطوشي برتبة الباشوية، لدوره الفعال في النصر، وخلا البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الأسبانية التي كانت تضمد جراحها وتحاول استرجاع قوتها، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفزع تلك النواحي التي بقيت مفتوحة في وجه العثمانيين يتوغلون داخلها ويغنمون ما فيها، كما صارت الدول الأوروبية تعمل للعثمانيين حساباً، فاهتز بذلك مركز الأسبان في وهران وغيرها من مناطق نفوذهم في الشمال الأفريقي، وحقق السعديون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتاكروز، وما إن علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفي وأزمور بالجلاء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن إلى سفيره بمدريد رسالة مؤرخة في الثاني والعشرين رمضان 948هـ/ ديسمبر سنة 1541م، يطلع فيها الإمبراطور الاسباني شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للأسباب التي أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتي آسفي وأزمور فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك، فقد تزايدت قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدي يملك المدفعية العثمانية، والآلات الحربية، وليه جنود مدربون وظهرت تلك الإمدادات عند حصار سانتاكروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً، ثم أن الجلاء عن أسفي وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة.

يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية بتقديم المساعدة للقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها، وذلك لأن الدولة ترغب في تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا في مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالي في المراكز الجنوبية من المغرب، ثم ليعبروا للأندلس، لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور.

مصير شارلكان :

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الاسبانية، ولا على ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الأحداث العالمية. وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه:

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا ... فليس له إلا هُمُ من زواجر

فجهز أسطولا وجيشاً عرمرماً ... ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا، وتطورت الأحداث هناك بسرعة. فلم يبق حليف للإمبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دي كليف) وملك الدانمرك وملك اسكندينافيا. وكان فرح الفرنسيين عظيماً لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرنسوا الأول إلى إبرام معاهدات مع السلطان العثماني، وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل الشمال الأفريقي. وأما في أوربا فقد (بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر، وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفناً عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس أن خير الدين بربروسا هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه بإغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك.

وفاة حسن آغا الطوشي :

استمر حسن آغا في القيام بواجبه المقدس حتى وفاته 951هـ/ 1544م فأجمع أهل الديوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالي باسطنبول الحاكم الجديد، الذي عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة.

المجاهد حسن خير الدين بربروسا

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله، ليستعد للجهاد ومواجهة المسيحيين، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك في المناطق التي أظهر هجوم شارل الخامس عن

وجود ضعف فيها، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الأسبان في وهران يعيقان حل المشكلة.

كان حاكم تلمسان أبو زيان أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه ما لبث أن خضع لمؤامرات خارجية وانساق في تيارها وأخذ يتقرب من الأسبان، مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد أخوته الحسن، فتوجه أبو زيان إلى وهران طالباً الدعم من الأسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، انضمت إليه جموع الخاضعين للأسبان من بني عامر وفليتة وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور بن بوغنام، وتقدموا إلى تلمسان لإبعاد الحسن، وإعادة تنصيب أبو زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الاسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان ليمنع الأسبان من الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان، الذي اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزاً خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذي يرغب في مساندة زوج ابنته الأمير مولاي أحمد، حليف الأسبان.

ولقد قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدي بنحو عشرين ألف مجاهد، فالتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للاستيلاء على اسبانيا، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم.

واستطاع الشريف السعدي أن ينهي الحكم الوطاسي وأصبح الأسبان متخوفين من هجوم عثماني سعدي مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الاحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحي فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ اعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد، فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس، إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وانتهى الحكم الوطاسي، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان، فأرسل جيوشاً كبيرة لإنهاء الحكم العثماني فيها، وعندما شعر العثمانيون

بتلك الأطماع وانحراف الشريف السعدي عن الهدف الإسلامي أرسلوا له حملات ليعود إلى بلاده.

استمر المجاهدون في شمال أفريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وايطاليا وغطى المجاهدون من أهالي الشمال الأفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الأفريقي، وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيكا، ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هدد أيضاً الاتصالات بين اسبانيا وايطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل الخامس في الدفاع عن الطرق البحرية ضد القسطنطينية التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا.

أولاً: آخر أيام خير الدين بربروسا:

استمر خير الدين في قيادة الأسطول العثماني وحقق انتصارات رائعة هزت أوروبا كلها وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة (مرسيليا) قاعدة لقيادته ومقراً لأسطوله وهناك - في مرسيليا - باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التي حملوها معهم من اسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الأسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم، واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم اخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة إلى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الإمبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وأنضم الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الأسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دبو بوربون) قواته تحت قيادة (خير الدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية-الفرنسية) وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الاسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين بأسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الأسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (إن خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم يعد يسمع في طولون إلا أذان المؤذنين) وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون حتى سنة 1544م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتوتييري) ثم اضطر للذهاب إلى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم 18 أيلول (سبتمبر) 1544م في مدينة (كريسبي دي فالوا). ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (اسطنبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين اسبانيا والمسلمين، فقد استمر (خير الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوه، وارتاع مجلس شيوخها فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (ألبا) التي كانت تحت حكم اسبانيا -والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد- فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (لبياري) ورجع إلى العاصمة بسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأم أبناءها البررة.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى إلى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشي سنة 1544م.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

لقد قاد خير الدين حروب الإيمان وحقق فوزاً عظيماً واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها، ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له (يجب ألا تنسى أن الأسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وان تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه). فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة). وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسا خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء

الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام) فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الأسبان فأبادوهم عن آخرهم.

إن هذه الصورة لا تختلف أبداً، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا إلى الدنيا رسالة الإسلام. غير أن الموقف العام لم يكن في عهد (خير الدين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه إلى قلوب المسلمين وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لا تسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم في التأثير على التيار العام.في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث، وكان أخطر ما في الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكز قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين.

لقد كان من المحال تحقيق النجاح في مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة في كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد في سبيل الله، وتطبيق رائع للعقيدة القتالية الإسلامية، وقيادة على درجة عالية من الكفاءة.

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر خير الدين، فكتب شعب الجزائر مع خير الدين تحت سيادة الدولة العثمانية قصته الرائعة في الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد، وما كان شعب الجزائر ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس (خير الدين) دوره في تكوينها ووضعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خير الدين إلى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقي وبقيت الأمة الإسلامية تردد على مدى الدهر تلك المواقف البطولية التي صنعتها العقيدة ومبادئ الجهاد وقيمه في سبيل الله.

ثانياً: عزل حسن بن خير الدين عن الجزائر:

كان حسن بن خير الدين بربروسا بعد أن هزم السعديين في تلمسان ووطد دعائم الحكم العثماني فيها 959هـ/ 1151م قد انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط مع الدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع اسطنبول والتي شملت جميع

أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة، فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في اسطنبول إلى الجزائر يهدف معرفة المدى الذي سيصل إليه حسن بن خير الدين في عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية مابين فرنسا وبيلربكية الجزائر.

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة اسبانيا، ونجدة مسلمي الأندلس، لكن حسن رفض هذا العرض، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، وبين بأنه لا ينتصر بكافر على كافر، وما إن رجع السفير الفرنسي إلى اسطنبول، حتى أوغر صدر الباب العالي بقوله: (إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة).

ورأت الدولة العثمانية أنه صار لزاماً عليها تغيير سياستها في المنطقة، خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للأسبان، مما أدى إلى قلب الموازين الإستراتيجية رأساً على عقب، فأتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني بيلر بك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا إلى الوحدة الإسلامية وإلى حسن الجوار. وأسندت الدولة العثمانية بيلربيكية الجزائر إلى صالح رايس في صفر 960هـ/ يناير 1552م، بدلاً من حسن بن خير الدين.

سياسة صالح الرايس

عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق أمرين:

1- تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر.

2- إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للأندلس.

أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف:

أولها: إبعاد الأسبان نهائياً عن أراضي الجزائر.

ثانيها: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها: إعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس.

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع أن يخضع الإمارات المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية، وأصبح وضع العثمانيين في الجزائر أقوى مما كان عليه. ثم بدأ صالح رايس في مخططه نحو المغرب الأقصى، واستفاد من الظروف التي تمر بها تلك الديار، ووقف مع احد أفراد أسرة بني وطاس الذي فقد أمله في وقوف الأسبان والبرتغاليين معه.

وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع أبي حسون الوطاسي وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الأسطول العثماني إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهي سنة 963هـ/ 1553م، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة أهمها بكدية المخالي في ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبو حسون نحو فاس التي دخلتها في 3 صفر سنة 964هـ/ 8 يناير 1554م. وأعلن الباب العالي ضم المغرب إلى الدولة العثمانية بعد أن خطب الإمام للسلطان العثماني.

ازداد فزع الأسبان والبرتغال لرؤية الأساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التي سيطر عليها العثمانيون ومن ثم التوجه للأندلس، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) إلى الإمبراطور شارل الخامس، ما يدل على هذا الفزع، إذ كتب إليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لأقدامهم في هذه البلاد، لان ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين.

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدولة العثمانية، وفي خلال تواجده في فاس لم يترك الجهاد ضد الأسبان فأرسل فرقة من جيشه إلى الريف المغربي فاسترجع من الأسبان معقلهم الكبير باديس أو صخرة فالين كما يدعونها، كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثماني أبا حسون بالشريف الإدريسي الراشدي مولاي بوبكر، بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني، إلا أن ثورة الأهالي اضطرت صالح رايس لإعادة بوحسون إلى حكم

فاس، فأذعن بوحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني وإقامة حامية عثمانية في مقر بلاطه.

تمهيده للعمل المشترك في استرداد الأندلس:

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الأسبان، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الإسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الأسبان من وهران، قبل النزول إلى الأندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله، وترامت لصالح رايس يومئذ الأنباء عن ضعف القوى الاسبانية بمدينة مجانة، علاوة عن معاناة الحامية من الضيق، فرأى صالح أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ بتطهير الشرق من الأسبان قبل أن يطهر الغرب، ولعل إنقاذ بجاية سيكون له اثر في عودة ملك بجاية إلى حظيرة الوحدة الإسلامية تحت ضغط السكان.

سار صالح رايس في ربيع أول سنة 963هـ/ يناير 1555م نحو مدينة بجاية على رأس قوة كبيرة تقدر بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين في إمارة كوكو، فوطدت الجيوش العثمانية التي حاصرت المدينة، بينما جاء الأسطول العثماني يحمل الأسلحة والمدافع بجانب الجيش، وصوب المسلمين قذائفهم على القلعة، ودارت معركة عنيفة، ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الأسبان في ذي القعدة سنة 963هـ/ سبتمبر 1555م، ولم يستطيع حاكم نابولي نجدة حاكمها في الوقت المناسب، كما استسلم الحاكم الاسباني للقوات العثمانية.

أولاً: مقتل بوحسون الوطاسي:

واجه بوحسون منافسة محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات من السوس والحوز واتى بجنوده إلى أن وصل رأس الماء من احواز فاس، وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيين قد اخذ في إعداد الجيوش وآلات الحرب إلى أن انقضت ثمانية شهور، فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمد الشيخ والوصول إلى مراكش، ولما تقابل الجيشان قام بينهم قتال عظيم واستطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم أرسل بوحسون لمولاي محمد الشيخ وقال له: أخرج أنت وأولادك إلى لقائي وأنا أخرج إليكم بنفسي ونترك المسلمين بدون قتال، فتظاهر محمد ورجع إلى والده

وأخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فاجتزوا رأسه وأتوا به جيشه، فانهزموا بلا قتال، واخذ محمد الشيخ مدينة فاس.

وهكذا مات بوحسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وان كانت قد ضاعت بموته الفرصة الأولى لإعلان السيادة العثمانية على فاس، إلا أن أحداث هذه الوقائع كانت تعني أن الفرصة مازالت واسعة أمام العثمانيين لتطبيق غزوهم المحلي للمغرب، لاسيما وان محمد الشيخ السعدي باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة أنزل القتل في أكثر من مائتين من كبار أعيان فاس فضلاً عن الفقيهين المرينيين محمد عبد الوهاب الزقاق قاضي فاس، والحسن علي حزوز خطيب فاس.

ثانياً: التعاون البرتغالي الاسباني السعدي ضد العثمانيين:

بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في بلاد المغرب، بل والأكثر من ذلك انه أعلن اثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدي العثماني على شمال أفريقيا، بل وعلى الخلافة الإسلامية كان في صالح الأسبان والبرتغال، ولا عجب إذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين.

بعث الملك جون الثالث رسالة إلى حاكم مازكان البرتغالي الفارودي كالفولو رداً على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ إلى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين، كما حددت الرسالة بعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش، بالإضافة إلى تموين القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنا الثالث بضرورة إخبار الإمبراطور الاسباني بذلك للتنسيق في عمل مشترك ضد العثمانيين، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع 962هـ/ 1555م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين فإن المزوار بوغانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الأسبان، وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد، تلك التي بعثها إلى حاكم وهران الاسباني الكونت دي الكودين في مطلع ربيع أول 963هـ/ يناير 1555م، وقد أخبر المزوار الكونت الاسباني بوصول رسائله

وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله اللذين أعربا عن سرورهما لقدوم وفد اسباني للتفاوض معه، وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة اسبانية - مغربية ضد العثمانيين.

وقد جاء في التقرير الذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الاسباني الذي اشرف على سير المحادثات (بعد أن أسلمناه الرسائل ... طلب إلينا الملك السعدي أن نقول له شفوياً عن سبب المهمة التي قدموا من أجلها إلى فاس .. إننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبد الله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر. أجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكرته وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا أفريقيا ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الإمبراطور إمداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أي الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الإمبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات، ذلك لأن طرد العثمانيين إنما هو عمل تستفيد منه ممالك الإمبراطور والمسيحية جمعاء ... وطالت المذكرات كثيراً وأخيراً علمني القائد برشميده، بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الإمبراطور على ذلك وأن الأمر مستعجل جدا... جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها، فكان من رأي الملك السعدي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا ورفض الملك السعدي أن يؤخذوا عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة. إلا أن الملك السعدي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف للشريعة).

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدي على العثمانيين، حيث أنه لم يتورع عن الاستنجاد بالقوى المسيحية (اسبانيا والبرتغال) في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ومصالح المسلمين.

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك إلى الأمير فليب ابن الإمبراطور شارل مشفوعا بخطاب هذا نصه: (... يجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جداً في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على

أسطول السلطان العثماني، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الإمبراطور وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في الجزائر ومحاربتهم وإبعادهم عن الأرض التي يحتلونها في أفريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثني عشر ألفا من المقاتلين الأسبان على حسابه، كذلك يتعهد الشريف السعدي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينة لديه، وأن يوضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة، بما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف وأرسل إليه ابني رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه، بل إنني وجميع من حولي مستعدون لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً....).

ثالثاً: المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة:

أطلع صالح ريس على تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والأسبان والتي كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة العثمانية موجودة في الجزائر فهذا معناه بقاء الخطر على اسبانيا، فبعث صالح ريس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعاً وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تسفر المحادثات بين الجانبين السعدي والاسباني عن نتيجة عملية، وأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة لمساعدته في الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الدولة العثمانية هي التي تغذي الأوجاق، الذي كان تبعاً لذلك يتجدد على الدوام.

رابعاً: وفاة صالح ريس:

استعد صالح ريس لفتح وهران، وضم أسطوله إلى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقرب من أربعين ألف جندي، وكان ينوي إتمام زحفه هذا بالمسير إلى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات وإخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهله فتوفي بالطاعون في شهر رجب 963هـ/ 1556م عن عمر يناهز السبعين عاما.

لقد سعت الدولة العثمانية إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد

والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد أساسا على وصول العثمانيين إلى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت إمرة أمراء البحر العظام، أمثال خير الدين وعروج بربروسا وصالح رايس.

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح رايس فأبحر نحو وهران، وفي الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي، ووصلت الجيوش البرية والبحرية إلى وهران وحاصرتها حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة، وذلك بسبب النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا إلى المدينة المحاصرة.

خامساً: احتلال محمد الشيخ السعدي لتلمسان:

انتهز الشريف السعدي محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني إلى اسطنبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان التي كان رجالها قد انضموا إلى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران، فدخلها الشريف السعدي على غفلة ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم قبائل بني راشد، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتمين باسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود في وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدي.

إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس، كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والأسبان.

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانوني برسالة إلى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان في نصرتهم، وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبي حسون، الذي زوده بأربعة آلاف جندي. وكان ذلك في محاولة من السلطان لتكوين اتحاد إسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من السلطان السعدي محمد الشيخ، الذي رد على مبعوث السلطان بقوله: (سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له إن سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام).

يظهر من ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

سادساً: مقتل محمد الشيخ:

قتل محمد الشيخ في عام 964هـ/ 1557م من قبل حرسه الخاص وتطورت الأحداث بالمغرب وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الإستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد الأسبان والبرتغال.

عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

رأى السلطان العثماني ضرورة إعادة حسن بن خير الدين إلى الجزائر وذلك بعد مصرع حسن قور عام 964هـ/ 1557م بعد انقطاع استمر لعدة أعوام قضاها في الجهاد في مواطن أخرى، واستبشر الناس برجوعه، وشرع في ترتيب أمور الجزائر، فنظم الإدارة، ورتب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه، وبدأ رحلته الجهادية واضعا أمامه هدفين عظيمين: تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي، واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين.

سابعاً: الثورات الداخلية في المغرب الأقصى:

اندلعت الثورات المناهضة للإمارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت، فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب في جمادى الأولى عام 965هـ/ فبراير عام 1558م، وثورة المولى عمر في دبدو بالمشرق في رجب عام 965هـ/ ابريل عام 1558م وثورة المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام 966هـ/ ديسمبر عام 1558م، ثم كانت المذبحة الجديدة التي أنزلها عبد الله الغالب بثلاثة من أخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر أخوته للهروب إلى تلمسان والجزائر، فهرب المولى عمر والمولى عبد المؤمن وعبد الملك وأحمد المنصور، وذلك خوفاً من القتل.

قصد عبد الله الغالب إلى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التي نزعها عثمان، ثم عاد سريعاً إلى فاس لإعداد قواته، بهدف صد الحملة العسكرية التي يقودها حسن بن خير الدين الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد، وقامت بين الطرفين معركة على وادي اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء إلا أن حسن بن خير الدين الذي وصلته أنباء عن تحرك الأسبان

من مدينة وهران بها يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثماني إلى مرفأ قصاصة في الشمال فركب سفينة وعاد للجزائر بينما ذهب قائد تلمسان إلى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة.

ثامناً: مقتل حاكم وهران الكوديت:

كان دو الكوديت حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديداً خطيرا، فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان دو الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر، لذلك أعد قوة كبيرة تتكون من أثنى عشر ألف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ تكبدت القوات الاسبانية في ذي القعدة عام 965هـ/ أغسطس عام 1558م خسائر فادحة، وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الأسبان مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام 966هـ/ ديسمبر 1558م واستنجد بوالي الجزائر لم يمده بأية مساعدة عسكرية بل رحب به في بلاد الجزائر وزوجه بإحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان.

سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الأسبان

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسباني في وهران، وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى، وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي، وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر هو (عبد العزيز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب، وبذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة.

عين حسن بن خير الدين في عام 965هـ/ 1558م بويحيى الرايس قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الاسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير

اسباني بقلم فرانسكوا دي ايبانير أن يحيى يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها 90 عثمانيا مسلحين بالسهام والأقواس والمجانيق، والثانية يقودها قره مامي وعلى ظهرها 80 عثمانيا مسلحين بنفس الأسلحة، والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوة 70 جنديا، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة. وبالإضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بويحيى سفينتان في باديس ويقوم بصنع سفينة أخرى، ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بويحيى، ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الإسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند، وقد رفع تجار اشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسباني يشكون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الاسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بويحيى، فعم الخوف سكان الساحل الاسباني، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم، كما أن الصيادين كذلك لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ.

سياسة المولى عبد الله:

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية إلى مقاومة الهدف العثماني في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من أسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم، والمحافظة على أحوال السلم معهم. وقد دفعته سياسة المهادنة مع النصارى إلى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمّله إلى الأمير أنطونيو دي بربون رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسي معاهدة في شوال 966هـ/ يوليو 1559م مع المولى عبد الله الذي تنازل عن المرسى الصغير لفرنسا مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربي، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد أن فقد ثقته بالحرس التركي الذي سبق وأن أغتال والده محمد الشيخ.

كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتوكمبر سيس في 21 جمادى الأولى في سنة 966هـ/ 13 ابريل 1559م مع اسبانيا والتي أنهت الحرب الايطالية، أخذت تبحث عن

أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدد النزاع مع اسبانيا، خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذ قوي في أوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ اسبانيا في ايطاليا والأراضي المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذ في التقرب من المغرب البلد الإسلامي. ومما لاشك فيه أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الاستراتيجي الذي لا يبعد إلا بضعة كيلومترات عن جبل طارق منطقة هامة يمكن اتخاذها للهجوم على اسبانيا.

ولعل ذلك كان سبباً في عدم قيام الدولة العثمانية بموقف إيجابي تجاه المعاهدة لأنها كانت تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد في مسألة الهجوم على اسبانيا وإن اختلفا من الناحية العقائدية، ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على اسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكري لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف إلى إنقاذ المسلمين من الحكام الأسبان ثم استرداد الأراضي الإسلامية في الأندلس، ولقد حَوَّلَ حسن بن خير الدين أنظاره سنة 966هـ/ 1559م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأمير قلعة بني عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبني برجاً، وذلك لتثبيت الوجود العثماني هناك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندي، ثم عاد حسن بن خير الدين متوجهاً إلى بلاد حمزة في أنحاء بربرة، عندها انقض أمير قلعة بني عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقي فيها الأمير عبد العزيز بن عباس صاحب القلعة حتفه وخلفه أحمد مقران الذي أمتلك نواحي بلاد كوكو فاعترف به حسن بن خير الدين.

اشتدت حملة إزعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانئ تونس والجزائر وذلك بالإغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانئ ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان في الشرق.

أولاً : الأسطول العثماني يهاجم جربة في تونس:

قام الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان سنة 967هـ/ مايو 1560م، ونجح الأسطول في تحقيق أهدافه ضد الأسبان، الذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطينة، ولكن درغوث باشا الذي سبق وأن ضايقه الثوار في الداخل، أقنع بيالي باشا بالتوجه إلى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد

قرب تاجوراء، وقد وصل بيالي باشا إلى طرابلس وصول الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التي غنمها من الأعداء بينما كانت أعلام الأعداء منكسة فوق سواري السفن وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلة كافية لمعاقبة سكان تاجوراء، ثم أقلع بأسطوله صوب عاصمته.

ثانياً: اعتقال حسن خير الدين وإرساله إلى استانبول:

استمر حسن خير الدين في استعداداته لمهاجمة المغرب، فشرع في تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالانكشارية، الذين أحسوا بالخطر فقاموا في صيف 696هـ/ 1561م باعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً إلى اسطنبول، ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتماد على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى، ونجح احمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى اسطنبول.

ثالثاً: عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين إلى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة في أواخر سنة 970هـ/ 1562م معززاً بعشرة سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة، قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيئ العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل ما بقي لاسبانيا ببلاد الجزائر.

خرج حسن بن خير الدين في سنة 971هـ/ 1563م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت أمرة احمد مقرن الزواوي، واثني عشر ألف رجل من زواوة وبني عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثماني إلى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات، وفي 13 ابريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصارا حولها، وكان الأسبان مستعدين لتلقي الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم، بعد أن توالت النجدات الاسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التي

اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها، وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الاسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة اسبانية إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية، وأقرت وجوب إمداد اسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين، وكانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التنظيم لهيكل اسبانيا وهزيمة العثمانيين في وهران سنة 971هـ/ 1563م.

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذي حققه في وهران، ووجه لذلك أسطولا في نفس السنة 971هـ/ 1563م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة اضطرت الأسطول إلى التراجع، والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءً هاماً، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضي الاسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا ما دفع الاسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة كما كانت جزيرة باديس بالإضافة إلى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الأسبان أن يخلي لهم الإدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين في تلك الناحية، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب، إذ هاجمها الأسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر، كما عزل بويحيى رايس من منصبه في باديس في أواخر عام 971هـ/ 1563م، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربي إلى جزيرة مالطة في الشرق.

رابعاً: الصراع على مالطة:

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربه، وحسن خير الدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة في عملية مالطة وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الإسلامية بعد ذلك، فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل 25 سفينة وثلاثة آلاف رجل

ووصل الأسطول الإسلامي أمام مالطة يوم 18 مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة أسطول تعداده 28 سفينة حربية تحمل عددا كبيرا من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الإسلامي من الانسحاب في 18 ربيع الأول 973هـ/ 8 ديسمبر 1565م.

خامساً : حسن بن خير الدين بربروسا القائد العام للأسطول العثماني:

خلف السلطان سليمان القانوني السلطان سليم الثاني، الذي اسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين؛ فترك الجزائر متوجهاً إلى استانبول سنة 975هـ/ 1567م، وتولى منصب بيلر باي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، في ذي الحجة 974هـ/ يونيو 1567م وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثماني واضراب الشعب، فاضطر إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد صالح رايس ثورة عامل قسنطينة المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلر باي وقضى على ثورته وولى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة 975هـ/ سبتمبر 1567م، هاجم الأسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، ثم لم تطل ولاية محمد صالح بن رايس، إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة.

سادساً : قلج علي يتولى بيلر بك الجزائر:

اسند منصب بيلربك الجزائر إلى قلج علي في 14 صفر سنة 976هـ/ الموافق 8 أغسطس 1568م وعرف عنه العزم في تسيير الإدارة، والبطولة الحربية والشجاعة.

اتخذ قلج علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامي في اسبانيا وتحرير الشمال الأفريقي من الجيوب الصليبية، فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره، وصار بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة.

سابعاً: إعادة تونس للحكم العثماني:

صمم قلج علي على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الأيبيرية، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر. وكان الأسبان قد

اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر، لذلك كان لابد من تأمينها.

كان قلج علي على اتصال بالوزير الحفصي أبي الطيب الخضار ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته وأرسل إلى قلج علي يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون.

جهز بيلربك الجزائر قلج علي جيشاً مؤلفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها أبي العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي وتقدم قلج علي بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثاني ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد إلى مقره بالجزائر، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الأسبان، وكانت قوات قلج علي لا تكفي وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الاسباني، لذا فإنه كتب إلى اسطنبول يطلب مده بقوة تكفي لتحرير الموقع، وكان اهتمام قلج علي بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد أضعف التواجد الاسباني في الشمال الأفريقي.

ثامناً: ثورة مسلمي الأندلس:

كانت حركة الجهاد في الشمال الأفريقي قد شجعت مسلمي الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التي بنيت في نفوسهم على مر السنين، وسادت الأقاليم الاسبانية موجة من الظلم والإرهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي اسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الاسباني.

سادت اسبانيا إرهاصات ثورة المسلمين في غرناطة فشكل الملك الاسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم في كل مدينة من مدن اسبانيا لمواجهة الثورة، كما تلقى مسلمو الأندلس مساعدات عثمانية، وأصبح الموقف صعباً بالنسبة لاسبانيا خاصة غرناطة، ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطئ الجنوبية - موقع المجاهدين.

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف، فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال

بالمسلمين في الشمال الأفريقي وفي بعض أقاليم اسبانيا، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات، وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات، وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمي الأندلس إلى حرب البوشارات التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة، وكانت هذه الحرب في عام 1568م وتزعمها محمد بن أمية.

تاسعاً: خيانة السلطان السعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس:

بذل السلطان السعدي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البوشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجونه من عتاد وسلاح ورجال، لكن الغالب بالله استمر محافظاً على روابطه الودية مع فيليب الثاني، وعمل على خذلان أهل الأندلس: (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الإيمان، وأدنى مملكة من الإسلام، وذلك أنه لما احتوى عليهم النصراني، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس، فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونه الله في الإغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أراضيهم، زمان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منهم بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم ويظهروا فعلهم، فما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وغشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في صالح ملكه).

تسارعت الأحداث في اسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين في أوائل سنة 976هـ/ 1569م أكثر من مائة وخمسين ألفا، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الاسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا في الأراضي المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين في الجزائر.

عاشراً : قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس:

كان قلج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانية، واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار في اسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمي الأندلس على القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الاسباني.

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفاً من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفي اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الاسباني لشد أزر الثورة ساعة نشوبها، لكن ذلك المخطط أخفق وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه الأسبان، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح، وبعد أن نجح قلج علي في إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الاسباني لم تقع الثورة في الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الأسبان.

لقد قام قلج علي في شعبان سنة 976هـ/ يناير سنة 1569م بإرسال أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول إنزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها، لكن الأسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلج علي عن النزول، وكانت الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر، فالأسطول الجزائري صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت 32 سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدون.

استمر قلج علي في إمداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة التي حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من إنزال أربعة آلاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس.

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلج علي بذلك في 23 شوال 977هـ/ 31 مارس

1570م (عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار أصابهم الدمار غير جائزة) وكان القائد المجاهد قلج علي قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك لكن ما شاع عن تجمع الأسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً لأوامر اسطنبول.

وفي غمرة الثورة الأندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهد، وهاجمه المتآمرون وقتل في منزله، واختير مولاي عبد الله بن محمد بن عبو بدلاً منه، وبعث قلج علي تعزيزات له، ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الأسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الاسبانية لهذه التطورات وعينت دون جوان النمساوي على قيادة الأسطول الأسباني (وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل) فباشر قمع الثورة في سنوات 977-978هـ/ 1569-1570م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع، فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبد الله أن أعاد الكرة، فاحتال الأسبان عليه حتى قتلوه غيلة، وتركوا رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً.

المتوكل على الله بن عبد الله الغالب السعدي

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذي كان يضمر الشر لعميه عبد الملك أبي مروان وأحمد المنصور، فخرجا من المغرب واتجها إلى السلطان العثماني يستنجدان به، وما من شك في أن انتصار العثمانيين في تونس ضد الأسبان واستتباب الأمر فيها، قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربي، لبسط نفوذه على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية،ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال الأفريقي علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الأسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في اسطنبول.

تابع المتوكل على الله خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين، حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية فعقد اتفاقاً مع

انجلترا، التي كانت ترغب في تجارتها مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الانجليز من وراء ذلك، زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى التي للمغرب، خصوصاً وقد كانت انجلترا في حالة حرب ضد اسبانيا. وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار أن الانجليز كانوا من بين التجار الأجانب الذي يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل في هذا الوقت إلى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

ولقد وجدت الدولة العثمانية في انشغال ملك اسبانيا فيليب الثاني بأحداث أوروبا الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل في المغرب، فأمدوا المولى عبد الملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة، ودخل المولى عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش أدراجه إلى الجزائر.

وقام عبد الملك بإصلاحات في دولته من أهمها:

1- أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

2- اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من حروبه على سواحل المغرب دور في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

3- أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

4- استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

5- فرض احترامه على أهل عصره، وحتى الأوروبيون احترموه وأجلوه قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بين المعاصر لأحداث هذه الفترة: (كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الاسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك).

6- أهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى

دراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية، وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة.

أولاً: تحالف محمد المتوكل السعدي مع ملك البرتغال سبستيان:

كان محمد المتوكل بعد هزيمته أمام عمه عبد الملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان واتفق معه على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغرب، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربي.

انتقل المتوكل إلى سبته وأقام بها أربعة أشهر، ومنها اتجه إلى طنجة في انتظار دون سبستيان على رأس القوات العسكرية.

وفي أثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوثوب على المغرب، وإخضاعه بالكامل، أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة، واشفعوا في ذلك بفيلق عسكري، حيث تتجلى هنا الروح الإسلامية في الدفاع عن عقيدتهم، لأن المعركة معركة المسلمين جميعاً وخصوصاً الدولة العثمانية التي كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين وأراضيهم، بعيدا عن المصالح المادية.

ثانياً: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارها الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ : 30 جمادي الثانية 986هـ الموافق 4 آب (أغسطس) 1578م.

لقد كان لتلك المعارك عدة أسباب من أهمها:

1- أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث في آب (1521-1557م).

2- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان ابن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي، يدفعه

في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً. لقد جمع ذلك الملك بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة، ومن جهة أخرى خطط لغزو واحتلال المغرب.

ثالثاً: حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الأسبان والبرتغاليين والطليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب. ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام 1578م.

رابعاً: الجيش المغربي:

كانت الصيحة من جنبات المغرب الأقصى: «أن أقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله».

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المخلوع أن يخترق ذلك التلاحم فكتب إلى أهل المغرب ما استنصرتُ النصارى جتى عدمتُ النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حق بكل ما أمكنه، وتهددهم قائلاً: (فإن لم تفعلوا، فأذنوا بحرب من الله ورسوله).

فأجابه علماء المغرب عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله وبعد: فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب. لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوب والمصاب.. وأما قولك في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، فيه المقت الذي لا يخفى، وقولك رجع إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظورات يحضر عندهم غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله. والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين: قال ﷺ: إني لا استعين بمشرك.. الاستعانة بهم - بالمشركين- على المسلمين

فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان وأشرق عليهم شعاع الإيقان؛ فمن قائل يقول لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ..﴾ [العنكبوت:11] وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ المُلك بحشودهم، وأني لك هذا مع قول الله تعالى : ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطأوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: (إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن نقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب ابن كلب. فليس من الشجاعة ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن العزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين) وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر.

وتحركت قواد عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

خامساً: قوى الطرفين (البرتغالي النصراني، والإسلامي المغربي):

الجيش البرتغالي:

125.000، وما يلزمهم من المعدات والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن 14.000راجل، و2000 فارس، و36 مدفعاً، ومقابل 50.000 راجل في الجيش المغربي و22.000 فارس، و 1.500 من الرماة، 20 مدفعاً. ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور): (عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً).

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن): إن مجموعهم كان مئة وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل.

كان مع الجيش البرتغالي: 20.000 إسباني، 3000 ألماني، 7000 إيطالي... وغيرهم عدد كبير.. مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً.. وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح مابين 300-600 رجل على الأكثر.

الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده 40.000 مجاهد يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

1- أنهم ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

2- التفاف الشعب حول القيادة، تم التحام القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن، لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات، وقد قاد هذا الشيخ أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً.

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله وأخوه أبو العباس والقادة العثمانيون عبقرية فذة في المعركة.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها».

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوفا للرماة المشاة، وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماه فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة، وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر.

كان صباح الاثنين 30 جمادى الآخرة 986هـ/ 1578م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام.

وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40].

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:10].

كما ذكّر بوجوب الثبات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال:15].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

وبضرورة الانتظام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:4].

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة. ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة.

ولم يأل القسسُ والرهبان في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي أتسمت بطابع الحروب الصليبية. وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته، وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً: ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر وأن لا يضطربوا، وكان كذلك، فلم يعلم أحد

بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر).

وقاد احمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر واد المخازن وكانت تلك القنطرة قد أصبحت أثرا بعد عين، فقد نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصُرع سبستيان وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن. واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين.

سادساً: أسباب نصر وادي المخازن:

1 - القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، وحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال أبي علي القوري، والحسن العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

2 - التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

3 - رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.

4- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

5- الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

6- القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في أتباعهم من قولهم.

7- تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة للفرار.

8- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

9- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد.

10- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم، وغير ذلك من الأسباب.

سابعاً: نتائج المعركة:

1- أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين 30 جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة للهجرة.

2- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، وفي زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب وغيرها، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسائل من سائر الأقطار مهنئة ومباركة للشعب المغربي نصره العظيم.

3- ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبا تخطب ودها، واضطر ملك البرتغال الجديد وملك اسبانيا أن يرسلوا وفوداً محملة بالهدايا الثمينة. ثم قَدِمَتْ رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة، وبعدها رسل ملك فرنسا، وأصبحت الوفود تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور.

4- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس ماريه -المؤرخ البرتغالي- واصفاً نتائج المعركة:

«وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الاعصار، العصر الذي لو وصفته - كما وصفه غيري من المؤرخين - لقلت: هو العصر النحس البالغ النحوسة، الذي انتهت فيه مدة

الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل الذريع، وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب».

5 - مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد هو سبستيان ملك البرتغال، وملك مخلوع خائن هو محمد المتوكل، ومجاهد شهيد هو عبد الملك المعتصم بالله.

6 - سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

7 - سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

8 - حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب.

استمر احمد المنصور على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب الأقاليم وتنظيمها، وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأستحدث حروفا لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات الذي يحمي الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (16، 17م) فقال: «في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم.

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم واهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية، واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلومتراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية، وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله، وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلي المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع.

وطور السلطان احمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام انه أهل لذلك، ومن أهم هذه القيادات: إبراهيم محمد السُّفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد العمري المعقلي.

ودعمّ جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم، وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب، واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصاً في مينائي العرائش وسلا.

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب، وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه، ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الأسبان والانجليز والعثمانيين، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده.

ثامناً: اقتراح عثماني على السعديين:

بدأت القوات الاسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو مقاومة تلك القوات الاسبانية، التي ضمت أراضيه سنة 988هـ/ 1580م عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الأسبان على

أساس إمداده بأسطول حربي وقوات عسكرية، فبعث برسالتين في رجب 988هـ/ سبتمبر 1580م، قال فيهما «فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغالي، أو كاد وأنه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد، وأنه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الإسلامية .. لإظهار الألفة الأزلية أن تتخذ عهداً وتؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة ... فإذا تم هذا الشأن.. نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس».

كان قلج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت أنظاره تتطلع إلى المغرب، وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، لضمه إلى الدولة العثمانية، خاصة بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدولة، وصدرت الأوامر إلى قلج علي قائد الأسطول العثماني بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج علي إلى الجزائر في جمادي الثانية 989هـ/ يونيو 1581م، بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثماني، إذ جهز المنصور جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مدخل مملكته، وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لإسطنبول وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكري مع الملك الاسباني الذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في 27 جمادي الثانية 989هـ/ 31 يوليو 1581م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل العثماني، مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى، وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بداً من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج علي، وجعفر باشا نائب قلج علي في الجزائر، بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق، حيث اضطربت الأمور بالحجاز فتخلى قلج علي عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامي.

تردد السفراء بين الآستانة وفاس فتوجهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمي وأبي الحسن علي بن محمد التمكروتي بين عامي 979هـ/ 1588م، 999هـ/1590م، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانيا في 998هـ/ 1589م، ولم تتحقق رغبة السلطان العثماني في التحالف مع السعديين لاسترداد الأندلس وذلك بسبب انشغال الدولة

بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية في إيران، والهابسبرج في وسط أوروبا، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز، وتدعيم حزامه الأمني.

تاسعاً: جهاد الوالي الجزائري وتغير الأوضاع:

جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة 990هـ/ 1582م لمحاربة اسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها اسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها، ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالاسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان بالدرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً.

ازداد تطاول الانكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع، لذلك ترك حسن فنزيانو نشاطه البحري وبادر بالعودة إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية، وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة 991هـ/ ابريل 1583م، ولم يعارض الباب العالي في توليه، لما كان له من العقل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتن واستتباب الأمن بالجزائر.

باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاط وحزم، فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الاسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولي عليه من الأسرى والمغانم في غزواته.

وفي 992هـ/ 1584م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية وحمل أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس، إذ أنقذهم من اضطهاد الأسبان، كما استطاع في السنة التالية إنقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر، وفي السنة التالية توغل مراد رايس في المحيط الأطلسي فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بمن فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان في اسطنبول ليتولى منصب إمارة البحر «قبودان دوريا» وذلك بعد وفاة قلج علي سنة 995هـ/ 1587م .

عاشراً: انتهاء نظام البيلربك في الجزائر:

بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك مثل تونس وطرابلس، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

وكان الباشا موظفا ترسله الآستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد، ويكون الباشا في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة اسطنبول.

كانت أحداث ما بعد 997هـ/ 1588م في نيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطنة فيها على حساب سلطة الباشا، إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية مع إمساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنوياً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الآستانة ممثلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية.

كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحو الشمال الأفريقي، إثر معركة ليبانتو سنة 978هـ/ 1571م، فبعد أن كان الشمال الأفريقي تحت مسؤولية البيلربك الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى، لقد كان موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الانكشاريين من جهة، وجبهات المشرق من جهة ثالثة، أسبابا مهمة في إضعاف همة الدولة في إرجاع الأندلس.

لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

1 – ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.

2 – وفاة قلج علي في 1587م ومن بعده إدخال الشمال الأفريقي في نظام الولايات.

3 – كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم، لقد كانت الدولة العثمانية في جهودها البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

1 - قرب الشمال الأفريقي من كل من اسطنبول ومصر يجعل الإمدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لاتصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

2 - كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال افريقية تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

3 - لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال افريقية بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها.

الفصل السادس

بدء اضمحلال الدولة العثمانية

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (974هـ/ 1566م) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان، إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا التي تدخلت للتآمر ضد الأمير مصطفى ليتولى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه، وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، مما أدى إلى سخط الانكشارية ونشوب ثورة كبرى ضد السلطان وأخمدها السلطان سليمان، وبذلك تم القضاء على مصطفى وابنه الرضيع وكذلك قتل السلطان ابنه بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسة من أحد الوزراء. ومن مظاهر الضعف في عهد سليمان بدء انسحاب السلطان من جلسات الديوان، وبروز سطوة الحريم والعجز عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى نشوب القلاقل الشعبية في الروميلي والأناضول.

السلطان سليم الثاني

تولى الحكم في 9 ربيع الأول سنة 974هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان، ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي لانهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة في قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة في عام 975هـ الموافق 1567م والتي احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة.

أولاً: تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا:

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام 980هـ الموافق 1569م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا – وهو

أخو ملك فرنسا - ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة في البحر المتوسط. وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة - أي فرنسا - بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام، وقامت بزرع محبة فرنسا في نفوس نصارى الشام ممّا كان له أثر يذكر في ضعف الدولة، إذ امتد النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات، فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية، حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالاستقلال بدعم وتأييد من دول أوروبا النصرانية.

إن اقتناع الدول الأوروبية بكون «نظام الامتيازات الأجنبية» حقاً من حقوقها الطبيعية هو الذي دفع فرنسا لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التي كان السلطان مراد الرابع (1624-1640م) يحاربها، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارة بحرية لإرهاب الدولة العلية ومطالبتها بتحديد الامتيازات. لكن الصدر الأعظم حينئذ والذي كان مازال يمتلك قراره السياسي، أخبر السفير «بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب» الأمر الذي جعل فرنسا تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام 673م مما زاد الطين بلة، وبدل أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث أمر السلطان محمد الرابع (1648-1687م) بتفويض فرنسا حق حماية بيت المقدس، تتابع بتجديد الامتيازات. وفي كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة، ففي تجديد عام 1740م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسا. ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت مصر، فقد أوقفت السلطنة العمل بها، غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع السلطنة، وذلك حين عرض انسحاب فرنسا من مصر لقاء تجديد الامتيازات، وقد تم ذلك بالفعل في 9 تشرين الأول (أكتوبر) 1801م، وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسا حرية التجارة والملاحة في البحر الأسود.

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السلطنة، ولقد بين المؤرخ اليوناني ديمتري كيتسيكس أن الامتيازات حطمت اقتصاد الإمبراطورية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية. بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية

جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين، إذ مادام الأوروبيون لا يخضعون للسلطات العثمانية، فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية.

ثانياً: حاكم خوارزم يطلب الحماية من السلطان سليم الثاني

اشتكى حاكم خوارزم للسلطان سليم الثاني، من أن شاه فارس يقبض على الحجاج الوافدين من تركستان، بمجرد عبورهم حدوده، وأن موسكو بعد استيلائها على استراخان منعت مرور الحجاج والتجارة، ووضعت العقبات والعراقيل أمامهم، لهذا طلب حاكم خوارزم، وحكام بخارى وسمرقند من السلطان سليم الثاني أن يفتح استراخان بهدف إعادة فتح طريق الحج. ولقد لاقى ذلك الطلب القبول لدى الدولة العثمانية، فأعد صقللي باشا الصدر الأعظم في الدولة حملة كبرى سنة 976هـ/ 977هـ/ 568-1569م للاستيلاء على استراخان وتحويلها إلى قاعدة عثمانية للدفاع عن المنطقة، وأن يصل مابين نهري الفولجا والدون بقناة صالحة لمرور السفن لتسهل دخول الأسطول العثماني بحر الخزر (قزوين) عن طريق البحر الأسود، لتمكين العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب وطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان بل وغزو فارس من الشمال، بدلاً من مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويين وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي إلى إحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب.

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا، وما إن حل شهر جمادى الأولى 977هـ/ أكتوبر 1569م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، وان يكن موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استراخان، إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية، ومع هذا استطاع صقللي باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال وغرب البحر الأسود.

ثالثاً: فتح قبرص:

كانت إيطاليا واسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص، وشاع في أوروبا عن تكون حلف ضد السلطان، ولكنه لم يفعل شيئا في حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة

كاسحة، نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة، ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو اللذين واجها القوة العثمانية التي وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيون جميع وسائل الحصار المعروفة، من فر وكر، وزرع للألغام، ولم ينتج أي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة، لصار العثمانيون في خطر، إلا أن المجاعة قامت بعملها، واستسلمت المدينة في ربيع الثاني 979هـ/ أغسطس 1571م.

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة، ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثماني، الذي أنقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته البندقية لعدة قرون، إلا أن احتلال العثمانيين أثار الدولة الكاثوليكية.

رسا الأسطول العثماني بعد انتهاء مهمته في ابنانجني وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء، حيث تتوقف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السنة، ويبدأ الاستعداد للسنة المقبلة.

رابعاً: معركة ليبانتو

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدد القارة الأوروبية، من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً فأخذ البابا بيوس الخامس (1566 - 1572م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية، وقد كتب يقول: «إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا». وعقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل 979هـ/ مايو 1571م، تعهدوا فيها بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين، وشاركت في الحلف كذلك بعض المدن الايطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف، فارتبطت توسكاني وجنوه، وسافوي، وبعض الايطاليين بالحلف المقدس، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فأجابه البابا طالباً منه التحلل من مواثيقه هذه، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الإمبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب، ووجد تباطؤا عند ملك بولونيا، واختير (دون جوان) النمساوي قائدا للحملة، وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية: «إنَّ

البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس».

سار دون جوان إلى البحر الادرياتيكي، حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيد عن ليبانتو والتي أعطي اسمها للمعركة.

كان من رأي قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبي، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه في عدد سفنه، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو، وميسرتها في عرض البحر، وقد قسمها علي باشا إلى جناحين وقلب فكان هو في القلب وسيروكو في الجناح الأيمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلج علي.

ومقابل ذلك نظم دون جوان قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامي ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز.

خامساً: احتدام المعركة:

احتدمت المعركة في 17 جمادي الأولى سنة 979هـ/ 17 أكتوبر 1571م وأحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي، وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً، وخسروا 200 سفينة حربية منها 93 غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة، وأسر لهم عشرة آلاف رجل، واستطاع قلج علي إنقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحمل علم البابا، حيث رجع بها لاسطنبول التي استقبلته استقبال الفاتحين رغم الشعور بمرارة الهزيمة، وبادر السلطان سليم الثاني أثر ذلك إلى ترفيع قلج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانية «قبودان باشا» مع الاستمرار في منصبه كبيرلبك للجزائر.

سادساً: أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتفلت القارة الأوربية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين، فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار، وأقيمت معالم الزينات في كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جوان أمير الأساطيل المتحدة الذي أحرز هذا الانتصار، إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس، بمناسبة هذا النصر (إن الإنجيل قد عنى دون جوان نفسه، حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانتو، إلا وتذكر معه دون جوان المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها.

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأنَّ عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب، وحاول إثارة شكوك الشيعة الاثني عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدي، فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ما قال له: «لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات». وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته.

إن نتيجة معركة ليبانتو، كانت مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط، ومع زوال الخطر، زال الخوف الذي كان قوياً، للمحافظة على حلف مقدسي دائم واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية.

إن أهمية ليبانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا، واسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كان من الحقيقة أن القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري، والمجال البحري، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو 1571 كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط، والتي تكاليفها باهظة.

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية، إذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية.

سابعاً: ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي:

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني (980هـ/ 1572م) وذلك بواسطة سفيره باسطنبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوى الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها، وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به، ومع ذلك أوغلت فرنسا في طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة، حتى تحصلت على امتيازات خاصة في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري، وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية.

ثامناً: إعادة بناء الأسطول العثماني:

أقبل القبودان باشا قلج علي، بهمة ونشاط متزايد، على تجديد الأسطول العثماني، وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف 980هـ/ 1572م، حتى قد هيأ مائتين وخمسين سفينة جديدة، وخرج قلج علي بأسطوله في البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكه، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة، نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة، وبينها وبين فارس من جهة أخرى كما أنها انشغلت بإخماد الثورات الداخلية المستمرة.

تاسعاً: احتلال تونس:

كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس 942-980/ 1535-1572م إليه، وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلق الواد، فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين قبلها، بعد ذلك خرج دون جوان بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب 981هـ أكتوبر 1573م، على رأس أسطول مكون من 138 سفينة تحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل، ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها اسبانيا، ثم باغت دون جوان تونس واحتلها وخرج أهلها

بوادي تونس فارين بدينهم من شر الأسبان، كما انسحب الحاكم العثماني إلى القيروان، وكانت أوروبا قد أدركت أنها لا تستطيع أن تقضي على الدولة العثمانية إلا مجتمعة.

عاشراً: قلج علي واستعداداته الحربية:

اهتم قلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة، وقد لفت هذا النشاط البحري أنظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج علي حتى أن البابا نصح فيليب الثاني ملك اسبانيا أن يسعى لإغرائه، وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف وإقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الاسباني ويتوارثها نسله من بعده، مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه، وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فإنها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلج علي وهو الشخص الوحيد القادر على دعم أمور السلطنة، ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلج علي بدلاً من أن تقربه، وأنه لا يمكن شراء أمانة المسلم المجاهد إذ أن وجوده في خدمة الدولة، إنما كان يعني أنه وهب نفسه لسبيل الله وهذا ما سارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها، ولعل ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ونجاحه، في كل الأقاليم والميادين التي طرقتها الدولة، وكان العثماني في أي موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك إلا خدمة للإسلام.

حادي عشر: السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس:

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس، لفتحها نهائياً، وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها، كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة والمؤن مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام، كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضول والروميلي بالاشتراك في السفر بحراً، كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول، وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم في المستقبل أي عمل، وبينما كان الأسطول يتأهب، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان يحشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا حوله.

أبحر الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا وقلج علي في 23 محرم 982هـ/ 14 مايو 1574م، فخرج من المضائق ونشر أشرعته في البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل

كالابريا، مسينا، واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام. في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا، كما وصل متطوعون من مصر.

بدأ القتال في ربيع سنة 981هـ/ 1574م، ونجح العثمانيون في الاستيلاء على حلق الواد، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً، وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الأسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصي محمد بن الحسن إلى البستيون التي بالغ الأسبان في تحصينها وجعلوها من أمنع الحصون في الشمال الأفريقي.

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون، وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك، فقال له سنان: لا تحرمني من الثواب. وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه.

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك اسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم، واتخذهم الأسبان آلات طيعة تخدم مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم، وقضى سقوط تونس على الآمال الاسبانية في أفريقيا وضعفت سيطرتهم تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الأسبان بإقامة دولة اسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال.

ثاني عشر: السلطان سليم الثاني يرسل حملة كبرى إلى اليمن:

اضطربت الأحوال في اليمن مع ظهور الزعيم الزيدي المطهر الذي كاتب أهل اليمن ودعاهم للخروج عن طاعة السلطان العثماني فاجتمعت القبائل لدى المطهر الذي دخل صنعاء بعد أن ألحق بالعثمانيين هزيمة ساحقة، وشعرت الحكومة العثمانية بخطورة الموقف وقررت إرسال حملة كبرى إلى اليمن بقيادة سنان باشا، وقد اهتم السلطان العثماني سليم الثاني اهتماماً كبيراً بإرسال تلك الحملة، لأن اليمن كان يمثل جزءاً هاماً من إستراتيجية العثمانيين في البحر الأحمر وهي غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالي، علاوة على ذلك يكون درعاً قوياً للحجاز، وقاعدة للتقدم في المحيط الهندي.

وصل الوزير العثماني سنان باشا إلى مصر تنفيذاً لأوامر السلطان وهناك اجتمعت لديه الجنود من كافة الأنحاء، حتى أنه لم يبق في مصر إلا المشايخ والضعفاء.

وتحركت الحملة ووصلت إلى ينبع واستقبله هناك قاضي القضاة في مكة، وعند وصوله إلى مكة المكرمة استقبله أهلها ودخلت الجيوش العثمانية معه، وكأن جنود مصر انتقلت إلى مكة بالإضافة إلى جنود الشام وحلب وفرمان ومرعش، وضبط سنان باشا الجنود، وأجرى الصدقات، وأحسن إلى العلماء والفقهاء، ومكث عدة أيام في مكة وغادرها إلى جازان، وعندما اقترب منها، هرب حاكمها من قبل الإمام الزيدي المطهر، وأقام سنان باشا في جازان، فأقبلت عليه العربان يطلبون الطاعة وكان منهم أهل صبيا، فأكرمهم سنان باشا وخلع عليهم وكساهم، كما أقبلت عليه وفود عربان اليمن وبذلوا الطاعة طالبين الأمان.

أسرع سنان باشا إلى تعز بعد أن ضبط جازان، إذ بلغه أن الوالي العثماني في تعز ومن معه من الجنود في ضيق من أمرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة، وحصول المجاعة عليهم ، فقطع الوزير سنان باشا المسافة في غاية السرعة، ونزل خارج تعز، وانتشر جنوده في جبالها ولما شاهد الزيديون كثافة ذلك الجيش، اعتصموا بأحد الجبال المسمى الأغبر.

قام سنان باشا وجزء من جيشه بمتابعة الزيود في جبل الأغبر، وتمكنوا منه، عند ذلك خرج الزيود من مخابئهم لمواجهة العثمانيين، فانهزم الزيود وولوا هاربين فأنعم سنان باشا على جميع الجنود العثمانيين.

ثالث عشر: الاستيلاء على عدن:

جهز سنان باشا حملتين وذلك للاستيلاء على عدن، الأولى عن طريق البحر بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلي، واخو سنان باشا، والثانية عن طريق البر بقيادة الأمير حامي وبرفقته عدد من الفرسان.

وكان حاكم عدن قاسم بن شويع من قبل الإمام الزيدي المطهر، قد أظهر شعار الزيدية، فكرهه أهالي عدن لأنهم شافعيون، ثابتون على الكتاب والسنة وبنى مدرسة باسم مطهر يدرس فيها بعض من مذهب الزيدية، كما استدعى البرتغاليين الذين أرسلوا سفينة وعليها عشرون جندياً، فأطلعهم قاسم إلى القلعة وأراهم ما فيها من العدد والآلات وأعطاهم المدافع ليدافعوا عن عدن من جهة البحر ويكون البر للزيدية وأشياعهم،

إلا أن خير الدين القبطان سبق إلى عدن ورأى من وسط البحر عشرين شراعاً للمسيحيين قاصدة عدن، ولما تحقق خير الدين من ذلك توجه بسفنه إليهم فولوا هاربين، وتتبعهم خير الدين حتى اطمأن على ذلك.

لما عاد خير الدين إلى الساحل أنزل مدافعه فوجهها نحو قلعة عدن منتظراً القوة البرية لتتم محاصرة عدن ففاجأهم الزيود، وإذا بالأمير ماحي قد وصل وأحاطوا بعدن من كل جانب، فهجموا عليها هجمة واحدة ودخلوا عليها من كل جانب، وأعطى خير الدين الأمان للأهالي الذين جاءوا بقاسم بن شويع وولده وذويه، وإذا بشخص منهم تقدم ليقبل يد خير الدين، فضربه بخنجر في بطنه وجرح خير الدين على أثرها، وتقدم الأمير ماحي، وقطع رأس بن شويع لاتهامه بهذه الخيانة، وأراد قتل ولده وجميع أتباعه فمنعه الأمير خير الدين.

ولقد فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا وشاركه في ذلك الجنود وزينوا زبيد وتعز وسائر الممالك السلطانية في اليمن، ثم عين الوزير سنان باشا ابن أخته الأمير حسين، وأرسل معه مائتين من الجنود، ورقى جميع الجنود الذين فتحوا عدن.

رابع عشر: دخول صنعاء:

فرغ سنان باشا في هذا الوقت من جنوب اليمن، فاتجه نحو ذمار وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء، فجهز المطهر نفسه للانسحاب منها، ونقل ما فيها من الخزائن وتقدم سنان باشا نحو صنعاء بعد أن وعد أهلها بالأمان فاطمأنت قلوبهم واختاروا عدداً منهم لمقابلته، فأكرمهم سنان ودخل صنعاء بعد ذلك، إلا أنه لم يستقر فيها بل نهض بجيوشه الجرارة لحرب كوكبان وثلا، لأن سنان باشا رأى أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله إلا بالقضاء على مقاومة المطهر وأتباعه، فأخذ يوالي حشد قواته وتبعه في ذلك الوالي العثماني ودامت الحرب سجالاً ما يقرب من عامين، انتهت بموت الإمام الزيدي المطهر في مدينة ثلا سنة 980هـ/ 1573م.

وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيداً من السيطرة وبسط النفوذ حتى تمكن الوالي العثماني حسن باشا من الاستيلاء على ثلا ومدع وعفار وذي مرمر والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الإمامة الزيدية، فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت، واستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الذي استحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر.

لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو 979هـ/ 1571م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين.

استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درعا قويا، حمى الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية، ومع ذلك الدرع فقد احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع، كما أقامت الدولة العثمانية محطات حراسة بجوار آبار المياه على طول الطريق بين مصر وسوريا ومكة المكرمة لحماية القوافل، كما قررت الدولة أن يكون الوالي في جدة ممثلاً للباب العالي في الحجاز، عرف الحجاز في العصر العثماني بثنائية السلطة، وقررت الدولة أن تقسم حصيلة الرسوم الجمركية التي تجمع من السفن في ميناء جدة بين الوالي العثماني وشريف مكة المكرمة.

خامس عشر: وفاة السلطان سليم الثاني:

وصف المستشرق «كارل بروكلمان» السلطان سليم الثاني بأنه اشتهر باسم السكير، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصيان، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبد العزيز الشناوي ورد الدكتور جمال عبد الهادي على هذه الاتهامات فقال:

1- شهادة الكافر على المسلم مردودة، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل، ألم يتعلموا في مدرسة الإسلام قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:12] ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:6].

2- إن المستشرقين ومن سار على نهجهم، دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات، بل دأبوا على النيل من دين الله، والأنبياء والرسل - عليهم السلام - فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء.

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثاني التي تدل على نفي التهم التي ألصقت به وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لا يتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال:

«نصيحة إلى أولئك الذين لا يتحرون الحقيقة، ويرمون الناس في دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل، أن يتبينوا وليضعوا في الاعتبار أن القذف جريمة، وعليه تقام الحدود، آمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا على إيراد أي شبهة أو تهمة تتصل بأي شخص دون دليل أو بينة. وليضعوا في الاعتبار أن الله يزن الحسنات، ويزن السيئات، ولا يزن السيئات فقط دون الحسنات، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا، ويدرك أن الكلمة أمانة وهي شهادة أمام الله عز وجل، ومن هنا يلزمه التأكد من الخبر قبل أن يورده في كتابه».

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني يدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدولة طلب نائب البندقية الصليبية في اسطنبول، في أعقاب معركة ليبانتو، وتحطم الأسطول العثماني مقابلة الصدر الأعظم «محمد صقللي باشا» ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة. وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبنى فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته في البحر المتوسط.

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس، وإنما لابد وأن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترة وجيزة، وفي هذا دليل أيضاً على الرخاء الذي كانت تعيش فيه الأمة، ما فرضت الضرائب، وما صودرت أموال، ولا قالوا موتوا جوعاً لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:60].

إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر، إلا أنّ المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أياما ثم توفي عام 982هـ.

السلطان مراد الثالث

(982-1003هـ/ 1574-1594م)

تولى السلطان مراد الثالث العرش بعد وفاة والده، واهتم بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية، والفارسية، وكان يميل إلى علم التصوف. اشتهر بالتقوى واهتم بالعلماء، صرف للجنود عطايا الجلوس ومقدارها (110.000) ليرة ذهبية، فمنع الاضطرابات التي كانت تحدث عادة إذا تأخر صرف تلك الهبات.

أولاً: منعه للخمور

وكان من أول أعماله أن أصدر أمرا بمنع شرب الخمور بعد ما شاعت بين الناس وأفرط فيها الجنود وخصوصاً الانكشارية، فثار الانكشاريون واضطروه لرفع أمره بالمنع وهذا يدل على ظهور علامات ضعف الدولة بحيث أن السلطان لا يستطيع منع الخمور وإقامة أحكام الشرع عليهم وكذلك يدل على انحراف الانكشارية عن خطها الإسلامي الأصيل من التربية الرفيعة، وحبها للجهاد وشوقها للشهادة.

ثانياً: وضع الحماية على بولونيا وتجديد الامتيازات:

عمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ السياسة التي انتهجها والده من قبل، ففي عهده قام بعدة حروب في أماكن مختلفة. ففي عام (982هـ/ 1574م) هرب ملك بولونيا هنري دي فالوا وذهب إلى فرنسا، فأوصى الخليفة العثماني أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم، ففعلوا، وصارت بولونيا (بولندا) فعلاً تحت حماية العثمانيين عام (983هـ/ 1575م) واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام (984هـ/ 1576م) ومدتها ثماني سنوات، وهاجم التتار على حدود بولونيا عام (984هـ/ 1576م) فاستنجدت بالسلطان العثماني فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية، وجدد السلطان مراد الامتيازات مع فرنسا والبندقية، وزاد بعض الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بعض البنود في صالحها أهمها، أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كافة سفراء الدول الأخرى في الاحتفالات الرسمية والمقابلات الحكومية.

لقد كثر توارد السفراء على الباب العالي للسعي في إبرام معاهدات تجارية أصبحت ذريعة فيما بعد للتدخل الفعلي في شؤون الدولة، وفي زمن السلطان مراد تحصلت إيزابيلا

ملكة الانجليز على امتياز خصوصي لتجار بلادها وأصبحت السفن الانجليزية تحمل العلم البريطاني وتدخل الشواطئ والموانئ العثمانية.

ثالثاً: الصراع مع الشيعة الصفوية:

وفي عام (985هـ/ 1577م) ونتيجة لحدوث اضطرابات في بلاد فارس بعد وفاة طهماسب، أرسل العثمانيون حملة عسكرية، تمكنت من قطع مفازات شاسعة في بلاد القوقاز وفتحت مدينة تفليس وكرجستان (الكرج). ودخل العثمانيون بعدها تبريز عام (993هـ/ 1585م) وتمكنت فيها جيوش مراد من السيطرة على أذربيجان والكرج (جورجيا) وشيروان ولوزستان. فلما تولى الشاه عباس الكبير حكم فارس، سعى إلى إقامة صلح مع العثمانيين، تنازل بمقتضاه عن تلك الأماكن التي أصبحت بيد العثمانيين. كما تعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين - أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم- في أرض مملكته وبعث بابن عم له يدعى حيدر ميزرا رهينة إلى اسطنبول لضمان تنفيذ ما اتفقا عليه.

رابعاً: تمرد وعصيان على أيدي الانكشارية:

قام الإنكشاريون بتمرد وعصيان في الولايات العثمانية بعد توقف الحروب، وكان السلطان قد كلفهم بحرب المجر غير أنهم هزموا أمام النمسا التي ساندت المجر، واحتلت عدة قلاع حصينة استردها سنان باشا بعد ذلك. كما أعلن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا التمرد وانضموا إلى النمسا في حربها مع العثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام 1003هـ/ 1594م غير أنه لم يحرز النصر وخسر عدة مدن.

خامساً: مقتل الصدر الأعظم صقللي محمد باشا:

قتل الصدر الأعظم نتيجة لدسائس حاشية السلطان المتأثرة بدسائس الأجانب الذين لا يروق لهم وجود مثل هذا الوزير القدير، الذي سار على منهج الاستقامة، وطريق الحكمة، وبناء الدولة، وحسن القيادة، ودقة التخطيط، وضبط الإدارة، ومتابعة الولاة، واستغلال الفرص، فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة وفتح بابا للشر في تنصيب وعزل الصدور العظام والتنافس عليه مما أضعف قوة السلطنة، وارتبكت أحوال البلاد، وتمردت بعض فرق الجيش، ولم تتمكن الحكومة من القضاء على هذا التمرد، ونتيجة لهذه الاضطرابات والثورات الداخلية خرجت بولونيا عن الدولة العثمانية واشتبكت في صراع معها.

سادساً: اليهود والسلطان مراد الثالث:

ظن اليهود أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم راودهم طويلاً، فنزحوا في هجرات متقطعة ومتقاربة إلى سيناء لاستيطانها، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة الطور، وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً، فهذه المدينة وهي تقع على الشاطئ الشرقي لخليج السويس لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية، وكان تأتيه سفن من جدة، وينبع، وسواكن، والعقبة، والقلزم، كما كانت المدينة ترتبط براً بخط قوافل مع القاهرة والفرما، وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالات خارجية فلا يصبحون في عزلة عن العالم بل تستطيع السفن أن ترسو في ميناء الطور تحمل أفواجاً من اليهود الجدد.

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودي اسمه (إبراهام) استوطن الطور مع أولاده وسائر أفراد أسرته، ولما أقام اليهود بالطور تعرضوا بالأذى لرهبان «دير سانت كاترين» مما دفعهم إلى إرسال شكاوى مكتوبة إلى سلاطين الدولة العثمانية وولاتها يشتكون من إيذاء اليهود لهم مذكرين بعهد العثمانيين لحمايتهم، ومنع اليهود استيطان سيناء ومحذرين من نزوح اليهود إلى سيناء - وخاصة مدينة الطور - في جماعات كثيرة بقصد إيقاع الفتن.

ولما كانت الدولة الإسلامية مسؤولة بحكم الشرع عن حماية أهل الذمة، فقد سارع على الفور المسؤولون العثمانيون إلى إصدار ثلاثة فرمانات ديوانية في عهد السلطان (مراد الثالث)، فأمروا بإخراج إبراهام اليهودي وزوجته وأولاده وسائر اليهود من سيناء ومنعهم في قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة الطور والإقامة بها أو السكنى.

سابعاً: وفاة السلطان مراد الثالث:

توفي السلطان مراد الثالث في 16 كانون الثاني 1595 عن عمر يناهز 49 عاماً ودفن في فناء أيا صوفيا.

السلطان محمد خان الثالث

ولد عام 974هـ، وجلس على سرير السلطنة عام 1003هـ بعد وفاة والده باثني عشر يوماً، لأنه كان مقيماً في مغنيسا، كانت أمه إيطالية الأصل تسمى صفية.

ورغم حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة العثمانية إلا أن راية الجهاد ضد الصليبيين ظلت مرفوعة، ومما يذكر لهذا السلطان أنه لما تحقق له أن ضعف

الدولة في حروبها يرجع إلى عدم خروج السلاطين وقيادة الجيوش بأنفسهم برز بنفسه وتقلد المركز الذي تركه سليم الثاني، ومراد الثالث، ألا وهو قيادة عموم الجيوش، فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميادين الوغى والجهاد، وبمجرد خروجه دبت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة العسكرية، ففتح قلعة أرلو الحصينة التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة 1556م ودمر جيوش المجر والنمسا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في 26 أكتوبر سنة 1596 حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة موهاكز التي انتصر فيها السلطان سليمان سنة 1526م وبعد هذه المعركة استمرت الحروب دون أن تقع معركة حاسمة. وتعرضت الدولة في زمنه لثورات داخلية عنيفة قادها قره يازيجي وأخرى قام بها الخيالة، إلا أن السلطان استطاع القضاء عليهما بصعوبة، ومن تلك الأحداث الداخلية يظهر للباحث المدقق اختلال النظام العسكري وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها من أعدائها.

أولاً: الشيخ سعد الدين أفندي:

كان من شيوخ السلطان محمد الثالث وممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان: (أنا معك أسير حتى أخلص وجودي من الذنوب، فإنني بها أسير).

وفي إحدى المعارك كاد السلطان أن يؤسر وفرّ من حوله الجنود والأعوان فقال الشيخ سعد الدين أفندي: (أثبت أيها الملك فإنك منصور بعون مولاك، الذي أعطاك، وبالنعم أولاك) فركب السلطان جواده، وحمل سيفه وتضرع إلى القوي العزيز، فما مضت ساعة حتى نزل نصر الواحد القهار وكانت تلك المعركة بعد فتح حصن اكري.

ثانيا: وفاته:

توفي السلطان محمد الثالث بعد أن أخمد الحركات التمردية، والثورات العنيفة، وقاد الجيوش بنفسه وكانت وفاته في نهار الأحد الثامن عشر من رجب سنة اثنتي عشرة وألف، ومده حكمه تسع سنين، وشهران، ويومان، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة.

وكان هذا السلطان عندما يسمع اسم نبينا محمد ﷺ يقوم إجلالاً واحتراماً لسيد الكائنات.

السلطان أحمد الأول
(1012-1026هـ/ 1603-1617م)

تولى الحكم بعد وفاة والده وعمره 14 سنة ولم يجلس أحد قبله من سلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب

النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية في آسيا. فأتم ما بدأ به أبوه من تجهيزات حربية.

أولاً: الحرب مع النمسا والدول الأوروبية:

عين السلطان أحمد «لالا محمد باشا» صدراً أعظم خليفة للصدر الأعظم يمشجي حسن باشا، حيث كان سرداراً عاماً للجيوش التي جاهدت في النمسا وهو من خيرة قواد الجيوش، فاهتم بتقوية الجيوش العثمانية وحاصر قلعة استراغون وفتحها. كما حارب إمارات الأفلاق والبغدان والأردل وعقد صلحاً معهم. ولما مات «لالا باشا» خلفه قبوجي مراد باشا صدراً أعظم، وكان قائداً لإحدى فرق الجيش، وقد نجحت الجيوش العثمانية في هزيمة النمسا واسترداد القلاع الحصينة من مدن يانق واستراغون وبلغراد وغيرها، كما نجحت الجيوش العثمانية في جهادها بالمجر وهزمت النمسا هناك. ونجم عن ذلك قبول النمسا بطلب الصلح ودفع جزية للدولة العثمانية مقدارها مائتا ألف دوكة من الذهب، وبقيت بلاد المجر بموجب هذه المعاهدة تابعة للدولة العثمانية.

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان القديس يوحنا في مالطة، والإمارات الإيطالية، وتراوح النصر بين الجانبين.

ثانياً: تجديد الامتيازات:

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وانجلترا، على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدي على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق، من التعدي على الدولة العثمانية.

وتحصلت هولندا على امتيازات، واستغلت ذلك في نشر الدخان داخل ديار الإسلام وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون، فاضطر العلماء إلى السكوت عنه. وهكذا أصبح الجند ينقادون خلف شهواتهم ويعترضون على العلماء.

ثالثاً: الحرب مع الشيعة الصفوية:

انتهز الشاه عباس الصفوي فرصة اضطراب الدولة العثمانية وباشر في تخليص عراق العجم واحتل تبريز ووان وغيرهما واستطاع أن يحتل بغداد والأماكن المقدسة الشيعية في النجف وكربلاء والكوفة، وقد زارها وسط مظاهر الإجلال والتقديس، وقد

أورد بعض المؤرخين أنه قضى عشرة أيام في زيارته للنجف حيث قام بنفسه بخدمة الحجاج في ذلك المكان إمعاناً في إعلان تمسكه بالمذهب الشيعي وولائه للرفض، وعلى الرغم من تعصبه الشديد للمذهب الشيعي إلا أنه رفع أيدي رجال الدين عن التدخل في شؤون الحكم والسياسة ومارس نوعاً من السلطة المطلقة في حكم البلاد.

وقد أنزل الشاه عباس الصفوي أقسى أنواع العقاب بأعداء الدولة من السنة فإما أن يقتلوا أو تسمل عيونهم، ولم يكن يتسامح مع أي منهم إلا إذا تخلى عن مذهبه السني وأعلن ولائه للمذهب الشيعي، واضطرت الدولة العثمانية أن تترك للدولة الصفوية الرافضية الشيعية جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون في عهد السلطان الغازي سليمان الأول بما فيها مدينة بغداد. وهذه أول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها وكانت فاتحة الانحطاط والضعف وأول المعاهدات التي دلت على ضعف الدولة العثمانية.

لقد بالغ الشاه عباس الصفوي في عدائه للمذهب السني واتصل بملوك المسيحيين، وإمعانا في ضرب الدولة العثمانية حامية المذهب السني فقد عقد اتفاقات تعاون مشترك معهم من أجل تقويض أركان الدولة العثمانية السنية، ولم يكن يعبأ حتى إذا قدم العديد من التنازلات للدول الأوروبية تأكيداً لتعاونه معهم انطلاقاً من عدائه للدولة العثمانية.

وعامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين في إيران معاملة حسنة على عكس معاملته للسنة، وقد كان لمعاملته المتميزة للمسيحيين أن نشطت الحركة التنصيرية المسيحية في إيران، كما شجع التجار الأوروبيين على عقد صفقات تجارية كبيرة مع التجار في إيران وأصبحت إيران سوقاً رائجاً للتجارة الأوروبية، لقد توج تسامحه مع المسيحيين بأن أعلن في عام 1007هـ/ 1598م أوامره بعدم التعرض لهم والسماح لهم بحرية التجول في ربوع الدولة الصفوية، وجاء بالمرسوم الذي أصدره شاه الدولة الصفوية ما يلي: (من اليوم يسمح لمواطني الدولة المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أي بقعة من وطننا ولا يسمح لأي شخص بأي حال من الأحوال إهانتهم، ونظراً لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول في جميع أنحاء إيران، ومزاولة نشاطهم التجاري في أي بقعة من الوطن، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء من أي شخص سواء كان حاكماً أو أميراً أو خاناً أو موظفاً أو تابعاً للدولة، كما تعفى جميع أموال تجارتهم التي يحضرونها معهم من ضرائب المال وليس لأي شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم

أو يكلفهم المشاق، وليس من حق رجال الدين مهما كانت طوائفهم التجرؤ على الإضرار بهم أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية).

لقد جامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين وشرب معهم الخمر احتفالاً بأعيادهم كما أنه سمح لهم بالتبشير بالمسيحية في داخل إيران، وأعطاهم امتيازات ببناء الكنائس المسيحية في كبرى المدن الإيرانية وهذه المعاملة للمسيحيين كانت نكاية في الدولة العثمانية السنية.

إن تاريخ الشيعة الاثني عشرية طافح بالعداوة والبغضاء لأهل السنة ودولتهم الميمونة أينما كانوا وحيثما وجدوا ولا يزال هذا العداء مستمراً رغم الشعارات السياسية الرّنانة التي يرفعها الروافض بين الحين والآخر.

رابعاً: الحركات الانفصالية:

ظهرت إلى حيز الوجود في عصر السلطان أحمد الأول حركات داخلية تهدف إلى تقويض كيان الدولة وبنيانها مثل حركة «جان بولاد» الكردي وحركة والي أنقرة «قلندر أوغلي» وحركة فخر الدين الدرزي المعنى الثاني حفيد «فخر الدين المعنى الأول» الذي انضم إلى السلطان سليم الأول عندما دخل الشام عام (922هـ).

وسببت تلك الحركات اضطرابات داخلية حتى هيّأ الله للدولة وزيراً محنكاً أكسبه تقدم السن مزيداً من الخبرات والتجارب فعين صدراً أعظم فكان عوناً للسلطان الفتى وانتصر على الثائرين وخاصة ثائر الأناضول قلندر أوغلي الذي كان قد عين والياً على أنقرة فقد نكلت به الدولة، وتمكن الصدر الأعظم قبوجي مراد باشا من تطهير الأناضول من أولئك الثائرين.

خامساً: حركة فخر الدين بن المعنى الثاني الدرزي:

اعتلى فخر الدين بن المعنى الثاني السلطة في لبنان عام 999هـ وكان درزياً وصولياً كبيراً واستطاع أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز، وأمثالهم، وكان قد أظهر تقربه من الخليفة العثماني وأعلن طاعته له حتى تمكن من جبال لبنان، والسواحل وفلسطين، وأجزاء من سورية، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال وبنى القلاع والحصون، وكون لنفسه جيشاً زاد على الأربعين ألفاً، ثم أعلن الخروج على الدولة العثمانية عام (1022هـ)، غير أنه هزم وفرّ إلى إيطاليا، وكان قد تلقى الدعم من إمارة «فلورنسا» الإيطالية، ومن البابا، ورهبان جزيرة مالكة (فرسان القديس يوحنا).

وقد عاد فخر الدين إلى لبنان عام 1618م بعد أن أصدر السلطان فرماناً بالعفو عنه واندفع لتغريب البلاد ثم أعلن التمرد من جديد مستغلاً الحرب العثمانية الصفوية الشيعية ولكنه فشل وأسر وسيق إلى اسطنبول ثم اندلعت الثورة عام 1045هـ ولكنه هذه المرة أسر وشنق، وفشلت الحركة المسلحة التي قادها ابن أخيه ملحم للأخذ بثأره.

سادساً: وفاة السلطان أحمد الأول:

كان السلطان أحمد الأول في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة والقيادة، وكان شديد الحب للنبي ﷺ، وفي عهده بدأ إرسال ستائر الكعبة الشريفة من اسطنبول، وقبل ذلك كانت ترسل من مصر، وقد توفي في عام 1617م ودفن عند جامع سلطان أحمد.

بعض السلاطين الضعاف

أولاً: السلطان مصطفى الأول:

تولى السلطة بعد وفاة أخيه عام (1026هـ) ومنذ عهده يظهر جلياً أن يداً أجنبية كانت خلف تعيين وإزاحة الخلفاء، فهذا السلطان عزل بعد ثلاثة أشهر، وجيء بابن أخيه (عثمان الثاني) الذي لم يزد عمره على الثلاثة عشر عاما.

ثانياً: السلطان عثمان الثاني

(1026-1031هـ/ 1617-1621م)

تولي الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثلاثة عشر عاما، أعلن الجهاد على بولونيا لتدخلها بشؤون إمارة البغدان، وتم الصلح بين الطرفين عام 1029هـ/ 1620م بناء على طلب بولونيا، وطلب الانكشارية، الذين تعبوا من مواصلة القتال، فغضب الخليفة عليهم من طلبهم الراحة وخلودهم إلى الكسل وإلزامه بالصلح مع بولونيا، فعزم على التخلص من هذه الفئة الباغية، ولأجل الاستعداد لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا واهتم بتدريبها وتنظيمها وشرع فعلاً في تنفيذ هدفه، وعلمت الانكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على عزل السلطان وتم لهم ذلك في 9 رجب سنة 1031هـ (20 مايو سنة 1622م) وأعادوا مكانه السلطان مصطفى وقتلوا السلطان عثمان الثاني.

تولى السلطان مصطفى الحكم للمرة الثانية إثر فتنة الانكشارية وصارت الحكومة ألعوبة بأيديهم، ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم وأصبحت المناصب تباع

جهاراً وارتكبوا أنواع المظالم، وتغير الوزراء الصدور في مدته هذه سبع مرات خلال عام واحد وأربعة شهور، وكان الخلاف قد دب بين أمراء الأناضول وفرقة السباهية على استمرار الوزراء الصدور، حتى أن بعضهم لم يكمل شهراً واحداً. ونظراً لضعف السلطان وعجزه عن إدارة شؤون البلاد، تم عزله وتنصيب الأمير مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول.

ثالثاً: مراد الرابع

(1032-1049هـ/ 1622-1639م):

تولى أمر السلطنة بعد عزل عمه مصطفى عام 1032هـ/ 1622م وهو أخو عثمان الثاني، ولصغر سنه فقد سيطر الانكشارية عليه. وكانت أحوال الدولة سيئة للغاية، فقام بإصلاح الأحوال الداخلية أولاً حتى تسنى له التفرغ للأحوال الخارجية ولذلك بدأ بالقضاء على طغاة العسكر الذي قتلوا أخاه السلطان عثمان، وأعدم جميع المتأسدين في اسطنبول وفي جميع أنحاء الدولة، وأسس تشكيلات قوية للمخابرات وثبت من خلالها أسماء جميع المستبدين في الدولة، وكان إذا صادف بلداً في أسفاره كان يدعو مستبديها باسمهم ويعدمهم. منع في عهده الخمر والتدخين وأعدم كل مرتد عن الإسلام.

الحرب مع الشيعة الصفوية:

اندلعت الحرب مع الشيعة الصفوية في العراق عام 1044هـ/ 1634م، فقاد السلطان مراد الجيوش بنفسه واتجه إلى بغداد، وكان عباس شاه فارس قد استولى عليها وقتل واليها العثماني وأذل أهل السنة بها وعمل بهم الأفاعيل، فحاصر مراد بغداد وهدم جزءاً كبيراً من أسوارها بالمدفعية ودخلها عام 1048هـ وقتل من جنود الشيعة عشرين ألفاً، ثم أقام بها مدة جدد عمارتها، وأصلح ما تهدم من أسوارها، وعين لها وزيراً، وكان هذا السلطان يباشر الحروب بنفسه، ويخالط جنوده، وينام أحياناً في الغزوات على حصانه.

وفاته:

مرض سنة 1640م وكان يخشى عليه من الموت ولكنه شفي ثم مرض من جديد وتوفي في 8 شباط 1640م بسبب مرض النقرس، وامتد حكمه 16 سنة و11 شهراً استلم الخزينة عند ارتقائه العرش فارغة وتركها مملوءة عند وفاته، لقد كان هذا السلطان عاقلاً شجاعاً ثاقب الرأي، استأصل الفساد وقمع العصاة، ولقب بمؤسس الدولة الثاني لأنه أحياها بعد السقوط وأصلح حال ماليتها.

رابعاً: السلطان إبراهيم بن أحمد (1049-1058هـ/ 1639-1648م):

تولى الحكم بعد أخيه مراد الذي لم يعقب ذكوراً، ولم يبق بعد موت السلطان مراد الرابع من نسل آل عثمان سوى أخيه السلطان إبراهيم، الذي كان مسجوناً مدة سلطنة أخيه، ولما توفي أخوه أسرع كبار المملكة إلى مكان الحبس ليخبروه بذلك، فعندما قدموا ظن أنهم قادمون لقتلة، فخاف وذعر ولم يصدق ما قالوه له، ولذلك لم يفتح لهم باب السجن، فكسروه ودخلوا عليه يهنئونه، فظن أنهم يحتالون عليه للاطلاع على ضميره، فرفض قبول الملك بقوله: إنه يفضل الوحدة التي هو بها على ملك الدنيا، ولما أن عجزوا عن إقناعه، حضرت إليه والدته وأحضرت له جثة أخيه دليلاً على وفاته وحين ذلك جلس على سرير السلطنة، ثم أمر بدفن جثة أخيه باحتفال وافر، وساق أمامها ثلاثة أفراس من جياد الخيل التي كان يركبها في حرب بغداد ثم مضى إلى جامع أبي أيوب الأنصاري، وهناك قلدوه بالسيف، ونادوا له بالخلافة.

كان يقول عند ارتقائه العرش: الحمد لله اللهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام اللهم أصلح وأحسن حال شعبي مدة حكمي واجعلنا راضيا بعضنا عن بعض. ولقد دافع عنه صاحب كتاب السلاطين العثمانيين وقال إن الافتراءات الكاذبة التي قيلت في حقه أكاذيب مختلقة من قبل الذين أرادوا عزله ثم قتلوه بعد ذلك.

كانت الأحوال الداخلية شبه مستقرة بسبب إصلاحات أخيه نحو الانكشارية، وتجديد الجيش، فاتجه إلى الاقتصاد في نفقات الجيش والأسطول وإصلاح النقد وإقامة النظام الضرائبي على أسس جديدة.

استطاع الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا أن يوقف تدخل النساء في شؤون السلطنة وتمكن من القضاء على محاولات رجال البلاط السلطاني لإفساد الدولة وقضى على العابثين والمفسدين وقاطعي الطريق في مختلف الولايات.

الحرب ضد البنادقة:

كانت جمهورية البنادقة تهيمن على جزيرة كريت وعلى الحركة التجارية في بحر إيجة مستغلين الصلح مع الدولة العثمانية، فعزم العثمانيون على تدمير نفوذ البنادقة في الشرق، فجهزت الجيوش والأسطول وأعلنت الحرب على البنادقة، واعتقل جميع البنادقة في طول البلاد وعرضها وأمر بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، ثم سير حملة إلى جزيرة كريت عام

1055هـ/ 1645م استولت على أجزاء منها، لكن الجنود تمردوا في اسطنبول وهاجوا وماجوا وقرروا عزل السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع الذي لم يتم السابعة من عمره، وقتل السلطان إبراهيم، وقد امتد حكمه 8 سنين و9 شهور وكان عمره 34 سنة.

خامساً: السلطان محمد الرابع

(1051-1104هـ/ 1642-1692م):

ولد هذا السلطان عام 1051هـ، وتولى المسؤولية وهو ابن سبع سنوات، ورأت أوروبا أن الوقت قد حان للنيل من الدولة العثمانية؛ لذلك كونت أوروبا حلفاً ضم: النمسا، وبولونيا، والبندقية، ورهبان مالطة، والبابا، وروسيا وسموه (الحلف المقدس) وذلك للوقوف في وجه المد الإسلامي الذي أصبح قريباً من كل بيت في أوروبا الشرقية بسبب جهاد العثمانيين، وبدأ الهجوم الصليبي على ديار الدولة العثمانية وقيض الله لهذه الفترة (آل كوبريللي) الذين ساهموا في رد هجمات الأعداء وتقوية الدولة، فالصدر الأعظم محمد كوبريللي المتوفى عام (1072هـ/ 1661م) أعاد للدولة هيبتها، وسار على نهجه ابنه (احمد كوبريللي) الذي رفض الصلح مع النمسا والبندقية وسار على رأس جيش لقتال النمسا، وتمكن عام 1074هـ أن يفتح أعظم قلعة في النمسا وهي قلعة نوهزل شرقي فينا في 25 صفر 1074هـ/ 28 سبتمبر 1663م وفي عهد هذا الصدر الأعظم حاولت فرنسا التقرب من الدولة العثمانية، وتجديد الامتيازات، غير أن الصدر الأعظم رفض ذلك، ثم حاولت فرنسا التهديد حيث أرسل «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا ما زاد الصدر الأعظم ثباتاً، وقال: (إن الامتيازات كانت منحة، وليست معاهدة واجبة التنفيذ).

لقد تراجعت فرنسا أمام تلك الإرادة الحديدية واستعملت سياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى جددت لها المعاهدات القديمة وأعادت لها امتياز حماية بيت المقدس عام 1084هـ.

وبوفاة الصدر الأعظم «أحمد كوبريللي» ضعف النظام العثماني، وهاجمت النمسا بلاد المجر، واغتصبت قلعة نوهزل ومدينة بست ومدينة بودا، وأغار ملك بولونيا على ولاية البغدان، وأغارت سفن البندقية على سواحل المورة واليونان واحتلت أثينا وكورنثة عام 1097هـ وغيرها من المدن.

وتذكر كتب التاريخ أن العلماء ورجال الدولة اتفقوا على عزل السلطان (محمد الرابع) فعزل عام 1099هـ، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني.

سادساً: السلطان سليمان خان الثاني:

ولد عام 1052هـ وتولى الحكم بعد أخيه (محمد الرابع) عام 1099هـ واستمر التدهور في الدولة العثمانية في عهده، وازدادت شراسة الأعداء على عهده، فاغتصبت النمسا كثيرا من المواقع والمدن ومنها بلجراد عام 1099هـ كما احتلت البندقية وسواحل دالماسيا السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك وبعض الأماكن في اليونان وتوالت الهزائم على الدولة، وقيض الله لها رجلاً لهذا الفترة هو الصدر الأعظم (مصطفى بن محمد كوبريللي) الذي سار على نهج أبيه، وسمح للنصارى في اسطنبول ببناء ما تهدم من كنائسهم، وأحسن إليهم، وعاقب بأشد العقاب كل من عرض لهم في إقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحي الدولة، وكانت نتيجة معاملة المسيحيين بالعدل أن ثار أهالي موره والأورام على البنادقة الكاثوليك، وطردوا جيشها من بلادهم بسبب اضطهادهم وإجبارهم على المذهب الكاثوليكي. ودخلوا في حماية الدولة العثمانية مختارين طائعين لعدم تعرضها لديانتهم مطلقاً.

هذه شهادة من أبناء النصارى على سماحة الإسلام الذي ما نعمت البشرية بنعمة الأمن والطمأنينة على الدين والعرض والمال والدم إلا في ظله؛ لأن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين علمتهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8].

وشاء الله تعالى أن يختار الصدر الأعظم شهيداً في ساحة الوغى وهو ينافح عن حرمات الدين في إحدى المعارك ضد النمسا الصليبية عام 1102هـ.

وفاة السلطان سليمان الثاني:

في 26 رمضان سنة 1102هـ الموافق 23 يونيو 1691م توفي السلطان سليمان الثاني عن غير عقب وعمره 50 سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ودفن في تربة جده السلطان سليمان الأول وتولى بعده أخوه.

سابعاً: السلطان احمد الثاني

(1102-1106هـ/ 1690-1694م):

تولى الحكم عام 1102هـ بعد وفاة أخيه سليمان الثاني، واستشهد في زمنه الصدر الأعظم مصطفى كوبريللي الذي كان عظيم النفع للدولة العثمانية، وتولى بعده الصدر الأعظم جي علي باشا عريجي وكان ضعيفاً، واحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجة، ولم

تطل أيام السلطان وتوفي عام 1106هـ/ 1694م وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات، وتولى الحكم بعده ابن أخيه وهو مصطفى الثاني بن محمد الرابع.

ثامناً: السلطان مصطفى الثاني

(1106-1115هـ/ 1694-1703م):

ولد عام 1074هـ وتولى الخلافة عام (1106هـ/ 1694م) وهو ابن السلطان محمد الرابع، وفي عهده بدأ تراجع المد الإسلامي عن ديار أوروبا الشرقية بسبب ضعف الإيمان، وضعف روح الجهاد، وتسرب أسباب الهزيمة إلى كيان الأمة، وقسوة الهجمات الصليبية على ديار الدولة العثمانية، وفي عهده تم توقيع معاهدة كار لوفتس جنوب غرب زغرب على نهر الدانوب عام 1110هـ/ 1699م مع روسيا، وطبقاً لشروط هذه المعاهدة انسحب العثمانيون من بلاد المجر، وإقليم ترانسلفانيا، وهذا مؤشر سيء في تاريخ بعض حكام الدولة العثمانية، وهو انسحابهم في المعارك تاركين المسلمين بين يدي عدو نزعت من قلبه الشفقة والرحمة، وأصبحت كل الدول التي كانت تدفع الجزية عن يد وهي صاغرة ممتنعة عن دفعها، وكانت الدول النصرانية تقف في وجه العثمانيين، وكانت متفقة فيما بينها للوقوف في وجه تقدم الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها وذلك خوفاً من انتشار المد الإسلامي.

كان تنازل العثمانيين عن أراضيهم بداية الانسحاب العثماني من أوروبا، كما أنه يسجل الانتقال إلى عصر التفكك والاضمحلال السريع. وعلى أثر تدخل الانكشارية ومطالبتهم بعزل الصدور ورفض السلطان لذلك فقد قرروا عزله، وتوفي بعد أربعة أشهر وكان عند وفاته في التاسعة والثلاثين من عمره.

تاسعاً: السلطان أحمد الثالث

(1115-1143هـ/ 1703-1730م):

في عهده ظلت راية الجهاد مرفوعة، واستطاعت الدولة أن تعيد المورة وآزاق، وواصلت جهادها ضد روسيا وأنزلت بها ضربة كادت أن تكون قاصمة، حينما حاصر المجاهدون العثمانيون قيصر روسيا وخليلته ومعهما 200.000 مقاتل كادوا يقعون في الأسر ولكن الخيانة تحت فتنة المال والنساء دفعت الصدر الأعظم إلى رفع الحصار، وخيانة الدولة، ووقع معاهدة (فلكزن) في جمادى الآخرة عام 1123هـ مع الروس، والتي ترتب عليها إخلاء مدينة آزاق للصليبيين الروس وتعهد بعدم التدخل في شؤون

القوزاق، ولهذا السبب عزل السلطان أحمد الثالث الصدر الأعظم بلطة جي باشا واستمر الجهاد ضد الروس، ورأت هولندا وإنجلترا أن من مصلحتها إيقاف الحرب ولذلك تدخلوا، ووقعت معاهدة أدرنة عام 1125هـ/ 1716م، وتنازلت فيها روسيا عن كل ما استولت عليه من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه إلى حكام القرم.

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، واستولوا على كريت وبعض الجزر الأخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا من الدولة العثمانية لإعادة ما أخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين وانتصرت النمسا وسقطت بلغراد عام 1129هـ/ 1717م ثم جرى الصلح بعد ذلك في عام 1130هـ/ 1718م وتوسطت بريطانيا وهولندا في الصلح. وعقد صلح بساروفتز، وبموجبه انتزع النمساويون بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق، وأن تبقى سواحل دالماسيا (شرق الأدرياتيك) للبندقية، وتعود بلاد المورة للعثمانيين، كما أتاح الصلح لرجال الدين الكاثوليك أن يستعيدوا مزاياهم القديمة في الأراضي العثمانية، مما أتاح لهم وللنمسا التدخل في شؤون الدولة العثمانية باسم حمايتهم، وقد نص اتفاق منفصل على حرية التجارة لصالح تجار الدول الموقعة على المعاهدة. وهكذا حصلت النمسا على حق حماية التجار الأجانب داخل الدولة العثمانية. ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس بالمرور في أراضي الدولة العثمانية دون دفع أية رسوم فوافق العثمانيون على ذلك. واحتل العثمانيون بلاد أرمينيا بلاد الكرج، بينما احتل بطرس الأكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية بسبب ضعف الدولة الصفوية، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا، وبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الآخر. غير أن الصفويين هبوا وقاتلوا العثمانيين، ولكنهم هزموا وفقدوا تبريز وهمدان وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام 1140هـ/ 1728م. وخلال هذه الفترة ثار الانكشاريون وعزلوا الخليفة ونصبوا مكانه ابن أخيه.

الداماد إبراهيم باشا والحضارة الغربية:

كان عدد قليل من العثمانيين قد نادى بالإصلاح للوصول إلى الوسائل التي حققت بها أوروبا قوتها خاصة في التنظيم العسكري والأسلحة الحديثة. وكان الداماد إبراهيم باشا الذي تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان احمد الثالث هو أول مسؤول عثماني

يعترف بأهمية التعرف على أوروبا، لذا فإنه أقام اتصالات منتظمة بالسفراء الأوروبيين المقيمين بالآستانة، وأرسل السفراء العثمانيين إلى العواصم الأوروبية، وبخاصة فينا وباريس للمرة الأولى. وكانت مهمة هؤلاء السفراء لا تقتصر على توقيع الاتفاقات التجارية والدبلوماسية الخاصة بالمعاهدات التي سبق توقيعها، بل إنه طلب منهم تزويد الدولة بمعلومات عن الدبلوماسية الأوروبية وقوة أوروبا العسكرية. وكان معنى ذلك فتح ثغرة في الستار الحديدي العثماني والاعتراف بالأمر الواقع الخاص بأنه لم يعد بإمكان العثمانيين تجاهل التطورات الداخلية التي كانت تحدث في أوروبا.

وقد بدأ التأثر بأوروبا في مجال بناء القصور والإسراف والبذخ اللذين شارك فيهما السلطان أحمد ذاته بنصيب كبير، مما جعل الأغنياء وعلية القوم يسعون إلى اقتباس العادات الأوروبية الخاصة بالأثاث وتزيين الدور وبناء القصور وإنشاء الحدائق.

لقد بدأ ظهور تقليد الغرب في شهواتهم وإسرافهم تظهر للعيان، وطبيعي أن تمضي فيهم سنة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:76].

وسجلت هذه الفترة بداية الحركة الأدبية العثمانية الحديثة فنشطت حركة الترجمة إلى اللغة التركية، كما أرسل السلطان أحمد مبعوثين إلى فرنسا للاطلاع على المصانع ومنجزات الحضارة الفرنسية: كما تم إنشاء مكتب للطباعة في اسطنبول.

عاشراً: السلطان محمود الأول

(1143-1168هـ/1730-1758م):

تولى الحكم بعد أن هدأت الأحوال بسبب اضطرابات الانكشارية فقرر السلطان محمود الأول استقدام مستشار أوروبي فرنسي للشؤون العسكرية واسمه الكسندر الكونت دي بونفال، وقد عهد إليه بإحياء فرقة المدفعية، وأدخلت أنظمة جديدة للخدمة العسكرية على أسس فرنسية ونمساوية بهدف جعل الخدمة العسكرية من جديد مهنة حقيقية وذلك بتوفير المرتبات والمعونات. واقترح توزيع فرق الانكشارية إلى وحدات صغيرة يقودها ضابط شاب، غير أن الانكشارية عارضوا تنفيذ هذه الخطة وأوقفوها، مما

أدى إلى تركيز بونفال على فرقة المدفعية، وأهتم كذلك بصناعة المدافع والبارود والبنادق والألغام وعربات المدافع، وافتتح مدرسة للهندسة العسكرية، إلا أن الانكشارية عارضوا كل المشروعات، وعلاوة على ذلك أنشأ مصنعا للورق، لكن هذه الإصلاحات سرعان ما اندثرت.

اتجهت الدولة العثمانية إلى قتال الشيعة الصفوية، فتغلبت على طهماسب الذي طلب الصلح عام 1144هـ/ 1731م، وتخلى العثمانيون عن تبريز، وهمدان، ولورستان، غير أن والي الشاه على خراسان وهو نادر شاه، لم يقبل بهذه المعاهدة. فسار إلى أصفهان، وعزل الشاه طهماسب وولى مكانه ابنه عباس، وعين عليه مجلس وصاية، وسار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، فطلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام 1149هـ/ 1736م في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس، واتفقوا على أن يرد العثمانيون كل ما أخذوه إلى الشيعة الإيرانية.

الحرب مع الدول الأوروبية:

أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا بالتحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولندا من كل من النمسا وروسيا، وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فينا، واتفقت من جهة ثانية لقتال الدولة العثمانية، وبدأت روسيا قتال الدولة العثمانية، فتمكن العثمانيون من وقف تقدم الروس في إقليم البغدان، كما أوقفوا تقدم النمسا في البوسنة والصرب والأفلاق، وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الحرب، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتم توقيع معاهدة الصلح في بلغراد عام 1152هـ/ 1739م، تنازلت فيه النمسا عن مدينة بلغراد وعن بلاد الصرب الافلاق، وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف.

السلطان عثمان الثالث
(1168-1171هـ/ 1758-1761م)

تولى الحكم وعمره 58 عاما، وبويع في جامع أبي أيوب الأنصاري، وهنأه سفراء أوروبا، وحكم ثلاث سنوات فقط لم تحدث فيها حروب ولا نزاعات خارجية واهتم بالإصلاحات الداخلية، وأصدر أوامر بمنع كل ما يخالف الشرع الشريف وقضى على الثورات والانتفاضات التي قامت في أنحاء الدولة وخاصة ثورات الأكراد، ويذكر عنه أنه كان يتحسس أحوال الرعية ليلاً متنكراً.

الحادي عشر: السلطان مصطفى الثالث
(1171-1187هـ/ 1757-1773)

تولى الحكم وعمره اثنتان وأربعون سنة، وكان على دراية واسعة بإدارة الدولة فعين الوزير قوجه راغب صدراً أعظم لسعة اطلاعه وخبرته بشؤون البلاد. وقد استطاع محمد راغب باشا إخماد ثورة عرب الشام الذي اعتدوا على قوافل الحجاج.

كان السلطان مصطفى يرى أن الخطر الداهم على الدولة العثمانية يتمثل في ظهور القوة الروسية الجديدة، ويبدو أنه اطلع على المخطط الأسود الروسي لتفتيت الدولة العثمانية الذي وضعه بطرس الأكبر في وصيته، ولذلك أعد السلطان مصطفى الثالث لحرب روسيا، فبدأ يعد التنظيمات المزمع تنفيذها بالجيش العثماني حتى يصبح قادراً على مواجهة الجيوش الأوروبية، لذا فقد تمكن الصدر الأعظم من عقد اتفاق مع حكومة بروسيا لمساعدة الدولة العثمانية عند الحاجة ضد النمسا وروسيا. وعمل على توسيع نطاق التجارة البحرية والبرية. كما عمل على وضع مشروع فتح خليج لإيصال نهر دجلة بالآستانة وأن تستعمل الأنهار الطبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات إلى دار الخلافة، ويساعد على نشر التجارة، إلا أن المنية عاجلته قبل البدء في مشروعه عام 1176هـ/ 1762م. وخلفه في الصدارة حامد حمزة باشا ثم خلفه مصطفى باهر باشا 1177هـ/ 1763م ثم بعد سنة تولى الصدارة محسن زاده محمد باشا 1178هـ/ 1764م.

خاضت الدولة العثمانية حرباً مع روسيا بسبب اعتداءات القوزاق على مناطق الحدود، ونجح ملك القرم في غارته وهدم عدداً من الضياع وذلك عام 1182هـ/ 1768 كما سار الصدر الأعظم لفك الحصار عن بعض المواقع التي يحاصرها الروس، ولكنه فشل فكان جزاؤه القتل، وهزم الصدر الذي أتى بعده، واحتل الروس إقليمي الأفلاق والبغدان، وأخذ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس للقيام بثورات ضد الدولة، فأثاروا نصارى شبه جزيرة المورة فقاموا بثورة، غير أن الثورة أخمدت.

كما هاجم الروس مدينة طرابزون وفشلوا في احتلالها، ولكن روسيا نجحت في اقتحام بلاد القرم والسيطرة عليها وذلك عام 1185هـ/ 1771م. ثم جرت مفاوضات الصلح ولكنها فشلت بسبب مطالب روسيا التعسفية، وعادت الحرب وانتصر العثمانيون.

الاهتمام بدعم الثورات الداخلية:

لقد ظهر التآمر الروسي الصليبي ضد ديار الدولة العثمانية واضحاً وقاموا بمحاولة تمزيق الدولة من الداخل، فقد دفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة، وهو «علي بك

الكبير» الذي لقب بشيخ البلد إلى الخروج على الدولة العثمانية عام (1183هـ/ 1770م) ففعل، وأمر بأن يخطب باسمه على المنابر.

وفي جزيرة باروس تم لقاء بين الصليبيين الروس ومبعوثين من قبل (علي بك الكبير) وتم التخطيط الماكر لتدمير الدولة العثمانية من الداخل، يكون فيها علي بك الكبير هو مخلب القط ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا من قبل العثمانيين، وبناء عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال القوات العثمانية في بلاد الشام ودخل سورية عنوة في عام 1185هـ، بل إنه دخل دمشق وصيدا وحاصر يافا بمساعدة طاهر العمر، بل إن الروس حينها قامت قوات الدولة العثمانية بمحاصرة صيدا، عاونوا عميلهم في رفع الحصار ومده بالأسلحة واستولوا على بيروت عام 1186هـ.

وجاء الوقت الذي أسر فيه علي بك الكبير، وتوفي في أسره، وقتل الخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكا، وذلك على يد محمد بك الشهير بأبي الذهب.

لقد استمرت الحرب مع روسيا فترة طويلة حيث بدأت في عام 1768م وانتهت في 1774م وفقدت الدولة العثمانية أراضي واسعة ومهمة وبدأ ظهور الضعف والتأخر والتخلف الحقيقي في الدولة، ومرض السلطان مصطفى الثالث في حرب روسيا حزناً وتوفي وعمره يناهز 57 عاماً تقريباً. وكان ذلك عام 1187هـ وتولى مكانه أخوه عبد الحميد الأول.

الثاني عشر: السلطان عبد الحميد الأول
(1187-1203هـ/ 1773-1788م)

تولى الحكم عام 1187هـ/ 1773م بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، وكان محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث، وقد استطاعت روسيا أن تحقق نصراً على العثمانيين في مدينة فارنا في بلغاريا على البحر الأسود، وطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتم ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا عام 1187هـ/ 1774م، وأهم ما جاء في معاهدة الصلح:

- إزالة العداوة بين الدولة العثمانية وروسيا وحلول الصلح وصيانة الاتفاقات من التغيير والعفو عن الجرائم التي اقترفها رعايا الطرفين.

- عدم حماية الرعايا الملتجئين أو الفارين أو الخونة ضمن شروط.

- اعتراف الطرفين بحرية بلاد القرم بلا استثناء واستقلالها، ولهم الحرية التامة بانتخاب خان لهم دون تدخل ولا يؤدون ضريبة. وباعتبارهم مسلمين فإن أمورهم المذهبية تنظم من قبل السلطان بمقتضى الشريعة الإسلامية.

- سحب القوات العثمانية من القرم وتسليم القلاع وعدم إرسال جنود أو محافظ عسكري.

- حرية كل دولة في بناء القلاع والأبنية والتحصينات وإصلاح ما يلزم منها.

- تعيين سفير روسي في الآستانة من الدرجة الثانية، والاعتذار له رسمياً عن ما يحدث من خلل.

- تعهد الدولة العثمانية بصيانة الحقوق والكنائس النصرانية في أراضيها ومنح الرخصة من الخلل.

- حرية زيارة رهبان روسيا للقدس والأماكن الأخرى التي تستحق الزيارة مرخص بها دون دفع جزية أو خراج ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك.

- حرية الملاحة للروس في كافة الموانئ العثمانية في البحرين الأبيض المتوسط والأسود مضمونة، وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس في البلاد العثمانية براً وبحراً مكفولة، وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير إليها والإقامة فيها، ويحق لروسيا تعيين القناصل في كافة المواقع التي تراها مناسبة.

- يجب على الدولة العثمانية التعهد ببذل جهدها في كفالة حكومات الولايات الأفريقية إذا ما رغب الروس بعقد معاهدات تجارية فيها.

- يحق للروس بناء كنيسة على الطريق العام في محلة بكل أوغلي في غلطة باسطنبول غير الكنيسة المخصصة، وتكون تحت صيانة سفير روسيا وتؤمن الصيانة الكاملة لها والحراسة التامة خوفاً من التدخل.

- إعادة بعض المناطق للدولة العثمانية من روسيا بشروط منها العفو العام عن أهاليها وحرية النصارى منهم من كافة الوجوه وبناء كنائس جديدة ومنح امتيازات للرهبان وحرية الهجرة للأعيان وعدم التعرض لهم وإعفائهم من تكاليف الحرب والجزية.

- يرد الروس جزائر البحر الأبيض المتوسط التي هي تحت حكمهم للدولة العثمانية التي يجب أن تعفو عن أهلها وتعفيهم من الرسوم السنوية وتمنحهم الحرية الدينية وترخص لمن يريد منهم ترك وطنهم.

كما ذكرت بنود أخرى تتعلق ببعض المناطق في القرم وبتدابير الانسحاب وإخلاء الافلاق والبوجاق والبغدان وبتسريح الأسرى وتعيين السفراء من أجل المصالحة، وتعهدت الدولة العثمانية بتأدية خمسة عشر ألف كيس لروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس.

وحين التمعن في هذه الشروط يمكن ملاحظة ما يلي:

- إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الدبلوماسية المقبلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية.

- تمدد الحدود الروسية إلى نهر بوغ الجنوبي واشتمالها آزوف وسهوب كرش ونيكال في النهاية الشرقية من شبه نهري الدينيبر وبوغ وسهوب وكينبورن.

- أصبحت بلاد القرم مستقلة ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينياً فقط.

- أصبح لروسيا حق بناء قناصل في أي مكان في الدولة العثمانية والملاحة الحرة في مياها.

- سمحت المعاهدة للروس بالحصول على الامتيازات ضمن البلاد العثمانية تشمل الأرثوذكس في الأفلاق والبغدان وجزر بحر إيجة وبالتالي تحولت روسيا إلى حماية الأرثوذكس في أي مكان في الدولة العثمانية.

ولم يكتف الروس بذلك، بل واصلوا تآمرهم، وفاجأوا الدولة العثمانية بدخول قواتهم بلاد القرم وهي جزء من ولايات الدولة العثمانية بسبعين ألف جندي غير مبالين بمعاهدة كينارجه.

وانبهرت ملكتهم كاترينا بهذا النصر وطافت ربوع القرم وأقيمت لها الزينات وأقواس النصر التي كتب عليها (الطريق بيزنطة). وثارت الدولة العثمانية من جديد فأرسل الباب العالي مذكرة إلى السفير الروسي بالآستانة وذلك في صيف عام 1200هـ فيها عدة مطالب منها التنازل عن حماية بلاد الكرج التي تخضع للسيادة العثمانية وتسليم حاكم الفلاح العاصي للدولة ورفضت روسيا المذكرة فأعلن الباب العالي الحرب وسجن السفير الروسي.

تحالف النمسا مع روسيا:

وكتبت كاترينا إلى القائد العسكري بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والتقدم باتجاه مدينتي بندر وأوزي وتمكن نتيجة لذلك من دخول (أوزي) وعندها أعلنت النمسا

الحرب على الدولة العثمانية، وحاول يوسف الثاني الإمبراطور النمساوي احتلال بلغراد ولكنه عاد يجر أذيال الخيبة منسحباً إلى مدينة تمسوار والجيش العثماني يتعقبه حتى هزمه شر هزيمة.

وفاة السلطان عبد الحميد الأول وأثرها على الأحداث:

في هذه الآونة توفي السلطان عبد الحميد الأول ووهنت عزيمة الجند ودخل اليأس قلوبهم واستغل الأعداء ما حدث وتضافرت جهودهم لإضعاف العثمانيين وتمكنوا من النصر في 31 تموز وفي 22 أيلول عام 1789م واستولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم القلاع والبغدان وبسارابيا، ودخل النمساويون بلغراد وبلاد الصرب التي ردت بعد ذلك بمقتضى معاهدة زشتوي.

السلطان سليم الثالث
(1203-1222هـ/ 1788-1807م)

تولى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول عام 1203هـ/ 1788م وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعدائها، حيث شرع في إحياء الروح المعنوية في نفوس جنده واعتمد على تاريخ الدولة العثمانية وما قامت به من أعمال بطولية، ففي مراسيم توليه عرش الدولة قام السلطان بإلقاء خطبة حماسية أمام قادة الدولة أشاد فيها بما حققته الجيوش العثمانية من انتصارات في الماضي على أعدائها، وتكلم عن سبب هزائمهم المتأخرة أمام أعدائهم وبين بأنها بسبب ابتعادهم عن دينهم وعدم اتباع كتابهم وسنة نبيهم، وحثهم على ضرورة التضحية والجهاد ضد أعدائهم، والاعتماد على الله في كل تصرفاتهم وطاعة أولي الأمر، ومقاومة الأعداء الذين استولوا على أراضي المسلمين وقتلوا وسجنوا الآلاف منهم حتى تستعيد الدولة بلاد القرم منهم.

أولاً: إصراره على الجهاد:

هذه الآمال عند السلطان سليم الثالث جعلته يرفض مساعي الصلح التي قام بها سفراء اسبانيا وفرنسا وبروسيا، وطلب من الصدر الأعظم يوسف باشا اتخاذ الترتيبات اللازمة للتصدي لأعداء الدولة.

لقد أدرك السلطان المأساة التي يعيشها شعبه من جراء الهزائم المتوالية على الدولة لعثمانية، ولكي يخفف من حدة الغضب والنفور، رفض السلطان مساعي الصلح وقرر

التوجه بنفسه على رأس جيش نحو الدانوب. وقام بزيادة مرتبات الجند وصرف مكافآت إضافية تزيد عما كانت عليه في عهد سلفه.

ورأى السلطان العثماني ضرورة تقوية مركزه بتعيين صديقه القديم حسين باشا الكريدلي قائداً للأسطول العثماني ونقل خدمات القائد السابق حسن باشا إلى قيادة الجيش البرية في مولدافيا وتعيينه حاكماً على مدينة «إسماعيل» وتكليفه في نفس الوقت بإعادة أوزي والتوجه بطريق البر نحو القرم.

وكان هذا التغيير في مناصب قيادة الجيش له أسبابه، فمن جهة كان القائد حسن باشا على خلاف مع الصدر الأعظم يوسف باشا عندما رأى أن إعلان الحرب على روسيا لم يكن في وقته المناسب وأنهم بحاجة إلى الاستعداد التام قبل دخول الحرب، ومن جهة أخرى فإن إخفاق الجيش العثماني بقيادة حسن باشا في استعادة «أوزي» وعودته قبل الوقت المحدد قد أثر على نفسية السلطان فرأى ضرورة تغيير القيادة، ولكن السبب المعقول والأقرب إلى المنطق أن القائد الجديد كان من أصدقاء السلطان، مما يجعل تعيينه في منصب الصدارة العظمى سنداً قوياً وتقوية لمركزه أمام أعدائه في الداخل والخارج.

أصبح السلطان سليم في موقف يحتم عليه المواجهة مع أعدائه ومما قام به في هذا الشأن تكليفه لصدره الأعظم يوسف باشا بالاهتمام بإقليم ولاشيا وحماية بلغراد من أي هجوم في منطقة الكوبان بهدف إثارة تتار القوقاز ضد روسيا ومساعدة الدولة العثمانية لاستعادة بلاد القرم.

استبشر الصدر الأعظم بثقة السلطان سليم الثالث فيه وظن كأن النصر قريب وكان يأمل أن يحقق أهداف الدولة المطلوبة منه.

ثانياً: هزيمة الجيوش العثمانية:

عززت القوات الروسية والنمساوية مواقعها، واستنفرت جيوشها، وأصبحت قواتهم قريبة من بلغراد مولدافيا، ولم يستطيع الصدر الأعظم من إبعاد الأعداء عن بلغراد واضطر السلطان لعزله وعين حسن باشا بدله. لقد مني يوسف باشا بهزائم متتالية على يد القائدين الروسي «سواروف» والنمساوي «كوبرق».

كان السلطان سليم الثالث حريصا على استعادة القرم وتحقيق النصر على أعدائه، ورأى البدء بإعادة بناء الجيش وأصدر أوامره للصدر الأعظم باتخاذ اللازم نحو تطوير

الجيش ومتابعة الجهود في سبيل الإصلاح وإرسال حملة عسكرية إلى ساحة القتال، ورأى السلطان دعم هذه التوجهات بعقد معاهدة صداقة مع السويد تلتزم فيها الدولة العثمانية بدفع مبالغ نقدية سنوية محددة لمدة عشر سنوات مقابل أن تقاوم السويد روسيا من الناحية الشمالية، واتفقتا أيضاً على مواصلة الحرب معاً ضد روسيا وأن لا يقوم أي منهما بعقد معاهدة سلام مع دولة أخرى دون علم الثانية.

ثالثاً: مواقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات:

كانت مواقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات متباينة فبروسيا رحبت بهذه المعاهدة وذلك لأنها كانت دائماً تحث السلطان سليم الثالث على مواصلة الحرب خوفاً من أن تكون هي الأخرى من فرائس روسيا، وفرنسا لم تؤيد عقد المعاهدة لأنها على هذا الوضع لا تخدم السياسة الفرنسية وأهدافها.

أما بريطانيا فهي وإن رضيت بالمعاهدة، ورغبت في بقاء الدولة العثمانية قوية، إلا أنها لا تفضل الوقوف جنباً إلى جنب مع الدولة العثمانية ضد روسيا أو النمسا، ولا تفضل تقديم أي نوع من الدعم.

هذه المواقف الأوروبية يجب أن لا نستغربها، فهي طبيعية، لأن علاقاتهم مع الدولة العثمانية علاقات مصالح ومطامع فقط، وإذا سعت بعض الدول الأوروبية إلى بقاء الدولة العثمانية قوية الجانب، فذلك ليس حباً فيها ولكنه هدف لخدمة أغراض سياسية تتعلق بتوازن القوى في القارة الأوروبية وتتعلق بالرغبة في الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية سواء في داخل الدولة العثمانية أو خارجها.

على الرغم من تأثير هذه المواقف الأوروبية على الاتجاه العام لسياسة الدولة العثمانية وتقدمها في المناطق الأوروبية، لم ييأس السلطان العثماني وكان يحدوه الأمل بنجاح المهمة في حال توجيه الجيش، فأصدر أمره بتحريك القوات العثمانية عبر البغدان والافلاق حتى وصلت مقدمات جيشه إلى نهر «رمينيك» عند حدود النمسا، وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان، حيث تمكن الجيشان الروسي والنمساوي من مباغتة الجيش العثماني على غفلة وانتصرا عليه وسميت تلك المواجهة بمعركة «يوزا» أو «رمينيك» نسبة إلى النهر الذي وقعت عنده المعركة.

كان لهذه المعركة آثارها السيئة على الدولة العثمانية فلم يعد هناك فرصة لتنظيم الجيش، فتوالت الهزائم على الدولة العثمانية وتزحزحت إلى الوراء باتجاه شرق الدانوب،

وأعطت النمساويين الفرصة لفك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوروبا.

لقد كانت الحملات الصليبية على الأقاليم العثمانية خلال الشهور الأخير من عام 1789م من أفظع ما شهدته المناطق الحدودية بين الطرفين، ولذلك تميزت الفترة التي أعقبت هذه الحملات بحالتين مختلفتين:

الأولى: تتمثل بقيام نشاط دبلوماسي وحركات دينية وسياسية في الأوساط الأوروبية تنذر بالخطر، مما جعل الدول القوية تبحث عن السلام وتنادي بإيقاف الحرب بين الدولة العثمانية وعدوتها روسيا والنمسا.

ولاحت الثورة الفرنسية في الأفق وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة في أوروبا وأوجدت شعوراً قوياً عند الدول الأوروبية ومعها روسيا بأن الوقت قد حان للتعاطف مع الدولة العثمانية خوفاً من استفحال الثورة النابليونية وهيمنة فرنسا على شؤون القارة الأوروبية.

والثانية: هي ما شهدته تلك الفترة من تطورات واستعدادات عسكرية جديدة بسبب تلك الهزائم المتتابعة التي لحقت بالدولة العثمانية قبل وبعد معركة «يوزا» والتي أدت إلى إثارة السخط والغضب في أوساط الرعية حتى ارتفعت الأصوات بتصحيح الأوضاع وإقالة الصدر الأعظم من منصبه.

وتوالت الأحداث واستمرت الهزائم، وضعفت الدولة العثمانية، ومع ظهور الثورة الفرنسية رأت الدول الأوروبية ضرورة التوصل إلى معاهدة مع الدولة العثمانية لجمع الشمل الأوروبي أمام الحركة النابليونية التوسعية، والأطماع الفرنسية التي أنستهم أطماعهم في أراضي الدولة العثمانية كمرحلة أولى، ونجحت الدول الأوروبية في وساطتها وتم عقد معاهدة «زشتوي» المشهورة في 22 من ذي الحجة عام 1205هـ الموافق 4 من أغسطس 1791م.

ولما تحقق لهم ذلك بقي عليهم المرحلة الثانية وهي وقف الحرب العثمانية الروسية، حيث بدون تحقيق ذلك ستكون كثير المناطق في أوروبا معرضة للأخطار بسبب المغامرات النابليونية أو بسبب تفوق روسيا على الدولة العثمانية وبالتالي تهديدها لأوروبا.

لقد أثرت الأحداث التي تعرضت لها الدولة العثمانية على قوتها وعلى سير حملاتها نحو أوروبا وجعلتها في موقف لا يمانع من الموافقة على أي أمر يؤدي إلى السلام وبأي

شروط، وكان تلك الأحداث مساعدة في مهمة الوسطاء، فتوصلوا بعد مفاوضات مع كل من روسيا والدولة العثمانية، إلى عقد معاهدة سلام بينها في مدينة ياش وذلك بتاريخ 15 جمادى الأولى عام 1206هـ، الموافق التاسع من شهر يناير عام 1792م.

وكان من أهم بنود هذه المعاهدة:

1- تبادل أسرى الحرب والسماح للرعايا الذين يعيشون خارج دولتهم بسبب الأزمات السياسية، بالعودة إلى بلدانهم الأصلية أو البقاء حسب رغباتهم.

2- تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن ميناء أزوف وبلاد القرم وشبه جزيرة طمان وبلاد القويان وبساربيا والأقاليم الواقعة بين نهري بجد والدينستر، ويكون النهر الأخير حداً فاصلاً بين الدولتين.

3- تعيد روسيا للدولة العثمانية مناطق: البغدان واكرمان وكيلي وإسماعيل مقابل أن تقوم الدولة بإعفاء رعايا البغدان من الضرائب وعدم مطالبة روسيا بتعويضات حرب أو ما شابه ذلك.

4- يمنع الباب العالي رعايا دولته من الغارات على محافظتي تفليس وكاتالينا الروسيتين، وعلى السفن الروسية في البحر المتوسط، وعليه القيام بدفع تعويضات لأي أضرار تحدث بعد ذلك من قبل رعايا الدولة العثمانية.

وبذلك حققت المعاهدة وقف الحرب الروسية العثمانية، كما حققت أهداف الدول الأوروبية وأهمها إيقاف الحرب في زمن كانت أوروبا تعيش فيه انطلاق الثورة النابليونية وتخشى تطورها على أنظمة الحكم فيها، وهكذا ضاعت آمال الدولة العثمانية وضاعت معها تلك المناطق التي كانت تحت نفوذها حتى أصبح البحر الأسود تحت رحمة العلم الروسي وأصبحت الموانئ العثمانية مثل أزوف وأوديسا وسيفاستبول قواعد للأسطول الروسي وأصبحت مصبات الأنهار العظيمة مثل الدانوب وبج والدنيستر وبروت وحركتها الملاحية تحت تصرف روسيا.

وهكذا قلصت هذه المعاهدة حدود الدولة العثمانية في أوروبا وأعطت في نفس الوقت الصفة التنازلية الشرعية عن مكتسباتها لأعدائها.

وهكذا خطت الدول الأوروبية خطوات ساهمت في القضاء على الكيان العثماني في أوروبا وكأنها بذلك تحقق المشروعات الكثيرة التي نادى بها الساسة والمفكرون الأوروبيون

ضد الدولة العثمانية منذ قرون طويلة، وكانت القوى الصليبية والقوى الاستعمارية والقوى اليهودية تعمل في مثابرة وتنظيم نحو الهدف المنشود.

وإن كانت معاهدة ياش قد أنهت المواجهات الروسية العثمانية لفترة مؤقتة إلا أنها في حقيقة الأمر كانت بداية لنهاية أكثر فاجعة من الأولى.

رابعاً: الإصلاح الداخلي والمعارضة:

وبعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية، فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة، واتجه نحو تقليد أوروبا التي تجاوزتهم كثيراً، فأهتم بصناعة السفن والأسلحة خاصة المدافع على الطريقة الفرنسية، وشهد عهده بدايات التعليم العسكري الغربي.

ونظراً لإقدام السلطان سليم على الإصلاحات وإنشاء فرقة النظام الجديد، فقد ثار الجنود الانكشارية وساندهم الأعيان ضد النظام الجديد، ورغم ان السلطان أصدر أمراً بإلغاء النظام العسكري الجديد، إلا أن الثوار قرروا عزل الخليفة وخلعه من الحكم، وتولى الحكم بعده ابن عمه مصطفى الرابع مرشح المحافظين الذي أصبح دمية في أيدي من عينوه على السلطنة، ثم صدرت مراسيم سلطانية ألغت النظام الجديد وكل المدارس والمؤسسات والإصلاحيات المرتبطة به، ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل في عهده أدت إلى الإطاحة به.

خامساً: الغزو الفرنسي الصليبي للدولة العثمانية في مصر (1213هـ/ 1798م):

انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، وكانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية. وقد أصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم (122) عالماً وهو عدد يزيد عن أضعاف العدد الذي أعتاد أن يصحبه في حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء في الغالب بالدور الفرنسي الذي يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادي حركات الإصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن السادس عشر، ثم تأثروا في الفترة السابقة لقدومهم إلى الشرق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات (الحرية، الإخاء،

المساواة) وهي أفكار واتجاهات تعادي في مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً على ضرب المصالح البريطانية في الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج إلى هذا الحشد الهائل من العلماء، فكان إلى جانبه هدف إقامة إمبراطورية فرنسية في الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البرجوازية فيها والتي تسللت إلى الحكم في أعقاب الثورة، وإرضاء للكنيسة، التي وإن كانت الثورة قد وجهت لها بعض الضربات بشكل أضعف دورها داخل فرنسا عن ذي قبل، إلا أنها ظل لها تأثيرها الواسع والفعال على كثير من أبناء الشعب الفرنسي، فضلاً عن الدور الذي كانت تقوم به في تدعيم النفوذ الفرنسي في المستعمرات وكذلك في الشرق الإسلامي. ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية، أو بالأحرى كانت غزوا عسكريا وفكريا، ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء.

الفصل السابع

جذور الحملة الفرنسية الصليبية

لاشك أن هؤلاء المستعمرين كانوا عالمين بطبيعة وأحوال المسلمين في مصر من خلال وسائلهم المتعددة والتي منها ما قام به الرحالة الفرنسيون (الجواسيس) الذي أكثروا من رحلاتهم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانوا على صلة بالعناصر اليهودية وبعض عناصر المماليك في مصر، ودرسوا كافة الجوانب السياسية، والاقتصادية والفكرية والعسكرية بأدق التفاصيل، ومما يدلنا على ذلك حرصهم الشديد على ترويج أفكارهم خلال فترة بقاء الحملة وحتى بعد رحيلها، وزرعهم للمحافل الماسونية اليهودية في مصر التي أصبحت على صلة وثيقة بمحمد علي باشا فيما بعد.

لقد كانت خطوات الحملة الفرنسية مدروسة بعناية شديدة قبل القدوم ولم تكن مفاجئة، وحتى اكتشاف حجر الرشيد الأثري وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجأة - وهو أمر مازال يحتاج إلى بحث - فإن العناية لهذا الحدث والترويج له وما تبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمراً مدروساً بعناية كذلك، وكان يدور في إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعلن منها وغير المعلن. ويشير المؤرخ المسلم عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر هذه الحملة إلى هذه الأمور في معرض حديثه عن المعهد العلمي الذي أنشأه الفرنسيون في حارة «الناصرية» فيقول: (وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم خصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار).

أولاً : سر قوة المسلمين:

كان الفرنسيون - والغربيون بصفة عامة - يدركون أن السر في قوة المسلمين يتمثل في جانبين هامين: الأول هو تمسكهم بالدين، والثاني في وحدة بلادهم في ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعض رجاله اعتناقهم للإسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كي يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام أملاً في الاستقرار، وقد بدأ ذلك واضحاً في المنشور الأول الذي أعلنه نابليون على شعب مصر حيث ذكر: (أيها المصريون قد قيل لكم أنني ما نزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمغترين إنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم).

كما سعى رجال الحملة إلى زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم، أما العامل الثاني وهو الرامي إلى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحاً في سعي الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من مسيحي مصر قادها «المعلم يعقوب» لمساعدة الحملة في ضرب الثورة الشعبية التي قادها العلماء، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الإسلامية.

ثانياً: تفجير الجيوب الداخلية:

نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية على معاونة الحملة بمختلف الوسائل، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التي جنتها مصر خلال سني الحملة الثلاث كانت أكثر من القرون الطويلة للحكم العثماني، وقد أشاد البعض من هؤلاء بدور الخسة والنذالة الذي قام به المعلم يعقوب في تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين واعتبروه «تعاوناً يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث».

لقد قامت الأقليات غير الإسلامية بمعاونة الاحتلال الفرنسي وقد علق على ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي: (أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين إسرافا وصل إلى حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف. وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة. ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده،

نتيجة المعارك التي خاضها في مصر والشام وإخماد الثورات الشعبية، وفتك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين، وقد نظر الشعب المصري إلى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر، وتزعم هذه الفرق المعلم «يعقوب حنا» إذ كون فرقاً عسكرية من الأقباط، وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيين، وقلده «كليبر» قيادة هذه الفرقة ومنحه رتبة أغا ثم رقى على عهد «مينو» إلى رتبة لواء (جنرال) ومنحه رسمياً لقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي).

ورغم المقاومة الشديدة والحركة الجهادية بقيادة علماء الأزهر، فقد استطاعت القوات الفرنسية بمعاونة «المعلم يعقوب» المصري من احتلال مصر، وارتكبت من الفظائع ما يستلزم أن يفرد له صفحات من تاريخ هذه الفترة، لترى الأجيال كم من القرى أحرقت، وكم من الدور والأموال قد سرقت، وكم من أعراض النساء الحرائر انتهكت، وكم من الأسر قد شردت على يد فرنسا زعيمة الحرية والإخاء والمساواة والإنسانية!.

وبعد احتلال القاهرة واصل نابليون احتلاله لبقية مدن مصر وغزة والرملة ويافا وقد حاول احتلال عكا، ولكن يقظة أهلها بقيادة أحمد باشا الجزار حالت بين نابليون الصليبي وبين ما يشتهي.

وحينما وصل نابليون إلى عكا أصدر بياناً إلى يهود العالم مُطلقاً عليهم اسم «الورثة الشرعيين لفلسطين» لإقامة دولة يهودية على ارض فلسطين، وذلك يكشف بوضوح عن علاقة وثيقة بين نابليون الذي تستر بالإسلام، واليهود الذين خططوا وقاموا بما يسمى الثورة الفرنسية.

ثالثاً: السلطان سليم الثالث يعلن الجهاد ضد فرنسا:

كان الهجوم الفرنسي على مصر يعتبر أول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين (1213هـ/ 1798م) واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا. فمن الحجاز خرجت جموع من المسلمين بقيادة محمد الكيلاني، يقول الجبرتي في حوادث (شهر شعبان عام 1213هـ/ 8 يناير إلى 5 فبراير عام 1799م): (لما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم وأن هذا الشيخ الكيلاني صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم

وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القيصر مع ما أنظم إليهم من أهل ينبع وخلافه وكان مسلمو الحجاز خصوماً أشد للجنرال «ديزيه» الذي عهد إليه «بونابرت» غزو الصعيد والقضاء على قوات الجهاد بقيادة «مراد بك»، وقد صمموا على الظفر بإحدى الحسنيين: الاستشهاد أو الانتصار، واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:41]. وتكونت منهم ومن مسلمي الوجه القبلي في «مصر» وخاصة عرب «الهوارة»، وأهالي النوبة، وقوات «مراد بك» جبهة حربية إسلامية في مواجهة جبهة حربية نصرانية كانت تتألف من القوات الفرنسية، النهرية والبرية، والفيالق القبطية بقيادة المعلم «يعقوب يوحنا» في الجيش الفرنسي).

رابعاً: استجابة المهدي الدرناوي الليبي لنداء الجهاد ضد فرنسا:

حركته الغيرة الإسلامية والحمية الدينية فقام بدعوة مسلمي شرق ليبيا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فأقبل عليه الناس أفواجاً مثل قبائل أولاد علي، والهنادي وغيرهم، كما أنضم إليه سكان القرى التي مر بها وسار بهذه الجموع حتى بلغ دمنهور (1214هـ/ ابريل عام 1799م) وكانت تعسكر بها حامية فرنسية أبادها المهدي عن بكرة أبيها وكان لانتصار الدرناوي الليبي على الفرنسيين الكفار صدى كبير، مما دفع حاكم الإسكندرية العسكري الفرنسي الجنرال «مارمون» الذي أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدي ولكنها هزمت أيضاً؛ فأرسل قوات أخرى من رشيد، ودارت معركة «سنهور» وكانت من أشد المعارك هولاً، ومن أعنف الوقائع التي واجهها الفرنسيون في «مصر» واستمر القتال سبع ساعات، انتهت بانتصار المهدي الدرناوي وانسحاب الفرنسيين إلى الرحمانية. وقيل إن المهدي الدرناوي ادعى المهدية. وقد علق على ذلك أحد المؤرخين بقوله: «واعترف نابليون بأهمية العازل الديني بين الفرنسيين والشعب المسلم وخلص إلى رأي أن الحرب ضد المسلمين تعتبر حرب الاستنزاف ضد الفرنسيين ولا يمكن التغلب عليها».

وبرغم كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم للفرنسيين، وعبر الجبرتي عن هذه المشاعر حين اعتبر سني الاحتلال الفرنسي لمصر أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وعموم الخراب وتواتر الأسباب ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117].

وقد ذكر الأستاذ الدكتور الشناوي جملة حقائق تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر:

- إن الشعب المصري بقيادة علماء الأزهر ينظرون إلى الغزوة الفرنسية على أنها غزوة صليبية تستهدف دينهم، وتستهدف الخلافة الإسلامية.

- إن ما يسمى بثورة القاهرة الأولى والثورة الثانية، لم تكن في الحقيقة إلا حركة جهادية تستهدف إنهاء الحكم الفرنسي النصراني لمصر، وإعادة «مصر» إلى حظيرة الخلافة العثمانية الإسلامية.

- إن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين، وأن مصر حينما كان يحكمها المماليك، إنما كانوا يحكمونها باسم السلطان العثماني المسلم.

- إن سكان الولايات العربية لم ينظروا إلى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب بل نظروا إليه على انه خليفة المسلمين.

خامساً: الانجليز وأطماعهم في مصر:

كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية في مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية ووصلت إلى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الأميرال نيسلون لتعقب الحملة الفرنسية، وفاجأ نيسلون الأسطول الفرنسي وهو رابض في خليج أبي قير بعد أن أنزل قوات الحملة في الإسكندرية، وأشتبك معه في معركة أدت إلى إغراقه في أول أغسطس 1718 م، وقد كان لمعركة أبي قير البحرية نتائج خطيرة من أهمها:

- كبدت البحرية الفرنسية خسارة جسيمة قضت على كل أمل في إمكان إحيائها، فظل الانجليز أصحاب السيطرة في البحار.

- فرض الإنجليز حصاراً شديداً على الشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط حتى أصبح من المتعذر تماماً على فرنسا أن ترسل النجدات إلى جيشها في مصر.

- اضطر الفرنسيون في مصر إلى الاعتماد اعتماداً كلياً في تدبير شؤونهم وسد حاجاتهم في هذه البلاد على مواردها الداخلية وحدها، وكان لذلك أكبر الأثر في اتباع بونابرت لما عُرف «بالسياسة الإسلامية الوطنية» التي كان هدفها توفير أسباب الحياة للفرنسيين وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبي عنهم ولقد اعتمدت السياسة الفرنسية ثلاثة دعائم:

1 - التظاهر باحترام الدين الإسلامي والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم.

2 - محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية.

3 - إنشاء حكومة وطنية من «عقلاء» وأفاضل المصريين.

غير أن هذه السياسة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهداف بونابرت، والدليل على ذلك تلك المقاومة الإسلامية الشديدة التي انطلقت تقاتل جنوده أينما ساروا أو حلوا في الدلتا والصعيد، ثم الثورة التي قام بها المسلمون في القاهرة الأولى (حركة الجهاد الأولى).

وكان بونابرت وقت اندلاع المعركة خارج القاهرة، فعاد إليها مسرعاً ونصب المدافع على تلال المقطم لتعاون مدافع القلعة في إطلاق القنابل على حي الأزهر مركز حركة الجهاد وشعلتها المتأججة.

ويؤخذ من رواية الجبرتي ومن رواية الفرنسيين أنفسهم أنه في اليوم الثاني للثورة (22 أكتوبر) حين شرع الثوار في مهاجمة مقر القيادة الفرنسية العامة بحي الأزبكية كان الجنود الفرنسيون يهاجمون الجامع الأزهر ثم دخلوه بخيولهم وسلبوا ما كان فيه من الودائع وألقوا الكتب والمصاحف على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وظل الجنود الفرنسيون يحتلون الأزهر حتى ذهب وفد من مشايخه إلى بونابرت يطلبون منه الجلاء عنه فكان ذلك نهاية للثورة التي استمرت ثلاثة أيام (21-23 أكتوبر 1798م) وانتقم الفرنسيون من المسلمين في القاهرة وضواحيها أبشع انتقام، فنهبوا ديار حي الأزهر والأحياء المجاورة وأعدموا صغار المشايخ الذين حرضوا على الثورة وصادروا ممتلكاتهم، وأحاطوا القاهرة وضواحيها بالحصون والقلاع والمعاقل، وهدموا في سبيل ذلك الشيء الكثير من المنازل والقصور.

سادساً: العثمانيون وسياستهم الدولية:

كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية قد شجعت الباب العالي على مهاجمة الحملة الفرنسية في مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في العاصمة العثمانية وإلقائهم في السجون. ولم تلبث وزارة الخارجية العثمانية أن دخلت مع انجلترا من جهة ومع روسيا من جهة أخرى في مفاوضات أسفرت عن عقد محالفة دفاعية هجومية بين روسيا وتركيا (25 ديسمبر 1798م) وعن عقد محالفة أخرى بين إنجلترا وتركيا (5 يناير 1799م) وكان العثمانيون يقومون في بلاد الشام باستعدادات جهادية ضد الحملة

الفرنسية في مصر، مما جعل بونابرت يتخذ قراراً بأن يسبق أعداءه في شن هجوم عليهم قبل أن يهاجموه، فكانت حملته على بلاد الشام (فبراير - يونيو 1799م) التي تمكنت من ضرب القوات العثمانية المتجمعة هناك، إلا أنها لم تستطع أن تحطم قوات أحمد باشا الجزار بسبب فشلها في الاستيلاء على عكا. وبعد عودة الحملة إلى مصر انتصر بونابرت في معركة أبو قير البرية 25 يوليو 1799م على قوة عثمانية اتخذت طريقها في رودس إلى مصر، وكان من أهم نتائج هذه الموقعة حصول بونابرت من القائد العثماني مصطفى باشا الذي وقع في الأسر على معلومات تفيد بأن حرباً عامة في أوروبا قد اندلعت ضد فرنسا، فغادر بونابرت مصر سراً إلى بلاده تاركاً قيادة الحملة إلى الجنرال كليبر.

وعلى العموم فبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا أقبل كليبر على تصريف الأمور بكل همة، فأعاد تنظيم الحكومة وقسم القطر المصري إلى ثمانية أقاليم إدارية، وأبقى الدواوين التي أنشأها بونابرت في الأقاليم، كما نظم شؤون تحصيل الضرائب واعتنى بضبط حسابات المديريات المختلفة إلى جانب عنايته بسائر فروع الإدارة والاهتمام بنشاط ديزيه العسكري في الصعيد، إلا أن الضغوطات المطالبة بالعودة إلى فرنسا أثرت على كليبر وبادر بالكتابة إلى الصدر الأعظم في 17 سبتمبر 1799م ينفي رغبة فرنسا في انتزاع مصر من تركيا، ويذكر الأسباب التي جعلت فرنسا ترسل حملتها إلى مصر وهي محاولة إلقاء الرعب في قلوب الانجليز وتهديد ممتلكاتهم في الهند وإرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا، بالإضافة إلى الانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدي المماليك، وتخليص مصر من سيطرة البكوات وإرجاعها إلى تركيا، ثم طلب كليبر من الصدر الأعظم فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر. وقد جرت هذه المفاوضات بالفعل في مدينة العريش وأسفرت عما يسمى باتفاقية العريش (24 يناير 1800م) التي نصت على:

- جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم، وعودتهم إلى فرنسا.
- هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر، ويتم خلالها نقل الحملة.
- الحصول من الباب العالي أو حلفائه - أي الانجليز وروسيا- على بلاده على أن تتعهد تركيا وحلفاؤها بعدم التعرض لهذا الجيش بأي أذى.

غير أن الحكومة البريطانية عندما بلغتها أنباء مفاوضات العريش كانت قد اتخذت موقفاً من شأنه تعطيل اتفاقية العريش عن إبرامها، إذ كانت تخشى من أن يعود جيش فرنسا المحاصر في مصر إلى ميادين القتال في أوروبا، فترجح كفة الجيوش الفرنسية ويختل

ميزان الموقف العسكري في القارة. ولما كان من المعتقد في ضوء رسائل الضباط والجنود الفرنسيين إلى ذويهم في فرنسا، والتي وقعت في أيدي رجال البحرية البريطانية أن الحملة الفرنسية تمضي ببطء داخل الأراضي المصرية فقد فضلت حكومة لندن أن يبقى الفرنسيون في مصر أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب. ولذلك أصدرت في 15 ديسمبر 1799م أوامر صريحة إلى اللورد كيث القائد العام للأسطول البريطاني في البحر المتوسط برفض أي اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصر، طالما كان هذا الاتفاق لا ينص على ضرورة أن يسلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب تسليماً مطلقاً دون قيد أو شرط، فأعد كيث رسالة بهذا المعنى إلى كليبر وصلته في أوائل مارس 1800م.

وأمام هذا التحول المفاجئ لم يجد كليبر مفراً من وقف عملية الجلاء التي كان قد بدأها تنفيذاً لاتفاقية العريش، ثم أسرع في صبيحة يوم 20 مارس 1800م بالزحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيين الذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة، فوقعت معركة (عين شمس) التي امتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحية، وهزم الفرنسيون فيها العثمانيين هزيمة شديدة. وفي أثناء معركة هليوبوليس كان فريق من جيش الصدر الأعظم وبعض عناصر المماليك قد تسللوا إلى داخل القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين، فكانت ثورة القاهرة الثانية التي استمرت مدة شهر تقريباً من 20 مارس إلى 20 أبريل سنة 1800م.

ولم يستطيع كليبر إخماد الثورة إلا بعد التجائه إلى العنف، فدك القاهرة بالمدافع من كل جانب، وشدد الضرب على حي بولاق حيث تركزت الثورة فاندلعت ألسنة النيران في كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكالات والخانات، فلم يجد سكان بولاق مفراً من التسليم، وتلاهم سكان الأحياء الأخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبر العفو الشامل والأمان، ولكنه ما لبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً فأعدم بعضهم وفرض غرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعا، ولم يستثن منهم الطبقات الشعبية الكادحة، وعهد كليبر إلى المعلم «يعقوب» أن يفعل بالمسلمين ما يشاء، ومما يذكر أن بطريرك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته، وكثيرا ما بذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه، ولم يزدد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيين.

ولم يمض على إخماد ثورة القاهرة إلا شهران حتى اغتيل كليبر في 24 يونيو 1800م بطعنة قاتلة من أحد طلبة الأزهر الشاميين، وهو سليمان الحلبي، ومن المعتقد أن السلطات العثمانية كان لها يد في مصرع كليبر. وفي 17 يوليو احتفل الجيش الفرنسي احتفالاً رهيباً بتشييع رفات كليبر، وبعد دفن الجثة أعدم سليمان الحلبي وآلت القيادة العامة للحملة إلى الجنرال مينو باعتباره أكبر ضباط الحملة سناً، وكان هذا القائد من أنصار البقاء في مصر وخط سياسة استهدفت توطين الفرنسيين فيها إلا أن الضغوطات الداخلية والخارجية اضطرته إلى مغادرة مصر بعد الهجوم المشترك الذي قام به الانجليز والعثمانيون على الفرنسيين في مصر. لقد تضافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيين على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم أسطولهم في معركة أبي قير البحرية، وسيطرة الانجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدات والإمدادات إلى جيوش فرنسا في مصر، وانضمام الدولة العثمانية إلى أعداء فرنسا، والانقسام الذي حدث في صفوف الحملة وبدأت بوادره منذ بدأ جيش بونابرت زحفه الشاق من الإسكندرية إلى القاهرة، ثم استفحل أمره بعد رحيل بونابرت وخصوصاً عقب مصرع كليبر وإبان قيادة مينو للحملة، وجهاد الشعب المصري المسلم ضد الاحتلال الفرنسي الصليبي، ذلك الجهاد الذي تمثل في ثورتي القاهرة الأولى والثانية، وفي العمليات الجهادية التي اشتعلت في الدلتا، وفي المقاومة التي اشتدت في الصعيد. ودون أدنى شك كان لجهاد مسلمي مصر للحكم الفرنسي بالغ الأثر في زعزعة أركانه، وفي عجز الفرنسيين عن بلوغ غايتهم وتنفيذ أهدافهم وانهيار آمالهم في تشييد تلك المستعمرة الجميلة التي كانوا يحلمون باتخاذها نواة لإمبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة في مصر.

سابعاً: آثار الحملة الفرنسية على الأمة الإسلامية:

لقد كان لهذه الحملة آثار بالغة، وكانت سبباً من أسباب هزيمة الأمة الداخلية، ولقد صور هذه الآثار على الأمة الأستاذ محمد قطب فقال: (ثم كانت الهزيمة الحربية التي وقعت بالمماليك على يد نابليون في إمبابة إيذاناً بالهزيمة الداخلية؛ هزيمة العقيدة في داخل النفوس. لقد روع المسلمون بمدافع نابليون وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغاً إزاء تلك المدافع الجديدة التي لم يكونوا يعرفونها أو يتصورون وجودها في يد الأعداء. وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً في نفوسهم فتلك هي المرة الأولى التي تنهزم فيها

جيوش المسلمين عن جدارة، وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك قوة حقيقية من العتاد والفن الحربي والمعرفة لا يملكها المسلمون. ولقد كان ممكناً مع ذلك كله ألا يتغير الميزان في داخل النفوس، كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ريثما تتجمع للانقضاض من جديد كما حدث مرات كثيرة من قبل، ولكن الرصيد الداخلي للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد. حقاً لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية، وثارت القاهرة بزعامة العلماء وتأثيرهم الروحي وحدثت بطولات عجيبة. حقاً لقد حدث كل ذلك، ولكنه كان أشبه بالأعمال الفردية الفدائية، أما الكيان الحقيقي للدولة المسلمة المقاتلة التي تنظم القتال وتجيش الجيوش وتقف للغزاة بوصفها (دولة الإسلام)، أما ذلك كله فكان قد ذاب في معركة إمبابة ولم يعد له وجود.

وأحس المسلمون بالهزيمة الحقيقية التي هي أقسى من هزيمة الحرب، فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً غير شريعة الله يحكم به المسلمين، قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين، المرة الأولى التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، يضعه وينفذه قوم غير مسلمين، لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضي الإسلامية أحياناً، ويبقون في بعض الأحيان سنوات، بل وصل بهم الأمر قبل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطئ البحر الأبيض في بلاد الشام - كما مر معنا في القسم الأول من هذا الكتاب - ولكنهم لم يجرؤوا قط في أية مرة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين؛ فقد كانوا في كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ولم يكونوا قط دولة حاكمة مسيطرة في الأرض، وفي هذه المرة كانوا، لأول مرة، دولة حاكمة في ارض الإسلام بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة وذوّبوها في ميدان القتال.

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية؛ هزيمة العقيدة، وبدء انحسارها في عالم الواقع، وانحسارها - من ثم- في داخل النفوس، وفي ظل هذه الهزيمة وتلك، كان الانبهار الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين؛ انبهار بقوة السلاح أولاً، وانبهار بالعلم الغربي الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة، وانبهار بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلى مصر، وانبهار بالتنظيمات التي أحدثتها، وفي كلمة واحدة انبهار بكل ما جاء من الغرب وكلّ ما ليس بإسلام.

وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار الصليبي بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة، لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة في نفوس المسلمين).

لقد كان للحملة الفرنسية أثر بالغ في مصر خصوصاً والشرق عموماً. فلقد استطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في المنطقة، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدور الخطير الذي قام به محمد علي باشا حاكم مصر فيما بعد. لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر وخروجها وظهور شخصية محمد علي باشا في زمن السلطان سليم الثالث الذي تم عزله بسبب أنه أدخل أساليب الفرنجة وعوائدهم إلى الجيش ولم يقف عند الاستفادة بالتقنية الحديثة، مما يشكل خطراً على عقائد الامة، وهذا ما ورد في نص الفتوى التي أصدرها المفتي: (كل سلطان يدخل نظامات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك) لكن يظل الأمر محاطا بالغموض، بل إن دراسة تاريخ السلطان سليم الثالث تظهر لنا إنه كان حريصاً على إحياء فريضة الجهاد كما كانت على عهد أجداده وآبائه، فهل هذا هو السبب وراء المؤامرة التي أطاحت به في جمادى الأولى عام 1223هـ/ 28 يونيو 1808م).

السلطان محمود الثاني

(1223-1255هـ/ 1808-1839م)

تولى الحكم وعمره أربع وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبرية مع سليم الثالث حيث أطلعه الأخير على خطط الإصلاح. إلا أن السلطان الجديد أرغم في البداية على الانحناء أمام رغبات الانكشارية، فأمر بإلغاء كل الإصلاحات حتى يرضيهم إلى أن تحين الفرصة لتطبيق وتنفيذ خطط الإصلاح. وكان محمود يتذرع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الانكشارية الذين هددوا كيان الدولة العثمانية ولكن الفرصة لم تتح له قبل مرور عدة سنوات، خاصة وأن عهده قد امتلأ بالحروب والتطورات الهامة التي استنزفت معظم جهوده وكافة إمكانياته.

أولاً: الحرب مع روسيا:

عقد السلطان محمود الثاني صلحاً مع انجلترا عام 1224هـ/ 1809م وحاول أيضاً عقد اتفاق مماثل مع روسيا ولكنه فشل، واشتعلت نار الحرب بينهما، وهُزم العثمانيون

واستولى الروس على بعض المواقع وعزل الصدر الأعظم ضياء يوسف باشا وتولى مكانه أحمد باشا الذي انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعقدت بين الطرفين معاهدة بوخارست عام 1237هـ/ 1812م والتي نصت على بقاء الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية. وقد مكن الصلح السلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات والقضاء على الثورات والتمردات في الدولة.

ولما علم الصربيون بمعاهدة بوخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية، قاموا بالثورة، غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفر زعماء الحركة إلى النمسا، ولكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين وخضع للسلطة العثمانية وحصل على امتيازات خاصة من الدولة.

إلغاء الإنكشارية:

فسدت طبيعة الإنكشاريين وتغيرت أخلاقهم، وتبدلت مهمتهم وأصبحوا مصدراً للبلاء للدولة والشعوب التابعة لها، وصاروا يتدخلون في شؤون الدولة وتعلقت أفئدتهم بشهوة السلطة وانغمسوا في الملذات والمحرمات وشق عليهم أن ينفروا في برودة الشتاء وفرضوا العطايا السلطانية ومالوا إلى النهب والسلب حين غزو البلاد وتركوا الغاية التي من أجلها وجدوا وغرقوا في شرب الخمور وأصبحت الهزائم تأتي من قبلهم بسبب تركهم للشريعة والعقيدة والمبادئ وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية، وقاموا بخلع وقتل السلاطين من أمثال عثمان الثاني، واستمر الإنكشاريون في عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشرا سائرين في طريق الظلال سادرين في غيهم وطغيانهم، فهم الذين نصَّبوه فأصبح الأمر والنهي لهم، وهم الذين قاموا بقتل السلطان إبراهيم الأول خنقاً حينما حاول التخلص منهم، وهم الذين أربكوا الدولة إذ وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمد الرابع، فقام الإفرنج باحتلال أجزاء من البلاد، فاضطر الصدر الأعظم والعلماء إلى عزله. ثم ثارت الانكشارية في عهد السلطان سليم الثاني ودخلت جيوش الأعداء بعضاً من أراضي الدولة واحتلتها. وخلع الانكشارية السلاطين مصطفى الثاني، أحمد الثالث، مصطفى الرابع، إلى أن قيض الله للسلطان محمود الثاني عام 1241هـ التخلص منهم.

جمع السلطان مجموعة من أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية في بيت المفتي، وقام الصدر الأعظم سليم أحمد باشا خطيباً فبين الحالة التي وصلت إليها الانكشارية

من الضعف والانحطاط وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة، فأقتنع الحاضرون ثم أفتى المفتي بجواز العمل للقضاء على المتمردين. وقد أعلن الموافقة كل من حضر من ضباط الانكشارية من حيث الظاهر وأبطنوا خلاف ذلك ولما شعروا بقرب ضياع امتيازاتهم وبوضع حد لتصرفاتهم أخذوا يستعدون للثورة، واستجاب لهم بعض العوام. وفي 8 ذي القعدة عام 1241هـ بدأ بعض الانكشاريين بالتحرش بالجنود أثناء أدائهم تدريباتهم ثم بدأوا في عصيانهم، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية المتمردين فشجعوه على استئصالهم فأصدر الأوامر للمدفعية حتى تستعد لقتالهم ملوحاً باللين والتساهل في الوقت نفسه خوفاً من تزايد لهيب شرورهم. وفي صباح 9 ذي القعدة تقدم السلطان ووراءه جنود المدفعية وتبعهم العلماء والطلبة إلى ساحة (آت ميداني) حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون الشغب، وقيل إن السلطان سار معه شيخ الإسلام قاضي زادة طاهر أفندي والصدر الأعظم سليم باشا أمام الجموع التي كانت تزيد على 60.000 نفس ثم أحاطت المدفعية بالميدان واحتلت المرتفعات ووجهت قذائفها على الانكشارية فحاولوا الهجوم على المدافع ولكنها صبت حممها فوق رؤوسهم فاحتموا بثكناتهم هروباً من الموت، فأحرقت وهدمت فوقهم وكذلك تكايا البكتاشية، وبذلك انتصر عليهم. وفي اليوم التالي صدر مرسوم سلطاني قضى بإلغاء فئتهم وملابسهم واصطلاحاتهم واسمهم من جميع بلاد الدولة وإعدام من بقي منهم هارباً إلى الولايات أو نفيه، ثم قلد حسين باشا الذي كانت له اليد الطولى في إبادتهم قائداً عاماً (سر عسكر) وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد.

ثم أصبح السلطان محمود بعد ذلك حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية فأستبدل الطربوش الرومي بالعمامة، وتزيا بالزي الأوروبي، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين، وأسس وساماً دعاه وسام الافتخار، فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان.

ثانياً: محمد باشا والي مصر:

كان محمد علي شخصية سيئة السمعة معروفاً بالقسوة وغلظة الكبد، ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التي تتأخر في دفع ما يفرض عليها من المال، فيعسكر هو وأفراد حملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الآمنين، حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة وإن أبهظهم، وكان محباً للعظمة إلى حد الجنون.

جاء محمد علي إلى مصر على رأس فرقة من الروملي لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بمكره ودهائه أن يكسب ثقة العلماء في مصر، وسعى إلى القضاء على منافسيه على ولاية مصر بطرق ملتوية وماكرة وخبيثة حتى أصبح والياً على مصر ابتداءً من 20 ربيع الأول سنة 1220هـ الموافق 18 يونيو سنة 1805م.

وعلى الرغم من أن محمد علي قد أبدى حماساً شديداً لكي يصبح خادماً مطيعاً للسلطان، وأبدى في سبيل ذلك كثيراً من عبارات التذلل والخضوع للسلطان ودولته، إلا أن السلطان كان على وشك أن يدرك أبعاد هذه العبارات، مظهراً بذلك تخوفه من هذا الوالي الجديد، فأمر بنقله عن ولاية مصر، إلا أن تدخل العلماء مرة أخرى قد جعل السلطان يصدر فرماناً آخر بتثبيته على ولاية مصر في 24 شعبان سنة 1221هـ/ 6 نوفمبر 1806م.

ومن هنا بدأ محمد علي في تدعيم مركزه الشخصي وتثبيت الولاية في شخصه، وبالتالي في سلالته. وهناك أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة منها: ما حقيقة الدور الذي قام به محمد علي من أجل المصالح الفرنسية والبريطانية؟ ومن الذي كان خلف القضاء على الدولة السعودية الأولى وعلى ضم الشام إلى مصر؟ هذه أسئلة نحاول حلها من خلال الدراسة التاريخية الواعية.

ثالثاً: المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي يصف محمد علي:

وصف المؤرخ الجبرتي محمد علي بأنه مخادع وكذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لا عهد له ولا ذمة، يضمر السوء واستخدم العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ. ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه ميكافللي، أو أنه تعلم على فكر ميكافللي (صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة) فقيل له -أي محمد علي- مرة: إن ميكافللي ألف كتاباً اسمه الأمير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد أعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود، واسمه أرتين بترجمة هذا الكتاب وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلاً بأنه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لميكافللي على بال.

ولقد علق بعض الكتاب على ذلك بأن هذه هي الصفات التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر، وتلك الصفة من حب الزعامة إلى حد الجنون، وقسوة القلب، والنظر إلى الذات وعدم المبالاة بالإسلام هي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون الإسلام ودولة الخلافة من داخلها.

رابعاً: محمد علي والماسونية:

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل إلى ما وصل إليه محمد علي مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند إلى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره في نفس الوقت لتحقيق أهدافها، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه (لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة) وهذه الصفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلات: لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التي يحتل فيها هو الرجل الثاني دون بقية الفرق العثمانية وأبعدت «خسرو باشا» عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم؟ ولماذا أندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة طاهر باشا قائمقاماً ينوب عن الوالي المطرود ثم يقتل بعد عشرين يوماً؟ ولماذا يطرد الوالي الجديد أحمد باشا بعد توليه بيوم واحد فقط؟ ولماذا يساعد محمد علي خورشيد باشا في تولي الولاية ثم ينقلب عليه؟ وكيف استطاع محمد علي أن يفي برواتب الجند وبخاصة بعد استيلاء المماليك في الصعيد على مخصصات الأهالي هناك؟ ولماذا ولماذا؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض!

وتشير كثير من الأدلة إلى أن هذه القوة - التي لم تكن ظاهرة - هي الحركة الماسونية التي انبعثت في مصر سنة 1798م علي يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلاً في القاهرة سمي محفل إيزيسي، وأوجدوا له طريقة خاصة به هي الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة. وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم أنحل هذا المحفل رسمياً في أعقاب اغتيال كليبر سنة 1800م، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية.

ويشير المنشور الأول الذي وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه (قولوا لهم - أي المصريين - إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط) ويبدو تزعم الحملة الفرنسية للفكر الماسوني واضحاً منذ بدايتها ولقد حاولوا فرض العادات الخبيثة التي استهجنها المسلمون في مصر كالبغاء والسفور وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علني واضح، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية.

وتوحي بعض الدلائل على أنهم - أي الفرنسيين - قد نجحوا في ضم المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار إلى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر سنة 1800م، فبعد أن هرب الشيخ حسن العطار إلى الصعيد في أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفي نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية، وقد اندمج إلى حد كبير في علومهم، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم. ولقد دعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد. وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي يعتمد عليها محمد علي في خطواته التجديدية في مصر وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين محمد علي والمحفل الماسوني المصري الذي تأسس إبان الحملة الفرنسية.

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع محمد علي بالأفكار الماسونية التي كان مهيأ لها بحكم تكوينه الطبيعي فينقل عنه قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر: (ثقوا أن قراري لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي، قد تقولون إن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها).

وقد شهد عصر محمد علي تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة 1830م، على الطريقة الاسكتلندية وغيرها كثير.

إن الماسونية هي القنطرة التي عبرت عن طريقها الصهيونية العالمية، إذا أسسها تسعة من اليهود بغية الوصول إلى تحقيق الحلم الصهيوني المتمثل في إنشاء حكومة يهودية عالمية تسيطر على العالم، فأعدت خططها وبراجها المحققة لأهدافها وأطلقت على نفسها اسم : (القوة الخفية) واتخذت في ذلك السرية والعهود والمواثيق التي كانت تأخذها على العضو المنضم إليها وسيلة ضغط عليه بحيث يصبح آلة توجهه كما تريد. وقد استشرى فساد الماسونية في المجتمعات الغربية واستطاعت أن تجذب الكثير من الأعضاء عن طريق شعارها الظاهري: (الحرية، الإخاء، المساواة) فالماسونيون هم أيدي اليهود التنفيذية لمخططات البطش ومؤامرات الاضطهاد والإعدام والسحق السارية المفعول على جميع شعوب العالم.

والماسونية آلة صيد بيد اليهود، يصرعون بها كبار الساسة، ويخدعون الأمم الغافلة والشعوب الجاهلة. وهي خطر كامن وراء الرموز والألفاظ والطلاسم، وخنجر غمده

اليهود في قلب الشعوب، وأقاموا لها عدواً من داخلها وعلة من وسطها. الماسونية عقرب لدغ الشعوب قروناً، متجلياً رداء الحرية والمساواة والإخاء.

فالماسونية ما هي إلا يهودية الأصل والمنبت، ومادامت كذلك فهي تجيد المكر والخداع، وتتقن أساليب التشكيك في العقائد، والنيل من الأنبياء والرسل عليهم السلام، وتشيع الإلحاد والكفر في ربوع الأرض، وتدعو إلى الإباحية والفساد والرجس، واليهود تاريخهم معروف في تحريف الكتب السماوية، وقتل الأنبياء، وإطفاء كل باقة من نور، إنهم أتباع الشيفات، وعبدة الذهب وأصحاب الاحتكار وجمع الأموال وغير ذلك من الرذائل التي اتصفوا بها. ولم يعد اليوم خافياً على أحد أن الماسونية منظمة يهودية يُراد منها تخريب العالم اجتماعياً، وأخلاقياً، ودينياً، وتمتد أذرعتها المسمومة إلى كل المبادئ والقيم بغية تدميرها والقضاء عليها.

لقد انتشرت المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التي لاتكل ولا تمل ولقد استطاعت المحافل الماسونية الفرنسية في مصر أن تجعل فرنسا تحتضن محمد علي. يقول الأستاذ محمد قطب: (واحتضنته احتضاناً كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها، فأنشأت له جيشاً مدرباً على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان باشا الفرنساوي).

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى دعم محمد علي لتتحقق لها أطماعها المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العثمانية، وزرع خنجرها المسموم في قلب هذه الدولة، ولذلك أنشأت لمحمد علي أسطولا بحرياً متقدماً متطوراً، وترسانة بحرية في دمياط، والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر.

لقد قام محمد علي بدور مشبوه في نقل مصر من انتمائها الإسلامي الشامل إلى شيء آخر يؤدي بها في النهاية إلى الخروج عن شريعة الله، وكانت تجربته قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وغيره.

إن المسلم الحق لا يمكن أن يقوم بمثل هذا الدور لا واعياً ولا مستغفلاً، لأن إسلامه يمنعه أن يتلقى التوجيه من أعداء الإسلام.

لقد كان أعداء الإسلام يريدون القضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب العالم الإسلامي مع الاهتمام الخاص ببلد الأزهر ليقوم بتصدير أفكارهم إلى بقية الشعوب

الإسلامية، فأما القضاء على الدولة العثمانية فقد ساهم في إضعافها وإهدار طاقاتها، وإسقاط هيبتها والتعدي على حرماتها وأما التقارب مع الأعداء والسير في فلكهم الفكري والحضاري والانسلاخ التدريجي عن الانتماء العقدي والفكري والأخلاقي فقد قطع فيه شوطاً مدحه عليه حلفاؤه من الماسون الفرنسيين والبريطانيين وانهزم أمام الغزو الفكري المنظم وقام بتنفيذ سياسة الابتعاث بإرسال الطلاب الشبان إلى أوروبا ليتعلموا هناك، وكان هذا من الأمور الخطيرة المنافذ التي دخل التوجه العلماني من خلالها، فدخل ساحة التعليم ومن ثم ساحة الحياة في مصر الإسلامية، وأهمل الأزهر وشيوخه وعلماءه، واهتم بإرسال الشبان الصغار بأعداد متزايدة إلى أوروبا وهم في سن المراهقة، غير محصنين بشيء لينغمسوا في الشهوات، ويتأثروا بالشبهات ثم يرجعوا إلى بلادهم ليكونوا رأس الحربة المتجهة لصالح الغرب، لقد أرسل معهم مع البعثات أئمة يؤمون الطلاب في الصلاة ولكن ماذا عمل الأئمة؟ لقد كان رفاعة رافع الطهطاوي واحداً من أولئك الأئمة ولكنه عاد وهو واحد من دعاة التغريب، وعندما استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين؛ أشاح عنهم في ازدراء ووسمهم بأنهم (فلاحون) لا يستحقون شرف استقباله.

ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار (باريس) ودعا فيه إلى تحرير المرأة وإلى السفور، وإلى الاختلاط، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم.

لقد استغرقت عملية الانتقال التدريجي ما يقرب من قرن من الزمان، ولكنها كانت عملية مستمرة لا تتوقف، بل تتوسع على الدوام.

لقد كان محمد علي ثعلباً ماكراً همه نفسه وأولاده من بعده ولذلك قام بأعمال شنيعة، وأفعال قبيحة في إضعاف الأمة، والقضاء على شوكتها وتنفيذ مخططات فرنسا وبريطانيا، وحرص على أن يجمل صورته في أعين الغرب ويقفوا آثارهم في التحديث بل ويفكر كما قال عن نفسه (بعقل إفرنجي وهو يلبس القبعة العثمانية).

لقد قام محمد علي نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الإسلامي في كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام، والخلافة العثمانية، مما كان لها الأثر في تهيئة العالم الإسلامي للأطماع الغربية.

خامساً : محمد علي وضربه للإسلام في مصر:

بعد أن نجح محمد علي في توطيد نفسه في الحكم وأحاط نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروم والأرمن وكتبة من الأقباط واليهود، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكاماً للأقاليم، وكان في كل ذلك مستفزاً لجموع المسلمين المصريين ومعبراً عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم، وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين، وصف الجبرتي ذلك بقوله: (فتح بابه للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه).

وسلك محمد علي وأتباعه من غير المسلمين سياسة من أبرز علاماتها الظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصري، فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة، أو دفع ضريبة بديلة، وحرم عليهم أن يأكلوا شيئاً من كد أيديهم، وأبطل التجارة، وزاد في أسعار المعايش أضعافاً مضاعفة، وفرض الضرائب التي لا يطيقون دفعها، وجعل كل نشاط اقتصادي يؤول إليه، ونقم على الناس، وارجع الجبرتي ذلك إلى ما يتسم به محمد علي من «داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم». وقد نتج عن هذه السياسة كره الفلاحين الشديد لمحمد علي وأعوانه، وهروبهم من الأراضي الزراعية، وترك قراهم فراراً من السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك في جيشه، فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين في عام واحد هو عام 1831م ستة آلاف فلاح.

أما في المدن وبخاصة في القاهرة فيذكر الجبرتي أن محمد علي حين كلف الناس بتعميرها (اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل وهي السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام).

لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب على مصراعيه لدخول مصر والهيمنة على اقتصادها، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية، وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً، وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر على الأسواق الأوروبية من الناحية الاقتصادية وبالتالي السياسية، إلى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي، وأوقف مناهج التعليم القائمة على الدين تنفيذاً

لسياسية نابليون الماسونية، وهو أمر أكده المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي في قوله: (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر).

لقد حقق الاستعمار الأوروبي هدفه في الاستفادة من المنشآت والإصلاحات المادية التي قام بها دميتهم محمد علي، أما شعب مصر المسلم فقد سيطر عليه اليأس ودفع ثمناً باهظاً يفوق حجم كل إصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التي صقلها الإسلام والتي ميزت دوره خلال العصور الإسلامية.

وفتح باب الدعوة إلى الوطنية والقومية ومارس سياسة التضييق على دعاة الفكر الإسلامي من العلماء والمشايخ فكان هذا الاتجاه مسايراً لمساعيه الرامية إلى الاستقلال بمصر وبالتالي إبعادها عن الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية، وقد لقي في اتجاهه هذا عوناً من المحافل الماسونية حيث يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها.

ومن أبرز الذين عاونوه في هذا الاتجاه الشيخ حسن العطار سنة 776هـ/ 1835م الذي تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسوني المصري، فقد كان العطار يري أن البلاد (لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها) وكانت وجهته في هذا التغيير هو الاتجاه الكامل إلى الثقافة الأوروبية بعد ان عجز - في رأيه- المشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل.

وتبع العطار في اتجاه تلميذه رفاعة الطهطاوي (1801-1873م) حيث ابتعثه محمد علي إلى فرنسا خمس سنوات (1826-1831م) عاد بعدها لنشر ما يزكي الفكرة الوطنية وغيرها من الأفكار الاجتماعية التي عايشتها فرنسا والتي لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الإسلامي، وقد بدت هذه الأفكار في العديد من القصائد التي نظمها وكذلك الكتب التي ترجمها بعد توليه الإشراف على مدرسة الألسن، لقد تأثر الطهطاوي بتيارات الفكر الأوروبي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الإسلامي، حيث أبدى في عديد من جوانب فكره، وفي كافة مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل، لقد تبنى ما دعا إليه نابليون إبان حملته الشهيرة، ولقد أظهر طهطاوي تأثراً وإعجاباً بآراء مونتسكيو، وتشبعه بالفكر الماسوني.

وتبع الطهطاوي كثيرون ممن وصلوا الدعوة إلى الوطنية وإلى ضرورة الاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية من أمثال (علي مبارك) و (إبراهيم أدهم) و (صالح مجدي) و (محمد

عثمان جلال) و (عبد الله أبو السعود) و (عبد الله فكري) وغيرهم، وواصل الجميع هجومهم على التيار الإسلامي من كافة الجوانب.

سادساً: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصراعها مع الدولة العثمانية:

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة 1115هـ/ 1703م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلومتراً، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب.

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغ وتميز، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وتتلمذ على كتب ابن تيمية في الفقه والعقائد والرأي وأعجب بها أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم، وابن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفي.

ورحل في طلب العلم إلى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء. وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر بآرائه في العراق ثم رجع بعد ذلك إلى نجد.

وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء في حريملاء وانتقل بعد ذلك إلى بلدته العيينة وتلقاه أميرها بالترحيب وشجعه على أمر الدعوة، فأقام الشرع ونفذ الحدود، وهدم القباب، ولم يستمر في حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الإحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فخرج ماشياً على الأقدام إلى الدرعية.

تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد وكان هذا التحالف على أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ، واستمر على هذا الحال يعلم الناس ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو إلى إزالة المنكر وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده، وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر

يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ دعوته للقاصي والداني، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجموع المجاهدين من الدرعية إلى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها في الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة الناس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكين بعد جهاد طويل، وقد كان له نظر سياسي ثاقب، وخبرة واسعة في أمور الحرب والسياسة.

واستمرت الحروب بين أنصار الدعوة وأعدائها سنين عديدة، وكان النصر حليف أصحاب الدعوة في أغلب المواقف وكانت القرى تسقط واحدة تلو الأخرى وفي عام 1178هـ/ 1773م فتحت الرياض بقيادة الأمير عبد العزيز ابن محمد بن سعود، وفر منها حاكمها السابق دهام بن دواس، وكان حاكماً ظالماً غشوماً، اعتدى على الدعاة مراراً، ونقض العهود التي أبرمها مع القائمين على الدعوة، وبعد فتح الرياض اتسعت رقعة الأرض التي تخضع للدعوة، ودخل كثير من الناس في الدعوة مختارين، فقد أزيلت العوائق التي كانت تصدهم عنها، وانفرجت الأمور بعد ضيق، وجاء اليسر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهدأت الأحوال، وأمن الناس في ظل الدولة الإسلامية الفتية، التي حرم الناس من نعمة الأمن مدة غيابها.

وبعد وفاة الشيخ محمد عبد الوهاب واصلت الدعوة مسيرها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلى الحجاز، التي كان يسيطر عليها الشريف غالب بن مساعد والذي شرع في شن هجمات على السعوديين، دينياً وعسكرياً. ودام الصراع بينهما حتى عام 1803م حين دخل السعوديون مكة من غير أن يتعرضوا لأية مقاومة من جانب الشريف غالب، الذي آثر الهروب إلى جدة وبعد عامين ضم السعوديون المدينة المنورة.

وامتد نفوذ الحركة السلفية على معظم الجزيرة العربية وشعرت بريطانيا بخطورة هذا النفوذ على مصالحها. لقد أصبحت الدولة السعودية الأولى يمتد نفوذها على الخليج العربي والبحر الأحمر، ودخل القواسم في الخليج العربي تحت نفوذها ووصل نفوذها إلى جنوب العراق وأصبحت تؤثر على الطريق البري بين أوروبا والشرق، وفوق هذا وذاك

فإن الأسس الدينية التي ترتكز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها حيث كان العداء للنفوذ الأجنبي في المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة. لقد استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية توجيه ضربات موجعة لأسطول الانجليز في عام 1806م وأصبحت مياه الخليج تحت سيطرتهم، وبلغت الدولة في زمن سعود بن عبد العزيز الأوج من الناحية السياسية إذ وصلت كربلاء في العراق، وإلى حوران في بلاد الشام، وخضعت لها الجزيرة كاملة باستثناء اليمن.

سابعاً: المؤامرة ضد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

فكر شياطين الإنس من أبناء أوروبا في النتائج التي يصلون إليها لو استمرت الدولة السعودية الأولى ورأوا أن ذلك يقضي على مصالحهم في الشرق عموماً ولذلك لابد من تدمير هذه الدولة، فسلكوا مسالك شتى للقضاء على نفوذ الدعوة السلفية منها:

أولاً: تأليب الرأي العام داخل ديار الإسلام ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات على أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها، وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين، أتت من سدنة القبور، أتت من المستفيدين من صناديق النذور، أتت من الذين يعيشون على الأطعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات، وأتت أيضاً من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها بل وفي العالم الإسلامي أجمع، حدث كل ذلك بعد أن أشاع الإنجليز والفرنسيون وأعداء الإسلام الفتاوى التي استصدروها من علماء السوء بفساد ما يدعو إليه أتباع محمد بن عبد الوهاب.

ثانياً: الدس والوقيعة بين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقيادة الدولة العثمانية: فلقد ألقى الإنجليز والفرنسيون وغيرهم في روع السلطان محمود الثاني أن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تهدف إلى الاستقلال بجزيرة العرب، والانفصال عن الخلافة العثمانية، ثم توحيد العالم العربي، وانتزاع لواء الخلافة والقيادة من الدولة العثمانية، وإقامة خلافة عربية، واستجاب السلطان محمود الثاني لوشايات الأعداء وما كان له أن يفعل ذلك، وكان اللائق به أن يشك في هذا النصح الكاذب ويرسل من أمناء

الدولة من يتحقق في الأمر، ولم ينتبه سلطان المسلمين إلى خطورة تصديق هذا الخبر المدسوس على حركة إسلامية صادقة وتجاوب مع اقتراحات الأعداء بوجوب القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها، وتكلف الدولة الكثير من الأموال والرجال للقضاء عليها.

وضعت الدولة العثمانية خطتها لمحاربة الدولة السعودية الأولى ورأت أن تلقي عبء هذه المهمة على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة، هادفة بذلك إلى غرضين: الأول القضاء على التوسع السعودي في المشرق العربي، والآخر: إضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم حتى يظلوا ضعافاً خاضعين للدولة خضوعاً تاماً، فاتجهت أول الأمر إلى والي بغداد، إذ كان أقرب الولاة إلى نجد، إلا أن ذلك الوالي كان مشغولاً بالارتباكات المحلية في ولايته، وكان جيشه من الضعف بحيث لا يقوى على مجابهة السعوديين، وفشل عدة مرات في صد هجماتهم على حدود العراق، فاتجهت الدولة إلى والي الشام لعله ينجح فيما فشل فيه والي والعراق، فكان نصيبه من الفشل أفدح من زميله، ولما يئست الدولة من قدرة ولاتها في بغداد والشام ولت وجهها شطر مصر فطلبت من واليها محمد علي عام 1807م أن يقوم بحملة على بلاد العرب «لتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما» من أيدي السعوديين، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال في جزيرة العرب. ولكن محمد علي لم يلب طلب الدولة إلا في عام 1811م بعد تخلصه من بكوات المماليك في مذبحة القلعة.

إن أتباع الدعوة السلفية لم يطلبوا الخلافة ولم يبدوا اعتراضهم على التبعية لها، ولكن الخلاف قد انحصر في أمرين أساسيين، الأول هو مطالبة السلفيين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل ما فيه خروج عليه، والأمر الثاني هو شعور الدولة العثمانية بالحرج والضعف أمام سيطرة الوهابيين على المدن المقدسة في الحجاز حيث أدركوا أن في ذلك إسقاطاً لهيبتهم ومكانتهم السياسية.

وقد بين الجبرتي أن موقف الوهابيين من وفود حجيج الشام «بألا يأتوا إلا على الشرط الذي اشترطوه عليهم وهو أن يأتوا بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم» كما ذكر موقفاً مماثلاً من موكب الحج المصري.

واقتصر مرسوم السلطان العثماني القاضي بطلب الحرب مع السعوديين من محمد علي، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحي وتشجيع من الإنجليز، على «استخلاص

الحرمين والوصية بالرعية والتجار»، وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجدداً الاقتصار على تخليص الحرمين الشريفين. وفي أعقاب نجاح القوات العسكرية في الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أرسل السلطان محمود الثاني مرسوماً إلى مصر يقرأ في المساجد باستعادته للحرمين الشريفين، وهو أمر يوحي بأن السلطان العثماني ليس له هدف آخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية.

كان من الممكن أن تنتهي هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت قوات محمد علي على مدن الحجاز، وعين محمد علي شريفاً جديداً على منطقة الحجاز التي اضطر للسفر إليها وقام بطرد الشريف غالب الذي ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، ولكن محمد علي وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصلح وكذلك ضمّن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه الجبرتي فيقول: (وأما الصلح فلا نأباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب إلى وقت تاريخه، وان يأتي بكل ما أخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التي كانت بالحجرة الشريفة، وكذلك ثمن ما استهلك منها وأن يأتي بعد ذلك ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبى ذلك ولم يأت فنحن ذاهبون إليه).

ثامناً: حقيقة حملة محمد علي على الحجاز ونجد:

إن الحرب بين محمد علي وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالإسلام، كما لم تكن حرباً عربية عربية كما يحاول البعض أن يصفها، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة اسلامية ليست لها أية أطماع سياسة ولكنها أبدت غيرة وحرصاً على العودة إلى المبادئ الأساسية للدين الإسلامي وهي القوة السعودية، كما أظهرت حماساً في دفع خطر المستعمرين (الكفار) عن الديار الإسلامية، أما القوة التي حاربتها والمرسلة من قبل والي مصر، والتي لم تكن مصرية بأي صورة من الصور، فأغلبها من الأرناؤوط وبعض الأتراك والنصارى وبعض الضباط الفرنسيين، ولا يحمل أغلب قادتها من الإسلام سوى الاسم، ويصور لنا المؤرخ الجبرتي طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع، وهو شاهد عيان، على هزيمة هذه القوات في البداية أمام أتباع الدعوة السلفية فيقول: (أين لنا النصر..وأكثر عساكرنا على غير الملة! وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبنا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة، لاي خطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (يقصد الوهابيين)

إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف أمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة، أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته. وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفاً غير مختونين، ولما وصلوا بدراً واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبوهم وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم).

إن محمد علي لم يكن متقيداً بشرع الله في حربه بل كان مخالفاً للشرع متعدياً على حدود الله تعالى غير مبال بأحكام الإسلام فهذا جيشه يقتل ويدمر ويأخذ الأموال ويهتك الأعراض من المسلمين الموحدين.

فهذا علي في موقعة الجمل يقول لأصحابه: (لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ومن ألقي سلاحه فهو آمن).

وقال: (وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وإن الرجل ليتناول المرأة بالجريدة أو الهراوة فيعيّر بها هو وعقبه من بعده).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: (شهدت صفين وكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يقتلون مولّياً، ولا يسلبون قتيلاً).

إن السلطان العثماني كان يكفيه خضوع الحجاز لحكمه، ومهاجمة الدرعية لم تكن مطلباً ملحاً أو ضرورياً للدولة العثمانية، وكان محمد علي متشدداً في شروط الصلح مما يدل على حرصه على استمرار الحرب، لأن هدفه من هذه الحرب خدمة أطماعه التوسعية في إطار ما تسمح به أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية تشكل خطراً بالغاً على الوجود البريطاني في المنطقة بأسرها سواء في البحر الأحمر أم في الخليج العربي أم في وصولها إلى الطريق البري عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقي لمصالحها في الشرق، ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة صليبية في ثوب إسلامي يعد وصفاً حقيقياً.

عندما انهزم طوسون بن محمد علي أمام الأمير عبد الله بن سعود وتحطم نصف جيشه، خرج محمد علي بنفسه إلى الحجاز عام 1813م وقبض على شريف مكة (غالب بن

مساعد) واتهمه بالتآمر مع السعوديين، وصادر كل ما يملك من أموال وأثاث ومتاع، وبذلك أصبح شريف مكة من موظفي محمد علي في الحجاز. ولم يلبث أن انتصر محمد علي في يناير 1815م على القوات السعودية في موقعة بسل، وهي الموقعة التي يعتبرها البعض من أكبر وقائع الحرب الوهابية، بل من أهم المعارك في تاريخ مصر الحربي.

ولم يمكث محمد علي في الجزيرة العربية ليتابع النصر الذي أحرزه، بل عاد إلى مصر تاركاً ابنه طوسون بالحجاز، وسرعان ما تمكن طوسون من هزيمة السعوديين هزيمة جديدة لأول مرة، وأسرع بالزحف على القسم الشمالي من نجد فبلغ في زحفه مدينة الرس، ثم احتل الشبية وأصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحاً أمامه وأسرع الأمير عبد الله بطلب فتح باب المفاوضات حقناً للدماء وحماية للمدن والقرى، ودارت المفاوضات بين الطرفين على مشروع الصلح بالشروط التالية:

1- احتلال القوات المصرية الدرعية.

2- أن يضع الأمير عبد الله نفسه تحت تصرف طوسون باشا، فيسافر إلى الجهة التي يريده أن يسافر إليها.

3- أن يؤمن الأمير عبد الله سبل الحج، وأن يكون خاضعاً لحكم المدينة من قبل محمد علي إلى حين الموافقة على الصلح.

4- ألا تصبح هذه الشروط - في حالة الاتفاق عليها - نافذة المفعول إلا بعد إقرارها من محمد علي.

غير أن هذه الشروط لم تقبل من جانب الأمير عبد الله، وقرر إرسال وفد إلى مصر للتفاوض مع محمد علي مباشرة حول شروط الصلح، إلا أن الوفد فشل في مسعاه بسبب تشدد الباشا. وتأهب السعوديون للحرب والقتال، فأرسل محمد علي حملة جديدة عام 1816م بقيادة ابنه إبراهيم باشا.

وزحف إبراهيم باشا بقواته من الحجاز صوب نجد، ونجح في الاستيلاء على مدن عنيزة وبريدة وشقراء، وإخضاع كل منطقة القصيم، واتبع إبراهيم في زحفه سياسة الملاينة مع القبائل وهي سياسة كان من شأنها استمالة عدد كبير من أهل نجد، إذ كان يعقد المجالس دائماً ويمنح الهبات للناس، واتخذ في بداية الأمر أسلوبا استعطف به القبائل فمنع النهب والسلب، واستطاع بخبرائه العسكريين الفرنسيين أن يواصل زحفه حتى الدرعية

التي ضرب الحصار عليها لمناعتها، وكان حصاراً طويلاً استمر من 6 إبريل إلى 9 سبتمبر 1818م، وانتهى باستسلام الأمير عبد الله بن سعود ودخول إبراهيم الدرعية، حيث أرسل من هناك الأمير السعودي في حراسة مشددة إلى مصر، ثم أرسل من القاهرة إلى اسطنبول، لقد شهر بالأمير عبد الله في شوارع اسطنبول ثلاثة أيام كاملة ثم أمر بإعدامه شنقاً.

إن الذي دعا إلى الصلح هم أهل الجزيرة من خلال رسالة وجهها الشيخ أحمد الحنبلي إلى طوسون، لقد بينوا أنهم يعترفون بإمارة السلطان العثماني وأنهم لا يخرجون عن دولة الخلافة فلم إذن كان الإصرار على توجيه القوات إلى جزيرة العرب؟ وهكذا أزهقت أرواح المسلمين بأيدي بعضهم البعض، نتيجة كيد الأعداء. لقد قام أهل الجزيرة بمساندة مسلمي مصر عندما احتلها الفرنسيون فلماذا هذا الأعتداء المتعمد؟ إن محمد علي استطاع بواسطة الزعماء الذين ينسبون إلى الإسلام أن يقنع كثيرا من عوام الناس بأنهم يفعلون ذلك امتثالاً لأمر خليفة رسول الله، الذي له عليهم حق السمع والطاعة وأن الهدف من ذلك منع جزيرة العرب من الانفصال عن جسد دولة الخلافة.

إن قضية الولاء والبراء كانت غائبة تماماً عن محمد علي، بدليل أنه أعطى ولاءه لأعداء الإسلام وسمح لهم بأن يقودوه ويقودوا الأمة معه إلى حتفها، وهذه نتيجة عملية لوصول تاجر دخان ظل غير معروف النسب إلى سدة الحكم في بلاد المسلمين.

لقد كانت سعادة بريطانيا كبيرة عندما علمت بسقوط الدرعية، عاصمة الدولة السعودية الأولى، في أيدي قوات إبراهيم باشا، فقد كانت هي الدولة السلفية التي دعمت القواسم في جهادهم ضد بريطانيا في الخليج العربي، مما يعني تهديد المصالح البريطانية في الهند كما أسلفنا، وهنا يجدر بنا أن نسأل، خاصة في تلك الأحداث التي عاشها العالم الإسلامي في تاريخه الحديث، لنقول: لو أن جيوش محمد علي وجيوش الدولة العثمانية تعاونت مع الدولة السعودية الأولى بدلاً أن تحاربها، لتقفا معاً في وجه الأطماع الأوروبية بشكل عام، وبريطانيا بوجه خاص، إنه لو تم ذلك لتغير وجه التاريخ، خاصة وأن الدولة السعودية دولة مسلمة أقامت دعائمها على المبدأ السلفي الصحيح، والعالم الإسلامي في تلك الفترة في أمس الحاجة إليها، وعلى أية حال فلقد أدركت بريطانيا مدى الاستفادة من هذه الظروف، فأسرعت بزف التهاني إلى إبراهيم باشا، من مبدأ الاحتواء في ضوء المصالح الذاتية لها، وبعثت بالكابتن جورج فورستر سادلير لتقديم التهنئة لإبراهيم باشا لاستيلائه على الدرعية، ولمحاولة إيجاد قاعدة يمكن من خلالها التنسيق بين قوات الباشا

البرية، والقوات البريطانية البحرية للقيام بعمل حربي مشترك ضد القواسم، أتباع الدولة السعودية الأولى.

إن العلاقة بين بريطانيا ومحمد علي قديمة، وفي بداية حكمه دخل في مفاوضات معهم استمرت أربعة أشهر أكد فيها محمد علي جديته ورغبته المخلصة في الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم وهو ما يؤكده تقرير فريزر الذي تولى التفاوض معه، الأمر الذي أدى - بعد اقتناعهم بذلك - إلى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك. وقد تضمن التقرير الذي أعده قائد الحملة فريزر الذي تفاوض مع رسل مع محمد علي والذي أرسله إلى الجنرال مور في 16 أكتوبر سنة 1807م أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه: (أرجو أن تسمحوا لي بأن أبسط لكم ليكون...موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجر جنرال «شريروك» والكابتن «فيلوز» أثناء قيامهما بمهمتهما لدى سموه. ولدي ما يجعلني أعتقد أن هذه المحادثة، ومن اتصالات خاصة كثيرة أخرى كانت لي معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه. لقد أبدى محمد علي باشا والي مصر رغبته في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدناه بإبلاغ مقترحاته إلى الرؤساء في قيادة القوات البريطانية كي يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها. ويتعهد محمد علي من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أي جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الإسكندرية من طريق البحر بعد الاحتفاظ بالإسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى، ولكنه لامناص له من الانتظار أن تعاونه انجلترا بقواتها البحرية إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفناً حربية. ويوافق محمد علي باشا في الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التي تقف على بعد من الإسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها).

وقد علق القنصل الفرنسي دروفتي على ما بلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد علي والانجليز الذي هو من نوع معاهدة بأن (مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض التي توخاها الانجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة).

ولم يشأ الانجليز الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الاتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم الإسكندرية وتسليمها إلى باشا مصر حيث رأت بريطانيا ضرورة التريث في ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية، لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال

عنها في وقت كانت الدبلوماسية الانجليزية لها مصالحها الكبرى مع دولة الخلافة والاستفادة منها ومن عميلها الجديد لبسط نفوذها على المنطقة إن أمكن.

تاسعاً: ثورة اليونان:

كانت أوروبا حريصة على تمزيق الدولة العثمانية واتخذت لذلك الهدف وسائل متعددة منها؛ إثارة الفتن الطائفية والدينية وتفجير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي، وكانت بلاد اليونان تشكل جزءاً من ديار الإسلام، ويؤذن في مدنها وأريافها للصلوات الخمس في اليوم والليلة لقرون عديدة وكانت تحكم بشريعة الإسلام، وكان ذلك لا يروق لزعماء النصارى سواء من اليونان أو غيرهم من الدول الأوروبية، ولذلك شرعوا في تأسيس جمعيات سرية في داخل بلاد اليونان وفي روسيا وغيرها هدفها إحياء الإمبراطورية البيزنطية القديمة على أن تكون تحت إدارة البطريركية الأرثوذكسية الرومية في اسطنبول، ولو أصبح كثير من البطارقة والقساوسة ورجال الدين أعضاء أصليين في هذه الجمعيات السرية المناهضة للدولة العثمانية، وقام رجال الدين باستخدام نفوذهم على الشعب وتحريكهم للثورة ضد الدولة العثمانية، وكان القساوسة ورجال الدين على صلات وثيقة بزعماء الدول الأوروبية وخصوصاً روسيا، ونجد وثيقة تاريخية هامة تدل على هذا الاتصال من أجل التنسيق والتعاون على تدمير الدولة العثمانية وشعبها ومقوماتها:

(وهذا نص رسالة البطريرك «جريجوريوس» إلى قيصر روسيا يبين له فيها كيفية هدم الدولة العثمانية من الداخل):

(من المستحيل سحق وتدمير الأتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية، لأن الأتراك العثمانيين ثوريُّون جداً ومقاومون، وواثقون من أنفسهم، وهم أصحاب عزة نفس واضحة، وهذه الخصال التي يتمتعون بها إنما تنبع من ارتباطهم بدينهم، ورضائهم بقضاء الله وقدره وتشبعهم بهذه العقيدة، وأيضاً من قوة تراثهم وتاريخهم، وطاعتهم ومؤازرتهم لسلطانهم وقادتهم واحترامهم لكبارهم.

الأتراك العثمانيون أذكياء، وهم مجدّون مجتهدون متجاوبون مع رؤسائهم الذين يوجهونهم ويقودونهم في الطريق الايجابي الصحيح مما يجعلهم قوة هائلة يخشى منها؛ فهي تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة.

إن كل مزايا الأتراك العثمانيين هذه، بل وبطولاتهم وشجاعتهم إنما تأتي من قوة تمسكهم بدينهم وارتباطهم بأعرافهم وتقاليدهم وصلابة أخلاقهم ، ولذا:

أولاً: لابد من كسر شعور الطاعة عندهم تجاه سلطانهم وقادتهم وتحطيم روحهم المعنوية وروابطهم الدينية؛ وأقصر طريق لتنفيذ هذا، تعويدهم التعايش مع أفكار وسلوكيات غريبة لا تتواءم مع تراثهم الوطني والمعنوي.

ثانياً: لابد من إغراء الأتراك العثمانيين لقبول المساعدات الخارجية التي يرفضونها من إحساسهم بعزتهم – وتعويدهم عليها؛ حتى لو أدى ذلك إلى إعطائهم قوة وقدرة ظاهرتين فقط لمدة محدودة.

وفي اليوم الذي تهتز فيه معنوياتهم ، ستهتز قدراتهم الذاتية، فهذه المعنويات والروابط هي التي تدفعهم نحو النصر، إضافة إلى قدراتهم الأخرى وكثرتهم العددية – التي تبدو في الشكل أكبر مما هي عليه في الواقع في السيطرة والحكم، ووجودهم في المجتمع الدولي.

كذلك يمكن هدمهم وتدميرهم بإعلاء أهمية وقيمة الأمور المادية في تصوراتهم وأذهانهم – أي إفسادهم بالإغراءات المادية، فإنه ليس بكاف إحراز انتصارات عليهم في ميدان الحرب العسكرية فقط، ولكن العكس هو الصحيح؛ لأنه إذا اتبع طريق الحرب – وحده- لتصفية الدولة العثمانية، سيكون ذلك سبباً في تنبههم وسرعة إيقاظهم ووصولهم لمعرفة حقيقة ما يخطط ويُبَيِّت في الخفاء لهم ولوطنهم من تخريب وتدمير.

إن ما يجب علينا عمله هو إكمال هذه التخريبات في بنيتهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشيء).

لقد كان البطريك «جريجوريوس» بطريك اسطنبول عضواً فعالاً في خدمة الجمعية، وكان يستخدم كل موظفيه وكل نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعية السرية التي تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى وكانت خطوات الجمعية كالتالي:

1 – إنشاء جمعيات سرية في كل مكان في الدولة العثمانية، والقيام بتسجيل أغنياء الروم – وأكثرهم نفوذاً – في هذه الجمعيات، وهذا من أجل ضمان المساعدات المادية والمعنوية.

2 – تعيين المشهورين من الهيلينيين من رجال الكنيسة، رؤساء للجمعية.

3 – تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالي للجمعية السرية.

4 – الإفادة من الشباب الهيليني الذي يدرس في أوروبا.

5 – العمل على تأمين مساعدة الدول الكبرى.

وامتدت شبكات الجمعية السرية في بلاد المورة وخارجها وعملت المكائد للتخلص من العوائق الداخلية وأعلنت تمردها عام 1821م، وفي هذا التمرد قام جرمانوس أسقف باتراس - رئيس تنظيم الجمعية السرية في المورة- بحمل علم عليه صورة مريم بزعمه وأخذ يصيح (يا أيتها الأمة اليونانية! هيا أفيقي واقتلي الأتراك) ويدعو كل الروم للحرب ضد العثمانيين، وفي هذا الوقت أيضاً كان التمرد قد بدأ يتسع نطاقه وانتشاره.

بدأ هذا التمرد عام 1821م، مكتسباً شخصية وطنية ودينية وقاده رجال الدين. وقد صرح مكاريوس رئيس جمهورية قبرص السابق في حوار أجراه معه الصحفي والمحامي التركي (نوزاد قراكيل) عام 1951م بقوله: (ربما تعلمون أن الكنيسة قادت تمرد اليونان - ضد العثمانيين- عام 1821م . وكان القساوسة هم الذين أخذوا بزمام المبادرة؛ أي أنهم أول من رفع راية التمرد، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدولة العثمانية) ثم قال: إن الحرية هي الفكرة المثلى للمسيحية. والحق أن هذا هو الواقع لقد كلف القساوسة بإبلاغ القرى والقصبات بأن الهجوم على الأتراك - للقضاء عليهم - سيحدث ليلة عيد الفصح، وأخذوا يقسمون بعدم إفشاء هذا السر لأحد قبل موعده المحدد. علم العثمانيون من بعض أصدقائهم بهذا الموقف فانسحبوا - من قبيل الاحتياط - إلى القلاع. ولكن لم تجد هذه القلاع مدداً فلم تقوَ على الصمود فسقطت واحدة تلو الأخرى في أيدي العصاة المتمردين.

وفي مدة قليلة - حوالي ثلاثة أسابيع- استطاع المتمردون خلالها السيطرة على المورة كلها، باستثناء المقاومة الشديدة التي أبداها العثمانيون في قلعة (تريبوليجة) وهي مركز ولاية المورة، حيث استمرت هذه المقاومة شهوراً عديدة. وقد قتل الروم - بوحشية منقطعة النظير- العثمانيين الذين وقعوا في الأسر - أثناء هذا التمرد - وسلبوا أموالهم.

كان رجال الدين على صلة مستمرة وقوية بكبار رجال جمعية (الفكرة العظمى) ودائماً في تعاون وثيق معهم. وساعد القساوسة في الأديرة القوات الرومية في الأفلاق والبغدان، ودفعت لهم الكنيسة الأموال من صناديقها. كذلك سمح القساوسة للمتمردين باستخدام الأديرة مخازن للمدافع والبارود، كما سمحوا لهم باستخدامها (أي الأديرة) ملاجئ لهم.

وقد أرسل المطران باليابادرا رسالة إلى القنصل الروسي قال له فيها: (من أجل التخلص من الأتراك تماماً يجب أن تقوم روسيا بمساعدة الشعب المتمرد).

لعب البطريرك جريجوريوس دوراً كبيراً في تمرد الروم ضد الحكم العثماني كما ذكرنا سابقاً، ولكن لابد أن نوضح هنا أن هذا البطريرك رغم أنه كان عضواً في جمعية مبدأ إقامة اليونان الكبرى أو ما يسميه الروم باسم الفكرة العظمى، فقد خاف عندما أعلنت روسيا - حسب مقتضيات السياسة الروسية وقتها - أنها تستنكر عصيان الأرثوذكس. فأضطر البطريرك جريجوريوس إلى إصدار مرسوم سماه باسم (بيان الحرمان) ضد المتمردين. واستطاعت المخابرات العثمانية أن تأتي بمعلومات مؤكدة وموثقة مفادها (أن خطة إقامة دولة اليونان الأرثوذكسية الكبرى، قد أعدها البطريرك بنفسه).

وعندما وصلت الأخبار للسلطان محمود الثاني أصابته الدهشة وأصدر أوامره لتفتيش مقر البطريرك، واستطاع علي باشا أن يقوم بإعداد خطة مداهمة البطريركية بإحكام بالغ، أدت عند تنفيذها إلى وقوع الوثائق المشار إليها في أيدي المسؤولين ورجال الحكومة.

كان من بين هذه الوثائق؛ تلك الخطابات الموجهة إلى القساوسة الذين قادوا العصيان في المورة، والمعلومات الصادرة لاتخاذ التدابير اللازمة – للعصيان – في اسطنبول، والاستعدادات، والترتيبات السرية التي تتكتم الدولة العثمانية عن أخبارها ثم سرّ بها أمراء الروم التابعون للكنيسة، والمراسلات والمعلومات التي وصلت إلى البطريركية من سفارتي إنجلترا وفرنسا – خاصة معلومات مراحل الاستعداد الرومية في روسيا وأخبار الأسلحة المرسلة من مركز الجمعية السرية في مدينة أوديسا، وبيانات ونداءات طلب المعونة الموجهة إلى كل الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم، وإيصالات دفع نقود المساعدات المالية، للبطريركية من أجل العصيان.

وقع كل هذا في أيدي الحكومة العثمانية ولم ينكر البطريرك أي شيء من هذا، حيث قال: إنه هو الذي قام بعمل كل شيء، وقَبِلَ التهم الموجهة إليه، وكان له شركاء في الجريمة، وقد عرفتهم الحكومة.

وأصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بعزل البطريرك جريجوريوس من منصبه، ثم إعدامه. وقد نفذ حكم الإعدام يوم عيد الفصح عند الروم الأرثوذكس، ثم أصدر السلطان فرماناً آخر لانتخاب شخص يحل محل البطريرك السابق وسلم الفرمان إلى استافراكي بك ترجمان الديوان الهمايوني، فارتعدت جماعته هلعاً بعد توجه استافراكي إلى البطريركية، وقرأ على المسؤولين ذلك الفرمان، ثم انتخبوا (أويانيوس) بطريركا.

وشرعت الحكومة العثمانية في إعدام بعض قادة التمرد، وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً في إعادة السكون حتى أن البطريرك أصبح واسطة بين المتمردين - في المورة - وبين الحكومة العثمانية. ووصل به الأمر إلى أن يرسل ما يسمى بـ «عرض حال» يطلب فيه الإذن بالدعوة إلى الاستئمان «طلب الأمان». ولقد استجابت السلطات العثمانية لمساعي البطريرك الجديد، وتم العفو على كل من أظهر الندم على ما فعله، فاستردوا أموالهم وأملاكهم؛ وأما الموتى فقد أخذ وارثوهم ما يستحقونه، واستمرت الكنائس في أداء أدوارها، كما سارت الطقوس الدينية النصرانية كما هي عليه، كذلك تعهدت الحكومة براحة هؤلاء الناس واستقرارهم، وتم إبلاغ سفراء الدول الأجنبية بذلك؛ وبرغم كل هذا فقد استمرت الأحداث ولم تتوقف واضطرت الحكومة إلى التدخل.

عاشراً : محمد علي باشا واليونان:

قام محمد علي بدوره في القضاء على الدعوة السلفية في الجزيرة وحان الوقت لإضعافه وتقليم أظافره، ولذلك دفعت الدول الأوروبية السلطان محمود الثاني للاستعانة بجيشه لإخماده فتنة التمرد في اليونان، وأشارت الدول الأوروبية على محمد علي بقبوله المهمة، وأوهمته بأنه سيكون أكبر زعيم في المنطقة، ويمكن أن يؤدي به الأمر ليكون خليفة المسلمين بعد أن يضعف سلطان الخلافة. وقبل محمد علي باشا عرض السلطان محمود الثاني بشرط أن يحصل على ولاية كل من كريت واليونان، وبمجرد تلقيه خبر القبول - لهذا الشرط - أمر ابنه إبراهيم باشا بتولي مسألة الحرب في المورة، وتحركت جيوش مصر بقيادة إبراهيم باشا ومستشاره سليمان باشا الفرنساوي بحراً من الإسكندرية عام 1239هـ/ 1823م باتجاه كريت وشبه جزيرة المورة مركز التمرد الصليبي، وفتح نافرين عام 1240هـ/ 1824م، ودخل أثينا عام 1241هـ/ 1825م رغم معاونة القائد الانجليزي البحري اللورد كوشران للصليبيين اليونان؛ وبعد أن أجهضت القوة الإسلامية التمرد اليوناني الصليبي أبانت الصليبية الأوروبية عن وجهها الكالح، فأعلنت بسط حمايتها على بلاد اليونان. بل إن روسيا كانت تدعم التمرد اليوناني علناً، ورأت أن الفرصة سانحة لدخول اسطنبول وإعادتها إلى عهدها السابق مركزاً للصليبية والوثنية، ووقف الانجليز إلى جانب روسيا.

وأجبرت الدولة العثمانية على معاهدة (آق كرمان) في 28 صفر عام 1248هـ/ 1832م وأهم بنودها:

يحق لروسيا الملاحة في البحر الأسود ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، ورغم أن المعاهدة قد عقدت بسبب التمرد اليوناني الصليبي، إلا أنها لم تذكر شيئاً عنه، وبعد قليل تقدمت انجلترا بطلب إلى الدولة العثمانية في 8 رجب 1244هـ/ 1828م: (أن تتوسط الدولة العثمانية لأن هذا تدخل صريح في شؤونها الداخلية) فكان هذا الرفض حجة تذرعت بها أوروبا لإعلان الحرب مرة أخرى.

اتفقت روسيا، وفرنسا، وانجلترا في 11 ذي الحجة على إجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، بمعنى فصلها عن جسد الدولة الأم (الدولة العثمانية) ورفض السلطان العثماني، فأمرت الدول الأوروبية أساطيلها بالتوجه إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعياً بأنه يتلقى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرها، ومع ذلك توقف القتال عشرين يوماً ريثما تصل إليه التعليمات.

ودخلت الجيوش الأوروبية المتحالفة إلى مرفأ «نوارين» دون أن ترفع أعلام الحرب؛ لذا فقد كان دخولها دخول خديعة وقامت هذه الأساطيل بمباغتة الأسطول العثماني المصري المشترك وغدرت به وأطلقت عليه النيران فهزمته هزيمة نكراء وأغرقت السفن - وهي مفاجأة لم يكن يتوقعها وبالتالي لم يعمل لها أي حساب- وبسبب هذه المعركة الغادرة انقلب الحال، فأصبحت القوات العثمانية في موضع الضعف والانهزام بعد أن كانت في موقع القوة والنصر. واستقبلت الشعوب الأوروبية هذه الحادثة بمظاهر الفرح والسرور. لقد قتل من جيش محمد علي أكثر من ثلاثين ألف جندي وهكذا تحقق مخطط الأعداء فأضعفوا قوات محمد علي وفصلوا جزءا من ديار الإسلام عن الدولة العثمانية. لقد قامت فرنسا وانجلترا بعمل مزدوج حيث شجعوا السلطان على إرسال جيش للقضاء على التمرد في بلاد اليونان ثم قضوا على ذلك الجيش.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ما حل بالجيش أمر ولده بالانسحاب، وقامت القوات الفرنسية بأخذ أماكن جيش محمد علي المنسحب، وقامت فرنسا وانجلترا بعقد مؤتمر قرروا فيه فصل بلاد اليونان عن الدولة العثمانية على أن يحكمها حاكم نصراني تختاره الدول الثلاث.

حادي عشر: محمد علي باشا يحتل الشام ويحارب الدولة العثمانية:

رأى الساسة البريطانيون والفرنسيون أن السماح لمحمد علي بتوجيه جيوشه إلى الشام ثم الأناضول يخدم مصالحهم للتصدي للنفوذ الروسي المتزايد في أملاك دولة

الخلافة العثمانية، وقد لقي هذا التوجه ترحيباً من محمد علي لخدمة أهداف أسياده البريطانيين خصوصاً، ومما يدعم وجهة النظر هذه أن انجلترا عارضت بشدة شروع محمد علي في تنفيذ العرض الفرنسي بغزوه للجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشام بعام واحد، وهددوه بالهجوم على أسطوله وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العملية الأمر الذي دعاه إلى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يؤكد على أن محمد علي ترك احتلال الجزائر بسبب ضغط بريطانيا ومخططاتها وكان ذلك يساعد بريطانيا في عرقلة النفوذ الروسي المتزايد في المنطقة، وعلى أية حال فقد حاول محمد علي أن يخفي حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها هجومه على الشام مثل إيواء «عبد الله باشا» والي عكا لستة آلاف من المصريين الفارين هرباً من التجنيد في جيش محمد علي خلال سنة 1831م فقط ورفضه إعادتهم، وكذلك قيام «عبد الله باشا» بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا. وكتب محمد علي إلى الباب العالي يبلغه بقيامه بمهاجمة «عبد الله باشا» لهذا السبب، ورد عليه الصدر الأعظم ما يدل الباحث على مدى الضعف الذي كانت عليه الدولة العثمانية وعدم قدرتها على التصدي لمحمد علي فقال: (إن شكوى بعض التجار لا يمكن أن تسوغ تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وأن ما ينشب من نزاع بين الباشاوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالي). ولم يقتنع محمد علي بما قاله الصدر الأعظم ودفع جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وقام الموارنة بدعم جيش محمد علي والوقوف معه، وكان الفرنسيون يشجعون الموارنة المسيحيين للوقوف مع إبراهيم باشا وأمدوهم بالسلاح، وأعلن نصارى بلاد الشام، بأن إبراهيم باشا صديق لهم، وأبدوا استعداداً تاماً لمساعدته، كما أن إبراهيم باشا، قد ألغى كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية، وهي دلائل قوية على تأثر إبراهيم باشا بالمحفل الماسوني ودور هذا المحفل - التابع لفرنسا- في دعم أطماعه وأطماع أبيه.

وعلى الرغم من أن جيش إبراهيم باشا قد تمكن من هزيمة الجيش العثماني واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين قد تمكنوا من إثارة الأهالي ضد إبراهيم باشا مستغلين العديد من الأسباب سواء كانت دينية أو اقتصادية، خصوصاً بعد أن ضيق «إبراهيم باشا» الخناق على المسلمين في حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية لندن سنة 1840م التي حددت الوجود المصري - لوالي مصر- في الشام بحياة محمد علي.

إن مراحل احتلال قوات محمد علي للشام أكدت اتجاهه المعادي للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وأكدت أيضاً أنه كان منفذاً للأهداف البريطانية على الصعيد السياسي وكان منفذاً للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافي في بلاد الشام.

لقد فتح إبراهيم باشا الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وألغى كافة القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسري على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتاب أن عام 1834م عام تحول تاريخي حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الأمريكية، وتم نقل مطبعة الإرسالية الأمريكية من مالطة إلى بيروت، وأسست مدرسة للبنات في بيروت على يد «إيلي سميث» وزوجته، وزودت بعض الأديرة بمطابع أخرى في إطار حرص الدول الأوروبية على حصر المطابع في يد المسيحيين فقط، حتى تتمكن من تحقيق أهدافها في ظل عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم أو نشر أفكارهم في هذا المجال.

لقد كان دخول جيوش محمد علي باشا إلى الشام نقطة انطلاق لدور المبشرين، وأنه لولا وقوف ابنه معهم لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة، فقد تمكنت كلية «عين طورة» التي أعيد افتتاحها -والتي مازالت قائمة لحد الآن- من القيام بدور كبير في تكوين كوادر من الكتاب والمفكرين. وفي نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها الدعوة إلى القومية بين أهالي الشام، وجلب أحد الفرنسيين من مصر وهو (كلوت بك) ليشرف على تطبيق هذه السياسة بعد ان اكتسب خبرة تطبيقها في مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب العربية لتعينه في تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الأساليب - تشاركه الإرساليات التنصيرية ورجال الكهنوت في الأديرة من أن يقلب أساليب التربية والتعليم في مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية في حربها للإسلام والمسلمين.

بينما كانت جيوش محمد علي تمكن النصارى في بلاد الشام، وتضعف شوكة المسلمين بها، كانت جيوش فرنسا في عام 1830م تغتصب الجزائر بعد ما ضعفت الخلافة العثمانية ودخلت القوات الفرنسية بما يعادل 28 ألف مقاتل، وأسطول يضم مائة سفينة، وثلاث سفن تحمل 27 ألف جندي بحري، وكانت الدول الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر فقد حان توزيع تركة الرجل المريض وحل المسألة الشرقية على الطريقة الأوروبية.

وهنا نتساءل أين محمد علي باشا والي مصر عندما قام الفرنسيون باحتلال الجزائر؟ لماذا سكت؟ هل لأن إمكانياته لا تسمح بدعم جهاد شعب الجزائر المسلم أو أنها بعيدة

عنه؟ أو لأن السكوت ثمن وعد من دول أوروبا ومنها فرنسا لمحمد علي بأن يظل والياً على مصر، ويتركوا له الفرصة لضم بلاد الشام، أو غير ذلك من الوعود الظلامية التي تحبك خلف الكواليس؟

لقد كان محمد علي مخلباً وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده.

لقد ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية.

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام والأناضول اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن «محمد علي» يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة «انكيار اسكله سي» سنة 1833م في أعقاب هدنة كوتاهيه، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة 1840م. وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التي حاول السلطان محمود الثاني أن يقوم بها في الدولة العثمانية واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع محمد علي. وهكذا كانت سياسة محمد علي خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية مازالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم. لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة عميلها المخلص محمد علي والذي أدت أعماله إلى تحقيق ما يلي:

1- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً والمشرق عموماً.

2- فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس في بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.

3- إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

4- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

5- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

6- أصبح محمد علي نموذجاً تحتذي به الدول الأوروبية في صنع عملائها في داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال، وغيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد علي حان الوقت لإضعاف قوات محمد علي وتحجيمها، فقد تحققت أهدافهم، ووصلوا إلى مقاصدهم، فلابد من إضعاف قوات محمد علي. ودخل الانجليز في صراع سافر مع قوات محمد علي واستطاعوا بمساندة أهل الشام من هزيمة قوات محمد علي، والاستحواذ على الثغور الشامية وقتل في هذه المعارك ثلاثة أرباع قوات محمد علي من شعب مصر وبلاد الشام وأجبر محمد علي تحت ضغوط الإنجليز على توقيع معاهدة:

1- يتنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثياً له ولأبنائه.

2- أن يحدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً.

3- أن لا تصنع مصر سفناً للأسطول.

4- أن لا يعين والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازم وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً.

وشرعت فرنسا وانجلترا تثير الفتن الطائفية (من عام 1841م إلى 1860م) بين الأقليات غير المسلمة في لبنان، والهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التي أرسلت قوات لإنهاء الفتنة وكذلك إيجاد المبرر للتدخل الفرنسي والبريطاني في لبنان تمهيداً لتمزيقه واحتلاله.

واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان وتم اتفاق عثماني روسي قرب استانبول عام 1265هـ/ يونيو 1848م يبقى بموجبه في الإقليمين جيش عثماني روسي حتى يستقر الوضع. وبهذا المكر أصبح للنصارى وجود عسكري في ديار الإسلام.

واشتد صراع الدول الأوروبية على تقسيم ولايات الدولة العثمانية تركة الرجل المريض، وكانت الدول الأكثر اهتماماً بمصير الدولة العثمانية ومصير أملاكها، هي:

1- بريطانيا التي أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصاً، وتأمين تجارتها معها، سواء عن طريق السويس والبحر الأحمر، أو عن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات.

2- روسيا القيصرية التي أرادت أن تجد لها منفذاً من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالبحر المتوسط، وذلك بالاستيلاء على القسطنطينية ومضايق البوسفور والدردنيل، والتي أرادت كذلك أن يكون لها النفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان لتؤسس بها دولة سلافية كبرى.

3- فرنسا التي أخذت على عاتقها منذ زمن مبكر حماية مصالح رعايا النصارى الكاثوليك في بلاد الشام بصفة عامة والمارونيين على الأخص في لبنان، والتي أرادت رعاية مصالحها في هذه المنطقة، ثم استعلاء نفوذها في أملاك الدول الأخرى في الساحل الشمالي الإفريقي، وبالتحديد في تونس والجزائر.

4- وفيما عدا الدول الثلاث الرئيسية التي ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا، اهتمت بمصير الدولة العثمانية، التي بات من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت لذلك برجل أوروبا المريض.

لقد تضافرت عدة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

1- أن الطريق الذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجة، وأخيراً بالبحر المتوسط، أي بالمرور من مضيقي البوسفور والدردنيل، وهما في حوزة الإمبراطورية العثمانية.

2- إن الدولة العظمى التي يكون لها قواعد قوية في البحر الأسود، ويتسنى لها السيطرة على المضايق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط إلى الهند والشرق الأقصى.

3- إن الدولة التي تمد نفوذها إلى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة، وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، ويهدد باختلال التوازن الدولي في أوروبا.

وفي خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول - باستثناء روسيا وفرنسا - تدور حول المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التي ذكرناها.

وكانت بريطانيا في مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية وقتئذ، وعندما بات ممكناً ملء الفراغ الذي ينجم من تقلص النفوذ العثماني عن البلقان تخلت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية وسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان. وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر: اليونان، ورومانيا، وبلغاريا والصرب.

السلطان عبد المجيد الأول

(1255-1277هـ/ 1839-1860م)

كان السلطان عبد المجيد الأول ضعيف البنية شديد الذكاء، واقعياً ورحيماً، وهو من أجلّ سلاطين آل عثمان قدراً، أحب الإصلاح، وأدخل التنظيمات الحديثة، ورغب في تطبيقها في الحال. كما أدخل إصلاحات جمة في الجيوش العثمانية . وترقت في أيامه العلوم والمعارف، واتسعت دائرة التجارة، وشيدت الكثير من المباني الفاخرة، ومدّت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السكك الحديدية.

تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني سنة 1839م وكان في السادسة عشرة من عمره، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء التغريبيين لإكمال ما بدأه والده الراحل من إصلاحات على الطريقة الأوروبية، والتمادي في استحداث الوسائل الغربية، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين (مصطفى رشيد باشا) الذي كان سفيراً للدولة في (لندن) و (باريس) ووصل إلى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان (محمود الثاني) وكانت باكورة إصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف (بخط شريف جلخانة) أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام 1839م وجاء فيه: (لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، ولذا كانت قوة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال

للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر) ثم جاءت بيانات يمكن تلخيص بعضها فيما يلي:

1- صيانة حياة وشرف وممتلكات الرعايا بصورة كلية بغض النظر عن المعتقدات الدينية.

2- ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

3- توخي العدل والإنصاف في فرض الجندية وتحديد أمدها.

4- المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم.

وبدأ عهد جديد يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون.

وفي جزيرة متلين اجتمع نفر من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود، وهناك خطبهم «رضا باشا» - وهو من المنسوبين إلى الإصلاح- باسم السلطان، فقال: أيها المسلمون والنصارى واليهود، إنكم رعية إمبراطور واحد وأبناء أب واحد، إن السلطان يسوي بينكم جميعاً.

ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذي سانده «مصطفى رشيد» وقلة من المحيطين به ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم؛ فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ «رشيد باشا» ، واعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين، ورأوا أن ذلك - وبغض النظر عن النواحي الدينية - سيؤدي إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان.

وكان الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية، وهو إثارة الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية ضد الدولة.

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم.

ومما يلفت النظر أن استصدار خط شريف كلخانة كان «الثمن» الذي حصلت عليه بريطانيا والدول الأوروبية من السلطان العثماني في مقابل تسوية النزاع بينه وبين والي مصر «محمد علي باشا» الذي كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة، أثناء أزمة

العلاقات المصرية العثمانية المعروفة (1255-1257هـ/ 1839-1841م) وينبغي ألا يفهم من ذلك أن الضغط الأوروبي بوجه عام والبريطاني بوجه خاص، كان وحده منشأ حركة التنظيمات أو حركة التجديد والإصلاح العثمانية خلال القرن التاسع عشر، فقد أسهم في هذه الحركة عامل آخر، هو اقتناع الدولة والمتأثرين بالثقافة والحضارة الأوروبية بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس الاقتباس من النظم الأوروبية أو الاستلال منها من غير مساس بالأحكام الشرعية.

وبهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف، وتناول الشريعة الإسلامية بالتحريف، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين، لابد أن يكون هناك تمييز بين المسلمين وغيرهم مع مراعاة أن يتمتع غير المسلمين بالحقوق التي يكفلها الإسلام لهم في ذمة المسلمين، فأما هذا التصريح الخطير فله دلالته، فهو يقر بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم، ولابد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض ذلك مع الشرائع والسنن.

وقد أنشأ رشيد باشا مجلساً للنواب، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة، واستقدم رجلاً فرنسياً ليضع قانوناً مدنياً حديثاً للدولة، واشتد في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقاً مالية، ثم صدر مرسوم آخر عام 1856م أكد فيه السلطان عبد المجيد الأول المبادئ التي سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا، وزاد فيه عدة امتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين، وعرف في التاريخ العثماني بالخط الهمايوني الذي كان أكثر جرأة من الأول وأكثر اندفاعاً نحو الاقتباس من الغرب وقد تضمن الخط الهمايوني ما يلي:

1. إلغاء نظام الالتزام والقضاء على الرشوة والفساد.
2. المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين.
3. معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم.
4. المحافظة على الحقوق والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية.
5. القضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطني الإمبراطورية بمواطنة عثمانية متساوية.

6. أن تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من الأهالي ورجال الدين المسيحيين يقوم الشعب بانتخابه بنفسه.

7. فتح معاهد التعليم أمام المسيحيين، لتفتح أمامهم وظائف الدولة.

8. السماح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة، كما وعد السلطان بالاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية بهدف تطوير اقتصاد الدولة.

ويعتبر السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني يضفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرماني التنظيمات عامي 1854م،1856م وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهد التنظيمات، وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، وبهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية، وبدأت الدولة في التقنين وإقامة المؤسسات.

والحق أن السلطان عبد المجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره «رشيد باشا» الذي وجد في الغرب مثالا له وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

وحينما رأى المسلمون أن الدولة تساوي بهم النصارى واليهود، وتستبدل بالشريعة الحنيفة قوانين النصارى، وتخلع الأزياء القديمة الشريفة لتتخذ زي النصارى، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تنالهم بضيم نفروا من ذلك نفوراً عظيماً، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد في إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم.

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد إلى وقف حركة التغريب من استقدام المزيد من الأنظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق، وفتحت لها الأبواب، ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة 1841م، إلا أنه عاد بعد أربع سنوات في عام 1845م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا السير في طريق التحول العلماني، وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة 1846م وعزل منها سنة 1858م.

وازدادت الأحوال سوءاً وانحطاطا، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة في التغيير والإصلاح فلا يجدون أمامهم غير الطريقة الأوروبية في الإصلاح، والوجهة

التغريبية في التغيير التي تم البدء في اتخاذها، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء هم ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسي الخارجي أو للدراسة العسكرية في الخارج، بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامي يعيد الأمور إلى نصابها، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكري بتبني إصلاح جاد يعتمد على المنهج الإسلامي.

وكما قال الكاتب التركي الأستاذ «نجيب فاضل»: وخلو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له، وكانت النتيجة فقدان الروح، وضمور العقل، وذبول الإرادة، وعموم الشلل.

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين، حتى إن العلامة العراقي الآلوسي لما زار والي كركوك علي باشا عام 1267 هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء وإكرامهم، وبالأخلاق الفاضلة، ثم قال بعد ذلك: (والظاهر أنه غير منحل العقيدة، ولا منتحل شيئاً من الآراء الإفرنجية الجديدة، حيث إنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس! ويكفي أهل البلد اليوم رحمة أن واليها سالم من تلك الوصمة، وقلما تنال هذه الرحمة في هذا الزمن الذميم!).

وقد استمر التيار التغريبي في محاولة إحكام السيطرة على جميع المجالات والأجهزة في الدولة العثمانية.

وعلى كل حال لقد كانت المعالم الرئيسة لحركة الإصلاح والتجديد العثمانية تدور حول نقاط ثلاث هامة:

1 - الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليحه في نظم الحكم والإدارة.
2 - الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني.
3 - الاتجاه نحو مركزية السلطة في اسطنبول والولايات.

كانت سنة صدور خط كلخانة حدثاً في الأوساط الأوروبية يسجله أحد المناصرين الفرنسيين بقوله: (كان عام 1839م عاماً عظيماً بالنسبة للتوغل الفرنسي في تركية ... لقد كان بداية التنظيمات والسنة الأولى في الإصلاح ... ونحن رجال الدين سنبدأ بالاستفادة من هذه الليبرالية الخجولة، ونبدأ بإرسالية تبشيرية للتعليم الكاثوليكي) وقال السيد

إيتيان الذي ترأس هذه الإرسالية: (هذه أول إمكانية لتعزيز انتصار الإيمان الذي سنعلمه، ذلك لأن القرآن يحرم حتى ذلك الوقت التعليم. لقد سافرت أول إرسالية مكونة من سبعة رجال دين في 21/11/1839م إلى استانبول.. الأخوات يفتحن داراً لليتامى وفصولاً للتدريس في نهاية 1840م يصل عدد التلاميذ إلى 230، وعام 1842م يصل العدد إلى 500).

وهكذا لم تضيع أوروبا المسيحية وكنيستها وقتاً طويلاً للاستفادة من ظروف التحديث والتنظيمات؛ فبعد سبعة عشر يوماً من صدور الخط، كانت الإرساليات التبشيرية الأولى تغادر مرسيليا باتجاه العاصمة العثمانية، وهي تحمل أفكارها العدائية للمسلمين ولقرآنهم الكريم الذي تتهمه بتحريم التعليم، وانتقلت عدوى التنظيمات إلى الولايات العثمانية العربية شبه المستقلة وبسرعة، ففي تونس أصدر محمد باي (عهد الأمان) عام 1857م، وبناه على القواعد التالية:

أولاً: الحرية: إذ أن الإنسان لا يستطيع بلوغ الفلاح إلا إذا كانت الحرية مضمونة له، وكان العدل سياجاً له ضد العدوان.

ثانياً: الأمان التام.

ثالثاً: المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون: وهذا متضمن في النقطة الثانية، لأن هذا الحق إنما هو ملك لجميع الناس، ويجب أن يكون للأجانب حقوق التونسيين، وأن يمارسوا الأعمال التجارية على أنواعها، وأن يكون لهم حق التملك. وسارت مصر على هذا المنوال، وبصدور هذه القوانين في استانبول وتونس ومصر، تحول التحديث الذي كان رغبة أوروبا تدعمها بعض فئات نخبوية إلى قوانين رسمية يتعهد فيها السلطان بإجراء التنظيمات اللازمة لتغريب المجتمع الإسلامي. وتحول الصراع من كونه ضغطاً خارجياً على الدولة العثمانية إلى الداخل أي إلى صراع داخلي عنيف بين سلطة اختارت أو أجبرت على تغريب المؤسسات ومجتمع يرفض هذه المؤسسات مستعيناً بالعلماء والفقهاء والدعاة الذين واجهوا بقوة تيار التحديث من منطلق أنه مخالف للشريعة الإسلامية.

إن من ابرز خصائص التنظيمات أنها:

1 - كانت أولى الوثائق الرسمية التي لم تستمد مصدريتها من الشريعة الإسلامية، بل اعتمدت مصدراً وضعياً للتشريع مستوحى من التجربة الدستورية الأوروبية، وقد

احتوت على مفاهيم غربية مثل «وطن» التي تضمنها خط كلخانة بدلاً من «الأمة» فكانت والحالة هي أولى الخطوات نحو فصل الدين عن الدولة.

2- إن «إقرار الأمنية الكاملة» و «عهد الأمان» و «مجلس شورى النواب» أو المظاهر الأخرى المستوحاة من التجربة الغربية قد سمحت بإضفاء نوع من الشرعية على استمرار الحيف على العامة من ناحية، وفتحت الطريق لطبقة التجار الغربيين والمبشرين لإلحاق المجتمع العثماني بقوانين السوق وبمعايير الفكر التبشيري من ناحية ثانية.

3- لقد تكللت خطى كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام 1876م. ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

لقد وضعت التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعلمنة القوانين، ووضع مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين، ناهيك أن عدو الدولة أصبح داخلياً، فالتوغل الأوروبي في مستوياته الثقافية والاقتصادية والسياسية من ناحية، والمسلمون وعلماء الدين الذين يرتابون بمسلك الدولة من الناحية الثانية، سيبدأون صراعاً لن ينتهي حتى بعد نهاية الدولة العثمانية، بل استمر إلى يومنا هذا.

إن من الأهمية بمكان أن نقوّم ما حدث، ولقد ترك السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته شهادته التاريخية، لقد حاول إنقاذ الدولة العثمانية، بعد أن دارت عليها الدوائر وأحكم عليها الحصار، لقد كان سلطاناً واعياً لحقيقة الدعوات التحديثية التي اتخذت لها تسمية «الحركة الإصلاحية» تغطية لنواياها الحقيقية في ربط الدولة العثمانية بالغرب، وبسبب ذلك حاربه الدستوريون ويهود الدونمة وعزلوه. وفي أواخر عهده كتب وهو سلطان مسلوب الإرادة يكشف حقيقة التجديد والإصلاح يقول:

(التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبباً في اضمحلالنا. ترى لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات. لاشك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء، وأنه كفيل بالقضاء على هذه الإمبراطورية. إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف

السائدة في البلاد، وأن لا نقيس الأوضاع على أساس المستوى الفكري لحفنة قليلة من الموظفين، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي. الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحاضرتهم جملة وتفصيلاً. لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة. ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شيء يأتي من الغرب).

لقد أصاب عبد الحميد ميزان العدل في تقويمه لحركة الإصلاح العثمانية، وبيّن كيفية الاستفادة من حضارة الغرب وأرى من الفائدة للقارئ الكريم أن يتعرف على موقف الإسلام من الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات الجاهلية الأخرى وكيف تكون الاستفادة من هذه الحضارات؟

إن الاستفادة من الحضارة الغربية وغيرها على ثلاثة أنواع:

1- الاستفادة من الصناعات وأصولها والاكتشافات العلمية، والعلوم التجريبية والعسكرية والطبيعية، كالرياضيات والكيمياء والفيزياء، والهندسة والأحياء والفلك، بعد أن تمحص وتصفى من شوائب المؤثرات الجاهلية، وتصاغ بقوالب إسلامية صافية، فهذه الأمور مابين: واجب أخذه واقتباسه، وهو ما يحتاجه المسلمون حاجة ماسة، أو لا تقوم بعض الواجبات إلا به، كالسلاح، والنظم العسكرية، في مجالات الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، فكل ما يحتاجه المسلمون - من المباحات- في هذا المجال فيجب أخذه والاستفادة منه، والمسلمون أحق به.

كذلك ما يتحقق به قيام الدول الإسلامية - من الوسائل المباحة- مع التحفظ الكامل والوعي التام، يجب الأخذ به، وإلا فتركه أولى، أو مباح، وهذا قليل لأن الله أوجب على المسلمين الأخذ بالأسباب والحيطة للاكتفاء والاستغناء عما في أيدي الكفار أياً كان.

الثاني: التقليد في العبادات والعقائد والمبادئ والمفاهيم والتصورات والآراء الفلسفية، حول الكون والحياة والإنسان، والتي تتصل بالعقيدة، فهذه الأمور لا تفصيل فيها، فهي محرمة قطعاً، والاستمداد فيها من الكفار ردة أو كفر إذا اعتقد المقلد صحتها ودان بها، وعلى الأقل تكون حراماً مع جهل حقيقتها.

الثالث: التقليد في الأخلاق وأنماط السلوك والآداب والثقافة والفكر، والإنتاج الفني، ونحو ذلك، فهذه الأمور لا تخلو إما أن تتعارض مع أصول الإسلام وقواعده، أو توقع فيما نهى الشارع عن تقليد الكفار فيه، فهذا أمر محرم، أو تكون مما يجهل أمره وحكمه فهو على الأقل مكروه، أما الشيء الذي يعتبر فضيلة - في تلك الحضارة- وما أقله - فقد يكون مباحاً، والله أعلم.

ولقد تحدث بعض العلماء والمفكرين المسلمين والمعاصرين حول التقليد وكيفية الاستفادة من الحضارة الغربية:

يقول مصطفى صادق الرافعي: (وإني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد، بل اقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص. فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة!! على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئاً، فإن الفرق بعيد بين الأخذ من زخرف المدينة وأهواء النفس، وفنون الخيال ورونق الخبيث).

ويقول حسن البنا: (من الحق أن نعرف أننا بعدنا عن هدى الإسلام وأصوله، وقواعده، والإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع، وأن نأخذ الحكمة أنىّ وجدناها، ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين).

ويقول أبو الأعلى المودودي: (إن كان هناك شيء ينبغي ويستحق أن تأخذه أمة من الأمم الأخرى فإنما هو نتاج أبحاثها العلمية، وثمرات قواها الفكرية، ومعطياتها الاكتشافية ومناهجها العلمية التي تكون قد بلغت بها معارج الرقي في الدنيا. إن أي أمة في الأرض إذا كان في تاريخها أو في نظمها الاجتماعية أو في أخلاقها درس نافع، فمن الواجب أن نأخذه منها، ومن الواجب أن نستقصي أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص، ونأخذ منها ما نراه ملائماً لحاجتنا وظروفنا. ولكننا إذا أعرضنا عن هذه الأمور الجوهرية ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها وطرقها للمعيشة وأدواتها للأكل والشرب، برغم أن فيها السر لنجاح تلك الأمم ورقيها فلا يكون ذلك إلا دليلاً على غباوتنا وبلادتنا وحماقتنا، فهل لأحد عنده العقل أن يعتقد أن كل ما أحرزه الغرب من التقدم والرقي في مختلف حقول الحياة، إنما أحرزه بالجاكيت والبنطلون وربطة العنق والقبعة والحذاء؟! أو أن من أسباب رقيه وتقدمه أنه يتناول طعامه بالسكين والشوكة؟ أو

أن أدواته للزينة والرفاهية والمساحيق والمعاجين والأصباغ هي التي قد صعدت به إلى أوج الرقي والكمال؟!! فإن لم يكن الأمر كذلك - والظاهر انه ليس كذلك- فما للتقدميين المتشدقين بالإصلاح عندنا لا يندفعون أو ما يندفعون إلا بهذه المظاهر؟!).

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في (أضواء البيان) عارضاً موقف المسلمين من الحضارة الغربية:

(الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية تشتمل على نافع وضار، أما النافع فيها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبيّنه، وما تضمنته من المنافع للإنسان أعظم مما يدخل تحت التصور، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو الإهمال بالكلية للناحية التي هي رأس كل خير ولا خير البتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه).

ثم قال بعد أن ذكر حكم الانتفاع من النافع منها:

(وقد انتفع الرسول ﷺ بدلالة «أبي الأريقط الدؤلي» له في سفر الهجرة على الطريق مع أنه كافر، فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جلا وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة. والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين).

ويقول سيد قطب: (ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه - رضوان الله عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج بقدر ما يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العلمية المتروكة للتجربة والمعرفة، كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العلمية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان وفرق بين هذا وذلك بيّن، فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر، والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة).

ثم أورد قصة عمر، حين رأى معه النبي ﷺ، شيئاً من التوراة وغضب عليه حتى رجع، الحديث وقوله ﷺ: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا) الحديث.

فقال: (هؤلاء هم أهل الكتاب .. وهذا هو هدي رسول الله ﷺ في التلقي عنهم في أمور تختص بالعقيدة والتصور، أو بالشريعة والمنهج، ولا ضير وفق روح الإسلام وتوجيهه من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة علماً وتطبيقاً، مع ربطها بالمنهج الإيماني: من ناحية الشعور بها وكونها من تسخير الله للإنسان، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية، وتوفير الأمن له والرخاء، وشكر لله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية، شكره بالعبادة، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية. فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني، وفي تفسير الوجود، وغاية الوجود الإنساني، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها، وفي منهج الأخلاق والسلوك -أيضاً- أما التلقي في شيء من هذا كله فهو الذي تغير وجه رسول الله ﷺ، لأيسر شيء منه، وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته، وهو الكفر الصّراح).

إن موجة تقليد الغرب بدأت عارمة حين دبّ الضعف والوهن في الخلافة العثمانية وتكالبت قوى الهدم على تقويضها - في الداخل والخارج- وحين شعرت هذه الدولة الضعيفة بالنقص أمام الدول النصرانية الفتية، فاتجهت الدولة العثمانية إلى تقليد تلك الدول وأخذت من إنتاجها الجديد؛ وقد وافق هذا شلل في التفكير لدى المسلمين وبعد عن منهج الله الأصيل، فاستمدت من الكفار، دون وعي أو إدراك أو تفكير في أسباب تقدم تلك الدول الكافرة ودون أن تجد في اللحاق بها بالجد والاعتماد على القوة الذاتية، والجهود المسلمة.

وبدأت موجة التقليد الأعمى قوية عارمة تدفعها - بحمق وعنف - الأهواء والانحرافات في الداخل، والجهود الماكرة المخططة من الخارج، فأخذت البلاد الإسلامية تسلك هذا الطريق واحدة تلو الأخرى، ابتداء من تركيا فمصر والشام ثم تونس وإيران والهند.

والعجيب أن كل اتجاهات التقليد في العالم الإسلامي بدأت بالإحساس بالضعف العسكري والحاجة إلى تنظيم الجيوش في البلدان الإسلامية ومن ثم نشأت عقدة الاعتماد

على الغرب والإعجاب بكل ما هو غربي وافد من بلاد الكفار مهما كان فاسداً وتافهاً، واحتقار كل ما هو شرقي مهما كان صالحاً وعظيماً.

لقد نهى الله - سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم عن التقليد الأعمى، فمقته وحذر من مغبته، في آيات كثيرة، ومناسبات عديدة، وأساليب متنوعة، ولاسيما تقليد الكفار، فتارة بالنهي عن تبعيتهم وطاعتهم، وتارة بالتحذير منهم، ومن الاغترار بمكرهم والانصياع لآرائهم والتأثر بأعمالهم وسلوكهم وأخلاقهم. وتارة بذكر بعض خصالهم التي تنفِّر المؤمنين منهم، ومن تقليدهم.

وأكثر ما يرد التحذير في القرآن من - اليهود - والمنافقين، ثم من عموم أهل الكتاب والمشركين.

وقد بين الله - سبحانه وتعالى - في القرآن أن تقليد الكفار وطاعتهم منه ما هو ردة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [محمد:25-26].

وحيث جعل الله في شريعته الكمال فقد نهى عن اتباع غيرها من الأهواء والنظم البشرية، ونهى عن اتباع الكفار والذين لا يعلمون فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية:18-19].

وقال تعالى في معرض التحذير من أهل الكتاب: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾ [البقرة: 109].

وقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ [البقرة: 105].

وقال: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:51].

وكذلك نهى عن طاعتهم واتباع أهوائهم وخصالهم السيئة فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:120].

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:100].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ [المائدة:49].

وبين خطر موالاتهم واتخاذهم بطانة، وأن ذلك فيه خطر عام يهدد مصالح الأمة وكيانها، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران:18].

كما جاء النهي عن التقليد والتحذير منه بأسلوب القصة فإن الله سبحانه وتعالى – ذكر في القرآن الكريم الأمم الكافرة الغابرة وأخبارها ومواقفها العدائية ضدّ دعوة التوحيد ومسيرة الإيمان على مدار التاريخ، وما حصل لها من أنواع العقوبات والعذاب جزاء ضلالها وانحرافها، وهو بذلك يأمرنا بأخذ العبرة والعظة، وبالاعتبار بهم والاتعاظ بقصصهم والابتعاد عن تقليدهم، وتجنب سلوك نهجهم.

وذلك مثل قوله تعالى لمّا ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثلات ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر:9].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف:111].

وقسم العلماء الآيات التي نهت عن تقليد الكفار في القرآن على قسمين:

- قسم بين أن مخالفتهم في عامة الأمور أصلح للمسلمين، وهذا تدل عليه جميع الآيات.

- وقسم بين أن مخالفتهم مطلوبة وواجبة شرعاً، وهذا تدل عليه بعض الآيات.

ووردت في ألسنة – عن رسول الله ﷺ – أحاديث عامة تنهى عن التقليد الأعمى، والتشبه الممقوت، وتحذر من مغبة ذلك فقال في معرض النهي عن التشبه بكل ما لم يشرعه أو يقره الإسلام، والنهي عن تقليد كل ما هو على غير سلوك المسلمين، مثل قوله

ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» كما وردت أحاديث كثيرة وصحيحة في النهي عن تقليد الكفار - عموماً - وأهل الكتاب، والمشركين، والمجوس، وأهل الجاهلية.

إن من مقاصد الشريعة منع المسلمين من التقليد الأعمى، إذ أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وقد أكمل الله الشريعة للناس ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:30].

لقد جعل الله الشريعة مشتملة على كل المصالح في كل الأزمان والأمكنة ولكل الناس، فلا حاجة للاستمداد من الكفار أو تقليدهم، وواضح ما يحدثه التقليد من خلل في شخصية المسلم، من الشعور بالنقص والصغار، والضعف والانهزامية، ثم البعد والعزوف عن منهج الله وشرعه، فقد أثبتت التجربة أن الإعجاب بالكفار وتقليدهم سبب لحبهم والثقة المطلقة بهم والولاء لهم والتنكر للإسلام ورجاله وأبطاله وتراثه وقيمه وجهل ذلك كله وهذا ما حدث للدولة العثمانية وولاياتها التابعة لها في القرنين الماضيين، حين تخلوا عن رسالتهم حين استسلموا لسلطان الغرب ونهلوا من سمه الزعاف.

السلطان عبد العزيز
(1277-1293/ 1861-1876م)

تولى الحكم بعد أخيه في أواخر عام 1277هـ. وفي عهده تفجرت ثورة في جزيرة كريت وأخمدت عام 1283هـ/ 1863م. وتم فتح قناة السويس عام 1285هـ/ 1869م، وصدرت مجلة الأحكام العدلية وقانون التجارة البحرية في أوائل عهده، وزار أوروبا وفكر في الاستفادة من خلاف الدول الأوروبية فيما بينها، لكنه وجد أنها تتفق جميعها ضد الدولة لأنها دولة إسلامية، ولم يستطع الأوروبيون أن ينسوا الحقد الصليبي المغروس في نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة.

وكانت الدول الأوربية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للاستمرار في خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربي، والفكر الأوربي، والمبادئ العلمانية وأكد السلطان عبد العزيز عزمه على مواصلة السير في الطريق الذي سلكه أبوه محمود الثاني وأخوه عبد المجيد، فأبقى على كل أصحاب المناصب من المكلفين بتنفيذ الإصلاحات. وكان من أهم الإصلاحات الإدارية في عهده صدور قانون الولايات عام (1281هـ/ 1864م)، وفي مجال الإدارة أيضاً أنشئت محكمة عليا قضائية (ديوان الأحكام

العدلية). كما أنشئ عام (1285هـ/ 1868م) مجلس للدولة على النسق الفرنسي سمي «شواري دولت» أي مجلس شورى الدولة، وكان من أهم اختصاصاته مناقشة الميزانية.

أما في مجال التعليم، فقد أسست مدرسة ثانوية عام 1285هـ/ 1868م هي مدرسة «غلطة سراي» كان برنامج الدراسة فيها خيراً من برامج المدارس الثانوية الأخرى، وكانت كل المواد التي تدرس فيها باللغة الفرنسية فيما عدا اللغة التركية. وكانت الغاية من إنشائها هي تخريج طائفة من الشباب القادر على حمل عبء الوظائف العامة وكان هؤلاء الشباب من مختلف الديانات، فالأغلبية من المسلمين، ولكن كان بها اليونان والأرمن، وهم نصارى، كما كان بها أعداد من اليهود. والواقع أن الطلاب قد أقبلوا على هذه المدرسة حتى بلغ عددهم عام 1869م ستمائة طالب مسلم ونصراني ويهودي.

ورغم هذه الخطوات الإصلاحية التي تمت في عهد السلطان عبد العزيز، إلا أن الدول الأوروبية لم تعتبرها كافية كدليل على أن الدولة العثمانية إنما تريد الإصلاح، وتعمل لتحسين رعاياها النصارى، ولإزالة المفاسد التي استشرت في نظام الإدارة والحكومة، وهي مفاسد كانت في نظر الكثير من المعاصرين الأوروبيين تهدد بانهيار الدولة في النهاية.

وكان رأي فريق كبير من الإنجليز وغيرهم من المعاصرين، أن زوال الدولة العثمانية قد بات ضرورياً، حيث إنها قد فشلت في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبي، فقال لورد كلارندون وزير الخارجية البريطانية في عام 1865م: «إن الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هي بإزالتهم من على سطح الأرض كلية». وهذا يؤكد حقد النصارى على الدولة العثمانية لأنها هزمتهم منذ فتح القسطنطينية.

لقد فشلت الدولة العثمانية في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبي لانعدام كل صلة بين المبادئ الأوروبية وبين مبادئ الدولة العثمانية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

عزل السلطان عبد العزيز:

كان السلطان عبد العزيز قد زار أوروبا، ورأى اتفاق وتآمر الدول الأوروبية على الدولة العثمانية، فحاول أن يستفيد من الخلاف القائم على المصالح بين دول أوربا الغربية وروسيا لمصلحة الدولة العثمانية، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي إلى اسطنبول فخافت

الدول الأوروبية، وبدأت تشيع الشائعات عنه في التبذير والإسراف، واستطاع مدحت باشا أن يعزله، ثم قام مع عصابته بقتله في عام 1293هـ/ 1876م.

إن مدحت باشا كان من يهود الدونمة روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية، وسمّته (أبو الدستور). وسخّرت له الماسونية أبواب دعايتها من صحف ومجلات وإذاعات، فوصل بذلك إلى أعلى الرتب منها باشوية سوريا والعراق، ومنصب الصدر الأعظم الذي يعتبر أكبر الرتب في السلطنة العثمانية. ثم بدأ بعد ذلك يدس ويخرّب كما تملي عليه يهوديته وماسونيته، ويغمز دائماً بالتعاون مع الماسونية إلى مساوئ الحكم وخاصة حكم السلطان عبد الحميد عدوّ الماسونية الأكبر - الذي لم يترك ثقباً من بصيص أمل لليهود في فلسطين إلا سدّه، ثم أسس «مدحت باشا» ويهود الدونمة والماسونية العالمية «جمعية الاتحاد والترقي» التي حملت نفس شعار الماسونية وجعلت مقرها بسلانيك، وانكشفت جوانب من هذا اليهودي للسلطان عبد الحميد فألقى القبض عليه وعزله ونفاه فيما بعد.

لقد كان سبب مقتل السلطان عبد العزيز:

- رفضه للدساتير الغربية برمتها، وكذلك العادات الغربية البعيدة عن البيئة الإسلامية، وتمكنه من إصلاح أحوال الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة، وخاصة في المجال العسكري، حيث قوّى الجيش، واستبدل الأسلحة القديمة بأخرى حديثة، واستورد ما يلزم من السلاح من أفضل مصانع السلاح في أوروبا، ووضع التنسيقات العسكرية على الطراز الحديث، وشكّل الفرق العسكرية لأبناء العشائر والقبائل من كافة الولايات، وسلّح القلاع والحصون بأضخم وأحدث المدافع، فأصبحت مدفعية الدولة العثمانية يضرب بها المثل في التقدم، وأصلح دار المدفعية «الطوبخانة» وأدخل فيها المعدات والآلات الحديثة، حتى صار بإمكانها صنع كافة الأسلحة على الطراز الجديد، كما قام بإصلاحات في مجال البحرية وأحل الخبراء العثمانيين محل الخبراء الأجانب رغم اعتراض هؤلاء ودولهم، وأصبحت الدولة العثمانية في عهده من الدول البحرية الأولى في العالم، وعمل على إرسال البعثات البحرية إلى الخارج، واشترى المدرعات، وشيد عدة معامل لصنعها ولصنع الآلات والمراجل، وعادت دار صناعة «إزميت» إلى ما كان لها من مجد، كما أصلح الكثير من أحواض السفن، وأسس مجلة الأحكام العدلية، وعمل على إحقاق

الحق، وحوكم كبار الحكام، أمثال «خسرو باشا» و «عاكف باشا» و «طاهر باشا» وبذلك ظهر للعموم حبّه للعدل والإصلاح وهذا لا يرضي الدول الأوروبية ولا تقبل به لأنها تريد أن يسود الظلم حتى تنهار الدولة بسرعة، وقام بإصلاحات مالية، وأمر بوضع ميزانية منضبطة وألغيت القوائم المالية، وسوّت الدولة بذلك جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنفوذ، وانتظمت الأحوال المالية.

لقد هال الدول الأوروبية رؤية ما حدث على يد هذا السلطان في وقت قصير، فتعرقلت مخططاتهم في القضاء على الرجل المريض، لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثم قتله. إن جذور المؤامرة في مقتل السلطان عبد العزيز ترجع إلى تخطيط مدروس من قبل القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة العثمانية وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعة الماسونية المدعو مدحت باشا الذي اعترف أثناء محاكمته باشتراكه في عزل وقتل السلطان عبد العزيز، وهذا أمر معروف تاريخياً ومدّون في الوثائق.

السلطان مراد الخامس
(1293هـ) ومدة ولايته 93 يوماً

هو ابن السلطان عبد المجيد ولد في 25 رجب من عام 1256هـ الموافق 1840م وارتقى منصب الخلافة في 7 جمادي الأولى من عام 1293هـ.

كان على جانب كبير من الذكاء والثقافة التركية والغربية، كما أبدى اهتماماً بالأدب والعلوم والشؤون الأوروبية، وزار أوروبا والتقى ببعض الأوروبيين، وانخرط في سلك الماسونية، وكان على اتصال بنامق كامل أحد أعضاء الحركة وغيره، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية، وكانت الحركة الماسونية هي التي دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلي بعد أن أصابته الدهشة والفزع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع السلطان عبد العزيز، ولمّا بلغه مقتل حسن الجركسي ظهرت عليه اضطرابات عصبية أثرت على جهازه الهضمي. وكانت صحته في تدهور مستمر في الوقت الذي كان مدحت باشا يحاول إعلان الدستور الوضعي بدلاً من الشرع أثناء مرضه ويدرس القوانين والنظم الغربية ويتصل بأعوانه حتى استطاع إعداده بشكل جاهز، وقد قيل إنَّ جنون السلطان ظهر للناس بشكل واضح فكان لابد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام عام 1876م وكان نص الفتوى: «إذا جنَّ إمام المسلمين جنوناً مطبقاً

ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ الجواب: يصح والله أعلم: كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه». وبعد عزله تعافى من مرضه العقلي، وأمضى باقي حياته في قصر «جراغان» حتى توفي عن عمر يناهز الرابعة والستين، لقد أثر الشباب من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على مراد الخامس، فانتسب إلى المحفل الماسوني، وأدمن شرب الخمر وتشبع بالأفكار العلمانية والفلسفية الغربية، وقد قال عنه السلطان عبد الحميد: «كان من طبيعته أن ينخدع لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول، حتى أنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله، عدم لياقة اشتراكه، وهو خليفة المستقبل، في المحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستنجم عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص، ممّن يدعون أنهم أنصار التجديد أن يحرِّضوه على إدمان الخمر، وزيّنوا له جوانب نستخف بها في الحياة الأوروبية».

الفصل الثامن

السلطان عبد الحميد

(1293-1326هـ/ 1876-1909م)

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. إذ ولد في 16 شعبان عام 1258هـ (1842م).

ماتت والدة السلطان عبد الحميد وهو في العاشرة من عمره فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً. فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أما، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره.

تلقى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً. وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية.

وتدرب على استخدام الأسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، وكان محافظا على الرياضة البدنية، وكان مهتماً بالسياسية العالمية ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة.

أولاً: زيارته إلى أوروبا مع عمه السلطان عبد العزيز:

قام السلطان عبد العزيز بزيارة أوروبا يرافقه وفد عثماني رفيع المستوى وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الذي ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة في

العفة، وقد استعد الأمير عبد الحميد لهذه الرحلة بمطالعات واسعة، فإنه كان دقيقاً في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء التي رآها في الغرب، ولقد التقى الوفد العثماني بساسة ذلك العصر في أوروبا مثل؛ نابليون الثالث في فرنسا، والملكة فكتوريا في إنجلترا، وليوبلد الثاني في بلجيكا، وغليوم الأول في ألمانيا، وفرانسوا جوزيف في النمسا، وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع السلطان عبد العزيز إلى مصر، وانتبه أثناء وجوده في مصر إلى الزيف الكاذب للبريق الأوروبي والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية، مما جعل مصر تستدين وتغرق في الديون، نتيجة انطلاق الوالي الخديوي إسماعيل باشا في إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعة من أوروبا، وأما رحلته إلى أوروبا فقد استغرقت من 21 يونيو إلى 7 أغسطس من عام 1867م. زار الوفد العثماني: فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والدولة النمساوية المجرية.

وفي هذه الرحلة الأوروبية، تفتح ذهن عبد الحميد إلى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك. وهذه الأمور هي:

1- الحياة الأوروبية بكل ما فيها من طرق معيشة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات.

2- التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.

3- ألاعيب السياسة العالمية.

4- تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون الثالث على عمه السلطان عبد العزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير علي باشا. رغم أن السلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحداً أنه تحت تأثير أي قوة غربية.

اقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرحلة أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة. أما ألمانيا فهي دولة نظام وعسكرية وإدارة، وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد إليها -عندما أصبح سلطاناً- بتدريب الجيش العثماني. ولقد تأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثر إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة: تعليمية وصناعية ووسائل اتصالات وعسكرية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراؤه غواصتين وكان سلاح الغواصات جديداً. وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص، وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل إلى البلاد

أول سيارة وأول دراجة، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد.

أثرت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا أيضاً في إتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا. ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقته ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوروبيين:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة: بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فرد الباشا قائلاً: (بالثمن الذي اشتريناها به). وكان يعني بذلك: أن العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت 27 عاماً.

وسُئل فؤاد باشا أيضاً: (ما هي أقوى دولة في العالم الآن؟).

فرد قائلاً: (أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية. ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها).

تعلم عبد الحميد من هذا درس القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. وتعلم ذكاء الحوار السياسي وهو ما برع فيه بعد ذلك. وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرحلة 25 عاماً.

ثانياً: بيعته للخلافة وإعلان الدستور:

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس 11 شعبان 1293هـ 31 أغسطس 1876م. وكان عمره آنذاك أربعا وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراي طوبقبو. وهنأه بالخلافة كذلك رؤساء الطوائف المختلفة، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة. وأقيمت الزينات بجميع جهات اسطنبول ثلاثة أيام وأرسل الصدر الأعظم برقيات إلى دول العالم لإعلامها بذلك.

وكان السلطان عبد الحميد قد عين مدحت باشا صدراً أعظم، ثم أعلن في 23 ديسمبر (1293هـ/ 1876م) الدستور الذي يضمن الحريات المدنية وينص على مبدأ

الحكومة البرلمانية. ووفق هذا الدستور كان البرلمان يتكون من مجلسين: مجلس النواب أو المبعوثان ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ.

وقد تعرض السلطان عبد الحميد في بداية حكمه إلى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد، والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب والتي استطاعت الأيدي الماسونية تجنيدها لخدمة أهدافها، وقد بلغ من استبداد الوزراء بالحكم، أن كتب مدحت باشا، وهو في مقام الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد، إلى السلطان عبد الحميد في أول عهده بالعرش (1877م): (لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد إلى مدارج الارتقاء، وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة).

ويقول السلطان عبد الحميد في هذا: (ولقد وجدت مدحت باشا ينصّب نفسه آمراً ووصياً عليّ. وكان في معاملته بعيداً عن المشروطية (الديمقراطية) وأقرب إلى الاستبداد).

وكان مدحت باشا وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر، قال السلطان عبد الحميد في مذكراته: (...ومن المعروف أن أحرار ذلك العهد من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة، بل في أمور السكر والعربدة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه ومشهور عنه هذا والتقت نشوة الخمر بالنشوة التي بعثها إعلان القانون الأساسي وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتى لا يقع على الأرض. وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه في فمه (بتأثير الخمر).

- يا باشا! من يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلت إليه أن يبعدني عن منصبي؟! من؟! قل لي كم عاماً سأبقي في الصدارة العظمى؟

رد عليه طوسون باشا قائلاً:

- إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع!

لقد كان مدحت باشا في مجالس الخمر الخاص به يفشي أدق أسرار الدولة، وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التالي بين أهالي اسطنبول. وفي إحدى الليالي تحدث مدحت

باشا عن عزمه على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية وأنه سيصبح رئيساً للجمهورية العثمانية الجديدة ثم إمبراطوراً لها. تماماً مثلما حدث مع نابليون الثالث بفرنسا).

وكان مدحت باشا متهماً بقتل السلطان عبد العزيز وشكل السلطان عبد الحميد لجنة للتحقيق في ذلك ثم قدم المتهمون إلى المحكمة التي أدانتهم وحكم على مدحت باشا بالإعدام وتدخل السلطان عبد الحميد وخفض الحكم إلى السجن ثم نفي إلى الحجاز حيث مقر السجن العسكري هناك.

كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون، كما أن التغييرات التي طرأت على نظام الحكم طبقاً له كانت من قبيل التطور، فلم يفكر أحد في تقليص حق السلطان في السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لا يمس، وأنه لا يسأل أمام أحد عن أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتهناً بشخصه. فله وحده حق تعيين وإقالة الوزراء، كما أنه هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ومعاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ومن حقه كذلك إصدار كافة القوانين في شتى المجالات دون الرجوع إلى البرلمان. وهكذا ظل السلطان عبد الحميد الثاني (1293-1327هـ/ 1876-1909م) يتمتع بالسلطة التي سبق لأسلافه أن تمتعوا بها، بحيث إن مدحت باشا ذاته كان أول الضحايا. كما أن الصلاحيات الواسعة التي منحها الدستور للسلطان حدت من سلطة رئيس الوزراء بحيث لم يتح له أن يلعب سوى دور ثانوي في تسيير دفة الحكم.

ونص الدستور على حرية أعضاء البرلمان في إبداء آرائهم وفي التصويت، وكان لا يمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة التي يجري بها الحديث في كل الجلسات، كما نص أن يكون التصويت سرياً أو علنياً بحسب الظروف، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال فيما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد فقد أعلن الدستور أن العثمنة هي السياسة الرسمية للدولة في إطار مبدأ المساواة الذي نصت عليه التنظيمات، فقد خلع الدستور صفة العثمانية على كل رعايا الدولة أيا كان دينهم، ونص على تمتعهم بالحرية الشخصية، وعلى تساوي كل العثمانيين أمام القانون وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس

الواجبات. ونص الدستور كذلك على استقلال القضاء وأبقى على المحاكم الشرعية على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلقة بشؤونهم الدينية.

وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجرى انتخابات عامة، كانت الأولى من نوعها في التاريخ العثماني، وقد أسفرت تلك الانتخابات عن تمثيل المسلمين بـ (71) مقعداً والنصارى بـ (44) مقعداً واليهود بـ (4) مقاعد، واجتمع أول برلمان عثماني في 29 مارس عام 1877م (1294هـ) وكان مجلس الأعيان والشيوخ يتكون من 26 عضواً بالتعيين من بينهم 21 مسلماً، في حين كان مجلس النواب يتكون من مائة وعشرين عضواً. وقد قام بعض نواب العرب بدور هام خلال المناقشات، غير أن مجلس المبعوثان كانت مدته قصيرة؛ فقبل أن يتم المجلس دورة انعقاده الثانية، طلب النواب في 13 فبراير عام 1878م (1296هـ) أن يمثل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم، فما كان من السلطان عبد الحميد إلا أن عطل المجلس وأمر بعودة النواب إلى بلادهم، وقام بنفي وإبعاد البارزين منهم.

وبذلك بلغت مدة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثانية عشرة شهور وخمسة وعشرين يوماً ولم يدع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عاماً، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة.

لقد كان السلطان عبد الحميد مضطراً إلى إعلان الدستور بسبب الضغوط التي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بتعطيل المجلس.

إن عبد الحميد الثاني كان ضد الديمقراطية والحكم بالدستور الذي يعرف في المصطلح العثماني باسم «المشروطية» أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار أن هذا فكر وافد من الغرب، ولذلك كان ضد المنادين به ورائدهم مدحت باشا وانتقد وزيره هذا بقوله: (لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لا تصلح لكل مرض ولكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بيئة قومية. كنت أظن أنها مفيدة أما الآن: فإني مقتنع بضررها).

كان للسلطان حججه في هذا، منها سوء تصرف المنادين بالدستور في أول استجابة للسلطان لأفكارهم. من ذلك: أن طلبت الحكومة من السلطان في وقت إعلان السلطان

للدستور، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاة نصارى في ولايات، أغلب السكان فيها من المسلمين، وعلى قرار، بقبول طلبة من النصارى في الكلية الحربية العثمانية التي هي عماد الجيش العثماني، فرفض السلطان التوقيع، فما كان من مدحت باشا - وهو الوزير- إلا أن قال للسلطان: (إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم).

ومن الأسباب التي يسوقها السلطان عبد الحميد في رفضه للفكر الدستوري قوله: (إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوباً شتى، والمشروطية في دولة كهذه تعني موت العنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الانكليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟).

ولم يغير السلطان عبد الحميد موقفه تجاه الحكم الدستوري في دولته حتى بعد أن عزل عن العرش، وأخذ الناس يمارسون الحكم الدستوري، فيقول: (ماذا حدث عندما أعلنت المشروطية؟ هل قلت الديون؟ هل كثرت الطرق والموانئ والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقاً؟! وهل ساد الأمن الشخصي؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزادت المواليد؟ هل أصبح الرأي العام العالمي الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟ الدواء النافع يصبح سماً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء. أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله، وإني لجد آسف فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي).

ويبين السلطان عبد الحميد بأن موقفه ليس دائماً تجاه الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها، إذا اختلفت، فستختلف وجهة نظره في الحكم الدستوري. وفي هذا يقول: (ينبغي ألا يظن أن فكري واقتناعي دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروطية).

إن السلطان عبد الحميد مر عصره بظروف عصيبة، وأزمات شديدة، وتآمر عالمي على الدولة العثمانية من الداخل والخارج فشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية لمنع التدخل الأوروبي في شؤون الدولة، وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية وقام بإبعاد الكتاب والصحفيين عن العاصمة، وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية المجيدة في ولايات الدولة، واستطاع أن يشكل جهازا استخباريا قويا لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج، واهتم بفكرة الجامعة الإسلامية وحقق بها نتائج عظيمة، واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجي العميق وعملوا على تفتيته.

لقد تكلم السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته وبين الغرض منه فقال: (حسب العرف العثماني، يتعرف السلطان على تفكير الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب، وعن طريق التكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها. جدّي السلطان محمود الثاني وسع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحل إليها. كان ذلك عندما ارتقيت العرش، وعلى ذلك استمر. علمت ذات يوم من موسوروس باشا، سفيرنا في لندن، أن الصدر الأعظم السابق، السَرْ عسكر حسين عوني باشا، تسلم نقوداً من الانكليز. إذا كان الصدر الأعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته، فإن مخابراته لابد أن تبلغ القصر على أنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل، لذلك تكدرت وتأثرت، في أثناء تلك الأيام قابلني محمود باشا، وأدلى إلي ببعض معلومات عن بعض أعضاء «تركيا الفتاة» وكانت الأخبار التي قدمها لي هامة. سألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت أنه أنشأ مخابرات خاصة، واحتوى – بالنقود - أقارب لبعض الأشخاص من «تركيا الفتاة» وهؤلاء كانوا يقابلون أقاربهم ويسمعون منهم ثم يخبرونه، فيدفع لهم.

صحيح أنه زوج أختي، إلا أنه لا يصح أن يقيم أحد باشاوات الدولة مخابرات مستقلة عن مخابرات الدولة. قلت له أن يحل جهازه هذا فوراً، وألا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرة أخرى، أحال إليّ جهازه هذا، وهو متضايق كثيراً. لا يمكن للدولة أن تكون آمنة، إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزير أعظم. بناءً على هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة، وهذا هو الجهاز الذي يسميه أعدائي بالجورنالجية (الشرطة السرية = المخابرات). وكان ضرورياً أن أعرف أن بين أعضاء جهاز الجورنالجية (المخابرات) المخلصين الحقيقيين أشخاصاً مفترين، لكني لم أصدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقق دقيق.

كان جدّي السلطان سليم (سليم الثالث) يصيح قائلاً: (إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء إلى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوروبي وعلينا إرسال الرسل إلى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلم ما وصلوا إليه. كنت أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليس فوق كبدي، وإنما في داخله. إنهم يشترون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي. كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقت عليهم من خزانة الدولة ولا أستطيع معرفة ما يعملونه وما يديرون ويعدون؟ نعم، أنا أسست

جهاز الجورنالجية (المخابرات). وأنا أدرته. متى حدث هذا؟ بعد أن رأيت صدوري العظام يرتشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم والتآمر على سلطانهم، أسست هذا الجهاز لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي يعرف ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي في الوقت الذي كانوا يتسلمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حلوقهم!!).

لقد وجهت للسلطان عبد الحميد انتقادات عنيفة من قبل جمعية الاتحاد والترقي بسبب جهاز الاستخبارات الذي شكله. وفي الحقيقة إن ذلك الجهاز استطاع أن يحقق ايجابيات كبيرة للدولة العثمانية فعندما (كان مثيرو الشغب والإرهابيون يثيرون الأرمن للتمرد ضد الدولة العثمانية كان الجنود يتصدون لهم وتراق دماء كثيرة ... كان جهاز السلطان عبد الحميد - خلال ثلاثين سنة - يخبر السلطان فور ظهور كل حركة ولذلك تمكن السلطان من إخماد كل تمرد داخلي في حينه).

ثالثاً: تمردات وثورات في البلقان:

قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج عن الدولة العثمانية وكان ذلك في عام (1293هـ/ 1876م) واستطاع العثمانيون إخمادها، ورغب السلطان عبد الحميد في منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضرائب بين المسلمين والنصارى. ولم يرض ذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التي قمعت أيضاً، ولكن النمسا التي كانت وراء الثورة وترغب في ضم البوسنة والهرسك إليها استمرت في تحريض السكان ضد الدولة العثمانية، فعملت مع روسيا وألمانيا وفرنسا وانكلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا بذلك. وهذا يدل على أن المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل في شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها.

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الذي قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية وخاصة روسيا، فقد تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب

والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين. وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والأموال؛ فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على الثورة، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التي ارتكبها العثمانيون ضد النصارى والعكس هو الصحيح وبهذه الشائعات أثير الرأي العام الأوروبي ضد الدولة العثمانية، وطالبت الحكومات الأوروبية باتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها حصول البلغار على استقلال ذاتي وتعيين حاكم نصراني لهم.

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم. وشرع الجنود الروس بالتدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة.

واجتمع مندوبو الدول الأوروبية في اسطنبول وقدموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإماراتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود.

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، وأن يرفع العلم العثماني والصربي دليلاً على السيادة العثمانية.

لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعي لسقوط الدولة العثمانية حيث قال في مذكراته: (رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذي عقد في اسطنبول ما عزمت عليه هذه الدول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتي لهؤلاء الرعايا. ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية. كانوا يعملون على تقسيم هذا الهدف على صورتين:

الأولى: إثارة الأهالي المسيحيين، وتعكير صفاء الجو، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم.

والثانية: القول بالمشروطية، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا، واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السمن، فلم يستطع بعض الشباب العثماني المثقف أن يفرق بين التطبيق السهل والحكم الدستوري في بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذر هذا الحكم في الدول التي لا تتمتع بوحدة قومية).

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية:

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية وقد نص (بطرس الأكبر) (1627-1725م) في وصيته للروس (في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) على ضرورة الصراع الحضاري ضد العثمانيين، إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود.

يقول (بطرس الأكبر) في الفقرة التاسعة من وصيته:

(نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم. بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين).

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول: (نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوروبا).

وفي الفقرة الثالثة عشرة يقول: (وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق والبحر الأسود ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا).

لقد روسيا إهتمت بتلك الوصية، وفي عصر السلطان عبد الحميد الثاني كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية، ولم تكتف بذلك بل عملت على قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا، والصرب، واليونان، وبعد أن حقق العثمانيون انتصارات رائعة في البلقان استعدت روسيا للحرب ثم أعلنتها حربا لا هوادة فيها ضد الدولة العثمانية، وانضمت رومانيا إلى روسيا، ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها «تيرنوه» و«نيقولبلي بل» التي تقع في بلغاريا حالياً، كما استولى الروس على بعض النقاط المهمة

والمعابر المؤدية إلى البلقان، وقام السلطان عبد الحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) التي تقع في بلغاريا حالياً وهي من أهم المعابر إلى البلقان، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح ذلك القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة أخرى، مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصاً في الثناء على ذلك القائد.

وأمام هذا الصمود حاول الروس تغيير سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي بنفسه على المعركة القادمة وانضم أمير رومانيا إلى روسيا وكان معه 100 ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم 150 ألف مقاتل ففرضوا حصاراً على ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، ومع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم أن عددهم كان قرابة 50 ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون، فسقطت أعداد منهم شهداء على أيدي قوات الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين جنده عن استشهاده ففت ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع إلى المدينة، ولكن بعض قوات الروس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فاضطروا إلى الاستسلام للقوات الروسية. وكان ذلك في عام 1294هـ أواخر سنة 1877م، وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح إلى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه، حتى أن القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتالية وصبره. وأرسل عثمان باشا إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام 1877م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام ولم يعامل «عثمان باشا» معاملة الأسير.

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة. وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا، ولم يكتف الروس بهذا، بل توجهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا إلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلومتراً عن اسطنبول، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئاً إلى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس إلى الأناضول، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة احمد مختار باشا على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسوماً في الثناء عليه، وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة 1295هـ من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها.

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوروبا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفان عام 1878م.

عقدت هذه المعاهدة في 3 مارس عام 1878م. ووقعها «صفوت باشا» عن الدولة العثمانية وهو يبكي. وكان لابد بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية.

معاهدة سان ستيفان 15 فبراير 1878م (1295هـ):

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل اسطنبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة:

- تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.
- تستقل إمارة الصرب وتضاف إليها أراض جديدة.
- تستقل بلغاريا استقلالاً ذاتياً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدداً إلى الدولة العثمانية ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس. وينتخب الأمير من قبل السكان ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا.

- تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.
- يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس.
- يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.
- تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدرها 245 مليون ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراضي مقابل هذا المبلغ.
- تبقى المضائق (البوسفور والدردنيل) مفتوحة للسفن الروسية في السلم والحرب.
- يمكن للمسلمين في بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية.

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدولة في أوروبا، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدول البلقانية الأخرى: النمسا، اليونان، والصرب، كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسي في البلقان واستعدت لمحاربة روسيا وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص وإدارتها (يونيو 1878م) على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية، وذلك في مقابل تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة في آسيا في وجه أي مزيد من التهديدات الروسية، بشرط أن يتعهد السلطان من جانبه بإدخال الإصلاحات اللازمة في أملاكه الآسيوية بالتشاور مع بريطانيا، وقد تعهدت بريطانيا بالجلاء عن قبرص في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلوها في آسيا.

لم يكن السلطان عبد الحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب لذلك لم يصدق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا في الوقوف إلى جانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستيفانو من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدولة، وقللت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

ودلت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبد الحميد السياسية، التي تمثلت في إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا أيضاً.

يقول الإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» في مذكراته:

(جرى لي حديث مع أحد كبار القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاط القيصري في عهد «الكسندر الثاني» قيصر روسيا، عن العلاقات بين البلاطين الروسي والألماني وبين الجيشين والبلدين فقلت لهذا القائد: إني أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات. فقال لي:

الذنب في ذلك على مؤتمر برلين ! تلك غلطة كبرى ارتكبها «بسمارك» فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط الروسي ومن الحكومة الروسية. وجعل الجيش يشعر بأنه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التي خاض غمارها عام 1877م).

مؤتمر برلين (1305هـ/1887م):

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (انكلترا، فرنسا، ألمانيا والنمسا) وجرى البحث في هذا المؤتمر في تعديل معاهدة سان ستيفانو التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لا تتفق مع مصالحها الإستراتيجية ... واتفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان ستيفانو وعقدت معاهدة برلين والتي تناولت الشروط التالية:

1 – استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها، وتتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروملي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً، ويحكمها نصراني، يعين لمدة خمس سنوات باتفاق الدولة وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروملي الشرقي وتحدد بخمسين ألف جندي.

2 – تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم بأن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان ستيفانو أي جزء منها.

3 – ضم البوسنة والهرسك للنمسا.

4 – ضم بسارابيا إلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا، وتضم مقاطعة دوبرجيه وبعض الجزر إلى رومانيا ومنحها الاستقلال التام.

5 – استقلال الصرب والجبل الأسود.

6 – ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا.

7 – قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التي قررتها معاهدة سان ستيفانو على الدولة العثمانية ومقدارها 2.5 مليار ليرة ذهبية.

8 – تعهد الباب العالي بأن يقبل بلا تمييز في الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم.

9 – الموافقة على تحسين أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الذي دعا إلى عقد المؤتمر خشية أن يؤدي تصدي بريطانيا إلى روسيا إلى نشوب حرب أوروبية عامة وتهديد الاتحاد الألماني الذي جاهد كثيراً من أجل قيامه، فإنه دعا الدول العظمى إلى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان ستيفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبي، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا البوغازين (البوسفور والدردنيل) وغير ذلك من أملاك السلطان. غير أن هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر.

وهكذا فإن مؤتمر برلين يعد من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها. كما أنه يسجل تعهد بريطانيا وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية. غير أن بريطانيا وفرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعمارية، فقد احتلت فرنسا تونس عام (1299هـ/ 1881م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص واحتلت بريطانيا مصر عام (1300هـ/ 1882م) معلنة أن احتلالها مؤقت.

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلامية لكي يعمل على تكتل كافة المسلمين من حوله في الداخل والخارج.

ولاشك أن حركة الجامعة الإسلامية قد لاقت استحساناً وقبولاً لدى المسلمين الذين اعتقدوا أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الديني عند المسلمين، الأمر الذي دفع فيه أعداء الإسلام للزحف على دار الإسلام ونهبها بلداً تلو الآخر.

الجامعة الإسلامية

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية في معترك السياسة الدولية إلا في عهد السلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية عام 1876م. فبعد أن ألتقط السلطان عبد الحميد أنفاسه وجرد المتأثرين بالفكر الأوروبي من سلطاتهم، وتولى هو قيادة البلاد، قيادة حازمة، اهتم بفكرة الجامعة الإسلامية، وقد تكلم في مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين

والهند وأواسط أفريقيا وغيرها، وحتى إيران، وفي هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه وإذا أردنا أن نفوّت الفرصة على الانجليز وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر) وتحدث عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا التي تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانية، يقول عبد الحميد الثاني: (الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة) لذلك يرى أن (الانجليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن البعض أصبح يقدم القومية على الدين. ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلامية إلى هز عرشي ... وأن الفكر القومي قد تقدم تقدماً ملموساً في مصر. والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الانجليز..إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الإسلامية ويهزون معها اعتبار الخلافة).

ويقول عن السياسة الانجليزية تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الانكليزية ما نصه: يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الانكليزية، ويجب على انكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة ... إن إنجلترا تعمل لهدفين: إضعاف تأثير الإسلام وتقوية نفوذها وبالتالي.. لذلك أراد الانجليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديوي أميراً للمؤمنين لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبع بطابع الكفار).

وعندما ظهر اقتراح انكلترا لإعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة المسلمين يعترف السلطان عبد الحميد الثاني بأنه لم يكن لدية الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية .. (ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية، وإن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونانيين وزنوج وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة).

ويُعبر عبد الحميد الثاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة. ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتي. سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار).

كانت فكرة الجامعة الإسلامية في نظر السلطان عبد الحميد يمكن بها أن يحقق أهدافاً منها:

- مواجهة أعداء الإسلام المثقفين بالثقافة الغربية، والذين توغلوا في المراكز الإدارية والسياسية الحساسة، في أجهزة الدول الإسلامية عموماً، وفي أجهزة الدولة العثمانية خصوصاً، عندما يجدون أن هناك سداً إسلامياً ضخماً وقوياً يقف أمامهم.

- محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدها عندما تجد أن المسلمين قد تكتلوا في صف واحد، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعمارية ووقفوا ضدها بالوحدة الإسلامية.

- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية، يحسب له حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي -الأوروبي النصراني.

- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية.

- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها وبذلك يمكن إعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة، في الميادين كافة وبذلك تستعيد هيبتها وتكون درساً تاريخياً.

يقول السلطان عبد الحميد: (إن العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الإسلامي، أفضل من إلقائه أرضاً، وتكوين كيان غريب فكرياً واجتماعياً على نفس الأرض).

- إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صورياً كما حدث لفترة. وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدة شعورية بين شعوب المسلمين جميعاً. يكون هو الرمز والموجّه والموحّد.

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطاني (آرنولد توينبي) في قوله: (إن السلطان عبد الحميد كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين).

ولذلك استخدم السلطان عبد الحميد ، كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت، من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامي، من العلماء والمبرزين، في مجالات السياسة، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي المختلفة، للالتقاء

بالشعوب الإسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الإسلامية، ومراكز الدراسات الإسلامية، في الداخل والخارج، وطبع الكتب الإسلامية الأساسية، ومحاولة اتخاذ اللغة العربية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية، لغة للدولة أو ما يسمى بالتعبير المعاصر «تعريب» الدولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل، وتدريبهم على الإدارة، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الإسلامية في الدعاية للجامعة الإسلامية، واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضروري.

ولقد ألتفتت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الإسلامية إلى دعوة الجامعة الإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كامل من مصر، وأبي الهدى الصيادي من سوريا، وعبد الرشيد إبراهيم من سيبريا، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرها.

أولاً: جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد:

أيد جمال الدين الأفغاني، دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان. ولم يكن السلطان يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية، ووحدة حركة بينهما. وهي وحدة شعورية عملية، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة، لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعاً، يرمي إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة وكانت نظرة السلطان عبد الحميد لا ترمي في هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي.

واستفاد السلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغاني، في الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغاني، ومن أسباب الاختلاف:

إيمان الأفغاني بقضية وحدة المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثوار ضد السلطان عبد الحميد، من القوميين الأتراك والعثمانيين عامة.

دعوة الأفغاني لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلب واحد، في مواجهة الدول الأوروبية الرامية إلى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على

انهيارها، وفي نفس الوقت، لم يتعرض الأفغاني للاستعمار الفرنسي، ولو بكلمة تنديد. في وقت احتاج فيه السلطان عبد الحميد إلى مقاومة الفرنسيين في شمال أفريقيا.

تنديد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزي في حين يذكر السلطان عبد الحميد أن المخابرات العثمانية، حصلت على خطة أعدت في وزارة الخارجية الانكليزية، واشترك فيها جمال الدين الأفغاني وبلنت الانكليزي، وتقضي هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن السلطان عبد الحميد وعن العثمانيين عموماً. وبلنت هذا سياسي إنكليز يعمل في وزارة الخارجية الانكليزية، ومؤلف كتاب «مستقبل الإسلام» ودعا فيه صراحة إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيين، وتقليدها للعرب، وقد رد مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر على «بلنت» في كتابه المشهور (المسألة الشرقية) قائلاً: (وبالجملة فإن حضرة مؤلف كتاب مستقبل الإسلام يرى – وما هو إلا مترجم عن آمال بني جنسه – أن الأليق بالإسلام أن ينصب انكلترا دولة له بل إن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً).

رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية ضد الدولة العثمانية، واقتطاع الروس لأجزاء من الأراضي العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغاني من مبدأ التوسع الروسي غريباً على مفهوم الجامعة الإسلامية، لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيوية وإستراتيجية في الهند، تدفعهم لاحتلالها. وليس لدى الأفغاني اعتراض على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس باتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تسهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة.

الخلاف العقدي الذي ظهر بين العلماء في اسطنبول وبين جمال الدين الأفغاني وظهور كتاب الشيخ (خليل فوزي الفيليباوي) المعنون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغاني وسكوت الأفغاني عن هذا، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللغة العربية، ومترجم وقتها إلى اللغة التركية.

مالَ السلطان عبد الحميد، إلى تركيز كل السلطات في يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدروه العظام المتأثرين بالفكر الغربي، والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطية أوروبية، تضم مجلساً منتخباً يمثل كل شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السلطان عبد الحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلي للبرلمان. في حين أن جمال الدين الأفغاني يميل إلى الديمقراطية، وعدم تركيز السلطات في يد شخص واحد بعينه، وميل الأفغاني إلى الحرية في التعبير عن الرأي.

ولقد ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته بأن جمال الدين الأفغاني مهرج وله علاقة بالمخابرات الإنكليزية: (وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنكليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنكليزي يُدعى بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك. واقترحا على الانكليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين. كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب. كان في مصر، وكان رجلاً خطيراً. اقترح عليّ ذات مرة - وهو يدّعي المهدية- أن يشير جميع مسلمي آسيا الوسطى. وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا، وكان رجل الانكليز، ومن المحتمل جداً أن يكون الانكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري فرفضت فوراً، فاتحد مع بلنت. استدعيته إلى اسطنبول عن طريق أبي الهدى الصيادي الحلبي، الذي كان يلقي الاحترام في كل البلاد العربية. قام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا، حامي الأفغان القديم، والأديب الشاعر عبد الحق حامد. جاء جمال الدين الأفغاني إلى اسطنبول، ولم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها).

أما رأي جمال الدين الأفغاني في السلطان عبد الحميد فإنه يقول: (إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جليسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته سواء من ذلك الملك والأمير والوزير والسفير).

وقال: (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجاً وسلماً، وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في المالك العثمانية، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم المالك الأوروبية بأسرها).

ويقول: (أما ما رأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموماً، فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين، أن المالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدرائها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم).

إن جمال الدين الأفغاني أمره محير فهناك من يدافع عنه وهناك من يتهمه بالعمالة والانضمام إلى المحافل الماسونية فمثلاً، كتاب دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام

للمؤلف مصطفى فوزي عبد اللطيف غزال يرى أنه كان من عوامل الهدم في الأمة في تاريخها الحديث، أما كتاب جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه للدكتور محسن عبد الحميد فيراه من المصلحين.

ثانياً : الطرق الصوفية :

استهدف السلطان عبد الحميد الطرق الصوفية في كسب ولائها للدولة العثمانية، والدعوة إلى فكرة الجامعة الإسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة -اسطنبول- وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية في كل أنحاء العالم الإسلامي، واتخذ من حركة التصوف في العالم الإسلامي وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، كما اتخذ من الزهاد من غير المتصوفة وسيلة أيضا للدعوة لفكر التجمع الإسلامي، وتكونت في عاصمة الخلافة لجنة مركزية، مكونة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان في شؤون الجامعة الإسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة في الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادي) شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسي) شيخ الطريقة المدنية، ولقد كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية في كافة الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة، ومن أهمها التي كانت في مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية في موسم الحج بين الحجاج، وأخرى في بغداد، وتقوم بنفس المهمة بين أتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الأفريقي لزيارة الشيخ عبد القادر الكيلاني مؤسس الطريقة، وقد قدرت أعداد هؤلاء في إحدى السنوات بحوالي (25.000) نسمة. وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا، ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الأفريقي من بغداد، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسي بأنها: (استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية).

وللجنة المركزية للجامعة الإسلامية في اسطنبول، فرع أفريقي يعمل في شمال أفريقيا، وهو يعمل في سرية تامة، مهمته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي: (الشاذلية والقادرية والمدنية).

وبلغ من نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية في شمال أفريقيا بقولها: (ويمكن للسلطان عبد الحميد - بصفته رئيساً للجامعة الإسلامية - أن

يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية في شمال أفريقيا- جيشاً محلياً منظماً، يتمكن - إذا لزم الأمر- أن يقاوم به أي قوة أجنبية).

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الإسلامية في شمال أفريقيا وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبد الحميد في نفوس مسلمي شمال أفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها في شمال أفريقيا.

منع الحجيج من الحج، حتى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلامية بالسبل المناسبة. بمعنى: عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا.

وأرسل السلطان عبد الحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الانكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها إلى العرب. واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لاسيما الحجاز.

وهناك اتصالات بين السلطان عبد الحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلامية، وخليفة المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية، وبين تجمعات الطرق الصوفية وشيوخها في تركستان، وفي جنوب أفريقيا، وفي الصين. بعضها كشف عنها النقاب، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كافٍ بعد.

لقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني في جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضل السكوت عن كثير من انحرافاتها العقدية بحيث أن الطرق الصوفية في تلك المرحلة انحرفت عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا من رحم الله ولذلك أضعفت الأمة وساهمت في سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية السنية.

ثالثاً: تعريب الدولة:

كان السلطان عبد الحميد يرى - منذ أن تولى الحكم- ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفي هذا يقول: (اللغة العربية لغة جميلة. ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على خير الدين باشا -التونسي- عندما كان صدراً

أعظم أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر أعترض على اقتراحي هذا. وقال: إذا عرّبنا الدولة فلن يبقى - للعنصر التركي - شيء بعد ذلك. كان سعيد باشا رجلاً فارغاً، وكلامه فارغاً. ما دخل هذه المسألة بالعنصر التركي؟! المسألة غير هذه تماماً. هذه مسألة، وتلك مسألة أخرى، اتخاذنا للغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه -على الأقل - أن يزيد ارتباطنا بالعرب).

إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يشكو وخصوصاً في بداية حكمه من أن الوزراء وأمناء القصر السلطاني، كانوا يختلفون عنه في التفكير، وأنهم متأثرون بالغرب وبالأفكار القومية والغربية وكانوا يشكلون ضغطا على القصر، سواء في عهد والده السلطان عبد المجيد، وفي عهد عمه السلطان عبد العزيز، أو في عهده هو. ولم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السلطان عبد الحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط: بل تعداه إلى معارضة من بعض علماء الدين.

إن من الأخطاء التي وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

يقول الأستاذ محمد قطب: (ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت اللغة العربية التي نزل بها هذا الدين فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلاً عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما في حاجة إليه، على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية وما ألف أصلاً بالتركية حول هذا الدين).

رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة وسفور المرأة:

عندما تولى السلطان عبد الحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثراً بالفكر الغربي، وأن التيار القومي: هو التيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شؤونها ووجّهها - من خلال نظرته السياسية - إلى الدراسات الإسلامية. فأمر بالآتي:

- استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونها وسيلة من وسائل الأدب الغربي، والتاريخ القومي للشعوب الأخرى مما يؤثر على أجيال المسلمين سلباً.

- وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق في برامج الدراسة.
- الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الإسلامي بما فيه العثماني.

وجعل السلطان عبد الحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية.

وأهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهن بالرجال، وفي هذا يذكر السلطان في معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقي له بأنه عدو العقل والعلم بأنه: (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال، داراً للمعلمات؟!).

وقام بمحاربة سفور المرأة في الدولة العثمانية، وهاجم تسرب أخلاق الغرب، إلى بعض النساء العثمانيات، ففي صحف اسطنبول في 3 أكتوبر 1883م ظهر بيان حكومي موجه إلى الشعب يعكس وجهة نظر السلطان شخصياً في رداء المرأة.

يقول هذا البيان: (إن بعض النساء العثمانيات اللائي يخرجن إلى الشوارع في الأوقات الأخيرة، يرتدين ملابس مخالفة للشرع. وإن السلطان قد ابلغ الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة. كما أبلغ السلطان الحكومة أيضا بضرورة عودة النساء إلى ارتداء الحجاب الشرعي الكامل بالنقاب إذا خرجن إلى الشوارع). وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ القرارات التالية:

- تعطى مهلة شهر واحد يمنع بعده سير النساء في الشوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الإسلامي القديم. وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كل زينة ومن كل تطريز.

- يُلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفاف. وبالتالي ضرورة العودة إلى النقاب الشرعي الذي لا يبين خطوط الوجه.

- على الشرطة - بعد مضي شهر على نشر هذا البيان - ضمان تطبيق ما جاء فيه من قرارات بشكل حاسم، وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة في هذا.

- صدّق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية.

- ينشر هذا البيان في الصحف ويعلق في الشوارع.

وفي اليوم التالي لنشر هذا البيان، أي في 4 أكتوبر قالت جريدة (وَقِتْ) الصادرة في اسطنبول: (إن المجتمع العثماني عموماً يصوِّب هذا القرار ويراه نافعاً).

وكان السلطان عبد الحميد يرى: (أن المرأة لا تتساوى مع الرجل من حيث القوامة) ويقول: (مادام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهية ولا داعي للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل). ويرى: (إن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب).

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات، في وقت كان الإعلام العثماني يثير هذه القضية معترضاً عليها. ويقول السلطان: (لماذا يعترض بعض المثقفين على هذا الأمر، ولماذا لا يعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدولة العثمانية، في بعض أماكن أوروبا وأمريكا؟) ويؤكد السلطان: (أن مبدأ تعدد الزوجات مباح في الإسلام فماذا يعني الاعتراض عليه؟).

لقد كان السلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة ولذلك أنشأ داراً للمعلمات، لتخريج معلمات للبنات كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة ولم يكن في عهده للمرأة رأي في شؤون الدولة مهما كانت هذه الشؤون وإنما دور المرأة في البيت وتربية الأجيال وكان يعامل المرأة معاملة كريمة نادرة، فهذه زوجة أبيه التي احتضنته وقامت بتربيته، عندما تولى السلطان العرش، أعلن زوجة أبيه التي ربته (والدة السلطان) بمعنى الملكة في المفهوم الحديث. وكانت الملكة في القصر العثماني، هي أم السلطان وليست زوجته كما في الدول الأخرى. ومع كل هذا، ففي اليوم التالي لتنصيب السلطان عبد الحميد على عرش الدولة العثمانية، قابل زوجة أبيه وهي التي أحبها حباً بالغاً، وقبل يدها وقال لها: (بحنانك لم اشعر بفقد أمي، وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها. ولقد جعلتك السلطانة الوالدة.. يعني أن الكلمة في هذا القصر لك. لكنني أرجوك -وأنا مصر على هذا الرجاء- ألا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة، كَبُرَ أم صَغر).

خامساً: مدرسة العشائر:

أنشأ السلطان عبد الحميد في اسطنبول، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولاً العشائر العربية، من ولايات حلب، وسورية، وبغداد، والبصرة، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب، واليمن، والحجاز، وبنغازي والقدس، ودير الزور.

وكانت مدة الدراسة في مدرسة العشائر العربية في اسطنبول خمس سنوات، وهي داخلية، تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب، ولكل طالب «إجازة صلة

الرحم» وهي إجازة مرة كل سنتين. وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة، وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في اسطنبول كان كالآتي:

السنة الأولى: القرآن الكريم - الأبجدية - العلوم الدينية - القراءة التركية - إملاء - تدريب عسكري.

السنة الثانية: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية- الإملاء - الحساب- القراءة التركية - تحسين الخط، تدريب عسكري.

السنة الثالثة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الإملاء - حسن الخط- الحساب -الجغرافيا - الفرنسية - التدريب.

السنة الرابعة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الصرف العربي- اللغة الفارسية - الكتابة والنحو التركي - الجغرافيا - الحساب - حسن الخط الفرنساوي - التدريب.

السنة الخامسة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - النحو العربي- اللغة الفارسية - التاريخ العثماني - القواعد العثمانية - الكتابة والقراءة التركية - المكالمة التركية - الجغرافيا - الحساب - الهندسة - حسن الخط- المعلومات المتنوعة - حفظ الصحة - أصول إمساك الدفاتر - اللغة الفرنسية - حسن الخط الفرنساوي - الرسم - التدريب.

وكان المتخرجون من هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكرية العالية. ويحصلون بعد ذلك على رتب عالية. كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة المُلكية - وهي مدنية - يدرسون فيها سنة ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثم يعودون إلى بلادهم.

كما أنشأ السلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) الذي أقيم لإعداد الدعاة للدعوة الإسلامية، وللجامعة الإسلامية ثم يتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي يدعون للإسلام، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الإسلامية.

ولقد كانت نظرة السلطان عبد الحميد بعيدة وثاقبة ولذلك اهتم بمسلمي الصين.

خرجت الصحافة في اسطنبول بخبر مفاده أن عددا من مسلمي الصين متحمسون، يحبون العلم ويرغبون الاستفادة من المعارف الإسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية ومدارس، وأن في بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً وجامعاً، يؤدي المسلمون فيها

الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني، وأن خطبة الجمعة في مساجد وجوامع بكين تقرأ باللغة العربية، ثم تترجم إلى اللغة الصينية، وأن الدعاء للسلطان عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل ويمتد إلى كل مساجد الصين وجوامعها.

تأسست في بكين - عاصمة الصين- جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبة إلى السلطان الخليفة عبد الحميد الثاني، أو بتعبير السفير الفرنسي في اسطنبول اسم (الجامعة الحميدية في بكين) وذلك في تقرير له إلى وزارة خارجيته في باريس.

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة، الآلاف من المسلمين الصينيين. وحضره أيضا مفتي المسلمين في بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك.

وفي مراسم الافتتاح، ألقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبد الحميد. وقام مفتي بكين بترجمة الخطبة والدعاء إلى اللغة الصينية. وبكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم وإن مسلمي الصين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برباط الدين المتين. وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة، قد أثر تأثيراً بالغاً في هؤلاء الناس الطيبي القلب، وحرك الدموع في أعينهم.

سادساً: خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان عبد الحميد على كسب الشعوب الإسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والتبرع لها بالأموال والمنح ورصد المبالغ الطائلة لإصلاح الحرمين وترميم المساجد وزخرفتها، وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمي العرب بكل الوسائل، فكون له من العرب حرساً خاصاً وعين بعض الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم (عزت باشا العابد) - من أهل الشام - الذي نجح في أن ينال أكبر حظوة عند السلطان عبد الحميد وأصبح مستشاره في الشؤون العربية. وقد لعب دوراً هاماً في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة وهو المشروع الذي اعتبره السلطان عبد الحميد وسيلة من الوسائل التي أدت إلى إعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الإسلامية.

وأبدى السلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هي:

ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التي تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها.

إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها إلى الجبهات.

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشأت في عهد السلطان عبد الحميد ففي سنة 1900م بدأ بتشييد خط حديدي من دمشق إلى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يوماً، وطريق البحر الذي يستغرق حوالي أثنى عشر يوماً من ساحل الشام إلى الحجاز، وكان يستغرق من المسافرين أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى مكة والمدينة وإنما كان السلطان عبد الحميد يرمي من ورائه أيضاً إلى أهداف سياسية وعسكرية، فمن الناحية السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسة دينية كبيرة إذ نشر السلطان على المسلمين في كافة أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لإنشاء هذا الخط، وقد افتتح السلطان عبد الحميد قائمة التبرعات بمبلغ (خمسين ألفا ذهباً عثمانياً من جيبه الخاص) وتقرر دفع (مائة ألف) ذهب عثماني من صندوق المنافع، وأسست الجمعيات الخيرية وتسابق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال.

وتبرع للمشروع الشخصيات الهامة في الدولة، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسين باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهني باشا) ورئيس لجنة المشروعات (عزت باشا). وتبارى موظفو الشركات في التبرع، مثل موظفي شركة البواخر العثمانية. وكذلك موظفو الدولة العموميون، والولايات مثل ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم في مصر في حملة التبرعات، وشكلت في مصر لجنة الدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي) كما شاركت الصحافة المصرية

في حملة سكة حديد الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة (اللواء) المصرية تبرعات للمشروع بلغت - حتى عام 1904م - ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها مصطفى كامل باشا، كما جمع (علي كامل) مبلغ (2000) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام 1901م.

وأسهم في هذه الحملة جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصري) وشكلت لجان تبرع للمشروع في كل من القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً وعاطفة وتبرعاً للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر أباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع كما تبرع شاه إيران بمبلغ (50.000) ليرة عثمانية.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيين الأجانب في إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأن الأجانب لم يشتركوا إطلاقاً في المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر - على بعد 760 كيلومترا جنوب دمشق- وحتى نهاية المشروع. ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيين مصريين.

وبلغ عدد العمال غير المهرة عام 1907م (7500) عامل. وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (4.283.000) ليرة عثمانية. وتم إنشاء المشروع في زمن وتكاليف أقل مما لو تعمله الشركات الأجنبية في أراضي الدولة العثمانية. وفي أغسطس سنة 1908م وصل الخط الحديدي إلى المدينة المنورة.

وقد وصف السفير البريطاني في القسطنطينية في تقريره السنوي (1) العام 1907م أهمية الخط الحجازي فقال: (إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي للمسلمين، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية، ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة). فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الانكليز على ذلك الخط الحديدي وافتعالهم الأزمات لإعاقته، وانتهازهم أول فرصة لتعطيله ونسفه. لقطع الطريق على القوات العثمانية.

وكان أول قطار قد وصل إلى محطة سكة الحديد في المدينة المنورة من دمشق الشام يوم 22 آب (أغسطس) 1908م وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات

الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافة، فقد اختصر القطار في رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها 814 ميلاً مشقات رحلة كانت تستغرق في السابق أكثر من خمسة أسابيع كما خفقت في ذلك اليوم التاريخي قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين إلى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة.

كانت سياسة عبد الحميد إسلامية محضة، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعاً فكان مد خط السكة الحديدي بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة في تحقيق هدفه المنشود.

كان كرومر المعتمد البريطاني في مصر(1301-1325هـ/ 1883-1907م) من أوائل من ألب أوروبا على الجامعة الإسلامية، وحرص على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الإسلامية ببغض شديد وفي الوقت نفسه نشرت جريدة الأهرام (المصرية) تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الإسلامية. وكانت مهاجمة الجامعة الإسلامية تستتبع بالتالي بمهاجمة الدولة العثمانية حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولها الدول الإسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات والحيلولة دون التقائها مرة أخرى في أي نوع من الوحدة لتستديم سيطرته عليها؛ فاتخذوا لذلك عدة أعمال أساسية من بينها:

- تعميق الدعوات الإقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعرق.
- خلق جو فكري عام لمحاربة الوحدة الإسلامية وتصفيتها.

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائياً وبالتعاون مع الصهيونية العالمية ويهود الدونمة وأذنابهم من جمعيات تركيا الفتاة، والاتحاد والترقي.

سياسة التودد والاستمالة

انتهج السلطان عبد الحميد الثاني سياسة التودد إلى الشخصيات ذات النفوذ في الأوساط الشعبية في مختلف البقاع، فهو من ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك أسس مجلس المشايخ، ورتب رواتب أعضائه، وكان حسن النية مع مرشديهم، وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية عنده، وكان يتودد إلى الشخصيات المهمة والتي تشجع وتقف مع فكرة الجامعة الإسلامية، مثل (مصطفى كامل باشا) في مصر، ويعفو عن أخطاء البارزين - إذا كانوا يحسنون النية معه، ماداموا مقتنعين ومساندين لفكرة الجامعة الإسلامية- مثل (نامق كمال).

وكان يختار بعض طلاب مدرسة العشائر العربية من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد والألبان وحرص على الاتصال بزعماء وشيوخ وأمراء قبائل العرب بواسطة الرسائل والرسل لتقوية روابط الود والمحبة والأخوة الإسلامية، وكان على معرفة تامة بعمل الانجليز الذين اتصلوا بالشيوخ في اليمن، وشيخ عسير وبعض الشيوخ من أجل تحريضهم على الدولة العثمانية وتشجيعهم بالخروج على طاعة الخليفة، والانفصال عن الدولة العثمانية.

وعمل على إبطال مخططات الانكليز ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشك في ولائهم للدولة العثمانية ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة في اسطنبول تحت مسميات المناصب والمرتبات، حتى تأمن الدولة مؤامراتهم.

سابعاً: إبطاله مخططات الأعداء:

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر في تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثماني كردي من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وعندما قامت شركة الهند البريطانية زاد اهتمام الانكليز بالعراق، وقاموا على العمل لإيجاد حركة قومية بين الأكراد، وتجول مندوبون بريطانيون بين عشائر الأكراد في العراق في محاولة لتوحيد العشائر الكردية ضد الدولة العثمانية، وكانت المخابرات العثمانية تتابع الأمور بدقة متناهية ووضع السلطان عبد الحميد خطة مضادة للعمل التدميري الانكليزي فقام بالتالي:

- قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.

- أرسل إلى عشائر الأكراد وفوداً من علماء المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلامية، وأدت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربية.

- اتخذ السلطان عبد الحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة.

- أسس الوحدات العسكرية الحميدية في شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية.

- كان موقف الدولة قوياً ضد أطماع الأرمن في إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون في نفس المنطقة بالأمان.

- عملت الدولة على كشف مخططات الانكليز الهادفة إلى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات في تأسيس كل قومية دولة مختصة بها.

أما في اليمن فقد استطاع السلطان عبد الحميد أن يضيق على النفوذ البريطاني هناك ويحقق نجاحاً ظاهراً في صراعه مع الانكليز في تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقة عسكرية في اليمن قوامها ثمانية آلاف جندي، لإعادة اليمن إلى الدولة العثمانية مرة أخرى، ووصل اهتمامه باليمن إلى إرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و (أحمد فوزي باشا) و (حسين حلمي باشا) و (توفيق باشا) والمشير (عثمان باشا)، و (إسماعيل حقي باشا). وقد حاول الانكليز إذكاء نيران التمرد في اليمن ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التي سار عليها السلطان عبد الحميد كفلت له النجاح في اليمن.

وكانت العقلية العثمانية تسعى لمد خط سكة الحديد من الحجاز إلى اليمن وهذا ما تثبته الوثائق العثمانية التي دلت على وجود تخطيط ودراسة عميقة لهذا المشروع الكبير.

ثامناً: الأطماع الإيطالية في ليبيا:

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال أفريقيا، لأنها تراه ميراثا إيطاليا، هكذا صرح رئيس وزرائها (ماتريني). لكن فرنسا احتلت تونس وانكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا. وقد رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل:

الأولى: الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية».

الثانية: العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة: إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون «بحكمة» و «هدوء» شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظا لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين في «ليبيا» وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إن

للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في ألبانيا، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من:

1- طرابلس الغرب.

2- ألبانيا.

3- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير - الاسكندرون - أنطاكيا).

قام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ (15.000) جندي لتقويتها وظل يقظاً حساساً تجاه التحركات الايطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما ووالي طرابلس، مما جعل الايطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي.

إن فكرة الجامعة الإسلامية كان لها صدى بعيد في العالم الإسلامي لعدة أسباب منها:

- كانت الدول الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتنافس على الاستعمار في الشرق، وحدثت سلسلة اعتداءات على الشعوب الإسلامية فاحتلت فرنسا تونس (1881م) واحتلت انكلترا مصر (1882م)، وتدخلت فرنسا في شؤون مراكش حتى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (1912م) مقتسمة أراضيها مع اسبانيا، وكذلك توغل الاستعمار الأوروبي في بلاد أفريقية إسلامية كالسودان ونيجريا وزنجبار وغيرها.

- تقدمت وسائل النقل والاتصالات بين العالم الإسلامي وانتشرت الحركة الصحافية في مصر وتركيا والجزائر والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوة (اندونيسيا)، وكانت الصحف تعالج موضوع الاستعمار وأطماع الدول الأوروبية في العالم الإسلامي وتنشر أخبار الأوروبيين المتكررة في الهجوم على ديار الإسلام، فتتأثر القلوب، وتهيج النفوس، وتتفاعل مشاعر وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين.

- كانت جهود العلماء ودعواتهم في وجوب إحياء مجد الإسلام قد نشرت في ربوع العالم الإسلامي الدعوة إلى وحدة الصف وازداد الشعور بأن العدوان الغربي بغير انقطاع

على الشعوب الإسلامية مما زادها ارتباطاً وتماسكاً وبأن الوقت قد حان لتلتحم الشعوب الإسلامية وتنضوي تحت راية الخلافة العثمانية وغير ذلك من الأسباب.

إن السلطان عبد الحميد الثاني نجح في إحياء شعور المسلمين بأهمية التمسك والسعي لتوحيد صفوف الأمة تحت راية الخلافة العثمانية وبذلك يستطيع أن يحقق هدفين:

الأول: تثبيت دولة الخلافة في الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية الاستعمارية النصرانية.

الثانية: وفي الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا. وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

السلطان عبد الحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبد الحميد الثاني واليهود من أهم الأحداث في تاريخ هذا السلطان.

إن أمر اليهود وعداؤهم للإسلام تعود جذوره إلى ظهور الإسلام، فمنذ أن أنتصر الإسلام وأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنورة لخيانتهم المتكررة وعداواتهم الدائمة ومن ثمّ عن سائر الجزيرة العربية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وهم يكيدون له، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام وبث السموم في جسم الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل وما عبد الله ابن سبأ والقرامطة والحشاشين والراوندية والدعوات الهدامة التي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد.

لقد أهدى تتار بلاد القرم للسلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي فتاة يهودية روسية كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم فتزوجها السلطان سليمان القانوني وأنجبت له بنتاً فما إن كبرت تلك البنت حتى زوجتها أمها اليهودية من اللقيط الكرواتي رستم باشا ثم إمعاناً منها في الغدر تمكنت من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ونصبت صهرها اللقيط بدلاً عنه، ثم قامت بتدبير مؤامرة أخرى استطاعت بها أن تتخلص من ولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأولى ونصبت ابنها سليم الثاني ولياً للعهد.

في ذلك الزمن كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هرباً من محاكم التفتيش، فتقدمت تلك اليهودية من السلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة إلى البلاد، وبالفعل فقد استقر قسم منهم في أزمير ومنطقة أدرنة، ومدينة بورصة والمناطق الشمالية والغربية من الأناضول، وبعد استقرارهم في الدولة العثمانية، طبقت الحكومة عليهم أحكام الشريعة الإسلامية حيث تمتعوا في ظلها بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، وفي الواقع فإن يهود إسبانيا لم يجدوا المأوى فقط في تركيا العثمانية، بل وجدوا الرفاهية والحرية التامة بحيث أصبح لهم التسلسل الهرمي في الدولة، إذ تغلغلوا في المراكز الحساسة منها مثل دون جوزيف ناسي وغيره، وتمتع يهود إسبانيا بشيء كبير من الاستقلال وأصبح رئيس الحاخامين مخولا له السلطة في الشؤون الدينية والحقوق المدنية بحيث أن مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة إلى درجة تحولت إلى قانون يخص اليهود.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى أن علي باشا وزير الخارجية (أصبح فيما بعد الصدر الأعظم) قد أشرك في بعثته الدبلوماسية عددا من اليهود في عام 1865م المرسلة إلى الأقطار الأوروبية المسيحية.

إن اليهود تمتعوا بكافة الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة، ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل في الدولة العثمانية.

أولاً: يهود الدونمة:

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ إن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التي تعني الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإنه يعني المرتد أو المتذبذب، بينما تعني هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهباً دينياً جديداً، دعا إليه الحاخام ساباتاي زيفي، أما المفهوم السياسي لهذه الكلمة فإنه يعني اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص، وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون في المدن الإسلامية وخاصة في ولاية سلانيك، وأطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية إلى الإسلام، ثم أصبح علماً على فئة من يهود الأندلس الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسلامية.

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاي زيفي الذي أدعى بأنه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر، حيث انتشرت في تلك الأيام شائعة تقول إن المسيح سيظهر في عام 1648م كي يقود اليهود في صورة المسيح، وأنه سوف يحكم العالم في فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة. وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة عندئذ في المجتمع اليهودي، وكانت الأوساط اليهودية القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح. ولذلك صادفت دعوة شبتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا، بل أيدها كثير من اليهود وأصحاب الأموال لأغراض سياسية ومالية.

وذاع أمر شبتاي في أوروبا وبولندا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإيطاليا وشمال أفريقيا وغيرها. وفي أزمير أخذ يلتقي بالوفود اليهودية التي جاءت من أدرنة وصوفيا واليونان وألمانيا، حيث قلدته هذه الوفود تاج «ملك الملوك» ثم قام شبتاي بتقسيم العالم إلى ثمانية وثلاثين جزءاً، وعين لكل منها ملكاً، اعتقاداً منه بأنه سيحكم العالم كله من فلسطين، حيث كان يقول في هذا المجال: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر وأعتبر القدس قصراً لي).

وقام شبتاي بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنيس اليهود وجعل أسمه محل اسم السلطان، وسمى نفسه (سلطان السلاطين) و(سليمان بن داود) مما لفت انتباه الحكومة العثمانية.

وأصبح شبتاي مصدر قلق لكثير من حاخامي اليهود ورفعوا ضده شكوى إلى السلطان، أكدوا فيها أن شبتاي ينوي القيام بحركة تمردية في سبيل تأسيس دولة يهودية في فلسطين.

ونتيجة لاشتداد فتنة شبتاي زيفي، أصدر الوزير القوي أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه، وأودعه الوزير في السجن، وظل فيه لمدة شهرين ثم نقل إلى قلعة جزيرة غاليبولي على الدردنيل، وسمح لزوجته وكاتبه الخاص أن يتخذا لهما سكناً معه وأصبح له مجلس كمجلس الأمراء، لا يدخل عليه إلا بإذن مسبق وينتظر الذين يريدون أن يتمتعوا برؤيته أياماً من أجل ذلك وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها والقادمات حيث كانت وفود يهودية من أنحاء العالم تأتي لزيارته.

حوكم شبتاي في سراي أدرنة، حيث شكل السلطان هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من (شيخ الإسلام) يحيى أفندي منقري زادة وواحد من

كبار العلماء وهو إمام القصر محمد أفندي وانلي، وقام بدور المترجم من الإسبانية إلى التركية الطبيب مصطفى حياتي.

أكد قاضي المحكمة، أن المسألة تعد بالنسبة للدولة العثمانية خطيرة، وعلى مسمع من السلطان الذي جلس في غرفة مجاورة، وبواسطة الترجمان قيل لسبتاي: تدعي أنك المسيح فأرنا معجزتك سنجردك من ثيابك ونجعلك هدفاً لسهام المهرة من رجالنا فأن لم تغرز السهام في جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك. فهم شبتاي ما قيل له فأنكر ما أسند إليه وقال إنهم تقولوا عليه، فعرض عليه الإسلام فدخل فيه تحت اسم محمد عزيز أفندي، وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، فأذنت له وانتهزها فرصة فأنطلق بين اليهود يواصل دعوته إلى الإيمان به ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين في ظاهرهم الإسلام مبطنين يهوديتهم المنحرفة.

وظل شبتاي وأنصاره يتبعون دينهم الموسوي سراً، ويمارسون العمل للصهيونية في الخفاء، ويظهرون الإخلاص للإسلام في العلن والصلاح والتقوى أمام الأتراك، وكان يقول لأتباعه إنه كالنبي موسى الذي اضطر أن يبقى مدة من الزمن في قصور الفراعنة، وفي ظل هذه الظروف ألقي القبض على شبتاي مع مجموعة من أتباعه في كنيس (قوري جشمه) الكائنة في داخل المعبد بسبب أنه كان مرتدياً زياً يهودياً وهو محاط بالنساء يشربون الخمر وينشدون الأناشيد اليهودية وقراءة المزامير مع عدد من اليهود، فضلاً عن اتهامه بدعوته المسلمين إلى ترك دينهم والإيمان به، ولولا تدخل شيخ الإسلام لقطع رأسه، حيث اعترض على إعدامه قائلاً: (لو أعدم هذا المحتال سيكون سبباً لحدوث خرافة في الإنسانية، حيث يدعي مريدوه بعروجه إلى السماء كعيسى عليه السلام). فاكتفي بنفيه إلى مدينة دولسجنو في ألبانيا وذلك في صيف عام 1673م، وتوفى بعد خمس سنوات من نفيه وظلت عقيدة الشباتائية موجودة لدى فرق سالونيك، وتفنن أتباعه في ممارسة المكر والتعصب والتجرد من المبادئ والأخلاق.

وقد نظم شبتاي زيفي عقيدة الدونمة في ثماني عشرة مادة، وفي الحقيقة تعد المادتان السادسة عشرة والسابعة عشرة أهم سمات الدونمة، إذ تشير المادة (16): (يجب أن تطبق عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم ويجب ألا يظهر أحد من الأتباع تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية ولمن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ). أما المادة (17) فإنها تشير إلى الآتي: (إن مناكحتهم - يعني المسلمين - ممنوعة قطعاً).

إن شبتاي يعد أول يهودي بشر بعودة بني إسرائيل إلى فلسطين، وفي حقيقة الأمر، عدت حركة زيفي حركة سياسية ضد سلطة الدولة العثمانية أكبر من كونها حركة دينية.

لقد أسهمت هذه الطائفة في هدم القيم الإسلامية في المجتمع العثماني وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماسونية والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة في المدارس وكان الكثير من رجال الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها.

وقام يهود الدونمة بدور فعال في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد والتي تحركت من سلانيك لعزله وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ولا يزالون حتى وقتنا الحاضر يسعون لذلك، ولهم صحف ودور نشر وتغلغلوا في الاقتصاد العثماني وكل مناحي الحياة في الدولة العثمانية.

وقد استطاعوا أن يؤثروا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان عبد الحميد الثاني عارفاً بحقيقة الدونمة ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول في هذا الصدد: (إن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه، الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على الترك والإسلام وخطرها تماماً، وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهما هو السلطان التركي العظيم كافح هذه المنظمات الخطيرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال).

وفي حقيقة الأمر، أهتم عبد الحميد بإبقاء الدونمة في ولاية سالونيك، وعدم وصولهم إلى الآستانة، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم، ونتيجة للموقف الجاد من عبد الحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا إستراتيجية مضادة له، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش.

ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحرية والديمقراطية وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة العثمانية بين صفوف الجيش. وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية.

ثانياً: السلطان عبد الحميد وزعيم اليهودية العالمية (هرتزل):

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودور هرتزل) أن يتحصل على تأييد أوروبي للمسألة اليهودية من الدول (ألمانيا وبريطانيا وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد وطلب فلسطين منه، وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها، الأمر الذي دفع عبد الحميد الثاني أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثر على سياسة عبد الحميد الثاني تجاه اليهود. وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا... مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية...ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها.

لقد أجرى هرتزل اتصالات مكثفة مع المسؤولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنكلترا وكانت الغاية من هذه الاتصالات هي إجراء حوار مع عبد الحميد الثاني. وفي هذا الصدد فقد نصح لاندو منذ 21 شباط 1896م الصديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير (بريد الشرق)، وفي هذا المجال يقول هرتزل: (إن نحن حصلنا على فلسطين، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة لمن يتوسط لنا. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة).

وقام هرتزل بزيارة إلى القسطنطينية وذلك في حزيران عام 1896م، ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل نيولنسكي آراء هرتزل إلى قصر يلدز، وقد دارت محاورة بين نيولنسكي والسلطان عبد الحميد إذ قال السلطان له: (هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً: تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، فعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها، ورد السلطان قائلاً: إن فلسطين لا تعتبر مهداً

لليهود فقط، وإنما تعتبر مهداً لكافة الأديان الأخرى. أجاب نيولنسكي قائلاً: في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة إلى الأرجنتين).

وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع، لأنني لا استطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم. إذا مزقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة).

وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد في مذكراته: (ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج إتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لا نجد أن هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي إلى دين أسلافنا وتقاليدنا حتى لا يستطيعوا من الهيمنة على زمام الأمور في الدولة).

وبعد إخفاق جهود هرتزل بواسطة نيولنسكي، اتجه هرتزل إلى قصر وليم الثاني إمبراطور ألمانيا، ولاسيما أنه كان صديقاً لعبد الحميد، بالإضافة إلى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا، إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. يقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني): (عندما رد طلب الوفد اليهودي - المسند من قبل الإمبراطور وليم - في الحصول على وطن لهم، أي: عندما خاب هرتزل في مسعاه اشتد العداء ضد (يلدز) وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العام متى شاءوا).

ويردف المؤرخ التركي قائلاً: (بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد أنصار المشروطية يتخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين

نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط. وقد أخذ المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسوني للإمبراطورية العثمانية. ولعبت المحافل الايطالية وخاصة محفل ريزوتا في سلانيك دوراً ملحوظاً).

إزاء هذا الإخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبد الحميد الثاني، حيث عرض عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضية الأرمنية، وفي هذا الصدد يقول هرتزل: (طلب مني السلطان أن أقوم بخدمة له، وهي أن أؤثر على الصحف الأوروبية، بغية قيام الأخيرة بالتحدث عن القضية الأرمنية بلهجة أقل عداء للأتراك، أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمة، ولكني أكدت على إعطائي فكرة وافية عن الوضع الأرمني: من هم الأشخاص في لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون، وأي الصحف يجب أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك).

وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لإقناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم. ونتيجة لذلك فقد اتصل هرتزل مع سالزبوري والمسؤولين الانكليز بغية استخدامهم للضغط على الأرمن، كما نشط اليهود في مدن أوروبية أخرى مثل فرنسا للقيام بنفس الدور. إلا أن دبلوماسية هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمس بريطانيا، لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبد الحميد، الأمر الذي يؤدي إلى إثارة الرأي العام البريطاني ضد الحكومة.

وقد حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثاني، ولاسيما أثناء الزيارة الثانية للإمبراطور وليم الثاني إلى القسطنطينية، إلا أن موظفي قصر يلدز منعوه من ذلك. واستمر هرتزل في محاولاته المستمرة حتى تكللت جهوده بالنجاح بعد سنتين (1899-1901م) من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار لقصر يلدز، حيث قابل السلطان لمدة ساعتين وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين، بالإضافة إلى ذلك فإنه قد أكد لعبد الحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام 1881م، وقد وعد هرتزل عبد الحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه.

كان السلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً وكان يرخي لهرتزل في الكلام كي يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته هذه. ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبد الحميد وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه.

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبد الحميد الثاني، تحدث هرتزل قائلاً: (في حالة منح السلطان فلسطين لليهود، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية، أما في القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجاد حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبني حضارة ضد التخلف، كما سنبقى في جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا).

وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى أنه من الضروري عدم توطين اليهود في فلسطين، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي. وفي هذا الصدد يقول: (ولكن لدينا عدد كافٍ من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم).

وكانت الدولة العثمانية تسعى في أحيان كثيرة إلى إبعاد اليهود العثمانيين عن أفكار هرتزل والحركة الصهيونية، ومع ذلك فإنها في أحيان أخرى كانت تستخدم لغة التهديد معهم. وفي هذا الصدد أوضح علي فروخ بك (وبصراحة تامة: إنه لبعيد من الصواب أن يقوم الصهاينة على خلق صعوبات للحكومة العثمانية، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكن هذه الصعوبات سوف تؤدي في نهاية الأمر إلى إلحاق الأذى بوجودهم السلمي والسعيد في الدولة العثمانية... وهذه النقطة واضحة بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع رعايا الأرمن، لأن قلة من المتمردين الذين قاموا على ارتكاب الخطأ والحماقة معتمدين إلى الإرشاد الميكافلي قد أدى في نهاية الأمر أن يندموا على ما فعلوه، من دون التوصل إلى أية نتيجة).

وعلى الرغم من إخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبد الحميد، كتب هرتزل قائلاً: (يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دونما حاجة إلى استخدام العنف، سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على النزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين أعمال لهم هناك مع خطر تشغيلهم في بلدنا، إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوة على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم).

وكتب هرتزل قائلاً: (أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آن واحد).

إن عبد الحميد كان يعرف أهداف الصهيونية، حيث قال في مذكراته السياسية: (لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله: ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده، صحيحاً في رأيه، إنه يسعى لتأمين ارض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل..لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم. وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإنني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين).

وعن القدس يقول عبد الحميد الثاني: (لماذا نترك القدس...إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية، لابد أن تظل القدس لنا).

لقد كان غرض السلطان عبد الحميد من استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي:

1. حقيقة الخطط اليهودية.
2. معرفة قوة اليهود العالمية ومدى سطوتها.
3. إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود.

وشرع السلطان عبد الحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية لمتابعة اليهود وكتابة التقارير عنهم وأصدر إرادتين سنيتين الأولى في 28 يونيو 1890م والأخرى في 7 يونيو 1890م. في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشاهسانية) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدّي وحاسم في شأنها).

واتخذ السلطان عبد الحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز لليهود من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين. ولابد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم. ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال: (إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه).

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي

كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية، التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية التي قادها (ماتزيني) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية وإعلامية غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها، وكانت الدول الأوروبية تتخذ من أوضاع النصارى في الدولة حجة للتدخل، وفي هذه الظروف وبالضبط في عام 1865م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يُسرُّون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي اسطنبول تسمى (غابة بلغراد). وتحدث هؤلاء الشباب في موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التي أسسها الزعيم الايطالي (ماتزيني) عام 1831م، بهدف الوحدة الايطالية تحت راية الجمهورية، وأطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحميّة) ومن ضمن هؤلاء الشبان الشاعر الذي أصبح فيما بعد واسع الشهرة نامق كمال. ورأوا أن العمل لابد أن يكون في شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي فإن رغبة الشعوب النصرانية في الاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها ما يبررها من تدخل أجنبي بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة من حالة التردي التي وصلت إليها يكون بإيجاد نظام سياسي ديمقراطي، وكان في فرنسا في تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري الذي نازع فؤاد باشا رغبته في تولي عرش مصر، وفي فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم «حزب تركيا الفتاة» في أوروبا.

ألتحق ثلاثة من الإعلاميين الثوريين العثمانيين هم : نامق كمال، ومحمد ضياء، وعلي سعاوي، بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس وكونوا منظمة أسموها جمعية «العثمانيين الجدد»، وكان أبرز شخصيات جمعية العثمانيين الجدد إعلاميون وشعراء وأدباء وعلى رأسهم نامق كمال وعلي سعاوي. وكان من أشهر تلك الشخصيات تأثيراً على

الساحة الأوروبية. نامق كمال الذي تثقف ثقافة إسلامية، وكما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية، مثل (روسو) وله حياة أدبية واسعة وكتابات امتدت عبر ربع قرن عبر عن أفكاره من خلال الشعر، والإعلام، والكتابة والتاريخ وكانت كتاباته تسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

1- ما هي أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟
2- ما هي الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟
3- ما هي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

كما يمكن إدراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاط رئيسية هي:

1- أسباب انحطاط الدولة العثمانية، أسباب اقتصادية، سياسية.
2- التربية، وهي الطريق التي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.
3- الإصلاح الرئيسي الواجب عمله، هو: البدء بإقامة نظام دولة مركزية دستورية.

وكان نامق كمال يرى أن حركة التنظيمات العثمانية، استبدلت بسلطة السلاطين سلطة الباب العالي، أي الصدور العظام الوزراء. لذلك فإن النظام الذي جاءت به التنظيمات، نظام أقل من النظام العثماني القديم. لذلك لم تستطع التنظيمات أن تحقق نهضة اقتصادية في الدولة. وفتحت هذه التنظيمات الباب على مصراعيه لتدخل الدول الأوروبية في الشؤون العثمانية الداخلية.

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطبيعية التي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربية المعاصرة، وقدم نامق كمال مشروعاً للدستور العثماني، إلى مدحت باشا وكان متأثراً بالدستور الفرنسي (دستور نابليون الثالث عام 1852م). ورأى نامق كمال أن هذا هو المناسب تماماً لظروف الدولة العثمانية في ذلك الوقت وكان نامق كمال صديقاً لمدحت باشا ولذلك تأثر بقرار السلطان عبد الحميد في عزله، وقد تحدث السلطان عبد الحميد عن نامق كمال في مذكراته: (كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم «العثمانيون الجدد». كان إنساناً مضطرباً جداً. لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولا تتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية.

يمكن أن تجزم بأن إنساناً ما، يستطيع عمل أمر ما، أو لا يستطيع. لكنك لا تستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال وأنت تفكر في كمال بك. ذلك لأنه هو نفسه لا يعرف

نفسه، تستطيع القول إنه واحد من الأشخاص النادرين، الذين يحيون حياتين مزدوجتين، كل حياة تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قرب، يعرفون أنه: عندما كان على وئام مع السراي كتب (التاريخ العثماني) وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله: (كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف). إنه إنسان متقلب. ربما كان إنساناً مخلصاً جداً، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار).

بعد أن وجد السلطان عبد الحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، وأجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعية؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرة، قامت ضد السلطان مؤامرتان لخلعه، واحدة بقيادة علي سعاوي وهو من أعضاء هذه الجمعية. والأخرى ماسونية قامت بها جمعية كلانتي سكاليري - عزيز.

والمؤامرتان مدعومتان من إنكلترا، وفشلت كلتاهما، لكنهما جعلتا السلطان يتشدد في مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به، وقامت أثناء ذلك أيضاً خلية سرية، من طلاب المدرسة الحربية، في اسطنبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، حيث استطاع أحد أعضاء جمعية (كلاني-عزيز بك) الماسونية وهو (علي شفقتي بك) الفرار إلى نابولي، وإلى جنيف، حيث أصدر بين عامي 1879م و1881م جريدة مناهضة للحكم العثماني، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل.

وفي عام 1889م تأسست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية الطبية في اسطنبول، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب، وكان المؤسس لهذه المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية. وأطلق على هذه المنظمة الاتحاد العثماني، واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية، تاريخاً لإنشاء منظمتهم وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية، تتخذ من الدول الغربية نموذجاً لها، مثل إنكلترا وفرنسا ألمانيا، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية.

ومن المدرسة العسكرية الطبية، سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) إلى مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربوناري) الإيطالية.

ولم تكن الجمعية متعجلة، لا في الدعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضد السلطان. حتى أن أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة بوصة، وسافر عام 1889م إلى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولي، ووصل إلى هناك، وأعلن أنه لن يرجع إلى بلاده. ومكث في فرنسا حوالي ست سنوات، لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل، إلى حين أصدر جريدته (مشورات) عام 1895م.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد – وهو إبراهيم تيمو- أنه كان بمضي أوقاته في الخارج – حتى عام 1895م- بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم، لتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التي ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا وقراءة منشورات على شفقتي بك – عضو كلانتي الماسونية- وكان فاراً في أوروبا.

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل وفي الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان، وعلى اعتماد اسم (جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين، العسكري والمدني، اللذين يعملان في إطار الجمعية.

كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني). وكان أحمد رضا بك – ممثل الجناح المدني – متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو (الانتظام والترقي) . فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقي) استلهاماً من دستور «كانت» واحتفظ العسكريون باسم (الاتحاد) واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقي).

لقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان عبد الحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في 24 يوليو 1908م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام 1877م بوقف العمل به.

وكان الفكر السياسي لجمعية الاتحاد والترقي يؤكد على المفاهيم الطورانية على المستويين الداخلي والخارجي، والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلي ونسبته إلى جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية في إيران، وكان داخل حركة الاتحاد

والترقي اتجاه قوي يؤكد أن الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ولم يقتصرا فيها على الترك الذين في سيبريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز. والأناضول وروسيا، وكان شعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذ وسيلة لا غاية وهذا يعني أن هذا الاتجاه يدعو إلى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض - الأسود الذي صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب، وكأنهم يحلون تحية الذئب محل الصلاة، مبالغة منهم في إقامة الشعور العرقي محل الشعور الإسلامي.

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم في التاريخ أمثال: أتلاو وطغرك وجنكيزخان وتيمورلنك.

وقد تطرف هذا الاتجاه في الطورانية، إذ قالوا: (نحن أتراك فكعبتنا طوران). وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم، ويمثل هذا الاتجاه كل من فياكوك الب ويوسف أقثور وجلال ساهر ويحيى كمال وحمد الله صبحي ومحمد أمين بك الشاعر، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد.

وكان تأثير اليهود على الطورانية أمر واضح وفي هذا الصدد يقول نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيا): (أن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين في الدولة العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية فالعلماء اليهود في الغرب مثل لومالي دافيد وليون كاهون وارمينيوس فاميري تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية كما أن اليهود المحليين في الدولة العثمانية، مثل كراسوا (قراصو) وموئيز كوهين وإبراهام غالانتي كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود).

وقد ذكر نيازي بركس في كتابه السابق اسم اليهودي موئيز كوهين الذي وصفه رينيه بيلو قائلاً:

1- إن كوهين هو من مؤسسي الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانية.

2- إن كتاب موئيز كوهين هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية.

كان اليهودي موئيز كوهين نشطاً جداً في التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، عدة لغات أوروبية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روح قومي).

لقد أسهم موئيز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي وهي السياسة التي شقت شعوب الدولة العثمانية وأوجدت بينها العداوة والبغضاء.

وكان هذا اليهودي لا يكل ولا يمل في نشر الفكر القومي التركي لتفتيت الدولة العثمانية. وكتب ثلاثة كتب اعتمدت عند جمعية الاتحاد والترقي وهي: (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب) و (الطوران) و (سياسة التتريك). كما أسهم هذا الكاتب اليهودي في الكتابة للفكر الكمالي بكتابة (الكمالية) وكتابة (الروح التركية) الذي أرخ فيه لتطور العنصر التركي.

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت حلم الطورانية، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبد الحميد الثاني.

الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني

كان السلطان عبد الحميد الثاني شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقي المدعومة من اليهود، والمحافل الماسونية، والدول الغربية، واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبد الحميد أن يتعرف على هذه الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة في وقت متأخر، حيث دفعوا الأهالي إلى مظاهرات صاخبة في سلانيك ومناستر واسكوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة إلى أن المتظاهرين هددوا بالزحف على القسطنطينية. الأمر الذي أدى بالسلطان إلى الرضوخ لمطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان وذلك في 24 تموز 1908م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقي أن تبقي السلطان عبد الحميد الثاني في تلك الفترة على العرش منها:

1- لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوة الكافية لعزله في عام 1908م.

2- إتباع عبد الحميد الثاني سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور.

3- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد. وهذه النقطة واضحة، حيث أن لجنة الاتحاد والترقي لم تكن لها الجرأة الكافية لنشر دعايتها ضد السلطان عبد الحميد الثاني بين الجنود، لأن هؤلاء كانوا يبجلون السلطان.

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري لعام 1908م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني نهائياً ولذلك دبرت أحداث في 31 أبريل 1909م في اسطنبول وترتب على أثرها اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي؛ وعرف الحادث في التاريخ باسم حادث 31 مارت.

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيط أوروبي يهودي، مع رجال الاتحاد الترقي وتحرك على أثره عسكر الاتحاد والترقي من سلانيك ودخل اسطنبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية. ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقي التهم التالية:

1- تدبير حادث 31 مارت.

2- إحراق المصاحف.

3- الإسراف.

4- الظلم وسفك الدماء.

مع أن جمعية الاتحاد والترقي العثمانية، تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الإسلامي؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبد الحميد الثاني. وقد نجحوا في ذلك.

تقول الجمعية في بياناتها إلى العثمانيين: (أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا). (وبعون الباري وهمة الإخوان) و (أيها المسلمون: كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار، عديم الإيمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والإيمان) و(استيقظوا يا أمة محمد) و(الشجاعة الشجاعة يا مسلمون، الشجاعة منا، والعون من الله. نصر من الله وفتح قريب) و (أيها

المسلم الموحد! اقرأ باسم ربك) و (انهض أيها المسلم الموحد! وأنقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين. وأنقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجاً. وفي يده دينك وإيمانك. فأنقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد) و (يا أيها المسلمون: إن السلطان عبد الحميد ـ شرعاً- ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لا يصدق قولنا هذا فلينظر في الكتاب والسنة. لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأوامر الله وأوامر الرسول الموجهة إلى الحكومة والأهالي. لكن السلطان عبد الحميد، أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله، وأوامر الرسول. وبالتالي أثبت ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على الله؛ لذلك ينبغي على شعبنا أن يلجأ إلى السلاح ضده وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذن وزر ما عليه السلطان عبد الحميد من ظلم).

لقد كان الفكر الحاكم في اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقي) هو الماسونية وهي لا تعترف بالأديان، والفلسفة الوضعية (العقلانية وهي تنفي الدين) والعلمانية (وهي تبعد الدين عن الحياة) ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد الثاني وافتروا عليه باسم الدين.

إن التهم التي وجهت للسلطان عبد الحميد الثاني لا تثبت أمام البحث العلمي، والحجج، والبراهين الدالة على براءته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة على عدم علم السلطان عبد الحميد بحادث 31 مارت، كما أنه من المحال إحراق السلطان عبد الحميد للمصاحف، فهو سلطان معروف بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصلاة وإهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم إسرافه ولأنه لا يعرف الإسراف فقد كان المال يتوفر معه دائماً ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص. وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبد الحميد هذا، وسفك الدماء لم يكن أبداً ضمن سياسته.

ولم يغب عن بال الانقلابيين الضغط على مفتي الإسلام محمد ضياء الدين بإصدار فتوى الخلع ففي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام 1909م اجتمع 240 عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرروا بالاتفاق خلع السلطان عبد الحميد الثاني وكتب مسودة الفتوى الشيخ نائب حمدي أفندي المالي لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دعي للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه ان لم يجر تعديل عليها وأيده في التعديل عدد من أنصاره من النواب فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس المبعوثان عرض التنازل عن العرش أو خلعه.

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقي تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني بقرار خلعه. وكانت هذه اللجنة تتألف من:

1- إيمانويل قراصو: وهو يهودي أسباني. كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة وكان مسؤولاً أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد الثاني وتأمين التخابر بين سلانيك واسطنبول فيما يتعلق بالاتصالات الحركة. وقراصو هذا محام، عملت جمعية الاتحاد والترقي بنجاح على تعيينه في المجلس النيابي العثماني نائباً عن سلانيك مرة وعن اسطنبول مرتين. وصفته المصادر الانكليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقي. عمل أثناء الحرب مفتشاً للإعاشة ، واستطاع أثناء وجوده في هذا المنصب أن يجمع أموالاً كثيرة لحسابه الخاص، ولعب دوراً هاماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطر نتيجة لخيانته للدولة أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريسنا حيث مات عام 1934م. وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني.

2- آرام : وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.

3- أسعد طوبطاني: وهو ألباني، نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج.

4- عارف حكمت: وهو فريق بحري وعضو مجلس الأعيان، وهو كرجبي العراق.

يروي السلطان عبد الحميد في مذكراته تفاصيل هذه الحادثة فيقول: (إن ما يحزنني ليس الإبعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه والتي خرجت عن كل حدود الأدب، حيث قلت لهم: إنني أنحني للشريعة ولقرار مجلس المبعوثان ذلك تقدير العزيز العليم، سوى أنني أؤكد بأنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التي تفجرت في 31 مارت) ثم أردف قائلاً: (إن المسؤولية التي تحملتموها ثقيلة جداً). ثم أشار عبد الحميد إلى قرصو قائلاً: (ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة؟ وبأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي؟).

لقد اعتبر اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به وساروا بمظاهرة كبيرة في مدينة سلانيك، ولم يكتف الماسونيون بذلك بل طبعوا صورة هذه المظاهرات في بطاقات بريدية لتباع في أسواق تركيا العثمانية ولمدة طويلة. لقد كان الاتحاديون يفتخرون دائماً بأنهم ماسونيون. وقد أدلى رفيق مانياسي زادة بتصريحات إلى صحيفة تمبس الفرنسية في باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتحاد والترقي، حيث جاء فيها: (لقد كانت

للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الايطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها).

إن هذه العلاقة بين الصهيونية والماسونية، وضحها السلطان عبد الحميد الثاني في الرسالة التي وجهها إلى الشيخ محمود أبي الشامات شيخه في الطريقة الشاذلية بعد خلعه وذلك في سنة 1329هـ، وقد جاء في هذه الرسالة:

(إن هؤلاء الاتحاديون قد أصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم، لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي: إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين. وبعد جوابي هذا اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ العالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة! فلسطين).

وفي مقال نشر في جريدة (بويوك ضوغو) التركية في 2 مايو عام 1947م العدد 61 يقول محرم فوزي طوغاي تحت عنوان فلسطين والمسألة اليهودية الآتي:

(منع السلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكلف هذا المنع السلطان عبد الحميد غالياً وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد إلى انهيار الدولة العثمانية كلها). رغم أنه كان يدرك -كما قال نظام الدين لبه دنلي أوغلو- في دراسته عن دور اليهود في هدم الدولة العثمانية أن: (اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم. كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية).

إن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية، فهذا أنور باشا الذي لعب دوراً مهماً في انقلاب عام 1908م، يقول في حديث له مع جمال باشا أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي: (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال : (نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي).

وفي هذا المعنى، يقول أيوب صبري قائد الاتحاديين العسكريين: (لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا إنه لم يقبل بذلك).

ويقول في هذا الصدد برنارد لويس: (لقد تعاون الإخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد، لأنه كان معارضاً قوياً لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود في فلسطين).

وقد علق نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه في تركيا على هذا الموضوع قائلاً: (إن الحركة الماسونية سعت سعياً شديداً لعزل السلطان عبد الحميد، ونجحت في سعيها وأن أول محفل فتح في تركيا العثمانية كان على يد أميل قره صو وهو صهيوني وقد انضم إليه ضباط منطقة سالونيكا).

وبعد إبعاد عبد الحميد الثاني من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها في الخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف. وفي هذا الصدد يقول لوثر: (وبعد إبعاد عبد الحميد من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذي رفض استجابة طلب هرتزل لمرتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب).

واستمرت الحملات الإعلامية المنظمة تشهر تشهيراً عنيفاً بالسلطان عبد الحميد الثاني، وقد استهدف أعداء الإسلام من تلك الحملات:

1- الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقي، مبررين تصرفهم في إنهاء حكم السلطان عبد الحميد كي تسترد الدولة مكانتها.

2- تغطية فشل الاتحاد والترقي في حكم الدولة، فقد لجأ رجال الاتحاد والترقي إلى القوة والاستبداد، وأثاروا الفرقة بين سكان البلاد.

3- إبراز صورة مشرقة لعهد مصطفى كمال أتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والانكليز والدول الغربية في إلغاء الخلافة والسلطنة وإعلان الجمهورية التركية.

4- رغبة الصهاينة في تدمير سيرة السلطان عبد الحميد الثاني انتقاما منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين.

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثا، وطويت صفحاتها في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن أكثر من قرنين ونتيجة للزحف الاستعماري، والكيد اليهودي، والنخر الماسوني، والضعف الشديد الذي انتاب الدولة، وهو ضعيف لم يكن السلطان عبد الحميد مسؤولاً عنه غدت ممتلكات الدولة نهباً بين الدول الأوروبية الاستعمارية التي كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة.

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد إلا أنه في الحقيقة لا يملك أي سلطة فعلية وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها، قومية في عصبيتها، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها. فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التي تدعو إلى تحرير كافة الأتراك. مدعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهي الأفكار التي تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسهم موئيز كوهين اليهودي، والكاتب التركي الشهير ضيا كوك آلب؛ فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة بعد أن كانت اللغة العربية تقف إلى جانبها. فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية، في مواجهة حركة التتريك.

كوّن العرب حزب اللامركزية وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى خاضعة خارجياً لاسطنبول - كما كونوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل والضابط عزيز علي المصري، والجمعية العربية الفتاة التي تشكلت في باريس عام 1329هـ على منهج جمعية تركيا الفتاة ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية وخاصة مبادئ العصبية القومية واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية وكان قصدهم: استقلال العرب التام، وقد نقلوا مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب.

وتكونت الجمعية الاصطلاحية في بيروت عام 1331هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية في المهجر فقدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا عام 1331هـ التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان بينما اتجه بعض مثقفي العراق نحو الانكليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح، بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد.

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية، قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربي في باريس سنة 1332هـ/ 1913م، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون:

1 – ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.
2 – إشراك العرب في الإدارة المركزية.
3 – جعل اللغة العربية لغة رسمية في كافة الولايات العربية.
4 – جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة.
5 – التعاطف مع مطالب الأرمن.

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر وكان برئاسة عبد الحميد الزهراوي.

وقد علقت فرنسا آمالاً كبيرة على المؤتمر وكان لها العديد من الأنصار في داخله ثم قامت بنشر مقرراته.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (1333-1337هـ/ 1914-1918م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) في حين تمكن الانكليز (بمراسلات الحسين مكماهون) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك.

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ووقعت الآستانة تحت سيطرة الانكليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إن خلع السلطان عبد الحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي:

1- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء، تجلى ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة 1334هـ/ 1916م السرية في الوقت الذي وعد فيه العرب بالاستقلال. وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة:

- أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سوريا الشمالي (لبنان والساحل الشمالي من سوريا) لفرنسا.

- تتكون دولتان عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها، يكون النفوذ في الأولى التي تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ في الثانية التي تشكل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا.

- تكون فلسطين دولية.

- تكون الآستانة والمضائق (البوسفور والدردنيل) لروسيا.

2- وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في 2/11/ 1917م (محرم 1326هـ) بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

3- تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامي إلى دولة غربية الطابع، فيمكن القول بأن الفترة التي بدأت في تركيا بخلع السلطان عبد الحميد وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية وإبراز طابع الجامعة الطورانية وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم الحق في إقامة دولة فلسطين.

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية، ولما احتل الانجليز اسطنبول (الآستانة) أصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هازنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في اسطنبول) هما أصحاب السيادة الفعلية.

وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائياً تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها وهذا أفضل قطعاً من كل الـ «مائة مشروع لتقسيم تركيا» وهدم الإسلام.

وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الانجليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة 1338هـ وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع وبدأ مصطفى كمال يطفو على السطح تدريجياً وابتهج به العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء.

ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته صنيعة لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة انجلترا التي رأت أن إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين وإن ذلك لا يمكن أن يتم دون اصطناع بطل وإعطائه صورة عظيمة وإظهار هالة حوله وتصويره وكأن الكرامات تجري على يديه وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه بلا ألم عميق إذ الشعور قد تخدّر من نشوة الانتصارات الزائفة، فالخلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل وطلبوا من السلطان إخمادها واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ليصبح محط آمال الناس وموضع تقدير ضباط الجيش فتتصاعد مكانته وهيبته وتتدهور سمعة الخليفة وينحط مركز الخلافة في أعين الناس، فالألاعيب الانجليزية لا تدرك بسهولة.

لقد استطاعت المخابرات الانجليزية أن تجد ضالتها المنشودة في شخصية مصطفى كمال وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزية ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الانجليزي (أرمسترونج) الذي تعززت علاقته به في فلسطين وسورية، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك في الجيش العثماني.

نجد أرمسترونج في كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحة على بداية العقد النفسية عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزواج الثاني لوالدته من أحد الروديسيين الميسورين، وانقطاعه عن زيارتها ولجوئه إلى أصحابه من الرهبان المقدونيين، الذين تلقفوه فلقنوه مبادئ اللغة الفرنسية، مع صديقه المقدوني «فتحي». فالتهما كتب فولتير وروسو ومؤلفات هوبز وجون ستيورات ميل وغيرها من الكتب الممنوعة، حتى أصبح ينظم الشعر الملتهب بمشاعر القومية ويخطب في زملائه بالكلية العسكرية، فيحدثهم عن فساد السلطان، قبل أن يتجاوز العشرين من العمر، ثم انتقل إلى اسطنبول وانغمس في ملاهيها وحاناتها، وراح يشرب ويقامر ويغازل، قبل أن يسجن لانضمامه إلى (جمعية وطن).

ويشهد أرمسترونج بعلاقة الاتحاد والترقي بالدونمة والماسونية في معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال فيذكر كيف (دعي لحضور أحد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية، والجمعيات الماسونية الايطالية إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية وقد دأب الاتحاديون على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر، وكان بعضهم كفتحي المقدوني صديق كمال القديم، قد انضم إلى جماعة الماسون (البنائين الأحرار) ويروي كيف استعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية، وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ويتصلون باللاجئين السياسيين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد).

ويكشف أرمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده، من دون بقية أقرانه، لتنفيذ آخر خطوة في الخطة البريطانية فيقول: (إن طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الآمر الناهي، فلم يظهر أي احترام لزعماء الاتحاديين، وتشاجر مع: أنور وجمال وجاويد اليهودي الأصل، ونيازي الألماني المتوحش، وطلعت الدب الكبير، الذي كان موظفاً صغيراً في مصلحة البريد.

وبعد أن تحول مصطفى كمال من مجرد ضابط صغير ثائر على الأوضاع إلى قائد عسكري يملك رصيداً من الأمجاد والانتصارات لقب بـ (الغازي) بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانية، ويذكرنا أرمسترونج بصفحة جديدة من حياته الخاصة بعد كشفه عن مجونه وفسقه، وأهليته لنسف الخلافة الإسلامية، فيتطرق إلى زواجه الأسطوري من (لطيفة) تلك الفتاة الأميرية الموسرة التي عادت لتوها من باريس لتقدم خبراتها الإدارية وثقافتها العصرية وإجادتها لعدة لغات فضلاً عن أنوثتها وسحرها مع قصر أبيها الفاخر في أزمير إلى الغازي مصطفى كمال، الذي أوقعته في حبائلها بتمنعها ودلالها فتخلص من (فكرية) التي أرسلها إلى ميونخ للعلاج من المرض الذي نقله إليها، ثم دبر أمر انتحارها كما تخلص من (صالحة) ليقوم بزواج خاطف من (لطيفة) بعد أن أفسد حياة (سعادت) وعشرات البنات والنساء والغلمان وغيرها، كما تؤكد ذلك الوثائق التي تركها أحد زملائه من الضباط المتقاعدين. وقد كانت لطيفة نفسها ضحية من ضحاياه، فيما بعد، حيث طلقها بقرار وزاري، وتركها فريسة للأمراض والأوجاع، بعد تحذيرها للصمت عن كل شذوذه، ولم تبق بجانبه إلا (عفت)، تلك الفنانة التي كانت له

معلمة ومؤرخة، حتى استطاعت أن تقود ذلك الوحش -على حد تعبيره - بأسلوب الخضوع والعبودية له.

ولكن (لطيفة) هانم أشاكي كيلك يمنعها قانون حماية مصطفى كمال من أي هجوم أو نقد من التلميح بين سطور مذكراتها التي نشرتها صحيفة (الحرية) التركية في حزيران (يونيو) عام 1973 من تسليط بعض الأضواء على حياة أتاتورك الخاصة وإفراطه في الشرب، ومحاولة إلقاء المسؤولية على أصحابه وزملائه أمثال: (قلج علي) و (نوري جنكر) ، و (رجب هدى) الذين كانوا يتعمدون إهدار وقته وهم مجموعة من القتلة والأشقياء المعروفين الذين ضمهم إلى حاشيته ولحراسته وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه إلى أبعد الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمات الإجرامية التي كلفهم بها للتخلص من بعض خصومه.

إن تلك الأخلاق العفنة التي اشتهر بها مصطفى كمال لا تستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أن أصله من يهود الدونمة.

فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: (لقد أكد الكثير من يهود السلانيك أن كمال أتاتورك كان أصله من الدونمة، وهذا هو أيضاً رأي الإسلاميين المعارضين لكمال أتاتورك، ولكن الحكومة تنكر ذلك).

ويعلق تونبي على نسب مصطفى كمال قائلاً: (إن دماً يهودياً يجري في عروق الأسرة الكمالية. فقد كانت سلانيك مهبط اليهود أيام محنتهم. وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الإسلام. ولكن طبائع مصطفى كمال ولون عينيه وتكوينه الجسمي يبعده عن أن يكون متأثراً بدماء يهودية).

ويقول أسامة عيناي: (إن الدونمة يعتزون كثيراً بأتاتورك ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه منهم وحجتهم في ذلك أن أتاتورك أسفر عن نياته ضد الإسلام حين تولى الحكم).

إن أفعال مصطفى كمال دلت على بغضه للإسلام فيما بعد، فبينما كان في عام 1337هـ عندما انتصر على اليونان في أنقرة يعلن أمام الشعب: (أن كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي)، نجده بعد أن تمكن من العباد والبلاد في عام 1341هـ/ 1923م تعلن الجمعية الوطنية التركية بزعامته عن قيام الجمهورية التركية وانتخاب مصطفى كمال أول رئيس

لها، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة بدلاً من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم.

كان الخليفة عبد المجيد رجلاً مهذباً مثقفاً كما يليق بسلالة بني عثمان، وقد أصبح في نظر الأتراك الصلة الحية بالتراث والتاريخ العثماني الإسلامي، وكانت جماهير اسطنبول تهرع لإلقاء نظرة عليه وتحيته كل جمعة وهو في طريقه لأداء الفريضة، وكان الخليفة مدركاً تمام الإدراك مكانة منصبه السامية، وعراقة السلالة التي ينتمي إليها، فكان مرة يرتدي عمامة محمد الفاتح وثانية يتقلد سيف السلطان سليمان القانوني.

استشاط مصطفى كمال غيظاً فما كان ليطيق أن يرى أو يسمع عن محبة الناس وتعلقهم بآل عثمان وبالخلافة والسلطنة، فمنع الخليفة من الخروج للصلاة ثم خفض مخصصاته للنصف وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنار، وضمن تأييد الدول العظمى لسياسته التعسفية.

دعا مصطفى كمال الجمعية التأسيسية إلى اجتماع في 3 آذار/ مارس 1924م، وكان على ثقة تامة من أن أحداً في الجمعية التأسيسية - التي لم يبق منها سوى اسمها - لن يجرؤ على معارضته، وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التي أسماها «هذا الورم من القرون الوسطى»، وقد أجيز القرار الذي شمل نفي الخليفة في اليوم التالي دون مناقشة، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة التي كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم.

لقد كان مصطفى كمال ينفذ مخططاً مرسوماً له في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة 1340هـ/ 1923م على تركيا فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع «وهو رئيس الوفد الانجليزي في مؤتمر لوزان» وهي:

1- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.
2- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.
3- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.
4- اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامي. فلقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الإسلامية وخضعت تركيا لعمليات التغريب البشعة؛ فألغيت وزارة الأوقاف سنة 1343هـ/ 1924م، وعهد بشؤونها إلى وزارة المعارف. وفي عام 1344هـ/ 1925م أغلقت المساجد وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني وواجهت كل نقد ديني لتدبيرها بالعنف. وفي عام (1350-1351هـ/ 1931-1932م) حددت السلطات عدد المساجد ولم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها 500 متر وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحدث على الشؤون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له. وأغلق أشهر جامعين في اسطنبول وحول أولهما وهو مسجد آيا صوفيا إلى متحف، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

أما الشريعة الإسلامية فقد استبدلت وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام 1345هـ/ 1926م. وغيرت التقويم الهجري واستخدمت التقويم الجريغوري الغربي، فأصبح عام 1342هـ ملغياً في كل أنحاء تركيا وحل محله عام 1926م.

- وفي دستور عام 1347هـ/ 1928م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية، وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله كما كان عليه الأمر من قبل.

- وفي عام 1935م غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم يعد الجمعة، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين.

- وأهملت الحكومة التعليم الديني كلية في المدارس الخاصة، بل إن كلية الشريعة في جامعة اسطنبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التي أغلقت عام 1352هـ/ 1933م.

- وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدول الأوروبية.

- وفي عام 1348هـ/ 1929م بدأت الحكومة تفرض إجبارياً استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية. وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية، وحذفت من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية وأما الكتب التي سبق لمطابع اسطنبول أن طبعتها في العهود السالفة، فقد صدرت إلى مصر، وفارس، والهند، وهكذا قطعت حكومة تركيا مابين تركيا وماضيها الإسلامي من ناحية، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى.

- وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، واستغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد مابين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي وخلع مصطفى كمال على نفسه لقب (أتاتورك) ومعناه أبو الأتراك.

- وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوروبي فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى، ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين اغلبهم من فرنسا والنمسا.

- وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور، وألغى قوامة الرجل على المرأة وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص.

- وفي زواجه من لطيفة هانم ابنة أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ.

- وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية.

- عمل على تغيير المناهج الدراسية وأعيدت كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، واستبدلت بكلمات أوروبية أو حثية قديمة.

- وأعلنت الدولة عزمها في التوجيه نحو أوروبا وانفصلت عن العالم الإسلامي والعربي، وأمعنت حكومتها في استدبار الإسلام حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي إلى إحياء المبادئ الإسلامية.

وكان خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران والهند الإسلامية، وتركستان وفي كل مكان من العالم الإسلامي، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر - الأهرام، والسياسة، والمقطم - ذات الاتجاهات المضادة للإسلام، والمدعومة من النفوذ الغربي واليهودي والماسوني.

لقد بررت تلك الصحف تصرفات كمال أتاتورك ووافقت على ما ابتدعه، ونشرت له أقوال: (ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين). وأنه -أي مصطفى كمال- : (ألقى القرآن ذات يوم من يده وقال: إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة).

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية - هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان- ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وانكلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة ولم تلغ الكنائس.

وكان للإعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة، مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة إسلامية، وكانت تزين له أن ما يقوم به من المذابح والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية، كما كانت منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية، والترويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست إلا مظاهر للتمدن والتحضر.

إن الحقيقة المرة أن مصطفى كمال أصبح نموذجاً صارخاً للحكام في العالم الإسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ أثره في سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبرراً كافياً للقضاء على الإسلام فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد شمال الأفريقي وإخراجها من دينها وعقيدتها وإسلامها بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم.

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة.

ولقد قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلماني التركي المعادي للإسلام وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية عام 1344هـ، ثم في منيمين عام 1349هـ وقد قمعها الكماليون بشدة منقطعة النظير وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء، وأهملت المنطقة اقتصادياً وعلمياً.

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورس وتلاميذه من بعده، وقد كتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان (رسائل النور) في سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مبادئ الكماليين والعلمانية، ولم تعمد حركته إلى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان. وقد حاول أتاتورك استمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه:

(إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي في الصلاة، وان الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود).

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سراً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:

(إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية. أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة تنهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة...أسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق: إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة افعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام).

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام 1367هـ حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم بخصوص النشاط الديني.

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام 1349هـ مرة وعام 1355هـ مرة ثانية والتي نص عليها الدستور التركي وهي

المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي: القومية، الجمهورية، الشعبية، العلمانية، الثورة، سلطة الدولة.

توفي أتاتورك عام 1356هـ بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال قبل وفاته بسنين بمرض عضال في الكلية لم يعرف كنهه. وكان يتعرض لآلام مبرحة مزمنة لا تطاق، كانت السبب في إدمانه على شرب الخمر مما أدى إلى إصابته بتليف الكبد والتهاب في أعصابه الطرفية وتعرضه لحالات من الكآبة والانطواء – وتدهور في المستويات العليا للمخ– لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريدا في القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة.

بشائر إسلامية في تركيا العلمانية

بعد وفاة أتاتورك عام 1356هـ تولى الرئاسة رفيقه على الدرب العلماني عصمت اينونو وسار على نهج سياسة أتاتورك. وعند نشوب الحرب العالمية الثانية ألتزمت تركيا الحياد ثم دخلت في نهاية الحرب إلى جانب الحلفاء وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تقاربت تركيا من الولايات المتحدة ودخلت في المعاهدات معها، وأقامت أمريكا على الأراضي التركية قواعد عسكرية، وظهرت الأزمات الاقتصادية العنيفة التي تزايد خطرها يوماً بعد يوم، وازداد التضخم المالي.

وسمحت الدولة بتشكيل أحزاب علمانية جديدة فنشأ الحزب الديمقراطي عام 1366هـ من انشقاق داخل صفوف حزب الشعب الجمهوري نفسه، وفاز في الانتخابات بدغدغة عواطف الناس، وقد تبنى السياسة الأمريكية وأصبح رئيسه جلال بايار رئيساً للجمهورية عام 1374هـ، كما أصبح عدنان مندرس رئيساً للوزراء، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق في الأهمية منصب رئيس الجمهورية.

وبقيت الأزمات والكوارث الاقتصادية في تردٍ مستمر وتوجهت الانتقادات للحزب الحاكم، فحل الحزب القومي الذي ظهر عام 1368هـ بحجة معارضته المبادئ الكمالية ولكنه تشكل باسم آخر هو الحزب القومي الجمهوري، وفرضت غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الحكومة، وضيق على أساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة، وفرضت قيود على الاجتماعات عام 1376هـ.

ووجه الحزب الديمقراطي التهمة إلى كثير من الأبرياء بالاشتراك بما سمي: (مؤامرة الضباط التسعة) واتهمهم بالارتداد عن مبادئ العلمانية والميل إلى جانب المنظمات الدينية

الإسلامية وقد حصل بالفعل بعض التراجع عن بعض العداء ضد الإسلام بفعل الضغط الإسلامي. حتى إن حزب الشعب الجمهوري، بدأ يغير من اتجاهاته العلمانية منذ الانتقال إلى ظاهرة التعدد الحزبي، حيث وافق الحزب على إنشاء كلية الإلهيات، ومعهد العلوم الإسلامية في أنقرة.

واعتمد الحزب الديمقراطي على الجماعات الإسلامية في انتخابات 14 أيار 1950م، وكان سبباً رئيسياً في فوزه على حزب الشعب الجمهوري، وفضلاً عن ذلك، اعتمدت أحزاب أخرى على الجماعات السالفة الذكر، مثل حزب العدالة في المدة الواقعة بين 1961-1980م.

وأما حزب الطريق المستقيم؛ فإنه استمد قوته في الثمانينات من الرأي العام الإسلامي.

وركب حزب العمل القومي بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الإسلامية وغَيَّرَ مفهومه عن العلمانية، وبدأ بالتقرب من الرأي العام الإسلامي وكان شعار هذا الحزب في انتخابات عام 1987م (دليلنا القرآن، وهدفنا الطوران).

إلا أن العمل الإسلامي المنظم الذي شق طريقه في تلك الأمواج العلمانية المتلاطمة يظهر جلياً مع ظهور حزب السلامة الوطني.

كانت الحركة الإسلامية في تركيا قبل ظهور حزب السلامة الوطني تتكون من :

- المتصوفة المناوئة للحركة الكمالية، وهؤلاء حافظوا على التراث الإسلامي بمفهومه الخاص بهم، وواصلوا تحفيظ القرآن سراً وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الإسلامية في نفوس الرأي العام التركي، وفي هذا المجال قاموا بتكوين جمعيات للإنفاق على طلاب مدارس الأئمة والخطباء للإكثار منهم، وتعويض النقص الذي نتج عن اختفاء الدعاة الإسلاميين عندما اصطدم بهم الحزب الكمالي.

- حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النورسي والتي تعرف بحركة النور والتي تركزت جهودها على الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ومحاربة المادية الملحدة والاهتمام بتربية الأجيال وابتعد الكثير من أتباعها عن السياسة.

عندما تحصلت تركيا على نوع من الحريات تقدم الإسلاميون المؤمنون بضرورة خوض المعترك السياسي بتأسيس حزب النظام الوطني في كانون الثاني عام 1970م،

حيث قام على تأسيسه يونس عارف. وقد جاء دعم هذا الحزب بصورة رئيسية من التجار الصغار والحرفيين والرجال المتدينين في الأناضول، وتوسع الحزب في مدة قصيرة جداً وبدأ يشكل تهديداً خطيراً للأحزاب العلمانية وقد جاء في بيان التأسيس ما يلي: (أما اليوم فإن أمتنا العظيمة. التي هي امتداد لأولئك الفاتحين الذين قهروا الجيوش الصليبية قبل ألف سنة، والذين فتحوا اسطنبول قبل 500 سنة، أولئك الذين قرعوا أبواب فينا قبل 400 سنة.. وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة. هذه الأمة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها تجدد عهدها وقوتها مع حزبها الأصيل (حزب النظام الوطني) إن حزب النظام الوطني سيعيد لأمتنا مجدها التليد، الأمة التي تملك رصيداً هائلاً من الأخلاق والفضائل يضاف إلى رصيدها التاريخي، وإلى رصيدها الذي يمثل الحاضر المتمثل في الشباب الواعي المؤمن بقضيته وقضية وطنه).

وقدم حزب النظام برنامج عمله في منظومة من الأفكار يمكن إيجازها في الآتي:

جميع المؤسسات الهامة في تركيا في أيد غربية غير وطنية، والأمر الطبيعي والواجب القومي يقضي بأن تعود هذه المؤسسات إلى أصحابها.

عاش الناس أربعين سنة والقوى الخارجية المؤثرة تحاول إبعادهم عن محورهم الحقيقي إلى محور غريب، فوقع الناس في ضيق وعنت شديدين، ولابد من إرجاع الناس إلى طبيعتهم ومحورهم الأصيل (فطرة الله) حتى يستقيم أمرهم ويتخلصوا من عقائدهم.

إن التسميات المعاصرة مثل اليمين واليسار والوسط هي من اختراع الماسونية والصهيونية، وكلها مؤسسات تابعة لغرض واحد وهو أن تنحرف تركيا عن خطها الحضاري الذي عمره ألف سنة، وانه لابد من التخلص من هذه الأسماء الغربية والعودة إلى الخط الأصيل الذي يصل الماضي التليد بالغد المشرق.

إن حزب النظام الوطني لا يشبه الأحزاب الأخرى، فجميع الأحزاب تقوم على أساس التسلط وشهوة الحكم، ونحن نقوم على أساس جديد يبتغي مرضاة الله والعمل في سبيل الوطن.

إن نظام التعليم في تركيا فاسد وضعته شرذمة من الحاقدين من الصليبيين واليهود بشكل لا يناسب الأمة، فهو يسقط من حسابه كل قيمة معنوية أو أخلاقية أو دينية غايته فصل تركيا عن ماضيها الإسلامي وسلخها عن دينها وقيمتها، وبهذه الطريقة فقط يستطيعون أن يقتلوا الجيل ويدمروا البلاد، لقد مرت خمسون سنة ونحن نسمع أن تركيا

جزء من أوروبا، وأن النهضة لابد أن تقوم على أنقاض الدين كما حصل في الغرب، متناسين أن الإسلام يختلف عن الكنيسة ودولة القس.

في الوقت الذي تمنع الدولة فيه توزيع الكتب على المعاهد الإسلامية العالية وتحاول إغلاق معاهد الأئمة والخطابة ومدارس تعليم القرآن، تنفق الملايين على المسارح والممثلين وثمناً للمشروبات التي توزع في السفارات. وفي الوقت الذي تعترض الدولة على الطالبات اللواتي يلبسن الحجاب على رؤوسهن، تدرس كتب اللاهوت في كل مكان دونما رقابة أو ضجة وهذا يعني أن حزب النظام الوطني أكد العودة إلى الإسلام الحقيقي.

إن اليهود والعلمانيين في تركيا لم يتحملوا هذا الصوت الفتي الذي يتدفق بالحيوية والنشاط ويحركه في قضاياه الإيمان العميق بالإسلام وبضرورة رجوع الشعب التركي إليه، ولذلك تحرك الجيش التركي في آذار 1971م بسبب نشاط حزب العمال وأحال قضية حزب النظام الوطني إلى المحكمة الدستورية التي أصدرت قراراً جائراً بحل الحزب في 21 مارس 1971م.

وقد جاء في قرار محكمة أمن الدولة العليا ما يلي:

1. إن المبادئ التي قام عليها الحزب وتصرفاته تخالف الدستور التركي.
2. العمل على إلغاء العلمانية في البلاد، وإقامة حكومة إسلامية.
3. قلب جميع الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التي تقوم عليها البلاد.
4. العمل ضد مبادئ أتاتورك.
5. القيام ببعض التظاهرات الدينية.

وجاء في حكم المحكمة أيضاً أنه لا يحق لأي شخص من شخصيات الحزب أن تعمل من خلال أي حزب سياسي آخر، ولا أن يؤسسوا أي حزب جديد، ولا أن يرشحوا أنفسهم لأي انتخابات قادمة ولو بشكل مستقلين لمدة خمس سنوات. وكانت المدة بين نشوء الحزب وإغلاقه ستة عشر شهراً فقط.

وفي تلك الأحداث الساخنة والمشادة العنيفة بين الإسلام والعلمانية في تركيا ظهر نجم الدين أربكان يخوض المعارك الفكرية مع العلمانيين ففي 2 آب عام 1972م وقبل تأسيس حزب السلامة الوطني تحدث أربكان في المجلس الوطني فقال: (في رأينا أن التوضيح المهم الأكثر ملاءمة لجعل الدستور، دستوراً ديمقراطياً، لابد أن تكون هناك

مواد دستورية مناسبة قبل تحديد الحركات وحقوق الفكر والمعتقد، وهكذا من الممكن إيجاد مناخ للتطبيقات الحالية والتي تتعارض مع المبادئ الأساسية للدستور، وفي مثل هذه الحالة، على المرء أن يتكلم عن وجود فكر الحرية والمعتقد، وأن دولتنا لتسعى وتنمو، ومن ثم لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضارية في العالم).

كان أربكان يرى أن النظام الديمقراطي لا يعد ديمقراطياً بدون الحقوق وحرية الفكر والمعتقد، وكان يقصد من وراء ذلك الحرية التامة لاستخدام نشر الأفكار الإسلامية، وقد فسرت كل من صحيفتي (جمهوريت) و (ملليت) العلمانيتين تصريحات وأقوال أربكان بأنها ذريعة لاستخدام الدين لأغراض سياسية.

لقد هاجم نجم الدين أربكان العلمانية واستفاد من الثغرات الموجودة في الدستور التركي ورد على الجملة الإعلامية العلمانية الموجهة ضد أطروحاته فقال: (إن مصطلحات القومية، والديمقراطية والعلمانية والاجتماعية، والتي تقوم عليها شخصية الدولة، واستناداً إلى المادة الثانية من الدستور، إن هذا من الممكن توضيحه بأن هذه المادة لا تسمح باستخدام وتفسير المعارضة في الممارسة، وفي هذا المجال وبصورة خاصة مصطلح القومية بحاجة إلى توضيح ، وهذا يعني أنها بحاجة إلى تحديدها بطريقة تقوم على احترام جميع القيم الروحية لقوميتنا من حيث التاريخ والتقاليد.

وأضاف نجم الدين قائلاً: (الدين هو معتقد أساسي ونظام فكري للأفراد، وهذا يعني الاعتراف بحق الحرية والوجود والاعتراف بحقوق المعتقد للفرد. إن حرمان الشخص من هذه الأسس هو ضد الروح والمبادئ الأساسية للدستور خاصة الفقرة (1) من المادة (19) والمادة (20) من الدستور).

بعد هدوء جو العنف والقلق السياسي في السياسة الداخلية التركية من جراء الأحكام العرفية؛ قام أربكان بلم شعث حزب النظام الوطني وأسس حزباً جديداً أطلق عليه حزب السلامة الوطني.

استطاع حزب السلامة الوطني خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثمانية أشهر من تنظيم قواعد في 67 محافظة، وأعلن نجم الدين أربكان بأن نجاح حزبه خلال هذه المدة يعود إلى تعاطف الرأي العام المحلي مع الحزب الذي ينادي بأهمية الأخلاق الدينية والمواقف المعنوية، وعلى هذا الأساس فقد أكد حزب السلامة الوطني في برنامجه على ما يأتي:

(قيام تجمع يعتمد الفضيلة والأخلاق ويعطي القيمة المعنوية للإنسان مثلما نصت عليه المادتان العاشرة والرابعة عشرة من الدستور والتي تؤكد على القيمة المعنوية للإنسان على أساس من الأخلاق والفضيلة).

أهم أعمال حزب السلامة:

- عندما شعر حزب السلامة بقوته، وصار جزءاً من الحياة السياسية في تركيا شرع منظرو الحزب بشن حملة إعلامية منظمة على أسس العلمانية في تركيا وبينوا للناس إن الإطار السياسي لتركيا الجديدة يناقض المبادئ السياسية للإسلام ويقضي الإسلام بتوحيد السلطات السياسية والدينية تحت سيطرة الدين، وفي هذا المعنى، فإن العلمانية، والنظام العلماني ضد الإسلام، والشريعة والدين وخاصة تطبيقها في تركيا، فإنها صممت لضمان الزندقة.

ويردف هؤلاء: «إن الخونة والكذابين هم وحدهم الذين يقولون بأن الدين والسياسة شيئان منفصلان، لأن المسلمين لا يفصلون شؤون الدنيا عن شؤون السماء. لقد أصبح واضحاً بأن التشريع ليس من حق الإنسان. أما إذا وضع القوانين أو ادعى بأنه يفعل ذلك، فإن علمه هذا يعد خطيئة.. إن خالق القوانين الإسلامية هو نفسه خالق الإنسان، لقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين. إن القوانين الإنسانية لا تتناسب وطبيعة الإنسان. إن الإسلام نظام يصلح لكل زمان، إنه يمثل كلا من الدين والدولة. إن القرآن لم ينزل ليقرأ في القبور أو يغلق عليه في أماكن العبادة. لقد أنزل القرآن ليحكم».

لقد شق أربكان طريقه بصعوبة في محاربته للعلمانية بالحجة والبرهان ولقد عبر عن آرائه بصراحة خلال مباحثاته مع ضياء الحق حاكم باكستان سابقاً مؤكداً أن دخول الإسلام في كافة جوانب الحياة هو الشرط الوحيد لقيام دولة إسلامية، وفي هذا المجال قال نجم الدين أربكان: «قبل كل شيء يجب أن تكون الدولة إسلامية، إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الدين الإسلامي في خطر».

إن حزب السلامة الوطني لم يحاول أن يتخذ موقف الهجوم المباشر على الديمقراطية في انتخابات عام 1973م، إلا أنهم عبروا عن مشاعرهم الحقيقية عن ذلك في عام 1980م، حيث بدأوا ينتقدون الديمقراطية مؤكدين أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام.

وفي هذا المجال أكد حزب السلامة أن «الديمقراطية مؤامرة غربية لقيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربية والمسيحية. إنه انتصار للمسيحية ضد الإسلام، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهية إذ لا يمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها».

الفصل التاسع

أسباب سقوط الدولة العثمانية

إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:63].

لقد كان في ابتعاد أواخر سلاطين الدولة العثمانية عن شرع الله تعالى آثاره على الأمة الإسلامية؛ فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصابا بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:124].

وقد أصيبت الشعوب الإسلامية في مراحل الدولة العثمانية الأخيرة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات، وضعف ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى

ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:78-79].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله ﷺ : (كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهُونَّ عن المنكر ولتأخُذُنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصُرُنهُ على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعَنكم كما لعنهم).

لقد تحققت في الدولة العثمانية سنة الله في تغيير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأنفال:53].

كما أن الشعوب التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة.

إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والانكليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الدولة العثمانية.

إن الذنوب التي تهلك الله بها الدولة، وتعذب بها الأمم قسمان:

1- معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.

2- كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر

بنعمة الله، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم.

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة في مسيرتها الدعوية والجهادية آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور:55-56].

فكانت الدولة الإسلامية العثمانية في بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط، أما في أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحراف عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً:

أولاً: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء:

فكانت الدولة في عصورها المتقدمة عاملة بقول الله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:28].

وقول الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:51].

ويقول رسول الله ﷺ : (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله).

أما في عصورها المتأخرة وخصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب أقاليم الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية، ولغياب العلماء الربانيين الذين ينيرون للأمة دروبها، ويأخذون بزمامها إلى الطريق المستقيم وكان الحكام والسلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين ويتولونهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب

عظيم من القوة المادية، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضعف؛ فقد ساعد الواقع الأليم الذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة.

فالواقع المليء بكافة صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة في مقابل الواقع الأوروبي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة، كما كان حال الجيل الأول رضي الله عنهم الذي استعلى بدينه وعقيدته على قوة الكافرين وجبروتهم حتى في وقت الهزيمة، ولحظة الفشل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:139].

ومع هذا فإن هذه العقيدة على مستوى شعوب الأمة كانت متوهجة في النفوس، مستقرة في العقول؛ فقد كان المسلم في الشمال الأفريقي يحب أخاه المسلم في الشام ويبغض جاره غير المسلم وهكذا في كل الأقطار والبلدان، وكان المسلم يحس بإخوانه في كل مكان بما يقع لإخوانه في الدين من اعتداءات ونكبات، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنفير في سبيل الله. فكانوا إلى حد كبير كما وصفهم الرسول ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وقد بينا مناصرة مسلمي الحجاز وليبيا لإخوانهم في مصر عندما احتلها الفرنسيون في عام 1213هـ/ 1798م وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السلطان عبد الحميد الثاني إلى فكرة الجامعة الإسلامية ودعوته لاتحاد المسلمين في العالم في مقابل التسلط الأوروبي والروسي وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدعوة إلى حد كبير، وتجاوب معها المسلمون في كل مكان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وبلادهم؛ وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخط.

إن الشعور بالترابط الديني بين المسلمين كان قوياً على الرغم من كثرة الانحرافات التي توحي بالفرقة والاختلاف كالمذاهب الكلامية والفقهية، والطرق الصوفية، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة إلى حد كبير في نفوس العامة؛ لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود والنصارى أن يروا في تلك العقيدة جداراً صلباً وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم. ولذا أخذوا يعملون على تحطيم

ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الإسلامية وفي الدولة العثمانية ممن بأيديهم مقاليد الأمور من السلاطين والباشاوات. كما حدث مع السلطان العثماني محمود الثاني المتوفى عام 1839م الذي تزعم حركة الإصلاح المقلدة للمنهج الأوروبي، حيث عمل على مسخ عقيدة الولاء والبراء وحاول طمسها في النفوس، ويتجلى هذا الاتجاه الخطير في قول السلطان نفسه (إنني لا أريد - ابتداء من الآن - أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة واليهود في المعبد، إنني أريد مادام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحماية الأبوية) ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها في الدولة في ذلك العصر بحرية واسعة النطاق.

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السلطان وتشجيعه.

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النسق النمساوي، وطرد الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان.

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطياً موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس.

والأدهى من ذلك ما حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا بالولاء لروسيا من قبل، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة، وبالتالي كان لروسيا عيون في جيش السلطان الجديد تزودها بأدق المعلومات والخطط. وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء.

هذا مثال بارز على ضعف عقيدة الولاء والبراء لدى بعض سلاطين العثمانيين وعدم الاهتمام بها.

أما الباشا محمد علي والي مصر، فقد فتن بالغرب، وتابع سياستهم، وسار على خطاهم، وما فتئ خلال حكمه الطويل الذي بلغ خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولي الكفار ويصانعهم، ويعلي من شأنهم ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم وقوانينهم، والسير في

ركابهم، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين، واستهانته بهم؛ فقد تخطى عقيدة الولاء والبراء وضربها في الصميم، ليرضي أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات اليهودية، فقد اعتاد محمد علي باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، الذين تغلغلوا في حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشورته، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها.

وفتح البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب، واكتشاف الآثار، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم.

لقد قام النصارى بدراسة مراكز الثروة، ودراسة المواقع دراسة تخطيطية، مما أفادهم ولاشك في احتلال مصر فيما بعد عام 1882م، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الانكليز، وكانت هناك أهداف أخر لم يفطن لها كثير من الباحثين ونترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه (الشرق الأدنى؛ مجتمعه وثقافته): (إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد مسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات).

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها بدءاً بالفرنسيين ثم الانكليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة.

يقول الأستاذ محمد قطب: (ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان نبش الأرض الإسلامية لاستخراج الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام).

وقدم محمد علي خدمة لمخططات الأعداء بضرب الاتجاه الإسلامي السلفي في الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر. وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى.

وقد سرّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر، وكذلك بريطانيا، وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية.

وضايق محمد علي باشا العلماء والفقهاء والأزهريين في لقمة العيش وسيطر على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة وبالتالي أحكم السيطرة على المشايخ القائمين على التعليم من رجال الأزهر، وحتى الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين لم تنج من غائلة محمد علي؛ فقد ذكر الجبرتي - رحمه الله - أن كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها.

وذكر الشيخ محمد عبده أن ما أبقاه محمد علي من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها. وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إلى اليوم (في عهد الشيخ محمد عبده) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بذلك ما يساوي أربعة آلاف جنيه في السنة بينما نجده قد اندفع نحو التغريب وإرسال البعثات كما ذكرنا في البحث.

إن هذه السياسة التدميرية التي نهجها محمد علي والتي فرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرحيل، وهو أمر أكده المؤرخ الانكليزي أرنولد توينبي في قوله: (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر).

لاشك أن محمد علي باشا كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم، سواء كان وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي وعلى الأخص تخطيط فرنسي، أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره وثقافته أو كان للأمرين معاً، فإن هذا كله لا يغير من الأمر شيئاً، ولا ينفي أن محمد علي قد احتوته الدول الغربية، وأخذت تقوده في ركابها، وخصوصاً وأن فيه من الصفات والخلال التي ينشدها المستعمرون دائماً كجنون العظمة، وغلظة القلب وفظاظة الطبع ورقة الديانة أو عدمها.

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء، واستخدم سياسة العسف والإرهاب والتنكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرما.

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية إلا أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره مسلمي مصر ويحتقرهم ويزدريهم أيما ازدراء، وليس أدل من ذلك من قوله : (ثقوا أن قراري لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي ..وقد تقولون إن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها).

وقد كان محمد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، حتى لقد هم - بعد أن جاءته الأوامر بالطبع - أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص، إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم؛ لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلال.

ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما عملت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكر في ذلك.

هذه وقفة مع باشا من باشاوات الدولة العثمانية عمل على إضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى الأمة المسلمة بشكل مباشر تمثل في سياسة العسف والإرهاب، وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً، لقد استحق محمد علي أن يكون رائد التغريب في العالم الإسلامي العربي التابع للدولة العثمانية وسار أولاده وأحفاده من بعده على نفس السياسة، فقد ظلوا يتعهدون غراس التغريب والعلمنة، ويسيرون في نفس الطريق ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب، وخطب وده.

إن فئة سلاطين الدولة العثمانية وباشاواتها أمعنوا في موالاة الكافرين وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها في الصميم، وبذلك تميعت شخصية الدولة العثمانية وهويتها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها ثم مزقوها شر ممزق.

ثانياً: انحصار مفهوم العبادة:

إن من شروط التمكين التي قام بها العثمانيون الأوائل تحقيق مفهوم العبودية الشامل كما هو مفهومه من القرآن الكريم والسنة النبوية، وكما أخذوه عن السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ففهموا أن الدين كله عبادة، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقية التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56]. وكانت هي دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح ﷺ إلى نبينا محمد ﷺ لأقوامهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:59،65،73،85].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:36].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:25].

لقد فهم العثمانيون الأوائل العبادة بمفهومها الشامل الذي أراده الله عز وجل، وهي أن تشمل كل نشاط في حياة الإنسان: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:162-163].

فأصبحت حياتهم حافلة بالأعمال العظيمة من تقوية الدولة المسلمة وتربية دائمة لرعاياها، وتعليم القرآن، والعلم، وجهاد الكافرين والمنافقين، وقيام على أمور المسلمين، وتنفيذ لأهداف التمكين ولذلك نجد العلامة الشيخ شمس الدين آق يجمع بين دوره في توجيه الأمة وتعليمها وتوظيف علم النبات والطب والصيدلة لمصلحة المسلمين، لقد كان هذا الشيخ يتعبد المولى عز وجل بالعلم الديني والدنيوي وكانت له بحوثه في علم النبات ومعالجة الأمراض المعدية وألف في ذلك كتاباً، وأهتم أيضا بمعالجة مرض السرطان وكان مجاهداً في صفوف جيش محمد الفاتح، مربياً لعوام العثمانيين على طاعة الله تعالى ومهتماً بتزكيتهم وآمرا بالمعروف وناهياً عن المنكر وكان نعم المربي والناصح لمحمد الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينية جاء محمد الفاتح يدخل في الخلوة مع الشيخ فمنعه الشيخ شمس الدين وقال لمحمد الفاتح: (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك، فتختل أمورها، فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح. إن هذا الفهم الجميل هو الذي سارت به الدولة العثمانية عندما كان للعلماء الربانيين صدارة التوجيه والإرشاد والتعليم، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً في عصر السلطان محمد الفاتح في كافة شؤون الحياة

التربوية والسياسية، والاقتصادية والعسكرية، والاجتماعية والعلمية كل ذلك النهوض مستمد من مفهوم العبودية الشامل الذي فهموه من الشريعة الغراء ولذلك نجد في الدولة العثمانية في عصر مجدها وقوتها تفوقاً في كافة المجالات فمثلاً في الجغرافيا يظهر اسم الريس بيري في زمن السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان الريس بيري، قائداً للبحرية العثمانية، وعالماً جغرافياً فذاً، ولد عام 1465م وتوفي عام (1554م)، كان هذا العالم الجغرافي رائداً من رواد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني وله في هذا المضمار خريطتان هامتان، الأولى لإسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية من الأمريكيتين.. وهذه، قدّمها إلى السلطان سليم الأول في مصر عام 1517م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (60×85سم) وعليها توقيع الريس. والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (68×69سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو أيضاً بإستانبول.

والجدير بالذكر أن الخريطة التي رسمها الريس بيري لأميركا هي أقدم خريطة لها.

في 26 أغسطس عام 1956م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأميركية ندوة إذاعية عن خرائط الريس بيري، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الريس بيري لأمريكا: (اكتشاف خارق للعادة).

وقد كان الريس بيري على معرفة بوجود أمريكا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحرية: (إن بحر المغرب - يقصد المحيط الأطلسي - بحر عظيم، يمتد بعرض 2000 ميل تجاه الغرب من بوغار سبته. وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة أنتيليا)، وتعبير قارة أنتيليا هي الدنيا أو أميركا. وقد كتب الريس أن هذه القارة اكتشفت عام (870هـ/ 1465م) أي قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي 27سنة.

لقد ترك ريس بيري كتاباً في البحرية أثار بما فيه من معلومات وخرائط دقيقة، دهشة المعاصرين من علماء الجغرافيا في أميركا وأوروبا، فقد تضمن معلومات وخرائط أثبت العالم المعاصر صحتها.

وقد ذكر الراهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون ما يدل على عبقرية القائد العثماني ريس بيري في علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الريس بيري صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى

أيامه في القرن السادس عشر الميلادي .. إن الجانب المذهل في مكانة بيري، هو رسمه لجبال أنتاركتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أن هذه الجبال، لم يكن أحد قد تمكن من اكتشافها إلاّ في عام 1952م أي في النصف الثاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، أمّا قبل القائد العثماني الريس بيري، يعني حتى القرن السادس عشر الميلادي، لم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكا موجودة، إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريخ).

والمعروف أن أنتاركتيكا هي القارة السادسة والواقعة في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، لم يقتصر الذهول على الراهب لين هام فقط، بل تعدّاه إلى كثير من العلماء والكتاب لقد قارن بعض العلماء صور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط التي رسمها القائد البحري العثماني الريّس بيري في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر واتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري.

إن النهوض في الدولة العثمانية في عصورها الزاهية كان في كافة المستويات العلمية، والشعبية، والحكومية والعسكرية وكانت حركة الدولة والأمة تعبيراً صادقاً لمفهوم العبودية الشامل، أما في العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها، اللهم إلا ما تستغرقه من زمن لأدائها. وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية، ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضوا النظر عنها وأنزلوا مرتبتها. ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس وما أكثرهم في عصور الانحطاط - فضول يشغل عن الله وعبادته... وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان، كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات.

وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي، والاجتماعي والأخلاقي.

ولقد تسبب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيات من أهمها:

- صارت الشعائر التعبدية تؤدى بصورة تقليدية عديمة الأثر والفائدة، حين عزلت عن بقية أمور الإسلام فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى، فالصلاة التي يخبر الله عز وجل عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:45]. لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب.

- تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى.

إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء. حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد، ثم يخرج ويحلف عن عتبة المسجد كاذباً، ويغش في بيعه وشرائه، ويحتال في معاملاته، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ويقع في أعراض الناس، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير، هادئ الخاطر، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

- العناية بالجانب الفردي الشخصي، وإهمال الجوانب الاجتماعية فنجد أن المسلمين قد عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أن إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، كما ورد في الحديث، وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه، ولكنه لا يبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التي أمر الإسلام بها.

ونتيجة لكون مفهوم العبادة انحصر في الشعائر وحدها وخرجت منها بقية الأعمال، فاهتم الناس بشؤونهم الخاصة وأهملوا شؤونهم العامة، ونمت روح الفردية على حساب الروح الاجتماعية.

- إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب. فقراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه، من آيات

الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة... وبينما كان الرسول ﷺ يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء - المأثور منه والمبتدع المخترع - بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابها المشروعة التي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها، بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمام وحجباً، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها.

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل السياسي بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم، وتقديم النصيحة إليه، والسهر على تطبيق الشريعة وأجراء العدل في حياة الناس.

وما أجمل ما قاله سيد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة واستنكاره لمن يحصرها في الشعائر التعبدية: (إن الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء). وهذا هو معنى العبادة الشامل الذي وعاه العثمانيون الأوائل، فطبقوه في حياتهم، وعملوا به في واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطواغيت، ومكن الله لهم في الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة، ويوم تبدل ذلك المفهوم وانحصر في دائرة الشعائر، فترت الهمم وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملة فوقع الضعف ثم السقوط.

إن ما حل بالدولة العثمانية من هزائم عسكرية، وأزمات اقتصادية، وانحرافات خلقية، ومصائب اجتماعية، وتلوثات فكرية، وجفاف روحي، وتأخر حضاري، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشامل.

فيوم كانت: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أراضي المسلمين واستلاب خيراتهم ويوم كان (طلب العلم فريضة) لم يكن هناك تخلف علمي، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم، التي تعلمت أوروبا في مدارسها وجامعاتها!

ويوم كانت (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) عبادة، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) عبادة، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسؤول عن رعيته، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله! ويوم كانت (وعاشروهن بالمعروف) عبادة، لم تكن للمرأة المسلمة قضية، لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها طاعة لله، وعبادة لله!.

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخرة للدولة العثمانية لشيوع المذهب العلماني، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية.

ثالثاً: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات:

إن الدولة العثمانية في القرنين الأخيرين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، وحدث انحراف في توحيد الألوهية رهيب، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم.

يوم كانت الدولة العثمانية محققة للتوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشامل، وتحارب الشرك كانت في ذروة التمكين والعز والنصرة من الله تعالى، فهذا السلطان مراد الأول وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جندي صربي يودع الدنيا بمعان عميقة في التوحيد، وكلمات جامعة على التوحيد المنافي للشرك فيقول «لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء».

أما السلطان مراد الثاني فقد ترك وصيته: (فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي). لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألا يبنى شيء على مكان دفنه. لقد كان السلاطين الأوائل تتفجر معاني التوحيد في كلماتهم وتنعكس على أعمالهم وانتشرت تلك

المفاهيم في الشعب العثماني قاطبة، أما في العصور المتأخرة فقد تغير الحال، ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها في النهي عن كل السبل المفضية إلى الشرك وتحذير النبي ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته.

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله في تلك الفترة في الصور التالية:

- بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور في أقاليم الدولة، بل انتشر ذلك في العالم الإسلامي كله وللأسف الشديد نجد الدولة العثمانية في العصور المتأخرة تشجع على تلك المشاهد والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي فمثلاً أعفت الدولة أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة، يعني الزبير بن العوام ﷺ، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السلطان عبد العزيز بترميم القبب، وتكبير المسجد، وفي سنة 1293هـ ورد أمر من السلطان عبد الحميد الثاني بتعمير هذه المراقد الشريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السعدون).

ثم في سنة 1305هـ أمر السلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القبب وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين. وكانت جميع الأقاليم الإسلامية، في الحجاز واليمن وأفريقيا ومصر والمغرب العربي والعراق والشام وتركيا وإيران، وبلاد ما وراء النهر والهند وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة والقباب وتتنافس في تعظيمها والاحتفاء بها، إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشرف الذي يتوق إليه الكثيرون.

لقد أولع العثمانيون في عصورهم المتأخرة بالبناء على كل ما يعظمه الناس في ذلك العصر سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثارا لأنبياء أو غير ذلك.

وأصبحت تلك المشاهد والأضرحة محلاً للاستغاثة والاستعانة بأصحابها وانتشرت عقائد شركية كالذبح لغير وجه الله والنذر للأضرحة، والاستشفاء وطلب البراء من الأضرحة والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة الناس، وأصبحت مهيمنة على شؤونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوأت في نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات، والتعلق بهم من دون الله عز وجل فلا يبرمون من أمورهم

صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها واستشارتهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف لغيرهم، وقد كان العلماء وللأسف الشديد يتقدمون العامة ويسنون لهم السنن السيئة في تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى الناس في الشرك والضلال وأمعنوا في الوثنية ومحاربة التوحيد فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء، بل أشركوا بالأشجار والأحجار، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة في بغداد في مدفع قديم في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس، لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم وهو يعرف عندم «طوب أبي خزامة»، مما حدا بالعلامة محمود شكري الآلوسي إلى التصدي لهذه الخرافة الشنيعة بكتابة رسالة يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها بـ (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع).

واعتاد الناس في أواخر الدولة العثمانية أن يحلفوا بغير الله عز وجل من المخلوقين، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذباً، عامداً متعمداً، ولكنه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين إلا صادقاً.

- **انتشار البدع والخرافات:** كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية ينفرون من البدع وأهلها ويحاربونها فهذا السلطان محمد الفاتح في وصيته يقول لمن بعده: «جانب البدع وأهلها وباعد الذين يحرضونك عليها» أما في العصور المتأخرة من الدولة العثمانية فإن البدع انتشرت انتشاراً ذريعاً، وأصبحت حياة رعايا الدولة ممزوجة بها، فقلما تخلو منها عبادة، أو عمل أو شأن من شؤون الحياة سواء في الجنائز والمآتم والأعراس والضيافات والولائم، وبدع الموالد عند المتصوفة المنحرفين، وهكذا أصبحت البدع ترى في كل مكان تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس يعمل بها الجاهلون ويؤيدها العالمون، وأصبحت السنة بدعة والبدعة سنة، وتغير مفهوم الدين والعلم من منهج كامل وشامل لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون بها، ويحسبون أنهم مهتدون، وتحول صحيح البخاري بما حواه من منهج للنبي ﷺ إلى تقليد بال رتيب، يتلى في الأزمات، ويقرأ في الحروب، طلباً للنصر ودحر الأعداء.

لقد أضحت السنة في تلك الفترة غريبة جداً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين، ويأبون التفريط فيها مطلقاً، في

الوقت الذي كانوا يفرطون فيه في كثير من أحكام الإسلام، ويكافحون من أجلها، ويتعاهدون عليها، ويرون أنهم خدموا الدين، ونفعوا المسلمين.

- انتشار الخرافات: في أواخر الدولة العثمانية فشت الخرافات والأساطير في جموع المسلمين بشكل منقطع النظير، وأضحت كحقائق مسلمة لا تقبل النقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لا يجوز التهاون بها، فضلاً عن التشكيك في صحتها.

ومن الخرافات في الآستانة أن جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير مربوط طرفه بشجرة سرو قديمة، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً، وجلس تحت هذا الزنجير، فهو يسقط على رأسه، وإذا كان صادقاً في إنكاره، فالزنجير لا يتحرك. لقد كانت الأمة في تلك الفترة غارقة في عبادة الأضرحة، والتعلق بها من دون الله عز وجل، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والغلو والبدع والخرافات، التي ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها عن طريقها الصحيح، فعجزت عن النهوض من كبوتها، ولم تستطع أن تعالج أسباب انحطاطها، وانهزمت أمام جيوش الأعداء ووهنت عن مقاومة مخططاتهم ومؤامراتهم وكانت النتيجة ضياع الدولة العثمانية.

رابعاً: الصوفية المنحرفة:

إن أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكارا وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد قوي عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعددة منها:

1 - الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية، والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل، كل ذلك جعل الناس يرتمون في أحضان الصوفية المنحرفة، التي لا تقوم بأكثر من الترتيب عليهم، والتخدير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه.

2 - كان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات العصور المتأخرة، حيث كانت تزهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون سبب في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة،

والظروف العصيبة، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدة عن المصائب والفتن التي فتكت بالناس. لقد كان الفقراء أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم، فقد كانوا في أمن من تطبيق القوانين ... وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحي، ويؤمنون باتصالهم بالله، فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال.

3- الترف في معيشة أرباب الفرق: كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله. ومن أطرف مفارقة هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شؤون العيش، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف.

4- حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف: فقد كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم، وكانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أما في ظل الدولة العثمانية، وفي تركيا بالذات، فقد صارت هي المجتمع وصارت هي الدين، وانتشرت - في القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة: من لا شيخ له فشيخه الشيطان! وأصبحت - بالنسبة للعامة بشكل عام - هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين.

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية، ويفيضون عليها من عطفهم وحدبهم، حتى جاء السلطان عبد الحميد إلى السلطنة في ظروف عصيبة، والمؤامرات تحاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان، ودعاة القومية يبثون دعوتهم في سائر البلاد، فدعا إلى الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية، وكانت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها تشكل ثقلاً في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ولم تبق مدينة ولا قرية إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجدا وملحقاتها.

لقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامي في تلك الفترة، ووقع جمهور من المسلمين في أسرها، وعظم سلطان المتصوفة في ذينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنته الدولة وناصره الحكام.

وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة وتبيح التسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جداً، فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر، والمرزوق في طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر!.

وفسدت لدى كثير من المتصوفة عقيدة القضاء والقدر وأصبحت عندهم عقيدة سلبية مخذلة، لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار. وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت في الجندي روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية».

إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الإيمان الذي ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة، فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين بها.

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر.

لقد كانت مفاهيم التصوف المنحرف تنخر في كيان الدولة العثمانية، وكان العالم الصليبي ينطلق في مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقي ويدير المؤامرات والدسائس لتفتيت الدولة العثمانية ومن ثم الهيمنة على العالم الإسلامي.

وكان المتصوفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهي والمعازف ويتعلمون الموسيقى وكانت مجالسهم مليئة بالطبول والنايات والأعلام والرايات وكانت كثير من الطرق المنحرفة لا تخلو حلقات الذكر لديها من الدف.

ويا ليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة، وعدوه طاعة تلين بها القلوب، وتشف بها الأرواح.

وهكذا أصبحت حياة المتصوفة المنحرفين في اللهو والسخافة وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذكر والسماع والملاهي، وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر بالسماع والغناء والرقص.

ودخل في عالم التصوف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم والأحياء ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا في الأوهام وعالم الخيال، وأصيب الناس بالوهن والعجز والانحطاط، واتسعت هوة التخلف والسقوط، وكانت أوربا الصليبية تواصل صعودها في سلم الحضارة المادية وتعد جيوشها للزحف على العالم الإسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام، والاتكال على الخوارق والكرامات.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمة تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحطاط، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة المنحرفين الذين أشاعوا روح الذل والخنوع في الأمة والذلة والهوان وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثير من الطرق الصوفية المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء في عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولاشك أن هناك نسبة كبيرة بينهم من الدجالين والمحترفين، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة في نفوس الناس، فاندسوا في صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الذين لا لوم عليهم ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجن فكان طبيعياً أن تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخططاتهم، وتحتل جيوشهم أرضنا، وتستباح بيضتنا، ولقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة ولعل آخر العقائد من آمن بها كثير من

المتصوفة المنحرفين كعقيدة وحدة الوجود والحلول. لقد احتضن المتصوفة المنحرفون هذه العقائد، وعملوا على نشرها، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التي كشف لهم سرها وستر عن الآخرين.

وكان تدريس كتابيّ (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) لـ (ابن عربي) وغيرها من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التي لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء!.

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجاً واسعاً بين المتصوفة المنحرفين في تلك الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، فكان كثير منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، التي لا يمكن للحياة في ظلها أن تفسد، ويحيق الدمار بالعالم، وتبطل الأديان بالكلية، فلا يبقى معها دين ولا جهاد، ولا عداء بين مسلم وكافر، فالكل واحد، والوجود واحد، وإن تعددت المظاهر. واستخفاف كثير منهم بالشرائع، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه، تحت مسمى الولاية والحزب والجذب والشهود، ولقد كان واقع الصوفية حجة قوية استندت إليها حركات التغريب التي نخرت الدولة العثمانية.

خامساً: نشاط الفرق المنحرفة:

كالشيعة الاثني عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين تحت قياداتهم.

ففي الماضي كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين، وهاهم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة والتآمر لحساب أعداء الأمة وقد مر بنا في هذا الكتاب دور الصفوية الاثني عشرية الشيعة في محاربة الدولة العثمانية على مر عصورها، وحين احتل الفرنسيون سوريا وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الإسماعيلية في سليمة وغيرها يقاتلون جنباً إلى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد (إبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين.

وفي القرن الثالث عشر الهجري تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم في بلاد الشام مما حدا بـ (يوسف باشا) والي الشام أن يقود جيشاً بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان قد خيرهم بين الدخول في الإسلام أو الخروج من البلاد فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد.

وقد قاموا بثورة كبيرة عام 1834م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها. وقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام وأرسل رجلاً من خاصته اسمه (ضيا باشا) جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون، وأقنعوا الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست.

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم، وكم خدعت تلك العقيدة الخطيرة (التقية) المسلمين حكاماً ومحكومين علماء ومتعلمين، فأين علماء السنّة الذين لا تنطلي عليهم دسائس الباطنيين؟

إن تاريخ النصيريين، تاريخ أسود ملطخ بالدماء ضد أهل السنة، وكانوا دائماً خنجراً مسموماً في جنب الأمة الإسلامية، يتآمرون ضدها في الخفاء، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلا، والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام.

أما البهائية فقد نشأت عام 1260هـ/ 1844م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الانكليز بهدف إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية، وقد ادعى البهاء المهدية، ثم ادعى النبوة، ثم ادعى الربوبية والألوهية. إن من المؤلم حقاً تهاون الدولة العثمانية في القضاء على تلك النحلة الخبيثة وتطبيق حكم الله وشرعه في أمثالهم.

وأما القاديانية فهي نحلة تنسب إلى (غلام أحمد القادياني) نسبت إلى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة 1326هـ) وهي: (حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الانكليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام).

وقد ادعى القادياني النبوة ثم الألوهية، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام احمد القادياني) (ميله الشديد للإنكليز وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند، وإبطال عقيدة الجهاد لهم، وثناؤه عليهم، وحث أتباعه على نصرتهم في كل مكان).

ويقول القادياني: (ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البغاة وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً في هذا الأمر ويُعان على شيء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرام قطعي ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبينا).

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإثارة القلاقل والفتن وإحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية وكذلك في تجمعات المسلمين كالهند وغيرها وكانت تلك الفرق لا تكل ولا تمل في تآمرها المستمر مع أعداء الإسلام وفي خيانة المسلمين في أحرج الأوقات، وأحلك الظروف، لقد اكتوت الأمة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السنة في كيان الدولة القائمة عليها وفي نفوس رعاياها من أهل السنة.

سادساً: غياب القيادة الربانية:

إن القيادة الربانية من أسباب نهوض الأمة والتمكين لها، لأن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة الربانية في حياة الأمة ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور وأزمة الحكم في الأمة الإسلامية ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ (عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح) كما أوصى بـ (العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة).

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجو مري وات) في (جريدة التايمز اللندنية) قائلاً: (إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى).

وقال المستشرق الصهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الإسلام) في دراسة نشرها عام 1976م: (إن غياب القيادة العصرية المثقفة: القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الإسلام كقوة

منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة).

إن الباحث في الدولة العثمانية يجد أن القيادة الربانية كانت موجودة في عصورها المتقدمة وخصوصاً عند فتح القسطنطينية فنجد القادة الربانيين في المجال الجهادي والمجال المدني ونلاحظ الصفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله ، والقدوة، والصدق والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتواضع وقبول التضحية، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

لقد قاد محمد الفاتح الأمة في زمنه قيادة ربانية، وقد جرى الإيمان في قلبه وعروقه، وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله وسكناته وأحواله، وانتقل بدولته وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطوات ثابتة، وكان العلماء الربانيون هم قلب القيادة في الدولة وعقلها المفكر، ولذلك سارت الأمة والدولة العثمانية على بصيرة وهدى وعلم. وأما في العصور المتأخرة يجد الباحث انحرافا خطيراً في القيادة العثمانية على المستوى العسكري والعلمي، فمثلاً وصل إلى الصدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، ووالي ولاية مصر محمد علي باشا العلماءُ والفقهاء، وإن المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجل مثل (محمد علي باشا) ليتولى أمورهم، وإصرارهم عليه في تولي الحكم، أما كان أحدهم أولى به من عسكري جاهل مغرور، ويبدو أن العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم وتهيبوا النزول إلى الميدان، وتحمل المسؤوليات العظام؛ لأنهم قد ألفوا الركون إلى حلقات العلم وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسؤوليات؟

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات والضغائن بينهم واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صف العلماء، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ (عبد الله الشرقاوي) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمور وضغائن

ومنافسات بينه وبين إخوانه ... فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره).

ويصف الشيخ مصطفى صبري حال العلماء الذين ابتعدوا عن أمور الحكم ونصح الحكام، وما هي نظرة العلمانيين للعلماء فقال: (والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقلبون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاؤون لدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر، إلا ما بعد من فضول اللسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان. فالعلماء المعتزلون عن السياسة، كأنهم تواطئوا مع كل الساسة، صالحيهم وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي).

لقد أخلد العلماء في أواخر الدولة العثمانية إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التي ترمقهم وترقبهم عن قرب، ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدنيا وأترفوا فيها، وكممت أفواههم بدون سيف أو سوط ولكن بإغداق العطايا عليهم من قبل الباشاوات والحكام، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة التي تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم.

لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجؤها كذلك إذا حزبهم أمر، وملاذها عند الفزع.. تتجهم إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر... وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحياناً، ويلقون في السجون أحياناً، ويؤذون في أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحياناً ولكنهم يصمدون لهذا، تقديراً لمسؤولياتهم أمام الله.

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، كانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة

عدوان .. يذكرونها بالله واليوم الآخر، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمة علماء الدين، والدين حي في النفوس ... وفي التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في الله حق جهاده، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله فما ضعفوا وما استكانوا .. فأين كان العلماء في تلك الفترة التي نحن بصددها من التاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الذين عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد...؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوي السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرونه وينهونه، قتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا في ركابه، يتملقونه ويباركون مظالمه فيمدونه في الغي، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت في بيوتها، أو انزوت في الدرس والكتاب، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس العلم.. وما نريد أن نظلمهم فقد كان منهم – ولاشك – من صدع بكلمة الحق، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولي السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق.. ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالبة التي راحت تلهث وراء المتاع والأراضي، أو تقبع داخل الدرس والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور.

وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتوالية، ومن هذه العوامل:

١ – الاهتمام بالمختصرات: قام بعض العلماء باختصار المؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم، فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها.

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس ناقداً للطريقة في تدريس الفقه: (واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إليها).

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: (قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً).

2- **الشروح والحواشي والتقريرات:** يقول الشوكاني - رحمه الله - الذي دَرَسَ ودَرَّسَ الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها: (مع أن فيها جميعاً ما لا تدعو إليه الحاجة بل غالبها كذلك ولاسيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل).

لقد كانت المؤلفات على كثرتها من شروح وحواش وغير ذلك من الأغلال التي كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدة وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة، ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم في تلك الفترة بعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة وكانت المعاهد الإسلامية كلها تقريباً بعيدة عن ذلك المنهج الإسلامي الأصيل.

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الكبير والجامعة العتيقة كان مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام:

(ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات، ولكني لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بال، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً حتى تمنيت إيمان العوام).

لقد أصاب المناهج الإسلامية في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجة من الجفاف، حيث أن العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام واهتمت بالجسم

والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها).

3- **الإجازات**: من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات، فكانت تعطى في العصر المتأخر للدولة العثمانية جزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرّسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيرا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره.

فكان ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي، وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع.

4- **وراثة المنصب العلمي**: أصبحت المناصب العلمية في أواخر الدولة العثمانية بالوراثة في الأمور العلمية المهمة كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولونها، تماماً كما تورث الدور والضياع والأموال، فكثير ما كان يحدث أن يموت شيخ يدرس عليه، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسيه إلى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه، وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم ولكن لابد للتصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الذي رحل عنه.

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت المتوفى عام 1312هـ، متحدثاً عن تلك الظاهرة السيئة في الدولة العثمانية: (وصار أبناء الصدور والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث وأطفال، ويترقون لذلك في الوظائف، حتى إن الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولولية وما طر شاربه ولا اخضر عذاره. وكان ينال التدريس أيضاً كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالإرث، فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم وغيرهم، فازدحم عليها الغوغاء وصار الجهال يموج بعضهم في بعض، والتبس الأمر وفسد أي فساد).

ويقول (محمد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني: (وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن، وكان المفتي (أبو السعود) من مشايخ الإسلام في الآستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آبائهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم، بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين، وكم من أمي غدا في (دمشق) و (حلب) و (القدس) و (بيروت) قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم).

لقد كانت لتلك العادة السيئة آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية، وحكرها في أسر معينة وبالتالي أثرت تلك العادة في إيجاد علماء ربانيين متجردين لدين الله تعالى همهم إحقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدين.

سابعاً: رفض فتح باب الاجتهاد:

في أواخر الدولة العثمانية أصبحت الدعوى بفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى حد الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكان من التهم التي وجهها خصوم الدعوة السلفية إلى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمة شديدة في ذلك الزمن مع أن أحدا منهم لم يقل بذلك، وكانت الدعوة إلى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور وأصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله مما شجع المتغربين على السعي الدؤوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا، ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا.

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته.. فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا التطور لم يطل الاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو الآخر.. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة.

لقد عانت الأمة من قفل باب الاجتهاد وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعط هذا الباب حقه، وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم، وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل... وكان من هذا أن مضى الناس - من غير المسلمين - يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً .. وهكذا سار الناس - من غير المسلمين- قدماً في الحياة ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد منذ بضعة قرون، واستمر التعصب المذهبي في إضعاف المستوى التعليمي، وانحدار العلوم وجمودها وتكبيل العقول والأفهام والحجر عليها. بالإضافة إلى ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم، وبعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر.

إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام.

لقد كان التعصب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتيت الصف الإسلامي مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية في الوقت التي كانت المؤامرات قد أحاطت بها وشرع الصليبيون في الإجهاز على الرجل المريض.

ثامناً: انتشار الظلم في الدولة:

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لها بموجب سنته العامة التي وضعها

لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله. قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:34]. قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية: (ولكل أمة أجل) أي ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي: وقت معين مضروب لاستئصالهم. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد الأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى.

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:100-102].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصرا على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصرٌ على أولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلابد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد؛ فالآية تحذر من وخامة الظلم. إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود:117].

قال الإمام الرازي في تفسيره: (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد).

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: (بظلم) أي: بشرك وكفر (وأهلها مصلحون) أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط.

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة).

لقد قام بعض الباشاوات بأفعال قبيحة وسفكوا الدماء واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السلطان مراد الثالث وكان أمير الأمراء في ديار بكر بأسرها؛ ففتك فيها وظلم أهلها وأظهر من أنواع الظلم أشياء مستكرهة جداً، منها الاعتداء على الأعراض، ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة ولما وصل الأمر للسلطان وعقد مجلس القضاء وهاب الناس أن يشهدوا عليه ولم يستطع القاضي أن يدقق في الدعوة لأن أخته كانت عند السلطان مراد مقبولة جداً، وانصرف خصماؤه ، وقرره السلطان في ديار بكر فذهب إليها ناوياً على إهلاك كل من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب ووصل الأمر إلى أن ثار عليه أهل البلد وقاموا عليه قومة رجل واحد فتحصن في القلعة وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتى قتل منهم خلقاً كثيراً.

وما قام به الباشا محمد علي من ظلم أهل مصر وأهل الشام، والحجاز معروف وقد ذكرناه في هذا الكتاب، وقد أشتد ظلم الأتراك للعرب، والأكراد، والألبان مع مجيء الاتحاد والترقي للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم الناس في داخل تركيا وخارجها وقد ذكرنا ما تعرض له السلطان عبد الحميد الثاني من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم؛ فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم وزالت دولة الخلافة العثمانية من الوجود.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:116]. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾. أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء.

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:11-13].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:16].

وجاء في تفسيرها: (وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجبّاريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سوئهم إنما وقع بأتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد).

وحدث في زمن السلطان محمد بن إبراهيم أن زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلستره بروم ايلي فكتب إلى قائم مقام الوزير بالقسطنطينية عبدي باشا النيشاني أنه يريد القدوم إلى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدّة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى إذا قدم فوقع النداء قبل قدوم السلطان بأربعين يوماً وتهيأ الناس للزينة ثم قدم السلطان فشرعوا في التزيين وبذلوا جهدهم في التأنق فيها واتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دَوْر من الأدوار، ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس في اللذة والسرور، واستوعب جميع آلات النشاط والحبور، وفشت المناهي وعلمت العقلاء أن هذا الأمر

كان غلطاً وأن ارتكابه كان جرما عظيما، وما ذلك إلا نهاية السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة، ثم طرأ الانحطاط وشوهد النقصان وتبدل الربح بعدها بالخسران.

وفي سنة تسعين وتسعمائة للهجرة احتفل السلطان مراد بن سليم الثاني بختان ولده السلطان محمد ووضع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحد من الخلفاء والملوك وامتدت الولائم والفرحة واللهو والطرب مدة خمسة وأربعين يوماً وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان وأغدق النعم العظيمة وجعل صواني صغاراً من ذهب وفضة وملأ الذهب بالفضة والفضة بالذهب وألقى في ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان.

وهذا انحراف خطير عن المنهج الذي سارت عليه الدولة في زمن قوتها وصولتها وتمكينها، وكان من وصايا محمد الفاتح لولي عهده (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو وأكثر من قدر اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك) فكان من الطبيعي بعد هذا الانحراف الخطير والأنغماس في الترف واللهو والشهوات أن تزول الدولة بعد ضياع مقومات بقائها.

عاشراً: الاختلاف والفرُقة:

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ : (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية (فأهلكوا). وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف.

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف. وقال ابن تيمية (وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف).

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفريقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين، فكل طرف يعتقد ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً.

وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ ، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة، لأن

قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرّئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها، ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها.

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن توقي الهلاك يكون بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة العثمانية وهلاكها واندثارها. وإن من أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإسلاميين القائمين بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف يؤدي إلى ضعف الأمة إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: (والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفريق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفريق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة. والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس، ويجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تغيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول).

لقد ابتليت الدولة العثمانية خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف والتفريق بين الزعماء والسلاطين، فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا) وهذا الصراع بين الحكام

المحليين والدولة العثمانية ساهم في إضعافها ثم زوالها وسقوطها ولقد ذكر بعض المؤرخين أسباب السقوط وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السقوط وبين الآثار المترتبة عن الابتعاد عن شرع الله تعالى.

إن الحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والأخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد عن محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي وما لم يتم محاربة الأسباب الحقيقية والقضاء عليها فإنه لا يمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إن الآثار كانت متشابكة ومتداخلة، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالضعف السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي، ويتأثر به، وهكذا.

إن كثيراً من المحاولات التي بذلت في العالم الإسلامي من أجل إعادة دولة الإسلام، وعزته وقوته ركزت على الآثار ولم تعالج الأسباب الحقيقية الذي كانت خلف ضياع الدولة العثمانية وضعف الأمة، وانحطاطها.

إن جهود النصارى، واليهود، والعلمانية ما كانت لتؤثر في الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين، وأهملت أسبابه المادية والمعنوية قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:111].

وبعد...

فلقد تعرض التاريخ العثماني لحملات التشويه والتزوير والتشكيك من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين. وسار مؤرخو العرب والأتراك في ركب الاتجاه المعادي لفترة الخلافة العثمانية. كما احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الإسلامية وقامت بدعم المؤرخين في مصر والشام نحو تأصيل الإطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورج زيدان وأديب إسحاق وسليم نقاش وشبلي شميل، وسلامة موسى، وغيرهم. واستطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومي في داخل الشعوب الإسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الإسلامي. واعتمد

المؤرخون الذين عملوا على تشوية الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس ولقد غلب على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الأعمى، والدوافع المنحرفة، البعيدة كل البعد عن الموضوعية.

ولقد قامت مجموعة من علماء التاريخ العثماني من أبناء الأمة بالردود على تلك الاتهامات والدفاع عن الدولة العثمانية من أهمها وأبرزها تلك الكتابة التي قام بها الدكتور عبد العزيز الشناوي في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، وما قدمه الدكتور محمد حرب من كتب مهمة مثل؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة، والسلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، وما كتبه الدكتور موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض.

إن أصول الأتراك ترجع إلى منطقة ما وراء النهر والتي تسمى اليوم تركستان وتمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر قزوين غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى في تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك. ودخل الأتراك في الإسلام في عام 22هـ في زمن عثمان ابن عفان ﷺ . وأصبحت قبائل الأتراك بعد دخولها في الإسلام ضمن رعايا الدولة الإسلامية وازداد عددهم في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتاب. واستطاع السلاجقة (وهم أتراك) أن يقوموا بتأسيس دولة تركية كبرى ضمت خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى. كما ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية). واستطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام 447هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض. وتولى زعامة السلاجقة ألب أرسلان بعد وفاة عمه طغرل بك وكان قائداً ماهراً مقداماً، وهو الذي انتصر على جيوش إمبراطور الروم في معركة ملاذكرد في عام 463هـ وكان ذلك الانتصار نقطة تحول في التاريخ الإسلامي لأنها سهلت إضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت ترتكز عليها الإمبراطورية

البيزنطية. وتولى زعامة السلاجقة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه واتسعت الدولة السلجوقية في عهده لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً.

ويعتبر نظام الملك من أعظم وزراء السلاجقة، واشتهر بضبطه لأمور الدولة وحبه للعلم والعلماء، وكثرة إنفاقه، وأعماله في الخير، وبناء المدارس لتعليم المسلمين.

وتضافرت عوامل عديدة في سقوط سلطنة السلجوقية مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية، منها: الصراع داخل البيت السلجوقي، وتدخل النساء في شؤون الحكم، وضعف الخلفاء العباسيين، والمكر الباطني الذي تمثل في اغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقادتهم.

ولقد قدمت دولة السلاجقة أعمالا جليلة للإسلام منها: أنها كان لها دور في تأخير زوال الدولة العباسية حوالي قرنين من الزمان، كما منعت الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها التوسعية، وكانت جهود السلاجقة تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي تحت راية الخلافة العباسية السنية، كما أنهم ـ أي السلاجقة ـ قاموا بنشر العلم والأمن والاستقرار في الأقاليم التي تحت نفوذهم، ووقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولي إلى حد كبير، ورفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه.

أما العثمانيون فإنهم ينتسبون إلى قبيلة تركمانية كانت تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي. وكان سليمان جد عثمان قد هاجر في عام 617هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط في شرق تركيا حالياً. وتولى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وفي طريقه وجد صراعاً مسلحاً بين السلاجقة المسلمين والروم النصارى، فأنضم إلى المسلمين وكان تدخله في الوقت المناسب سبباً في تحقيق نصر السلاجقة. ولهذا أقطع القائد الإسلامي السلجوقي ارطغرل ومجموعته أرضاً من الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الروم. وتولى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه وسار على نهج سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم.

لقد كان عثمان الأول يتميز بصفات رفيعة منها؛ الشجاعة ، والحكمة، والإخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، والعدل، والوفاء، والتجرد لله في فتوحاته، وحبه للعلم

والعلماء. وكانت حياته جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمامة. ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكان في تلك الوصية دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

وتولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام 726هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة إستراتيجية تستهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد.

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامي، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش، فقام بتقسيم الجيش إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

كما أهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وبالأعمال الإصلاحية والعمرانية، ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة.

تولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام 761هـ وكان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

واستطاع مراد الأول أن يفتح أدرنة في عام 762هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام 762هـ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية.

كان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعائه الخاشع نستدل

على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية واستشهد في معركة قوصوة ضد الصرب. لقد قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره.

تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام 791هـ وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الإسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد مثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة).

وانهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم إحسانه لاختيار المكان الذي نزل به جيشه. وتعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي ونشبت الحرب الأهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختيار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية.

وقد استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سني حكمه العثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

كما استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشيخ بدر الديني الذي كان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم في العقيدة. وكان السلطان محمد جلبي محباً للشعر والأدب والفنون وقيل إنه أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة.

تولى أمر السلطنة مراد الثاني عام 824هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبي وكان محباً للجهاد، والدعوة إلى الإسلام، وكان شاعراً ومحباً للعلماء والشعراء.

أما محمد الفاتح فقد تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في عام 855هـ وكان عمره آنذاك 22 سنة، وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ.

كانت من أهم أعمال السلطان محمد الثاني فتحه للقسطنطينية وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامي والأوروبي وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها.

لقد حرص العثمانيون على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثماني منها؛ الاستخلاف والتمكين، الأمن والاستقرار، النصر والفتح، العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

ومن أهم الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح، الحزم والشجاعة والذكاء، العزيمة والإصرار، العدالة، عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، الإخلاص والعلم.

ومن أعمال محمد الفاتح الحضارية؛ بناء المدارس والمعاهد، ورعاية العلماء والشعراء والأدباء والترجمة، والعمران والبناء والمستشفيات واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية، والجيش والبحرية والعدل. وترك محمد الفاتح وصية عبرت اصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها. ويعتبر الشيخان محمد بن حمزة المشهور بـ (آق شمس الدين) وأحمد الكوراني من الشيوخ الذين كان لهم أثر على محمد الفاتح.

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني (886هـ) وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفقهاً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك.

دخل بايزيد الثاني في صراع مع أخيه جم، واشتبك مع المماليك في معارك على الحدود الشامية، وحاول أن يساعد مسلمي الأندلس في محنتهم الشديدة.

تولى الحكم السلطان سليم الأول بعد بايزيد الثاني، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي.

وكان للسلطان سليم الأول الفضل بعد الله في إضعاف النفوذ الشيعي في العراق وبلاد فارس وحقق على الصفويين الشيعة الروافض انتصاراً عظيماً في معركة جالديران. ولقد كانت نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والصفوية؛ ضم شمال العراق، وديار بكر

إلى الدولة العثمانية، حيث أمّن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية، وسيطر المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن تم القضاء على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوي.

وقد استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب. ودخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا.

من جهة أخرى استطاع العثمانيون أن يحققوا انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية وأزاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود. وبعد مقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة (بركات بن محمد) إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين.

ودخلت اليمن تحت النفوذ العثماني بعد سقوط دولة المماليك وكانت تمثل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز، واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل : مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك إلى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة، ومنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة.

في عهد السلطان سليمان القانوني (927-974هـ) تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي. وتمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن المماليك الإسلامية والحد من نشاطهم، ونجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على

الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة. وقد كان من نتيجة الصراع العثماني البرتغالي؛ أن احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج، وحماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، واستمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر. وفتحت رودس في زمن السلطان سليمان القانوني واستطاع سليمان القانوني أن يحاصر فينا، ودخل في سياسة التقارب مع فرنسا.

اهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقي ووقفت مع حركة الجهاد البحري وقدمت لهم كافة المساعدات المادية والمعنوية. فقد دخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليم الأول وظهر في ساحة الجهاد في الشمال الأفريقي قائدان عظيمان هما الأخوان عروج، وخير الدين بربروسا. ونجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في إنقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا. وكان للوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه. وبعد ان أصبح خير الدين بربروسا قائداً للأسطول العثماني اهتم بالحوض الشرقي للبحر المتوسط وتولى حكم الجزائر القائد حسن آغا الطوشي الذي انهمك في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة وحاول جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية. واستطاع حسن آغا الطوشي أن يهزم الجيوش الصليبية بقيادة شارل الخامس على أراضي الجزائر وكان لتلك الهزيمة أثرها على الإمبراطورية الاسبانية، وعلى ملكها شارلكان وعلى مستوى الأحداث العالمية. فقد نزلت أنباء هزيمة شارلكان نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث بسرعة على المستوى الأوروبي. ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة. ولقد ظهر في الشمال الأفريقي قادة عظام ساهموا في حركة الجهاد ضد الأسبان والنصارى في البحر المتوسط من أشهرهم؛ حسن خير الدين بربروسا، وصالح رايس، وقلج علي. وحاولت الدولة العثمانية أن تكون علاقات إستراتيجية مع الدولة السعدية إلا أنها فشلت في بعض الأحيان وخصوصاً في زمن السلطان محمد الشيخ السعدي ومحمد المتوكل.

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في

كتب التاريخ معركة القصر الكبير، أو معركة وادي المخازن. وقد كان انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن بسبب عدة أمور منها: القيادة الحكيمة التي تمثلت في قيادة السلطان عبد الملك وأخيه أبي العباس، والتفاف الشعب المغربي حول قيادته، ورغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، واشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية النصرانية.

ولقد تولى حكم الدولة السعدية السلطان أحمد المنصور بعد استشهاد أخيه عبد الملك في معركة وادي المخازن. وبوفاة قلج علي في الجزائر ألغي نظام البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك مثل تونس وطرابلس.

لقد كانت لدى العثمانيين رغبة جامحة في استرداد الأندلس إلا أنهم لم يحققوا هدفهم المنشود، بسبب موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الانكشاريين من جهة أخرى، وجبهات المشرق من جهة ثالثة.

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (974هـ) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان. فقد تولى الحكم بعد سليمان القانوني سليم الثاني الذي لم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي لانهارت الدولة.

لقد انهزم العثمانيون في معركة ليبانتو عام 979هـ/ 1571م وكانت النتيجة لتلك المعركة مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط وكان ذلك الانكسار نقطة تحول نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية.

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني، وذلك بواسطة سفيره في استانبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوى الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها.

وعمل السلطان سليم الثاني على تخليص تونس من هيمنة الأسبان واستطاع العثمانيون بقيادة قلج علي وسنان باشا أن يفتحوا تونس في عام 982هـ. وقضى ضياع

تونس من الأسبان على آمالهم في أفريقيا وضعفت سيطرتهم تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الأسبان بإقامة دولة اسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال.

كما أرسل السلطان سليم الثاني حملة كبرى إلى اليمن واستطاعت أن تخلص عدن وصنعاء من هيمنة الزيود.

لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو 979هـ إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولا ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولا قادراً على أن يقاوم البرتغاليين. واستطاعت الدولة العثمانية أن تبني درعاً قوياً، حمى الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية، ومع ذلك الدرع فقط احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع.

تولى الحكم بعد وفاة سليم الثاني ابنه مراد الثالث وكان مهتماً بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية، وحاول منع الخمور إلا أن الانكشاريين اضطروه لرفع أمره، وهذا يدل على ظهور ضعف الدولة.

وبعد مراد الثالث تولى الحكم محمد الثالث، ورغم حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة إلا أن راية الجهاد ظلت مرفوعة، وقام هذا السلطان بدخول ميادين الوغى بنفسه، وكان الشيخ سعد الدين أفندي ممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان: (أنا معك أسير حتى أخلص نفسي من الذنوب، فإني بها أسير).

وتولى الحكم بعد محمد الثالث أبنه احمد الأول وكان عمره 14 سنة ولم يجلس احد قبله من السلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية في آسيا فأتم ما بدأ به أبوه من تجهيزات حربية، وكان في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة، والقيادة وكان شديد الحب للنبي ﷺ.

بعد وفاة السلطان أحمد الأول، تولى الحكم سلاطين ضعاف منهم مصطفى الأول، وعثمان الأول، ومراد الرابع، وإبراهيم بن أحمد، ومحمد الرابع، وسليمان الثاني، وأحمد

الثاني، ومصطفى الثاني، وأحمد الثالث، ومحمود الأول، وعثمان الثالث، ومصطفى الثالث، وعبد الحميد الأول.

وفي عام 1203هـ، تولى السلطان سليم الثالث الحكم بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعدائها وشرع في إحياء الروح المعنوية في نفوس جنده.

ولقد استطاعت الجيوش الروسية والنمساوية أن تهزم الجيش العثماني فكان لتلك الهزيمة آثارها على الدولة العثمانية، وتوالت الهزائم على العثمانيين وتزحزحت القوات العثمانية إلى الوراء باتجاه شرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصة لفك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوروبا. وبعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة واتجه نحو تقليد أوروبا إلا أنه عزل من السلطنة.

انتهزت فرنسا تدهور الدولة العثمانية وضعفها، فأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، وكانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية. وقد سعى رجال الحملة الفرنسية إلى زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء وعوام المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم. ونجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل.

كان الهجوم الفرنسي على مصر يعتبر أول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا.

أما بريطانيا فكانت تتابع الأطماع الفرنسية في مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية، ووصلت إلى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الأميرال نيسلون لتعقب الحملة الفرنسية واستطاع الأسطول الانجليزي أن يدمر الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية.

وكانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية قد شجعت الدولة العثمانية على مهاجمة الحملة الفرنسية في مصر، فأعلن السلطان الحرب على فرنسا وأصدر

أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في اسطنبول وإلقائهم في السجون.

وقد اضطرت الحملة الفرنسية إلى مغادرة مصر بسبب الهجوم المشترك الذي قام به الانجليز والعثمانيون على الفرنسيين في مصر وقد تضافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيين على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم أسطولهم في معركة أبي قير البحرية وسيطرة الانجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدات والإمدادات إلى قواتها في مصر.

وكان للحملة الفرنسية أثر بالغ في مصر خصوصاً والشرق عموماً واستطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الإسلام بخنجرها المسموم، واستطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في المنطقة، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدور الخطير الذي قام به محمد علي باشا حاكم مصر فيما بعد.

تولى حكم الدولة العثمانية السلطان محمود الثاني في عام 1223هـ واستطاع أن يتخلص من الإنكشارية وأزالها من الوجود وأصبح بعد ذلك حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية واستبدل الطربوش الرومي بالعمامة، وتزيا بالزي الأوروبي، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة.

في تلك الفترة الحرجة من التاريخ العثماني انتشرت المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التي لا تكل ولا تمل.

لقد كانت المحافل الفرنسية ترى دعم محمد علي لتتحقق لها أطماعها المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العثمانية وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة، ولذلك أنشأت لمحمد علي أسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً، وترسانة بحرية في دمياط.

وقام محمد علي بدور مشبوه في نقل مصر من انتمائها الإسلامي الشامل إلى شيء آخر يؤدي بها في النهاية إلى الخروج عن شريعة الله وكانت تجربة محمد علي قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك.

قام محمد علي نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الإسلامي في كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر في تهيئة العالم الإسلامي للأطماع الغربية.

وكان محمد علي مخلباً وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده. وترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية.

تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثاني ابنه عبد المجيد الأول وكان ضعيف البنية، شديد الذكاء واقعياً ورحيماً وهو من أجلّ سلاطين آل عثمان قدراً. وكان السلطان عبد المجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

لقد كانت حركة الإصلاح والتجديد العثماني تدور حول نقاط ثلاث هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليحه في نظم الحكم والإدارة، الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني، الاتجاه نحو مركزية السلطة في اسطنبول والولايات.

تكللت خطى كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام 1876م ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

ووضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعلمنت القوانين، ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، وابتعدت عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وقد سحب ذلك من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين.

إن النظرة الفاحصة في تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار ما يضعف التمايز والاستقلال في الأمة المقلدة ويجعلها مهتزة الشخصية.

ولقد اقتضت سنة الله في خلقه أن الأمة الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة ومن ثم تقلدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر حد تقليدها في عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلدة مقوماتها الذاتية وحضاراتها - إن كانت ذات حضارة - وتعيش عالة على غيرها.

لقد تولى الحكم في الدولة العثمانية السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني عام 1277هـ وكانت الدول الأوربية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للاستمرار في خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربي، والفكر الأوربي، والمبادئ العلمانية، وكان السلطان عبد العزيز يرفض الدساتير الغربية والعادات البعيدة عن البيئة الإسلامية وحاول النهوض بالمجتمع الإسلامي العثماني فدبرت مؤامرة لقتله بواسطة القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعة الماسونية المدعو مدحت باشا.

وتولى الحكم بعد السلطان عبد العزيز ابن أخيه مراد الخامس الذي كان منخرطاً في سلك الماسونية، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية، وكانت الحركة الماسونية هي التي دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلي بعد أن أصابته الدهشة والفزع بسبب مقتل عمه عبد العزيز وظهرت عليه اضطرابات عصبية أثرت على جهازه الهضمي، وكانت صحته في تدهور مستمر، فكان لابد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام.

تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1293هـ وتم الضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور، ومارس الوزراء استبدادهم واشتدت سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب، وعندما حانت الفرصة للسلطان عبد الحميد ألغى الدستور وشرّد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم، وشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

عمل السلطان عبد الحميد على تشكيل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات على أعدائه من الخارج، وأخمد ثورات في البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان في القضاء على التمردات

الداخلية في حينها. ودخلت الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين في ألمانيا.

ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية في معترك السياسة في زمن السلطان عبد الحميد الذي اهتم بهذه الفكرة من دعم أواصر الأخوة بين المسلمين في كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية. وشرع السلطان عبد الحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها، الاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء.

لقد حاول السلطان عبد الحميد التضييق على يهود الدونمة عندما علم قوتهم ومؤامراتهم ضد الإسلام، ولذلك قام يهود الدونمة بوضع خطة إستراتيجية مضادة له حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش وقاموا بدعم المحافل الماسونية للإطاحة به، واستخدموا شعارات الحرية، والديمقراطية وإزاحة المستبد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة وبين صفوف الجيش، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية التي تعمل على تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. وكان السلطان عبد الحميد العائق القوي أمام مخططات حكماء صهيون فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا وكان يتخذ التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين ولم يعط اليهود أي امتياز من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين.

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعيم أعداء السلطان عبد الحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية. واستطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تعزل السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم وقد تحصلت على دعم من الدول الأوربية، واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف.

ولم تكن الاتحاد والترقي لتستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، واضطر زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا وروسيا. وهكذا استطاع الانجليز واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدولة العثمانية، حيث قام بتنفيذ مخطط مرسوم انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربع وهي: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، إلغاء الخلافة

الإسلامية إلغاءً تاماً، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة، اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت في وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

لقد انتشر الظلم في الدولة العثمانية، والظلم كالمرض في الإنسان يعجل بموته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ولذلك زالت الدولة العثمانية من الوجود، وكذلك مما يعجل بزوال الدول انغماسها في الشهوات والترف وشدة الاختلاف والتفرق.

لقد ترتب عن ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالضعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستعمرت، وغزيت فكرياً، نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم وسقوطها.

المصادر والمراجع

1. إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الإمام ابن القيم ، مراجعة وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت - لبنان.
2. أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية 1975م
3. أطوار العلاقات المغربية العثمانية، إبراهيم شحاتة، منشأة المعارف، الإسكندرية ، الطبعة الأولى 1980م.
4. البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.
5. بداية الحكم المغربي من السودان الغربي، محمد الغربي، الدار الوطنية للتوزيع والنشر، طبعة عام 1982م.
6. البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، بيروت 1960م.
7. تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية 1378هـ/ 1958م.
8. تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دمشق، دار الفكر 1399هـ/ 1979م.
9. تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، تأليف يوسف آصاف، دار البصائر، الطبعة الثالثة 1405هـ - 1985م.
10. تاريخ العرب الحديث، تأليف د. جميل بيفون، د. شحادة الناظور، الأستاذ عكاشة، الطبعة الأولى 1412هـ/ 1992م، دار الأمل للنشر والتوزيع.
11. تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة 1415هـ 1994م.
12. تاريخ المشرق العربي، عمر عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
13. تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، دار الشروق الطبعة الثانية، 1979م.
14. تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل اندري جوليان، الدار التونسية للنشر، تونس 1978م، تعريب محمد مزالي.
15. جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، د. نبيل عبد الحي رضوان، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الأولى 1408هـ/ 1988م.

16. حركة الجامعة الإسلامية، أحمد فهد بركات، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الأولى 1984م/ 1404هـ.

17. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العمروسي دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م.

18. دولة الموحدين، علي محمد الصلابي، دار البيارق عمان-الأردن، 1998م، الطبعة الأولى.

19. العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1989م.

20. الكامل في التاريخ، علي بن محمد بن أبي الكرم بن عبد الكريم، القاهرة.

21. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية د. حسان علي حلاق، دار الجامعة، الطبعة الثالثة، 1986م.

22. مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤادي شكري، القاهرة سنة 1958م.

23. اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

24. السلاجقة في التاريخ والحضارة، احمد كمال الدين حلمي، الكويت، 1986.

المحتويات

مقدمة 5

القسم الأول: الحروب الصليبية

الفصل الأول: الحروب الصليبية في المنظور التاريخي 9

الفصل الثاني: أحوال أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي 35
أحوال الفرسان في القرن الحادي عشر الميلادي في أوروبا الغربية 44

الفصل الثالث: الأحوال العربية قبيل الحروب الصليبية 63
أولاً: الملامتية 80
ثانياً: الحلوليون والخارجون على قواعد الشريعة 80
ثالثاً: انقسام التصوف السني 81

الفصل الرابع: الحملة الصليبية الأولى 93
أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى 117

الفصل الخامس: الحملة الصليبية الثانية والمقاومة العربية الإسلامية 139
الحملة الصليبية الثانية 140
قلج أرسلان وجهاده في آسيا الصغرى 149
معركة مرسيفان 150
معركة هرقلة الأولى 151
معركة هرقلة الثانية 152
نتائج معارك قلج أرسلان 152
أثر وفاة قلج أرسلان 153
شرف الدولة مودود بن التونتكين 156
حملة مودود الأولى ضد الرها 156
حملة مودود الثانية ضد الرها 158
حملة مودود الثالثة ضد الرها 160
حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس 161
مقتل مودود 161
ما ترتب على حملات مودود من نتائج 164
نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين 166
نقض الصليبيين للهدنة 167
إعلان النفير ضد الصليبيين 167
معركة ساحة الدم 168

حصار أنطاكية وعقد الهدنة مع ملك بيت المقدس 170
نقض الهدنة 170
تمرد سليمان بن إيلغازي على أبيه 170
القضاء على التمرد 171
وفاة إيلغازي وأثر ذلك على المسلمين 171
محاصرة الصليبيين لحلب 173
مقتل بلك بن بهرام 174
أقسنقر البرسقي وإنقاذ حلب 175
مقتل البرسقي 179

الفصل السادس: الدولة الزنكية وسياستها في الإصلاح والتجديد 181
دور التعليم ومؤسساته 184
التوجيه والإرشاد الجماهيري 185
تكامل القيادات السياسية والفكرية 186
ازدهار الحياة الاقتصادية 192
بناء القوة العسكرية 195
بناء الوحدة وتحرير المقدسات والأراضي المحتلة 199
تقويم مدارس الإصلاح والتجديد 201
انعكاسات حركة المقاومة على المجتمع الإسلامي 206
نهضة آل زنكي 219
بيت آل زنكي 219
عماد الدين زنكي (الأتابك) 220
فتح الرها 220
نور الدين محمود زنكي 221
الحرب الصليبية الثانية 221
بقية أعمال نور الدين محمود 223
احتلال الصليبيين لعسقلان واحتلال نور الدين محمود لدمشق 223
النزاع على مصر بين نور الدين والصليبيين 223
ثورة شاور السعدي 224
الدور الثاني من النزاع على مصر 225
الدور الثالث والأخير من النزاع على مصر 225

الفصل السابع: سلطنة صلاح الدين الأيوبي والحملة الصليبية الثالثة 227
ضرب الجماعة الفاطمية 229
تحجيم النفوذ الفاطمي 232
الدفاع عن دمياط 233
تأمين الطريق بين الشام ومصر 236

إلغاء الخلافة الفاطمية 238
الجهاد في الشام 228
حصار عكا والحرب الصليبية الثالثة 282
مصير الحملة الألمانية 283
الحملتان الفرنسية والإنكليزية 284
انتهاء مقاومة عكا واحتلالها من طرف الصليبيين 284
الخلاف لدى القادة الصليبيين ورحيل الفرنسيين 284
صلح الرملة ونهاية صلاح الدين الأيوبي 285
معاهدة وصلح الرملة 285
نهاية صلاح الدين الأيوبي 286

الفصل الثامن: بقية الحملات الصليبية 287
الحملة الرابعة 287
الحملة الخامسة 291
الحملة السادسة 293
فريدريك الثاني والحضارة الإسلامية 293
الخلافات في العائلة الأيوبية 294
استيلاء فريدريك الثاني على بيت المقدس صلحاً 295
ماهية هذا الصلح 295
استرداد الملك الصالح أيوب لبيت المقدس 296
الحملة السابعة 296
الاستيلاء على دمياط 296
موت الملك صالح ومعارك المنصورة 297
انهزام الصليبيين وأسر لويز التاسع 297
نهاية الصليبية السابعة 298
مقتل توران شاه وانتهاء الدولة الأيوبية 298
الحملة الثامنة 300
قلاوون الصالحي والأشرف خليل 300
سقوط عكا ونهاية الصليبيين 301

الفصل التاسع: الحملات الصليبية في المغرب العربي 303
الدولة الحفصية وعلاقتها بصقلية 303
المستنصر بالله الحفصي 303
حملة لوزي التاسع على تونس 304
نزول الصليبيين بقرطاجنة 305
خطة المستنصر بالله الحفصي 305
موت لويز التاسع 306

اتفاقية المستنصر والصليبيين 306
صلة الصراع بين النصرانية الإسلام في المغرب العربي بالحروب الصليبية العامة 307
حركة الاسترجاع 326

الفصل العاشر: نتائج الحروب الصليبية 333
تأثير الحضارة الإسلامية على أوروبا 333
ما استفادته أوروبا من الحروب الصليبية 334
أثر الحروب الصليبية في العالم العربي 341

القسم الثاني: الدولة العثمانية

الفصل الأول: البدايات الأولى 379
جذور الأتراك وأصولهم 379
قيام الدولة العثمانية 391
عثمان مؤسس الدولة العثمانية 392
الدستور الذي سار عليه العثمانيون 395

الفصل الثاني: السلاطين الأوائل 403
1- السلطان أورخان بن عثمان 403
2- السلطان مراد الأول 408
3- السلطان بايزيد الأول 410
4- السلطان محمد الأول 415
5- السلطان مراد الثاني 419

الفصل الثالث: السلطان محمد الفاتح والقسطنطينية 425
1- السلطان محمد الفاتح وفتح القسطنطينية 425
2- أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي 447
3- الأعمال الحضارية لمحمد الفاتح 450
4- منهج السلطان محمد الفاتح ووفاته 459

الفصل الرابع: السلاطين الأقوياء بعد الفاتح 475
السلطان بايزيد الثاني 475
السلطان سليم الأول 480
وفاة السلطان سليم 500
السلطان سليمان القانوني 500

الفصل الخامس: الدولة العثمانية وشمال أفريقيا 507
أولاً: أصل الأخوين عروج وخير الدين 508
ثانياً: دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو النصراني 509
ثالثاً: التحالف مع العثمانيين 510

رابعاً: سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول 512
خامساً: استجابة السلطان سليم الأول لأهل الجزائر 513
سادساً: التحديات التي واجهت خير الدين 514
سابعاً: سفر خير الدين إلى اسطنبول 516
ثامناً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى 518
تاسعاً: استيلاء شارل الخامس على تونس 519
عاشراً: عودة خير الدين إلى الجزائر 520
الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف في الشمال الإفريقي 521
المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي 522
مصير شارلكان 526
وفاة حسن آغا الطوشي 526
المجاهد حسن خير الدين بربروسا 526
سياسة صالح الرايس 531
تمهيده للعمل المشترك في استرداد الأندلس 533
سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الإسبان 539
سياسة المولى عبدالله 540
المتوكل على الله بن عبدالله الغالب السعدي 548

الفصل السادس: بدء اضمحلال الدولة العثمانية 563
السلطان سليم الثاني 563
السلطان مراد الثالث 576
السلطان محمد خان الثالث 578
السلطان أحمد الأول 579
بعض السلاطين الضعاف 583
تحالف النمسا مع روسيا 595
وفاة السلطان عبدالحميد الأول وأثرها على الأحداث 596
السلطان سليم الثالث 596

الفصل السابع: جذور الحملة الفرنسية الصليبية 603
أولاً: سر قوة المسلمين 604
ثانياً: تفجير الجيوب الداخلية 604
ثالثاً: السلطان سليم الثالث يعلن الجهاد ضد فرنسا 605
رابعاً: استجابة المهدي الدرناوي الليبي لنداء الجهاد ضد فرنسا 606
خامساً: الإنجليز وأطماعهم في مصر 607
سادساً: العثمانيون وسياستهم الدولية 608
سابعاً: آثار الحملة الفرنسية على الأمة الإسلامية 611
السلطان محمود الثاني 613

السلطان عبدالمجيد الأول 643
السلطان عبدالعزيز 656
السلطان مراد الخامس 659
الفصل الثامن: السلطان عبدالحميد 661
أولاً: زيارته إلى أوروبا مع عمه السلطان عبدالعزيز 661
ثانياً: بيعته للخلافة وإعلان الدستور 663
ثالثاً: تمردات وثورات في البلقان 669
رابعاً: الحرب الروسية العثمانية 671
معاهدة سان ستيفان 673
مؤتمر برلين 675
الجامعة الإسلامية 676
السلطان عبدالحميد واليهود 695
السلطان عبدالحميد وجمعية الاتحاد والترقي 705
الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني 710
حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية 716
بشائر إسلامية في تركيا العلمانية 727
أهم أعمال حزب السلامة 732
الفصل التاسع: أسباب سقوط الدولة العثمانية 733
أولاً: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء 735
ثانياً: انحصار مفهوم العبادة 740
ثالثاً: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات 746
رابعاً: الصوفية المنحرفة 749
خامساً: نشاط الفرق المنحرفة 753
سادساً: غياب القيادة الربانية 755
سابعاً: رفض فتح باب الاجتهاد 761
ثامناً: انتشار الظلم في الدولة 762
تاسعاً: الترف والانغماس في الشهوات 765
عاشراً: الاختلاف والفرقة 766
المصادر والمراجع 785
المحتويات 787

عيسى الحسن

تاريخ العرب

من بداية الحروب الصليبية
إلى نهاية الدولة العثمانية

لم تكن الحروب الصليبية إلا صداماً عسكرياً ومواجهة حضارية طويلة ومضنية بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي. وقد بدأت هذه المواجهة في وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت أقصى مراحل نضجها وتطورها. وفي خضم الصراع تجلت عوامل الضعف في العالم العربي الإسلامي، وتجلت في الوقت نفسه عوامل القوة التي ساعدته على الصمود أمام الغزوات الصليبية والانتصار عليها. وإذ لم تكن الحروب الصليبية هي السبب في توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها فإن تلك الحروب، التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان، كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية، ثم جمودها الذي أدى إلى تخلف المنطقة العربية. إذ كان على العالم العربي أن يحشد كل طاقاته وإمكاناته البشرية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والاجتماعية والثقافية جميعاً في مجال العمل العسكري، أو العمل المعنوي والثقافي المصاحب للحرب. وهكذا، تعين على المنطقة العربية أن تعيد صياغة كل حياتها على أساس أن الحرب هي محور هذه الحياة. وعلى الرغم من هذا كله فإن العالم العربي لم يكن قد دخل بعد في منحنى التدهور، إذ كان المستقبل لا يزال يحتفظ للحضارة العربية الإسلامية بمنجزاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية.

Bibliotheca Alexandrina